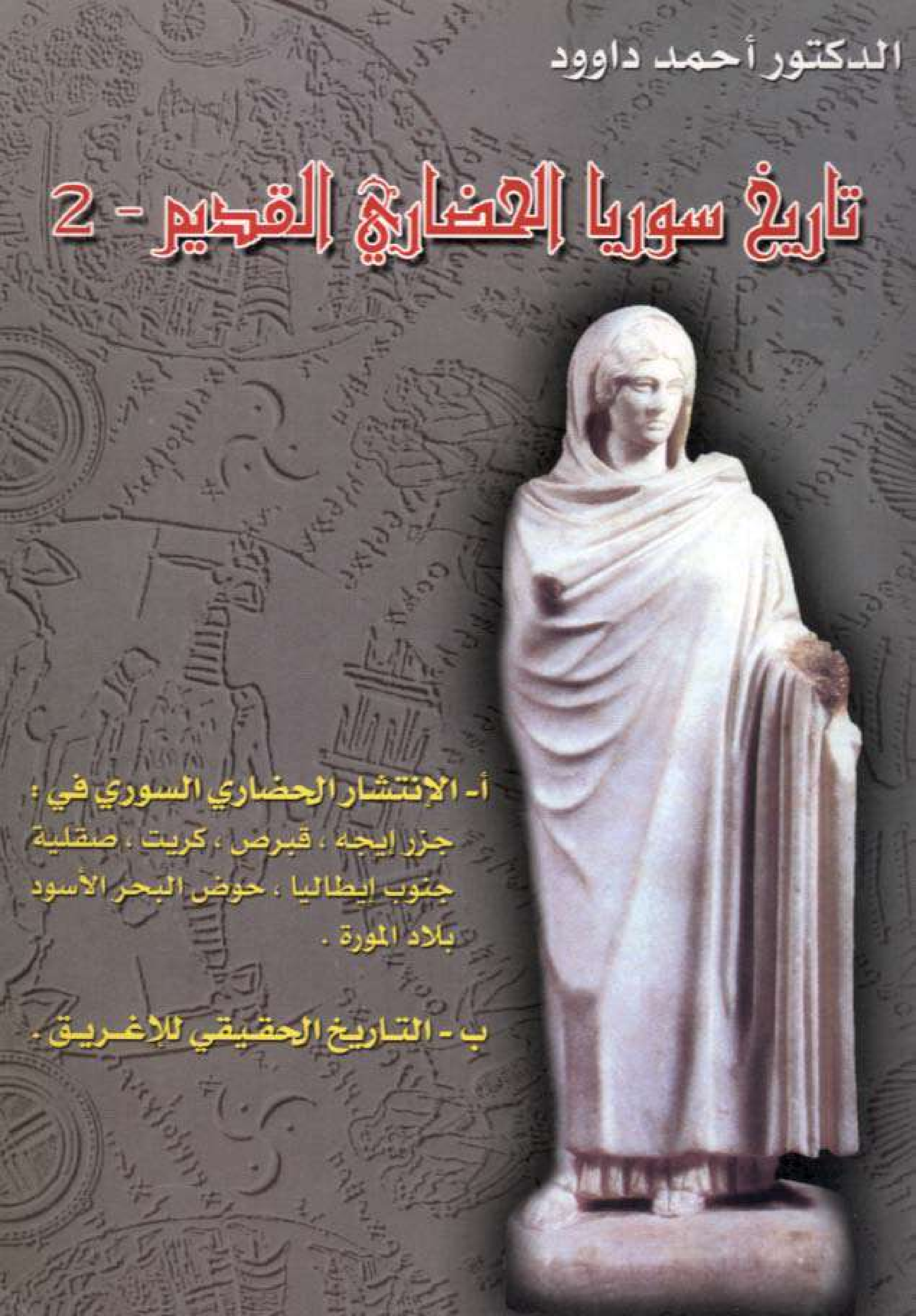

الدكتور أحمد داوود
تاريخ سوريا الحضاري القديم - 2
أ- الإنتشار الحضاري السوري في :
جزر إيجه ، قبرص ، كريت ، صقلية
جنوب إيطاليا ، حوض البحر الأسود
بلاد المورة .
ب - التاريخ الحقيقي للإغريق .



تاريخ سوريا الحضاري القديم 2

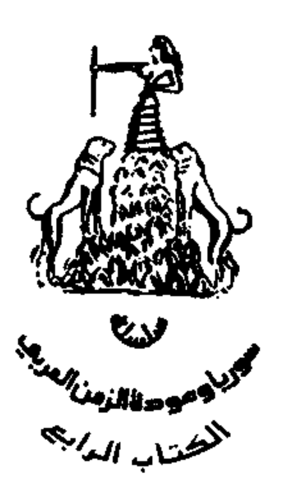
صورة الغلاف

تمثال «سباسيا»

هي إحدى أبرز النساء السوريات النازحات (أي الإغريقيات) إلى بلاد المورة بعد اجتياح جيش داريوس للشمال السوري.امتازت، إلى جانب جمالها، بسعة الثقافة وحدّة الذكاء. أحدثت في أثينا، لأول مرة في القارة الأوروبية، مدرسة لتعليم الفتيات. تزوجها المصلح النازح بركليس، فحوّلت بيتها إلى أول صالون في الغرب لاجتماع أهل الفكر والأدب والفن. القرن الخامس قبل الميلاد.

الدكتور احمد داوود

تاريخ سوريا الحضاري القديم 2



AHMAD DAOUDA

The Ancient History of Syrian Civilization - 2





الناشر : دار الشرق للطباعة والنشر

المهندس نبيل طعمة

دمشق – مزرعة

الكمية : طبعة أولى : ١٠٠٠ نسخة

التاريخ : ٨ / ٢٠٠٤ م



مدخــل

إذا كانت الحقيقة هي الكنز المفقود، وهي ضالة الإنسان العاقل منذ أن وجد على هذا الكوكب، فإنه في سعيه الدائب للوصول إليها والتعرف عليها من أجل امتلاكها سلك طريقين مختلفين، أسهما إلى حد كبير في تصنيفه بين إنسان حضاري وآخر همجي.

من الثابت والمعروف أن الحقيقة العلمية، كجزء من الحقيقة الكلية، منبثة في أرجاء الكون وفي الطبيعة المحيطة بالإنسان في هيئة قوانين عامة موضوعية تحكم حركة كل شيء. وإن في اكتشاف الإنسان لهذه القوانين من أجل التحكم بها وتسخيرها من أجل صالحه كان في حد ذاته إنجازاً ثقافياً تاريخياً عظيماً وضعه على مفترق أحد طريقين: الحضاري والهمجي، وذلك حسب الغاية أو الهدف الذي وضعه لنفسه عند امتلاكه لتلك الحقائق. لأن الغاية في حد ذاتها هي إما عادلة أو ظالمة. فإن كان امتلاك الحقيقة العلمية من قبل البعض خطوة في الطريق إلى نفي الآخر أو امتلاكه فإن هذا هو التعبير الأوضح عن الهمجية، والعكس صحيح. وكما أن إنسان العصر الحجري أنجز ثقافته الحجرية واستخدم فأسه الحجرية ظالماً مدمراً هنا، وبانياً معمراً عادلاً هناك، فإن إنسان عصرنا اليوم الذي قبض بيديه على جملة من الانجازات الثقافية المذهلة، لن يخرج عن التصنيف نفسه حسب توجهه هو وتوجيهه لمنجزات ثقافته. فهو إما همجي في استخدامه لتلك المنجزات من أجل نفي الآخر أو امتلاكه أو استعباده، وإما حضاري عند سلوكه طريق الصدق والعدل. إن هذا هو ما لخصته الآية القرآنية الكريمة في خمس كلمات: «وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً». ولقد جاهد الإنسان عبر كل مراحل تاريخه الطويل من أجل تقليص دائرة الهمجية القائمة أساساً على الظلم وتوسيع دائرة الحضارة القائمة على العدل، مستخدماً في ذلك بنى فوقية قيمية وأخلاقية أسهم في إنشائها وترسيخها كثير من الهداة والمصلحين والأنبياء وروّاد المثل والحضارة مستخدمين في ذلك عصارات فكرهم ورسالات السماء. كل ذلك من أجل تقليص فعل الغرائز في فهم الإنسان لحريته، وتوسيع دائرة فعل العقل الذي يسمو بالقيم، وينشرها من حوله في هيئة بناء، ومحبة، وسلام.

ولقد أسهم العرب، والسوريون منهم بوجه خاص، في هذا السبيل أيما إسهام. وحسبنا هنا أن نشير إلى ما ورد في رسالة البعل لشعبه السوري منذ خمسة آلاف عام، ولنتأمل في بعض عباراتها ذات الإيقاع الخالد على مر كل العصور:

«حطّم سيفك،

وتناول فأسك واتبعني،

وازرع السلام والمحبة في كبد الأرض»[1].

وإن نقلة سريعة الآن إلى عالمنا المعاصر تضعنا مباشرة أمام واقع مثير للقلق يتجلى في:

أ - إن الإنجازات الثقافية الكبيرة، التي هي في المحصلة نتيجة لجهود الإنسانية كلها عبر تاريخها الطويل، ربما تتركز الآن في قبضة واحدة أو قل في دائرة واحدة.

ب - إن هذه الإنجازات، بعد تجريدها من القيم الإنسانية النبيلة، صارت في حدّ ذاتها تشكل أكبر تهديد للحضارة البشرية، حتى أن الأمر بلغ ببعض منظريها حد الإعلان عن «صراع الحضارات، ونهاية التاريخ»[2].

ج - إن القوة المادية البحتة أخذت تجسد في حركتها على أرض الواقع العالمي ملامح الغول الهمجي الذي يدوس ويدمر في طريقه كل ما حققته الإنسانية في كفاحها الطويل من صروح للعدالة والمحبة والسلام، مطلقاً العنان للغرائز، ولشهوة التحكم والسيطرة والاستلاب.

ولسنا هنا في صدد توصيف هذا الواقع الراهن. فهذا الواقع العقلي أو الفكري الذي تبدّى اليوم على هذا النحو لم يبرز فجأة، ولم يكن ظهوره محض صدفة طارئة، وإنما هو محصلة لكثير من العوامل التاريخية الطويلة الفكرية، والثقافية، والتربوية، التي فعلت فعلها أخيراً وأدت إلى هذه النتيجة، في الوقت الذي ظلت فيه المؤسسات القائمة على رعاية وتوجيه الفكر والثقافة والتربية في العالم بعامة، وفي الغرب بوجه خاص، غافلة أو

(1) من وثائق «أوغاريت» المدينة السورية الأثارية حيث اكتشفت أقدم أبجدية في التاريخ.
(2) صموئيل هنتنجتون صاحب الكتاب الذي يحمل هذا العنوان.

متغافلة عما يضخ في عقول الناشئة جيلاً بعد جيل. وإن عملية تزوير التاريخ البشري، والدأب قروناً طويلة على كتابته بروح التعصب للغرب ضد الشرق، ثم تكريسه وترسيخه في المدارس والمعاهد والجامعات، شكلت واحداً من أهم الأسباب أو العوامل التي أوصلت عالمنا المعاصر إلى هذا الواقع.

لهذا، وانطلاقاً من إيماننا الراسخ بوحدة التاريخ الإنساني على الأرض، فإننا سنبذل كل الجهود من أجل الكشف عن شمس الحقيقة المغيبة خلف ركام من العمليات الإقسارية أو التزويرية في كتابة التاريخ. وبهذا فإن كتابتنا موجهة إلى كل إنسان وكل أمة، لأن الكتابة العلمية والموضوعية للتاريخ الإنساني هي التي من شأنها أن توحد الإنسانية، وتضيء لها درب مسيرتها الحضارية بأنوار القيم الإنسانية النبيلة التي كاد التعصب أن يحيلها إلى سراديب ومتاهات مظلمة تختبىء في منعطفاتها المصطنعة أخطاراً حقيقية تهدد الوجود الإنساني كله بشراً وحضارة.

«في هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان، وتلخص كل آسيا في سطرٍ واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع، ونقصاً فاضحاً في ذكائنا»* .

إن في هذا القول البليغ لـ «ول ديورانت» تلخيصاً للمسألة. فقد جمع فيه كل العناصر التي جعلت التاريخ الحضاري للإنسان الذي (ركبّه) الغرب منذ بدء عصر النهضة إلى اليوم يبرز في هذه الصورة المشوّهة، المقلوبة والمزورة. وهذه العناصر التي جمعها وعناها ول ديورانت هي:

التعصب الإقليمي في كتابه التاريخ (أي للغرب ضد الشرق)؛ وغياب المنهج العلمي والموضوعية؛ والجهل، أو (النقص الفاضح في الذكاء). والآن وبعد كل هذه النقائص التي شوهت كتابة التاريخ في الغرب، نسأل: هل كتب تاريخ الإغريق؟ ونجيب دونما تردد: لا.

---

* ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الأول من المجلد الأول، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، المقدمة، ص: ط.

فبالرغم من كل هذه الآلاف، المؤلفة من الكتب والمجلدات التي تغصّ بها رفوف وأدراج المكتبات في العالم كله حول تاريخ الإغريق، والتي تضافرت من أجل ترسيخها وتعميمها كل مدارس ومعاهد وجامعات العالم، كما سخرت لها كل وسائل التعميم الثقافية الأخرى من إذاعة، وسينما، وتلفزيون، فجرى فرضها وتعميمها في الغرب قسراً وعن عمد، وتم نقلها من قبل الآخرين، ومن العرب بصورة خاصة، بسذاجة منقطعة النظير. نعود فنقول: رغم كل هذا فإن تاريخ الإغريق لم يكتب بعد. ونحن هنا نزعم واثقين أن هذا الكتاب وما سيليه من كتب، ستكون الأولى التي تكشف الحقيقة التاريخية والحضارية للإغريق، معتمدين المنهج نفسه الذي اعتمدناه وما زلنا في إعادة كتابة تاريخ سوريا، والذي يتلخص في النقاط الأساسية التالية:

أولاً ـ نظرتنا إلى التاريخ:

لما كان التاريخ، في أبسط تعريف له، سجلاً لنشاط الإنسان المادي والروحي معاً، فإنه، بالتالي، العلم الموسوعي الشمولي الوحيد الذي يتناول الإنسان سيرورة وصيرورة، فعلاً وانفعالاً، في الزمان والمكان. وبكلمات أخرى: إنه يتناول الإنسان المجتمعي في تطوره، ضمن شروط وجوده الطبيعية في تطورها، وبالتالي في علاقة الإنسان التبادلية مع الآخر، من جهة، ومع الطبيعة من جهة أخرى. إنه هذه الجماعة السكانية أو تلك، وما تنتجه وتبدعه. وإنه الفكر، والفن، واللغة، والاقتصاد، والحكم، والسياسة، والإدارة، والدين، والإنتاج وأدواته؛ وإنه العرف، والعادة، والتقليد، والأخلاق، والتشريع، والحقوق؛ وإنه الطبيعة، والجغرافيا، والمناخ في علاقتها الشمولية والجزئية، مع هذا الإنسان المجتمعي أو ذاك، في هذه المرحلة التاريخية أو تلك من الزمن.

ثانياً ـ أدواتنا في كتابة التاريخ:

1- علم الإنتروبولوجيا:

بكل ما يتضمنه من علوم حول الإنسان كعرق أو كجنس، ومواصفات جينية وبيولوجية، وما أنتجه من عادات وتقاليد وشرائع، وما خلفه من آثار، ورسوم، وصور، وعملة ليجملها علم الآثار؛ وكل ما تركه من لغة، وكتابة، ووثائق.

2 – الكشف عن مواقع عملية التواصل التاريخي:

لهذه الجماعة السكانية أو تلك، لهذه الظاهرة الحضارية أو تلك، مما يحدّد مواقع نشوئها واستمرارها، وشروط أو ظروف انتقالها أو انتشارها في المكان والزمان، ويكشف، بالتالي، توجهات تراكماتها الكمية وصولاً إلى التحول النوعي.

3 – علم الكرونولوجيا:

الذي بواسطته يتم تحديد زمن حدوث هذا الحدث التاريخي أو ذاك، وبالتالي أسبقية هذه الجماعة أو تلك في الوجود التاريخي، أولاً، وفي الإبداع الثقافي والحضاري ثانياً، ضمن عملية التواصل التاريخي المستمر. إن هذا شرط أساسي لا بدّ منه من اجل تحديد أماكن وجود الإبداع الحضاري الأصيلة والوقوف على مناحي تحرّك دوائرها وانتشارها.

إن إنجازات العلوم التطبيقية ما تنفكّ تقدم الوسائل الناجعة في تحديد عمر المادة الأثرية التاريخية بدقة شبه كاملة، وليس الكربون المشع 14 إلا واحداً منها.

وجدير أن ننبّه هنا إلى أن علم الكرونولوجيا لم يعد قاصراً على تحديد عمر المادة فقط، بل تعدّاه ـ وهذا ما صار واجباً وضرورياً اليوم ـ إلى حقل الظواهر الطبيعية والمناخية المتميزة في الزمن، وتجاوز ذلك كله إلى المفاهيم الجيوسياسية التي يضعها الإنسان لأغراض معينة في هذه المرحلة التاريخية أو تلك من الزمن. ولإيضاح ذلك نقول إنه لا يجوز للمؤرخ أن يتعامل مع منطقة جغرافية كشبه جزيرة العرب بعد تصحّرها كما لو أن ظاهرة التصحّر كانت ملازمة لها منذ البداية. إن هذا من شأنه أن ينقض المعطيات العلمية الصحيحة لعلم الجغرافيا والمناخ، الذي هو أحد العلوم المساعدة لعلم التاريخ، ويفضي، بالتالي، إلى الخطأ الفادح في كتابة التاريخ وتفسير أحداثه، وهذا تحديداً هو ما سقط فيه معظم المؤرخين حين جزموا بأن تاريخ العرب هو تاريخ مجموعة مما أطلقوا عليه تسمية «السامية» البدوية من شبه الجزيرة العربية إلى المناطق المحيطة بها كالهلال الخصيب وغيره.

ومن جانب آخر إن على المؤرخ الذي يتحدث عن تاريخ سوريا القديم مثلاً، أن يتجنب الوقوع في شراك المصطلحات الجيوسياسية التي أسقطت حديثاً على المنطقة مثل «الشرق» و«الشرق الأدنى» و«آسيا الصغرى» لأغراض سياسية استعمارية لم تعد اليوم خافية على أحد، ليس أقلها خطراً وتزويراً إلغاء اسم «سوريا» من التاريخ تمهيداً لدفع المشروع الإمبريالي ـ الصهيوني الحديث على أرض المنطقة.

لقد لعبت هذه المصطلحات الجيوسياسية دورها المطلوب منها في إفراغ المنطقة من أي ذكر لوجود الشعب السوري العربي الذي يمتد وجوده الأصيل دونما أي انقطاع إلى زمن وجود الإنسان العاقل الأول، ليتمّ بعد ذلك إسقاط العشائر التوراتية البدوية مثل عشيرة كنعان الحاميّة وأبنائه من حثيين، وحويين، وصيدونيين، وفرزيين وغيرهم، إلى جانب العشائر التوراتية البدوية الأخرى كالأراميين، والحوريين، وعشيرة المصريين، والقيداريين، والمديانيين وغيرهم...

كل ذلك لإبراز عشيرة بني إسرائيل البدوية المتخلفة على الساحة بين تلك العشائر، وقد كنا فنّدنا هذا التزوير في كتابنا الثاني[1].

وحسبنا هنا أن نورد ما كتبه الباحث الفرنسي بيير روسي المتخصص بحضارة الإغريق بهذا الصدد: «إنه هوسنا المحبّ للخصام الذي بدأ تفريق الشعب إلى شعوب... ولماذا؟ لأننا معنيون بأن نميز فيهم خصوصيات عرقية أو طائفية تجبرنا على أن نضع بينها العبرانيين، وذلك لكي نقدم الدليل بكل ثمن على صحة العهد القديم...»، «والمذنب الثاني هو التعليم الجامعي المتفرق منذ النهضة، والذي كان الوحيد لصالح أثينا وروما... اللتين غدا الأوروبي من خلالهما، منذ القرن الخامس عشر معتقداً أنه اكتشف ذروة مثالياته، واعتباراً من هذا القرن توقفت الثقافة الأوروبية عن الاهتمام بالعرب لكي ينهاروا في الرمل ولكي ينسحبوا شيئاً فشيئاً إلى حيث يغدون من قبل الغرب في القرن العشرين مختصين بالجمل والقبيلة والثأر والبداوة...»، «فإذا ما أبعدنا عنا الهوى، وإذا ما أنعمنا الفكر من اجل أن نرى بوضوح وليس من اجل أن نكتفي بالأفكار المتوارثة وإذا كنا عازمين على أن لا نستعير شيئاً من أحلامنا فيجب علينا عندئذٍ أن نعرّف العروبة كثقافة الشرق الوحيدة، وأن نشرع في إبراز أنوار هذه الثقافة بإعادة النظر فيما كانوا قد علمونا إياه تحت عنوان «الشرق واليونان» ولن نصل إلى ذلك إلا بشرط إبعاد النظرة غير المناسبة والجزئية للشرق التي تلقيناها عن أساتذتنا»[2].

---

(1) راجع كتابنا «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود».

(2) بيير روسي، مدينة ايزيس التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة فريد جحا، إصدار وزارة التعليم العالي، الطبعة الأولى، دمشق، 1980 ص. 31، 34، 35، 56.

4 - علم المنطق:

لما كان الفعل الإنساني فعلاً عقلياً فهو حكماً فعل واعٍ وهادف. فهو يعكس الواقع من أجل فهمه وتغييره، وهذا بالتحديد ما ميز الإنسان عن باقي الحيوان. إن أي فعل عقلي هو في جوهره فعل منطقي، ينطلق أساساً من واقع قائم يمرّ في الذهن عبر محاكمة منطقية من اجل خلق واقع آخر جديد. إنه الانتقال مما هو كائن إلى ما هو قابل أن يكون في خطوة منطقية، وهذا بالضبط ما يوفر العنصر الأساسي الآخر في العملية التاريخية ونعني بها عملية التواصل التاريخي. إن الواقع، أي واقع راهن، ليس إلا محصلة لعملية من التواصل التاريخي الطويل. وإن أي حدث تاريخي الآن لا بد أن يؤسس على هذا الواقع وينطلق منه ليمتد على المستقبل فعلاً وتأثيراً. إن الإنسان البدائي قطع بصورة عشوائية الكثير من الأشجار دون أن يشكل فعله حدثاً تاريخياً. لكنه، مثلاً، حينما وقف على ضفة نهر لا يعبر، ورأى خشبة طافية محمولة على ماء النهر، وفكر في أنه إذا ما جوّفها وامتطاها ربما تحمله وتنقله من مكان إلى مكان، كان ذلك حدثاً تاريخياً له ما بعده. لقد أسّس في هذا لأن يصنع زورقاً ومن ثم سفينة.

ونحن حينما نتحدث عن استخدام علم المنطق في محاكمة الأحداث التي تصلنا كأحداث تاريخية فإننا نعني المنطق بكل وجوهه وأشكاله. فما دام المنطق قابعاً، كما رأينا، في صميم الحدث التاريخي فليس يحق للمؤرخ إغفاله عند محاكمته لأي حدث سواء أكان الأمر متعلقاً بالحدث التاريخي نفسه، بطبيعته وأسبابه، أو بطريقة تفسيره والبناء عليه. إن هذا من شأنه أن يسقط حتماً ما يدعى بـ «المعجزة» ودورها في صناعة التاريخ أو في تفسير أحداثه ويترك المجال واسعاً أمام اكتشاف فعل القوانين العلمية التي تنظم العملية التاريخية ككل.

5 - المعرفة الصحيحة بالقوانين الموضوعية:

التي تحكم العملية التاريخية، ومن بين أهمها: قانون جدل الجديد والقديم، وقانون جدل الخارج والداخل، وقانون التراكم الكمي الذي يؤدي إلى التحول النوعي.

ونضيف إلى هذا كله القانون الذي يحكم العلاقة الجدلية بين «الثقافي» و«الحضاري». إن المعرفة الصحيحة بهذه القوانين الموضوعية التي، إلى جانب بعض القوانين الأخرى، تحكم سير العملية التاريخية وتعيّن اتجاهها، تتيح لنا سبر وتحديد المواطن الأولى للثقافة وللحضارة، كما تمكننا من تتبعها في مظاهرها كلاً أو جزءاً في مواقع انتشارها. وبواسطة هذه المعرفة الصحيحة وحدها يمكن التمييز بين الحضارة الأصيلة والأخرى الوافدة في هذا الموقع أو ذاك وخلال هذه الفترة أو تلك من الزمن.

6 – علم اللغات أو اللسانيات:

لما كانت اللغة تلازم الإنسان منذ أن بدأ العيش في جماعة، وتتطور معه، حاملةً كل هواجسه، وأفكاره، وخبراته، ومعاناته، وإبداعاته، وتصوراته، فإنها تبقى ملتصقة بكل ما أحاط ويحيط به وما أنجزه وينجزه في هيئة كلمات ومسميّات وتعابير، تكون بمثابة البصمات النفسية والفكرية التي تعكس علاقته الجدلية بواقعه التاريخي المحيط به، وتحمل في الوقت نفسه، ومن جيل إلى جيل، ملامحه النفسية والثقافية والحضارية في علاقتها الجدلية مع الملامح الموضوعية للواقع التاريخي المعاش والمحيط به، فإنها، أي اللغة، بالتالي، هي وحدها التي تحدّد لنا هويته القومية وهوية إبداعاته نفسها.

وبناء على هذا فإن الجهل باللغات القديمة لشعوب المشرق العربي أوقع المؤرخين طيلة القرون الماضية في أخطاء كبيرة كان من بين أهمها:

- تقسيم الشعوب ولغاتها إلى مجموعات تقسيماً لا يقوم على أي أساس موضوعي وتاريخي ولا يمت إلى البحث العلمي بأية صلة.
- وإن الجهل بتاريخ ا لمشرق العربي القديم أوقعهم في متاهات الخلط بين اللغة الواحدة ولهجاتها، وبينها وبين كتاباتها.

إذ من الثابت والمعلوم أن اللغة تعيش في لهجات قليلة أو كثيرة، أساسية وفرعية، وتبقى اللهجات ضمن حدود تسمياتها، ولا يصح أن يطلق عليها اسم «اللغة». فهي جميعها، مهما تعددت وتباينت، تبقى منتمية إلى لغة واحدة هي اللغة الأم.

ثم إن اللغة شيء والكتابة شيء آخر. فاللغة ـ كما ذكرنا ـ تنشأ مع الإنسان منذ بداية عيشه في جماعة وتتطور معه، أما الكتابة فاختراع واعٍ أملته ضرورة التطور التاريخي في مراحل لاحقة قد تكون بعد عشرات الآلاف من السنين من عمر تطور اللغة المحكيّة في شكل علامات أو صور تتبدل أو تتطور وتبقى اللغة واحدة. وإن الكتابة الأبجدية، أي الكتابة التي تحلّل الكلام في اللغة إلى أصوات، تحصرها، ثم تصورها، أي ترسم علامة لكل صوت من أصواتها تدل عليه، هي وحدها التي تكشف لنا حقيقة هذه اللغة المحكية أو تلك وتحدّد لنا هويتها القومية. أما ما قبل الكتابة الأبجدية فإن الأسماء المحفوظة في ذاكرة الأجيال المتعاقبة للمدن، والأرباب، وللمواقع الجغرافية، وللمتميزين من الأجداد والأفراد والأبطال... هي أفضل ما يمكن اللجوء إليه من أجل تحديد الهوية القومية أو اللغوية لأصحابها. وهذه الحقيقة أخذت تبرز مؤخراً ويتعاظم شأنها في عملية البحث التاريخي كما في عملية كتابة التاريخ. خاصةً وأن المرحلتين الأوليين من مراحل اختراع الكتابة ما قبل الأبجدية لا يمكن الركون إليهما في هذا المجال، إذ أن الكتابة التصويرية الأولى كانت تصور أفكاراً لا أصواتاً، وإن ما دعي بـ «الكتابة المقطعية اللاصقة» كانت تعتمد على اجتراح مقاطع كثيرة يجري التعارف عليها في أطر ضيقة، كالمعبد مثلاً، وتختلف في عددها من مكان لآخر ومن زمان لآخر. فهي، إلى جانب كونها ليست لغة محكية، فهي أيضاً لا تصوّر أصوات اللغة التي يتكلمها الشعب بمن فيهم رجال المعبد أنفسهم، ولهذا فقد بقيت هاتان الكتابتان نوعاً من «الشيفرة» الخاصة والمستخدمة في أطر جد ضيقة، كدائرة المعبد، في التاريخ القديم، ويتعلمها أناس منتخبون تحت إشراف رجال المعبد أنفسهم.

لقد تنبّه الباحثون والمؤرخون في العقود الأخيرة من القرن الماضي إلى أهمية اللغة ودورها في عملية الدراسات والأبحاث التاريخية، بحيث أضحت اليوم في المقدمة، بعد أن ظلت هامشية، أو مغفلة، أو قائمة على أسس من التخمينات أو الفرضيات المغلوطة.

لهذا فإن اللغة سوف تواكب كل سطور هذا الكتاب وصفحاته كما واكبتها في أبحاثنا وكتبنا السابقة.

ومن بين أهم مرتكزاتنا اللغوية في هذا الكتاب والتي أوليناها الكثير من الاهتمام والتركيز «علم الأسماء والألقاب».

7 ـ علم الأسماء والألقاب:

وسنرى كيف أن كل تلك الأسماء التي أطلقها العرب الأقدمون، والسوريون تحديداً، إنما هي ألقاب تلبس أصحابها وتعبّر عنهم، وهي تشمل أرباب الأسر، والأرباب المعلمين، والآلهة، كما تشمل أسماء الأشخاص وأبطال الأساطير، وأسماء المدن وكل المواقع. والأهم من هذا، هي أنها جميعاً عربية سريانية Syrian، ولا معنى لأي منها بأية لغة أخرى في هذا العالم.

إن هذا في حد ذاته، وكما هو واضح، فرع من علم اللغة. لكننا، ولشدة أهميته في عملية البحث التاريخي، أوليناه كل ما يستحق، وربما للمرة الأولى في التاريخ، من اهتمامنا، وذلك بإرجاع كل الأسماء الألقاب وكل التسميات إلى صيغها القديمة الصحيحة، مستخدمين في ذلك علم تطور وتغير الأصوات من شعب إلى شعب ومن منطقة إلى أخرى عبر الزمن، فيتمّ بذلك تخليصها من كل ما لحق بها من شوائب، ومن تحوير أو تبديل في بناها الصوتية مما أفقدها مضامينها ودلالاتها التاريخية الصحيحة.

وإن هذا أيضاً ساعدنا في عملية فرز الأسماء والألقاب التاريخية الثابتة والصحيحة عن مجموع الأسماء والتسميات «المؤرخانية» المحدثة، التي، عن وعي أم عن غير وعي من أصحابها، غيّبت الكثير من حقائق التاريخ.

وإلى جانب هذا، وفوق هذا، فإن علم اللغات القائم على أسس معرفية صحيحة يتيح للباحث الجاد إمكانية التعامل بدقة وعلمية وموضوعية مع المفاهيم التاريخية، والتمييز الدقيق فيما بينها. ونضرب على ذلك مثال «الثقافي» و«الحضاري» اللذين تعرضا كمفهومين إلى عملية خلط ظالمة في معظم كتب التاريخ المتداول إلى اليوم.

لهذا فإننا كلما ولجنا باباً من أبواب هذا الكتاب فإننا سوف نتعرف عليه وفي يدنا حزمة من الأضواء الكاشفة هي كل تلك العناوين أو الأدوات المعرفية التي سبقت الإشارة إليها.

8 - وفي أخر هذه النقاط:

وربما الأصح أن نقول: وفي مقدمة هذه النقاط جميعاً، لابدّ من توفر المعرفة التاريخية الدقيقة والصحيحة بالتسميات التي عرف بها هذا الشعب أو ذاك، هذه الجماعة السكانية أو تلك، المعرفة التي من شأنها أن تمكن الباحث أو المؤرخ من الوقوف بثقة أكيدة على الحدود الفاصلة بين التسميات الأصيلة التي عرفت بها الشعوب منذ بداية وجودها التاريخي إلى اليوم وبين التسميات الأخرى المصطنعة والموضوعة لاحقاً ومن الخارج، بين التسمية الكلية الأصيلة الجامعة التي عرف بها واشتهر شعب من الشعوب والتسميات الجزئية التي دأب المؤرخون على ترسيخها حتى طغت أو كادت تطغى على التسمية الأصيلة والأصلية كما حدث بالنسبة لسوريا ولسكانها العرب السوريين وطغيان تسميات بعض أجزائها.

وإن من شأن توفر ذلك الشرط المعرفي أيضاً أن يكشف زيف تلك التسميات العرقية المخترعة حديثاً من قبل منظري النظم الاستعمارية في القرون الأخيرة مثل «العرق الآري» أو «الهند- أوروبي» أو «العرق المتوسطي».. وإسقاطها، كما يكشف زيف التسميات الأخرى، ولاسيما الجيو- سياسية منها، التي أسقطت حديثاً لأغراض لم تعد خافيةً على أحد، وفي مقدمة تلك الأغراض تغييب الهوية التاريخية للشعب الأصيل مثل: الشرق الأدنى، الشرق الأوسط، آسيا الأمامية، آسيا الصغرى وغيرها.

ولما كان اختراع مثل تلك التسميات العرقية، أو الشعوبية، أو الجيو- سياسية، وإسقاطها قسراً على المنطقة سكاناً وجغرافيا، وبالتالي ثقافةً وتاريخاً وحضارةً، فقد اختلط، جراء هذا، ما هو صحيح بما هو خاطىء، ما هو أصيل بما هو مخترع وزائف، وأسهم إلى الحدود القصوى في تغييب الحقيقة التاريخية الثقافية والحضارية لسكان المنطقة الأصليين، وبالتالي فقد أسهم إسهاماً كبيراً في عملية التزوير الكبرى التي تعرض لها التاريخ البشري بوجه عام، وتاريخ سوريا بوجه خاص.

لهذا فقد رأينا أن تكون البداية مع جلاء الحقيقة التاريخية لبعض أهم هذه التسميات، وهي: سوريا والسوريون، آسيا الصغرى، الفينيقيون، الإغريق، وذلك في ضوء علوم الإنسان (الانتروبولوجيا) وكلّ العلوم الأخرى المساعدة لعلم التاريخ وفي مقدمتها علم الجغرافيا والمناخ، دون أن نغفل انعكاس فعل القوانين العامة الناظمة للعملية التاريخية، وبالأخص منها تلك التي تحكم جدلية الداخل والخارج.

القسم الأول

الفصل الأول

I

سوريا والسوريون

كنا قد تحدثنا في كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم ـ المركز» كيف أن العلماء صاروا يجمعون اليوم على حتمية وجود مركز ما فيه وجد الإنسان العاقل وفيه عمل وعاش وتكاثر وأبدع وأنتج ثقافة الإنسان الأولى على وجه الأرض، ومنه شعّ وانتشر إلى باقي جهات العالم القديم بشراً وثقافةً. ولقد أثبتنا بما لا يبقي أي مجال للشك أن المشرق العربي القديم هو مهد ذلك الإنسان ومهد ثقافته وإبداعاته، واستخدمنا في التوصل إلى ذلك كل معطيات علوم الإنتروبولوجيا، بما فيها الآثار والوثائق، وكل العلوم المساعدة لعلم التاريخ، بما فيها المنطق وعلم الجغرافيا والمناخ، وتوّجنا ذلك كلّه باستخدام علم اللغات واللسانيات الذي هو بإجماع كل العلماء اليوم أصلح العلوم لمعرفة الأصول السكانية والأعراق ومركز نشوء الحضارة الذي منه انتقل الإشعاع إلى غيره من الأنحاء، ذلك لأنه، مهما قيل في كل المعايير الأخرى، فإنه يستحيل القول إن الظروف أو الشروط الواحدة التي تكتنف جماعتين من الناس في بقعتين مختلفتين أو متباعدتين يمكن أن ينتج عنها لغة واحدة.

«إن الظهور الأول للإنسان العاقل كان في منطقة الشرق العربي. وقد جاء هذا الإنسان نتيجة تطور فيزيولوجي وحضاري بطيء ومحلي أصيل»[1]، «لكن من المؤسف أن هناك من يرفض هذه الحقيقة، و يصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي القديم مدفوعاً باعتبارات عنصرية لا تمت إلى جوهر البحث العلمي النزيه بصلة»[2]. وقد عرف هذا المشرق العربي القديم بعدة تسميات أصيلة كان منها تسمية «آسيا» أحد أسماء الأم السورية الكبرى عشتار، واسم «سوريا» كما عند هيرودوت الذي كثيراً ما استخدم اسم «سوريا» بدلاً من «آسيا» في تاريخه، ثم تسمية «آسيا الأمامية» و«الهلال الخصيب» عند المؤرخين المحدثين.

---

(1) سلطان محيسن، عصور ما قبل التاريخ، دار المستقبل، دمشق، 1986 - 1987 ص168

(2) المرجع نفسه ص 16

يقول يوهارد برينتيس: «لقد ظهرت الزراعة في آسيا الأمامية لأول مرة في العالم، وفيها ظهرت تربية الحيوان أيضاً، وتشكلت فيها القرية والمدينة، وظهر العلم والأدب، ونشأت منابع الحضارة والتراث الأوروبيين»[1].

«لقد قامت الثورة الزراعية في آسيا الأمامية قبل غيرها، ومنها انتشر تأثيرها إلى أرجاء العالم القديم كافة. أما في أوروبا فقد حدث الانتقال إلى المجتمع الطبقي متأخراً عن قيامه في آسيا الأمامية بآلاف السنين»[2]. «فلقد قامت فرنسا وبريطانيا اللتان احتلتا مساحات واسعة من آسيا الأمامية بعد الحرب العالمية الثانية بأبحاث أثرية في هذه المنطقة بحرية تامة... أما في تركيا وإيران الواقعتين إلى الشمال من آسيا الأمامية واللتين بقيتا خارج نطاق الاحتلال، فقد جرت العملية نفسها التي جرت في الدول العربية المستقلة بعد الحرب العالمية الثانية... وقد عثر على الأدلة التي تؤكد أن آسيا الأمامية بالذات هي مهد الحضارات»[3]. و«إن الزراعة وتربية الحيوان بدأتا في هضاب الهلال الخصيب» و«إنه بالنسبة للإنسان المعاصر فإنه يشعر أن الناس الذين عاشوا في الحضارات الشرقية القديمة أو العالم القديم هم أقرب إليه بكثير لأنهم عاشوا في مدن، وبنوا بيوتاً ومسارح»[4].

إن هذه الحقيقة تؤكد أن تراث شعب هذه المنطقة هو أقدم تراث إنساني على وجه الأرض. وإن هذا التراث بأجمعه، سواء ما نقل منه شفوياً حتى زمن الكتابة، أو ما حفظ مدوناً بعد الكتابة، بوثائق دينية أو اجتماعية أو اقتصادية، يؤكد أن اسم «سوريا» و«السوريين» أقدم تسمية لشعب عرفه التاريخ البشري، كما سوف يتبيّن لاحقاً.

وفوق هذا، إنه لم تتوفر لشعب من الشعوب من مقومات الوحدة في السكان، واللغة، والأرض، والدين، والثقافة، والتراث... ومن أسبقيتها جميعاً في الزمن، من جهة، وفي المدى من التواصل والاستمرارية، من جهة أخرى، كما توفّر لسكان هذه المنطقة السوريين Syrians أو السريان. وهذا ما سوف نثبته من خلال:

(1) يوهارد برينتيس، نشوء الحضارات القديمة، ترجمة جبرائيل يوسف كباس، دار الأبجدية، دمشق، ، 1989 الطبعة الأولى، ص5.
(2) المرجع نفسه، ص7.
(3) المرجع نفسه، ص9.
(4) المرجع نفسه، ص6.

أولاً ـ اللغة:

إن البشرية جمعاء تطلق على الجيل الأول من الإنسان العاقل اسم «آدم» و«حواء» (التي صارت في بعض اللغات Eva نتيجة لتحوير الأصوات من لغة إلى أخرى)، سواء أكان التصور لهما زوجين أو مجموعة من الناس.

وغني عن القول إن هاتين التسميتين عربيتان صميمتان، وليس لهما أي معنى بأية لغة في العالم إلا بالعربية، وبلهجتيها السريانية والعرباء (الفصحى). وفي التراث العربي السوري، الذي هو أقدم تراث على وجه الأرض، نجد أن القوة الخالقة (سواء أكانت فرداً ام جماعة) التي تولت عملية خلق الإنسان بإذن ربها، لم تخلقه من عدم، وإنما تدخلت في واقع مخلوق بهائمي كان موجوداً، فقدرت بتدخلها مصيره الجديد، أي واقعه الجديد، و«ربطت عليه صورة الآلهة» أي صورة القوة التي تولت خلقه:

«فتدبّر الرب أنجي الأمر، وقاد جميع (القوى) الصانعة الماهرة، اللائقة، وقال لأمه نمو:

...، يا أمّاه، إن المخلوق الذي نطقت باسمه موجود فاربطي عليه صورة الآلهة

... يا أماه، قدّري مصيره،

وستربط «نن ماح» عليه صورة الآلهة. إنه الإنسان»[1].

إن هذا النص الذي يعود تدوينه إلى أكثر من خمسة آلاف عام يؤكد لنا أن هذا المخلوق الجديد (الإنسان) فيه شبه من خالقه. والسؤال الآن: بأي شيء كان وجه الشبه هنا بين الخالق والمخلوق؟ إنه بالقدرة على الخلق والإبداع فقط. إذ بهذا وحده تميّز المخلوق الجديد عن الكائن البهائمي القديم. إنه بكلمة واحدة: بالعقل. فالعقل وحده في الإنسان هو الخالق وهو المبدع.

إن اللغة العربية السورية (أو السريانية) هي وحدها التي حملت لنا في صدرها مضامين ثلاث تسميات لهذا الكائن الجديد تعبر كل منها عن جانب منه: إنه جيل من الناس وليس فرداً، وإنه شبيه بخالقه، وإنه خالق، صانع، ماهر.

(1) صموئيل كريمر، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مكتبة المثنى، بغداد، ص 199.

هذه التسميات هي على التوالي: أنشأ (أو أنشين) أو إنسان، آدم، وأومان.

ففي القاموس الكلداني (والكلدانية هي السريانية أيضاً) نجد أن كلمة «أنش» هي في الأصل اسم جمع ومفرد، مثلها مثل «إنسان» في العرباء (الفصحى) وتعني: ناس، قوم، عشيرة، جماعة...

وإن كلمة «آدم» هي في أصلها «دم» وتلفظ بالسريانية «دمو» وتعني: السيد كما تعني الأصل، الشخص، المثيل، الشبيه، النظير، الند، الدم، العشيرة... والهمزة للتعريف. ومؤنثه «دميتا» بالسريانية، و«دمية» بالفصحى، وتعني: المثيلة، الشبيهة، نسخة الشيء المستنسخ ولو بصورة مقزمة عنه. و«دمو» أو «ديمو» تجمع بالسريانية «ديمي» أي الأشخاص، الناس، النظراء، الشبيهين...إلخ. و«دومينو» تعني المسوّد، صاحب السيادة أو السؤدد، و«دومينا» هو لقب الإمبراطورة السوريّة الحمصية جوليا دومنا التي أسّست لحكم الأباطرة الحمصيين في روما، ويعني: السيدة، صاحبة السيادة. و«دومنوت»: سيادة، عظمة، سؤدد. ومنها جاء الفعل فيما بعد في اللغات الأوروبية Dominat بكل اشتقاقاته ويعني السيطرة، السيادة.

ومن «دم» أو «دمو» أي السيد، المشابه للرب جاءت «داما» dama بمعنى السيدة، التي انتقلت مع السوريين إلى اليونان، ثم إلى السلافية والروسية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى، كما جاءت كلمة «مدام» madam .

أما كلمة «أومان» فتعني بالسورية (السريانية): الصانع، العامل، الخالق، الحاذق، الماهر، المحتال، الخبير، المبدع ... «أومنوت»: صناعة، حذاقة، مهارة، إبداع، حيلة، حرفة...

وقد رحلت هاتان الكلمتان «أومان» و«أومانوت» مع السوريين إلى كل بلدان أوروبا بعد إضافة هاء التعريف الفينيقية فصارتا: هـ + أومان = Human أي الإنسان، وهـ + أومانوت = Humanity أي الإنسانية، دون أن يعرفوا مضمونها[1].

(1) لقد اعتمدنا القاموس الكلداني - العربي للمطران يعقوب أوجين منا في شرح كل ما سوف يمر معنا من كلمات سورية أو إغريقية، وكنا قد أثبتنا في كتابنا الثالث أن الكلدانية هي نفسها السومرية والأكادية والبابلية والأشورية. وبكلمة واحدة: هي السريانية.

وإن التراث العربي السوري جميعه يؤكد أن «آدم»، الفرد أو الجماعة سيّان، كان في «جنّته الأرضية» حيث تم خلقه يتكلم العربية (أي العرباء، الفصحى)، ثم «لما أهبط منها تحول لسانه إلى السريانية»[1]. فالسورية (أو السريانية Syrian) لازمت بني آدم منذ بداية تجمعاتهم الأولى.

ولا بدّ هنا لنا من التمييز بين «آدم» الإنسان العاقل الأول، وبين «آدم» الرسول، الذي يعود زمنه إلى حوالي ستة آلاف عام قبل الميلاد، والذي كثيراً ما يخلط الناس، وحتى المثقفون منهم، بينه وبين آدم الجنس العاقل الأول. إنه «آدم» الرسول الذي ذكره القرآن الكريم في سورة آل عمران **﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾**[2].

فاصطفاء الشيء يكون من جنسه، والاصطفاء هنا تحديداً هو من أجل تبليغ رسالة. فالأنبياء والرسل هم جميعاً مصطفون ومختارون من ربهم لتبليغ رسالته. وتبليغ الرسالة لا يصح إلا بوجود المبلّغ الذي هو الرسول والمتلقي الذي هو قومه.

والجانب الآخر الذي تبينه هذه الآية، والذي لا يقل أهمية، هو أن آدم الرسول، هو أبو الأنبياء والرسل المعروفين في التراث العربي. ففي قوله تعالى: (ذرية بعضها من بعض) تأكيد على أن نوحاً من ذرية آدم الرسول، وأن إبراهيم من ذرية سام بن نوح، وأن موسى وعيسى ومحمداً من ذرية إبراهيم. لكن تلك الذرية جميعها كانت سريانية، وتكلمت السريانية إلا محمداً. فمنذ أن تحول إسماعيل بن إبراهيم عن السريانية إلى منطقة اللهجة العرباء (الفصحى) عند مكة صار من العرب المتعرّبة التي جاء منها محمد صلّى الله عليه وسلّم. إن هذا هو ما تؤكده آية أخرى: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين. وإنه لفي زبر الأولين﴾**[3]. ومن المعلوم أن «زبر الأولين» كانت بالسريانية، أما القرآن الكريم فهو الكتاب السماوي الوحيد الذي جاء بلسان عربي مبين، أي فصيح، أي بالفصحى.

(1) المسعودي، أخبار الزمان، دار الأندلس، بيروت، ص72.

(2) آل عمران: 33 – 34.

(3) الشعراء 192 – 196.

إن هذا هو ما يؤكده الحديث الشريف: فقد أورد الطبري في تاريخه حديثاً عن أبي ذر الغفاري قال: «قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يا أبا ذر أربعة من الرسول سريانيون: آدم وشيث ونوح وإدريس»[1]. إن في هذا القول الصريح للنبي العربي محمد صلّى الله عليه وسلّم تأكيداً لثلاثة أمور جوهرية:

الأول: هو أن السوريين أو السريان هم المتلقي لهؤلاء الأنبياء والرسل منذ الألف السادس قبل الميلاد على الأقل، أي منذ عهد آدم الرسول.

الثاني: هو أن السورية (أو السريانية) كانت هي اللغة الجامعة للشعب العربي في تعامله الشفوي والكتابي منذ سبعة آلاف سنة على الأقل. والدليل هو أن الكتاب الذي أنزل على آدم الرسول كان بالسريانية، ويدعى «كنزا رابا»[2] أي الكنز الكبير. وهو الكتاب الديني الذي اعتمده، وما يزال، المندائيون الذين نزحوا منذ الزمن الموغل في القدم من جوف شبه جزيرة العرب إلى جنوب العراق.

الأمر الثالث: والمهم هنا، هو أنه ما دام نوح كان سريانياً، يتكلم السريانية، فإن ابنه سام بن نوح، تكلم لغة أبيه وأمه، ولم يخترع لغة حتى يدعوها المستشرقون والتوراتيون بـ«اللغة السامية» وأن آرام بن سام بن نوح، بالتالي، لم يخترع هو الآخر لغة، حتى يدعوها المستشرقون المغرضون والتوراتيون بـ «اللغة الآرامية»، بل تكلم لغة آبائه، كما تكلم إبراهيم فيما بعد لغة آبائه الذي يؤكد التراث والتاريخ العربيان أنه آرامي النسب وكان يتكلم السريانية.

يقول الطبري: «ولما هلكت ثمود قيل لسائر بني آرام أرمان، فهم النبط. فكل هؤلاء كان على الإسلام (أي التوحيد) وهم ببابل حتى ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح، فدعاهم إلى عبادة الأوثان، ففعلوا، فأمسوا وكلامهم السريانية ثم أصبحوا وقد بلبل الله ألسنتهم»[3]. و«عن ابن عباس قال: لما هرب إبراهيم من كوش وخرج من النار كان لسانه يومئذ السرياني»[4].

(1) أنظر تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1983 الجزء الأول، ص 161 .

(2) انظر: ناجية مراني، مفاهيم صابئية مندائية، تاريخ، دين، لغة، شركة التايمز للطبع والنشر، بغداد، 1961.

(3) تاريخ الطبري، الجزء الأول، ص 143.

(4) المرجع نفسه، ص 218.

ولهذا، وجرياً على عادتنا في التصحيح، فإننا، في هذا الكتاب، سوف نستخدم لفظة «سورية» أو «سريانية» في كل المواضع التي يستخدم فيها المستشرقون والتوراتيون لفظة «آرامية» كدلالة على اللغة.

أما من حيث الاشتقاق اللغوي لكلمة «سوري» فقد تحدثنا مفصلاً في كتبنا السابقة حول بعض الآباء العرب أو السوريين الأقدمين الذين لا يعرف لهم زمن محدد بعد لشدة إيغاله في القدم. ومن بين أولئك الآباء «سار»، و«مار»، و«رب»، وكلها تعني السيد.

إن «سار» (كانت تكتب «سر» أي بدون صوتيات) تعني السيد، الملك، الرب.

ومؤنثه «سري» و«سرت» أي السيدة، الملكة، الربة.

ومن «سري» جاء اسم البلاد «سوريا» أي السيدة بعد إضافة الصوتيات.

ومن «سرت» جاء اسم «سارة» و«سارا» أي السيدة، وهو لقب زوجة إبراهيم الأولى التي كان اسمها «إساكا» أي فضة[1].

كما كان، ومنذ الزمن الأكادي، أي قبل خمسة آلاف عام لقب الأم السورية الكبرى الربة «عشتار» وهو «سارا بنيتوم»[2] أي سيدة الكعبة، أو ربة الكعبة، لأن «بنيتوم» بالسريانية هي «البنية» بالفصحى، وتعني الكعبة.ومن «سرت» جاءت الصيغة الأخرى لاسم البلاد بعد إضافة الصوتيات، «سورية» أي السيدة، وبالطبع بعض إضافة الصوتيات التي لم تكن تكتب، وبإضافة نون الجمع إلى «سر» تصبح «سرن» أي «سوريين» أو «سريان» بعد إضافة الصوتيات، وتعني السادة.

وبالإبدال الشائع في اللهجات العربية بين «السين» و«الشين» تبقى الكلمة محافظة على مضمونها الواحد. إن «شار» و«شارو» و«شارون» تعني السيد، الملك.

والملك الأكادي مؤسس الدولة السورية، أول دولة في التاريخ، كما سوف نرى لاحقاً، منذ الألف الرابع قبل الميلاد، هو «سركن»، وبإضافة الصوتيات «ساروكينو» أو «شاروكينو» ويعني لقبه بالسريانية الملك العادل.

---

(1) انظر القاموس الكلداني ـ العربي.

(2) انظر: ل. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين، الحضارتين البابلية والأشورية، ترجمة محرم كامل، مكتبة الأداب، القاهرة، ص561 وما بعدها.

وفي العرباء (الفصحى) نجد اشتقاقات «سر» في «السري» أي السيد، العالي، المرتفع، وسراة القوم سادتهم، والسراة والسروات الأعالي والمرتفعات والجبال.

ثانياً ـ من خلال الوثائق القديمة المكتشفة فنقول:

- لقد ورد اسم «السوريين» في وثائق «أوغاريت» التي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد بصيغة Suryn [1] أي سوريين.

- وفي نشيد أخناتون الذي يعود إلى حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ورد اسم «سوريا»: «أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً، وخلقت الناس والأنعام كبيرها وصغيرها... والبلاد... من سوريا إلى كوش ومصر»[2].

لقد أثبتت التحقيقات اللغوية للمحفوظات الأثرية المكتشفة أن السورية أو (السريانية) هي لغة جميع سكان الرقعة التي شملتها دولة «شاروكينو» الأكادي منذ الألف الرابع قبل الميلاد، والتي كانت تضم الرقعة الممتدة من البحر الأعلى (البحر الأسود) إلى البحر الأسفل (بحر العرب)، ومن وادي السند شرقاً إلى جزيرة قبرص واليونان وكريت غرباً. وأن ما دعي بالأكادية والبابلية والأشورية ليست، إلا تسميات من قبل المؤرخين المحدثين أنفسهم تبعاً لانتقال عاصمة الدولة من «أكادا» إلى «بابل» إلى «أشور».

وقد حافظت هذه الدولة المركزية على وحدة المنطقة معظم العصور وفي مراحلها الثلاث الأكادية والبابلية والأشورية، أي طيلة عهود شاروكينو، وشولجي، وأورنامو، ونارام سين، وحمورابي، وسنحاريب، ونبوخذ نصر، وأشور بانيبال... يقول ول ديورانت حول آخر مرحلة من مراحل مجد هذه الدولة زمن الملك أشور بانيبال (حوالي 700 ق.م.): «إن حكومة أشور بانيبال أقامت غربي آسيا حكماً كفل لهذا الإقليم قسطاً من النظام والرخاء أكبر مما استمتع به هذا الجزء من الأرض فيما نعلم قبل ذلك العهد. ذلك أن حكومة أشور بانيبال كانت تضم تحت جناحيها بلاد أشور، وبابل، وأرمينيا، وميديا، وفلسطين، وسوريا، وفينيقيا، وسومر، وعيلام، ومصر. فكانت، بلا جدال، أوسع نظام إداري شهده عالم البحر المتوسط أو عالم الشرق الأدنى حتى ذلك العهد، ولم يدان أشور بانيبال فيه إلا حمورابي»[3].

---

(1) Cyrus H.Gordon, Ugaritic Hand book, Rome, 1948, p. 142.

(2) ول ديورانت، الجزء الأول، مصر، ص 172.

(3) ول ديورانت، الجزء الثاني، ص 278.

ويؤكد جيمس برستد ذلك بالقول: «وفي سنة 700 ق.م. كانت أشور تضم جميع أراضي الهلال الخصيب، ولم تكتف بذلك، بل وسعت نطاق سلطانها حتى شمل البلاد الجبلية الشمالية وما وراءها إلى مدى بعيد. وبفتحها لمصر بسطت حمايتها على الجهة الغربية من وادي النيل الأسفل... وظلت جارية في مجرى الشدة والقوة حتى صارت أعظم مملكة رآها العالم منذ وجد. ولم تكن دولة في العالم تجرؤ على مناوأتها»[1]. «وفاق الآشوريون أسلافهم البابليين حتى والمصريين أيضاً في تنظيم البلاد إدارياً. وكان من واجب كل عامل من عمال الملك في مملكته الواسعة أن يبلغ الحكومة المركزية بوجه السرعة جميع ما يقع من الحوادث ذات الشأن في ولايته»[2].

إن السورية (أو السريانية Syrian) كانت هي اللغة الرسمية والشعبية لهذه الرقعة كلها، وعلى مدى ما يقرب من أربعة آلاف عام مشهودة أثارياً.

يقول أندريه إيمار وجانين أوبوايه في «تاريخ الحضارات العام» بهذا الصدد:

«وللاستعمال العادي أو السياسي تغلبت لغة سامية الأصل، تمتاز امتيازاً عظيماً بليونة قواعد صرفها، وبوضوحها، وبمقدرتها على تأدية مختلف أنواع الفكر مهما كانت دقيقة... أعني اللغة الأكادية التي لم تكن اللغة الأشورية إلاّ شكلاً من أشكالها»[3].

ويضيف «ولم تعرف هذه اللغة (الأكادية) إلا تغييرات طفيفة جداً مدة ثلاثة آلاف سنة... ولقد استخدم الملوك الآشوريون كتبةً على الرق، أعني بالآرامية، وكتبة على الألواح، أعني بالأكادية. وغدت الآرامية أثناء الحكم الفارسي لغة الإدارة الرسمية، وبالتالي أساس وحدة الإمبراطورية السياسية»[4].

ولم يعد ثمة داعٍ لإعادة شرح أن ما دعوه بـ «الآراميين» ينحدرون من أرومة عربية سورية (أو سريانية) واحدة، تكلموا لغة واحدة، ولهم تراثهم الثقافي والديني والحضاري الواحد.

(1) جيمس بريستد، العصور القديمة، ترجمة داود قربان، ص 166.

(2) المرجع نفسه، ص 174 - 175

(3) أندريه إيمار وجانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الثانية، 1968 المجلد الأول، ص 173.

(4) المرجع نفسه، ص 174.

«ولم تكن الحياة الاقتصادية عند الآشوريين تختلف كثيراً عنها عند البابليين وذلك لأن هؤلاء وأولئك لم يكونوا في كثير من الأحوال إلا أبناء الشمال وأبناء الجنوب من حضارة واحدة»[1]. وأكبر دليل على ذلك أن أشهر ملوك وملكات تلك الدولة المركزية كانوا من مختلف المناطق النائية عن المركز أو العاصمة، وتحديداً من الغرب السوري، مثل سرجون مؤسس الدولة الأكادية، وحمورابي مؤسس الدولة البابلية، والملكة سمير أميس في مرحلة الدولة الآشورية.

إن أحداً من أولئك الملوك لم يكن يشعر بالغربة العرقية أو اللغوية في العواصم الثلاث: أكادا، بابل، نينوى. وهذا ما لفت نظر العلماء الموضوعيين في الغرب أمثال هنري فرانكفورت حين كتب يقول: «إن النظرة القديمة القائلة بأن مجيء سرجون الأكادي يمثل فتحاً أجنبياً ليس لها ما يدعمها»[2]. «وقد يتوقع المرء أن يجد الناس أيضاً مؤيدين للنظام الجديد الذي فرضه ملوك أكاد لا سيما وقد كان الشعور بالانسجام القومي موجوداً»[3]، إن هذا أيضاً من شأنه أن يسقط من التداول تلك التعابير والتسميات التوراتية العشائرية الضيقة التي أسقطت على المنطقة مثل «بلاد الرافدين» و«ما بين النهرين» وغيرها. إن تاريخ المنطقة وآثارها لم تعرف مثل هذه التسميات الملفقة في تاريخها الطويل كله.

وإن هذا الشعور للانتماء العرقي والثقافي والحضاري الواحد هو الذي جعل الملك أشور بانيبال يحرص بنفسه على جمع التراث السوري كله الآكادي والبابلي في مكتبته.

يقول ول ديورانت:

«وأهم ما يخلد ذكر أشور في تاريخ الحضارة هو مكتباتها فقد كانت مكتبة أشور بانيبال تحتوي ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة. وعلى كل واحد منها رقعة تسهل الاستدلال بها عليه. وقد أعلن أشور بانيبال أنه أنشأ مكتبته ليمنع الآداب البابلية من أن يجر عليها النسيان ذيله»[4].

---

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، ص 278.

(2) هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل خوري، منشورات دار مكتبة الحياة، ص 92.

(3) المرجع نفسه، ص 94.

(4) ديورانت، المرجع السابق، ص 248.

إن هذا الواقع الذي كشفنا بعض جوانبه حتى الآن هو الذي جعل الهوية الحضارية السورية تطغى على الهوية العربية في كل المصادر التاريخية اللاحقة حتى فجر الإسلام. ولم تكن هذه التسمية تتضمن أيّما شيء عرقي، وإنما انقسام اللغة الواحدة إلى لهجتين كبريين رئيسيتين هما السورية (السريانية) والعرباء (الفصحى) هو الذي خلق تلك التسمية. إذ أن كلاً من اللهجتين حملت ذلك التراث الكبير للشعب الواحد في زمن معيّن فتسمى باسمها. ومعلوم أن السورية (السريانية) ظلت هي السائدة والمهيمنة على كل مجالات الحياة في كل مواقع وجود العرب أو السوريين حتى فجر الإسلام، حيث حلّت العرباء (الفصحى) محلّها، وعمّمت عن طريق القرآن الكريم في كل مواقع انتشار شقيقتها الأولى. وهذا ما تأكد في تاريخ هيرودوت نفسه:

- فكثيراً ما كان يستخدم كلمة «سوريا» بدلاً من «آسيا». يقول هيرودوت: «وإن هناك أنهاراً كثيرة في سوريا وأنهاراً عديدة في ليبيا، لا تتعرض لما يتعرض له النيل»[1].

ومعروف أن «ليبيا» كانت تطلق على «أفريقيا» زمن هيرودوت إذ يقول: «إن الأرض مقسومة إلى ثلاثة أقسام: أوروبا وآسيا وليبيا»[2].

ويقول: «وزد على ذلك أن مصر لا تشابه بشيء بلاد العرب الملتصقة بها، ولا ليبيا، ولا سوريا. وأهالي سوريا موجودون على شطوط العربية. وتربة مصر سوداء مشققة قابلة للتفتت، فهي من إبليز النيل الوارد من جبال الحبشة المتراكم بواسطة الفيضان. وأما أرض ليبيا فهي أشد احمراراً وأكثر رمالاً، والأرض العربية وسوريا أكثر خزفية وحجارة»[3].

وبالنسبة لحدود سوريا فقد أوضح في أكثر من موضع أنها تمتد من البحر الأسود إلى حدود مصر وشواطئ بحر العرب:

---

(1) تاريخ هيرودوتس الشهير، ترجمة حبيب أفندي بسترس، مطبعة القديس جورجيوس، بيروت، 1886 - 1887، المجلد الأول، الكتاب الثاني: 20 ص 171

(2) المرجع نفسه، الكتاب الثاني: 16 ص 151

(3) المرجع نفسه، الكتاب الثاني: 12 ص 13

«أما السوريون الذين يقطنون على ضفاف ترمودون وبرتانيوس. ونهر ترومودون هو نهر ترما الحالي يجري من الجنوب إلى الشمال ويشق البلاد التي كانت تسكنها الأمازونات ويصب في البحر الأسود. أما برتانيوس فهو نهر برتين الحالي، يخرج من الأناضول ويصب في البحر الأسود»[1].

«وسوريا متصلة بمصر كما هو معلوم والفينيقيون الذي تخصهم صيدون يقطنون سوريا»[2].

«وكان الأغارقة يسمون أهل كبادوكيا سوريين»[3].

ومعروف أن منطقة كبادوكيا تتصل بالشاطئ الجنوبي للبحر الأسود.

«ودخل السكيثة (السكوديون) سوريا... وخرج أكثرهم من هذه البلاد دون أن يلحق بها أذى، بخلاف الذين بقوا منهم فيها فإنهم نهبوا هيكل «الزهرة» الملقبة بالسماوية. وغاية ما أعلم عن هذا الهيكل أنه أقدم الهياكل المشادة لهذه الربة. ويروي أهل قبرص أن أصل هيكل قبرص مأخوذ عنه، وهيكل قترا بناه الفينيقيون الذين من سوريا، فتسخطت الربة «الزهرة» على ناهبي هيكلها، وابتلتهم هم وذريتهم بأمراض النساء. ولا ينكر السكيثة (السكوديون) أنفسهم أن ذلك كان قصاصاً لهم على ما أبدوه من الرجس»[4].

«وكان هذا الملِك (الملك بسماتيك ملك مصر) قبل ذلك قد فرّ إلى سوريا هرباً من اضطهاد شاباق ملك الحبشة، لأنه كان قد قتل أباه نيكوس»[5].

«ووضع الملك بسماتيك حرساً في أليفنتين ليحمي البلاد من سطوة السوريين»[6].

و«أليفنتين» عند أسوان الحالية.

(1) المرجع نفسه، الكتاب الثاني: 104 ص154.
(2) المرجع نفسه، الكتاب الثاني: 161 ص160.
(3) المرجع نفسه، الكتاب الأول: 72 ص46.
(4) المرجع نفسه، الكتاب الأول: 105 ص62 – 63.
(5) المرجع نفسه، الكتاب الثاني: 152 ص180.
(6) المرجع نفسه، الكتاب الثاني: 30 ص120.

وها هو الكاتب السوري لقيان السميساطي (الذي جعل هو الآخر في جامعات ومعاهد الغرب إغريقياً)، وهو من بلدة سميساط في أعالي الفرات يطلق على كتابه تسمية «الربة السورية» وليس «الآرامية» أو «الكنعانية»، ويقول في مقدمة كتابه حرفياً ما يلي: «إنني أكتب كسوري، وما سأرويه لكم قد تأدى إلي من خلال مشاهداتي الخاصة»[1].

فهو أو غيره، حينما يقول عن نفسه إنه «سوري» تسقط بذلك منهجياً كل التلفيقات الأخرى التي كان وما يزال الغرض منها تغييب الهوية السورية خدمةً للمخططات الاستعمارية والصهيونية في المنطقة.

- وفي الموسوعات الغربية: نجد أن «سوري» Syrian كتسمية عرقية شملت كل من تكلم السريانية (الآرامية) لتضم العراق وإيران، ويشير، كمصطلح ديني، إلى أتباع الكنيسة السورية القديمة أو السريانية لتمتد إلى جنوب الهند[2].

إن سوريا القديمة التي غيبت اليوم تحت اسم «الشرق الأدنى» و«الشرق الأوسط» هي مهد الحضارة. وإن السوريين هم الذين مدّنوا حوض البحر الأبيض المتوسط، والبلدان الأوروبية ومن وادي السند شرقاً إلى الأطلسي غرباً، وحملوا معهم لغتهم وكتابتها في كل بقاع انتشارهم، أياً كانت التسميات الفرعية أو الجزئية التي أطلقت عليهم من قبل المؤرخين في الغرب.

«وكما حملت قوافل البابليين في الأزمنة الأولى قطع الآجر المكتوبة بالخط المسماري إلى أطراف آسيا الغربية، كذلك حملت إليها القوافل الآرامية قوائم حسابات التجار وسنداتهم المكتوبة بالحروف الهجائية الآرامية ـ الفينيقية محل العلامات المسمارية، وانتشرت في جميع أنحاء آسيا الغربية، ثم جاوزت الفرات إلى بلاد فارس، وأواسط آسيا، حتى بلغت أخيراً إلى الهند، وصارت بعد زمان حروف هجاء للشعوب الشرقية أيضاً».

«وحيثما سار التجار الآراميون كانت لغتهم، بالطبع، تسير معهم... وأصبحت اللغة الآرامية لغة الهلال الخصيب برمته... وصارت بعد قرون عديدة اللغة التي تكلم بها المسيح»[3].

(1) انظر: أعمال لقيان السميساطي المفكر السوري الساخر في القرن الثاني الميلادي، ص168.

(2) فيليب حتي، المرجع السابق، ص63 .

(3) برستد، المرجع السابق، ص 158 - 159.

ويؤكد فريديريك ديليتش أن «اللغة البابلية كانت هي اللغة الرسمية في كل الرقعة الممتدة من الفرات إلى النيل عام 2000 ق.م.»[1].

«وكانت سفنهم (السوريين) المنخفضة الضيقة، البالغ طولها سبعين قدماً طرازاً جديداً في بناء السفن، ذلك أنهم لم يحذوا فيها حذو السفن المصرية المنحني مقدمها إلى الداخل، بل جعلوه ينحني إلى خارجها، وينتهي بطرف رفيع يشق الريح أو الماء أو مراكب الأعداء.

«وكان الجند يقفون على سطح السفينة فوق المجذفين يحرسونها وهم متأهبون للإبحار أو للحرب على السواء... فتوغلوا في المحيطات... وطافوا حول إفريقيا... وكشفوا رأس الرجاء الصالح قبل أن يكشفه فاسكو دي جاما بنحو ألفي عام... وأقاموا لهم حاميات في نقاط منيعة على ساحل البحر المتوسط، وما زالت تكبر حتى أضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان، أقاموها في قادس، وقرطاجة، ومرسيليا، ومالطا، وصقلية، وسردينيا، وكورسيكا، بل حتى في إنجلترا البعيدة، واحتلوا قبرص، وميلوس، ورودس، ونقلوا الفنون والعلوم... ونشروها في اليونان وفي أفريقيا، وإيطاليا، وإسبانيا، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية، وشرعوا ينتشلون أوروبا من براثن الهمجية»[2].

لقد بقيت لهجة السوريين (السريانية) لغة التفاهم اليومي بمختلف كتاباتها ولهجاتها الفرعية، في شتى أرجاء الوطن العربي القديم، لتغطي بذلك شبه جزيرة العرب والهلال الخصيب، ومن البحر الأسود شمالاً إلى بحر العرب جنوباً، كما ظلت اللغة الرسمية، والسياسية والدبلوماسية والإدارية والتجارية والأدبية، وكما سوف يتكشف لاحقاً، في كل مواقع انتشار السوريين من حوض السند شرقاً إلى الأطلسي غرباً. وقد بقيت مضطلعة بهذا الدور الثقافي والحضاري بكفاءة نادرة حتى ظهور الإسلام، حيث أخذت شقيقتها العرباء (الفصحى) على عاتقها القيام بالدور ذاته، فعمّمت عن طريق القرآن الكريم، لتغطي كل المواقع القديمة للسريانية.

(1) فريدريك ديليتش، بابل والكتاب المقدس، ترجمة إيرينا داود، العربي للطباعة والنشر، ص33.
(2) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص 312 - 313 .

II

آسيا الصغرى

أ - «آسيا الصغرى» والكذبة «الأرية»:

تحدثنا في كتبنا السابقة عن الأكذوبة «الأرية» بكثير من التفصيل، وحسبنا هنا أن نلخص ذلك التفصيل بالنقاط الأساسية التالية:

1- إن مصطلح «الأرية» أو «الهندو جرمانية» أو «الهندو أوروبية» اختراع ألماني حديث، «فبركته» مخيّلة اللغويين الألمان في حمأة التنافس الاستعمار الإنكليزي ـ الألماني من أجل السيطرة على الهند. ولما كانت الطغمة الاستعمارية الألمانية تعتمد اللغة أساساً للقومية فقد اختلقت ما دعي آنذاك بالتقسيم اللغوي، ومن ثم الشعوبي، إلى مجموعتين: أرية، أو هندو جرمانية، وسامية، وجعلت الخط الممتد بخط مائل من ألمانيا إلى الهند ـ بناء على ذلك ـ آريا، أو هندو جرمانياً، ليشمل كل الشعوب والقبائل الواقعة عليه مروراً بتركيا، شمال سوريا، شمال العراق، إيران، وصولاً إلى الهند. إنه بكلمة واحدة: المشروع الاستعماري الألماني للسيطرة آنذاك على خط النفط الشمالي، في مقابل خط السيطرة الاستعمارية البريطانية الجنوبي المار من مصر عبر قناة السويس، إلى شبه جزيرة العرب، فالهند.

2- وقد جعلوا المركز البشري واللغوي لهذا الخط اسم «إيران» الذي اشتقوا منه صفة «الأري» Iran فركزوا بذلك على إبراز الحضارة «الايرانية» أو الفارسية دون كل الحضارات الأخرى في المنطقة.

3- لقد جاء مصطلح «الأري» دليلاً آخر على الكيفية التي يفسرون بها التاريخ في الغرب، لتعبر عن جهل فادح بالتاريخ ككل، وبأصول السكان، وباللغات، من جهة، وليكشف مدى التعصب الذي كان الطابع الطاغي على معظم كتب التاريخ منذ عصر النهضة الأوروبية إلى اليوم من جهة أخرى.

ولشرح ذلك نورد ما كتبه ول ديورانت حول اشتقاق «آري» و«آرية».

يقول ول ديورانت:

«تروي الأقاصيص الفارسية أن نبياً عظيماً ظهر في «إيرانا فيجو» (أي موطن الآريين) القديم قبل ظهور المسيح بمئات السنين، وكان شعبه يسميه زرشترا»[1]. «ويسمى الزرادشتيون وطنهم الأول إيرانا - فيجو أي موطن الآريين، ويطلق استرابون لفظ إيرانا على البلاد التي يطلق عليها الآن هذا اللفظ... وهو إيران»[2].

كنا قد ذكرنا فيما سبق أن ما دعوه بـ «اللغة الآرامية» التي هي السريانية كانت هي لغة الناس اليومية من الهند إلى اليونان، وكان الحكام الفرس «يستعملون الآرامية في جميع أعمالهم: فكانوا يرسلون بها أوامر الحكومة حتى إلى مصر وآسيا الغربية»[3].

وأن الفرس أخذوا كل شيء عن السوريين (أو البابليين): «فكان الرجل العادي أمياً راضياً عن أميته[4]... ولم يكن للصناعة شأن في فارس، فقد رضيت أن تترك لأمم الشرق الأدنى ممارسة الحرف والصناعات اليدوية، واكتفت بأن تحمل هذه الأمم إليها منتجاتها مع ما يأتيها من الخراج[5]... ولم يكن للفرس أسطول خاص بهم، بل كانوا يكتفون باستئجار سفن الفينيقيين أو الاستيلاء عليها لاستخدامها في الأغراض الحربية[6]... وكانت الأعمال التجارية تترك لغير أبناء البلاد، للبابليين والفينيقيين[7]... ولم يكن في هذه الدولة قانون غير إرادة الملك وقوة الجيش[8]... أما العلوم فقد كانت سلعة يستطيعون أن يستوردوها من بابل»[9].

أما وقد رأينا كيف أنهم يعترفون بأن كل ما لدى الفرس قديماً، هو عربي سوري، بما في ذلك اللغة والكتابة، فقد كان حرياً بهم أن يعودوا إلى هذه اللغة لتفسير التسميات الفارسية، لا أن يخترعوا بما ينسجم وأغراضهم الاستعمارية. فماذا تقول اللغة العربية، والسريانية تحديداً، والتراث العربي؟

---

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، الفرس، ص424 .

(2) المرجع نفسه، ص410 .

(3) بريستد، المرجع السابق، ص 201 .

(4) ديورانت، المرجع السابق، ص412 .

(5) المرجع نفسه، ص412 - 413.

(6) ديورانت، المرجع السابق، ص414.

(7) المرجع نفسه، ص418.

(8) المرجع نفسه، ص445.

(9) المرجع نفسه.

كان العرب السوريون في غالبيتهم الساحقة هم أول شعب عرف الاستقرار، والأسرة، وبالتالي فقد كانوا أول من عرف النسب واهتم به، إن لم نقل إنهم كانوا الوحيدين على وجه الأرض الذين حفظوا لنا أنسابهم، ليميزوا بعضهم عن الهمج المحيطين بهم (الذين لم يعرفوا لأنفسهم نسباً، ولم يعرفوا الاستقرار أو نظام الأسرة بعد، وكان الزواج عشوائياً والكهف مسكنهم)، كما أنهم كانوا أول من دون التاريخ وحفظه بما فيه سلاسل النسب. وفي كتب الأنساب العربية نجد أن «إيران» هو «إيران بن سام بن نوح الذي ينسب إليه شعب بوان من بلاد فارس، وهو المواضع المشهورة في العالم بالحسن وكثرة الأشجار وتدفق المياه»[1]. «وإيران هو أخو باشل بن آشور الذي منه الجرامقة»[2].

وقد أكد التراث العربي على التمييز بين «فارس» (بالسريانية بارش) وبين إيران. فقد كان «إيران» أعجم، أخرس، لهذا دعا العرب أبناءه بالعجم، ولم يشتهر منهم أحد. ولو عدنا إلى التعبير السرياني «إيرانا فيجو» Irana figo لوجدنا أن «فيقو» figo تعني في القاموس السرياني: أبكم، أعجم، أخرس، و«فيقوت» figot تعني: بكمة، خرس، عجمة، لثغة. وهكذا، فإن «إيرانا فيجو» لا تعني موطن الآريين! بل: إيران الأخرس، الأعجم، الألثغ. ولهذا دعي أبناؤه بـ «العجم».

أما «فارس» فقد جاء عنه في تاريخ الطبري: «فنكح لاوذ بن نوح شبكة ابنة يافث بن نوح، فولدت له فارس وجرجان وأجناس فارس، وولد للاوذ مع الفرس طسم وعمليق. ولا أدري أهو لأم الفرس أم لا»[3]. وهكذا تسقط البدعة «الآرية» في لغة «إيران» وعلى أرضه. يقول بيير روسي بهذا الصدد:

«إنه ليس هناك إنسان ما، أو ثقافة ما، أو مجتمع ما، قد طالب بهذا الارتباط السامي أو الآري... إن «آري» و«سامي» ليسا شيئاً، ولا يدلان على شيء[4]...

(1) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، ص 237.

(2) المرجع نفسه.

(3) تاريخ الطبري، الجزء الأول، ص140.

(4) بيير روسي، مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب، ص13.

يضاف إلى هذا، إننا، من أجل احترام التراث التوراتي، ينبغي أن نقول «اليافثيون» وليس «الآريون»*، لأن يافث من أبناء نوح الثلاثة هو الذي نسل اليونانيين، والأناضوليين، وأقاربنا الأوروبيين[1]، و«إن لغة واحدة، مكتوبة ومتخاطباً بها، قد انتهت إلى فرض نفسها وتغطية هذا المجموع الكبير: إنها اللغة الأرامية، والإغريقية تابعتها والملحقة بها»[2].

وفوق هذا، فمن أجل تثبيت اسم لأب، أي أب، على جواز السفر المزور للفتاة السورية المخطوفة «آسيا الصغرى» أخذوا يبحثون عن أي «أب» خامل الذكر في مدونات التوراة، فوقعوا مرة على «حث» ومرة على «حور»، علّ واحداً منهما يمكن نقله إلى الشمال السوري وإلباسه هذا القميص الوهمي الجديد (الآري) دون أن يثير انتباه أحد من سكان المنطقة أو يسأل عنه أحد، لأن «حثاً» هو ـ حسب مدونات التوراة ـ ابن كنعان بن حام بن نوح، ومكان إقامته وميلاده في جنوب شبه جزيرة العرب، ولا ذكر له خارج مدونات عشائر التوراة.

أما «حور» وحسب التوراة نفسها فهو ابن لوطان بن سعير الذي هو أدوم[3]. وبالرغم من كل الجهود التي بذلت من قبل الدوائر الاستعمارية من الخارج والشعوبية المنظمة والمرتبطة بها من الداخل من أجل تثبيت هذه الهوية المزورة فإن أحداً من العلماء لم يعترف بها. فكان لا بد من إرجاع هذه التسمية الجيوسياسية المخترعة حديثاً (آسيا الصغرى) إلى حقيقتها التاريخية بعد أن ظلت أمداً طويلاً مبعدة عنها.

لقد أسقطنا في كتبنا الثلاثة السابقة عملية التزوير التاريخي لسوريا عن طريق استعارة «عشائر الحثيين والحوريين» البدوية الحامية التوراتية ونقلهم من جنوب شبه جزيرة العرب إلى الشمال السوري». حتى أن «المزورين» أنفسهم لم يمضوا بهذا التزوير قدماً حتى أسقط في أيديهم، وأخذوا يتخبطون معلنين عدم قناعتهم. ففي الوقت الذي

* من المفجع حقاً أن نرى كل هذا التزوير مثبتاً في المجلد الأول مما دعي بـ «الموسوعة العربية» التي هي في مجملها ليست إلا «لمّة» عشوائية لكل ذلك التزوير رغم الأموال الطائلة التي خصصتها الحكومة السورية للقائمين عليها وعلى إصدارها.

(1) روسي، المرجع السابق، ص13.

(2) المرجع نفسه، ص 18 .

(3) أخبار الأيام الأول (1: 38 – 39)

يعترف فيه الجنرال «جارني» في كتابه «الحثيون» بأن هذا المصطلح جرت عملية اشتقاقه من كلمة «بحلتيت»* للدلالة على الكتابة المقطعية اللاصقة المكتشفة في شمال سوريا، نراهم مصرين على التزوير. يقول جارني: «وقد رأينا أن سكان الأناضول الأوائل كانوا قوماً سميناهم حاثيين Hattians لأنهم كانوا يتكلمون لغة أطلقنا عليها اسم «حلتية»... ولا نعرف في الواقع إذا كان متكلموها قد أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم... وكلمة «حثية» أطلقها العلماء المحدثون على هذه اللغة... وقد قبلت هذه التسمية في كل أنحاء العالم. ولكن إذا قصدنا دقة التعبير فهي غير صحيحة، لأن كلمة «بحلتيت» أي بالحثية In Hiltite لا تعني ذلك»[1].

ونجد فيليب حتي يقر ـ نقلاً عن غيره ـ أن الكلمة Hitti (حثي) مأخوذة من التوراة، بينما يعترف أندريه إيمار قائلاً: «جرت العادة على تسمية شعوب آسيا الصغرى القديمة بالشعوب «الحثيانية». وتدل هذه التسمية على جهلنا بحقيقة تلك الأمم»[2].

من كل هذا ينتج أن تسمية «آسيا الصغرى» لا تغدو كونها تسمية جيوسياسية حديثة، ولا يصح إسقاطها على التاريخ القديم، إذ كانت، وكما تؤكد كل المصادر والمكتشفات الأثارية، وكما سوف نبيّن لاحقاً، جزءاً من سوريا سكاناً ولغة وثقافة وحضارة.

أما الأكذوبة الثانية التي اخترعها المؤرخون المحدثون في الغرب من أجل تغييب الهوية العربية، والسورية تحديداً، عن حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط، فكانت في هذا الاختراع الآخر «العرق المتوسطي» في الوقت الذي يعترفون فيه بأن كل الحضارات القديمة التي شهدها عالم البحر المتوسط إنما جاءت من الشرق، وأن هذا لا يعني أنها من الصين، أو الهند، أو اليابان، أو كوريا، أو فارس أو من الأتراك الذين لم يكونوا قد ظهروا على الساحة بعد. وبديهي أن لا يكون هذا «العرق» قد صعد من قاع البحر.

والسؤال الآن:

لماذا كان كل ذلك الإصرار على اقتطاع ما صار يدعى بـ «آسيا الصغرى» عن الأم سوريا؟

---

* «حلتيت» بالسريانية والفصحى تعني الصمغ اللاصق، صمغ نجدان.

(1) أ.ر. جارني، الحثيون، ترجمة محمد عبد القادر محمد، مطبوعات البلاغ، 1963 ص161- 162.

(2) أندريه إيمار وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص203.

والجواب:

إنه إلى جانب الأغراض الاستعمارية الحديثة التي شرحناها، فهناك سبب آخر ينبغي البحث عنه في عمق الذات الغربية إبان حروب الفرنجة الصليبية، وبعدها مروراً بعصر النهضة. إن علم نفس الجماعات يلتقي مع علم نفس الأفراد عند هذه الحقيقة، وهي أن الشعور المزمن بالنقص يتحول في إحدى مراحله، ولا سيما في مرحلة الشعور بصعود الذات، إلى اختراع نوع من التفوق المتورم المبالغ فيه المشوب دائماً بالتعصب، والأنانية، وصولاً إلى إلغاء الآخر. إن هذا هو ما ظهر لدى الجماعات اليهودية بعد قرون طويلة من الشعور بالدونية، ويتجلّى أخيراً في مقولة «شعب الله المختار». وإن أشد الجماعات الأوروبية همجية وتخلفاً كانت هي التي ابتدعت دون غيرها ما دعي بـ «التفوق العرقي».

أما السبب الثالث والأهم فهو أنه ما أن استفاقت أوروبا إبان نهضتها على إيقاع العلوم العربية والثقافة العربية التي كانت بمثابة القاعدة التي تقف عليها من صقلية وإيطاليا إلى إسبانيا، حتى هربت إلى أثينا وروما. ثم ما أن اكتشفت أن كل ما عرفته أثينا وروما والجزر من ضروب الثقافة إنما جاء من آسيا، ومن سوريا تحديدا، حتى بدأت عملية التزوير المتعمّد.

ولكن لماذا أُلغيت «آسيا» كلها واقتطع منها هذا الجزء الذي أُطلق عليه «اسم آسيا الصغرى»؟ إن الجواب عن هذا السؤال يتألف من شقين:

الأول: جغرافي محض، يشرحه لنا «كيتو» في كتابه «الإغريق» كما يلي:

«إن بحر إيجه يعانق البر، ويتداخل مع الأرض في عدد لا يحصى من الخلجان العميقة على شواطئ شبه جزيرة اليونان وآسيا الصغرى. كما أن الأرض نفسها تترامى في أحضانه، وتقفز إلى أعماقه بالرؤوس وأشباه الجزر المتناثرة وتتوزع في كل أنحائه، والتي لا يقل عددها عن الخمسمائة».

«ففي الزاوية الشمالية من هذا البحر نجد مضيق الدردنيل ومضيق البوسفور، اللذين يعتبران حاجزاً فاصلاً، بل صلة وصل بين آسيا وأوروبا. ثم نرى في وسط هذا البحر الرؤوس وأشباه الجزر تمتد من شواطئ آسيا الصغرى وشبه جزيرة اليونان بصورة متقابلة تقرب المسافة بين القارتين، وتشي إلى الرابطة الجيولوجية التي كانت بينهما قبل حادث الانهدام. وأخيراً هناك مجموعة من الجزر هي الآثار الباقية لتلك الرابطة الجيولوجية، مصفوفة الواحدة إلى جانب الأخرى كأنها جسور، يسهل الانتقال عليها من قارة إلى أخرى...».

«إن البحارة الذين يسافرون في هذا البحر لا يغيب البر عن أنظارهم من جميع الجوانب حيثما اتجهوا. إنه يمكن من رأس ماليتا في جنوب شبه جزيرة البلبونيز رؤية جبال كريت. ومن شرقي جزيرة كريت تشاهد جبال رودس. كما أننا نستطيع من جزيرة رودس أن نرى شواطئ آسيا الصغرى. وأكبر الجزر في بحر إيجه قريبة بعضها من بعض إلى درجة أن الانتقال من إحداها إلى الأخرى لا يستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين»[1]. فمن هذا الوصف يتضح أن الانتشار السوري كان إنما يتم عن طريق البر قبل انفصال القارتين وقبل ارتفاع مناسيب مياه البحار عقب انتهاء آخر عصر جليدي. ولما كان السوريون أول من أنزل سفينة في البحر، فقد كانت هذه الأماكن شبه المتصلة أنسب مكان لسفنهم البدائية إلى أن صار يدعى البحر المتوسط باسمهم «بحر أمورو» ثم البحر السوري.

وهذا بدوره يفضي إلى تفسير الجانب الثاني من الجواب، وهو أن الانتشار السكاني السوري عبر المضائق والجزر أفضى بالضرورة إلى انتشار الثقافة واللغة أيضاً.

لنستعرض بعضاً مما يقرّ به المؤرخون:

1ـ يقول أندريه إيمار وجانين أوبوايه:

«وقد كان الانطلاق في العهد السابق من مناطق تكاد تكون خارجة عن العالم اليوناني، أي من آسيا الصغرى... حيث كان الازدهار الاقتصادي قد بلغ شأواً بعيداً»[2]. وإن «الأتروسك» قدموا إلى إيطاليا من آسيا الصغرى[3]. وإن جميع الأرباب ومنهم «الأم الكبرى» جاءت من آسيا الصغرى[4].

(1) كيتو، الإغريق، ص24
(2) أندريه إيمار وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص371.
(3) المرجع نفسه، ص207 .
(4) المرجع نفسه، ص206 – 207.

2ـ يقول جيمس بريستد:

«في العصر الحجري المتأخر كانت جزر بحر إيجه مراكز فرعية لمدنيّات الشرق العظيمة التي وجدت قديماً في وادي الفرات والنيل. فأول نشوء للمدينة الأوروبية لم يكن في بر اليونان بل في بحر إيجه... وكانت كريت من أول عهدها في الرتبة الأولى حضارة بين جميع جزر إيجه... وكانت عند فجر المدنيّة كأنها جزء من الشرق مثل القسطنطينية اليوم»[1].

«أما الجانب الآسيوي من بحر إيجه فقد سبق الجانب الأوروبي في مضمار التقدّم زمناً مديداً»[2].

3ـ ويقول ديورانت:

«ومبلغ ما نستطيع أن نهتدي إليه بظننا أن المسّينيين (أي أهل موكيني) كانوا يمتون بصلة القرابة العرقية للفريجيين والكاريين سكان آسيا الصغرى... وللأسدين اللذين وجدا في مسيني وجهان شبيهان بأسود ما بين النهرين»[3]. «وما من شك أن أفروديت كانت في مواطنها الأولى بالشرق الأدنى»[4] وكذلك أرتميس[5].

4ـ ويقول كيتو:

«وقد كان الإغريق المتفاخرون بأنفسهم يعتقدون في وجود سكان أصليين غير هيلينيين كانوا يسمونهم فالاجيين. وقد ظلت بقاياهم نقية في العصور الكلاسيكية. وكانوا يتكلمون لغتهم الخاصة... ويؤكد هيرودوت... أن الإيونيين من أصل فالاجي»[6]. وإن «أتريوس ملك موكيناي، وهو ابن بيلوبس Pelops الذي أضفى اسمه على البليوبونيز... قد جاء من ليديا في آسيا الصغرى»[7].

---

(1) بريستد، المرجع السابق، ص244 - 245.

(2) المرجع نفسه، ص258.

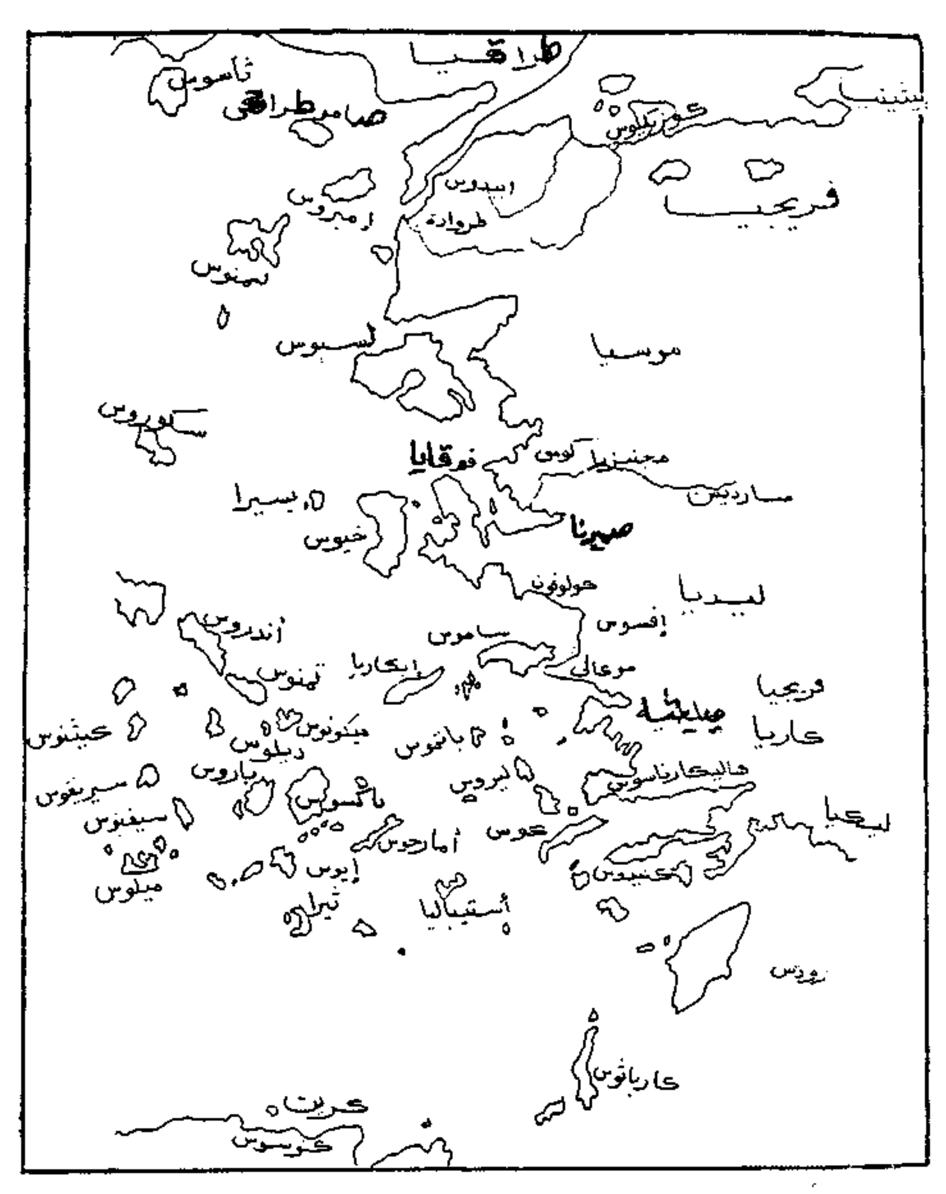
(3) ديورانت، الجزء السادس، كريت، ص59.

(4) المرجع نفسه، ص335.

(5) المرجع نفسه، ص332.

(6) كيتو، المرجع السابق، ص12.

(7) المرجع نفسه، ص24 .



مصور رقم (1): بحر إيجه والجزر وساحل آسيا الصغرى.

5ـ **ويقول محمد كامل عياد نقلاً عن «ريجواي»:**

«إن الموكينيين هم من السكان الأصليين الذين كان اليونان يسمونهم الفالاجيين، والذين كانوا يتكلمون اللغة اليونانية»[1].

6ـ **ويضيف علي نور:**

«إن الفلاجيين ساميون من آسيا»[2].

من جملة هذه الأقوال نستنتج أن أول جماعة متمدنة قدمت إلى بلاد المورة وإيطاليا وصقلية بغرض الاستيطان كانت من الفالاجيين، /الذين جاءوا من «آسيا الصغرى» وهؤلاء الفلاجيون ساميون، وتكلموا اللغة اليونانية مرة، ولغتهم الخاصة بهم مرة أخرى.

فلننتقل مباشرةً إلى «آسيا الصغرى»، ولنتعرّف على أوضاعها السكانية والثقافية ذلك الزمن.

ب- «آسيا الصغرى» - الحقيقة التاريخية:

ذكرنا منذ البداية كيف أن آثار الألفين الثامن والسابع قبل الميلاد المكتشفة في سوريا دلّت على وحدة حضارية وثقافية امتدت من وادي النطوف وأريحا في الجنوب إلى مرسين في كيليكيا وشتال هيوك في الأناضول. «ولقد تمّت البرهنة على وجود علاقات حضارية باكرة بين جنوب سوريا (فلسطين) في عصر النيوليت ما قبل الفخار وبين الأناضول»[3].

وعرفنا فيما سبق كيف أن الدولة السورية المركزية منذ أن أسّسها سرجون الأكادي شملت كل الرقعة الممتدة ما بين وادي السند شرقاً إلى اليونان غرباً. وهي الدولة التي كلما نجحت فيها قوى الانفصال الداخلية أو الغزوات الهمجية الخارجية في فرط عقد وحدتها، كانت تهبّ من جديد لإعادة لحمة الدولة، بل وإلى توسيع رقعتها أحياناً كما حدث زمن نارام سين وحمورابي ونبوخذ نصّر وأشور بانيبال. أي أن استمرار هذه الدولة بقي يؤكّد نفسه منذ أواخر الألف الرابع وحتى حوالي 700 ق.م.

---

(1) عياد، تاريخ اليونان، الجزء الأول، دار الفكر، ص88.

(2) علي نور، أريستوفانس، ص30.

(3) جاك كوفان، ديانات العصر الحجري الحديث في سوريا، ترجمة سلطان محيسن، دار دمشق، ص76.

كما أكّدت لنا المصادر والمراجع التاريخية أن سرجون الأكادي كان قد أورث من خلفه من الملوك تقليداً صار سنّة من بعده، وهو أن يقوم جيشه بجولة سنوية على الحدود بدءاً من جبال أرمينيا وصولاً إلى منطقة المضائق عند مداخل البحر الأسود لتأمين سلامة خطوط التجارة التي كانت جميعها في قبضة تلك الدولة.

ولقد بينّا كيف أن اسم (سوريا) كان يشمل رقعة تلك الدولة كلها، وأوردنا شاهداً من أقوال هيرودوت الذي كان كثيراً ما يستخدم اسم سوريا بدلاً من آسيا.

إن الطريق التجاري الدولي الذي يأتي من عدن في جنوب شبه الجزيرة العربية ليصعد شمالاً عبر سوريا كلها ويصل إلى منطقة المضائق في مداخل البحر الأسود كان بمثابة أهم شريان تجاري عرفه العالم القديم كلّه. فقد كانت القوافل التي تجوز هذا الخط تحمل أثمن سلع العالم وأكثرها رقياً: فمن توابل الهند وجواهرها، إلى عاج وأبنوس أفريقيا، إلى الذهب، والبخور، واللؤلؤ، والمرجان، والكحل، والعطور من شبه جزيرة العرب، إلى السلع السورية المصنعة من منسوجات، وفخاريات، وأدوات معدنية، وحلي، وزيوت، وخمور، وغيرها من سوريا، إلى الماس والفضة والكهرمان والفرو القادم من منطقة البحر الأسود، إلى ما تزود به المرافئ السورية، الممتدة من المضائق إلى جنوب سيناء، بما فيها جزر بحر إيجه، السفن السورية التي غطت شطآن المتوسط أيضاً، وما تأتي به تلك السفن في رحلاتها التجارية القريبة والبعيدة.

يقول برستد:

«إن الجانب الآسيوي من بحر إيجه قد سبق الجانب الأوروبي في مضمار التقدم زمناً مديداً[1]... ففي العصر الحجري المتأخر صارت جزر بحر إيجه مراكز فرعية لمدنيات الشرق العظيمة ا لتي وجدت قديماً في أرض الفرات والنيل[2]... وقد كانت آسيا الصغرى بطرقها التجارية حلقة الاتصال بين العالم الإيجي والهلال الخصيب»[3].

(1) برستد، المرجع السابق، ص258.

(2) المرجع نفسه، ص244 - 245

(3) المرجع نفسه.

«وكان للحكومة في زمن حمورابي جيش منظم يقوم بحماية الثغور وتوطيد الأمن في البلاد. فكان الأمن ناشراً أعلامه (على كل رقعة الدولة) حتى أن قوافل الحمير تسير على رسلها حاملة سلع التجار إلى مختلف المدن والأقاليم والأقوام الذين رغب تجار بابل في الاتجار معهم. وكان هؤلاء كثيرين جداً على ضفاف الفرات العليا... وكانت بالات البضاعة في أفنية المنازل ركاماً مركوماً بعضها فوق بعض، وعلى كل منها ختم لصاحبها دلالة على اسمه. وحين فتح البالات كانوا يكسرون ختومها ويطرحونها على الأرض. ولذلك يشاهد كثير من الأختام في أنقاض المدن السورية على ما أفادنا الأثريون... وكانت لا تزال أسماء أصحابها ظاهرة على وجهها الواحد، وأثر الحبل على وجهها الآخر. وكان تجار المدن السورية، والبلاد التي وراء المضائق مضطرين أن يقرأوا الأختام التي كانت على البالات والقوائم التي كانت ترسل معها، فنتج عن ذلك انتشار اللغة، والكتابة المسمارية في آسيا الغربية»[1].

«وكان مكتب الملك مركز إدارة المملكة كلها. فعين سعاة خصوصيين، وأقام في الأماكن المهمة على الطرق الملوكية موظفين يقومون بإنفاذ إدارته الملكية. فغدا بهذا التدبير نقل الرسائل والغلال والسلع... أمراً مقرر الإجراء. فكان هذا النظام البريدي الذي عمل به في الشرق منذ قرون كثيرة رائد نظام بريدنا الحالي وبهذا الأسلوب كان الملك يتلقى الرسائل والتقارير من عماله الستين على الولايات والمحطات»[2].

ومن الثابت والمعروف أنه منذ عهد سرجون أقيمت محطات على خطوط التجارة، كانت جماعة ما من سكان المحطة تتولى تأمين مرافقة وحماية القافلة حتى تسلّمها إلى المحطة التالية. وكان زعيم المحطة يسمى «ملكا» ويلقب نفسه باسم سيده الملك المركزي التابع له، أو ملك هذه المدينة الكبرى أو تلك، كممثل لها على المحطة، والكل يتبع للملك المركزي. تلك «الترافيق» للقوافل لتأمين سلامة مرورها على طول الخطوط هي التي انتقلت إلى الغرب فيما بعد لتصير Traffic ، ثم لتصير تعني المرور. ومنذ أن اكتشف السوريون أهمية المضائق التجارية عند فم البحر الأسود أنشأوا هناك مدينة «إيليون» (طروادة فيما بعد) على اسم الجد السوري القديم «المؤسس»، ودعي «مضيق إيل». ثم لما تقدموا صعداً واكتشفوا الرخام عند بحر مرمرة أطلقوا عليه اسم «فوأسفورو» أي فم الرخام بالسريانية، ثم دعي بحر المرمر أو «مرمرة».

(1) المرجع نفسه، ص144.

(2) المرجع نفسه، ص167.

صورة رقم (1): الكتابة المكتشفة على ظهر تمثال الملك في «قره تبه» في الشمال السوري.

أما المضيق الثاني فقد دعوه «مضيق البعل» على اسم رب الخصب السوري الشهير. لقد جاء على أحد وجوه رقيم تمثال الملك المكتشف بأحرفه الفينيقية في «قره تبه» ما يلي: «وكنت أكرم كل من ينتشل (أو ينقذ) سفينة في مضيق البعل ومضيق إيل وكان بكل خليجي سبع موانئ»[1]. ثم ما أن استقرت أسرة من الدردانيين السورية عند ذلك الثغر التجاري المهم حتى أعطته اسمها، وصار مضيق الدردنيل.

يقول برستد:

«وبعد سنة 3000 ق.م. قامت عند الزاوية الشمالية الغربية من آسيا الصغرى قرية حقيرة من قرى العصر الحجري المتأخر تدعى طروادة. ويرجح أنه قام ببنائها جماعة من التجار الذين استهوتهم التجارة الرائجة بين آسيا وأوروبا في هذه النقطة»[2]. وحين أغارت القبائل السكودية (القفقازية) الهمجية على فريجيا و«ليديا» في آسيا الصغرى استنجد الملك الليدي «جيجي» بالملك المركزي أشور بانيبال[3].

«وجاءت أهمية إيليون (طروادة) من موقع المدينة الممتاز الذي يشرف على مدخل المضائق. فإن جميع السفن التي تقصد البحر الأسود لا بد من أن تمر أمام طروادة. وهي كثيراً ما تضطر للالتجاء إلى الشاطئ بسبب الرياح الشديدة التي تعصف من حين إلى آخر. وكان أكثر التجار ينزلون بضائعهم في المدينة ويرسلونها إلى البلاد الداخلية في آسيا الصغرى. وقد كانت طروادة مركزاً لطرق القوافل. والآثار التي وجدت بين أطلال المدينة تثبت بأن تجارتها كانت واسعة جداً: من تراقيا، ومن حوض الدانوب، ومن مكيني، وكريت، ومن سوريا، ومصر، بل ومن بلاد بعيدة في قارة آسيا حتى الصين... وكان ملوك طروادة يفرضون المكوس والضرائب على جميع البضائع. ومن هنا جاءت ثروتهم»[4]. وفي القرن السابع قبل الميلاد كانت الدولة السورية (الأشورية) «تسيطر على قبرص، وعلى مملكة ليديا، وعلى المدن اليونانية في شواطئ آسيا الصغرى، كما أقاموا حاميات عسكرية في هذه المدن»[5].

(1) راجع كتابنا الثالث: «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز»، ص28 وما يليها. و:النصوص الفينيقية في قره تبه، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ,1885 ص 131 وما يليها.

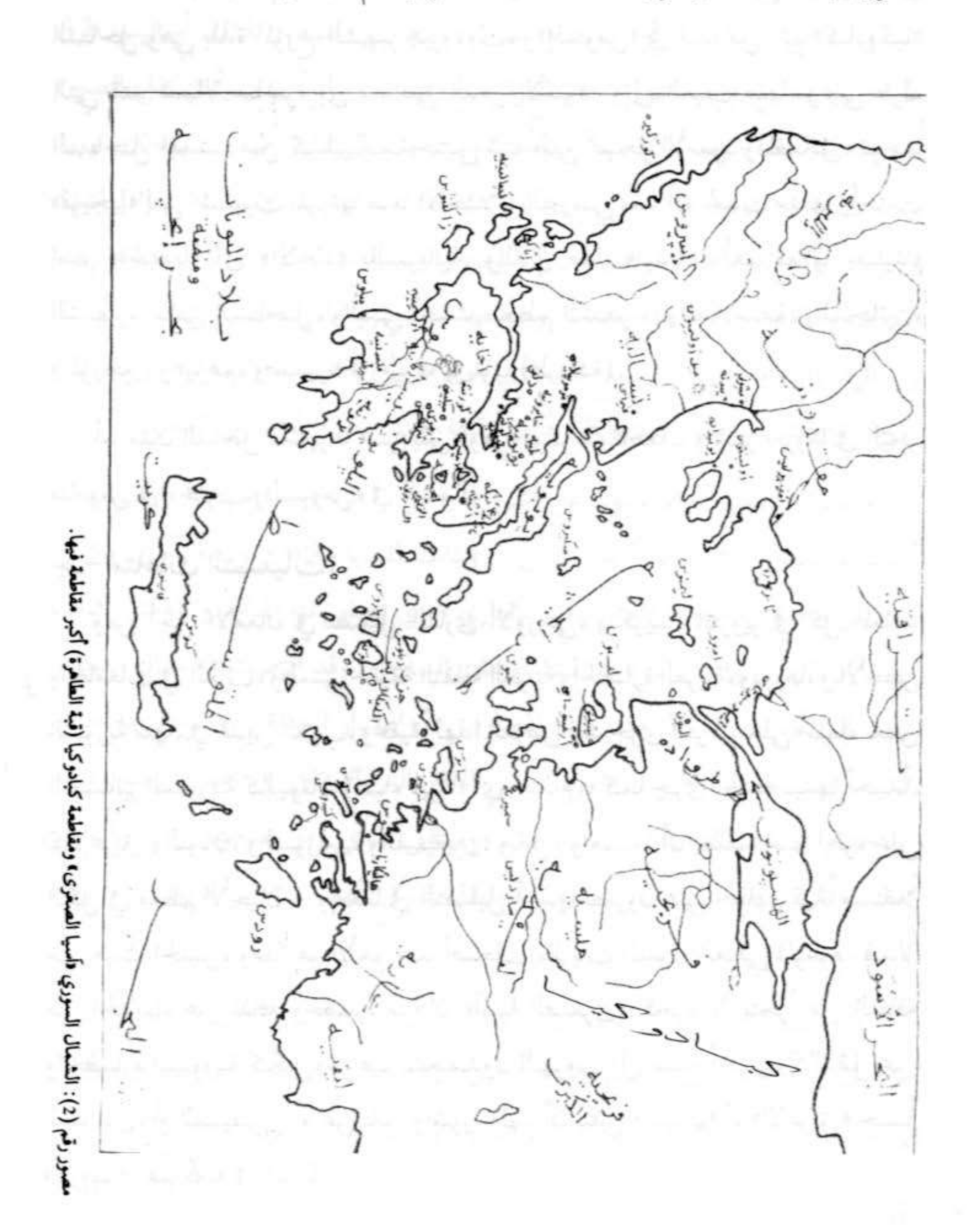
(2) بريستد، المرجع السابق، ص259.

(3) عياد، المرجع السابق، ص136.

(4) المرجع نفسه، ص83.

(5) المرجع نفسه، ص153.

وقد استمر وجود «آسيا الصغرى» كجزء من الدولة السورية بعد تحرير المنطقة من الفرس، حيث أعاد الاسكندر «بابل» عاصمة للدولة وليس غيرها، وفي زمن الدولة السورية بعد الاسكندر حين كانت العاصمة «سلوقيا» ثم «أنطاكية»...



مصور رقم (2): الشمال السوري «آسيا الصغرى» ومقاطعة كبادوكيا (قبة الظاهرة) أكبر مقاطعة فيها.

ونحن حين ننظر إلى خارطة «آسيا الصغرى» في القرن السابع قبل الميلاد سوف نجد ثلاث مقاطعات رئيسية هي: كيليكيا، التي تتماس شمالاً مع حدود مقاطعة أنطاكية مباشرةً، وأهم مدنها هاليكرنو (بالسريانية هلك أرنو أي مدرج الوعل) على الساحل وهي بلدة المؤرخ الشهير هيرودوت، و«إفسوس» في الداخل. ثم «كبادوكيا» التي تمتد شمالاً مباشرةً إلى شواطئ البحر الأسود. وإلى الغرب منها، وعلى طول الساحل الممتد من كيليكيا حتى شواطئ البحر الأسود والمضائق، توجد «فريجيا»التي اشتهرت بثورتها ضد الاحتلال الفارسي بعد أن اتحدت مدنها فأخذت اسم «الحيديا» أي «الاتحاد» بالسريانية، والذي صار «ليديا» وأهم مدنها «ميليثا» الشهيرة على الساحل، والتي أنجبت معظم الشعراء، والفلاسفة، والنحاتين، والمؤرخين وغيرهم، وصميرنا (إزمير)، وإيلون (طروادة).

أما مدن الداخل فأشهرها «سرديس» وهي مركز المقاطعة. وأشهر جزرها في البحر ساموس في الجنوب و«لسبوس» في الشمال.

جـ- متاهات التسميات:

ومن أجل الإمعان في تضليل القارئ الأوروبي، وتكريس التزوير في كل المعاهد والجامعات في الغرب، وطمس حقيقة الثقافة العربية والحضارة العربية، ودورها، وبالأخص السورية منها، في تمدين الغرب، وتحقيقاً لهذا الغرض فقد جرى التركيز على أسماء بعض العشائر السورية كاليونان (أبناء «يونا» أي حمام)، كما جرى الخلط بينها أحياناً، كالإغريق واليونان، والسوريين، والفينيقيين، وبابل، وتعمدوا أن يطلقوا اسم الجزء على الكل في معظم الأحيان... وإمعاناً في التضليل أخذوا يصرون على جعلهم كياناً مستقلاً من حيث الجنس، وهذا هو الأهم عند أصحاب نظريات التفوق العرقي المزعوم. فبدلاً من الحديث عن ثقافة وحضارة سكان «آسيا الصغرى» كجزء لا يتجزأ من الثقافة والحضارة السورية ككل، نراهم يتعمدون الهروب إلى صيغ أخرى، كالنقل عن السوريين، أو الفينيقيين، أو عن بابل وأشور. المهم أن يبقى «اليونان» أو «الإغريق» جنساً «أوروبياً» رغم كونه في آسيا!

يقول ديورانت:

«فقد نشر الفينيقيون في جميع أقاليم البحر المتوسط علوم مصر والشرق الأدنى (المهم تغييب اسم «سوريا») وصناعاتهما، وفنونهما. وقد بزّ الفينيقيون اليونان في صنع السفن. ولعل اليونان قد أخذوا هذه الصناعة عنهم، وعلموهم كذلك أساليب طرق المعادن، والنسيج، والصياغة... وقد اشتركوا مع كريت وآسيا الصغرى في نقل الصورة السامية للحروف الهجائية إلى بلاد اليونان بعد نمائها وتطورها في مصر واليونان وسوريا. وأخذت بلاد اليونان عن بابل نظام موازينها ومكاييلها، وساعتها المائية ومزولتها، ووحدات العملة المتداولة فيها، وهي الأبول، والمينا، والتالانت (الوزنة)، وقواعد علم الفلك، وآلاته، وسجلاته، وحسابه، ونظامها الستيني الذي يقضي بتقسيم السنة، والدائرة، والزوايا الأربع القائمة الملتقية في مركزها إلى 60 جزءاً (درجة) وتقسيم كل درجة إلى ستين ساعة، والساعة إلى ستين دقيقة، وكل دقيقة إلى ستين ثانية...».

«ولقد أخذ اليونان الإيونيون عن آشور قدراً من المهارة في صنع تماثيل الحيوان وفي أساليب الزينة... وفي طراز النقش البارز... وكانت لليديا علاقات وثيقة بأيونيا. وكانت سرديس عاصمتها الزاهرة بمثابة البيت التجاري الذي تصفى فيه المتاجر والأفكار المتبادلة بين بلاد النهرين والمدن اليونانية المنتشرة على الساحل. وقد اقتضت الأعمال التجارية إيجاد الواسطة في التبادل مثل قيام المصارف... وإصدار العملة... وسرعان ما حاكى اليونان هذا العمل الجليل... وكان له من الآثار التي لا تقل في خطرها وسعتها عن استخدام الحروف الهجائية... وأصبحت موسيقى الناي وما يصحبها من تهتك هي الطراز الغربي. وعبرت هذه الموسيقى العنيفة مضيق الهلسبنت من فريجيا إلى تراقيا، واستخدمت في طقوس أدونيس...»[1].

هذا النص نموذج مثالي للأسلوب المضلل في كتابة التاريخ: اليونان أخذوا كل شيء عن بابل، وأشور، والفينيقيين، والشرق الأدنى. وكأن هذه «التسميات» لا تشملها تسمية واحدة هي سوريا. واليونان «أخذوا» من هؤلاء وليسوا جزءاً منهم.

(1) ديورانت، المرجع السابق، حياة اليونان، ص131 - 133

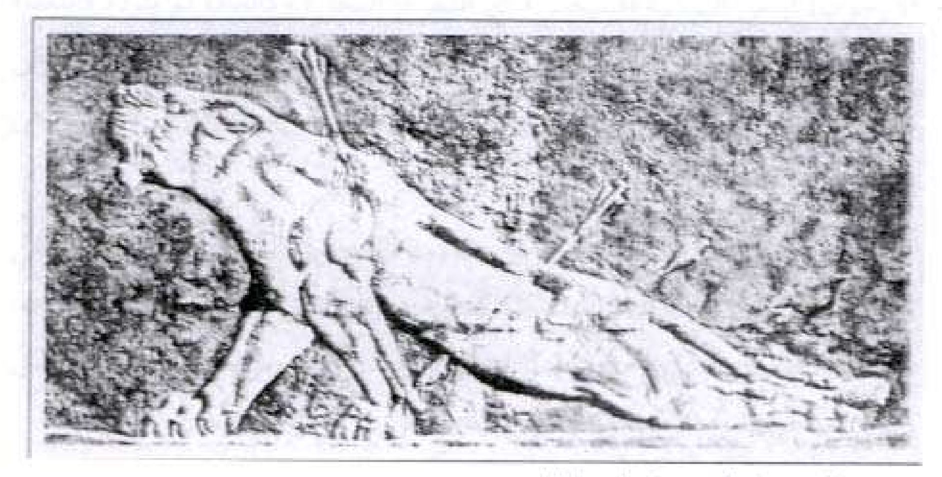


صورة رقم (2): كأسان مطعمان من أور وخفاجة 2700 ق.م.



صورة رقم (3): نحت بارز على إناء نذري – 3000 ق.م – الوركاء.

وقبل أن ننتقل إلى بلاد الإغريق، أي شبه جزيرة المورة، نرى أنه لا بد من إزالة الخلط المعمول به والمتداول إلى اليوم بين «السوريين» و«الفينيقيين»، وذلك ليس من أجل تحري الدقة والعلمية في الأبحاث والدراسات التاريخية، بعد أن تضافرت جهود المزورين لأغراض شتى من أجل تغييبها عن الساحة، من جهة، ومن أجل كشف ظاهرة الجدل بين التيار السوري الوحدوي الذي تمثل دوماً في الدولة المركزية الكبرى، وظاهرة الانعزال والمصالح التجارية الأنانية الضيقة التي مثلتها ما دعي بـ «الظاهرة الفينقية» في تاريخ المنطقة القديم كله، هذه الظاهرة التي كنا قد نوهنا عنها في السابق، وأرجأنا البحث فيها إلى موضع لاحق.



صورة رقم (4): نحت بارز للبوة جريحة - العصر البابلي.

III

<الفينيقية> و<الفينيقيون>

1 – أصل التســمية:

زعم المؤرخون في الغرب ـ الذين جعلوا من الإغريق وروما أصلاً لكل شيء – أن تسمية «الفينيقيين» كلمة إغريقية وتعني «الحمر» لأن هؤلاء اشتهروا بصباغ الأرجوان! أو من اليونانية «فينيكس» أي التمر أو النخل! وكالعادة لم يتردد «النقلة» العرب المحدثون، الذين تخرجوا على أيدي «مكيفي التاريخ» في جامعات الغرب، عن نقل هذا التزوير كما هو. لم لا، والحصول على شهادة الدكتوراه في الغرب رهن بالالتزام بذلك التزوير!

أما الحقيقة فهي أن التسمية عربية صميمة باللهجتين السريانية والفصحى. ففي القاموس السرياني أو الكلداني نجد أن الكلمة من الفعل«فْنِقْ» Fnek ويعني: نعم، رفه، دلل، متع، عظم... «فونيق»: منعم، مدلل، رغيد، مجيد. وفي قاموس محيط المحيط نجد: فنق وفنق: نعم، أرغد، وعيش مفانق: ناعم ورغيد. والجواري الفنق: الناعمات، الرافهات.

ومن الناحية التاريخية لقد وضع المؤرخ السوري «ساخونياتن» كتاباً في تسعة أجزاء سماه «تاريخ فينيقيا» منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وذكر فيه أن «قناء» الذي هو أخو أوزيريس كان أول من لقب نفسه بـ «فونيق»[1]. وإذا ما علمنا أن «قناع» أو «قناء» بالهمز في القاموس السرياني تعني: الأكمد، الأغبر، الأسود، القانئ، أي الأحمر إلى سواد. ومنها «القانئ» في الفصحى من «قنأ» أي احمر، وقنأ لحيته خضّبها بالسواد. وإن زمن «قناع» و«أوزيريس» يعود، حسب كل المصادر، إلى الألف الثالث قبل الميلاد، أي قبل أن تطلق كلمة «إغريق» على أي من البشر في شبه جزيرة المورة، اتضحت لنا الحقيقة.

(1) انظر «نظرية التكوين الفينيقية»، اوآثارها في حضارة الإغريق، ترجمة وتعليق يوسف الحوراني – دار النهار – بيروت.

2 – الأصل السكاني:

أما من حيث الأصل السكاني للفينيقيين فقد أجمعت كل المصادر القديمة، ومن بينها مصادرهم، أن أصلهم يعود إلى مدينة «صور» (في سلطنة عمان حالياً) الواقعة عند مدخلي الخليج العربي (الذي كان اسمه «البحر الأرتيري») من جانب، وبحر العرب من جانب آخر. يقول هيرودوت:

«ونهر الفرات مار في وسط المدينة (بابل) فيقسمها إلى شطرين. وهو نهر عظيم عميق سريع الجريان، مخرجه من أرمينيا، ومصبه في بحر أرتيريا (خليج العجم)»[1].

«والفينيقيون كانوا يسكنون سابقاً سواحل بحر أريتريا كما يقولون هم أنفسهم، لكن إذ اجتازوا من هناك إلى سواحل سوريا قطنوها»[2]. أما متى جاؤوا من «صور» العمانية إلى «صور» على الشاطئ السوري المتوسطي يقول هيرودوت: «ولما كنت أرغب في معرفة معلومات أوضح بشأن هذه الموضوعات على قدر المستطاع أبحرت لذلك إلى صور في فينيقيا. ذلك لأني سمعت بوجود معبد مقدس لهرقل هناك. ولاحظت أن هذا المعبد قد زينته نصب كثيرة، ومن بينها عمودان، أحدهما من الذهب المصقول، والآخر من حجر الزمرد الذي يلمع في الليل بشكل غير مألوف. وأثناء حديثي مع كهنة الإله سألتهم منذ متى أقيم المعبد عندهم. فوجدت أنهم لا يتفقون أيضاً مع اليونانيين إذ قالوا إن هذا المعبد قد بني في نفس الوقت الذي أسست فيه «صور» وأنه قد مر على سكناهم بالمدينة ألفان وثلاثمائة عام. ولقد رأيت في «صور» معبداً لهرقل يسمى الثاسوسي، وذهبت بالفعل إلى ثاسوس حيث وجدت معبداً لهرقل بناه الفينيقيون الذين أسسوا «ثاسوس» أثناء تجوالهم للبحث عن أوروبا. كان ذلك قبل خمسة أجيال من ميلاد هرقل بن أمفيتريون في بلاد اليونان»[3].

أما كلمة «صور» فتعني في القاموس السرياني: الجيد، العنق، الحدبة، السنام، قمع الرمان، وهي لا تعني الصخرة بأي شكل كما افترض الغرباء ونقل عنهم النقلة من العرب.

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، المرجع السابق، الكتاب الأول: 180، ص 63.

(2) المرجع نفسه، الكتاب السابع: 89، ص 467

(3) هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، دارن الفن، 1966، ص140 – 141

مما تقدم نخلص إلى أن:

1 - هناك صور المدينة التي عند مداخل بحر العرب والخليج العربي.

2 - وإذا كان زمن هيرودوت حوالي 450 ق.م فإن زمن توطن الصوريين على الساحل السوري في «صور» الجديدة هوحوالي 450 + 2300 = حوالي 2750 ق.م.

3 - وأنهم نسبوا أنفسهم إلى «قناع» Khna (أي الكامد المسود) أخي أوزيريس، والذي كان أول من لقب نفسه بـ «فونيق».

4 - ومما يدعم هذا القول نص مكتشف على لسان «إيزيس» تقول فيه «إنها كبرى بنات قرونو» «وأن كتابة مماثلة تماماً اكتشفت على قبرها في بلاد العرب» وأنها «ربة البحارة»[1]. و«في صور اختبأت عند هربها من التنين (تيفون) طيلة عشر سنين، وأرضعت فيها ابنها حورس»، «وفيها كانت المقدسات والأماكن الحرام التي نذرت لعشتارت بعد تجوالها في العالم، ورجوعها إلى صور وجعلها مركز إقامتها»[2]. ومعروف أن الأرض التي وجدت فيها عشتار، ودوموزي، وأدونيس، والبعل وغيرهم، وفيها عملوا، وعاشوا، وعلموا... إنما هي في شبه جزيرة العرب ما بين جبال السراة ومدن الخليج العربي قبل أن تغمره مياه البحر وبعد تكون الخليج مثل: دلمون، أوروك، نفر، جبيل، صيدا، صور، وغيرها... وهذه الحقيقة سجلها التراث السوري القديم وانتقلت مع انتشار السوريين إلى اليونان وإيطاليا. ومن يقرأ قصة عشتار وأدونيس عند «أوفيد» في كتابه التحولات يجد «وهربت عشتار من أبيها صوب الجنوب مخلفةً وراءها نخيل بلاد العرب. ووصلت بلاد سبأ». وهناك تتحول عشتار إلى شجرة المر (البخور، اللبان). وما تزال جزيرة «سوقطرا» في بحر العرب تحمل اسمها، إذ أن «قترا» هو من أسماء عشتار ويعني المتعالية، المتكبرة، المعظمة، و«سوق» تعني البخور، شجرة البخور، المر، اللبان. أي: بخور عشتار. وفي زمن التنكيل المسيحي البيزنطي بالمثقفين السوريين، والتدمير الكلي للمعابد السورية وللتراث الثقافي السوري الذي كان محفوظاً فيها بحجة أنه تراث «وثني»، ضاعت حقائق تاريخ

(1) أدولف إيرمان، ديانة مصر القديمة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، ص473 - 475.

(2) C.Clemen, die Puenikich, Religion Nacle Philo uon by blos, Leipzing, 1939, 31.

سوريا، الذي هو «تاريخ التمدن البشري على هذا الكوكب». ويكفي أن نشير إلى مجموعة من أسماء الأعلام الذين نكل بهم وبمؤلفاتهم أمثال: جوليان الكلداني، وملك الصوري، وجان ملالا الليدي، وصفتريو الافامي، وداماسكيو (الدمشقي)، وأميان مرسلان وليبانيو الأنطاكيين، وكنتو سماق، وفيلاتو، وبروكوبيو الغزاوي، ونومينو الأفامي وتلميذه جمبليك، وهيليودور الحمصي صاحب رواية «الحبشيات» الشهيرة، وأبولونيو التياني، وسريانو الدمشقي، وماكروب صاحب كتاب «الزحليات» الشهير، ونونو النابلسي صاحب ملحمة «الأدونيسيات». وقد قدر لبعض النسخ من مؤلفات هؤلاء أن تنجو من الحرق والتدمير. ومن بينها «أدونيسيات» نونو النابلسي، التي جعل بطلها الرب السوري أدونيس (باخوس). ففي الكتاب الأربعين من الملحمة يقول: «ترك أدونيس بلاد العرب وارفة الظلال مسرعاً بخطاه ووجهته سوريا».

5 - وإن الاسم، أو اللقب، «قناع» أو قناء (الذي يعني: الأكمد، الأسود) والذي كان أول من لقب نفسه بـ«فونيق» لدليل على أنه، والمنتسبين إليه فيما بعد، من أبناء حام بن نوح الذين اشتهروا بالسواد وتميزوا به عن أبناء عمومتهم الأخرين من أبناء سام ويافث. يقول الطبري: «ونزل بنو سام المجدل سرة الأرض، وهو ما بين «ساتي دما*» إلى البحر وما بين اليمن (أي اليمين، الجنوب) إلى الشام (أي اليسار، الشمال)، وجعل الله النبوة، والكتاب، والجمال، والأدمة (أي السمرة) والبياض فيهم. «ونزل بنو حام مجرى الجنوب والدبور، ويقال لتلك الناحية الداروم**، وجعل الله فيهم أدمة، وبياضاً قليلاً»[1].

«صور» العمانية أم الفينيقيين:

إن ركام التزوير الذي لحق بـ«صور» و«الفينيقيين» وكذلك الخلط مرة، والتضخيم مرة أخرى، إن ذلك كله لا يدانيه شيء إلا ما حدث لـ«مصر» من تزوير، وخلط أيضاً.

* «ساتي دما» كلمتان سريانيتان تعنيان وادي الدم، وقد ذكره لقيان السمياطي في كتابه «الربة السورية»، وما يزال على الخارطة إلى اليوم جنوب غرب مكة.

** «الداروم» هي المنطقة الشرقية من عمان الحالية المطلة على بحر العرب من جهة وعلى الخليج العربي من جهة أخرى. وقد ورد ذكرها في النقوش المصرية القديمة (نقوش الكرنك) التي تعود إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد بصيغة «دور» بين بحرين كبير إلى اليمين (بحر العرب) وصغير إلى اليسار (الخليج العربي).

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الثاني، ،34 ص123.

إن الحديث عن «مصر» وادي النيل في التاريخ جمع وخلط ما بين مصر وادي النيل، ومصريم «العشيرة التوراتية»، و«أقبطانة» المزرعة السورية الصغيرة في شمال سوريا عند المضائق لكن من الطرف الآخر، حيث مصب نهر عشتار (الدانوب) في البحر الأسود. يقول هيرودوت: «ونهر «أستار» يعرفه الكثير من الناس... وهو يجتاز في أقبطانة، وأقبطانة هذه هي محاذية تقريباً لكيليكيا الجبلية، ومن هناك إلى سينوف نحو بحر بنطس»[1]. وكذلك خلطوها مع أقبطانة الفارسية.

يقول هيرودوت: «بعد أن اختار الماديون طلبه، وأنشأوا مدينة ذات رونق ومتانة بقطع النظر عن غيرها من الأماكن. فاستصوب الماديون طلبه، وأنشأوا مدينة عظيمة تعرف اليوم باسم أغبطانا»[2]. ولقد «لملم» المثقفون المصريون كل هذه الـ «أقبطات» ليترجموها إلى «مصر» ولم يوفروا عشيرة مصريم التوراتية، وأبرزها المترجم والشارح المعلق تحت عنوان (هيرودوت يتحدث عن مصر) ولم ينسَ الشارح والمعلق أن يتهم هيرودوت بالجهل الجغرافي القاتل! وإن الشيء نفسه حدث ويحدث مع بعض الأشقاء اللبنانيين في لملمة كل ما يتعلق بـ «صور» و«الفينيقيين» مما تحول إلى تزوير حقيقي في كتابة التاريخ.

وسنأخذ هنا مثالاً على ذلك كتاب «صور حاضرة فينيقيا» بقلم معن عرب، حيث نبرز للقارئ جملة من الشواهد على النقل المزور للتفسير اللغوي، أولاً، وللخلط بين الـ «صورات» ثانياً.

أولاً - في التفسير اللغوي:

يقول الكاتب: «أطلق الصوريون على مدينتهم اسم «صر» sr الذي يمكن إرجاعه إلى الأصل «طر» والذي يعني في أكثر اللهجات السامية الصوان أو الحجر الحاد، وفي المنجد: طر السكين حدها»[3].

(1) المرجع نفسه، 98، ص60.

(2) هي اليوم مدينة همذان.

(3) معن عرب، صور، حاضرة فينيقيا، دار المشرق، بيروت، ص5

أما الحقيقة فإن كلمة «صور» سريانية صميمة، وهي في القاموس السرياني تعني: جيد، عنق، رقبة، رأس، حدبة، سنام... وإن «نونو» السوري النابلسي كان يتقن لغته السريانية التي كتب بها ملحمته الخالدة (الأدونيسيات) وذكر فيها وصف صور قائلاً: «إن صور تقع في وسط البحر قطعة من اليابسة، تكتنفها المياه من جوانبها الثلاثة. تستلقي فيها كما لو كانت عذراء تسبح، تاركةً للمياه الرأس والعنق والصدر، ناشرةً ذراعيها إلى الجانبين، بينما يضفي الزبد على جسدها بياضاً ناصعاً»[1]. وتلك هي «صور» العمانية وليست غيرها.

ثم يقول: «وكان تحوتمس الثالث (1447 - 1501) أول من ذكر صور في نقوش في الكرنك... على شكل «ض ر dr » حيث يحل حرف «ض» محل الصاد السامية»[2].

وهذا القول يعبر مرة أخرى عن الجهل بالسريانية التي كانت لغة سكان وادي النيل أيضاً، والتي لا تضم صوت الضاد الذي انفردت به العرباء أي الفصحى.

أما ورودها بصيغة «در» فهي «دارو» و«داروم» بعد إضافة الصوتيات التي نادراً ما كانت تكتب. وكان «التمويم» لهجة سريانية كنعانية حامية، أي إضافة صوت الميم إلى نهاية الاسم مثل ماري ـ مريم، كلتو ـ كلتوم، ملكو ـ ملكوم، وهو يعادل التنوين في الفصحى. وقد كنا أشرنا إلى ما أورده الطبري عن مساكن بني حام في الجنوب في الـ «داروم». و«صور» ليست «داروم» بل واقعة فيها.

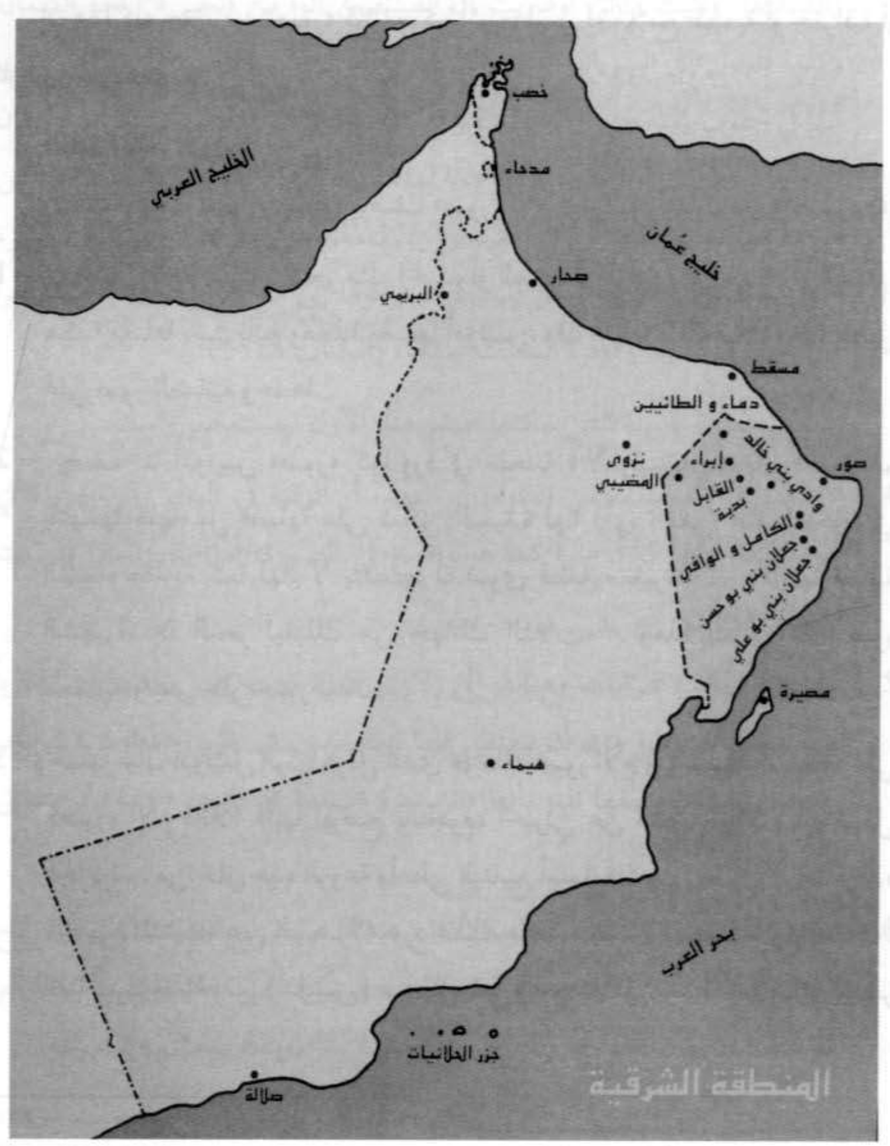
ثانياً – من حيث الخلط:

- لقط خلط الكاتب بين «صور» الأم في عمان، و«صور» البنت في لبنان، وجعل الاثنتين في واحدة هي صور لبنان.
- لقد خلط بين «صور» التوراتية و«صور» لبنان، وجعل الاثنتين في واحدة هي «صور» لبنان.
- لقد خلط بين جزيرة «صور» وصور اللبنانية، وجعلها واحدة هي صور لبنان.

---

(1) المرجع نفسه.
(2) المرجع نفسه.

- لقد خلط بين «صور» و«جبيل» على ساحل بحر العرب والخليج مع صور وجبيل لبنان، وصار الكل لبنانياً.
- لقد خلط بين «مصر» العشيرة التوراتية مع مصر وادي النيل.
- لقد خلط بين «صيدون» العشيرة الكنعانية الحامية في الجنوب ومدينة صيدا.



مصور رقم (3) يبين صورة الأم (في عمان الحالية).

- لقد خلط بين «صور» و«جبيل» على ساحل بحر العرب والخليج مع صور وجبيل لبنان، وصار الكل لبنانياً.
- لقد خلط بين «مصر» العشيرة التوراتية مع مصر وادي النيل.
- لقد خلط بين «صيدون» العشيرة الكنعانية الحامية في الجنوب ومدينة صيدا.

إن هذا كله جعل من «صور» كائناً مركباً أشوه، ليس له ملامح طبيعية أو جغرافية أو تاريخية يعرف بها.

عملية الخلط الأولى:

ولإيضاح ذلك لنقرأ ما يتعلق بوصف «صور» الأم العمانية ولنقارن بين «الصورين»:

1 - إن «صور الأم» تبرز في البحر مثل الجيد، أو العنق، أو الرأس، أو الحدبة، أو السنام. هكذا معناها بالسريانية وهكذا وصفها أدونيس. وقد أوردنا ذلك قبلاً. وهذا ينطبق على صور العمانية وحدها.

2 - يصف لنا أدونيس «صور» كما ورد في ملحمة «الأدونيسيات»، بأن «البحر لم يلتهمها كلها، بل فصلها على شكل السيدة لونا (أي القمر) عندما تكون في السماء مقاربة كما لها، لا ينقصها له سوى قطعة صغيرة»[1]... و«أيتها المدينة الشهيرة، إن البحر ليقبلك من جهاتك الثلاث»[2]. وهذا ينطبق على صور العمانية وليس على صور لبنان.

3 - وحينما سأل أدونيس الرب هرقل الذي هو ملك صور الأم ومؤسسها، أن يعرفه على «صور» الأم قائلاً: «أيها المرصع بالنجوم، أخبرني عن هذي البلاد وعن شكل الجزيرة... من خلق هذه الروعة وأعطى الينابيع أسماءها؟ من ربط إلى اليابسة هذه الجزيرة المنشقة عن البحر؟». ورد عليه هرقل بجواب لطيف أشبع فضوله: «سأخبرك يا باخوس (أدونيس) عن كل شيء. مع كلامي منذ الأزل سكن البشر هنا. عمرهم كعمر الكون»[3].

---

(1) المرجع نفسه، ص/ج.
(2) المرجع نفسه، ص/د.
(3) المرجع نفسه، ص5.

وهذا ينطبق على «صور» الجنوب على بحر العرب، حيث أثبتنا في كتابنا الثالث أن شبه جزيرة العرب هي المهد الأول للإنسان العاقل الأول. وهذا لا ينطبق على «صور» لبنان التي أكد كهنتها لهيرودوت - كما سبق أن مر معنا - أنهم قدموا من ساحل البحر الأرتيري (الخليج العربي) في حوالي 2750 ق.م. وبنوا صور السورية (اللبنانية). وتثبت وثائق أوغاريت أن الفينيقيين أتوا من «نجبي»[1] نحو الشمال وكلمة «نجبي» في السريانية تعني الجنوب، وما تزال مدينة «نجبي» إلى اليوم جنوب أبها في جنوب شبه جزيرة العرب. ويؤكد «دوسو» قائلاً: «إن موطنهم الأصلي كان شبه جزيرة العرب أو الصحراء المتاخمة لها شرقاً». ويؤكد جوستين «أنهم نزحوا عن موطنهم بسبب الهزات الأرضية والزلازل، فأقاموا أولاً عند ضفاف البحيرة السورية الساكنة (أي البحر الميت) ثم تركوها إلى شواطئ المتوسط حيث بنوا مدينة دعوها «صيدا» لوفرة السمك عندها» (الكتاب 18: ٣).

واضح، إذن، أن المدينة التي سكنها البشر منذ الأزل ليست صور لبنان.

4 - إن «صور» الأم مؤلفة من النتوء، أو النهد، أو الرقبة في البحر ومن جزيرة في البحر تبعد عنها 355 متراً كما هو واضح في الصورة، أمّا صور لبنان فليست هكذا ولم تكن.

5 - وإن هذه الجزيرة تعرضت مع البر إلى زلازل كثيرة كانت تغير مكانها أحياناً قرباً أو بعداً من الشاطئ دون أن تختفي تماماً كما حدث في جزيرة «ديلوس» في بحر إيجه، لهذا فقد وصفها نونّو بأنها «الصخرة الهائمة في البحار» وهذا لا ينطبق على صور لبنان.

6 - وأن الرياح البحرية التي تهب على الأمواج عندها هي «رياح الجنوب» وليست رياح الغرب. فهناك تأتي الرياح من بحر العرب من الجنوب فعلاً وليس من البحر المتوسط الذي تأتي أمواجه والرياح من الغرب[2].

---

(1) R.Ussaud, Syria, 1936.

(2) المرجع نفسه، ص/د.

أما كلمة لبنان فهي بالسريانية جمع «لِبَنْ» وتعني: اللّبان، الكندر، الصنوبر، المرّ، البخور. وقد أطلقت الكلمة قديماً على كل الجبال التي تكسوها أشجار العرعر أو الصنوبر أو المرّ أو البخور. وإن كل «لبنان» وردت في التوراة لا علاقة لها بجبال لبنان السورية المتوسطية*.

7 – وإن «جزيرة صور» مؤلفة من قطعتين مثل صخرتين تفوح منهما رائحة العنبر الذي هو عبيرها الطبيعي[2]. والمسك والعنبر ، أينما حل ذكرهما، دليل آخر على البيئة الجغرافية ويشير إلى شبه جزيرة العرب وليس إلى سوريا بما فيها لبنان. والدليل أن عشتار في كل تجلياتها للسوريين «كانت تعبق معها في الجو رائحة بلاد العرب، رائحة العنبر عند كل ظهور لها».

8 – وإن جزيرة صور ومدينة صور البرية كانتا غنيتين بينابيع المياه العذبة:

«أيها المرصع بالنجوم، أخبرني عن هذه البلاد، وعن شكل الجزيرة. أي إله بنى المدينة وأي ابن سماء وضع تصميمها. من الذي رفع صخورها وثبتها في البحر؟ من خلق هذه الروعة وأعطى الينابيع أسماءها»[3].

إن جزيرة صور العمانية ما تزال إلى اليوم غنية بينابيع المياه العذبة والكثير من العيون مثل عين القطارة وعين وادي بلاد وغيرها من العيون بالقرب من جبل (الحلم). وتسمى إلى اليوم جزيرة «مصيرا Msera» وهي تصغير صور، والميم للتعريف في السريانية، وهي لهجة عسير والجنوب، وقد انتقلت إلينا كأن نقول «مبارحا» بدلاً من «البارحة» والأصل «مصويرا».

وفي النشرات العمانية «كانت مصيره المرابطة في بحر العرب محطة استراحة للسفن المتوقفة على شواطئها للتزود بالمياه العذبة. ويتردد بأن الاسكندر المكدوني اتخذها قاعدة واسماها صير أبيس»[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص/د.

* لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود».

(2) معن عرب، المرجع السابق، ص/و.

(3) المرجع نفسه، ص/هـ.

(4) مسيرة الخير الشرقية، وزارة الإعلام العمانية، ص 161 .

أما «صور» البرية في عمان فعيونها أكثر من أن تعد نذكر منها كهف «مقل» حيث تندفع المياه بغزارة لتتجمع في بركة، سرعان ما تختفي لتظهر من جديد في أفلاج. وعين دوه، وعين الكبيرة، وعين كناره، وخابية الخمرة، والحوية، وعين غلالة... وهذا لا ينطبق على «صور» اللبنانية المتوسطية.

9 - وفي حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد يخبرنا «نونو» السوري أن بركاناً أطلق ألسنة اللهب في بعض أنحاء الجزيرة، وطوق أشجار الزيتون فيها، فهجرها الكثير من سكانها. أما إيزيس فقد هربت إلى أحد الكهوف هناك من «التيفون» الذي يعني بالسريانية: الإثفية، النار، البركان، وأرضعت ابنها «حورس» عشر سنين (الكتاب الحادي عشر).

تقول نشرة «مسيرة الخير الشرقية» الصادرة عن وزارة الإعلام العمانية:

«وتمثل العيون والأفلاج والكهوف معالم سياحية لولاية «صور»... ومن أهم الكهوف التي تشتهر بها ولاية صور «كهف مجلس الجن» والذي يتردد بأنه يتسع لسبع طائرات، وقد تم اكتشافه بواسطة الأقمار الصناعية إضافةً إلى كهف العيص وجرف منحرف»[1].

وواضح أن المقصود بـ «مجلس الجن» هو مجلس الأرباب، والمعلمين الأوائل، الذين لم تكن إيزيس إلا واحدة منهم. وهذا ربما هو ما قصده بالضبط «موفرز» من خلال ما تصف به المصادر السورية القديمة جزيرة صور إذ يقول: «وهذه الجزيرة كانت تعتبر سكن الآلهة ومحل إقامتها، ومكاناً حراماً لا يدخله سوى الحجاج والكهنة، وهي التي كانت السبب بشهرة صور كجزيرة مقدسة وكمنزل للآلهة»[2].

وهذا كله لا علاقة له بصور اللبنانية. وليس «كهف العيص» المار ذكره في الجزيرة إلا نسبة لأحد الآباء العرب الأقدمين الذي هو «عيصو» أو «عيصيو» بالسريانية، والذي صار في الترجمات «أوزوس» ففي «تاريخ فينيقيا» لساخونياتن

(1) المرجع نفسه، ص 162

(2) F.C.Moress, die Phonizies tt, bonn 94 1481- 691

نقرأ: «والأخوان أوزوس وشمم رمو... هما أول من سكن فينيقيا» و«قد نشأ على الشاطئ المقابل لجزيرة صور. ويتسبب شمم رمو بخلاف مع أوزوس الذي يأخذ شجرة وينزع أغصانها، ويقورها، ثم يبحر عليها حتى الجزيرة حيث يؤسس صور». إن «أوزوس» هذا هو «عيصو» أو «العيص» حالياً. وهو الذي تسمى «كهف العيص» باسمه. والاسم بالسريانية، ككل الأسماء التي وصلتنا، ليست إلا ألقاباً تعبر عن حال صاحبها الشكلي أو النفسي. وهو من الفعل «عصي» ويعني في القاموس السرياني: «عصا، تمرد، خالف، عند، غضب، أحضر، أخرج، شذب، نظف، قلع، استأصل، قطع، قور، حفر...». أليس يحكي هذا الفعل في شتى معانيه قصة «أوزوس»! أما «شميم رمو» فتعني بالسريانية: القائد الأعلى. إذ أن «شميم» هي في الأصل السرياني «شميعم» أي «شميع» + ميم التمويم، و«شميع» بالسريانية تعني حرفياً: رئيس، أمير، قائد، مشهور... و«رمو» تعني العالي، الأعلى، السامي وهذا أيضاً لا علاقة له بصور السورية اللبنانية.

10 – «وفي جزيرة صور ـ حسب موفرز أيضاً ـ «هيكل لبعل السماوات» (بعل شميم) الذي دعيت صور بسببه الجزيرة المقدسة»[1].

وقد جاء في الكتابات الكلاسيكية أن فيها هيكلاً لـ «بعل تيروس»[2]. و«بعل تيرو» بالسريانية تعني بعل الصياد، الرب الصياد، رب الصيد أو الصيادين، وليس معناها (صور القديمة)، كما فسرها معن عرب، واعتبر أن «بالي» تعني قديم، و«تيرو» تحوير عن «صور» بالتاء بدلاً من الصاد! كما نقل صاحب كتاب «صور حاضرة فينيقيا». وإن هيكل البعل الصياد هذا لا وجود له في صور السورية (اللبنانية).

11 – إن رب السماء، الشمس، المرصعة عباءته بالنجوم، حين تجلى لأدونيس، وقص له قصة بناء مدينة صور على الجزيرة، قال فيما قال له إنه علم أهل صور «صنع مركبة يسيرونها على سطح البحر ليقوموا بمأثرة تأخذها عنهم باقي الأمم». ثم خاطبهم بالقول:

---

(1) Ibid.

(2) ديودور الصقلي، 18:40. و: سترابون، 16: 22، 3.

«شقوا سطح المياه بمركبتكم حتى تصلوا إلى المكان الذي اختارته لكم الأقدار. وهناك تجدون صخرتين عائمتين تتقاذفهما الأمواج وتدعيان «العنبريتين» لعبيرهما الطبيعي. وفي وسطهما شجرة زيتون عظيمة في أعلاها عقاب، ومسن الشجرة تنبعث ألسنة من اللهب، كما تتأجج النيران عند جذعها، فتلتهب ولكن لا تحترق. وحول جذعها يلتف ثعبان مخيف».

«وبعدها أظهرت لهم آيات ثانية دليل محبتي الكبيرة لسكان مدينتي، أنا سيد الجزيرة المقبل. وأخرجت من وسط البحر دلفيناً كالسفينة، يتهادى في سيره بين الأمواج. فأمعنوا النظر ملياً في هذه «السمكة» وسرعان ما تعلموا منها بناء سفينة صالحة. إذ صنعوا زورقاً على شكل الدلفين، وزعوا في أرجائه أربع حجارة لحفظ توازنه مقلدين بذا البجعة في هجرتها عندما تحمل ثقالة من الحجارة بين قوائمها كي لا تبقى خفيفة تتقاذفها الرياح في طيرانها. وتجرأوا بالنزول بسفينتهم إلى اليم، فدفعتهم الرياح إلى المكان الموعود. وربطوا زورقهم إلى الجزيرة، وأتوا إلى شجرة «أثينا» مفتشين عن العقاب الذي قدم نفسه للهلاك عن طيب خاطر... وعلى صخور لا ينال منها الزمن بنى أبناء الأرض المدينة «الأم الحصينة». لقد قصصت عليك أيها الفاضل أدونيس عن شعب هذه المدينة النابع من الأرض لتتعرف على تاريخ أسلافك القدامى وأصلهم الصوري. والآن أريد أن أحدثك عن الينابيع...»[1].

إنه من الواضح أن الانتقال في المركبة الأولى كان من صور البرية إلى صور الجزيرة والمسافة جد قريبة، وأن صور الجزيرة هي التي صارت المدينة الأم للبحارة، وهذا كله لا علاقة له بصور اللبنانية. وإن شجرة «أثينا» يقصد بها شجرة الزيتون وإن العقاب رمز السماء والثعبان رمز الأرض أو العالم السفلي والبركان.

ومن الطريف أن نجد أن جزيرة «مصيرا» Msera قرب صور العمانية تشتهر إلى اليوم بأهم منتجاتها وهما الزيتون والنخيل[2]. وهذا كله لا ينطبق على مدينة صور اللبنانية في شيء.

(1) نونوس، الأدونيسيات، الكتاب 41.
(2) مسيرة... ص181

وقد حفظ لنا الفينيقيون في صور اللبنانية ذكرى هذه الأسطورة الخالدة سواء في تصوير أول مركبة بوحي من الرب الشمس، أو البعل، أو هرقل، ومن حولها الدلافين التي علمتهم كيف يصنعون شكلها، كما نقشت على النقود أسطورة الزيتونة ذات الشعلة المقدسة كرمز للخصب ولخلود السلالة أو الذرية أو أبي السلالة الذي هو «البطل المؤسس» للمدينة. ثم صارت الشعلة رمزاً لخلود الأبطال الشهداء بوجه عام، علماً أن «أثينا» في السريانية هي مؤنث «أتون» ويعني الخصب. فأثينا هي الخصيبة، وربة الخصب.

عملية الخلط الثانية:

أما من حيث الخلط بين «صور» الخليجية، و«صور» اللبنانية، و«صور» التوراتية فأمر يبعث على العجب.

إن التوراة تتحدث عن «صور» العشيرة وعن «صور» المدينة والاثنتان لا علاقة لهما بـ «صور» اللبنانية.

أما «صور» العشيرة فهي التي تعامل معها سليمان زعيم (أو ملك) عشيرة بني إسرائيل (الذي هو يعقوب) في جنوب شبه جزيرة العرب. لنقرأ:

«وأرسل الملك سليمان فأخذ حيرام من صور، وهو ابن أرملة من سبط نفتالي، وأبوه رجل من صور صانع نحاس، وكان ممتلئاً حكمة وفهماً ومعرفة في عمل كل صنعة من النحاس، فوفد على الملك سليمان وعمل كل صنعته (الملوك الثالث 7: 13 - 14). وأرسل حيرام إلى سليمان وقال قد فهمت ما أرسلت به إلي. وأنا أتم كل مرضاتك في خشب الأرز وخشب السرو... وأنت تتم كل مرضاتي بإعطائها طعاماً لبيتي» (الملوك الثالث 6: 7 - 10).

تصوروا ملك مدينة صور يطلب من سليمان زعيم العشيرة البدوية أن يبعث إليه بطعام لبيته مقابل عمل يديه!

إن «حيرام» هذا ليس ملك مدينة صور اللبنانية كما صار شائعاً ومتداولاً في كل كتب التاريخ، وأدبيات الدين المسيحي أيضاً. بل هو من «صور» العشيرة المديانية، أي من فرع مدين بن إبراهيم من زوجته قطورة. والدليل: «وكل مملكة سيحون ملك العموريين الذي كان مالكاً في حشبون الذي ضربه موسى هو ورؤساء مدين: أوي، وراقم، وصور، وحور، ورابع» (يشوع 13: 21).

ومن المعروف أن قسماً من عشيرة المديانيين مهروا بشغل المعدن حتى أطلق عليهم جيرانهم من أبناء العشائر الأخرى من ذرية إبراهيم اسم «القينيين» أي الحدادين، مما جعل سليمان يطلب عونهم دون غيرهم من أبناء عشائر برية العرب.

وتخبرنا التوراة في موضع آخر كيف أن موسى حينما نزل بجماعته في شطيم، أخذ الشعب يفجرون مع البنات المؤابيات والمديانيات. ومن بين تلك المديانيات اللاتي زنى بهن الإسرائيليون كزبى بنت صور، فقتلها فنحاس بن إلعازار الكاهن بن هارون الكاهن هي وصاحبها في الخيمة «واسم المرأة المديانية المقتولة كزبى بنت صور، وهو رئيس أمم، رئيس بيت أب في مدين» (العدد 25: 15).

أما «صور» المدينة التي جاورتها عشيرة بني إسرائيل الرعوية البدوية التي ظلت مساكنها إما الخيام في البرية أو المغاور في الجبال حتى في زمن داود وسليمان[1]، فهي «صور» الخليجية وليست «صور» اللبنانية. لنقرأ في التوراة: «لذلك هكذا قال السيد الرب هاأنذا عليك يا صور، فأصعد عليك أمماً كثيرة كما يصعد البحر أمواجه فيدمرون أسوار صور، ويهدمون بروجها، أسفي غبارها عنها، وأجعلها صخراً عارياً، فتصير مبسطاً للشباك في وسط البحر... وبناتها اللاتي في الصحراء يقتلن بالسياط فيعلمون أني أنا الرب» (حزقيال 26: 3 – 6).

«وكانت إلي كلمة الرب قائلاً وأنت يا ابن البشر أشد برثاء على صور. وقل لصور الساكنة عند مداخل البحار، تاجرة الشعوب في جزائر كثيرة... فارس ولود وفوط كانوا في جيشك... بنو أرواد مع جيشك كانوا على أسوارك... وبنو ددان متجرون معك، وجزائر كثيرة تجار يدك، وقد أدت قرون العاج والأبنوس قياضاً لك. أرام متجرة معك... دمشق متجرة معك... بخمر حلبون وبالصوف الأبيض. العرب وجميع رؤساء قيدارهم تجار يدك بالحملان والكباش والتيوس... تجار شبأ ورعمة متجرون معك... القذافون أتوا بك إلى مياه غزيرة فحطمتك الريح الشرقية في قلب البحار...» (حزقيال 27: 1 – 26).

«بكثرة آثامك في ظلم اتجارك دنست مقادسك، فأخرجت من وسطك ناراً فأكلتك، وجعلتك رماداً على الأرض» (حزقيال 82: 81) وفي أشعيا نقرأ: «وقر صور، ولولي يا سفن ترشيش فقد دمرت حتى ليس بيت ولا مدخل...» (23: 1).

(1) انظر: الملوك الثالث 8: 66، القضاة 7: 8، الملوك الثاني 1: 20، 13، 23.

«عند سماع مصر بالخبر يرتاعون عند سماعهم بخبر صور. اعبروا إلى ترشيش. ولولوا يا سكان الجزيرة. أهذه مدينتكم المرحة التي قدمها منذ الأيام الأولى. إن رجليها تنقلانها إلى أرض بعيدة» (23: 5 - 7). «رضت الأرض رضاً، حطمت الأرض حطماً، زعزعت الأرض زعزعة، مادت كما يميد السكران» (24: 19 - 20).

من هذه النصوص نستنتج بسهولة أن «صور» المقصودة هي جزيرة صور في بحر العرب وليست مدينة صور، ذلك:

1 - لأن صور المقصودة جزيرة وسط البحر أو المياه، وليست مدينة في البر. وهي عند مداخل البحار.

2 - عبارة «وبناتها اللاتي في الصحراء يقتلن» تكشف أنها مجاورة للصحراء الشرقية في شبه جزيرة العرب.

3 - فارس ولود وفوط في جيشها لمجاورتهم لها فعلاً وليس لصور لبنان.

4 - جزائر كثيرة تتجر معها مقايضة بقرون العاج والأبنوس تكشف عن جوارها أو قربها من جزر أفريقيا الشرقية.

5 - وبنو ددان وشبأ ورعمة وجميع رؤساء قيدار هم تجاريدها: إن بني ددان، وشبأ ومدين وآشور هم من أبناء إبراهيم من زوجته قطورة: «وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة. فولدت له زمران ويقشان ومدان ومدين ويشباق وشوحاً وولد يقشان شبأ وددان، وبنو ددان اشور...» (تكوين 25: 1 - 3). وهؤلاء «صرفهم إبراهيم عن إسحق ابنه في حياته شرقاً إلى أرض المشرق» (25: 6) وهذا يفسر مجاورتهم في الصحراء الشرقية لصور العمانية أما حقيقة تلك العشائر السكانية المجاورة لصور الكنعانية الحامية فيمكن أن تكون من العشائر الحامية الأخرى من أبناء كوش بن حام، كما سوف يأتي عند ذكر «كوش». وربما من هذه وتلك في المنطقة رغم الفارق الكبير في زمن وجود عشائر كوش بن حام وعشائر بني إبراهيم. لكن ذكر عشيرة قيدار يجعلنا نرجح بل ونؤكد وجود أبناء العشائر الحامية من أبناء كوش وكنعان، والسامية من أبناء إبراهيم في منطقة واحدة مجاورة لصور العمانية.

أما العرب وقيدار، فموضوعهم يؤكد ما قلناه. خاصةً وأن قيدار هو ابن اسماعيل بن إبراهيم: «هذه أسماء بني إسماعيل بحسب أسمائهم ومواليدهم: نبايوت بكر إسماعيل، وقيدار، وأدبئيل ومبسام ومشماع ودومة ومسا وحدار وتيما ومسا ويطور ونافش وقدمة... وكانت مساكنهم من حويلة إلى أشور قبالة جميع إخوته نزل» (25: 12 – 13 – 18) وأولئك جميعاً وغيرهم من آراميين وأسماء لعشائر أخرى لا وجود لهم حول صور لبنان التي لا تجاور الصحراء، ولا تقف وسط البحر، وليست عند مداخل البحار، ولم تدمّرها الريح الشرقية وسط البحار، ولم تدمر ببركان كما في «حزقيال». أما «مصر» المقصودة في التوراة فهي عشيرة المصريين وليست بلاد وادي النيل: «وعشيرة مصر إن كانت لا تصعد ولا تأتي تنالها الضربة التي يضرب بها الرب الأمم الذين لا يصعدون ليعيدوا عيد المظال» (زكريا 14: 18)[1].

ومثال آخر يدل على تعطيل العقل والجهل بالتاريخ وبالسكان وبالجغرافيا. يورد مؤلف كتاب «صور حاضرة فينيقيا» قولاً نقله كغيره من النقلة العرب دون تبصر عن «بريتشارد»، فيقول: إن الملك الأشوري سنحاريب يترك في سجلاته: «قمت بحملة ضد بعلو ملك صور الذي اعتمد على صداقة تاركو ملك كوش وتخلص من النير الأشوري... فبنيت معاقل ضده ومنعت عنه الغذاء والشراب»[2].

فمن هو كوش؟ يقول الطبري:

«وأما حام بن نوح فولد له كوش ومصرايم وقوط وكنعان... ومن ولد حام بن نوح النوبة والحبشة وفزان والهند والسند أهل السواحل في المشرق»[3]. وفي التوراة نقرأ: «وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان. وبنو كوش سبأ وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا. وبنو رعمة شبأ وددان» (تكوين 10: 6 – 7). إذن واضح أن «كوش» وبقية العشائر الحامية الأخرى هم في جنوب شبه جزيرة العرب، ولا يتردد المؤرخون في أن يفسروا «كوش» بـ «أثيوبيا» اليوم في كل كتابتهم.

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول مصر التوراتية يمكن مراجعة كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود».
(2) معن عرب، المرجع السابق، ص43 – 44 .
(3) تاريخ الطبري، المجلد الأول، ص141 – 142.

ونحن نسأل هنا: كيف يستعين ملك مدينة صور اللبنانية بـ «تاركو» ملك أثيوبيا (كوش الحامية) ضد سنحاريب الذي لم يكن إلا زعيم المحطة على طريق القوافل والذي يتخذ لنفسه اسم ولقب الملك المركزي لأنه وكيله وممثله في المحطة؟ أما النفخ في «صور» إلى حد «التورم» فسنورد مثالين فقط من أجل الاختصار: المثال الأول، قرر الكاتب بجرأة يحسد عليها أن كلمة «سوريا» و«سوريين» جاءت من «صور»! حيث كتب يقول: «كانت صور مهمة إلى درجة أن الإغريق أطلقوا على المنطقة اسم «سيريا» المشتق من «صور» وهو الاسم الذي ما يزال مخلداً حتى الآن في كلمة «سوريا»! والمثال الثاني، هو أن نبوخذ نصر ملك بابل يعجز عن صور بعد حصارها خمس سنوات، فيهاجم مصر، ويستولي جيشه عليها وعلى كنوزها لأتعابه التي لم يكافأ عليها أمام صورا»، أية شعوذة! وأي ورم!.

إن نبوخذ نصر هذا هو وكيل الملك المركزي على محطات الطريق التجاري الدولي، وقد كان وكلاء الملوك على المحطات يسمون بأسماء ملوكهم. وإن مصر هي مصر العشيرة التي زعيمها فرعون وليس ملك وادي النيل. وإن صور المقصودة لا علاقة لها بصور اللبنانية. من كل ما تقدم نخلص إلى ما يلي:

1 - الفينيقيون قوم ينتسبون إلى كنعان بن حام بن نوح. وإلى أحد أجدادهم «قناع» أي الكامد، الأسود، الذي كان أول من لقب نفسه بـ «فونيق» وهم، بالتالي، عرب حاميون، شديدو السمرة.

2 - موطنهم الأصلي جزيرة صور في بحر العرب، ومدينة صور المقابلة على البر، وصيدا وأرواد في المنطقة نفسها لكن المدينة الأم بالنسبة لهم هي جزيرة صور.

3 - كانوا في موطنهم الأم يمتهنون التجارة وصيد البحر، ومراكز تجارتهم تنتشر على طول البحر الإرتيري (الخليج العربي) وشواطئ بحر العرب الشمالية ومداخل الخليج العربي (البحر الأحمر لاحقاً) وجزر وسواحل أفريقيا الشرقية، وقبائل الصحراء الشرقية لشبه جزيرة العرب.

إن هذا شكل النفسية الجماعية الناجمة عن قنص الأرباح الناجمة عن الاتجار بسلع تلك المناطق المذكورة، فطبعتهم بطابعها الخاص الذي تميزت به شخصيتهم، المنطوية على حب المغامرة، والأنانية، وعدم الارتباط بالأرض إلا كمصدر للربح، والنفور من النظام المركزي الذي من شأنه أن يضع القوانين والحدود، ويفرض الضرائب، ويطلب الشباب للخدمة في الجيش...

ثم، وفوق هذا وذاك، إن طبيعة عمل الصياد تفرض عليه التعامل مع الظروف المتقلبة، والأحوال المتقلبة، والمفاجآت الدائمة، وتشترك مهنة الصيد مع مهنة التجارة في هذا كله، إلى جانب استكشاف مواقع جديدة، وأقوام جدد، مما يخلق في الصياد والتاجر الأساس لتكوين عالمه النفسي الخاص، المتصف دائماً بالحذر الدائم، والاستيفاز، والشك، والعين الفاحصة، ومن ثم بتنامي المكر والدهاء، والانقلاب على صديق الأمس، حسب تغير المصالح، وحتى الغدر...

4 - إن قيام الدولة المركزية في سوريا كلها، وشمولها كل شبه جزيرة العرب، وفرضها التنظيم الدائم لخطوط التجارة، وتوفير الأمن، وتنظيم «ترفيق» القوافل الصاعدة من جنوب شبه جزيرة العرب إلى شواطئ سوريا المتوسطية وشواطئ البحر الأسود، لم يكن من شأنه أن يخلق حالة جديدة من الاستقرار والنظام والازدهار الاقتصادي فحسب، بل أدى ذلك أيضاً إلى تعميم المعلومات حول شتى بقاع الدولة وأطرافها عن طريق رجال القبائل المكلفين بمرافقة القوافل، وبواسطة الجيش المركزي، وجيش كبير من الموظفين. وكان السوريون قد ملأوا ما يدعى بـ «آسيا الصغرى» بالمدن والمرافئ المزدهرة، وعبروا إلى قبرص وجزر بحر إيجه،وكريت، وصقلية، وجنوب إيطاليا، وجنوب إسبانيا، وعمروا قادس في المحيط الأطلسي، وجعلوا من البحر المتوسط «بحر أمورو» ثم «البحر السوري».

وإن المجالات الواسعة التي فتحها البحر الأبيض المتوسط، بجزره الكثيرة المتقاربة، وبشاطئيه المتقاربين الشمالي والجنوبي، حتى يكادان يتصلان في غربه عند مضيق جبل طارق، وفي وسطه ما بين تونس وصقلية وجنوب إيطاليا، وفّر نشاطاً لا مثيل له لسفن ذلك الزمن، كما شجع على تطورها وتطور فن الملاحة البحرية السورية وما رافقها من إعمار للمدن، ونشر للمعارف، وتشجيع على الانتشار والاستقرار في كل بقعة من الحوض.

كان هذا عامل جذب شديد الفاعلية والأهمية للجنس العربي حتى أطراف شبه جزيرة العرب السفلى، حيث يقف بحر العرب المتصل بالمحيط الهندي عائقاً أمام طموحات تجار تلك المناطق، ويضطرهم إلى الانسياب السهل على سواحل أفريقيا الشرقية، وشرقاً إلى مصب نهر الهندوس.

وبالإضافة إلى عامل الزلازل والبراكين الكثيرة التي أصابت المنطقة، بما فيها جزيرة صور الأم، كما هو مدون في الوثائق، فإن تجار صور ما كانوا ليترددوا في تلبية النداء الجاذب للشاطئ السوري المتوسطي.

تشير كل الوثائق إلى أنهم قدموا، ثم حطوا رحالهم عند شواطئ البحيرة السورية الساكنة أو الميتة (البحر الميت)، ومن هناك إلى الشاطئ السوري المتوسطي، ليستقروا في بلدة غير ذات شأن، ولينشئوا مدينتهم الجديدة التي أطلقوا عليها اسم المدينة الأم «صور». ثم تحول قسم منهم إلى المنطقة التي دعيت فيما بعد «صيدا» ثم إلى الجزيرة السورية الصخرية «أروادي» (أرواد) الحالية.

وقبل أن يتعرفوا على السكان السوريين المحليين وعلى مجالات نشاطاتهم البحرية الممتدة آنذاك من أوغاريت إلى إيلون عند المضائق، إلى قورنثا في المورة، إلى صيراكوزا في صقلية ونيحابولي (نيابولي) في إيطاليا، وإلى قادس في الأطلسي، ظلوا زمناً طويلاً يمتهنون صيد البحر، لهذا فقد أطلق عليهم السوريون اسم « Tire تيري» أي الصيادين. وهي بالسريانية جمع «تيرو» و«تيرا» وتعني: قنّاص، صيّاد، كما تعني: شاطئ البحر، البر (ومن البحارة السوريين انتقلت إلى الإيطالية لتصبح Terra =البر، اليابسة، الأرض عموماً). و«تيوري»: صيد، قنص، كل ما يصاد. «تيريار»: القنّاص، وكان عبارةً عن سفينة سلّحها السوريون بمخراق حديدي في الأمام تحت الماء مثل سكّة المحراث، كانوا يصدمون بها السفينة المعادية، فيخرقونها ويغرقونها. «تيورا» و«تيورتا»: سكة المحراث، ومصيدة، شبكة...

وإن كلمة «صيدا» هي من الفعل السرياني «صد» Sad أي: صاد، قنص، احتال، رصد. صيّد: مبالغته. اتصيد: ابتلى، أصيب، وتورط. أصيد: فحص، بحث، ترصد، جعله يصيد. صيّاد: صياد، قناص، سمّاك. مصيدون: صياد، مترصد، مترقب، كامن، فخ، مكمن. صيدا وصيدو: صيد، قنص، كل ما يصاد. مصيدا، مصيدنا: مصيدة، شبكة...

أما كلمة «أروادي» فهي جمع «أروايدو» وتعني: راكبي البحر. وهي في القاموس السرياني من الفعل «ردا»: ردى، سار، سلك، ركض، عدا، سافر، ركب البحر، جرى، سال، علّم، روض، درّب، قاصّ، عاقب.

ومعروف أن «أرواد» السورية جزيرة صخرية منذ أن وجدت، لا عمل لسكانها إلا ركوب البحر وصناعة السفن والشباك وصيد البحر منذ أن وجدت الجزيرة إلى اليوم.

ولما كانت مهنة الصيد وركوب البحر تعزل أصحابها، بحكم طبيعتها عن مجتمعاتهم المدنية، الصناعية والزراعية المستقرة، فإنها تبعدهم عن الإبداعات الثقافية والحضارية الأخرى، ولا تترك لهم أي مجال للإبداع إلا في مجال مهنتهم التي تشدّهم بعيداً عن واقع مجتمعاتهم وتطوراتها في حياتها الثقافية اليومية. لهذا فإن الإبداع الحضاري والثقافي السوري لم يكن في يوم من الأيام معتمداً على الصيادين وراكبي البحر، ولم ينبثق إلا من المجتمعات الزراعية بالدرجة الأولى، التي نمت فيها الحرف والصناعات، وكل أسس العلوم والفنون والإبداعات الفكرية الأخرى، مثل دمشق، حمص، أفاميا، منبج، اللاذقية، أوغاريت، عمريت، بيروت، ماري، بابل، ميليثا، أنطاكية، إيبلا، نينوى، أشور وغيرها... صحيح إن التاجر يوفر تراكم رأس المال*، سواء أكان وزنات من الفضة أو الذهب أو كان نقداً. وإن مجرد وجود رأس المال من جهة، وتوفير ترويج السلع في الأسواق الداخلية والخارجية عامل ضروري في تحفيز أصحاب المهن والحرف والفن وغيرها من مجالات الإبداع الأخرى، لكنما يبقى الإبداع الفني والفكري والثقافي ومجالاته في جانب، والتجارة في جانب آخر.

بعد هذا كله نخلص، بالنسبة للفينيقيين، إلى ما يلي:

أ- إنهم جماعة عربية حامية، لغتهم هي السريانية بلهجة جنوب شبه جزيرة العرب التي تضيف «التمويم» إلى نهايات الأسماء، وخاصة في الجمع، مثل «إيلو» جمعها في السريانية «إيلي» وفي الكنعانية الحامية «إيليم». وهم سود البشرة عموماً بالنسبة لسكان الساحل السوري، امتهنوا الصيد البحري وصناعة السفن والشباك، ثم مارسوا التجارة بكل أنواعها.

* إن كلمة «كابيتال Kapital» أي رأس المال هي كلمة سريانية في الأصل، وهي من الفعل «كفت» وتلفظ الفاء P أي Kapet وتعني في القاموس السرياني: كفت، جمع، ضم، قبض، كتل، دور، أثمر. «كفتا»: كتلة، جمع، أضمومة، كبة. وإلى اليوم يستخدم سكان الساحل السوري الفعل «كبتل» بمعنى جمع، وكوم.

ب- قدموا من «صور» العمانية في معظمهم، وانتشروا في بعض مواقع الساحل السوري المتوسطي ليمارسوا الصيد البحري زمناً طويلاً حتى غلب عليهم اسم الصيادين «تيري Tire وصيادي» قبل أن ينتقلوا إلى ممارسة التجارة التي كانت في أيدي التجار السوريين.

أما قسمهم الآخر الذي نزح من موطنهم الأصلي في جنوب شبه جزيرة العرب، فقد يمّموا شطر أفريقيا واستوطنوا هناك في حوالي 1300 ق.م وهم الذين أطلق عليهم اسم «البربر».

فقد أورد الطبري في تاريخه عن هشام بن محمد الكلبي: «أن أفريقيس بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان مر بهم متوجهاً إلى أفريقيا، فاحتملهم معه حتى أتى بهم أفريقيا فافتتحها، وقتل ملكها جيرجيرا، وأسكن البقية التي كانت بقيت من الكنعانيين (بعدما قتل يوشع من قتل منهم). قال فهم البرابرة. قال وإنما سموا بربراً لأن أفريقيس قال لهم ما أكثر بربرتكم فسموا لذلك بربراً. وذكر أنه قال في ذلك شعراً وهو قوله:

بربرت كنعان لما سقتها من أراضي الهلك للعيش العجب. قال: وأقام من حمير في البربر صنهاجة وكتامة، فهم فيهم إلى اليوم»[1].

جـ - وفي فترات ضعف الدولة السورية المركزية كان يبرز نشاطهم بغرض الاستئثار بالمراكز التجارية السورية في الخارج لحسابهم الخاص، ولو أدى ذلك إلى تحالفات مع السكان المحليين الهمج في الخارج، أو مع الجيوش الغازية لسوريا كما حدث إبان الغزو الفارسي للشمال السوري.

د - إن الطابع الفردي والأناني الذي خلقته مهنة الصيد والتجارة ظل ملازماً لهم طيلة فترة تاريخهم. ولقد انعكس ذلك في انتمائهم. لقد ظل انتماؤهم للمدينة الأم وليس للدولة أو للوطن. وتجلى هذا الانتماء في كل مواقع انتشارهم فيما بعد للمدينة الأم صور، وليس لسوريا، أو للدولة المركزية، سواء أكانت العاصمة بابل أم أشور، أم

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء الأول، ص312.

نينوى أم سلوقيا، أم إنطاكية. كما تجلى ذاك الانتماء الانعزالي الضيق في عبادتهم. إذ أنهم لم يرتقوا إلى تقديس الرب السوري العام «حدد» أو «حدادي» بكل أسمائه المختلفة في كل المراحل وكان رمزه النسر أو الشمس المجنحة والثور رمز قوته الإخصابية. ومن أسمائه: «رن» (الراني، الناظر، الرقيب)، رع (الراعي، الحارس، الرقيب)، مردوك (السيد أو الرب الطاهر)، ومردوق (الرب الحارس الرئيس، الزعيم، الإمام) و«زيو» (أي السني، البهي، المتلألئ، النور)، وجوبيتر Gopiter وهي مؤلفة من «جوف» و«يثرو» (أي نسر الخصب، الوفرة، الكثرة)، والبعل (أي الزوج). واقتصروا على عبادة هرقل الجد المؤسس لمدينة صور الأم الذي حملوه معهم بلقبه «ملك قرت» ملقارت، أي ملك المدينة، في كل مواقع انتشارهم فيما بعد. وبدلاً من تقديس الأم السورية الكبرى «عشتار» ربة الحب والخصب والزواج والحوامل والأمهات، بكل اسمائها: أنانا، أفروديت، نيروزا، نينورتا، ميليثا، دفني، أفحاميا (أفاميا)، قترا، ماريتا، أنطاحيا، اللات، إيلات، إيليثا، وألقابها: سارا بنيتوم (ربة الكعبة) إيليثا أي الربة، إيلاذقيا (الربة الحارسة)[1]... بل اقتصروا على تقديس «جذع الشجرة، أو جذع النخلة» الذي حكت الأسطورة الكنعانية كيف أن عشتار خبأت الطفل «حورس» (الطير الحر، الصقر) ابن ايزيس في جذع النخلة، فاهتمت به النخلة، واعتنت به إلى أن جاءت أمه وسلمته لها. والحوادث كلها في جزيرة صور العمانية المشهورة بنخلها وبزيتونها. وصارت النخلة أو جذع النخلة رمزاً لديهم للعناية الربانية، فصوروه على النقود ودعوه «تونيتا». والكلمة في السريانية «أونيتا» وتعني: خشبة، جذع، ساق النخلة، ساق الشجرة، كما تعني فطنة، عناية، حرص. والتاء في أول الكلمة للتعريف بدلاً من الدال. مثل «تدمر» أي الأعجوبة، «تبوك» أي الخصيبة. فالأولى من الفعل السرياني «أدمر» أي: أعجب، أدهش، أعجز، حير، ومنه جاء الفعل Admire في اللغات الأوروبية فيما بعد. والثانية من الفعل «بك» أي أخصب، (وحتى اليوم نقول بكّ الديك الدجاجة أي ألقحها وأخصبها) و«بعلبك» أي بعل الخصب.

(1) من أجل شروحات أسماء عشتار راجع كتابنا «تاريخ سوريا الحضاري القديم ـ المركز».

الفصـــل الثانــي

قانون: <الجدل بين الداخل والخارج> وتجلياتـه

إن «حالة» كل من الداخل والخارج التي تتراوح بين منتهى القوة ومنتهى الضعف، مع الأخذ بالاعتبار مضامين هذه القوة، هي التي تحدد شكل العلاقة القائمة بين الداخل والخارج، وتجليات الجدل فيها في هيئة صراع أو تكامل أو حوار. ولما كان شكل العلاقة بين الداخل والخارج متبدلاً بتبدل حالة كل منهما من مرحلة تاريخية إلى أخرى، فإن على الباحث أو المؤرخ أن يلمّ بالواقع التاريخي لكل من الحالتين ضمن عملية التواصل التاريخي ذاته، كي تجعل كتابته للتاريخ موضوعية بعيدة عن التعصب العرقي أو الإقليمي لهذا الطرف أو ذاك.

لكن كلمة «القوة» هنا لا تفي بالغرض عند المؤرخ إذا ما أطلقت مجردة من مضمونها. وعلى الباحث أو المؤرخ أن يكدّ للبحث عن مضمون «القوة» لدى أي من الداخل أو الخارج الذي سوف يتراوح دائماً ما بين القوة المجردة، أو المفعمة بمضمون ثقافي، أو بمضمون حضاري. وليس هذا فحسب. لقد سبق أن قلنا إن الفعل الإنساني هو فعل عقلي، أي إنه فعل واعٍ وهادف، وبالتالي فإن أي فعل عقلي هو فعل استراتيجي، كونه يخضع لخُطَّة ما أو مجموعة من الخطط ينطلق بها من واقع قائم لتحقيق هدف ما أو جملة أهداف تكون تعبيراً عن واقع جديد.

لهذا كله لا يمكن فصل أي فعل للقوة بمختلف مضامينها عن الأهداف أو الغايات التي تسعى لتحقيقها.

ولما كنا قد ميزنا هنا بين مضامين القوة إلى قوة مجردة ذات مضمون غرائزي، وهي مادية بحتة تطمح إلى تحصيل كل أشكال القوة أو تقتصر على بعضها فقط، فإن هذا يجيز لنا التوقف قليلاً لشرح التمايز بين ما هو ثقافي وما هو حضاري.

«الثقافي» و«الحضاري» في التراث العربي:

مررنا فيما سبق على بعض تفاصيل قصة خلق الإنسان في التراث السوري العربي القديم التي جاء فيها أن القوة (أو القوى) الخالقة حين خلقت الإنسان «ربطت عليه صورة الآلهة ونفخت فيه من الروح». ولما كانت القوة الخالقة ليس لها صورة معينة ترى وتعرف بها[1]، ولا تمكن رؤيتها إلا في فعلها، في خلقها، فإن فعل الخلق هو صورة الخالق مع أنها غيره. وبما أن العقل الذي منح للإنسان، وتميز به عن المخلوق الذي كان موجوداً قبله هو وحده فيه القادر على الخلق والإبداع، فهو، بالتالي، صورة الخالق التي قصد بها أن «تربط» على ذلك المخلوق القبْلي، ليتمكن من عملية الخلق والإبداع وإعمار الأرض بما هو حسن، كما في عقيدة المندائيين[2] المعتمدة - حسب اعتقادهم - على كتاب آدم الرسول السماوي »كنزارابا» (الكنز الكبير)، وعلى صحف إدريس.

إن عملية الخلق هذه هي التي تجعل من المخلوق الجديد (الإنسان) جديراً بأن يكون خليفة للخالق على الأرض كما بيّن لنا القرآن الكريم ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[3]، وإن وراءها هدفاً نبيلاً منذ البداية، يتمثل في الخلق والإبداع والإعمار بما هو حسن وصالح ولائق، فتكون الحياة حسنة، وتكون الأرض جنة. وهو ما تميز به عن باقي المخلوقات البهائمية الأخرى التي تدور في دائرة الغرائز المغلقة دون أن تتعداها. إن الإنسان، في جوهره، إذن، دور يمثل به الخالق في عملية الخلق والإبداع، وغاية نبيلة يجسد في تحقيقها خدمة الحياة وطاعة الخالق. هذا الدور وهذه الغاية جمعتهما كلمة عربية واحدة هي الفعل «عبد» الذي يعني في السريانية[4]: «عمل، اشتغل، أبدع، خلق، اخترع،

(1) ما يرد هنا جزء من بحث للمؤلف تحت عنوان «حوار حضارات أم ثقافات: التجليات العربية»، انظر صحيفة «الثورة» الدمشقية الأعداد 16491 - 1, 16521 و4 كانون الأول 2001.

(2) ناجية مراني، المرجع السابق.

(3) سورة البقرة 30.

(4) القاموس الكلداني ـ العربي.

استنبط، صنع، خدم، أطاع» فكما أن الغاية لخصتها في النص العربي السوري (أو السرياني) القديم عبارة «ويخلق عبيداً للآلهة»، فإن الآية الكريمة **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾** تحدّدها أيضاً. وحريّ أن نشير هنا إلى أن كلمة «عبد» في الأصل تعني الإنسان مطلقاً، حراً كان أم رقيقاً. وفي هذا تأكيد على أن اللغة العربية بلهجتيها (السريانية والعرباء الفصحى) إنما هي لغة الإنسان الأول الذي لم يعرف عبودية إلا لخالقه وبالمعنى الذي سبق شرحه فقط.

انطلاقاً من التراث العربي، إذن، لكي يحقق الإنسان إنسانيته، ويسمو عن البهائمية، لا بد من أن يكون عاملاً، خالقاً، مبدعاً أولاً، وأن يكون عمله حسناً صالحاً، ثانياً. فالإنسان باختصار شديد، وبموجب هذا التراث، هو فعل صالح، أو عمل صالح. وهذا هو ما أكده مضمون التراث الفكري والديني منذ الزمن الموغل في القدم إلى اليوم.

إن رحلة الملك جلجامش (بالسريانية جلج أميش أي كاشف سر الحوض) منذ خمسة آلاف سنة إلى «عين الخلد» حيث «مقر الأبرار» بحثاً عن سر الخلود لم تكن إلا من أجل تكريس هذه الفكرة العظيمة، وهي أنه ما من شيء يمنح الإنسان الخلود غير عمله الحسن، النافع، الصالح.

وفي سورة «هود» من القرآن الكريم نجد أن نوحاً يطلب من ربه أن يكون ابنه معه من الناجين، فكان الرد الموجز البليغ بالآية: ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عملٌ غير صالح﴾[1].

إن العمل الصالح المفيد في التراث العربي كله، والسوري منه تحديداً، هو الذي منح الكثير من الآباء الأقدمين مرتبة القداسة، فأطلق عليهم لقب «الأرباب» أي السادة المعلمين (الذي صار يترجم في الغرب خطأ إلى «آلهة») مثل: عشتار، حدد، البعل، أوزيريس، إيزيس، سمير أميس، أدونيس وغيرهم.

---

(1) سورة هود 46.

وهذا هو ما أوضحه الكاتب السوري فيلون الجبيلي منذ ألفي سنة حيث كتب يقول: «إنه من الضروري الإعلان سلفاً، وبكل صراحة... أن السوريين والمصريين الذين كانوا معلمين لجميع الناس الآخرين، كانوا يرون أن الأرباب الكبار (الآلهة في الترجمات!) هم أولئك الذين حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا، أو الذين عمّموا الخير مهما تكن طبيعته بين الشعوب. وقد دعي هؤلاء محسنين بسبب أعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها»[1].

ولو عدنا الآن إلى الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، وتحرّينا عن موقع سوريا الذي كانت تحتله من هذا التصنيف، لعثرنا دونما صعوبة على موقعها في الدائرة الثانية حيث قوتها الثقافية والحضارية المتقدمة في تناقضها مع الآخر الهمجي البدائي.

سوريا في مركز دائرة الحضارة:

اكتشفت النصوص الكتابية التي تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد في سوريا القديمة. ومع ظهور تلك النصوص المنقوشة على الرقم تكشفت أوجه السبق الثقافي والحضاري السوري على غيره من بقاع الأرض الأخرى. علماً أن ذلك الاكتشاف لا يعني بالنسبة لنا تحديد زمن بدء الكتابة.

إن تراثنا، الذي هو أقدم تراث على وجه الأرض، كما سبق أن بينا، يؤكد أن السوريين عرفوا الكتابة منذ الألفين السادس والخامس قبل الميلاد، وأكبر دليل على ذلك كتاب آدم الرسول المسمى «كنزا رابا» (الكنز الكبير) الذي ما يزال المندائيون يتناقلون نصوصه إلى جانب «صحف إدريس» إلى اليوم بلغته المندائية السريانية الموغلة في القدم. وإن اكتشاف النصوص المدونة على الألواح التي تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد لا يعني، بالنسبة لنا على الأقل، أن هذا التاريخ هو بداية تاريخنا المدني. إن النصوص المكتشفة تحدثنا عن الملوك، والأرباب، والمدن، والري، والعمران، وحساب المحاصيل... وغيرها.

(2) يوسف الحوراني، نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الإغريق. ترجمة وتعليق يوسف الحوراني، بيروت، دار النهار، ص ٣٧ - ٣٨.

وإنه لمن المعروف أن المدن السورية، في معظمها تعود إلى الفترة الممتدة ما بين الألفين العاشر والسادس قبل الميلاد. لقد حدد الكربون المشع عمر أسوار أريحا في الجنوب السوري، على سبيل المثال، بالألف الثامن قبل الميلاد. إن هذه الحقيقة هي ما أخذ الكثير من الباحثين الموضوعيين ينتبه إليها، ومنهم هنري فرانكفورت حيث كتب يقول: «إنه لأمر بسيط جداً أن نقول إن التاريخ يبدأ ببدء الكتابة، كما يفعل أكثر المؤرخين. إن قولاً كهذا يصلح بالنسبة لمصر، حيث أن أقدم النقوش تشير إلى أولى الحوادث والشخصيات المعروفة... لكن الأمر ليس كذلك في بلاد ما بين النهرين حيث اتخذت المدينة شكلها، وحيث ظهرت الكتابة قبل أن وجدت الوثائق التاريخية بمعناها المحدود بزمن طويل»[1].

«وإن الانقلاب من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث والتغيير الذي أحدثه بحيث أن نتائجه الأولى تتحدى الإدراك، لكننا نعلم على كل حال أن هذا الانقلاب التالي الذي يعنينا، وقع في الشرق الأدنى»[2].

«وإننا نعلم أن مركز هذا التحول كان يتمثل في »القوس العظيم الذي يمتد من أريحا في الجنوب عبر جبيل، ورأس شمرا، (أوغاريت) على الشاطئ السوري، إلى مرسين في كيليكيا، ومن ثم خلال سهل العمق للشرق من أنطاكية، عبر جرابلس على الفرات، إلى تل حلف، وبازار شاغار في شمال سوريا، إلى نينوى وحسونة قرب الموصل، ثم إلى الشرق، إلى سيالك قرب كاشان في بلاد فارس»[3].

أما عن موضوع «المركز» الثقافي والحضاري للبشرية فيقول:

«ولما كانت الحضارة، أو الثقافة، كما نفهمها اليوم، نشأت لأول مرة، مع، ومن خلال الانقلاب الزراعي ولا سيما زراعة القمح والشعير، فإن بدء الزراعة في سوريا، كما اكتشفت فيها بقايا أقدم الناس الذين استخدموا المناجل»[4].

(1) فرانكفورت، المرجع السابق، ص36.
(2) المرجع نفسه، ص39.
(3) المرجع نفسه، ص46.
(4) المرجع نفسه، ص39.

«انبعثت هذه المعرفة الجديدة من الشرق الأدنى على شكل دوائر كانت تتسع شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت شواطئ البلطيق وبحر الشمال حوالي 2500 ق.م.»[1].

ومع انتشار السوريين في بلدان حوض البحر المتوسط وإعمارها واستيطانها التدريجي والبطيء منذ أقدم العصور، وزحفهم التدريجي في بقاع أوروبا انتشرت معهم ثقافتهم، وديانتهم، ولغتهم، وكتاباتهم دون توقف من عصر إلى عصر، وصولاً إلى عصر النهضة الأوروبية الحديث في القرن العشرين المنصرم بعد المسيح. إن هذه الحقيقة التي أشار إليها فرانكفورت بالقول: «الوسيلة التي بها انتشروا في القارة الأوروبية مّا يشير إلى هذا النمط من النزوح المستمر البطيء في «المركز» حيث «بوشرت ممارسة الزراعة لأول مرة»[2]، وهي التي جعلت باحثاً آخر هو بيير روسي يقول: «أجل، نحن الأوروبيين أبناء آسيا، أبناء العروبة الرافدية والنيلية. أجل نحن هؤلاء في الحقيقة، وهذه هي الخلاصة الوحيدة، التي علينا أن نتمسك بها»[3].

بهذا يتضح كيف أن العرب، والسوريين منهم بخاصة، ومنذ الزمن الموغل في القدم، كانوا أول من دمج الثقافة بالحضارة، أو بكلمات أدق، ارتقوا بالثقافة إلى الحضارة، حين ربطوا الفعل بالهدف النبيل. ولهذا أيضاً نجد أن «الفعل» هو الأصل في الكلام العربي، به تعرف الأشياء، ومنه تشتق بصورة خاصة الصفات التي هي حالات تقييم، وكل أقسام الكلام الأخرى خادمةٌ له، وتدور على محوره. وعليه فهو يحتل مركز الصدارة في الجملة، بخلاف كل اللغات الأخرى. وبه، ومن خلاله، يصدر العربي حكمه على الفاعل والمفعول والظرف، وبه تتعلق كل المتعلقات، وبمضمونه وحده يتعين «الحضاري» في «الثقافي».

بناءً على ما تقدم صار بالإمكان الآن تصنيف الناس معرفياً في أي مجتمع بشري إلى عدة فئات ضمن البناء الهرمي لفعل الفعل:

---

(1) المرجع نفسه، ص41.

(2) المرجع نفسه، ص42.

(3) بيير روسي، مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب، ترجمة فريد جحا، الطبعة الأولى، 1980، دمشق، ص28.

1 - ففي قاعدة الهرم تقبع الفئة من أولئك الذين عطلوا العقل، ولم يفيدوا من حواسهم إلا بما يخدم الغرائز، فداروا معها حيث تدور في دائرتها المغلقة، وبالتالي فقد سقط فيهم الدور كخليفة من قبل الخالق على الأرض، كما أسقطوا بذلك الغاية من خلقهم ككل، وتكون النتيجة الانحطاط إلى مرتبة البهائمية، وفي ذلك تجسيد لمعصية أمر الخالق في مضمون العبادة الذي سبق شرحه، وإن في ذلك ما يغضبه **﴿ويجعل الرجس (أي الغضب) على الذين لا يعقلون﴾**[1].

ويفضي إلى عذاب جهنم **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الإنس والجن لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم عيون لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾**[2].

فالقلب هو العقل + الروح، والغفلة في التعريفات متابعة النفس على ما تشتهيه، أي الانقياد للغرائز وحدها وتعطيل العقل.

2 - وفي المرتبة الأعلى من الأولى تأتي فئة الذين يعملون عقولهم فيعلمون. لكن منهم من يعمل بما علم ومنهم من لا يعمل بما علم فيصبح علمه وعدمه سواء. إن من يقرن العلم بالعمل هو من يتبوأ هذه الدرجة. إن الأفكار أو العقائد، أياً كانت درجة سموّها، لا قيمة لها إذا لم تخرج إلى حيز الفعل. حتى الإيمان بالله الواحد يبقى عديم الجدوى إذا لم ينعكس سلوكاً ومعاملةً وعملاً صالحاً.

لهذا نجد هذا الاقتران الدائم في القرآن الكريم بين **﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾**. وفي هذا يقول علي بن أبي طالب منذ ألف وأربعمائة عام «إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فأقدموا»، ويقول أيضاً «العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل. والعلم يهتف بالعمل فإن أجاب وإلا ارتحل عنه»[3]. وقال: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»[4].

(1) سورة يونس 100.
(2) سورة الأعراف 179.
(3) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، دار الهدى الوطنية، بيروت، المجلد الرابع، ص403.
(4) المرجع نفسه، ص 278 .

وفي إنجيل برنابا نجد: «ألا قولوا لي أللعلم أم للعمل أعطانا الله الشريعة؟ الحق أقول لكم إن غاية كل علم هي تلك الحكمة التي تفعل كل ما تعلم» (77: 3 - 5). «ولعله يخطر في بالكم أن الله أعطى الشريعة حباً في الشريعة. حقاً إن هذا لباطل. بل منح الله شريعته ليفعل الإنسان حسناً حباً في الله» (79: 7 - 10).

وليس شرطاً أن يكون العامل بما يعلم مبدعاً لعلمه. فالعلم ينتقل من إنسان إلى آخر، وإن درجة إتقان العمل به تتفاوت من إنسان لآخر. إن العارف بالعلم المتقن للعمل به، سواء أكان من إبداعه أم من إبداع غيره يدعى مثقفاً.

فالمثقف في اللغة العربية من «الثقف» أي الحذق في الشيء علماً أو عملاً. وثقف الرجل صار حاذقاً فطناً. وهذا هو الاسم الآخر للإنسان العاقل الأول «أومان»ـ في أقدم لغة كما أراده الخالق. لهذا قال النبي العربي محمد صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[1]. وهكذا فإن ثقافة مجتمع ما تشمل كل منظومته المعرفية التراثية المنعكسة في الواقع الحياتي بكل أطيافها ومكوناتها العلمية والدينية، النظرية والعملية، والأخلاقية والتربوية، واللغوية والفنية، وكل ما تجسد منها في هيئة أعراف وعادات وتقاليد وطقوس. وبقدر ما ينشط فيها الإبداع العقلي بقدر ما تكون ثقافة حية متجددة. إن توفر عنصر الإبداع أو عدم توفره هو وحده المعيار في تقدم الثقافة وحيويتها وتجددها، أو في جمودها وانحطاطها وموتها. ولما كان عنصر الإبداع عقلياً فإن تاريخ الإنسان، بكل بساطة، هو تاريخ عقله، فمن أعمل العقل دخل التاريخ وصار فاعلاً فيه صانعاً له، ومن عطل العقل خرج من التاريخ فرداً كان أم جماعة.

3 - فئة المرتبة الأعلى والأسمى لأصحاب الحضارة. لما كان كل فعل إبداعي، حتى في مرحلته الجنينية، يحمل في ذاته أحد احتمالين بحسب قصده أو غايته، وبحسب طبيعة تأثيره في الحياة الإنسانية بخاصة، وفي الحياة على هذا الكوكب بعامة، فهو إما معمر أو مدمر، مصلح أو مفسد، خيّر أو شرير، فإنه خاضع بالضرورة للتقييم الأخلاقي، فيتم تصنيفه بين فعل حضاري وآخر غير حضاري أو همجي. فما كان منه مفيداً ويهدف إلى ازدهار إنسانية الإنسان وارتقائه بخاصة، والحياة بعامة، فهو فعل حضاري ويرقى بصاحبه إلى مرتبة الحضارة، والعكس صحيح.

(1) حديث شريف.

لهذا فإن التراث العربي، والسوري منه بخاصة، يرتكز دائماً على الربط بين الفعل الإبداعي مع غايته وقصده. إن أول عبارة تلقتها الأميرة الحمصية جوليا دومنا قبل أن تتسلم عرش إمبراطورية روما كانت على لسان معلمها أنتيباتر المبنجي «اعلمي يا جوليا أن الأفعال توزن بمقاصدها»[1]. إن نبل المقاصد هو وحده جواز المرور لكل الإبداعات الثقافية إلى جنة الحضارة، وبه وحده يمكن أن تصبح الثقافة والحضارة شيئاً واحداً، وبدونه قد تتحول الإبداعات الثقافية إلى كابوس ينذر بتدمير كل شيء. إن اندماج الثقافة بالحضارة، الإبداع بكل أنواعه، التقني أو الفكري، عند شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، هو الذي يجعل منها أمة صاحبة رسالة تتوجه بها للإنسانية جمعاء ولخير جميع الناس. ولكي تصبح الحضارة رسالة لا بد من أن يتوفر فيها شرطان إضافيان إلى جانب توفر عنصري الإبداع ونبل الهدف، وهما:

ألا تكون حكراً على جماعة من الناس أو شعب من الشعوب، بل أن يكون توجهها إلى بني الإنسان ككل، نقياً مبرأ من التعصب والأنانية. وأن تسترشد بمبادئ وقيم إنسانية عامة مثل: العدالة، المحبة، السلام بين الناس ولجميع الناس.

إن هذه العناصر الأربعة لم تتوفر في مكان أو زمان من تاريخ البشرية كما وفرها السوريون. إن الكلمات التي جاءت في رسالة «البعل» لشعبه منذ خمسة آلاف عام جديرة بأن تنقش في ذاكرة الأجيال إلى الأبد: «حطم سيفك، تناول فأسك واتبعني وازرع السلام والمحبة في كبد الأرض»[2].

إن هذا سوف يتجسد عملياً فيما بعد في المدرسة الرواقية التي أسسها السوريون، والتي سوف يكون لنا معها وقفة في مكان آخر.

والآن، وبعد أن فصلنا في مضمون كل من «الثقافي» و«الحضاري» صار بإمكاننا الانتقال مباشرةً إلى الجدل بين الداخل والخارج وتصنيف حالاته تبعاً لمضمون كل منهما.

---

(1) انظر: جود فري تورتون أميرات سوريات حكمن روما، ترجمة خالد عيسى وأحمد سبانو، منشورات دار علاء الدين، دمشق، و: جان بابليون، إمبراطورات سوريات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطورية الرومانية، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة، دمشق.

(2) من وثائق أوغاريت.

وسوف نعني بكلمة «الداخل» الواقع السوري منذ أن أسس سرجون (شاروكينو) الدولة المركزية الأولى، أي منذ الألف الرابع قبل الميلاد وحتى فجر الإسلام. أما «الخارج» فيشمل حوض المتوسط، وأوروبا كلها، وشمال سوريا ما دام الموضوع سوف يبقى متعلقاً بالإغريق. وفيما يتعلق بعملية تصنيف «الداخل» و«الخارج» من حيث مضمون القوة الذي يحدد شكل العلاقة يمكننا أن نميز، على الأقل، الحالات التالية:

الأولى: أن يكون كل من الخارج والداخل خلواً في وقته من أي مضمون ثقافي أو حضاري فيكون الهدف غرائزياً همجياً، قد يدمر فيه القوي الضعيف، أو تدمر القوتان معاً.

الثانية: أن يكون مضمون القوة لدى أحدهما ثقافياً متقدماً أو حضارياً، والآخر همجياً متخلفاً، وهنا يتوقف الجدل أو الصراع على مدى تسلح «الثقافي أو الحضاري» بالقوة المادية حتى لا يطاح به.

الثالثة: أن يكون كل من الداخل والخارج ذا مضمون ثقافي غير حضاري، فيأخذ الجدل بينهما طابع الصراع الخفي حيناً والمكشوف تارةً أخرى، وتستقر فيهما غريزة حب السبق والهيمنة والتسلط والغلبة، وهذا هو الطابع السائد في كل الدول المتقدمة حتى في عصرنا هذا.

الرابعة: أن يكون كل من الداخل والخارج حضارياً، فيأخذ الجدل طابع الحوار البناء المفيد لهما كليهما وللإنسانية جمعاء. أما إن كان أحدهما مفعماً بـ «الثقافي» والآخر بـ «الحضاري» فإن شكل العلاقة سوف يبقى منوطاً بقدرة «الحضاري» المادي على كبح غرائز الثقافي والتحكم بمسار التطور العام، وإلا فإن «الثقافي» لن يتردد في اقتحام طريق الصراع العنيف إذا ما أحس بإمكانية الغلبة والتفوق. وهكذا نرى كيف أن القوة المادية، كمعطى، مثلها مثل أي معطى آخر، وسواء أكان مضمونها بيولوجياً بحتاً أم تقنياً ثقافياً، لا يجري تقييمها إلا من خلال الأغراض التي تسخر من أجل تحقيقها. فإمّا استخدمت بقصد القتل، والقهر، والسلب والنهب، وابتزاز الآخر ومقدراته، وإذلاله أو استعباده، وبكلمة أخرى: من أجل نفي وجود الآخر كلياً أو جزئياً، فهي لا شك قوة، من حيث التقييم، همجية، ليس لها بالحضارة أية صلة.

وبما لا شك فيه أن القوة التقنية الثقافية المحضة هي في سلم التطور الحلزوني أرقى من القوة البدائية الهمجية، وأدنى من القوة الحضارية. وفي هذه الحال تكتسب دوراً تقدمياً في عملية التطور إذا ما سعت إلى الاقتداء بما هو أعلى وأسمى وعملت على النهوض بما هو أدنى. وعلى العكس من هذا، إنها إذا ما حوّلت الجدل بين الاثنين إلى صراع للنفي تتحول إلى معطى سلبي، مدمّر، معادٍ للهدف الأسمى الذي من أجله وجد الإنسان أصلاً. وهذا كله ليس من الأمور التي يمكن إخفاؤها. إنه ينعكس في الفكر والممارسة وما تفرزه من قيم تنعكس جميعاً في السياسة.

ومن المعروف أن الثقافة الزراعية التي أبدعها السوريون على أرض سوريا لأول مرة في التاريخ، اقترنت منذ البداية بتقديس الأم السورية الكبرى عشتار «الفلاحة» (Pallace, Phallath) «والزراعة» (Serice-Zereth) بكل أسمائها، ورموزها، وطقوسها، وتعاليمها، التي ما لبثت أن تحولت على أيدي السوريين وكاهنات عشتار إلى رسالة عالمية إنسانية لتعليم أصول زراعة بذور القمح وصناعة الرغيف في كل مواقع الانتشار، مكرسين لذلك الأدب، والفن، والأسطورة، والدين. فتحولت بذلك عقيدة الخصب الزراعية السورية «المركزية» إلى ديانة عالمية، أحاطت بالكرة الأرضية مثل «زنار عشتار» يقول جوزيف كامبل:

«ومنذ مطلع الألف الثالث كانت قد ظهرت الوضعية التي كانت قد غدت كلاسيكية فيما بعد، وهي وضعية عشتار الممسكة بثدييها العاريين، والتي سنجدها خلال الفترات اللاحقة لدى كل ثقافات الشرق القديم تقريباً، كمركز لخصب الربة الأم. ولقد أعطتنا التنقيبات الأثرية في مواقع الألف الثامن والألف السابع الكثير من هذه التماثيل، كما هو الأمر في أريحا، ومنهاتا، والبيضا، ووادي فلاحة، والخيام، وتل أسود، وتل الرماد، وتل المريبط، وشتال حيوك... وهذا يدل على أن عبادات الشرق القديم في تلك الفترة إنما كانت تنويعات على أرضية مشتركة، هذه الأرضية المشتركة هي ما نعنيه بـ مصطلح «الديانة المركزية»...

«وخلال العصر النيوليتي نضجت في سوريا الرموز التشكيلية الخاصة بالأم الكبرى... وهي الرموز التي انتقلت معها بانتقال ديانتها النيوليتية إلى الأصقاع الأخرى. ومن تلك الرموز: الصليب المعكوف والصليب العادي، وزهرة الزنبق، وشقائق النعمان، والفأس المزدوج رمز الصاعقة الذي حفلت به بشكل خاص حضارة كريت ومطلع الحضارة الإغريقية... وإلى جانب الرموز التجريدية ارتبطت بالأم الكبرى رموز حيوانية أهمها: الحمامة، الأفعى، الثور، الأسد... وقد انتقلت مجموعة هذه الرموز مع انتقال عبادة الأم النيوليتية إلى الثقافات الأخرى. فانتقلت أولاً إلى كريت، ومن هناك نقلتها السفن عبر مضيق جبل طارق إلى الجزر البريطانية، وجنوباً على طول الشاطئ الإفريقي، ومن كريت أيضاً إلى «مقيني» وهي أول مدينة متحضرة على الأرض اليونانية... ومن الهلال الخصيب وصلت مجموعة هذه الرموز أيضاً إلى مصر منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد. وكذلك اتجهت شرقاً نحو آسيا حتى أقصى أنحاء المعمورة جنباً إلى جنب مع ديانة عشتار»[1].

ولما كانت «اللغة المركزية» في سوريا، و«الكتابة المركزية» في سوريا، فقد كان من الطبيعي والحتمي أن تنتشر «الثقافة المركزية» و«الديانة المركزية» مع انتشار الناس السوريين أنفسهم، وليس بأية واسطة أخرى. فكان، طبيعياً، بالتالي، أن تغطي اللغة السورية (السريانية) كل مواقع الانتشار السوري القديم أيضاً.

ثم أخذت في التشكّل اللغات المحلية التي، لدى الدراسة العلمية الموضوعية لكل منها، سوف نجد أن كلاً منها إنما هي في الأصل والجوهر والحقيقة محصّلة مزيج من اللغة السورية (السريانية) الحضارية ولغة القبائل الهمجية الشفوية المحلية. وقد تمّ في كل منها تحوير للكثير من الأصوات السريانية الأصلية بصورة تختلف عما جرى لها مع الجماعة السكانية الأخرى. وما ينطبق على اللغة ينطبق كذلك الشيء نفسه على الكتابة.

(1) Joseph Campbell, Primitive Mythology, P.143.

يقول جيمس بريستد:

«وكما يقال عن ابن هذه الأيام إنه يتعلم الـ «ألفا بيت» Alphabet ، وهي أثر باق من الدَّين العظيم الذي يدين به الغرب للشرق، ولا سيما للفينيقيين الذين نفحوه بعطية لا تثمّن، وهي الكتابة بالحروف الهجائية التي وصلت إلى إيطاليا من بلاد اليونان، ثم امتدت إلى آخر جهات أوروبا. والحقيقة التي لا مراء فيها هي أن حروف هجاء بلاد الغرب والشرق متسلسلة من حروف الهجاء الفينيقية... وجاء إلى أوروبا لأول مرّة، مع حروف الهجاء، القلم والحبر، والورق، وجاء مع الورق اسمه الشرقي (بابيروس)»[1].

«وأخيراً صارت الحروف السورية (أو الفينيقية) هي التي تكتب بها معظم لغات أوروبا وسائر لغات أمريكا الشمالية والجنوبية. وهكذا، وعلى أيدي القرطاجيين والرومانيين في الغرب، والآراميين في الشرق، انتشرت الآن حروف الهجاء الفينيقية، والحروف الأخرى التي تسلسلت منها من الهند إلى الأطلنطي»[2].

إن ظاهرة الانتشار الثقافي والحضاري من «المركز السوري» كان أشبه بدوائر الماء في بركة ألقيت في وسطها حجر. فكلما كانت الدوائر قريبة من المركز كلما بدت واضحة، لكنها، مع ابتعادها عن المركز، ما تلبث أن تضعف ملامحها حتى تتلاشى في البعيد. وهذا ما دفع بكثير من الباحثين إلى أن يطلقوا عليها اسم «ظاهرة دائرة الموج».

لكن هل كان لمثل هذه الموجة أن تتم هكذا تلقائياً وببساطة، كأية ظاهرة طبيعية، دونما كفاح مليء بالآلام والتضحيات من قبل السوريين الممثلين للمركز آنذاك؟ وهل الرسالة التي أخذوها على عاتقهم في تعليم وتمدين «الهمج» في آسيا وأوروبا على مدى عدة آلاف من السنين كانت تمر مرور دائرة الموجة على سطح بركة هادئة من المياه؟.

هذا ما سوف نتعرف على بعض أهم ملامحه من خلال التحديات التي جابهها السوريون الأقدمون وعلى ضوء قانون «جدل الخارج والداخل».

---

(1) برستد، المرجع السابق، ص295.

(2) المرجع نفسه، ص494.

عاش السوريون (أو السريان) سكان المركز الثقافي والحضاري للبشرية، المتمثل في المشرق العربي الكبير، ومنذ الزمن الموغل في القدم، كثيراً من التحديات الكبيرة والصغيرة، نلخصها في نوعين: داخلية، وخارجية.

أما التحديات الداخلية: فقد تمثلت، بالدرجة الأولى، في التنافس بين المدن على زيادة الرقعة الزراعية التي تخصها أو تخص هذا المعبد أو ذاك، وعلى زيادة حصتها من مياه الري، والمعادن والثروات المكتشفة، ومن أجل الاستئثار ببعض أهم السلع الضرورية إنتاجاً وتسويقاً. ومثل هذا التنافس لم يكن ليقتصر على المدن واحدة ضد أخرى، بل تعداه إلى ما يشبه الصراع بين الطبقات في المدينة الواحدة بعد أن برزت فئة استغلالية متنفذة من رجال المعبد أخذت تستأثر لنفسها بمعظم الخيرات. وقد لقيت هذه التناقضات نوعين من الحلول:

الأول على صعيد كل مدينة: بالحرص على تطبيق العدالة في العمل والإنتاج وتوزيع الثروات، بناء على تشريعات وقوانين تحرم ظلم القوي للضعيف والغني للفقير، واليتيم والأرملة. ونذكر منها في هذا الصدد قوانين «لفت عشتار» و«أوركاجينا» الإصلاحية.

وقد أدت هذه الإصلاحات منذ أكثر من خمسة آلاف عام إلى قيام مجتمع «مدني» منظم إلى أقصى حدود التنظيم، تحققت فيه، ولأول مرة في تاريخ البشر، شعارات ما تزال المجتمعات البشرية إلى يومنا تختلف فيها، وتتاجر بها، مثل: الحرية، العدالة، المساواة، الديمقراطية.

لقد كشفت الوثائق الكتابية حقائق مذهلة، جعلت كثيراً من الباحثين الموضوعيين يعيدون النظر بكل ما كانوا قد تعلموه وورثوه عن أساتذتهم من «مكيفي التاريخ» في الغرب. وحسبنا هنا أن نلخص بعض الفقرات مما كشفته تلك الوثائق، واستعرضه هنري فرانكفورت. يقول فرانكفورت:

أ ـ في مجال التعاون والمساواة:

«وفي الواقع اتخذت الخدمة شكل جهد تعاوني منظم إلى أبعد دقائق التنظيم. فكانت النتيجة مجتمعاً منظماً...»[1].

(1) فرانكفورت، المرجع السابق، ص.72.

«كانت الوحدة السياسية هي المدينة. وكانت الوحدة الاقتصادية الدينية هي المجتمع الهيكلي. كان كل هيكل يملك أراضي هي أملاك الرب. وكان كل مواطن ينتمي إلى أحد الهياكل. وكانوا جميعاً: الموظفون، والكهنة، الرعاة وصيادو السمك، الجنائنيون والمهنيون، قاطعو الحجارة والتجار، حتى العبيد، يشار إليهم بأنهم «عبيد الرب الفلاني» وبوسعنا أن نتصور، من حيث المبدأ، أن كل مجتمع معبدي كان النواة الأصلية لكل مدينة...»[1].

«كانت المجموعة البشرية التي تنتمي إلى معبد ما تحرث جزءاً من أراضي الهيكل الصالح للمجموع... وهذا الجزء من الأرض ـ وهو لا يتجاوز ربعها ـ يدعى الأرض المشتركة، لأن هذه هي الأرض التي كانت تحرث من قبل المجموعة كلها. وهنالك قسم آخر هو الأرض المقطعة Kur*، الموزعة على أعضاء المجموعة لسد حاجاتهم، وهنالك قسم ثالث هو «أرع علال» Aru-ulal **، تؤجر للمستأجر بأجر يتراوح ما بين ثلث المحصول وسدسه...».

«كان الهيكل يقدم الحب للبذار، والحيوانات والأدوات لحراثة الأرض المشتركة. وكان القوم الأعلون منهم والأدنون يعملون كل سنة في الحقول التابعة للرب...».

«ومع أن الحصص لم تكن متساوية، ولا كانت الواجبات المفروضة على الناس شاقة بنفس المقدار، فإننا نلاحظ هنا حقيقة لا مثيل لها في العالم القديم، وهي أن جميع أعضاء المجموعة كانوا من حيث المبدأ متساوين. كان كل واحد يتناول حصة، وقطعة أرض لتأمين حاجاته. وكان الجميع يعملون في الأرض المشتركة، وفي الأقنية والسدود. لم يكن هناك وجود لطبقة عاطلة. وكذلك لم يكن هناك وجود لعبيد محليين. كان بعض الأغراب، أو بعض أسرى الحرب يقتنون كعبيد. كان العبيد يعملون في الهيكل إلى جانب الأحرار كحمالين وجنائنيين...»[2].

---

(1) المرجع نفسه، ص73.

* كلمة «كور» ما زالت منذ خمسة آلاف عام مستخدمة إلى اليوم، فهي بالسريانية والفصحى تعني: الكورة، الناحية، الرستاق.

** بالسريانية التي هي لغة سكان سومر أيضاً «أرعو علالو» أي أرض الغلال، ولأن السريانية لا تحتوي أصوات «ثخذ، ضظغ» من الأبجدية العربية فقد كانت تستعين بالعين بدلاً من الضاد والغين.

(2) المرجع نفسه، ص74 - 75.

«وكان المواطنون، عندما يعملون للهيكل، ينظمون في جماعات أو نقابات تحت إشراف وكلائهم. وكان هؤلاء يوزعون الواجبات بين أعضاء الجماعة، وكانوا مسؤولين عن تسليم المحاصيل، كما يتسلمون مخصصات الجماعة والكشوفات الأخرى التي تحدد أسماء الذين عليهم تأدية الخدمة العسكرية. وتشير (الوثائق) إلى أن الرجال كانوا في ورشهم يعملون كفرقة عسكرية أو كملاك معين، لكنه كان هناك أيضاً جنود محترفون أيضاً...»[1].

أما في زمن السلم فإنهم كانوا يعملون في الأرض المشتركة وفي أعمال البناء الأخرى...

«وفي وقت البذار كان كل قوي الجسم، بغير ريب، في الحقل، كما كانت الحال في إنكلترا في القرون الوسطى. لكن الفلاحين لم يكونوا طبقة منفصلة أو منبوذة، فكل مواطن، سواء أكان الكاهن أو التاجر أو المهني، كان في الواقع فلاحاً يعمل في قطعته لتأمين قوته وقوت المتوجب عليه إعالتهم...»[2].

ب ـ في مجال الإنتاج وعدالة التوزيع:

«وفي المدينة السومرية كان الناس، بالرغم من »المجتمع المنظم» يجدون مجالاً كبيراً للأشغال الفردية... وكان بوسع المهنيين أن يستخدموا مهارتهم الخاصة لقاء عمولة شخصية... وبوسع الراعي أن يتصرف بأية زيادة من القطيع عن الرقم المحدد له في القانون...

وإذا قيل، بعد ذلك، إن جماعة الرب الفلاني ـ المجموعة الهيكلية، كانت تعيش في ظل نظام من الاشتراكية الثيوقراطية (أي الدينية) فينبغي لنا أن نضيف أن هذا الاقتصاد المنظم كان يشكل نواة قاسية محاطة بمجال واسع من تجارة خاصة نصف حرة»[3].

«وكانت الفرصة الفضلى للتاجر ناتجة عن إنتاج مهارة الناس لا من التربة الغنية فقط. وكانت البضائع المرسلة للخارج تحتوي قبل كل شيء آخر على المنسوجات، من أقمشة صوفية وستائر وسجاد، كما تحتوي أيضاً على الأسلحة والجوهرات والأشياء المعدنية المصنوعة... كان التاجر في ذلك العهد البعيد معنياً بالتصدير والاستيراد».

---

(1) المرجع نفسه، ص77.

(2) المرجع نفسه، ص77.

(3) المرجع نفسه، ص81.

أشار م. دافيد M. David في «مجلة تاريخ الحقوق» الجزء 14، ص3-6، في مقال عنوانه:
Bemeskungen zur leidner keilschrift sawwlung إلى أن «الاشتراكية الحكومية» في عصور سومر الأولى لم تستبدل تماماً باقتصاد حر إلا تحت السلالة البابلية الأولى.

«وهكذا، فإن الآثار المادية التي وجدت في الحفريات تثبت أن المجموعة الهيكلية لم تكن تفرض على أعضائها شكلاً صارماً من الحياة كما قد يبدو للقارئ من وصفنا لها، ثم إن النصوص التي تثبت وجود الملكية الخاصة والتجارة تؤيد مرونة النظام. ونحن نعلم، بالإضافة إلى ذلك، أن هذا النظام استطاع أن يتحمل وقع الأيام العصيبة، إذ يقدّر أن الهيكل كان يتسلم من الأراضي المشتركة ومن الإيجارات أكثر بكثير مما يحتاج إليه عادةً. ثم إن الاحتياطي المتجمع كان يصرف في الأحوال الطارئة ـ وهذا ضمان لمؤونة الناس الغذائية أفضل من الاعتماد على التأمين الفردي»[1].

ج ـ في مجال الحرية والديمقراطية:

يضيف فرانكفورت:

«ومع ذلك يبدو أن المجموعة الهيكلية لم تكن مؤسسة سياسية. فإن أقدم هذه المؤسسات التي عرفت آثارها للآن تتميز بروح المساواة نفسها كتنظيم المجموعة الدينية. ويظهر أن السلطة السياسية كانت بأيدي المواطنين. وكانت السيادة في مدينة الرب تنحصر في مجلس يضم جميع الذكور الأحرار...»[2].

«وبما أن ذكر «المجلس» و«الشيوخ» ورد في ألواح الفترة الشبيهة بالكتابية، فإنه بوسعنا أن نخمن أن هذه المؤسسات السياسية الخاصة وجدت مع وجود المدن نفسها».

«يحسن بنا أن نتفهم طبيعة هذا الطابع العجيب لهذا الشكل المدني من التنظيم السياسي... إنه مؤسسة من صنع الإنسان لا يقوم على الانقسام الطبيعي الأولي لمجتمع تألف من العائلات والقبائل. وهو يؤكد أن المسكن لا القرابة هو الذي يحدد علاقات المرء. والمدينة، فوق ذلك، لا تعترف بالسلطة الخارجية. قد تخضع لجار أو لحاكم، لكن ولاءها لا يمكن أن يكسب بالقوة. لأن السيادة فيها تكمن في مجلسها الذي يتألف من مواطنيها. وهكذا كانت المدن القديمة في «ما بين النهرين» تشبه مدن الرابطة التجارية في ألمانيا ومدن إيطاليا في عصر النهضة في نواحي كثيرة...».

(1) المرجع نفسه، ص82, 84.

(2) المرجع نفسه. و: ثوركيلد جاكوبسن، الديمقراطية الأولية في ما بين النهرين القديم، مجلة دراسات الشرق الأدنى، عدد2 عام 1942, ص159 - 172.

«وكان للمجلس القائم على أساس المساواة سيئة: هي الحرية التي تبلغ درجة غير مألوفة. كان الخضوع لإرادة الأكثرية، كما يعبّر عنها في الاقتراع، غير معروف. لقد كان المجلس يستمر في المناقشة تحت إرشاد الكبار حتى يتوصل إلى الإجماع العملي... وفي حالة الطوارئ عندما تدعو الحاجة إلى قرار سريع أو عمل له غاياته الخطيرة، كانت المدينة في ما بين النهرين كالجمهورية الرومانية تضع نفسها في يدي دكتاتور. كانت الملكية تسمى «بعالة» َفقُفْ (أي السيادة)، وبكلام آخر كان للمنصب الملكي مدة محدودة من الزمن. وعند انتهاء الطوارئ كانت السلطة تعود إلى المجلس»[1].

وقد أكدت المكتشفات أنه حتى الملك جلجامش (بالسريانية لقب جلج أميش أي: كاشف سر الحوض*) نفسه لم يكن يتخذ قراراً بالحرب قبل الرجوع إلى مجلسين في أوروك، واحد للشيوخ وآخر للشباب.

يقول صموئيل كريمر حول «الديمقراطية» وأصول نشأتها السورية الأولى في التاريخ:

«وبفضل جهود فرقة الرفش والمعول أصبح في وسعنا الآن أن نقرأ سجل مجلس سياسي انعقد قبل خمسة آلاف عام في الشرق الأدنى قبل أي مكان آخر. أجل، إن أول برلمان سياسي معروف في تاريخ الإنسان المدون قد التأم في جلسة خطيرة في حدود 3000 ق.م ولقد كان مثل برلماننا مؤلفاً من مجلسين: مجلس الأعيان أي مجلس الشيوخ، ومجلس العموم، أي النواب، المؤلف من المواطنين الذكور القادرين على حمل السلاح»[2].

ولن نتوقف هنا عند مفهوم «الديمقراطية» بشكله المزور والشائه الذي اخترعه المؤرخون الغربيون تأسيساً على جهل فادح باللغة اليونانية القديمة التي هي السورية (السريانية)، وفسروا كلمتي «ديمي قراطي» التي تعني بالسريانية الناس المسجلين، المكتوبين، تفسيراً خاطئاً لا يمت إلى الواقع اليوناني ولا إلى لغتهم اليونانية السريانية بأية صلة. فجعلوا جرّاء ذلك التزوير من أثينا مبدعة «الديمقراطية» و«الجمهورية» بل و«الدولة» و«الإمبراطورية»!.

---

(1) المرجع نفسه. و: انظر: مجلة دراسات الشرق الأدنى، الجزء2 ص166، ملحوظة رقم 4.

* في القاموس الكلداني «جلج» تعني كشف، هتك، كشف السر، أزال الغطاء. و«أميش»: حوض، غدير، عين مياه. وقد جاء في نص «ملحمة جلجامش»: «لا يماثله أحد في صورة جسمه يرى جميع الأشياء، ولو كانت في أطراف العالم. كان يبحث عن كل شيء، وعرف كل شيء واطلع على جميع الأسرار واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كل شيء ورأى ما كان خافياً وكشف الغطاء عمّا كان مغطى».

(2) صموئيل كريمر، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى، بغداد، ص81.

أما التحديات الداخلية الأخرى المتمثلة في نزعات التنافس التناحرية بين المدن، ثم النزعات الانفصالية الأنانية الضيقة عند بعض المدن بعد قيام الدولة المركزية الواحدة فقد مثلته بصورة خاصة وبارزة بعض مدن الجنوب السومري، وبعض مدن الخليج التي انصرفت كلياً إلى التجارة البحرية، نابذة خلف ظهرها كل مسائل الدولة وطموحاتها. وكان على رأس تلك المدن «مدينة صور*» على شاطئ الخليج، التي شكلت مع بناتها «الصوريات» الأخرى، سواء على الشاطئ المتوسطي لسوريا، أو في بر اليونان، أو على الشاطئ الليبي، أو حتى على الشاطئ الإسباني، ظاهرة فريدة، تمثلت في النزعة التجارية الأنانية الضيقة، التي تعتمد الحرية بمفهومها الربحي والاحتكاري ضمن إطار المدينة الضيق، لا إطار الدولة ككل. وقد استمرت هذه النزعة ـ كما سوف نبين لاحقاً ـ منذ أن قامت أول دولة مركزية على يد شاروكينو الأكادي، وحتى سقوط قرطاجة وتدميرها.

ولما كانت هذه الظاهرة قد تسمّت عبر التاريخ بـ«الفينيقية» فقد صارت هذه التسمية تطلق خطأ على كل سكان الساحل السوري حتى قبل ظهور «الفينيقيين» وبعده.

وقبل أن نفصل في شرح «ظاهرة صور الانعزالية» بدءاً من «صور» الأم على شاطئ الخليج (في عُمَان الحالية)، ومروراً بـ«صور» على الشاطئ السوري المتوسطي، و«طيبة» في البر اليوناني، وصولاً إلى «قرطاجة» على الشاطئ الليبي (الأفريقي) نرى أن نتوقف عند التحدي الآخر الكبير والأهم، والذي جابهه السوريون طيلة أعصر تاريخهم الطويل. إنه تحدي الخارج الهمجي للداخل الحضاري.

الخارج الهمجي والداخل السوري الحضاري:

ذكرنا فيما سبق كيف أن كلمة «سوريا» كانت تطلق على كل المنطقة التي يشغلها السوريون من وادي السند شرقاً إلى جزر اليونان غرباً، وأن هيرودوت كثيراً ما كان يستخدم اسم «سوريا» بدلاً من آسيا، وأن السوريين (أو السريان بمعنى السادة) هم كل السكان الذين شغلوا هذه المنطقة وتكلموا لغتهم السورية (السريانية)، وزمنياً شملت منذ زمن آدم الرسول (نهاية الألف السادس قبل الميلاد) على الأقل وحتى فجر الإسلام.

* إن كلمة «صور» تعني بالسريانية: الجيد، العنق، الرقبة، الحدبة، السنام. وهي تنطبق تماماً على مدينة صور (في سلطنة عمان حالياً) التي تبرز كالحدبة أو كالسنام عن الساحل في مياه الخليج.

وبينّا كيف أن هذه المنطقة هي مهد الإنسان العاقل الأول بكل إبداعاته وإنجازاته المتواصلة والمستمرة دونما أي انقطاع، بخلاف كل مناطق وجوده الأخرى، فكانت بحق هي المركز الثقافي والحضاري الذي انتشرت منه كل المنجزات البشرية طيلة العصور القديمة (بما فيها عصر الحجر والمعدن) إلى باقي الأصقاع الأخرى. ومن بين أهم هذه المنجزات إقامة أول دولة مركزية في التاريخ بالمعنى السياسي، والاقتصادي، والإداري، والحقوقي، والعسكري، والديني... وقد جاءت كحاجة تطورية ماسة، ونتيجة طبيعية للتطور التنافسي الداخلي الذي أخذ ينحو منحى الصراع ضمن الأطر الضيقة للمدن، من جهة، ولطبيعة التحدي الخارجي الهمجي الذي بات يهدّد الوجود ذاته لتلك المدن، من جهة أخرى. وإذا علمنا أن الهمجية كانت تحيق بالمنطقة من جهاتها الثلاث: الشرق، الشمال، والغرب حتى أن تعابير «برابرة آسيا» و«برابرة أوروبا» و«برابرة الشمال» و«برابرة الجرمان» و«البرابرة» ظلت مستخدمة طيلة العصور القديمة والعصر الوسيط، وفي كتابات المؤرخين الغربيين في القرن العشرين بعد المسيح[1].

يقول هنري فرانكفورت حول ظروف قيام الدولة المركزية زمن سرجون: «إن البلاد كانت في كل الأوقات معرضة لأخطار جسيمة. لقد كانت بلاداً متحضرة ومزدهرة، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية. لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانيات النهب الهيّن. كانت المدن تستطيع أن ترد غائلة الغزوات، أما الهجمات الكبيرة التي كانت تتكرر كل بضعة قرون فقد كانت تحتاج إلى حكومة مركزية قوية تردها. كذلك كان تأمين سلامة الطرق التجارية أيضاً فوق إمكانية المدن المنفردة. وقد يتوقع المرء أن يرى هذه المدن تتعاون معاً في جهد وطني مشترك. إننا بالفعل نجد ملحمة عن «ملك المعارك» تصف كيف أن سرجون الأكادي، حينما توسل إليه تجار سوريون في الأناضول، ذهب إلى هناك على رأس جيش للدفاع عن قضيتهم. وقد تعكس القصة حدثاً فعلياً، لأن حفيد سرجون «نارام سين» بنى قلعة قوية في براك على الخابور...

(1) انظر على سبيل المثال: بريستد، المرجع السابق، الصفحات 592, 593, 622, 623, 626, 630.

وهكذا تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد. حتى أنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا، ثم اتجاهه نحو الغرب، محاولة منظمة مركزة لصد الجبليين، لأن إخضاعهم بصورة دائمة، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب خلف وديانهم البعيدة، كان مستحيلاً. ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية. لقد كان لا بد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك. وباختصار: إن النظام الاستعماري كان الضمان الوحيد للسلام».

«وقد يتوقع المرء أن يجد الناس أيضاً مؤيدين للنظام الجديد الذي فرضه ملوك أكاد، لا سيما وقد كان الشعور بالانسجام القومي موجوداً... لكن فردية بعض المدن لم تمح على الإطلاق»[1].

إن هذا الواقع هو الذي لم يتمكن سرجون خلال مرحلة حكمه التي امتدت خمسة وخمسين عاماً من كسر كل قواقعه الداخلية التي آثرت دائماً أن تحمي مصالحها الأنانية الضيقة ضمن إطار الكيانات الصغيرة التي تضمن لها أسباب الامتيازات. إنه الصراع بين قوى التحول البرجوازي الوحدوي الصاعد من جهة، وبين قوى الإقطاع الهيكلي الأوليغارشي، والتجاري المكدس للأرباح والثروات من جهة أخرى. وكان أبرز ما يمثل ذلك الاتجاه الانعزالي الانفصالي تحت كل اليافطات الدينية والاستقلالية «نيبور» المركز الديني لإنليل، و«صور» على البحر الأريتيري (الخليج العربي)، وعشائر البدو حول (المحطات) على طريق القوافل التجاري الدولي في طول شبه جزيرة العرب وعند أطراف حدود الدولة.

«إن الثغرة التي بقيت في مشروع دولة سرجون كانت تتمثل، هنا، في إغفاله تصفية المؤسسات الأوليغارشية القديمة. لقد ظن أن الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، والرخاء والازدهار الذي أخذ يتسع في عهده ليعم أوسع الأوساط الشعبية انتشاراً كانت كافية لتجعل تلك المؤسسات الرجعية الضيقة تتخلى عن مشاريعها الاستغلالية وتندمج مع عملية التغيير البرجوازية الوحدوية الكبرى.

(1) فرانكفورت، المرجع السابق، ص93 – 95.

لكن الواقع أثبت عكس مثل هذه التوقعات. فقد تبين أن تلك الدوائر الرجعية الضيقة لم تمتنع عن الاندماج في دورة الحياة الجديدة فحسب، بل كانت تعدّ في الخفاء كامل العدة للانقضاض على مؤسسات الدولة السرجونية الجديدة في لحظات ضعفها، كما لم تتورع عن التعامل مع القبائل الهمجية المتربصة بالدولة من كل الجهات»[1].

وكما أكد فرانكفورت في قوله الذي أوردناه سابقاً فإن الهجمات الكبيرة كانت تتكرر كل بضعة قرون، مستغلة حالة من الضعف أو الإرباك الذي يصيب الدولة المركزية، فتنقض، وتدمر، وتحرق، وتقتل، وتنهب، وتمكث زمناً، أو تعود فوراً إلى معاقلها البعيدة من جديد. إن هذه الظاهرة التي عاشتها دولة سرجون المركزية وتمثلت بانقضاض قبائل الهمج والغوتيين بالتحالف مع بعض قوى الداخل فدمرت «أكادا» إلى أن أعاد نارام سين وحدة الدولة وفرض هيبتها وضرب أعداءها في الداخل والخارج، هي التي استمرت مع انقضاض الكاشيين، ثم جاء حمورابي ليفرض وحدة الدولة من جديد. ثم استمرت هذه الظاهرة قبيل إعادة التوحيد في الزمن الآشوري، ثم في عهد نبوخذ نصر البابلي، ثم دولة سنحاريب وآشور بانيبال حين بلغت الدولة السورية أوج اتساعها. ثم ظلت المنطقة تتأرجح تحت ضربات الهمج كل بضعة قرون، من الفرس والماديين، إلى البيزنطيين، إلى برابرة أوروبا في العصور الوسطى (حروب الفرنجة أو «الصليبية») إلى برابرة آسيا مرة أخرى من تتار، ومغول، وأتراك، إلى الغزو الاستعماري الصهيوني الحديث.

ولإيضاح صورة الخارج الهمجية المحيط بالدولة السورية في العصور القديمة التي استمرت في مقارعتها زهاء ثلاثة آلاف عام قبل المسيح حسبنا أن نلقي نظرة على ما ينقله لنا هيرودوت في أواخر تلك العصور، أي في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ـ حول القوس الهجمي المحيط بسوريا من ثلاث جهات:

أ ـ الشعوب القفقازية:

يقول هيرودوت:

«ويحدّ بحر الخزر غرباً جبل «قوه قاز» وهو أعظم الجبال طولاً وارتفاعاً. وأهاليه طوائف مختلفة أكثرهم يقتاتون بالأثمار البرية، وقيل... وبتأكيد أيضاً، إنهم يضاجعون نساءهم جهاراً مثل الحيوانات...».

---

(1) من أجل المزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع رجع كتابنا: «تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير»، ص325 وما يليها.

«وأما شرقاً فتحدّه بادية كبيرة لا يحدها النظر. والمساجيتة الذين قصد كورش حربهم مواطنهم في أكبر قسم من هذه السهول»[1].

«ولنأتِ بالكلام على عوائدهم: فالنساء بينهم مشاعة... ومتى أحب المساجيتيون امرأة يعلق جعبته بمركبته، ويتلذذ بمن أحبها بلا حياء ولا خوف، ولا عندهم حد ولا وقت بأعمارهم. ولكن عندما يهرم الرجل يجتمع أقرباؤه، ويذبحونه مع البهائم، ويشوون لحمه، ويتهادونه. وهي عندهم أسعد الميتات. ولا يأكلون لحم المائت عن مرض، لكن يدفنونه، ويتأسفون على تعاسته، ولأنه لم يصادف حظاً ليذبح قبل موته. ولا يحرثون الأرض، ويقتاتون بنتاج المواشي والأسماك... وشربهم هو الحليب»[2].

«وبين الأمم القاطنة أمام بحر «فنطس» (البحر الأسود) لا نقدر أن نذكر واحدة ظهرت عليها لوائح الفطنة والحذق، ولا خرج منها رجل صاحب معارف إلا أن تكون أمة السكوذا*... فالسكوذا بين كل الأمم التي نعرفها هم الذين وجدوا آمن الوسائط ليحفظوا أفضل الامتيازات. لكنني لا أعرف عندهم شيئاً آخر يستحق المدح. والامتيازات المذكورة قائمة بأنهم لا يدعون من يغزوهم يعود سالماً...»[3].

«وأما من جهة الحرب فهذه هي العوائد التي اصطلحوا عليها. السكوذي يشرب من دم أول رجل يقتله، ويقطع رؤوس كل الذين يقتلهم في الحرب، ويحملها إلى الملك... ولكي يسلخ السكوذي الرأس يصنع أولاً شقاً على دائرة من جهة الأذنين، ثم يمسكه من أعلاه، ويهزه، فينتزع جلدته. ثم يعرك الجلدة بين يديه بعد أن ينزع منها كل اللحم بضلع ثور. ومتى ليّنها جيداً يستخدمها بمثابة فوطة، فيعلقها في لجام الفرس الذي يركبه، أو يفتخر بها. لأنه كلما كثرت هذه الفوط عند السكوذي يزداد اعتباره... وكثيراً منهم يخيطون جلود البشر بعضها ببعض على شكل كبّوت الراعي، ويلبسونها. وكثيرون منهم أيضاً يسلخون الأيدي اليمنى من الذين قتلوهم حتى الأظافر، فتبقى مع الجلد، ويجعلون ذلك أغطية لخوذهم. وجلد الإنسان طبعاً سميك، وبياضه أكثر لمعاناً من كل الجلود تقريباً. ومنهم من يسلخ الإنسان من رجليه إلى رأسه ويمدون الجلد على قطعة خشب ويحملونه على الخيل...

---

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول، ص102، 103، 203، 204.

(2) المرجع نفسه، ص107، 314.

* أطلق السوريون على تلك الجبال اسميها اللذين عرفا بهما وهما «قوي قوز» (قوقاز) أي مهد الفرو، وجبال «سقودا» وتعني: القسوة، الشدة، الصبر، المرارة، التحمل، الضيق. ومن «سقودا» جاءت تسمية القبائل «السكوذية» أو «السكيثية».

(3) المرجع نفسه، ص 46، 274.

«وبعد انقضاء السنة يأخذون من بقايا خدم الملك من كان منهم أكثر نفعاً... ثم يخنقون نحو خمسين من أولئك الخدم ومثلهم من أحسن خيله... ثم يرفعون على أنصاف الدوائر الخيل بعد أن ينفذوا فيها أوتاداً على طول البدن حتى الرقبة... وبعد ذلك يأخذون الشباب الخمسين الذين خنقوهم، ويضعون كلاً منهم على فرس، بعد أن ينفذوا في بدنه من المقعدة إلى الرقبة وتداً يغرز أسفله في ظهر الفرس متصلاً بالوتد الذي في جوفه. وبعد أن يرتبوا هؤلاء الخمسين فارساً حول القبر ينصرفون»[1].

«والسكوذة يأخذون بزور القنب، وينسلون تحت الخيام المصنوعة من الصوف المقصور، ويضعون من هذا البزر على الحجارة المحماة بالنار، فإذا ابتدأ يحترق ينتشر منه بخار كثيف حتى لا يوجد في إغريقيا مدخّن أعظم قوة منه. فيصيب السكوذة الدوار من هذا البخار، ويصيحون صياحاً مختلطاً، وهذا يكون لهم بمثابة الحمّام لأنهم لا يغتسلون مطلقاً»[2].

«وليس من الناس من لهم عوائد أكثر وحشية من الأدروفاجة* (أكلة الناس): فهم لا يعرفون شريعة ولا عدلاً. وهم رحّل، وثيابهم تشبه ثياب السكوذة، ولكن لهم لغة خاصة، وبين كل الشعوب التي ذكرتها هنا هم وحدهم يأكلون لحم البشر»[3].

«والبودينة عبارة عن أمة كبيرة يزوقون أجسادهم كلها بالأزرق والأحمر... وهم أصليون في بلادهم، رحّل، وهم وحدهم في تلك الأقطار يأكلون القمل والبراغيث ونحوها»[4].

تلك كانت بعض تقاطيع صورة الهمجية الآسيوية بعد أن أسس سرجون دولته الكبرى الثقافية والحضارية بما يقرب من ألفين وخمسمائة عام، أي صورة همج الشمال قبيل المسيح بخمسمائة عام! وهو زمن هيرودوت.

(1) المرجع نفسه، 64، ص284 – 285.
(2) المرجع نفسه، 74، ص288 – 289.
* الأذربايجانيون.
(3) المرجع نفسه، 106، ص300 –301.
(4) المرجع نفسه، 108، 109، ص301.

ب ـ شعوب أوروبا:

نحن الآن في زمن الانتشار السوري في بلدان حوض البحر المتوسط، ما بين الألفين الثالث والأول قبل الميلاد.

إن نظرة واحدة على ما قدمته لنا الوثائق الكتابية تضعنا أمام الحقيقية التالية: إنسان أوروبا همجي، متوحش، يسكن الكهوف والمغاور، يعيش على الصيد، ويأكل لحوم البشر. وقد دعته المصادر الكلاسيكية القديمة بـ «الصقلاب»* Syclop . وإن قدامى السوريين هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم، كما أطلقوا عليه أسماء أخرى مثل: أبناء الثعبان، أبناء التنين، الجلتي... وغيرها.

لقد كان ذلك الإنسان «يفاجئ السوريين في مواقع انتشارهم بخروجه المفاجئ من أعماق جحوره أو مغاوره كما يخرج الثعبان».

وكانت الكلمة تطلق على الجمع من أولئك وعلى الفرد على حد سواء. أما الـ «جلتي» Gelti فهي في القاموس السرياني من «جلا» وتعني: جلا، نهب، قتل، سبى... إلخ. وقد تحولت باللاتينية إلى «سلتي» لأن كل الأصوات الحلقية إذا ما وقعت فيها قبل e.i.y تحولت إلى"C".

إن إنسان الكهف المتوحش هذا هو الذي اصطدم به الأمير قدموس الصوري وجماعته في بلاد اليونان حينما ذهب للبحث عن شقيقته «أوروبا» بعد أن خطفها «زيو». فقد ظل في صراع مع أولئك إلى أن انضم إلى جماعة قدموس خمس قبائل ممن كانوا قد سبقوه من السوريين المهاجرين ودعوا بـ «الآخيين» (بالسريانية «أحيني» جمع «أحينو» = قريب، نسيب، حليف، ابن العشيرة). تقول القصة كما رواها أوفيد:

«وكان ثمة غابة قديمة لم تمسسها بلطة. يتوسطها غار تكسوه غصون صفصافة كثيفة، وتشكل جدرانه الصخرية قبواً منخفضاً يتدفق من تحته ينبوع ثرّ. وكان بالغار ثعبان... ودلف الرحالة القادمون من مدينة صور إلى الغار المشؤوم، وأخذوا يغترفون

* الصقلب والصقلاب في القاموس تعني، النهم، الشره، الأكول، جيل من الناس غليظ العظم أحمر الشعر.

الماء بجرارهم. فأزعجوا الثعبان، الذي أخرج رأسه من أعماق الغار... وحينما امتلأت الأرض بالمسلحين بالتروس فزع قدموس حينما رأى هذا العدد من الأعداء الجدد، وشهر سلاحه مستعداً للنضال. فصاح به أحد المحاربين الذين أنبتتهم الأرض قائلاً: لا تشهر سلاحك، ولا تقحم نفسك في هذا الصراع القبلي. وكانت الربة قد طلبت إلى أحد الخمسة الباقين وهو «أحينو» مساعدته، فاستجاب لها. وطلب إلى أخوته الأربعة أن يفعلوا فعله. وفي صحبة هؤلاء الرفاق الخمسة الباقين بدأ قدموس القادم من فينيقيا يشيد مدينته التي أوصاه الوحي في دلفي ببنائها. وشيدت مدينة «طيبة». وفيها بدا لقدموس أنه وجد السعادة في مغتربه، وتزوج النبيلة هرمونيا، وأنجب منها أبناء وبنات، أنجبوا له أحفاداً أعزاء، وضعوا تقاليد الأسرة، وأرسوا روابط التعاطف بين أفرادها»[1].

وغني عن القول إن «الأسطورة» هي أول كتاب في التاريخ، وهي، في أساسها، تقوم على حدث تاريخي، ثم ما يلبث وعي الناس المتدني عن فهم بعض مدلولاتها أن يقربها من الخرافة[2].

إن جماعة قدموس، كما هو واضح، اصطدموا في بلاد المورة بسكان الكهوف (أبناء الثعبان أو التنين)، وتعرفوا أثناء القتال معهم على أناس من جنسهم، يتكلمون لغتهم، كانوا قد سبقوهم إلى هناك، هم عشائر الآخيين «أحيني»، الذين أمرتهم الربة، الأم السورية الكبرى، بالانضمام إليهم في ذلك الصراع، ومساعدتهم في بناء مدينتهم الجديدة «طيبة»، وأن السكان الأصليين من ساكني الكهوف لم يعرفوا تقاليد الأسرة والزواج وبناء المدن.

وإن هذا الإنسان الوحشي، إنسان أوروبا ذلك الزمن، هو نفسه الذي تحدث عنه السوريون الذين كانوا قد استوطنوا في جنوبي إيطاليا للكاهن السوري الطروادي «عنيا» (أنياس) وجماعته النازحين إلى هناك بعد تدمير طروادة:

---

(1) أوفيد، في كتابه «التحولات»، المترجم إلى العربية تحت عنوان «مسخ الكائنات»، ص1 .16
(2) راجع بحث الأسطورة والخرافة في كتابنا الثالث: «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز»، ص87.

«لقد شرع الملك أفاندر يخبر «عنيا*» (أنياس) بالكثير من أحوال البلاد، وكيف كانت في الأيام الماضية مأهولة بشعب متوحش يعيش عيشة الوحوش»[1]، «..ولما هرب رفاقي من هذا الشاطئ اللعين تركوني في كهف الصقلاب، وهو مخيف الهيئة، وحشي المنظر، قد جاوز الحدّ في ضخامة الجسم، ويتغذى بلحم البشر. وقد رأيت بهاتين العينين كيف مدّ يده وقبض على اثنين من رفاقي، وسحقهما على الحجارة سحقاً، أجل، وقد رأيت أطرافهما ترتجف بين أسنانه»[2]. إن إنسان أوروبا هو ذاك الذي وصفته الأساطير السورية، وهو نفسه فيما وراء النهر وشمال البحر الأسود بعد أكثر من ألفي عام من ذلك الزمن كما وصفه الرحالة العربي المستطلع لتلك المناطق بمهمة من الخليفة العباسي إلى ما وراء النهر وجنوب روسيا في كتابه الشهير المسمى «رسالة ابن فضلان».

وإن ما تحدثت به الأساطير السورية القديمة التي صارت تدعى «إغريقية» حول إنسان أوروبا آكل لحوم البشر زمن قدموس وبعده أكدته المكتشفات الآثارية حديثاً:

«فلقد كشفت الأبحاث الأثرية التي أجريت مؤخراً منذ أقل من عقد من الزمن أن الألمان وسائر الشعوب الأوروبية كانوا يأكلون لحوم البشر إلى فترة جد قريبة. وذكرت «أنباء الشرق الأوسط» أن الأبحاث التي أجريت في جنوب ألمانيا كشفت أن الشعوب الأوروبية كانت منذ ألفين وأربعمائة عام (أي حتى بعد زمن هيرودوت) تعيش في العصر الحجري، ويأكل بعضها بعضاً. وقالت هذه الأبحاث إنه في الوقت الذي كان فيه السوريون والمصريون قد بلغوا درجة عالية من الثقافة والتقدم والتحضر فإنه كان من عادة القبائل التي سكنت جنوب ألمانيا تعليق قلائد حول أعناقهم من الجماجم البشرية ومن عظام الأعداء الذين يأكلونهم»[3].

ولقد أكد ول ديورانت «أن سكان إيرلندا، وإيبيريا، وبريطانيا، والدانمرك ظلوا من أكلة لحوم البشر حتى القرن الحادي عشر بعد الميلاد»[4].

تلك كانت بعض ملامح صورة الخارج المحيط بالدولة السورية منذ أن أسسها سرجون في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد وحتى زمن ما دعي بـ «عصر النهضة في أوروبا» في القرن الخامس عشر بعد الميلاد.

* في السريانية «عنْيا» تعني: الكاهن، المرتّل، المسبّح، الممجّد، المنشد، المغنّي، وأضيفت «السين» اعتباطاً كالعادة.

(1) فرجيل، الأنيادا، ص 179.

(2) المرجع نفسهو ص 156.

(3) أنظر صفيحة تشرين السورية. العدد 5555، تاريخ 26/1/ 1993.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الأول، ص 19-20.

وبإمكان أي منا الآن أن يتصور طابع وطبيعة الجدل بين الداخل السوري الثقافي والحضاري والخارج الهمجي على امتداد خمسة آلاف عام. إنه يتلخص في عبارة واحدة: تهذيب وتعليم من الداخل للخارج، إنه انتشار، وإعمار، ونقل لكل الإبداعات الثقافية من سوريا إلى كل مواقع انتشار السوريين، وإلى بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، بالدرجة الأولى، الذي أخذ إسمهم في ثلاث مراحل من التاريخ: بحر أمورو، البحر السوري، البحر الفينيقي. ومن الطبيعي أن الأمر لم يكن ليمر بمثل هذه السهولة دونما صراع وسفك دماء مع ذلك الإنسان المتوحش، الذي مثلته قبائل «الجلت» الجوّالة، والتي لم يعرف لها اسم أنتوغرافي إلى أن دمرت إيطاليا واليونان في القرن الرابع الميلادي. وليست تسمية «بلاد الغال» إلا نسبة لتلك القبائل المجهولة الاسم بعد سيطرتها على الأرض التي صارت تسمّى اليوم «فرنسا» نسبة إلى قبائل الفرنك.

يقول أندريه إيمار:

«وقد صوروا لنا «الجلتي» فارع القامة، شديد البأس، أزرق العينين، أمغر الشعر أشقره... والمعلومات المتوفرة لدينا لا تترك مجالاً للشك في مبلغ الخراب الذي أنزلوه في إيطاليا والعالم الهيليني. فقد كان الشعور العام الذي استحوذ على العالم المتمدن إذ ذاك، ولمدة قصيرة، الشعور نفسه الذي تملكه عندما رأى نفسه وجهاً لوجه أمام غزوات البرابرة التي دكت العالم الروماني. فهل استشعر العالم إذ ذاك أنه أمام كارثة دهماء؟... ومهما يكن، فالصمت الذي تعتصم به مصادرنا لا يخولنا الجزم نفياً أو إثباتاً... والظاهر أن الأمر نشأ، في الغالب، ليس عن انتقال شعب أو قبيلة من القبائل الكبرى بأسرها، بل تم تباعاً بهجرات جماعات في إثر جماعات هامت على وجهها في شتى المناحي والاتجاهات... إن هجرة على هذا النحو من الدوران، لا ضابط لها ولا وازع، لا يمكن أن تقع تحت مراقبة التاريخ وحصره»[1].

وفي المقابل من هذه الصورة الهمجية القاتمة لأوروبا في القرن الرابع الميلادي يورد لنا المؤلف صورة عن سوريا زمن الملك حمورابي، أي حوالي 3000 ق.م فيقول:

(1) أندريه إيمار، تاريخ الحضارات العام، الجلد1، ص73 – 74.

«وإن اعتبرنا مجمل هذه الحياة فإن الوقوف على حيويتها، وليونتها، وتشعبها، هذه الصفات التي تثبتها لوحات القيود، والمحاسبة المكتشفة، يحملنا على الشعور بأنها حياة اقتصادية شبيهة جداً بحياتنا العصرية»[1].

وفي حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، أي بعيد حرب طروادة، ينقل لنا «فرجيل» في الإنيادة صورة عن السوريين في مواقع الانتشار: الأميرة أليسار وجماعتها يبنون قرطاجة.

يقول فرجيل:

«حينما ألقى «عنيا» (أنياس) الكاهن الطروادي وجماعته مراسيهم على الشاطئ الليبي، تجلت له الربة عشتار بهيئة عذراء من صور وقالت له: «لتكن من تكون أيها الغريب، فإن قدومك إلى هذه الأرض الصورية لا يدع مجالاً للريب في أنك محبوب من الآلهة. فاذهب الآن وقدم نفسك للملكة». قالت هذا وألوت راجعة. فشعّ من عنقها نور وردي، وعبق من شعرها أريج بلاد العرب والعنبر اللطيف، وطالت ثيابها إلى قدميها، فعرف فيها أنياس أمه (أي الأم السورية الكبرى)، وناداها قائلاً: أي أماه، لم تسخرين مني وتظهرين لي غالباً بمظاهر زائفة، ولا تدعينني أضع يدي في يدك؟... ومضت إلى هيكلها حيث المحاريب الكثيرة تصعّد البخور».

«وتابع الرجال مسيرهم مسرعين. فصعدوا هضبة تطل على المدينة التي أدهشتهم رؤيتها. فقد كانت بلدة عظيمة كبيرة حقاً، ذات أبواب جبارة، وشوارع تسير فيها الجموع وتحتشد. وكان منهم القائمون على بناء الأسوار والقلعة، يدحرجون الحجارة الضخمة بأيديهم، بينما عمدغيرهم إلى تخطيط أمكنة المنازل. وكانوا إلى ذلك يختارون من يرجع إليهم القول الفصل في المدينة ومن يعهد إليهم بحكمها. كما كان منهم من يحفر الموانئ، ومن يبني أسس دار التمثيل، ومن يقطع الأعمدة الحجرية الضخمة، فكانوا أشبه بالنحل الدائب الذي تحتشد جموعه عند اقتراب الصيف منتشرة هنا وهناك، أو كالعمال منه تكدّ بالعمل من أجل ملء الخلايا بالعسل، فيلقى بعضها أحمال الراجعين من الحقول، ويقف بعضها لحراسة القفير من اليعاسب. أجل لقد كان شأن رجال صور شأن النحل الدائب المجدّ...».

---

(1) المرجع نفسه، ص160.

«وكانت، ديدون*، تبني هناك لعشتار هيكلاً رائعاً له عتبة من البرونز ودرجات وترتقى للدخول، كما كانت قوائم الأبواب والبوابات من البرونز أيضاً. وهنا حدث ما ملأ (أنياس) شجاعة وراحة، فرأى أن معارك طروادة قد أدرجت رسومها بنظام على الأسوار...».

«وبينما كان «عنيا» (أنياس) يشهد هذه الأمور ويعجب، قدمت «ديدون» يتبعها حشد كبير من الفتيان. فكانت أجمل الناس طراً، لها حسن ديانا... ولقد ألقت على كتفها جلداً، وعلت الجميع قامة. فكان منظرها داعياً لسرور أمها «لاتونا»** وهي تنظر إليها بسكون. كان لديدون جمالها، ولها منظرها، وهي تختال بإباء وشمم في الوسط، منهمكة في أعمال مملكتها. ثم جلست على عرش سامق عند باب الهيكل، ووقف من حولها عدد كبير من الرجال المسلحين، وقد وزعت العمل في المدينة بالتساوي، أو قسمته بالقرعة...».

وبعد أن أخبرها «عنيا» بقصته، أجابته ديدو:

«لا تخشوا يا رجال طروادة أمراً. وإذا خيّل إليكم أن في معاملتنا لكم شيئاً من الخشونة فاصفحوا عنا، لأننا لم نقم بهذه الأرض إلا حديثاً. ولذا وجبت علينا الحراسة ومراقبة شواطئنا. أما أعمال رجال طروادة في فنون القتال فمن الذي يجهلها؟ ولا يذهبن بك الظن إلى أننا هنا في ليبيا*** فاترو القلب، أو أن بعدنا القصّي جعلنا على جهل بهذه الأمور. وسواء أرغبت في الإبحار إلى إيطاليا، أم فضلت الرجوع إلى صقلية عند الملك«حستيو» فاعلم أنني مقدمة لك كل عون، ومانحتك كل حماية. أما إذا شئت الإقامة في أرضنا هذه فإن المدينة التي أبنيها هي مدينتكم، ولن أفرق بين طروادي وصوري»[1].

إن في هذا النص من «إنيادا» فرجيل أموراً في غاية الأهمية لا يمكن لمن يطلق على نفسه اسم «باحث» أو «مؤرخ» أن يمر بها دون أن تستوقفه، علماً أن المؤرخين في الغرب، وكل من نقل عنهم أو تتلمذ على أيديهم من «النقلة» العرب أغمضوا عنها العيون، لأغراض في نفوس الغربيين، ولعطالة في العقل عند الآخرين.

* اسم «ديدون» بالسريانية يعني: المعينة، القوية، الباسلة. وهو من الفعل «إيد» أي أعان، قوي، اشتد، قوّى، شجّع، والدال الأولى للتعريف.

** «لاتونا» و«لاتينا» صيغة تحبب لكلمة «إيلات» أو «اللات» أي الربة بالتعريف، و«دلات» بدون تعريف.

*** «ليبيا» يطلق على قارة أفريقيا. وبالسريانية يعني: المرغبة، المثيرة، المشوقة، وهو اسم جدة الأميرة أوروبا لأبيها.

(1) فرجيل، الإنيادا، ص75 - 78.

ونحن ننبه القارئ إليها هنا ونشير إليها مجرد إشارة، لتبقى حاضرة في الذهن عند استخدام دورها التاريخي المعرفي في موضع آخر لاحق من هذا الكتاب.

هذه الأمور هي:

1 - إن الطروادين، والصوريين، ينتمون إلى شعب واحد هو السوري.

2 - إن بناء «قرت حدشتا» (المدينة الحديثة، الجديدة، قرتادا، و«قرطاجة» فيما بعد) تمّ، كما هو واضح في نص «الإنيادا» في زمن حرب طروادة، أي في حوالي 1250 ق.م.

3 - إن «دار التمثيل» أو المسرح كان جزءاً لا يتجزأ من المدينة السورية، وسنرى كيف أنه جزء لا يتجزأ من المعبد، وأن طقس تمثيل موت الرب أدونيس، رب الخصب، وقيامته من الموت، هو أساس فن التمثيل في التاريخ كله، وقد نقله السوريون إلى مواقع الانتشار في الغرب، وليس العكس.

4 - إن مواقع انتشار السوريين في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد كانت قد عمّت «ليبيا» وصقلية، وجنوب إيطاليا.

5 - إن النص، على صغره، يقدم لنا لوحة متكاملة عن الواقع السوري الحضاري، وعن الدور السوري الإعماري أينما حل السوريون، ويتوج ذلك كله بالدور الحضاري والثقافي والقيادي المتميز للمرأة السورية متمثلة هنا في «ديدون» (إليسار). وسنرى كيف أن السوريين وحدهم بين كل شعوب الأرض انفردوا بإنجاب تلك السيدات المتميزات بالعلم، والثقافة، والجمال، والذكاء، والعفة، والفروسية، والحكمة، والقيادة... على مرّ عصور التاريخ القديم، أمثال: سمير أميس، نيتوقريث، الكيليوباترات الثلاث من آل أجيني في أنطاكية، والجوليات الحمصيات الأربع اللاتي حكمن روما، وإليسار، وزنوبيا... إنه لولا كون المجتمع الذي نشأن فيه على درجة عالية من الحضارة برجاله ونسائه لما أنتج مثل تلك النسوة اللاتي لم يعرف لهن التاريخ نداً حتى عصرنا الراهن.

وهكذا يتضح الآن كيف أن السوريين كانوا هم السادة المعلمين لكل الشعوب الأخرى في الشمال والشرق والغرب، والتي كانت ما تزال في طور الهمجية والتوحش. وإن كلمة «رب»* و«ربة» التي لم تكن تتعدى في مضمونها هذا الدور، والتي نقلت في الغرب وإلى الآن إلى «إله» و«إلهة»، كانت تلخص لنا هذه الحقيقة كاملة.

إن الربة عشتار، الأم السورية الكبرى، كانت هي السيدة وهي المعلمة، التي علمت البشر زراعة القمح، والحرف، كما علمت النساء السوريات الحياكة والغزل والنسيج. فدعيت بأسمائها الكثيرة: الربة «الفعالة»** التي تحولت في الغرب إلى «بالاس»، وهي الربة «الفلاحة»*** والتي تحولت في الغرب إلى «بالاس» Place أيضاً دون أن يدري أحد معنى كل من الكلمتين أو أصل كل منهما أو التمييز فيما بينهما. وهي أيضاً ربة المغزل... وكانت هي وراهباتها التي تدعى كل منهن «لحيتو» Lheto أي الأخت، الراهبة (وصارت في الغرب Leto لسقوط صوت الحاء) تقوم برسالة تعليم الهمج الحرفة والصناعة والزراعة.

ومن أسمائها، أو ألقابها أيضاً، الربة «الزراعة»، وهي بالسريانية «زرعث» وقد تحولت في الغرب إلى Zeres ae Seres وهي في القاموس الكلداني من الفعل «زرع» ويعني: زرع، بذر، بث، نشر، لقن، علم، نسل، أنسل...

لنقرأ ما كتبه «أوفيد» حول الربة الزراعة «سيريس، أو زرعث»:

«كانت سيريس أول من حرثت كتل الطين بمحراثها المقوس، وأول من زرعت القمح وسائر الغلال، وفرضت القوانين الأولى. فنحن ندين بكل ما نملكه لـ«سيريس» وعليّ أن أتغنى بها، وليت نشيدي يكون جديراً بها. فالإلهة جديرة بأن يتغنى بها»[1].

* إن «رب» في العربية بكل لهجاتها تعني: السيد، المعلم، الكبير. ومنها رب البيت وربة البيت، ورب العمل (المعلم) وربته. وفي العرباء (الفصحى) لا تستخدم كلمة «رب» بمعنى «إله» إلا إذا أضيفت، كأن تقول: رب العالمين، ربي وربكم، رب الكون، ...إلخ. أو إذا كانت مقصودة مثل: يا رب!.

** «فعالة» في السريانية أيضاً تعني: العاملة، الصانعة، و«فعلوت» تعني: فعولة، عمل، شغل، حرفة، مهنة، صنعة. وقد سقطت العين، وتلفظ الفاء بالسريانية في أغلب الأحيان، وهي أصل صوت في اللغات الأوروبية، والتاء والثاء كثيراً ما تلفظ سيناً إلى اليوم مثل: ثعلب، تعلب، سعلب...

*** «فلاحة» بالسريانية من فعل «فلح» ويعني: فلح، حرث، فعل، عمل، صنع، اشتغل، كدّ، مارس، مهن، عبد، تعبد، درس، تدرب، حرك، خلط الدواء، تجند، كان جندياً، و«فلاح» اسم الفاعل من كل هذه الأفعال، والجندي والعسكري. وشرحنا أعلاه تغير الأصوات في الكلمة.

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص169.

ثم يصف لنا «أوفيد» كيف أن ربة الزراعة «سيريس» تحمل مذراتها* ذات الشعب الثلاث، وتسوح في الأرض في جولة تفقدية لكاهناتها اللاتي ينشرن التعليم الزراعي في بلاد المورة، وما يلاقينه من ضروب العنت والمخاطر مع سكان الكهوف، السكان الأصليين هناك...

يقول أوفيد:

«فوقفت الإلهة لحظة طويلة تحملق دهشة في هذا الينبوع الذي فجرته ضربة من حافر جواد. ثم جالت ببصرها حول الينبوع مستعرضة الأجمات العريقة والكهوف، والسفوح الخضراء المرصعة بالزهور العديدة. وهنأت البنات «نيموسيني»** على امتلاكهن هذا الموطن السعيد، واضطلاعهن بمثل رسالتهن النبيلة. فأجابتها إحدى الأخوات قائلة: «أيا بالاس، ذات الصولجان الثلاثي الشعب، يا من كنت ستصبحين واحدة منا لولا شجاعتك التي قادتك إلى حمل رسالة أعظم شأناً. إن هذا ما تقولينه هو الحق بعينه. وإنك لعلى حق في امتداحك هذا الموطن. وإن حظنا لسعيد لو أتيح لنا أن ننعم به في هدوء. غير أن ما يلحق بنا من أذى البشر لا حدود له. إن كل شيء يثير الذعر في نفوسنا النقية»[1].

وذاك شاعر لاتيني آخر يتحدث عن الربة السورية الزراعة «زرعث» (سيريس) في تقديمه لـ «المختارات الشعرية اللاتينية» بهذه الكلمات:

«إن العذراء التي تحمل السنابل، محمولة هي نفسها على ظهر أسد سماوي، هي التي أقامت العدالة، وشادت المدن، والتي على يدها عرفنا السعادة. وبفضل هباتها تعرفنا على الآلهة. إنها أم الآلهة. إنها الفضيلة والسلام. إنها «سيريز» الإلهة السورية التي تزن في ميزانها الحياة وقوانينها. لقد أرتنا سوريا فيها نجم السماء الذي يقدمون له في ليبيا كل احترام. وعن طريقها تلقينا كل علم».

---

* الكلمة الأصلية هنا هي «شاعوب» ذو الشعب الحديدية الثلاث لتقليب الزرع على البيدر، والكلمة ما تزال مستعملة في جبال الساحل السوري إلى اليوم. أما المذارة فأصابعها خشبية، كثيرة، ضيقة من أجل التذرية لفصل الحب عن التبن.

** «نيموسيني» في السريانية من الفعل «نومس» أي شرّع، و«ناموسو» تعني شريعة. فهن البنات المشرعات، المفقهات، أو بنات الشريعة.

(1) المرجع نفسه، ص.168 166 -

«هذا ما فهمه وألهم به عن طريق ألوهيتك ماركوس كايسيليوس دوناتيانوس التريبيون العسكري بفضل الأمير وكرمه»[1].

ولسنا هنا نورد مثل هذه الأقوال الشواهد لشعراء لاتينيين للاستدلال فقط على الدور الرسولي التعليمي الذي مارسه السوريون منذ أقدم الأزمنة في كل من اليونان وإيطاليا، وإنما لنبين أيضاً قدم الانتشار السوري في تلك الأصقاع قبل أن تبرز على الساحة ظاهرة «الفينيقيين» التجارية المحضة، التي سيكون لنا معها وقفة أخرى.

ومن أجل طمس الهوية العربية، والسورية منها تحديداً، التي كانت هي الهوية الوحيدة للإغريق أو اليونان: جنساً، ولغة، وديانة، وثقافة، وحضارة، وعادات، وتقاليد، كما سوف يتكشف لنا تباعاً في هذا الكتاب، فقد عمدوا إلى «فبركة» أعراق لا وجود لها، ولا ذكر لها في كل كتب التاريخ العامة والخاصة لكل شعوب الأرض. كان من بين أبرز هذه «التلفيقات» الحديثة: «العرق الآري» و«العرق المتوسطي».

لكن هذا الفعل ما كان ليتم، ويعيش، ويستمر لولا عطالة الداخل العربي منذ القرن العاشر الميلادي إلى اليوم. ولن أعيد هنا ما فعله الخارج من أجل تكريس هذه العطالة وتغييب الهوية القومية للحضارة العربية على مدى ستة قرون من حكم المماليك والأتراك، وإنما سأتطرق إلى ظاهرة استسلام الداخل لما أراده الخارج، وما تزال هذه الظاهرة هي الطابع المميز لواقع الداخل العربي في معظمه إلى اليوم. ما أريد قوله بكلمة: إنه لولا تقاعس الداخل لما استطاع الخارج أن يحقق انتصاراته، ويفرض كل إفرازاته، ومن ضمنها تزوير التاريخ:

1 - إننا كعرب، حصرنا كل اهتمامنا بتاريخنا، بجزء منه، هو التاريخ العربي الإسلامي، وأهملنا كل عصورنا التاريخية السابقة بكل حمولتها من الإنجازات الثقافية والحضارية الأولى في تاريخ البشرية على الأرض، مما جعل تاريخ تلك العصور نهباً لكل الأقوام الهمجية تدعيه لنفسها، ولكل الأقلام المزورة تديره أنى تشاء.

---

(1) جان بابليون، امبراطورات سوريات، ص130 - 131

2 - إن هذا أدى بنا إلى أن لا نعرف من لغتنا العربية على مدى ألف وأربعمائة عام غير لهجتنا العرباء (الفصحى). وتخلينا عن السريانية حاملة إنجازاتنا على مدى ثمانية آلاف عام مشهودة آثارياً ووثائقياً.

3 - إن هذا وذاك أفقد التاريخ العربي، والسوري منه تحديداً، أهم ميزة تفرّد بها، والتي جعلته بحق «تاريخاً للتمدن البشري على هذا الكوكب»، وأعني ظاهرة التواصل. إن فقدان التواصل التاريخي لشعب من الشعوب يفقده خاصية الأصالة في الهوية القومية والحضارية.

وإن هذا هو ما حصل بالضبط للبقية الباقية من مراحل التوهج الحضاري العربي، وأقصد الحضارة العربية الإسلامية. إن إهمالنا لتاريخنا القديم، والحماسة الزائدة لكل تفصيل إسلامي على حساب الهوية العربية، وحتى السورية القديمة، أفضى في نهاية المطاف إلى النتيجة الحتمية التالية: هي أن الحضارة العربية الإسلامية منقولة لا أصيلة، وأن العرب المسلمين لم يكونوا سوى ناقلين لحضارات غيرهم من فرس ويونان ورومان، ولم يكونوا مبدعين ومنتجين لها. إن إهمال العرب، والسوريين منهم تحديداً، لتاريخهم الحضاري القديم، الذي يمتد لعشرة آلاف سنة مشهودة آثارياً في سوريا، ولخمسة آلاف سنة في مصر، وذلك قبل أن يوجد الفرس واليونان والرومان بعدة آلاف من السنين، هو الذي جعل العرب أنفسهم مستسلمين دونما مقاومة لكل تلك الطروحات التي تضافر في صنعها وترويجها الخارج الطامع، والشعوبية الداخلية المنظمة والمرتبطة بذلك الخارج. إن عملية تهريب التاريخ لا تنفصل عن عملية التهريب الكلية والشاملة للثروات، وللعقول، وللآثار التي يخضع لها الوطن العربي كلياً أو جزئياً إلى اليوم.

وليس «الإغريق» و«حضارة الإغريق» إلا جزءاً من التاريخ الهارب.

فما هي حقيقة «الإغريق» التاريخية و«حضارتهم»؟

شروط نشوء الحضارة

إن لنشوء الحضارة، أية حضارة، شروطاً لا بد من توفرها، نجملها بما يلي:

1 - الشروط الطبيعية بما تشمله من أراضٍ واسعة تصلح للزراعة وللرعي ولإطعام جماعة كبيرة من السكان، ومياه للشرب وللري، ومناخ صالح ملائم، يضاف إلى ذلك عامل مساعد آخر هو توفر الثروات الباطنية.

2 - توفر الجماعة السكانية الكبيرة في وجودها التاريخي المتواصل عبر الزمن.

3 - توفر شروط وأدوات تركيم الخبرة، والإبداعات الثقافية والحضارية، عن طريق تأمين تعميمها، ثم نقلها من جيل إلى جيل عبر الوجود التاريخي المتواصل للشعب أو الأمة. وأهم هذه الأدوات في العصور القديمة، إن لم تكن هي الأداة الوحيدة، اللغة والكتابة. فما مدى توفر هذه الشروط، كلاً أو جزءاً، في بلاد «الإغريق» أو «اليونان» التي هي شبه جزيرة المورة؟

شبه جزيرة المورة:

الجغرافيا والمناخ:

كنا قد شرحنا أهمية شرط الجغرافيا والمناخ الحاسم في ظهور الإنسان العاقل الأول[1]، وإنتاج ثقافته وحضارته. وأكدنا أنه يستحيل وجوده تحت الجليد، كما يستحيل انبثاقه من تحت مياه البحر الأبيض المتوسط. وحين الحديث عن السبق الحضاري الكبير والعميق في الزمن لشرق المتوسط على غيره من بقاع الأرض طراً لا يتردد الباحثون والمؤرخون في الغرب في إرجاء ذلك إلى مساعدة شروط الجغرافيا والمناخ اللازمة لنشوء أية حضارة.

يقول أندريه إيمار:

«في هذه الرقعة الواسعة من الأرض التي يصطلحون اليوم على تسميتها بالشرق الأدنى برزت وازدهرت أقدم حضارتين بين الحضارات التي قامت على مقربة من حوض البحر المتوسط. ففي مصر وبلاد ما بين النهرين ظهرت أولى الممالك العظيمة التي تستأثر بانتباهنا للجهد البشري العظيم الذي بذلته».

---

(1) راجع كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز».

«والسبق الذي حققه الإنسان في هذه البلدان على أمثاله في الأقطار الأخرى، يجب رده في الدرجة الأولى إلى حلم الطبيعة والأحوال الجوية فيها. فكلا البلدين يتألف سواده من سهول فساح، ووديان ظليلة، يؤمن لهما المناخ الحرارة اللازمة، كما يردفهما بالدفء والخصب أنهار غزيرة...».

«وراح الإنسان في هذه البقاع البارة يتلمس طريقه وينمي خبراته مكتسباً مهارات جديدة في استثمار هذه الأراضي الخيرة. مهمة ظاهرها هين يسير، بينما يخفي الواقع صعوبات كأداء لا تلين. ففي الحين الذي كان يحاول فيه الإنسان استنباط تكنيكه الزراعي وتحسين عدته وأدوات عمله كان عليه أن يهيمن على المياه، وأن يتفادى منها الطغيان والنقصان، وأن يدرأ عنه خطر المستنقعات وهجوم الصحراء عن طريق إقامة شبكة من أقنية الصرف والترع اللازمة للسقي ليحقق من هذا كله سيطرته الكاملة على الأرض واستثمار خيراتها الطائلة على منهجية وأصول».

«فأمام مهمة بهذا الشمول، وبمثل هذه الجسامة، كان لا بد لجهود الفرد من أن تصاب بالعجز، ويبوء سعيه ومحاولاته بالفشل، فيقصر عن تحقيق أي شيء نافع له ولغيره من بني جنسه لو لم يتكتل وينتظم في جماعات لها كيانها السياسي والاجتماعي، ولها القدرة والسلطات الكافية لتنسيق الدروس وتحقيق المشروعات الموضوعة واستثمارها على وجه يعود بالنفع على المجتمع. وبالفعل فقد كان بحاجة ماسة إلى زعماء وقادة يتمتعون بالسلطة والاحترام اللازمين».

«فضرورة القيام بمثل هذه المهمة السلمية والنفع الذي تعود به على الجميع ليسا من اعتداءات المعتدين. ومن جهة أخرى فالحرب وضع طارئ وحالة حادثة تمر وتنقضي، بينما إعداد الأرض للزراعة عملية يجب معاودتها كل سنة وإتيانها من جديد عاماً بعد عام بعد إدخال التحسينات عليها. فلكي يستطيع القادة إصدار الأوامر في هذا المجال، وانتزاع الطاعة، يجب أن يتمتعوا بسلطة قوية تنطلق من مجموعة التعاليم والعقائد الدينية التي تحتم على الإنسان الطاعة التامة... إن لم يكن تفاني الفرد المطلق وانسكابه في مجهود مشترك نظيم»[1].

(1) أندريه إيمار، المرجع السابق، ص35 – 36.

«إنه بما امتازت به (هاتان الحضارتان) في الداخل من تماسك وتراص زادتهما النجاحات التي سجلتها والتفوق الذي حققته قوة ومتانة، وكفلت للشعوب التي أقامتها ونهضت بها تفوقاً ساحقاً على ما حولها من أمم مجاورة وطوائف دارت في فلكها. فقد تم لهذين القطرين منذ الفجر الباكر وسائل ساعدتهما على الفتوحات العريضة وبسط سيطرتهم بعيداً»[1].

إن في هذا القول لإيماء تلخيصاً للشروط اللازمة لنشوء أية حضارة، ولو أنه لم يبرز بصورة واضحة غير شرط الجغرافيا والمناخ، لكن ليس من العسير استنباطها بدءاً من وجود الجماعات السكانية الكبيرة، إلى تراكم الخبرات وإدخال التحسينات عليها. وطبيعي أن تراكم الخبرات ونقلها من جيل إلى جيل لا بد له من واسطة حمل ونقل ثابتة، تلك هي اللغة والكتابة.

على ضوء هذا لندخل الآن مباشرةً إلى شبه جزيرة المورة من أجل التعرف على مدى توفر الشرط الأول، وهو مواءمة الجغرافيا والمناخ.

أ ـ الأرض والجغرافيا[2]:

إن تسمية «المورة» سريانية تعني ورقة التوت. أطلقها السوريون على شبه الجزيرة التي تمتد وتتدلى من اليابسة في البحر في هيئة ورقة توت عملاقة بالفعل. وهي شبه جزيرة صغيرة تتفرع عن شبه جزيرة البلقان الكبيرة، وتتصف، على العكس منها، بالضيق، والنحافة، والتفكك. إنها بلاد صغيرة لا يزيد طولها على 400 كم، وعرضها على 300 كم.

تؤلف الأراضي الجبلية ثمانين في المئة من مجموعة مساحة البلاد. وهذه النسبة تزيد حتى على ما يقابلها في سويسرا. وإذا كانت جبال الألب المركزية أعظم من جبال اليونان وأكثر ارتفاعاً فإن الانتقال من مكان إلى آخر أسهل في سويسرا مما هو في اليونان.

---

(1) المرجع نفسه، ص37.

(2) انظر هذا البحث في كتابنا الثالث: «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1- المركزي».

«وإذا كانت سويسرا أيضاً قد قسمتها الجبال إلى مقاطعات مستقلة فإن هذه المقاطعات ليست منعزلة كل العزلة بعضها عن بعض، بل إن الطبيعة قد ربطت بينها، وهي تدفعها إلى التساند والتعاون في سبيل الدفاع المشترك. وذلك بخلاف بلاد اليونان، فإن جبالها لا يزيد ارتفاعها أبداً على ثلاثة آلاف متر قد قلبتها إلى حواجز ضيقة متشابكة يتيه الإنسان بينها، ولا يستطيع في الغالب اجتيازها»[1]. وسوف نرى عند بحث اللغة كيف أن الأسماء التي أطلقها السوريون النازحون إلى تلك المنطقة على كل المواقع والجبال تعبر خير تعبير عن هذا الواقع. وفوق هذا فإن هذه الجبال المتداخلة والمتناثرة في شكل فوضوي هي صخرية جرداء في معظمها، تحجز بؤراً ضيقة فقيرة في تربتها لا يصح أن تطلق عليها تسمية السهول، تسلكها قبائل الشمال الهمجية إبان الغزو. ففي الشمال مقاطعة «طسّاليا» (وتعني بالسريانية طست الربة أو الطاسة العالية). وهي عبارة عن جوبة منخفضة مستديرة مغلقة كالطاسة أو الطست بالفعل، تحيط بها الجبال من كل جانب لولا اتصالها بالبحر في خليج باغازاي. وهي أكثر المناطق برودة، كما أنها أشدها فقراً وأكثرها خطرا، إذ هي في الطريق الذي كانت تسلكه قبائل الشمال الهمجية إبّان الغزو مما جعلها فقيرة بسكانها. وإلى الغرب من «طاسّاليا» توجد مقاطعة «أبيرو» التي يدل اسمها على صلابتها كما يقول هوميروس. (وبالسريانية تعني: إسرب، رصاص، وهي من الفعل «إبر» أي رصص).

و«أبيرو» تتألف من هضاب صخرية مجدبة. أما مقاطعة «أتيكا» أرض الأثينيين فهي ذات تربة رقيقة لا تجتذب الفاتحين والمهاجرين. كما أنها محاطة بسور من الجبال يعزلها عن الداخل تماماً، ويجعلها تتجه بكليتها نحو البحر لتستقبل الوافدين من الخارج وليس من الداخل. وكان السوريون قد أقاموا «أتيكا» الأولى في تونس على اسم «أتيكا» السورية التي هي شرقي الأردن اليوم. وهذا ما أكده الشاعر السوري «ملاجر» حين قال معرفاً بنفسه: «ولدت في جدرة التي هي أتيكا ولكنها تقع في سوريا»[2]. وكلمة «أتيكا» سريانية تعني: العتيقة، القديمة، العجوز، اليابسة، العجفاء.

---

(1) كيتو، الإغريق، ص11

(2) Greek Anthologg, bk. V11, s. 417.

وإذا ما انتقلنا إلى شبه جزيرة البيلوبونيز في الجنوب نجد في وسطها مقاطعة «أرقاديا» التي هي، كغيرها، تتألف من مجموعة من الهضاب المفككة المحاطة بمرتفعات وعرة تحول دون اتصالها بباقي أجزاء البلاد، فتتركها كئيبة منعزلة مما برر إطلاق السوريين هذه التسمية عليها. إن «أرقاديا» بالسريانية تعني: المحزنة، المغمّة، المضجرة. وهي من الفعل «رقد»: ندب، بكى، حزن، توحد، اغتمّ، ضجر، و«بعل راقود» هو بعل المسبب للندب والبكاء حين موت الخصب ويباس الزروع في الصيف.

و«أرقاديا» تستخدم كملاجئ حصينة، وتصلح للرعي فقط. وهكذا تتكامل الصورة لدينا عن شبه جزيرة المورة التي صارت تدعى اليوم «اليونان» أو «إغريقيا». إنها رقعة من الأرض الفقيرة، تملأها الجبال الصخرية الجرداء الموزعة في كل اتجاه، مما يخلق في الأرض جوبات أو منخفضات صغيرة، ضيقة، معزولة، لا تصلح لقيام أي تجمع بشري ذي شأن، ولا لقيام حضارة زراعية. «لقد فرضت وعورة التضاريس صعوبة الاتصال بين المدن الإغريقية. وأدى هذا الأمر إلى انعزال كل منها عن الأخرى، واعتمادها على نفسها. وأدى هذا الانعزال أيضاً إلى التصادم والتنافس والتقاتل»[1].

«ولكي ندرك أثر الظروف الجغرافية الطبيعية في مجال تقسيم بلاد اليونان إلى هذه الكيانات الصغيرة التي شاعت بينها النزعة الانفصالية سأشير إلى بعض الأمثلة للسلاسل الجبلية الوعرة التي مزقت بلاد اليونان وأدى إلى هذا التقسيم أو التفتيت. فبين قورنثا وأتيكا (وهي المنطقة التي تتكون من أثينا والقرى والأراضي المحيطة بها) تقوم جيرانيا[2] وجبال كيراتا Kerata [3] التي تعترض المضيق الذي يقع بين هاتين المنطقتين. والطريق الوحيدة الموصلة عبر هذه الجبال لا تزيد عن ممر ضيق يمتد على الحافة الشرقية لجبال كيراتا لمسافة ستة أميال على ارتفاع يتراوح بين 600 - 700 قدم، وهو ارتفاع يجعل الذي يعبرونه عرضة للرياح التي تهب بين الحين والحين متجهة نحو البحر بقوة شديدة تعرض حياتهم للخطر. كما يصل هذا الممر في بعض الأحيان إلى درجة من الضيق تجعل المسافر يكاد يتأرجح على حافة الهوة السحيقة التي تحده من الشرق».

(1) فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي، وحضارته، ص61.

(2) جبال جيرانيا تعني بالسريانية: جبال الشرق، المشرق، الشمس. وهي من «جرونو» أي الشرق، الشمس. ومنها جرونو Grono رب الشمس السوري أبو البعل وعشتار، وهو أبو السنين وزمن الفصول الذي صار يلفظ قرونو وكرونوس.

(3) «كيراتا» تعني بالسريانية: الأخضر، كما تعني الكراث، بصل الجبل.

«والشيء نفسه ينطبق على الممر الذي يصل بين قورنثا وبويوثيا والذي يمتد على حافة جبل كثيرون Kitheron . ومن أمثلة الخطورة التي يتعرض لها الذين يعبرون هذا الممر ما يحدثنا به المؤرخ كسينوفون عما حدث في 378 ق.م. حين اضطرت قوة إسبرطية أمام خطر الرياح الشديدة أن تلقي بدروعها جانباً حتى يستطيع الرجال عبور هذا الممر على أيديهم وأقدامهم. وليست هذه هي السلاسل الجبلية الوحيدة التي يصعب عبورها بل هناك أمثلة أخرى كثيرة من بينها جبال «هيليكون» Helicon[1] التي تفصل بين بويوثيا وفوقيا[2]. وجبال «فندو» التي تفصل بين «طاسّاليا» و«أبيرو». وكلها لا تقل وعورة عن الجبال التي ذكرت شيئاً عنها. كما أن الممرات التي تخترقها تتميز بنفس الاتجاه نحو الارتفاع الذي يصل في المتوسط إلى 300 متر فوق سطح البر. وقد يزيد كثيراً عن ذلك في بعض الحالات وهو ارتفاع يقف عقبة في سبيل الاتصال السهل، كما رأينا، إلى جانب أنه يجعل هذه الممرات مغطاة بالثلوج طيلة فترة الشتاء، ويفقدها، بالتالي، قيمتها كوسيلة للانتقال في هذا الفصل»[3].

وإذا كان المناخ في اليونان يتصف بالاعتدال فإن الأرض، على العكس من ذلك، فقيرة، مجدبة. إنها، كما ذكرنا، أرض جبلية، صخرية، وعرة، قاسية، جرداء. تنقصها التربة الضرورية للإنبات بوجه عام. وإن الأراضي الصالحة للزراعة تكاد تكون نادرة، وحتى المراعي تكاد تكون نادرة هي الأخرى، ومثلها الغابات. «أما لماذا كانت بلاد الإغريق فقيرة على هذا النحو، وإلى تلك الدرجة، فإن بإمكاننا أن نجد جواباً «رصيناً» على الأقل عن هذا السؤال في وصف «أتيكا» الذي كتبه أفلاطون في «كرييتا»*، وهو وصف شيق جداً يقول فيه: «إنها مجرد هيكل لما كانت عليه في الماضي. لأنها تبرز من البلاد إلى البحر مسافة كبيرة مثل الصخرة العالية، والبحر من حولها عميق كله». وأثناء هذه التسعة آلاف من السنين هبت كثير من العواصف العاتية، غير أن التربة التي جرفتها من الأقاليم العالية لم تكون أي سهل رسوبي يستحق الذكر، كما حدث لجهات أخرى، ولكنها تلاشت في كل مكان وضاعت في قاع البحر.

(1) «هيليكون» تعني الماشي كما تعني الهالك. وهي من الفعل السرياني «هلك» أي: مشى، سار، هلك. ولما أسس أرسطو مدرسته وهو يحاور تلامذته وهم يمشون دعيت مدرسة «هاليكي» أي المشائين.

(2) «بويوثيا» بالسريانية من بوتو أي أبناء العشيرة، الأقارب، و«فوقيا» الفوقية، الفوقانية.

(3) لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان، ص38.

* هي في الأصل «قريبتا» وتعني بالسريانية: الجدل، المماحكة.

ولو أننا قارنا ما بقي منها الآن والذي يوجد كذلك في الجزر الصغيرة بما كان موجوداً عندئذ لرأينا أشبه بهيكل عظمي لجسد أنهكه السقم. فقد زالت التربة الخصبة تاركةً هيكلاً فقط»[1].

ب ـ المياه:

«ثم إن بلاد اليونان تنقصها، قبل كل شيء، المياه اللازمة للزراعة. وهذا النقص لا يرجع سببه إلى قلة الأمطار. إن الكمية التي تهطل فيها يبلغ معدلها السنوي أكثر من 400مم. ولكنها ليست موزعة بصورة متناسبة على مختلف الفصول. إنها تنحصر في اشهر الشتاء القصيرة، بل في أيام معدودات من هذا الفصل. وكثيراً ما يحدث أن ينهمر في يوم واحد من المطر ما يعادل ربع الكمية السنوية كلها. ولكن هذه المياه إنما تؤلف سيولاً وتصب في البحر فلا تستفيد الأرض منها شيئاً... ينتج عن ذلك أن الأرض في أشهر الصيف يسودها الجفاف المطلق، وتنضب الينابيع، وتنقطع الأنهار بالمرة، أو تنقلب إلى جداول حقيرة»[2].

ولقد دهش «كيتو» مؤلف كتاب «الإغريق» حين زار اليونان ولمس فيها، على حد تعبيره «طرفاً من أعمال زيوس المهتاج»، فكتب يقول:

«كنت أشق طريقي مصعداً في إحدى وديان أرقادا... فوصلت فجأة إلى قطعة من الأرض تمتد اثني عشر فداناً على وجه التقريب. كانت تتناثر عليها صخور مستديرة كبيرة أو صغيرة بحيث لم يكن يرى منها وجه الأرض فكانت تبدو كأنها شاطئ البحر الصخري. وكان في وسطها منزل مدفون إلى وسطه في الحطام. وقد كانت هناك مزرعة قبل ذلك بيومين، غير أن عاصفة هبت عليها من فوق جبل «طور طوفانو Toue Tofano »[3]. على بعد أميال كانت هذه نتيجتها»[4].

ثم إن الكاتب السوري «هيسيود»[5] حين اضطر إلى النزوح مع أبيه من شمال سوريا إلى «سقارة»[6] في أرض «بويوثيا» حيث كان قد استوطن قدموس الصوري وجماعته قبل ذلك بحوالي ألف عام، كثيراً ما ردد تذمره من فقر الأرض وسوء المناخ «الكريه المقيت في الشتاء الصعب في الصيف».

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص38.

(2) عياد، المرجع السابق، ص35ـ36.

(3) «طور طوفانو» سريانية تعني جبل الطوفان.

(4) كيتو، المرجع السابق، ص39.

(5) «هيسيود» صاحب كتاب «الأعمال والأيام» سوري من شمال سوريا، اشتهر بكتاباته التي تهم الطبقات الدنيا من الشعب وبخاصة الفلاحين. لذلك لقب بـ«هيسيود» أي المتكلم عن السواد، المتحدث عن العامة.

(6) «سقارة» كلمة سريانية تعني: الحقيرة، المقيتة.

ج ـ ثروات الأرض المعدنية:

لقد كانت بلاد الإغريق فقيرة بالمعادن. فقد كان يوجد فيها القليل من الذهب والفضة والرصاص والنحاس. ولم يكن هناك حديد بالمرة. وفضلاً عن ذلك فلم يكن هناك «فحم حجري»[1].

ولم تكن طبيعة الشواطئ الصخرية المرتفعة، ومياه البحر العميقة المحيطة بها تصلح لبناء الموانئ، مما لم يشجع السكان الأصليين إلى التوجه نحو التجارة أو البحر. ولم يكن الإغريق تجاراً في تلك العهود القديمة. فأدوات الترف التي كانت توجد بوفرة في بيوت الأغنياء كانت تأتي من الشرق في السفن الفينيقية[2].

- إن هذه الصورة الكئيبة لشبه جزيرة المورة، أرضاً، وثروات، وشواطئ، وموانئ... لم تكن صالحة لقيام أي تجمع بشري حقيقي، بَلْهَ الثقافي والحضاري. وإن هذا الواقع من شأنه أن يسقط من الحساب الشرط الأول لنشوء الحضارة.

- وإن هذا بحد ذاته يسقط الشرط الثاني لنشوء الحضارة وهو قيام التجمعات السكانية الكبرى. تؤكد كل المصادر التاريخية، والأدبية منها بوجه خاص، أن السكان الأصليين لشبه جزيرة المورة كانوايسكنون الكهوف، ولم يعرفوا الأسرة والاستقرار في بيوت أو قرى قبل قدوم النازحين إليها من «الشرق» أو «آسيا».

- أما الشرط الثالث القائم أساساً على الشرطين السابقين، والمتمثل في «تركيم الخبرة» فهو ساقط أصولاً لفقدان الأساس. والحقيقة الثابتة التي لا يماري فيها أحد هي أن شبه جزيرة المورة خلو من كل مظاهر الحضارة أو الثقافة السابقة للزراعة، ثم من كل مظاهر الحضارة الزراعية بما تتطلبه من نشوء الحرفة وتطوير المعدات التي كانت تصلها من الشرق بواسطة السفن الفينيقية. وهذا الأمر نفسه ينطبق على كريت أيضاً. يقول إيمار: «وعلى الرغم من جودة مناخ كريت فإن الإنسان لم يظهر فيها إلا بعد ظهوره في مناطق الشرق الأدنى الأخرى بزمان طويل (لاحظ تجنب ذكر اسم «سوريا»). ولم يترك في الواقع أي أثر لعهد الحجر المصقول في حال أن آثار الحجر المصقول وافرة جداً في مصر وفلسطين وبلاد ما بين

(1) كيتو، المرجع السابق، ص34، 40.

(2) كيتو، المرجع السابق، ص48.

النهرين (لاحظ تجنب ذكر اسم «سوريا»)... وقد أهلت بالعنصر البشري نفسه الذي يغلب أن سواحل آسيا الصغرى أهلت به أيضاً (لاحظ تجنب ذكر اسم «سوريا»). وهو عنصر لا يمت بصلة إلى العناصر المعروفة الكبرى، وقد أطلق عليه لذلك لقب «المتوسطي»[1].

• أما اللغة والكتابة، فلم يعثر أحد على أي أثر لغوي في شبه جزيرة المورة قبل وصول النازحين إليها من «آسيا». أما الكتابة، التي هي الشرط الوحيد لتركيم الخبرة والمحافظة عليها، ونقلها من جيل إلى جيل، فلم تعرفها بلاد الإغريق قبل القرن السابع قبل الميلاد، وقد جاءتهم مع حروفها من سوريا. «وبما أن أكابر البلاد ظلوا أحقاباً طوالاً أميين، فقد كانوا ينظرون إلى الكتابة نظرة المرتاب الحذر، مع أن مزوقي الآنية الخزفية كانوا في سنة 700 ق.م قد تعلموها كما يشاهد على كؤوس الخزف المنقوشة»[2]. ولما كانت اللغة أهم العوامل في تحديد هوية السكان سواء أكانوا أصليين أم وافدين، وتحديد هويتهم الثقافية والحضارية، فقد رأينا أن نفرد لموضوع اللغة في بلاد «الإغريق» بحثاً خاصاً منفرداً نكشف فيه كيف أن السورية (السريانية) هي لغة الكتابة والأدباء والشعراء والمسرحيين والمؤرخين، وهي لغة الأساطير والمعابد، وبها وحدها أطلقت الأسماء، والتسميات، والألقاب على المواقع، والجزر، والجبال، والسهول، والأنهار، والحكام، وأبطال القصص والأساطير.

من كل ما تقدم يثبت لنا أن ما دعي بـ «حضارة الإغريق» إمّا أن تكون قد نشأت بـ «معجزة»، أي أن تكون هبطت على تلك البلاد مثل نيزك، توهج فجأة ثم انطفأ إلى الأبد، وإما أن تكون حضارة «وافدة».

«حضارة الإغريق» بين البحث العلمي والإيمان بالمعجزات:

ومن أجل تهريب «الإغريق» وحضارتهم، وفصلهم عن جذورهم السورية الأكيدة عمد المؤرخون والباحثون والمفكرون في الغرب إلى «الإيمان بالمعجزات» فجأة! فليس للعقل الإنساني، بل وللعلوم كلها، أية قيمة إذا كان هذا العقل يقف عثرة في طريق امتلاك الغرب كل شيء حتى التاريخ!

---

(1) إيمار، المرجع السابق، ص236 - 237

(2) برستد، المرجع السابق، ص294.

يقول كيتو:

«إن الازدهار المفاجئ للثقافة الأثينية في القرن الخامس كثيراً ما يسمى «معجزة» أو «آتية من الرب». غير أن أحد أصحاب المؤلفات الطبية من الإغريق عبر عن حكمة عظيمة بقوله إنه لا يوجد مرض يشذ عن القاعدة، بل كل الأمراض طبيعية، وكلها آتية من الرب»[1].

هكذا! الحضارة تأتي بـ «معجزة» من الرب، كما يأتي المرض! وفي هذا حكمة عظيمة!

ويقول براتراند راسل:

«ليس في تاريخ البشرية ما يثير الدهشة، ويتعذر تعليله، كالظهور المفاجئ للمدينة اليونانية»[2].

فهل حقاً تحول المفكر و«الفيلسوف» البريطاني «فجأة» و«بمعجزة» إلى الإيمان بالمعجزات، وأسقط دفعة واحدة كل تلك الأسس التي بنى عليها عمارته الفكرية التي بها عرف! أم أنه مثله مثل علماء اللغات الإنكليز الذين أخفوا الوثائق والرقم الكتابية السورية المكتشفة في جزيرة كريت من بداية القرن الماضي إلى اليوم! والتي قال عنها أندريه إيمار:

«إن حل رموز الكتابات التي استعملها الإيجيون لم يتوصل بعد إلى النتائج المتوخّاة. وليست المستندات ما يعوزنا، فهناك أكثر من 1500 لوح طيني مجفف بالحرارة اكتشف في أطلال كنوسوس وحدها (في كريت)، وعدة مئات أخرى عثر عليها في بيلوس من أعمال البليوبونيز. ثم إن كريت زودتنا، بالإضافة إلى ذلك، بالكثير من العاديات، ولا سيما الأختام والخزفيات التي تحمل رموزاً كتابية... وقد اعتمدت في الكتابة ثلاثة طرائق على الأقل، إحداها هيروغليفية (أي تصويرية) والأخريان كتابيتان...

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص 123 .

(2) برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة 1949 .

وقد بذلت جهود كثيرة غير مثمرة لكشف سرها. لكن العلماء البريطانيين في أواخر عام 1953 قد كشفوا عن النتائج التي انتهوا إليها في إحدى الكتابات... ويمكن القول اليوم إن «الأخيين» تكلموا وكتبوا ضرباً من ضروب اللغات اليونانية التي أصبحت منذ اليوم سهلة القراءة والفهم. وليس من ضرورة للتنويه بالآمال المعلقة على هذا الحل. فإذا ما استجلي واكتمل... قد تنقلب النظريات المأخوذ بها رأساً على عقب... ولكن الحل لا يزال في بدايته»[1].

وهل يمكن أن نمر على مثل هذا القول الخطير دون تعقيب؟

- إن السوريين، من بين شعوب الأرض قاطبة، هم وحدهم الذين استخدموا الكتابة على ألواح الطين المشوي. وإن كتابتهم مرت في ثلاث مراحل: التصويرية (الهيروجليفية)*، والمقطعية الإسفينية أو المسمارية، والأبجدية الحرفية.

- وإن السوريين هم أول من صنع الأختام واستخدمها، حتى صار كل رجل حر يحمل خاتمه الخاص به، حتى صارت الأختام بمثابة الدليل الحاسم في كل الأماكن على وجود السوريين وانتشارهم. والغريب في الأمر أن هذا هو ما كان قد أكده «إيمار» نفسه حين حديثه عن الحضارة البابلية. كما أكد على كثرتها بحيث أن «ما تركته من آثار جعلت المتاحف وكذلك المجموعات الخاصة تحوي الآلاف منها، إذ كان يملك كل شخص معتبر خاتماً يحل الرسم المنقوش عليه محل توقيع الفرد على المعاملات التي يكون فيها فريقاً أو شاهداً... ولهذا الغرض استعملوا حجراً منتخباً كاللازورد، والعقيق، وحجر الدم، إلخ. فحصلوا على أختام مسطحة، ومخروطية، ونصف كروية، أو على أسطوانات تحمل ثقباً على خط محورها للرباط الذي يوثق به... وكما يبدو فقد وصلوا إلى قمة هذا الفن في حوالي أواخر الألف الثالث قبل الميلاد عندما أظهر المتفننون حذقاً خصباً في الإبداع، وحساً مرهفاً في الخلق المتزن، ومهارة تقنية فائقة»[2]. ويقول في مكان آخر: «ويتم كل عمل بموجب عقد ينظم ويوقع حسب الأصول، مع إيضاحات صريحة، وذلك أمام شهود يوقعون أختامهم»[3].

---

(1) إيمار، المرجع السابق، ص 239.

* «هيروجليفي» كلمتان سريانيتان: الأولى من الفعل «أري» ويعني زين، نقش، حفر، رقش، والهاء للتعريف، أما «جليفو» فتعني للوح، اللوح اليابس، الحجر، القلم، برية القلم. ومنها «الجلف» في الفصحى وتعني اللوح كما تعني القلم.

(2) إيمار، المرجع السابق، ص 198.

(3) المرجع نفسه.

فهل كان في بلاد الغرب كلها في الألف الثالث قبل الميلاد كتابة، وألواح طين، وأختام؟

• ثم ما دام علماء اللغات قد كشفوا حقيقة تلك الكتابة، فلماذا يبقون عليها طي الكتمان؟ إن لم يكن كشفها من شأنه أن يقلب التاريخ المكتوب رأساً على عقب كما يصرح إيمار؟ وإن كان في ذلك خدمة للحقيقة التاريخية وللعلم، فلماذا لا ينقلب ذلك التاريخ الذي «ركبوه» منذ بدء عصر النهضة إلى اليوم رأساً على عقب؟

إن الحضارة نتاج تاريخي ولا تنشأ من عدم. إنها نتاج لتراكم كمي طويل حقق في أهم مراحله عدداً لا يحصى من التحولات النوعية في عملية متصاعدة متواصلة دون انقطاع. وهي عملية شمولية للإنسان والواقع الذي يعكس فعله في عملية جدلية لا تنفصم. إن الآثار المكتشفة، الثقافية أو الحضارية، في بقعة ما من الأرض تلزم الباحث أو المستكشف أن يفكر ملياً قبل أن يقرر هويتها. فلا يجوز إلصاقها بالمكان الذي تم فيه العثور عليها إذا لم تثبت حقيقة ذلك المكان الحضارية المتشكلة تاريخياً. ونضرب على ذلك مثالاً في مكدونيا. يقول ول ديورانت:

«لقد كانت مكدونيا حين اعتلى فيليب العرش عام 359 ق.م. لا تزال في الأغلب الأعم بلاداً همجية، يسكنها أقوام أشداء جبليون وذلك رغم كرم أركلوس وثقافته العالية. والحق أنها، وإن استخدمت اليونانية لغة رسمية لها، لم تفد الحياة اليونانية طوال تاريخها بمؤلف أو فنان أو فيلسوف. وكان فيليب قد أقام ثلاث سنين مع أيا مينتا في طيبة. فاستقى منهم قدراً متوسطاً من الثقافة وقدراً عظيماً من الأفكار الحربية... وجملة القول إنه كان حيواناً عظيماً»[1].

لن نصرف جهداً ولا وقتاً لمناقشة فكرة «المعجزة» التي جعلت حضارة الإغريق تنشأ شابة ناضجة في القرن الخامس قبل الميلاد، وكأنما انبثقت من عدم. فكل الشواهد والمعطيات تؤكد بما لا يبقي أي مجال للشك بأنها حضارة وافدة.

(1) ديورانت، المرجع السابق، حياة اليونان، المجلد 7-8، ص407.

لكن ثمة نوعان من «الحضارة الوافدة»: الأول هو أن يقتبس شعب أو جماعة سكانية ما ثقافته أو حضارته من شعب آخر مجاور، فيطوعها، ويكيّفها بما يتناسب مع مكوناته البيئية والثقافية. وهذا يتم بصورة تدريجية وبطيئة، وبعملية طويلة لا تكاد تلحظ. والنوع الثاني هو الظهور المفاجئ للحضارة الوافدة، وهذا لا يتم إلا بظهور أصحابها المفاجئ على الساحة، أي بالانتقال المفاجئ عن طريق أصحابها أنفسهم إلى الموقع الجديد، سواء أكان بالغزو الاستيطاني المفاجئ، أو بالنزوح القسري أو الهجرة القسرية لأسباب قاهرة وطارئة ومفاجئة في الوطن الأم.

أما النوع الأول من الحضارة الوافدة فيتطلب شرطاً رئيسياً لا بد من توفره في الأرض المضيفة، وهو أن يكون الشعب الأصيل فيها على درجة من التطور الثقافي تتقارب مع مستوى الخارج، مما يكفل تحقيق إحدى حالات جدل الخارج مع الداخل والمتمثلة في الاقتباس أو التعلم. وهذا ما لم يتوفر في كل بلدان أوروبا، وشبه جزيرة المورة ضمناً، على الإطلاق.

وبهذا يبقى أمامنا الشكلان الآخران الباقيان من أشكال «الحضارة الوافدة» الناجمة عن نزوح أصحابها إلى المواقع الجديدة، بشكليه التوسع الاستيطاني التدريجي، والنزوح القسري، أو الاضطراري الذي نلخصه بكلمة الهروب أو النزوح الذي لخصته لنا الكلمة السريانية «إغريق» Greek.

* * *

ومن أجل ألاّ تبقى كتابة التاريخ رهناً للأمزجة، والأهواء، والأغراض، والفرضيات التي لا أساس لها، فإننا سوف نبدأ بالتذكير بأهم الملامح الأنثروبولوجية للإنسان العربي، والسوري بوجه خاص، كونه هنا صاحب الشأن، وعلى الصعيدين الحياتيين: القبلي والمدني، لنتتبع، من ثمَّ، هذا الإنسان بملامحه الحقيقية المعروفة لدينا في كل أماكن انتشاره.

الفصل الثالث

السوريون في ضوء علوم الإنسان

[الأنتروبولوجيا]

1 - البيت، وتقاليد الأسرة، والقبيلة، والنسب:

لم يعد يماري اليوم أحد من الباحثين، الذين جعلوا من العلمية والموضوعية ديدنهم، في أن الوطن العربي القديم (أو المشرق العربي تحديداً) هو مهد الإنسان العاقل الأول[1]، وأن الإنسان العربي، أو السوري، هو الجد الأول لكل البشر. لهذا كان من الطبيعي أن تتكون ملامح شخصيته الفردية والاجتماعية وتنضج في إطار من الإبداع الثقافي والحضاري المتشكل تاريخياً في موطنه الأصلي بصورة مستمرة دونما انقطاع وعلى مدى آلاف السنين. ولما كان هذا الإنسان أول من حقق الانتقال من حياة التجوال والتقاط القوت مما تجود به عليه الطبيعة، إلى حياة الاستقرار، والزراعة، وتخزين القوت، وبناء البيوت، وتأسيس نظام الأسرة والزواج قبل أي إنسان آخر في بقاع أخرى ربما بعشرات الآلاف من الأعوام، فقد ترتب على ذلك تشكل وبروز مجموعة من العادات، والتقاليد، والشرائع، والنظم، والآداب، والسلوك، والأخلاق، طبعت العربي، أو السوري، بطابعها وتميز بها، بل وانفرد بها حتى صارت بعض سماته التي لا تنفصل عن شخصيته.

ثم إن الفكرة القائلة بأن الرب الخالق خلقه على شاكلته ليكون خليفته على الأرض التي لم تفارقه منذ بدء وجوده إلى اليوم جعلته يرقى إلى بناء مجموعة من القيم حملها في ذاته بكل اعتداد، وتميز بها عمن أحاط به من الهمج على مدى آلاف السنين. إن تلك الخصال التي ميزت الإنسان العربي، أو السوري، سواء أكان بدوياً في صحرائه أو مدنياً في رخائه وازدهاره، لفتت أنظار العلماء والدارسين، وجعلت منه شخصية ساحرة، تزخر بمجموعة من الخصال التي يجدر بالبشرية أن تحافظ عليها وتحميها قبل أن تتهرأ وتتلاشى تحت وطأة القيم التي يفرزها الإنسان الآلي الجديد.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، المجلد الأول، ص13.

ومن تلك الخصال الفريدة التي تميز بها العربي في صحرائه: الشجاعة النادرة، والرشاقة، والوسامة، وحب التطهر والنظافة، والذكاء الوقاد، والدهاء، والكرم، والنجدة، والقناعة، واحترام الشيوخ والعلماء، وتقديس الحكمة، وحبه للتأنق، والتمتع دون شره، وتقديسه لقصص الحب الطاهر، وحبه للمرأة، والشعر، وتعلقه بالحرية... ثم يضيف ول ديورانت إلى هذا: «إن هذا «البدوي» حذر وشجاع، ومهما يكن فقيراً فإنه يواجه العالم بمهابة وأنفة، يزهو بنقاء دمه، ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه...»[1] ومن هنا نبدأ.

إن اعتداد العربي، أو السوري، بنسبه، وبالحفاظ على تسلسله ناجم عن سببين:

الأول: للتأكيد على تميزه عن باقي الشعوب الهمجية التي كانت تحيط به، والتي بقيت تمارس الزواج العشوائي ومشاعية المرأة حتى زمن قريب.

والثاني: حرصه على التمسك بقيمه الرفيعة التي كان سباقاً إليها، تلك القيم التي ما انفك يرددها في كل مجالات فخره شعراً أو نثراً. فهو ما يكاد يذكر نسبته إلى أحد الأجداد حتى يسارع إلى التغني بشمائل ومناقب ذلك الجد الذي لا تنطفئ ناره، ويقصده الشريد والطريد والمظلوم. فاعتداد الناس بأنسابهم ليس يحمل في ذاته أية معاني سلبية كأن يميل به إلى التعصب العرقي، بل ظل، وعلى مدى التاريخ، يحمل مضموناً واحداً هو الاعتداد بمناقبية الأجداد. وكثيراً ما كانت تلك المناقب تطير كالطيور المجنحة من بقعة إلى أخرى حتى تطبق شهرة صاحبها الأرض العربية كلها والقبائل كلها. وكثيراً ما كنا نسمع أو نقرأ عند مبارزة فارسين من فرسان العرب أن يطلب أحدهما من الآخر أن ينتسب، ثم ما يلبث أن يهتف بجذل: كفؤ كريم، أو أخ كريم، أو ابن أخ كريم.

إن الاعتداد بالنسب، هو عند العربي اعتداد بالمفاخر التي كانت بمثابة الأوسمة لأولئك الأجداد الذين يجعل منهم قدوة للأجيال المقبلة. وبالتالي فإن الاعتداد بالنسب لم يكن يعني الانتماء إلى فلان من الناس، بل إلى ما يمثله هذا «الفلان» من مناقب جديرة بأن يعتز بها الناس جميعاً.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، المجلد الأول، ص13.

إنه لم يكن سلفياً في توجهه، بل كان مستقبلياً، فعلى أساس المناقب السالفة المختارة والممتازة يتم تعمير الأجيال المقبلة، وإلا فقد النسب عند العرب مضمونه ومغزاه. إن على الأبناء أن يعتزوا بمناقب الأجداد وأن يبنوا عليها عمارات قيمهم القادمة، لا أن يركنوا إلى التفاخر بها فحسب. والشعر العربي، وكتب علم النفس والاجتماع والتاريخ عندهم حافلة بالشواهد:

لسنا، وإن كرمت أوائلنا　　يوماً على الأحساب نتكلُ
نبني كما كـانت أوائلنـا　　تبني، ونفعل مثلما فعلـوا

وأكثر الممدوحين مدحوا بأعمالهم لا بأنسابهم. وها هو عامر بن الطفيل أحد سادة الأنساب يقول:

وإني، وإن كنت ابن سيد عامر　　في السر منها والصريح المهذب
فما سوّدتني عامـر عـن وراثـة　　أبى الله أن أسـمو بـأم ٍ ولا أبٍ

وها هو الشاعر العربي العظيم المتنبي يقول في رثاء أمه:

ولو لم تكوني بنت أكرم والدٍ　　لكان أباك الضخم كونك لي أماً

والدليل الآخر هو أن العربي الذي يحفظ شجرة النسب الطويلة لم يكن يفخر بالانتماء فيها إلا إلى المتميزين بمناقبيتهم. إن بين الناس وبين علي بن أبي طالب مئات الأجداد، لكنهم يعتزون بالانتساب إلى علي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى هاشم، وكذلك بالنسبة إلى عدنان الذي بينه وبين هاشم مئات الأجداد. لهذا كان من المحتم والواجب أن يرتبط النسب بصفة أخرى تلازمه وهي «الكرم». ولما كانت الخيول العربية وجدت مع العربي في شبه جزيرة العرب، وفتح عينيه على وجودها معه، وفيها من الخصال الحميدة التي تنفرد بها وحدها بين كل خيول العالم مثل ما فيه، فقد عشقها كما عشق نفسه، واهتم بنسب فرسه اهتمامه بنسبه، حتى صارت صفة الكرم ملازمة له ولفرسه معاً، فيقول: فرسٌ كريمٌ (أو جوادٌ) وفارسٌ كريمُ النسب.

ومن هنا فقد بقيت الأسرة العربية ـ بخلاف كل الأسر ـ تحرص على تلبية رغبة المرأة بالاحتفاظ باسم عائلتها بعد الزواج. لهذا فإن علم النسب الذي تميز به العرب وحدهم، أو السوريون، سوف يبقى جزءاً من علوم الأنتربولوجيا (علوم الإنسان) ككل. وبواسطته سوف نستدل على وجودهم، وسوف يكون أحد العوامل الأساسية في تحديد هوية الأقوام في كل مواقع انتشار السوريين. فأينما عثرنا على نسب أو على «فلان بن فلان» سوف نضع الأساس في تحديد الهوية القومية، لنبحث عن مجالات تأكيده الأخرى في اللغة وغيرها.

وليس علم «الأتنوجرافيا»[1] (أي علم السلالات) الذي دخل بقوة مؤخراً علوم الأنتروبولوجيا ليصبح ركناً أساسياً في علم التاريخ إلا إقراراً بأهمية علم الأنساب الذي وضعه وانفرد به العرب.

يقول موسكاتي: «إن المناطق الثلاث ـ الجزيرة العربية وسوريا ومن ضمنها فلسطين وبلاد ما بين النهرين ـ كلها تكوّن وحدة جغرافية متماسكة الأجزاء، كانت في تلك الأزمان مسرحاً رئيسياً للنشاط البشري. وإن الأقوام الذين مثلوا هذه الأحداث المسرحية لعبور الدور المعد لهم بحكم طبيعة أحوالهم، وقد صهرتهم هذه الوحدة الجغرافية في مصير مشترك، بحيث أن أية صدمة أو حركة تصيب القطاع الواحد يمتد انعكاسها إلى الأقطار الأخرى... وإن الأقوام الذين استوطنوا هذه الأصقاع هم وحدهم الذين رسموا شكل تاريخها وحضارتها في ضوء أحوال بيئتهم الطبيعية»[2].

---

(1) يقول بروملية وبودولني في كتابهما «الأتنوس والتاريخ» إن المصطلح مشتق من كلمتين يونانيتين، إحداهما «إتنوس» ومعناها شعب، والأخرى «جرافيا» وتعني كتب، وصف. أما الحقيقة فالكلمتان سريانيتان حسبوهما في الغرب إغريقيتين ظناً منهم أن لغة الإغريق مستقلة. أما كلمة أتنو فأصلها السرياني «حتنو» Hatno وتعني الأقارب من طرف النساء تحديداً عن طريق المصاهرة، وهي «الختن» في الفصحى، جمع أختان وتعني الأقارب عن طريق المرأة والخَتْن في الأصل أبو الزوجة أو أخوها. وقد بقي الناس في أوروبا أحقاباً طوالاً لا يعرفون أباءهم. وقد تحولت الحاء، كالعادة، في أول الكلمة في اليونان فيما بعد همزة، وكان اسمها بالأبجدية السريانية «حيطا» أي حائط، فصار اسمها «إيتا».أما «جرافيا» فهي من الفعل السرياني «جرفْ» ويعني أجرف، حفر، نقش، صور على الحجر أو المعتن.

(2) Moscati, Ancient Semetic Civilization London, 1957 pp13, 21, 108.

«وفي ظل هذه الأجواء ظهر في «النطوف»* الاستقرار كما ظهرت القرية. وكلاهما كان السبب في نشوء تحولات لا يمكن لغيره أن يحققها. وقد تجلت تلك التحولات في البلوغ بالسكن إلى الكمال، وفي قيام شكل جديد من أشكال الفعالية البشرية، وقد تمثل هذا الشكل في ممارسة الإنسان للزراعة لأول مرة»[1].

فالإنسان السوري كان أول من بنى بيتاً للإقامة والسكن والاستقرار. والبيت في السريانية، لغة إنسان ذلك العصر، هو: «بوت» وبوتو أي: مقام، منزل، مبيت. وبيت وبيتا وبيتو تعني أيضاً: بيت، عائلة، قبيلة، أهل، منزل الكواكب، هيكل، بيت من الشعر. بيثويا وبيوثويا: ذو قرابة، نسيب، موافق، مناسب، مشابه، نقيض غريب... بيوثويوت: قرابة، مطابقة، مشابهة، حاشية، أتباع، أبناء النسب... وفي العرباء (الفصحى) نجد معنىً إضافياً هو: بات الرجل المرأة أي تزوجها. والبيت: الشرف.

وهنا لا بد من التوقف عند أمرين: الأمر الأول، ما يتعلق بمضمون الكلمة. إن كلمة «بيت» تتضمن، إذن، المعاني الأساسية التالية:

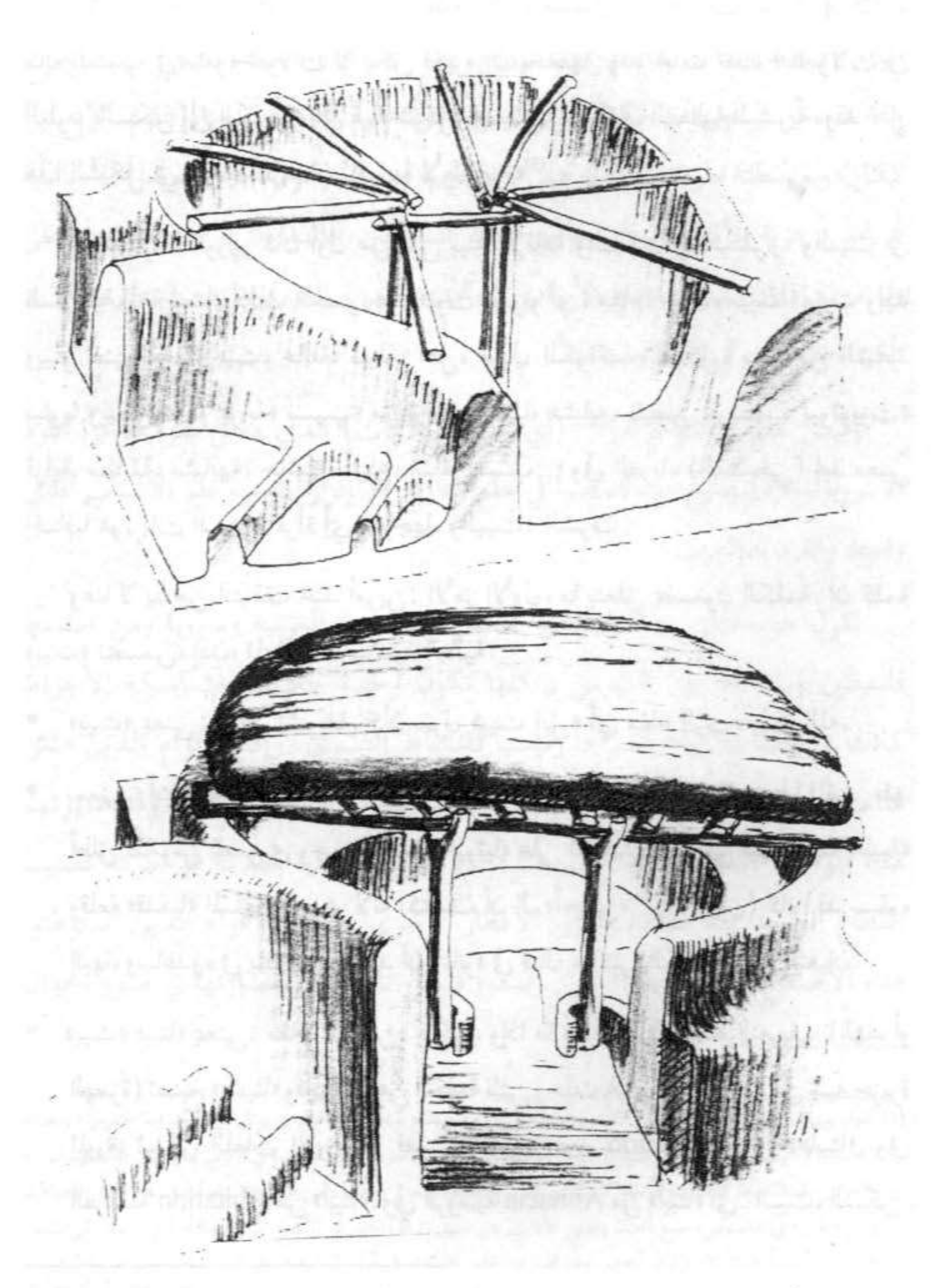
- «بيت» بمعنى: مقام، تشريفة. كأن نقول «بيت إيل» أي مقام الرب، بيت الله.
- بمعنى: أبناء، أهل، أسرة، حاشية، قرابة، نسب، نقيض أجنبي وغريب. وبهذا المعنى فقد أطلق قدموس الصوري وجماعته اسم «بيوثيا» على الأرض التي بنى فيها مدينة «طيبة» وقلعة «قدميا» المسماة باسمه، لأنه اكتشف أن الـ «أحيني»[2] (الأخيين) كانوا قد سبقوه إليها، وساعدوه في بناء مدينته بعد أن أعانوه في قتال ساكني الكهف، أبناء الثعبان.
- «بيت» «بيتا» بمعنى: مقام، مسكن، سكن. وإذا ما أضيفت إليه أداة التعريف (الهاء أو الهمزة) تصبح «هابيتا» و«أبيتا». وهي الكلمة التي رحلت غرباً مع السوريين إلى شبه جزيرة المورة، ثم إلى اللغات الأوروبية: ففي الإنكليزية نجد Habitation من «هابيتا». وفي الفرنسية Abitation من «أبيتا». وفي الروسية Abitacia من «أبيتا» أي: البيت، السكن.

---

* اسم واد في جنوب سوريا.

(1) الدكتور جاك كوفان «الوحدة الحضارية في بلاد الشام»، ص32.

(2) «أحيني» بالسريانية جمع «أحو» و«أحينو» وتعني: الأخ، القريب، النسيب، المشابه، ابن العشيرة، ابن الجنس. كأن يقال بالفصحى يا «أخا العرب» بدلاً من يا أخي.



صورة رقم (5) : أقدم مسكن عثر عليه في المريبط علر نهر الفرات – سوريا. الألف السابع ق.م.

• ومن الفعل بات بمعنى نكح، تزوج، جاءت عن طريق اليونان إلى السلافية القديمة فالروسية الحديثة كلمة «يبات» ebat التي استخدمت بمعنى جامع، ضاجع. لأن السلافي لم يكن قد عرف تقاليد الأسرة والزواج بعد.

أما الأمر الثاني فهو ما يتعلق بتقليد البيت العربي نفسه. لما كان التراث العربي مجمعاً على أن الرب الخالق، خلق «آدم» الإنسان العاقل في جنته الأرضية، فقد دأب على أن يجعل من بيته تقليداً لـ «بيت الرب». فهو لا بد أن يبقى منفتحاً على السماء والنور، تظلله الثمار والرياحين عند «عين الخلد» الفوارة، حيث الحوض المقدس، وحيث مقام الخالدين. ويدعون هذا الجزء «جنينة» تصغير «جنة».

وقد ظلوا إلى زمن طويل يمثلون في الحوض ستة ميازيب ثلاثة من كل جانب، تتدفق منها المياه من الحوض الأعلى إلى الحوض الأسفل لتمثل الأنهار الستة التي تسقي جنة عدن.

إن هذا التصور التراثي التقليدي هو الذي لازم البيت العربي وميزه على مر العصور في الوطن العربي، أو السوري القديم، وفي كل مواقع انتشار السوريين. وصار معلماً «أنتروبولوجياً» آخر، لا بد من أخذه بالاعتبار حين تحديد الهوية الثقافية والحضارية لهذا الموقع أو ذاك.

إن «البيت العربي» المؤلف من فناء واسع غير مسقوف يتوسطه حوض في وسطه «نافورة» ماء، وتحيط به بعض الأشجار المثمرة وشتى أنواع الورود والرياحين، وتتوزع مداخله إلى الحجرات، التي يعلوها طابق ثان مخصص لحجرات النوم، بالإضافة إلى كل أنواع الترصيع، والتزيين، وفنون الزخرفة والتصوير بالفسيفساء وغيرها، وإن الأعمدة البديعة البالغة حد الكمال في الاتقان التي يقوم عليها البنيان الفوقي وتحيط بالفناء من جوانبه الثلاثة بزهو وحنان في آن معاً، تمثل السادة ا لأرباب المعلّمين الذين يمثلون صلة الوصل بين السماء والأرض، ولا يقوم بنيان روحي أو مادي من دونهم، تتوجهم دائماً أكاليل المجد، إما بأغصان الغار أو بسعف النخيل، أو بجدائل النور.

إن هذا البيت هو الذي سوف نلتقي به في كل مواقع انتشار السوريين عبر كل العصور، ومن بلاد المورة إلى جنوب إيطاليا، وصقلية، وجنوب إسبانيا، وصولاً إلى القارة الأمريكية.

يقول بيير روسي بهذا الصدد:

«فالمسافر المنطلق من ضفاف الفرات أو النيل لا يشعر بالغربة عندما يصل إلى روما. لقد كانت المساكن الخاصة منقولة حسب الطراز التقليدي الآرامي: ساحة كبرى داخلية مزينة بأعمدة واجهة، ينفتح عليها بهو واسع وعلى الغرف. فالسكنى في باحة فكرة لا يمكن أن ترد إلا على خواطر شعوب تسكن تحت سماء دون مطر... إن عربي القرن العشرين سيجد بالطبع منزلاً رومانياً حسب ذوقه في عصر القياصرة، لأن المنازل كانت آرامية الطابع بناءً وأثاثاً. وكان حضور مهندسين معماريين عديدين، ومعلمي بناء ومزيني ديكور سوريين إلى روما أمراً مؤكداً منذ وقت مبكر»[1].

وبالإضافة إلى هذا، لما كان أول بيت على الأرض هو «بيت إيل» بيت الله، وبيت الإنسان خليفته على الأرض تقليداً له، فإنه، بالتالي، طاهر، وحرم. فإن الضيف الذي يقصده هو «ضيف الله» هذا التعبير الذي لا تجده إلا عند العرب. لهذا فإن إكرام الضيف جزء من مناقبية العربي. وكما يحق لأي عابر سبيل أو غريب أن يأوي إلى «بيت الله» أو المعبد فيجاور الرب، ويلقى الحماية، فإن هذا الحق يمارس في بيت الإنسان العربي الذي يكرم ضيفه ويؤويه لمدة ثلاثة أيام دون أن يسأله عن اسمه أو بغيته، ويجيره إن استجار به.

إن هذا جعل كل بيت لأي مواطن عادي يتضمن قاعة، أو بهواً كبيراً لاستقبال الضيوف دعي بالسريانية «ميقارون» (من فعل قرى = أضاف، وقر، أكرم والقرى بالفصحى الضيافة) ودعي بالفصحى «المضافة» التي ما يزال البيت العربي محافظاً عليها إلى اليوم. وهذا ما سوف نلتقي به في كل مكان من سوريا، وفي كل مواقع انتشار السوريين.

يقول أندريه إيمار:

«قوام الميقارون بناء مستطيل. ويقوم أمامه في الخارج، بعد الأعمدة التي يستند إليها، قسم ناتئ من السقف، رواق بمثابة مدخل يلجه النور والهواء، ويفصل جدار ذو باب واحد عن قاعة كبرى هي «الميقارون» نفسه الذي تتوسطه موقدة ثابتة مستديرة. وليس هناك من مدخنة لتصريف الدخان، بل كوة في السقف تستند إلى أربعة أعمدة تحيط بالموقدة على الأرض. وبفضل هذه التدفئة يصبح هذا المكان قاعة للأبّهة تزخرف جدرانها، ويستقبل فيها الضيوف. ويرد في القصائد الهوميرية أن الولائم تقام فيها، كما

(1) بيير روسي، المرجع السابق، ص215.

أن «أوليس» سيوتر قوسه ضد الطامعين في ملكه في ميقارون قصر إيطاق (الطاق = القصر)، ومن وحي الميقارون أيضاً سيشتق المعبد اليوناني».

ويضيف إيمار:

«... ونشأ عنصر البيت الأساسي «الميقارون» الذي ظهر في العالم المتوسطي قبل الآخيين. فإننا نجده في «طروادة الثانية» التي ترقى إلى الألف الثالث، وفي تساليا، وبيوثيا، في أوائل الألف الثاني. ولعل منشأه شمالي آسيا الصغرى التي انتقل منها إلى أوروبا عن طريق شمالي بحر إيجه، ولكن الموكينيين هم الذين وضعوا له شكله النهائي الثابت، وعمموا استعماله وطريقة بنائه. فظهر في جزر الكيكلاثي حوالي سنة 1500 ق.م. وفي كريت بعد هذا التاريخ»[1].

أما تقاليد الأسرة والوحدات السكنية الأخرى فتختلف في المجتمع القبلي البدوي عنها في المجتمع المدني. ففي الأولى تكون رابطة «الدم» أو القربى هي الأساس، بينما تحل محلها في الثانية رابطة المكان، الحي، أو القرية، أو المدينة، أو الدولة. وقد سميت رابطة الدم بالسريانية «دمو» Demo و«ديمون» لتدل على مجموعة من الناس المنحدرين من جد واحد، وهي العشيرة. وإن مجموعة عشائر تكون ما يدعى «ضنأ» (بالسريانية «داناؤو»)، وإن مجموعة القبائل والعشائر كانت تدعى «الجنس»، وبالسريانية «جنسو». وقد فسر القلقشندي في كتابه «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» هذا الترتيب فقال:

«وكأنما رتبوا ذلك على بنية الإنسان. فجعلوا الشعب بمثابة أعلى الرأس. والقبائل بمثابة قبائل الرأس، وهي القطع المشعوب بعضها إلى بعض. والعمارة العنق والصدر، وجعلوا الفخذ تلو البطن، لأن الفخذ من الأنساب بعد البطن. وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ، لأنها النسب الأدنى الذي يفصل عنه الرجل، بمثابة الساق والقدم، إذ المراد بالفصيلة العشيرة الأدنون، بدليل قوله تعالى: «وفصيلته التي تؤويه» أي تضمه إليها، ولا يضم الرجل إلا إلى أقرب عشيرته... إن العنصر الأول في المجتمع البدوي هو «البيت» ويعنون به العائلة أو الأسرة. فالبيوت، أو الأسر القريبة بعضها من بعض تؤلف «الفخذ»... وتجتمع الأفخاذ فتؤلف «البطن» أو «الفرقة» أو «الفندة»، وتجتمع (البطون) أو الفرق أو الأفناد فتكون العشيرة...».

(1) أندريه إيمار، المرجع السابق، ص252 – 253.

«ويزعم رواة البدو أن القبيلة إنما تنشأ من جد عام يورث اسمه إلى قبيلة كبني صخر وبني خالد وغيرهم»[1]. أي إن الرابطة هي رابطة الرحم أو صلة الدم. إن هذا عينه هو ما ذهب مع السوريين إلى أتيكا في المورة... لنقرأ ما يقوله ول ديورانت حول «القادمين» إليها لاستيطانها:

«وقد استقر في أتيكا شعب نشيط مغامر إبان العصر الحجري الحديث أو قبله، وهو مزيج من الفالجيين والآخيين... سلالة مختلطة من شعوب البحر المتوسط، متوسطو القامة، سمر البشرة... وكان نظامهم الاجتماعي مستمداً من صلة الدم هذه. فكانت كل أسرة تنتمي إلى قبيلة من القبائل يدعي أفرادها أنهم من نسل بطل مقدس واحد... ويقبلون ما تمليه عليهم واجبات التعاون، والثأر، والدفاع، ويوارون التراب آخر الأمر في مدافن القبيلة. وكانت كل قبيلة من قبائل أتيكا، الأربع تتألف من ثلاث بطون، وكل بطن من ثلاثة أفخاذ، وكل فخذ من ثلاثين من أباء الأسر أو نحوهم»[2].

ويقف المؤرخون في الغرب الذين أصروا على تعطيل العقل من أجل إقامة حواجز عرقية بين السوريين والإغريق. فأخذوا «يفبركون» مضامين كاذبة مختلقة لهذه الكلمات العربية الصميمة في الفصحى والسريانية. يقول فوستيل دي كولانج: «وكانوا يسمون السلالة «الجنس» Genus أو Genes وفي المعضلات الصعبة التي كثيراً ما يجود بها التاريخ يستحسن أن نتلمس في مصطلحات اللغة كل المعلومات التي تستطيع أن تعطيها... فلفظ Genus هو بالضبط لفظ Genes إلى درجة أنه كان من المستطاع استعمال الواحد بدل الآخر... إنها: الراضعون من لبن واحد»[3]. «أما كلمة دمو Demo فصاروا يترجمونها «الشعب»[4]! إن عدم الاعتراف بالأصول السورية للناس وللغتهم سوف يجعل أولئك المزورين دائماً أمام معضلات صعبة يجود بها التاريخ».

ففي القاموس السرياني نجد: جنس Genes وجنسو Genso تعني: جنس، أصل، عائلة، أهل، عشيرة، قبيلة، نوع، صنف، ضرب، مقولة من المقولات العشر «برجنسو»: قرابة، مثيل في الجنس.

---

(1) أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، ص177.

(2) ديورانت، المرجع السابق، حياة اليونان، أتيكا، ص 201

(3) فوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة عباس بيومي بك، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1950، ص136.

(4) المرجع نفسه.

«جنس جنسين» جنس الأجناس، جوهر. «من جنسو هو» من أي جنس هو؟ «جنسونو»: جنس، أصل. «جنسوي»: جنسي، أصلي الفعل «جنس» Gens : جنس أدخل في الجنسية. استنسب، ذكر، أعلن نسبه وجنسه. «اتجنس»، دخل في الجنسية، جانس، ناسب، شاكل. وأينما مرت هذه الكلمات السورية (السريانية) بكل اشتقاقاتها سوف تكون دليلاً جديداً (أنتربولوجياً) على وجود السوريين. وغني عن القول أن كلمة «جنس» هي في العربية الفصحى أيضاً بكل مشتقاتها.

ومن تقاليد الأسرة في المجتمع البدوي، أو القبلي، ما كان يدعى بـ «حق البكورية».

إن الجميع يعرف أن رفقة امرأة اسحق بن ابراهيم العربي السرياني تمكنت من أن تخدع زوجها بعد أن عمي في شيخوخته وقدمت له ابنها يعقوب الذي كانت تؤثره على أخيه بدلاً من أخيه «عيصو» لينال بركة أبيه وحق البكورية، بعد أن ألبسته جلد عنزة، لأن عيصو كان كثير الشعر. وإن سارة امرأة ابراهيم طردت اسماعيل الذي هو بكر أبيه مع أمه هاجر بعد أن ولد لها اسحق ليحتفظ هذا الأخير بحق البكورية. ذلك منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

«وقد أشار أفلاطون إلى أن... نظام الوراثة يقضي بحصر حق استثمار (الأرض الزراعية) في أكبر الأولاد. فكان بقية الأخوة الذين يريدون ملكاً خاصاً بهم يذهبون إلى ما وراء البحار في سبيل الحصول على ذلك»[1].

وهذا مَعْلَم «أنتربولوجي» آخر من أجل تتبع آثار العرب أو السوريين عموماً، في كل مواقع الانتشار.

وعند نزوح الابن البكر مع مجموعة من مشايعيه إلى بقعة مغتربهم الجديد، يتزعمهم صاحب الطول والزعامة الذي يدعى بالسريانية «أركو» Arko و«أركون» ويقتسمون الأرض بالقرعة، ويتمجد في القرية الجديدة اسم الجد المؤسس، وتقدم على اسمه، وتزكية لراحة نفسه بعد الموت، القرابين والأضاحي، من أجل أن تبقى روحه راضية عن السلالة، فتضمن ازدهارها وتؤمن الفأل الحسن على الدوام.

(1) عياد، المرجع السابق، ص125.

إن تقديس هذا «الجد» الفذ المؤسس الذي لم يكن يعتبر إلهاً بأية حال، ما لبث أن فهم من قبل السكان الأصليين فهماً خاطئاً ليتحول إلى إله، «God»، وأحياناً إلى رب الأرباب كما حدث للنبيل السوري النازح زيو وامرأته حيرا. والأطرف من هذا هو أن كلمة جد Gad في السريانية والفصحى تعني الأب البعيد في سلسلة النسب، كما تعني الحظ، والبخت، والفأل الحسن. وهذا ما أحدث بلبلة لدى «العلماء» المتفقهين في الألسنيات في الغرب، فما يكادون يخرجون من حائط حتى «يدخلوا في حائط».

لنسمع أندريه إيمار وهو يفلسف كلمة Gad:

«وقد سيطرت فلسفة الحظ هذه على مؤلفات بوليب التاريخية... ولكن قد سلم بالإضافة إلى ذلك، ولا سيما في الأوساط الأمية أو شبه الأمية، وجود حظوظ كثيرة، واحد لكل فرد، ولكل جماعة فتمكنت التأثيرات الشرقية، أقله في هذا الحقل، من أن تفعل فعلها عن طريق مفهوم «جد Gad» السامي، الحامي، الخاص لكل مدينة... ويمكن القول على العموم إن عبادات قليلة عرفت مثل هذا الانتشار الذي عرفته هذه الديانة»[1].

وفي مكان آخر يقول: «وهنالك، أخيراً، عبادة «البطل»، ذلك الإنسان العظيم الذي أتى بالمعجزات، وانتقل بعد موته إلى جوار الآلهة، ولا سيما البطل «المؤسس» مؤسّس المدن بنوع خاص، أي ذلك الذي أوجد مجموعة بشرية جديدة تعبر له، في تأدية عبادتها له، عن تقواها وشكرها، وتضمن في الوقت نفسه تلاحمها الداخلي... فهل يا ترى من أبطال يفوقون الملوك الهيلينيين بمآثرهم وتشييد المدن الكثيرة؟»[2].

لقد تحولت هنا عبادة «الجد» المؤسس للمدينة إلى أمر عظيم يستحق الثناء، لأن المؤلف اشتم شيئاً «هيلينيا» هنا.

لكن الأمر هو هو، والناس هم أنفسهم، والظاهرة هي ذاتها... والغريزة هذه المرة، كعادتها، لم تصب!

---

(1) كان أول معبد لزيوس في غزة سوريا، ويدعى زيو مارنيو وكلمة مرينو تعني بالسريانية: الأصلي: الحقيقي، خلاف التقليد، دمره البيزنطيون عام 400 م مع ثمانية معابد أخرى في غزة بحجة أنها وثنية. انظر: أخر الوثنيين لبيير شوفان، ترجمة سلمان حرفوش، ص151 - 161

(2) كيتو، المرجع السابق، ص80 - 100.

أما الميزة التي لا يجوز تجاوزها هنا، والتي لازمت العشائر العربية إبان نزوحها إلى مواطنها الجديدة فهي أنها كانت تعتمد في اتخاذ قراراتها المهمة على مجلس مكون من شيوخ العشائر أو أمرائها، يجتمع إبان الخطر في دار، أو غرفة، أو صحن المعبد. فالمجتمعون هم أمراء العشائر أو شيوخها أو سادتها، والمكان يدعى «دار الندوة» بالعربية الفصحى. ومعروف أن دار ندوة قريش كانت في الكعبة في مكة، وقد استمرت حتى بداية الدعوة الإسلامية. وقصة إسلام حمزة عم الرسول معروفة، حينما اقتحم دار الندوة على سادات قريش المجتمعين بها، وسمعهم يقولون: من مع محمد؟ فأجاب على الفور: أنا مع محمد. وانقض على أبي جهل، الذي كان قد أهان محمداً، فضربه بقوسه على رأسه.

أما بالسريانية فالمجتمعون من الأمراء أو السادة هم «بولي» Bole، وهي جمع «بولو» Bolo وتعني الأمير، السيد. ومكان الاجتماع للشورى في الظروف الاعتيادية دعي «أورحو فوقحو Orho Fogho وتعني مجلس الشورى. إذ أن «أورحو» في القاموس السرياني تعني: مذهب، عادة، محكمة، مجلس، حق الادعاء. و«فوقحو» تعني: رأي، مشورة، شورى. وقد سقطت «الحاء» كالعادة، وصارت تعرف وتلفظ في بلاد الإغريق فيما بعد Oreo Faghos بعد أن أضافوا «السين» كالعادة اعتباطاً إلى نهاية كل اسم.

أما الاجتماع الطارئ لمجابهة خطر داهم أو للحرب فكان يسمى «قيروسيا» Gerosia، وهي في القاموس السرياني من قيرسا وقيروسا وتعني: خصومة، حرب، قتال، شدة، رزية، خطر، شر، مكروه، بأس، صولة، عدوان، أذية. ومن الفعل «أقرس» السرياني جاءت الكلمة إلى كل اللغات الأوروبية Aggress بكل صيغها ومشتقاتها Aggression ، Agressia بمعنى اعتدى و«عدوان».

أما الكلمة «بولي» (أمراء) Bole فقد حيرت جهابذة اللغات في الغرب. لقد ترجموها إلى «دولة» وإلى «شرطة» إذ اشتقوا منها كلمة .Bolis ولقد ملأ كيتو العديد من الصفحات وهو يجتهد في تفسيرها دون أن يصل إلى قرار. فأخذ يتنقل في معناها بين: المدينة، دولة المدينة، المواطنية، القلعة، بعض الناس، جميع الناس، رابطة الدم، المجتمع كله... ثم ما يلبث أن يسقط هذه التفسيرات جميعاً.

2 - المجتمع المدني:

تلك كانت بعض أهم ملامح الحياة البدوية العربية المنتظمة في عشائرها وقبائلها منذ الزمن الموغل في القدم إلى اليوم. أما نمط الحياة الآخر المدني الحضاري المتمركز في المدن التي هي أقدم مدن على وجه الأرض، والتي يعود عمر بعضها إلى تسعة آلاف عام قبل الميلاد، والتي انتظمت في إطار الدولة المركزية الواحدة منذ الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، فكانت أول وأعظم دولة عرفها تاريخ العالم القديم، بكل المفاهيم السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والإدارية، والحقوقية، والثقافية... فثمة صورة أخرى نعود إلى التذكير بها، ونلخصها بما يلي:

- **من ناحية الرقعة الجغرافية وحدود الدولة:** ضمت كل الرقعة الممتدة من البحر الأعلى (البحر الأسود) شمالاً إلى البحر الأسفل (بحر العرب) جنوباً، ومن وادي السند شرقاً إلى شبه جزيرة اليونان غرباً.

- **من الناحية الإدارية:** «تبعت الدولة نظاماً مركزياً، على رأسه ملك مركزي، ملك «أكادا» ثم ملك «بابل» ثم ملك «آشور» ثم ملك «نينوى»، ثم ملك «سلوقيا»، ثم ملك «أنطاكية» يتبع له ملوك المدن الكبرى الأخرى بمقاطعاتها. يساعده جيش هائل من الكتبة. وكان إلى جانب الملك المركزي «مجلس الشيوخ». وكان يدير دولاب الحكومة عدد من كبار الموظفين الإداريين في العاصمة وفي الأقاليم يعينهم الملك. وكان إلى جانبهم مجالس إقليمية أو بلدية مؤلفة من أعيان البلاد أو شيوخها يسدون النصيحة إلى هؤلاء الحكام، ويوقفونهم عند حدودهم إذا تجاوزوها. وقد استطاع هؤلاء، أن يحتفظوا للولايات بقسط موفور من الحكم المحلي حتى أيام آشور»[1].

- **من الناحية الحقوقية:** تخضع مؤسسات الدولة لنظام تشريعي حقوقي واحد، بلغ أوج كماله زمن الملك حمورابي في حوالي 3000 ق.م. وقد ظل معمولاً به حتى القرن الأول قبل الميلاد. وقد ظلت سوريا مصدرة للحقوق والقوانين حتى في العهد الروماني. وكات الوحيدة التي أقامت معهداً للحقوق (معهد بيروت) الذي كان من بين ألمع أساتذته بابنيان الحمصي ابن عم الإمبراطورة السورية جوليا دومنا، التي استدعته إلى بلاطها في روما ووضع أول تشريع لروما، الذي استمد منه جوستنيان موجزه ليكون أساس كل التشريعات الأوروبية فيما بعد.

(1) ديورانت، المرجع السابق، الشرق الأدنى، ص207.



صورة رقم (6) تمثال فضي يمثال سارجون مؤسس الدولة السورية.

• الناحية الاقتصادية: لقد ازدهرت الزراعة في سوريا إلى درجة ربما لم تعرفها كثير من البلدان المتقدمة اليوم. فقد أقيمت السدود، وتفرعت وانتشرت قنوات الري، وتنوعت زراعة الحبوب، والخضار، والأشجار المثمرة، واستخدموا التلقيح والتأبير، وعرفوا فن البستنة، وتنظيم الحدائق، وألفوا الكتب الكثيرة في مضمار الزراعة وطرق العناية بالخيول والثيران وتربيتها. «ونقلوا زراعة الكرمة والزيتون من أرض الجزيرة السورية إلى بلاد اليونان والرومان، ثم انتقلت منهما إلى غربي أوروبا»[1].

وكانوا يحفرون الأرض ويستخرجون منها زيت النفط، والنحاس، والرصاص، والحديد والفضة والذهب. ويصف لنا استرابون كيف كان ما يسميه النفط والإسفلت السائل يستخرج من أرض الجزيرة، كما يستخرج منها اليوم. ويقولون إن الاسكندر حين سمع بأن السائل العجيب ماء يحترق أراد أن يثبت من هذا القول الذي لم يصدقه. فطلى به جسد غلام وأوقد فيه النار بمشعل[2]... وكانوا ينسجون القطن والصوف. وكانت الأقمشة تصبغ وتطرز بمهارة جعلتها من أثمن السلع التي تصدرها بابل إلى الخارج... وكنا نجد نول النساج وعجلة الفاخراني في أقدم عهود التاريخ البابلي... وكانت الصناعات والحرف كثيرة متباينة. وكثر المهرة من الصناع، وتألفت منهم منذ عهد حمورابي نقابات يشترك فيها الصبيان والمعلمون... وكانت القوافل التجارية الكثيرة تحمل إلى أسواق بابل وحوانيتها غلاّت نصف العالم المعروف[3]... وكانت بعض الأسر القوية تقوم طيلة أجيال متعددة بعملية إقراض النقود، كما كانت تتجر بالعقارات وتموّل المشروعات الصناعية، وكان في وسع من لهم أموال مودعة من هؤلاء أن يؤدوا التزاماتهم بتحاويل مالية مكتوبة[4]... وأكثر ما وصل إلينا من وثائقهم ذات الصبغة التجارية تتصل بالبيع، والقروض، والعقود، والمشاركة، والسمسرة، والتبادل، والاتفاقات، وما إليها. ونجد في تلك الألواح شواهد كثيرة تنطق بما كان عليه القوم من ثراء عظيم. «وإذا ما اعتبرنا مجمل هذه الحياة فإن الوقوف على حيويتها وليونتها وتشعبها، هذه الصفات التي تثبتها لوحات القيود والمحاسبة المكتشفة يحملنا على الشعور بأنها حياة اقتصادية شبيهة جداً بحياتنا العصرية»[5].

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، الشرق الأدنى، ص201.

(2) المرجع نفسه.

(3) ديورانت، المرجع السابق، ص202 – 203

(4) المرجع نفسه، ص205.

(5) أندريه إيمار، المرجع السابق، ص160.

وإن ول ديورانت يعرّفنا بشكل مفصّل على كل الرقعة التي شملتها الدولة السورية المركزية الكبرى في مرحلتها الآشورية، ثم يسرد لنا إنجازاتها الإبداعية الثقافية والبشرية التي انفردت بها وقدّمتها إلى العالم، وإلى أوروبا وأمريكا بوجه خاص.

يقول ول ديورانت حول رقعة الدولة: «لقد أقامت آشور في غربي آسيا حكماً كفل لهذا الإقليم قسطاً من النظام والرخاء أكبر مما استمتع به هذا الجزء من الأرض فيما نعلم قبل ذلك العهد. ذلك أن حكومة آشور بانيبال التي كانت تضم تحت جناحيها بلاد آشور وبابل وأرمينيا وميديا وسوريا وفلسطين وفينيقيا وسومر وعيلام ومصر... كانت بلا جدال، أوسع نظام إداري شهده عالم البحر المتوسط أو عالم الشرق الأدنى حتى ذلك العهد، ولم يدان آشور بانيبال فيه إلا حمورابي»[1].

ثم: «ولقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام، وفي خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى مركز الشؤون البشرية التي وصل إلينا علمها. وإذا ذكرنا هذا اللفظ المبهم في هذا الكتاب فإننا نقصد به جميع بلاد آسيا الجنوبية الغربية الممتدة جنوب روسيا والبحر الأسود وغرب الهند وأفغانستان... على هذا المسرح غير الدقيق بالتحديد، الآهل بالسكان وبالثقافات نشأت الزراعة والتجارة والخيل المستأنسة والمركبات، وسكّت النقود وكتبت خطابات الاعتماد، ونشأت الحرف والصناعات والشرائع والحكومات، وعلوم الرياضيات والطب، وطرق صرف المياه، والهندسة والفلك والتقويم والساعات، وصوّرت دائرة البروج، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة، واخترع الورق والحبر، وألّفت الكتب، وشيّدت المكتبات والمدارس، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء، وصنع الخزف المطلي المصقول والأثاث الدقيق الجميل، ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج، واستخدمت أدهان التجميل، والحلي، وعرف النرد والداما، وفرضت ضريبة الدخل، واستخدمت المرضعات، وشربت الخمور، عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوروبا وأمريكا ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان»...

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص272.

وقصـارى الـقـول إن «الآريين» لم يشيدوا صرح الحضارة، بل أخذوها عن بـابـل ومصـر. وإن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء، لأن ما ورثوه منها كان أكثر مما ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من العلم والفن مضى عليها أكثر من ثلاثة آلاف من السنين.



صورة رقم (7) مغنية القصر في ماري. سوريا الألف الثالث ق.م.

«فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإنّا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمـريكـيـة، وهو ديـن كـان يـجب أن يؤدّى منذ زمن بعيد»[1].

وهـكـذا فقد تكشفت الآن معالم الصورة السكـانيـة والحضـارية للعالم القديم. فشرق المتوسط، أو المشرق العربي القديم، أو سوريا، هي مهد الإنسان العاقل الأول، ومهد الثقافة والحضارة لعدة آلاف من السنين قبل انتقالها إلى أية أماكن أخرى. وأوروبا، وشمال آسيا تغرق في ظلام الهمجية. وإن شبه جزيرة المورة، أو كما صار يطلق عليها لاحقاً «بلاد الإغريق» جزء من العالم الهمجي. وفوق هذا كله، وكما سبق أن بيّنا فإنها تفتقر إلى أي شرط من شروط نشوء الحضارة.

ولما كنا قد بيّنا مدى بؤس مقولة القائلين بـ«الظهور المعجز والمفاجئ» لحضارة الإغريق، فإنه لم يبق من طريق آخر لذلك الظهور المفاجئ إلا أن تكون وافدة أولاً، ومن مواقع الحضارة، ثانياً، ومن سوريا تحديداً ثالثاً، لأنه لم يعد يعوّل على إخفاء اسم سوريا تحت أقنعة صناعية كاذبة جيوسياسية حديثة مثل الشرق، آسيا، آسيا الصغرى، الشرق الأدنى... وغيرها.

---

(1) ديورانت، المرجع نفسه، ص9 - 10.

وبعد أن بيّنا الملامح الأنتروبولوجية للإنسان العربي في نمطه القبائلي والبدوي، والملامح الثقافية والحضارية للمواطن السوري تحديداً، في واقعه المدني الحضاري المتقدّم منذ الألف الرابع قبل الميلاد، صار في الإمكان الآن أن نضيف إلى تلك الخصال القبلية المميزة جملة من الخصائص الأنتروبولوجية الثقافية للسوريين تكون دليلاً لنا على وجودهم في مواقع انتشارهم، كناقلين وحدهم دون غيرهم لتلك الثقافة التي لن توجد فجأة إلا مع ظهور أصحابها المفاجئ.

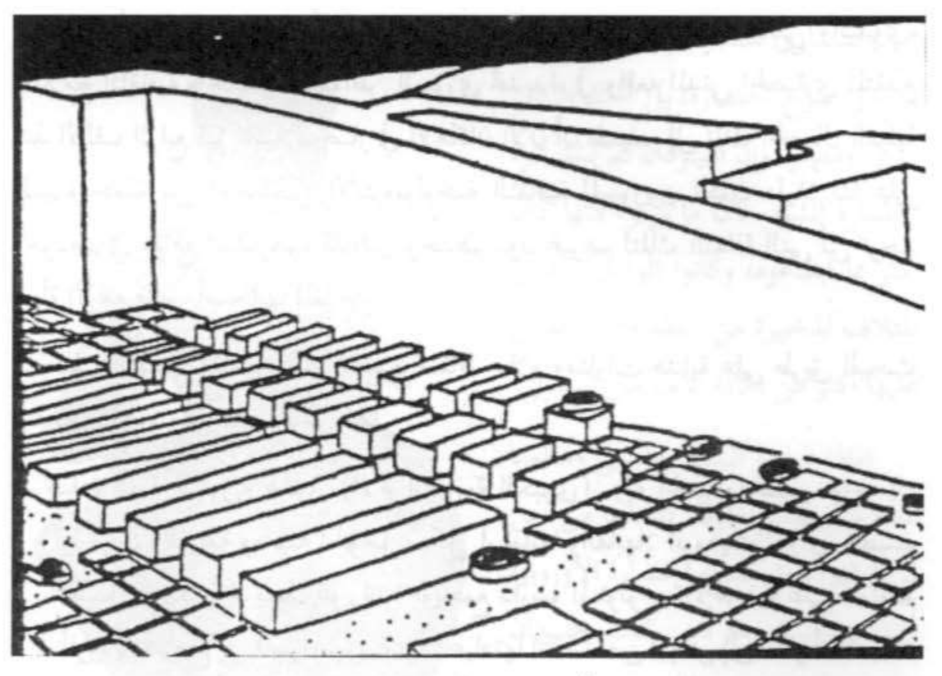
تلك السمات المميزة التي تخدم كنقاط علام ومنارات هداية على طريق البحث التاريخي الجاد والرصين، نذكر منها:

• عبادة الربة السورية عشتار (الأم السورية الكبرى): ربة الحب والخصب والجمال والحرب والقيامة ومعينة الحوامل، بكل أسمائها وألقابها: أفروديت[1] (أي خصب النسل أو الذرية). يقول غويراند: «ويجمع دارسو الميثولوجيا الإغريقية على أن اسم أفروديت يرجع إلى أصول سورية، وأن عبادتها انتقلت من قبرص إلى سائر أنحاء بلاد اليونان والرومان، وأنها كانت في الأصل ربة الخصب للأرض والطبيعة بكل مظاهرها... وأفروديت ليست في الحقيقة سوى عشتار»[2].

ومن أسمائها أيضاً: اللات (أي الربة)، إيلات (الربة)، إيليتا وإيلينا، وكلها مؤنث إيل و«أل». وميليتا Mylitha (أي المعينة من فعل إيلا أي أعان)، وأتينا Athena (أي المخصبة، وهي مؤنث «أتون» أي المخصب، وكلاهما من الفعل «يث» أي كثّر - أخصب - و«تي» الخصب ورمزه الصليب، لذلك كتب الحرف t بهيئة الصليب، و«قترا» Kathra وتعني المتكبرة، المتعظمة، الجليلة، المجيدة، المصباح، وقد دعيت باسمها جزيرة «سوقطرة» جنوب اليمن في بحر العرب والمشهورة بشجر المرّ (البخور، اللبان)، شجر عشتار المقدّس. وهي مؤلفة من كلمتين «سوق Souk» أي بخور، وقترا Kathra التي هي عشتار، ومنها جاء الاسم «القترا» Electra بعد إضافة ال التعريف، ومن القترا التي بمعنى المصباح جاءت فيما بعد كلمة Electra بعد اختراع المصباح الكهربائي.

(1) الكلمة أفروديت هي من الأصل السرياني «عف» af وتعني كثرة ووفرة، زيادة. ومنها الكلمة التي يستخدمها السوريون إلى اليوم «عفاك» afak أي زادك الله وكثرك، «روديت» rodet أي النسل، الذرية، الخصب. وهي في القاموس السرياني من الفعل «ردا»: مشى، سافر، ركب البحر، نسل، أولد، أخصب، أورد، أزهر، ومنها «رودا» أي وردة، «رَودْ»: روّض، هذّب، علّم، ومنها «روديو» rodeo أي ترويض و«روداث» rodage.

(2) F. Giurard, greak mythology, pp. 36-46.



صورة رقم (8) المدرسة في ماري – سوريا – الألف الثالث قبل الميلاد.

ومن ألقابها: «إيلاذقيا» Elathkia أي الربة الحارسة وبها سميت المدن التي تحول لفظها باللاتينية إلى laodecia لأن جميع الأصوات الحلقية تتحول باللاتينية إلى c إذا ما وقعت قبل l، e، y . و«نيروزا» nirosa أي ربة الزهر أو الربيع، وهي في الأصل «نينا» أي سيدة، ربة، و«روزا» rosa أي وردة، وهي من الفعل السرياني «روز» roes أي ازهر، أورد. و«نينورتا» ninorta أي ربة الزهر أيضاً، وهي مؤلفة من نينا + نورتا، ونورتا هي النورة بالفصحى أيضاً وتعني الزهرة. ونوّر الشجر أزهر.

ومن ألقابها التعليمية «فعالة» التي صارت palace أي العاملة بالحرفة، و«زرعيث» Zereth أي الزراعة التي صارت سيريس seris.

و«فلاحة» falahath التي صارت palace أيضاً بسقوط الحاء. ومن ألقابها «حيدا» hida وصارت ida وتعني القرينة، العروس، و«عشيرة» ashira وتعني الرفيقة، القرينة، العروس.

ومن رموزها النباتية: حزمة السنابل، وردة الزنبق، شجرة الصنوبر، ورموزها الحيوانية هي: الأسد، الأسدان، الحمامة، الحية، البقرة. ولها رموز أخرى مثل: الصليب، الصليب المعقوف، المغزل، الزنار، شاعوب الزرع ذو الشعب الثلاث، الشعلة.

رب الخصب السوري بكل أسمائه: حدد hadad وحدادي Hdadi ويعني رب النار الكونية أو الشمس، وهي القوة الاخصابية للأرض التي تبخّر الماء المالح وتصنع الغيوم وتنزل الماء العذب لتخصب الأرض وتحضن بذور الحياة بدفئها وهو «زيو» zeo أي: الشعاع، النور، البهي، السنّي، المنير. والبعل baal أي االزوج، العريس.

ورموزه هي: الثور، النسر، قرص الشمس المجنح (ومن هنا جاء اسمه الآخر «جوف يثر» gof yeter أي نسر الخصب أو الكثرة أو الوفرة التي صارت جوبيتر jopeter).

وفي المعابد السورية القديمة كان يشمخ برجان أحدهما يسمى برج النسر (وهو حدد) والبرج الآخر برج العروس (وهي عشتار) وما زالا إلى اليوم في أقدم معبد لهما في العالم في دمشق حيث الجامع الأموي اليوم، وقد صارا يدعيان مئذنة النسر ومئذنة العروس. ورموزه البلطة أو الفأس المزدوجة وهي بالسريانية «أبريزو» ومع أداة التعريف «لابريزو» «labrizo» والصاعقة، والمطرقة ذات الشعلة، والثور والنسر، والشاعوب الثلاثي الشعب.

- أدونيس، أو الرب الابن، أو الطفل الإلهي، ويعني: المخصب، رب الخصب. والاسم من الفعل السرياني «عدن» aden ويعني أخصب، خصب. واسم الفاعل «عدون» adon أي المخصب، وقد أضيفت السين s عند السوريين للقداسة. وقد أشار إلى ذلك هيرودوت (وهو السوري من كيليكيا وقد جعل إغريقياً) حين قال: «نحن كنا نضيف الصوت سين sin إلى الأسماء التي تكتسب قداسة، أما الفرس والإغريق فيما بعد فقد أخذوا يضيفونها اعتباطاً إلى كل الأسماء»[1] ويضيف: «ومن الغريب عندهم أيضاً... ولكنه لا يخفى علينا، أن أسماءهم مأخوذة عن هيئة الجسم أو عن الأخلاق، ويضيفون الحرف المدعو sin عند الدوريين وسيغما عند اليونانيين، وإذا

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول: 139، ص

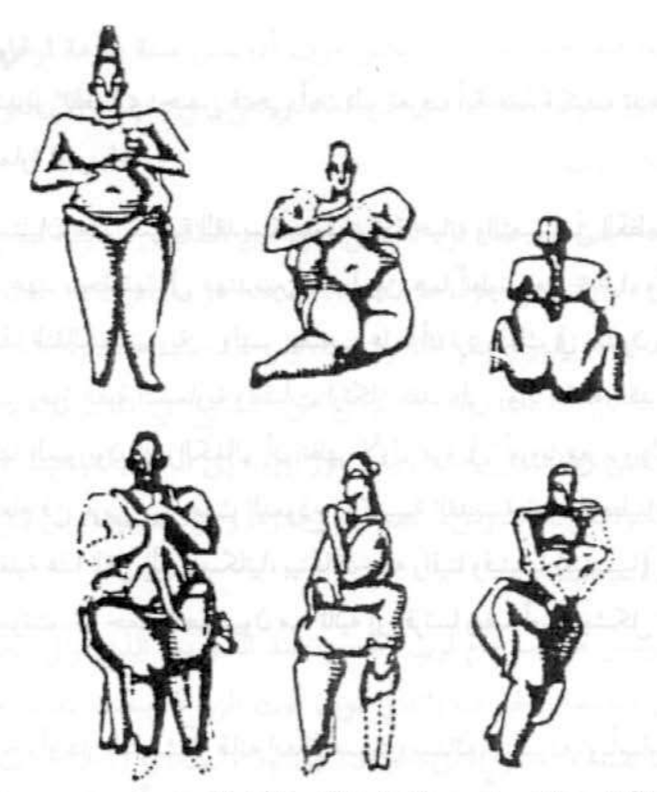
تبصرت ترى أن كل اسم عند الفرس ينتهي على منوال واحد بلا استثناء». ومن الاسم «عدون» adon اشتقت كل الأسماء الأخرى مثل: مادون، مادونا madona أي المخصب والمخصبة والخصيبة، «مارادون» maradon و«مارادونا» أي سيد الخصب، رب الخصب. أما رموزه فهي: الكوب الأخضر (الذي ما أن تقع عليه أشعة الشمس حتى يتلون بلون الخمر)، الغزال، الجدي، الوعل، النمر، دالية الكرمة، العصا المنتهية بثمرة الصنوبر والتي تسمّى «تروصو» أو «ترصو» turso تعني بالسريانية: الحق، العدل، الصدق، الاستقامة، (وهي التي جاءت منها فيما بعد كلمة truth الإنكليزية) وأزهار شقائق النعمان (في الأصل هي النحمان nuhman أي: المبعوث، القائم من الموت بالسريانية).

وعن هذا كله يقول جوزيف كامبل:

«وخلال العصر النيوليتي نضجت في سوريا الرموز التشكيلية الخاصة بالأم الكبرى... وهي الرموز التي انتقلت معها بانتقال ديانتها النيوليتية إلى الأصقاع الأخرى. ومن تلك الرموز: الصليب المعكوف والصليب العادي، وزهرة الزنبق، وشقائق النعمان، والفأس المزدوج رمز الصاعقة الذي حفلت به بشكل خاص حضارة تل حلف، والذي سوف نراه في كثير من رسوم الأم الكبرى في حضارة كريت ومطلع الحضارة الإغريقية... وإلى جانب الرموز التجريدية ارتبطت بالأم الكبرى رموز حيوانية أهمها: الحمامة، الأفعى، الثور، الأسد... وقد انتقلت مجموعة هذه الرموز مع انتقال عبادة الأم النيوليتية إلى الثقافات الأخرى. فانتقلت أولاً إلى كريت، ومن هناك نقلتها السفن عبر مضيق جبل طارق إلى الجزر البريطانية، وجنوباً على طول الشاطئ الإفريقي، ومن كريت أيضاً إلى «مكيني» وهي أول مدينة متحضرة على الأرض اليونانية... ومن الهلال الخصيب وصلت مجموعة هذه الرموز أيضاً إلى مصر منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد. وكذلك اتجهت شرقاً نحو آسيا حتى أقصى أنحاء المعمورة جنباً إلى جنب مع ديانة عشتار»[1].

---

(1) Joseph cambell, primitive mythology, p. 143.



صورة رقم (9) الأم السورية الكبرى في صورها النيوليتية الأولى - الألف الثامن ق.م.

المعـابـد:

من الثابت أن الغرب كله لم يعرف المعابد إلا على أيدي السوريين. ولقد تميزت المعابد السورية بميزات خاصة انفردت بها بين كل المعابد على وجه الأرض، وصارت جزءاً من الهوية التي يستدل بها على التأثير السوري والحضاري السوري.

من هذه السمات المميزة: صحن المعبد المكشوف للنور، والأعمدة المتوجة إما بأغصان الغار أو بسعف النخيل أو بجدائل الشمس والقباب والمسرح أو دار التمثيل.

القبة:

أما القبة فهي إبداع سوري، أبدعها المهندسون السوريون بعد أن ثبت لهم أنها أبرع حيلة معمارية لمقاومة الزلازل التي كثيراً ما أصابت سوريا في الزمن القديم من جانب، ولتمثيل الحضور السماوي من جانب آخر.

يقول بيير روسي:

لاحظ المهندس المعماري حسن فتحي أنه: «لم تعرف أية عمارة كيف تدعو السماء كما عرفت العمارة العربية».

«وكان جوستنيان يعتبر كنيسة القديسة صوفيا رائعة حياته والتعبير عن العظمة السورية الأسيوية، ولقد عهد بتحقيقها إلى مهندسين معماريين هما أنطونيو من تراليا، وأزيبور من ميليا، وهما تلميذا التقاليد السورية... وليس يصعب علينا أن نرى ذلك في بانثيون روما*، وفي كنائس دمشق... رموز القبة السماوية وتقنيات ارتكاز عقد على زوايا كاملة. لقد كان على القبة التي دفعها السوريون إلى الكمال أن تظهر لأول مرة في أوروبا مع برونوليتشي في فلورنسا... إننا أمام فن عربي من حيث النموذج، وكنيسة القديسة صوفيا تعطينا فكرة تامة عنه. ونقلت صقلية هذا الفن إلى توسكانيا، بينما أدخلته رافينا وفينيقيا (فينيسيا) إلى إيطاليا اللومباردية واليمونت. ثم حمله الصليبيون مرة ثانية إلى فرنسا وبقية أوروبا بشكل كامل»[1].

المسرح:

وأما المسرح، أو دار التمثيل فإنه إبداع سوري ببنائه، بنشوئه، وبأساس فكرته وبأشخاصه وبكل مفرداته الأخرى. فهو منذ نشوئه كان مرتبطاً بعقيدة الخصب السورية، بفكرة موت رب الخصب ثم قيامته من الموت.

لقد أورد «أوفيد» هذه المقاطع على لسان عشتار عند موت أدونيس رب الخصب، الطفل الإلهي بطعنة من أنياب الخنزير البري مدمّر الزرع وعدو الخصب: «واتجهت إليه، ولمحته عن بعد يتمرغ في دمائه فاقد الوعي. وقفزت من مركبتها إليه وشقت ثوبها عند صدرها، وشدّت شعر رأسها، وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تخلقا لذلك، وأخذت تلوم الأقدار، وصاحت فيه قائلة: لا، لن يخضع لك كل شيء. وسوف يبقى أدونيس ذكرى حزن خالد إلى الأبد. وسوف يمثّل كل عام مشهد موتك، يذّكر بما كان فيه من نواحي عليك، ولتنبثقن زهرة من دمائك»[2].

* تعتبر قبة الـ«بنثيون» في روما التي صممها وأشرف على بنائها المهندس المعماري السوري الشهير «أبولودور الدمشقي» أكبر قباب العالم القديم ومعجزة فن العمارة إلى اليوم. و«بنثيون» نسبة إلى «بنيتوم» بالسريانية وهي «البنية» بالفصحى وتعني الكعبة، أو بيت الأصنام.

(1) روسي، المرجع السابق، ص253 - 254.

(2) أوفيد، المرجع السابق، عشتار وأدونيس.

وهكذا فقد جعلت عشتار تمثيل موت أدونيس سنة ملزمة لرعاياها إلى الأبد، لتذكّر بمدى حزنها عليه الذي لن يعادله شيء في شدته إلا الفرحة بيوم بعثه وقيامته من الموت.

وهكذا أيضاً فقد صار فن التمثيل جزءاً من الطقوس الدينية السورية، كما صار المسرح أو دار التمثيل جزءاً من المعبد. إن هذا هو ما تميزت به المدن السورية التي كان المعبد بمثابة المحور ومركز الدائرة فيها. ولن تجد المسرح مقترناً بدور العبادة إلا في سوريا، كما لن تجد هذا العدد الهائل من المسارح في المدن القديمة إلا في المدن السورية: فمن أنطاكية إلى منبج، ومن دور أوروبا إلى اللاذقية، وجبلة، وأفاميا، وتدمر، وميليثا، وسرديس، وأفسوس، وبصرى، وجدرة، وجرش، وغزة، إلى كل مواقع انتشار السوريين فيما بعد.

إن أدونيس هو اسم عام لرب الخصب عند السوريين الذي يمثل الطاقة الإخصابية الكونية في الطبيعة والحيوان، والذي يموت بموت الزروع ويبعث كطاقة حيوية في بداية الربيع. وهو نفسه «دمحوزي» أي الحبيب، المعشوق بالسريانية (دوموزي بعد سقوط الحاء، وتموز) وهو «حدد» و«مردوك» البابلي، والبعل...

يقول ول ديورانت: «وكان أهم ما يجب أن يعمله البابلي التقي المستمسك بدينه أن يشترك في المواكب الطويلة المهيبة ـ كالمواكب التي كان الكهنة ينقلون فيها صورة مردوك من هيكل إلى هيكل، ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدسة. أو أن يحضر هذه الاحتفالات وهو خاشع فيرش صنم الإله بالزيوت العطرة ويحرق البخور بين يديها ويلبسها أحسن الثياب وأغلاها»[1].

ويقول أندريه إيمار وجانين أوبوايه:

«ولدت المهزلة (الملهاة) شأن المأساة من ظرف أعياد أدونيس نفسها... لقد أحيطت أعياد أدونيس التي تميزت بالتمثيل المسرحي ببهاء خاص لا يمكن تعليله... ثم هبطت المأساة في القرن الرابع هبوطاً لن ترتفع بعده»[2].

(1) ديورانت، المرجع السابق، الشرق الأدنى، الجزء الثاني، ص223.
(2) إيمار، المرجع السابق، الجزء الأول، ص393 – 396 – 397.

صورة رقم (10): مسرح بصرى – سوريا: وهو أقدم من جميع المسارح في حوض البحر الأبيض المتوسط.

«تكمن الأصول الأولى للمسرح اليوناني في الاحتفالات الدينية التي كانت تقام في المناطق المختلفة في بلاد اليونان والتي كانت تدور حول عقيدة (الإله) أدونيس... ولم تكن هذه الاحتفالات، في الحقيقة بدعة اقتصرت على بلاد اليونان... ففي سوريا كانت تقام احتفالات مماثلة مؤداها أن الإله بعل (أو أدونيس) قتله خنزير بري، ثم حاولت عشتار إعادته للحياة حتى تعود الحياة إلى الطبيعة التي ماتت في الشتاء... فمن قورنثا، انتقلت فكرة هذه الاستعراضات إلى أثينا حيث أصبحت قبيل القرن الخامس قبل الميلاد مجالاً للمباراة في الاحتفالات المتصلة بأعياد الإله أدونيس... وقد كانت المسرحية التراجيدية بسيطة في بدايتها، فهي ملزمة بأن يكون موضوعها متصلاً بالإله أدونيس»[1].

وقد اكتشفت آثار الحضارة السورية التي دعيت في الغرب «مينوية» نسبة إلى «مينا» ابن «أوروبا»، «فبهرت الغربيين المتعجرفين»[2]، و«اكتشفت فيها دور التمثيل في أفنية القصور»[3]، كما اكتشف أن كلام «الكريتيين... أقرب منه شبهاً بلغات الشرق الأدنى ومصر والحبشة وقبرص والأناضول»[4].

ولما كنا قد تحدثنا بشيء من التفصيل عن فن المسرح: نشوئه وتطوره التاريخي في كتابنا الثالث، فإننا هنا سنكتفي بعرض أهم خطوطه.

طقوس عيد «أدونيس» ونشوء «الدراما»[5]:

إن «أدونيس» هو القوة المخصبة في الطبيعة و الحيوان، وقد رمز السوريون لهذه القوة، منذ الزمن الموغل في القدم، بالثور (مع البعل، ايل، حدد، جرونو) وبالتيس أو الجدي (مع تموز وأدونيس) كقوتين ذكريتين كبيرتين في الإخصاب. ولما كان عيد أدونيس تمثيلاً لموت الرب ولقيامته من الموت، فقد كان لا بد من الاستعاضة عن قتل الرب برمزه الحيواني الذي هو الجدي، كما صار أتباعه يدعون «التيوس» وبالسريانية «تراحي»*. ولهذا كان عليهم أن يتنكروا بجلود الماعز وبقرونها. ومن هنا جاءت الـ «ساتيرا» أي التستّر والتقنّع بجلود الماعز في الأصل.

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص189 - 194.

(2) ديورانت، المرجع السابق، اليونان، ص17.

(3) المرجع نفسه، ص18.

(4) المرجع نفسه، ص31.

(5) راجع كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1 - المركز»: عشتار وأدونيس ونشوء المسرح، ص477 وما يليها.

* «تراحي» بالسريانية جمع «تراحو» وتعني: التيس، الوعل، تيس الجبل.

ويقول الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى:

أما موضوعها المركزي فهو الصراع بين قوى الخصب وقوى تدمير الخصب بين بعل وموت، بين أدونيس (خصب الزرع) والخنزير البري (مدمّر الزروع)، بين البناء والعماء، التعمير والتدمير، الحياة والموت، الخير والشر.

ومن هنا جاءت كلمة «دراما» التي لم يعرف أحد من الباحثين في الغرب أصلها السوري (السرياني) إلى اليوم.

معنى كلمة دراما:

إن الكلمة هي في القاموس السرياني من الفعل «در» dr ويعني: صارع، قاتل، حارب، كافح، خاصم. «درر» = مبالغته. ومنها الاسم العربي «درار». «دورو» = صراع، قتال، كفاح، حرب. «دوري» و«دوريو» = مقاتل، مصارع، محارب، ولما كان السوريون يضيفون «الميم» أحياناً إلى نهايات الأسماء بدلاً من التنوين في الفصحى مثل ملكوم، مريم، فقد صارت «درم» ودراما بمعنى: صراع، كفاح. ولما كانت التقاليد الاحتفالية تقضي بأن يكون قرع الطبول إعلاناً لبدء الصراع، فقد صارت الطبول نفسها تسمى درام drums. وليس كما «يتفيقه» المؤرخون في الغرب حول معنى الكلمة.

يقول ول ديورانت:

«وأهم من هذا كله ما كان يحدث في البيلوبونيز وأتيكا من حزن ومرح لموت أدونيس وبعثه، وكان يطلق على هذه المحاكاة اسم درومينا أي أشياء تُعمل، ولفظ «دراما» ذو صلة بهذا الاسم... ويُرى من هذا أن المسرحية الأثينية، مأساة كانت أم ملهاة، كانت تمثّل على أنها جزء من حفلات أدونيس بإشراف الكهنة في دار للتمثيل تسمى باسمه، وعلى يد ممثلين يسمون بـ «الممثلين الأدونيسيين». وكان يؤتى بتمثال أدونيس إلى مكان التمثيل ليستمتع بمشاهدة التمثيل، ويوضع أمام المسرح... وقبل البدء به كان يضحّى بحيوان الإله. وكان لدار التمثيل ما للمعبد من قداسة. ثم أُذن للشعراء على توالي الأيام أن يستبدلوا بعذاب الإله عذاب بطل من أبطال الأساطير اليونانية»[1].

(1) ديورانت، المرجع السابق، حياة اليونان، ص422 – 423.



صورة رقم (11): رأس أدونيس من البرونز.

والحقيقة لم يكن يؤتى بتمثال الرب «ليستمتع بمشاهدة التمثيل» بل لتحيته عند بدء الاحتفال بالنشيد الذي هو «نشيد رب العرش» والذي هو بالسريانية «د إثـر أمبـو de ether ambo »، التي لم يعرفوا لها معنى إلى هذا اليوم، لرفضهم القاطع ضمناً أن يكون الأصل سورياً.

إن الدال في السريانية أداة تعريف وإضافة، وهي التي ذهبت إلى الفرنسية «de» وإلى الإنكليزية the.

وإن «إثرْ» Ether تعني في السريانية، مقام، مكان، محل، أثر. و«أمبو» Ambo و«أمبون» تعني بالسريانية: كرسي، عرش. إنه نشيد التحية لـ «مقام رب العرش» الذي هو أدونيس، ممثلاً بتمثاله.

وإن كلمة «يوثرو» eothro تعني في القاموس السرياني: التمثال، الصنم. ولما كان المسرح والتمثيل كله مكرساً لصاحب المقام، صاحب التمثال، الصنم، فقد دعي المسرح بالسريانية «ت يوترو» eotroT أو «ذي يوترو» إذ أن التاء t أو الثاء th هي بدل الدال d والذال th كأداة تعريف. وهكذا فإن الكلمة السورية (السريانية) تيوترو teotro أو ثيوترو theotro هي التي ظلت ملازمة للفن المسرحي منذ يوم نشأته إلى اليوم وبكل اللغات الأوروبية والأمريكية: teatr، teatro، theatre... إلخ.

وإن كان معناه «الفُرجة» فهو من الكلمة «تير» بمعنى، نظر، رأى، تأمل. «تايرو» teiro: ملاحظ، ناظر، متأمل. تيوريا theorea: نظر، تأمل، خلاف عمل. ومنها جاءت الكلمة theory في الإنكليزية والفرنسية، hteoria بالروسية بمعنى نظرية، وقد أخذتها عن الإغريقية مباشرة التي هي السريانية.

«التراجيديا» وأصل تسميتها:

احتار الباحثون، كعادتهم في الغرب، في معنى الكلمة وأصلها. ووضعوا حولها الكثير من الافتراضات والتفسيرات دون أن يقربوها. وقد أورد عبد اللطيف أحمد علي نماذج من تلك التفسيرات الحائرة والمتناقضة، ثم كتب يقول:



صورة رقم (21): الجدي رمز أدونيس ومن حوله الـ «ساتيري» أي المتسترين بجلود التيوس.

«والسؤال المحيّر هو: لماذا سميت المأساة الجادة الحزينة بالـ «تراجيديا» أي أغنية الجدي؟ في رأي كثير من الباحثين أن «التراجوس» هو «الساتيروس» الذي يظهر أولاً في النشيد الديثرامبي فقط. وبعدئذ لا يظهر إلا في المسرحية الساتيرية. فلماذا صارت كلمة «ساتيروس» تدل على نوع واحد من أنواع المسرحيات المرتبطة بأدونيس، وهو المسرحية الساتيرية الفكاهية الماجنة، بينما صارت كلمة «تراجوس» بمعنى «جدي» تدل على النوع الجاد من الدراما؟ إن المقام لا يتسع لعرض مختلف الآراء التي أدليت بصدد هذه النقطة الشائكة، لكن حسبي أن أشير إلى رأي «وُردْ» في حجر فاروس الشهير marmar Parium الذي يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ـ وهو رأي غير صائب على أي حال ـ إذ يقول: إن التراجيديا سميت كذلك نسبة إلى «تراجوس» أي الجدي، لأنه كان جائزة تعطى للفائز في المسابقة، وكان حيواناً يقدم قرباناً لأدونيس، غير أن الجائزة الأولى لم تكن قط جدياً، بل كانت، في الأغلب، مائدة ذات ثلاث قوائم tripone، وكان الثور هو الجائزة لا الجدي»[1].

(1) عبد اللطيف أحمد علي، المكتبة التاريخية، ص173 - 174.

وفي كتاب «الإغريق بين الأسطورة والإبداع» الذي ترجمه ثروت عكاشة دون أن يشير إلى المصدر أو إلى الجهة التي وضعته نقرأ شيئاً آخر يكاد يصل إلى الحقيقة:

«لقد كان «التيس» هو الحيوان المقدس في تلك العقيدة الأدونيسية... لذا كانوا إذا ما همّوا بذبح التيس التفوا حوله راقصين مغنّين، منشدين الديثرامب. فإذا ما انتهوا من ذلك ذبحوه، فأكلوا من لحمه وتقربوا للآلهة بشيء منه. وكذلك كانوا يخيطون من جلود التيوس أثواباً لهم ومآزر للساتير، وعباءات للمايناديس يطرحنها على أكتافهن. وبعد أن يأكلوا من لحمه ويتخذوا من جلده لباساً لهم كانوا يحسّون أنهم قد غدوا تيوساً، أي تراجوي»[1].

قلنا إن كلمة «ساتيرو» بالسريانية تعني: الساتر، المقنّع. ولما كان التقنّع، أو التستر هو بجلد الماعز، فقد دعي القناع «ماسكا» mask أي الجلد، وفي الفصحى نجد أن المَسْك هو الجلد الذي يخفي الجسد والأحشاء تحته ويأخذ شكلها. وهكذا انتقلت هذه الكلمة عبر الإغريق والرومان إلى اللغات الأوروبية الأخرى. أما قوله «يحسّون أنهم قد غدوا تيوساً أي تراجوي» فالحقيقة إن الكلمة في الأصل السرياني هي «تراحو» traho بمعنى تيس، وجمعها «ترْاحي» trahi أي تيوس، وكالعادة سقطت الحاء عند الإغريق فيما بعد وصارت «تراي جديا»Trai gedea أي «تيوس الجدي»، لأن «جديا» بالسريانية هي الجدي بالفصحى.

أما كلمة «مانيادي Maneadi» فهي في الأصل السرياني «معنّياثي Maaneadi » أي المغنّيات الناديات، لأن العين في السريانية تحلّ محل الغين في الفصحى، وكل «ثاء th» تتحول في اللاتينية إلى «د، d»، وهي في السريانية من الفعل «عنى» ane أي غنّى، أنشد، عنى، اهتم. وتسقط العين كالعادة.

ويضيف: «ومن الغريب أن اسم «الجدي» كان يطلق على الإله ذاته. ولعلنا نجد تفسير ذلك في بعض الطقوس التي تحرم تقديم تيس كبير قرباناً، وتشترط تقديم جدي صغير بدلاً منه يمثل الإله في الوقت نفسه. وهناك نكتشف المفارقة الغريبة التي يمكن أن ندعوها مأساوية أو «تراجيدية» بالمعنى الشائع للكلمة المشتقة من «تراجوس»، ذلك أن تقديس الإله يتم من خلال تمثيل آلامه الذاتية، بتقديم قربان إليه في شخص مخلوق يمثل تجسيداً له في آنٍ معاً»[2].

(1) ثروت عكاشة، الإغريق بين الأسطورة والإبداع، ص246.

(2) ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص266.

«الكوميديا» وأصل تسميتها:

ومثلما احتار «مقطعو الجذور» التاريخية للشعوب وللحضارات كي يجعلوا كل شيء غربياً في تفسير «تراجيديا» فقد واجهوا الحيرة نفسها في الوصول إلى أصل كلمة «كوميديا».

ذكرنا سابقاً أن عيد أدونيس يتألف من جزأين: أحدهما يتم فيه تمثيل آلامه وموته، يتجسد ندباً ونواحاً، والثاني يمثل قيامته من الموت يتجسد فرحاً ورقصاً وهو الملهاة أو الـ «كوميديا».

ينقل لنا ثروت عكاشة بعضاً من تلك الحيرة:

«والكوميديا ترجع أصلاً إلى لفظة «كوموس» اليونانية، ومعناها أنشودة الكوماست، أي المعربدين المرحين، كما كانت التراجيديا أنشودة التراجوس أي المعزيين (جماعة الماعز أو التيوس) أتباع أدونيس. وأخطأ البعض فأرجع أصل هذه الكلمة إلى «كومي» أي قرية، وإلى «كوما» أي الاستغراق في النوم، معللاً هذا وذاك بأن القرويين كانوا يخفّون من قراهم لمشاهدة تلك الحفلات الساخرة التي يُتندر بها بالأشخاص غير المحبّبين إليهم، حتى إذا ما عادوا إلى قراهم أخذوا يتسلون بما شاهدوا وسمعوا إلى أن يغلبهم النوم. وفيما ذهب إليه هؤلاء تمحّل ظاهر، واجتهاد في خلق أسباب لا سند لها. والحقيقة التي لا تقبل شكاً هي أن الكلمة ترجع، كما قلنا، إلى كلمة «الكوماست» أي المعربدين المرحين»[1].

أما الحقيقة التي لا تقبل الشك بالفعل فهي أن كل ذلك خطأ. لأن «الكوماست» اشتقاق حديث بني أصلاً على الفهم الخاطئ لكلمة «كوميديا».

إن الأصل هو في السريانية كما هو في كل المفردات المتعلقة بالمسرح وبالفن المسرحي. وهي في الأصل السرياني «قوموث» Komoth وقيوموث Keomoth وتعني القيامة من الموت. وهي من الفعل السرياني قوم Kom أي قام، نُشر، بُعث، ظهر، طلع، وُجد، حضر، عاش، وقف، نهض. وقد تحولت الثاء و في النهاية إلى باللاتينية. وصارت التسمية في الأصل قوموثيا Komodia، وهكذا كانت تكتب في البداية وتلفظ.

(1) عبد اللطيف أحمد علي، المكتبة التاريخية، ص 266.

أما المفردات الأخرى الخاصة بفن التمثيل المسرحي وشروحاتها وأصولها السورية (السريانية) فيمكن الرجوع إليها بصورة مفصّلة في كتابنا الثالث، ونتوقف هنا عند بعض أهمها: الـ «هيبوغريت Hypnogrit» أي: التجسيد، التشخيص، فهي في القاموس السرياني هكذا: فيجورا Figura = جسد، جسم، بدن، حقيقة، ضد خيال. فيجرونو = جسدي، جسمي. فيجرونوت = جسدية، بشرية، سرّ التجسد. والفعل فجِرْ Feger = جسّم، مثّل، شخّص. ومن الكلمة جاءت Figura , Figure في اللغات الأخرى.

«باكاي» Bakkai جمع باكايا = البكاءة، الندابة، النواحة. الـ «ليناي» Lenae = الندابات، النواحات. إيلينا = بكاءة، ندّابة، إليوت = بكاء، ندب، نواح.

«سكيني» Skene = خيمة، مسكن، غرفة صغيرة كانت تشمل مكاناً خاصاً بالممثلين لتبديل ثيابهم أو أقنعتهم وبمثابة خلفية زخرفية لمكان التمثيل. تقام قريباً في رأس دائرة الأوركسترا (ساحة الرقص، الراقصين). وقد صارت باللاتينية Scene لوقوع الصوت الحلقي K قبل حرف علة. ثم صارت تطلق على منصة المسرح وشاشة السينما.

«فرو سينيوم» = مدخل الساحة ومخرجها، أصلها السرياني فرعو سكينيوم، وفرعو faro بالسريانية تعني: مدخل، مخرج، منفذ. فرعودْ فجروت = مسامّ البدن. وصارت الكلمة مقطعاً في اللغات الأوروبية يعني مدخل. Prolog = مدخل القول، وأصلها السرياني فرعو لوجو أي مدخل القول، لأن لوجو = لغة، قول، منطق وهي من الفعل لجا = لغا، قال، نطق، لهج.

«ويُعدّ التسلسل المتّبع في مأساة «البكّاي» (البكّايات، النادبات) نموذجاً في تعاقب أجزائها المنتظم: إذ تأتي المقدمة «البرولوجوس» ثم الأدوار الكورالية الستة «ستيمازون» متخللة خمس حلقات أو خمسة فصول أو مشاهد درامية... ويسمى الفصل «هيبيزود» Episode»[1].

---

(1) المرجع نفسه، ص300.

أما «برولوجو» فهي في الأصل السرياني «فرعو لوجو» أي مدخل القول، وقد سقطت العين كالعادة. وكنا قد شرحناها قبلاً. وأمّا الفصل «هيبيزود» Episode فهي مؤلفة من أداة التعريف السريانية «الهاء» أو «الهمزة» ومن كلمة «فيصوث» Pisoth وتعني: فصّ، فصل، قطعة، جزء، وتلفظ الفاء ذ في أغلب الأحيان بالسريانية كالعادة، ثم إن كل ثاء th (لأن التاء تلفظ ثاء بالسريانية في معظم الأحيان) تحولت باللاتينية إلى d. وإن «فيص» «فيصو» Pis h السريانية تعني أيضاً: فصّ، فصل، جزء. وهي التي وصلت إلى الإنكليزية في هيئة Piece بمعنى فصّ، قطعة.

أما تعبير المشاهد الستة «ستيمازون» فهو مؤلف من كلمتين «ست» وهي واضحة، و«مازون» التي أصلها السرياني «مْحازون» Mhazon بمعنى: مشهد، منظر، وسقطت الحاء كالعادة. وهي من الفعل «حزى» أي: رأى، شهد، نظر، بصّر، تكهن، تنبأ، صار حكيماً، نبياً، جميلاً...

«وكان يؤدي دور البطل شاب يرتدي زياً أبيض ذا أكمام طويلة، وحزاماً ذهبياً عريضاً، وعباءة أرجوانية، وحذاء أبيض ذا أربطة حمراء»[1]. إنه الزي السوري والفينيقي التقليدي... «وقد وصلت عقيدة أدونيس عبر البحر من الشرق، وعبر بويوثيا من الشمال. ومن هاتين الجهتين نقلت هذه العقيدة معها رداءً أجنبياً غريباً على الإغريق الذين كانوا يرتدون ملابس خفيفة قصيرة. وبدت لهم هذه الملابس على شيء من الفخامة. وسرعان ما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالمسرحيات الدينية الأدونيسية»[2].

إن هذا الحذاء المرتفع أنفه من الأمام «المتكبر» هو الحذاء العربي والسوري التقليدي حتى في زمن الخلفاء. والطريف أن اسمه بـ «الإغريقية» هو «موس قترو»[3]. والكلمتان سوريتان (سريانيتان): إن «موس» هي من الفعل السرياني «سأو» Sao أي: أحذى، ألبس حذاءً، «موس»: محتذي، لابس الحذاء، سوو = حذاء، التي جاءت منها Shoe الإنكليزية. أما «قترو» Katro فتعني: المتكبر، الأنوف. و«قترا» = المتكبرة ومن أسماء عشتار.

(1) المرجع نفسه، ص339.
(2) المرجع نفسه، ص280.
(3) عبد اللطيف أحمد علي، المكتبة التاريخية، مصادر التاريخ اليوناني، بيروت 1972، ص163، 191.

«وثمة أوانٍ خزفية يرجع تاريخها إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد تحمل صوراً لجوقات من الرجال [كوروس = «حورو» بالسريانية = مرسح، دائرة الرقص والغناء] قد تشكلوا في أشكال الحيوانات التي ترقص وتغني بمصاحبة الـ «أليوس»[1] التي كان عازفها يرتدي الملابس العادية المكونة من «الكيتون» الطويل. وكان يصل عادةً إلى الركبة عند الرجل وحتى القدمين عند النساء، ومن فوقه العباءة الملتفة التفافاً عفوياً حول الجسم»[2].

إنها الملابس السورية التقليدية العادية: ثوب «الكيتون» أي القطن أو الكتان و العباءة. ولم يكن ثمة شعب آخر على الأرض يحوك الملابس، ويتفنن في أزيائه غير السوريين والمصريين. ويشهد بذلك بريستد في قوله:

«وحين نتذكر ما مرّ على الشعوب الإيجية من الاختبار والعبر نجد أن اليونان كانوا عرضةً لنفس المؤثرات الشرقية التي كان لها فضل كبير في الحضارة الإيجية. فقد ترك اليونان في هذا العهد الجلود الكثة الشعور التي كانوا يلبسونها على أبدانهم، ولبسوا بدلاً منها أثواباً من الصوف. ولما لم يكن لها اسم في لغتهم أخذوا اسمها عن التجار الأجانب الذين جاؤوهم بها... وكان في جملة السلع «الكيتون»* وهو الاسم الفينيقي للثوب الجديد الذي أخذه اليونان من التجار الفينيقيين، ولم يكن له اسم في لغتهم»[3]. هذا القول صحيح لولا أنه يصرّ على أن يطلق اسم «اليونان» على شعب إيجه الهمجي حتى يبقيهم «أوروبيين»، لكن اليونان جزء، بل فرع من السوريين، كما سوف نرى لاحقاً، وقد جاؤوا مهاجرين ونازحين.

وحول هذا يقول بيير روسّي:

«إن الموهبة التي لا تناقش، والتي يعرضها عرب عصرنا اليوم في فن التطريز، والحياكة، وصناعة السجاد، ترقى كذلك إلى تقليد، قدمه بضعة آلاف من السنين... ولقد اعترف الإغريق والرومان بتفوقهم عليهم. فليس هناك من نص أدبي لا يتغنى بجمال أقمشة دمشق، وأرجوان صيدا، وكتّان مصر المطرز، وغلالات آشور التي بقيت

---

(2) «آلي» بالسريانية: ندب، نواح، صوت الناي، نشيجها، الناي.

(3) المرجع نفسه، ص307.

* كثيراً ما كان السوريون الغربيون يلفظون الكاف خاء، مثل «أركون» بمعنى زعيم يلفظونها «أرخون» و«كيتون» يلفظونها «خيتون» و«إسكيلو» وتعني المعلم يلفظونها «إسخيلو» وهو اسم عائلة الكاتب المسرحي الشهير.

(4) بريستد، المرجع السباق، ص288 – 289.

الموصل مدة طويلة قاعدة احتكاراتها العالمية. إن كل أنواع الألبسة الناعمة، والسجاد، والمخرّمات التي استعملها الأغنياء اليونانيون أو الرومانيون كانت مستوردة من الشرق. وإن مصانع سوريا المختصة في القماش المقصب هي التي اخترعت وأدامت صناعة البطرليلات، والقمصان، وحلل الكهان، وتيجانهم، و السرادقات، والمراوح، وكل الأنواع الأخرى من ثياب الفخفخة التي يتزين بها رجال الدين البيزنطيون أو الرومان... ولنضف إلى هذا كله صناعة الطيوب والأثاث»[1].

من كل ما تقدم يتبين لنا بجلاء كيف أن المسرح نشأة، وإبداعاً، وفناً، وطقساً، وتقاليد، ومفردات، إبداع سوري خالص. وهو، بالتالي يشكل معلماً آخر، إلى جانب المعالم الأخرى، للاستدلال على الحضور السوري والثقافة السورية في كل مواقع الانتشار. فهو، كغيره، يستحيل أن يولد فجأة من عدم وفي أوج ازدهاره إلا مع الظهور المفاجئ للسوريين أنفسهم.



صورة رقم (13): نساء سوريات إغريقيات (أي نازحات) بملابسهن المتميزة يرقصن على أنغام المزمار.

---

(1) روسي، المرجع السابق، ص155.

3 – الأختام:

لقد تميز السوريون عن باقي شعوب العالم القديم كلها بميزة أخرى كانت بمثابة الهوية الشخصية لكل سوري حر، هي الأختام. إن ازدهار التجارة، وتبادل السلع، وانتشار المعاملات الاقتصادية، والعقود، وقيام المحاكم، ودواوين المحاسبة في كل المدن السورية قبل أي مكان آخر في العالم، ثم بعد قيام الدولة السورية المركزية، وانتشار الكتابة، وتبادل الوثائق، والتقارير، والرسائل، في كل البلاد الممتدة من شواطئ البحر الأسود إلى مصر «جعل من الطبيعي أن يكون للعاملين في صنع الأختام الأسطوانية سوق رائجة لأن الخاتم ضروري لكل بابلي حر، إذ أنه بعد الانتهاء من عقد صفقة تجارية أو كتابة وثيقة كان عليه تصديقها بالخاتم. ولفن صنع الأختام تاريخ طويل من التطور»[1]. و«إن النفوذ (الأكادي) يمكن تعقبه في جميع أنحاء الشرق الأدنى عن طريق الأختام الأسطوانية المميزة للفترة. فإننا نجد نماذج من هذه الأختام شمالاً حتى طروادة وجنوباً حتى مصر العليا، وشرقاً حتى أواسط فارس أو حتى الشمال الشرقي منها»[2].

إنه كان حيثما توجد الأختام يوجد السوريون، في موطنهم أم في مواقع الانتشار غرباً، بدءاً من كريت وصولاً إلى شاطئ الأطلسي.

4 – العملة، والمكاييل والموازين:

إن اتساع رقعة الدول السورية المركزية، إلى جانب الازدهار الذي تحقق وفرة وتنوعاً ونوعية في الإنتاج الزراعي والحرفي والصناعي، واستتباب الأمن على طول الخطوط التجارية الدولية، كل ذلك حتّم ظهور النقد المعيّر من الفضة والذهب والنحاس والبرونز، والمقسّم بموجب التقسيم الستيني البابلي.

إن العملة السورية في العهد البابلي الممثلة في التالنت (أي الوزنة) والمينا، والشيقل (الثقل = الوزنة) وأقسامها الأخرى، سوف نجدها في كل مواقع الانتشار.

---

(1) الدكتورة إيفلين كلنيكل ـ براندت، رحلة إلى بلاد بابل، ترجمة زهدي الداوودي، دار الجليل، ص155.

(2) هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص91؛ و«الأختام الأسطوانية»، ص227 وما بعدها.

ثم ما أن تطورت في سوريا إلى العملة الذهبية ممثلةً بالدينار، وإلى العملة الفضية ممثلة في الـ «دْرَكْما» drakma، (وكانوا يلفظون الكاف خاء في كثير من الأحيان فتصبح «دراخما»)، وهي الدرهم فيما بعد، والـ «حويرة» (وتعني في القاموس السرياني الفضة، البيضاء. وقد سقطت الحاء في الغرب كالعادة وصارت تلفظ «ليرا» Lira.) أما الدينار فيعني بالسريانية الأصفر، محّ البيضة.



صورة رقم (41): نموذج من الأختام السورية.

إن هذه العملة بمرحلتيها لم يعرفها العالم القديم إلا عن طريق السوريين، ولم يجر التعامل بها في أية بقعة من البقاع خارج سوريا إلا نتيجة للحضور السوري نفسه.

وإن الكلمة السريانية «الكيلو» التي عممت على أهل الأرض جميعاً منذ أن استخدمها السوريون لأول مرة وحتى اليوم، وربما إلى الأبد، هي من الفعل «كيل» أي عيّر، قاس، وضع معياراً.

وهناك أمور أخرى كثيرة، لا مجال هنا لسردها جميعاً، لم تعرفها أوروبا إلا وافدة مع السوريين وبواسطتهم، نذكر منها:

- **في مجال العلوم:** الحساب، والهندسة، والفلك، والطب، والدواء، والملاحة، والكيمياء...
- **في مجال الفكر:** الحكمة، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا...
- **في مجال الأدب:** الأسطورة، القصة، والشعر بكل ألوانه الغنائي، والحماسي، والديني، والملحمي، والخطابة.
- **في التنظيمات الاجتماعية والسياسية:** كالنقابات ومجالس الشيوخ...

• **في التربية:** بكل مجالاتها الدينية، والتعليمية المدرسية، والعلمية، والصحية، من مدارس وحمامات، وصرف صحي وغيرها.

ولا بدّ من التوقف قليلاً عند مستوى التطور التربوي والصحي الذي بلغته المدن السورية منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ففي مدينة «ماري» السورية على الفرات «عثر في قصر زمري ليم بين الجناح الملكي والجناح الرسمي على مدر ستين. تتميز قاعتاهما بتجهيزات لم نرَ مثيلاً لها قط حتى الآن... ويجب أن نعيد إلى الأذهان أننا هنا على مقربة مباشرة من المعامل والأفران التي يمكن التعرف عليها بكل وضوح. إن لها مظهر «أفران» (بوتقات كبيرة) لمعالجة فلزات المعادن الثمينة، وكان لا يزال فيها بقايا من الرماد والفحم الخشبي. وكانت القاعة الأولى تضمن 45 مقعداً مختلفة في أطوالها، وتضم الثانية 23 مقعداً. والقاعتان مبلطتان بالأجر الجميل. ويشغل جناح الموظفين جزءاً هاماً من المنطقة الغربية في القصر. وقد لقي عناية خاصة في التجهيز، لأن كل غرفة مبلطة، وبعضها مرفق بغرف حمّام. وتقدم إحداها مثالاً ممتازاً عن منشآت صحية كاملة: مغطسين (بانيو) من الخزف على قاعدة من الأجر المطلي بالبيتوم. وفي الزاوية مرحاض (على الطريقة الشرقية السائدة اليوم) صنع من كومتين من الأجر المكحل بالبيتوم، وفي الجدران خزن (صناديق) صغيرة وجد في واحدة منها طاسة من الخزف لغرف الماء من أحد المغطسين. وفي الزاوية الجنوبية الغربية مدخنة مصنوعة من أنابيب من الطين المشوي ومتصلة ببعضها. وتزداد اتساعاً باتجاه الأسفل، وتطل على قاعدة تدل على موضع الموقد، فقد يكون الشتاء في ماري قاسياً. كانت هذه المجموعة العمارية إنجازاً مذهلاً...».

«أما بالنسبة للنزلاء، والضيوف، والمسافرين الغرباء، والسعاة المتغيرين على الدوام فقد كانوا «يؤلفون عدداً كبيراً إذا استندنا في تقديره إلى آلاف الرسائل التي تلقاها الملك زيمري ليم. وبكلمة أخرى: كان يجب إيواء مجموعة مستخدمين متغيرة دوماً، أي يجب أن يقدم لهم المسكن والمأكل مع دورات مياه. فكان يوضع تحت تصرف الضيوف غرف، ودوشات، ومطابخ (وهي لا تزال مزودة بالفحم الخشبي وجاهزة للاستخدام). يتمتع هذا الجناح بالاستقلال. وكانت تجهيزاته، وإن لم تبلغ درجة الترف والبذخ التي رأيناها في الأجنحة الأخرى، لائقة، ولائمة لنوعية الضيوف. ووجدنا في مكان آخر مجموعة من أكثر من خمسين قالباً خزفياً لصنع المعجنات»[1].

(1) أندريه بارو، «ماري»، ص137 - 139، 141 - 142.

وإليكم صورة أخرى تصف لنا طقس زواج الملك شولجي من الكاهنة (ممثلة الربة عشتار) في يوم الاحتفال برأس السنة:

«في القصر، البيت الذي يدير شؤون البلاد
لكي أنفذ تماماً الأحكام الإلهية في يوم «النوم»
في يوم رأس السنة الجديدة، يوم المراسم
أقاموا مخدعاً من أجل مليكتي
يطهرونه بجرار مليئة بعطر الأسل والأرز
يقيمونه من أجل مليكتي كأسرّتهم،
وعليه يمدّون الشراشف،
شراشف تبهج القلب، تجعل الفراش عذباً
مليكتي تستحم على الحضن المقدس
تستحم على حضن الملك

***

إينانا المقدسة تنظف بالصابون
زيت الأرز العطر يُرش على الأرض

***

من أجل القرابين المقدسة، من أجل الطقوس الراسخة
يعانق زوجته الحبيبة

***

عرض أمامها الكثرة والفرحة الوفرة
أعدّ لها وليمة فاخرة

***

وبالطبل الذي يعلو دويه على العاصفة
والقيثار ذي الصوت العذب...
و«العود» المثلث الذي يسكنّ نفس الإنسان
أيها المغنّون: لننشد الأناشيد التي تبهج القلب»[1].

(1) صموئيل كريمر، إينانا ودوموزي، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة، ص97 – 99.

فما بين شرق الوطن السوري وغربه، ما بين سومر وماري، ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد المشهود وثائقياً، ومنذ عهد عشتار، السوريون يعرفون الحمامات والبانيو*، ويغتسلون بالصابون، ويتعطرون بعطر الأرز، ويقيمون من أجل ذلك المرافق، ويشرفون عليها. وهم أول من عرف العطور والصابون. إن كلمة «صابون» هي في الأصل السرياني «صافون» و«سافون» Sapon لأن الفاء تلفظ P و«سافئون» Sapoon وتعني الرغوة، كما تعني زبد البحر و«سافونار» صانع الصابون، بيّاع الصابون.

وقد ذهبت الكلمة إلى اللغات الأوروبية الحديثة، فصارت Sapon بالفرنسية (كما هي في الأصل السرياني) و Soap بالإنكليزية. ولما كانت عشتار أو «أفروديت» ولدت من زبد البحر المخصّب من أعضاء أورانو التناسلية فقد لقبت بـ «برث سفئوني» Barth Safooni أي بنت زبد البحر، لأن «برث» Barth مؤنث «بَرْ Bar » أي ابن. وصارت تلفظ «برسفئوني» لاندغام الثاء Th بالسين S.

وبإمكاننا الآن أن نقارن تقاليد النظافة والحمامات عند السوريين منذ الألف الثالث قبل الميلاد على الأقل مع واقع الإنسان الهمجي الذي كان يطوقهم من الشمال والغرب. وقد قدمنا له صورة في القرن الخامس قبل الميلاد كما نقلها لنا هيرودوت. فماذا كان رد الفترة البيزنطية على المنطقة بصدد الحمامات، والنظافة، والطهارة والاغتسال، حين غلّفت سيطرتها على سوريا بغلاف المسيحية.

لقد جاء في إحدى الوثائق التابعة للقديس أوغسطين والناظمة لحياة الرهبنة والراهبات ما يلي: «اغسلن ملابسكن بأنفسكن، أو ليغسلها القصّارون، وفقاً لتقدير رئيسة الدير، وذلك لكي لا تجذب الرغبة الزائدة في الثوب النظيف الأوساخ الداخلية للروح. ولا تدعن غسل الجسم واستخدام الحمّام أن يكونا من الأشياء الدائمة. يجب أن تتم التطهيرات في الفترات الاعتيادية مرة كل شهر. ولكن إذا ما أرغم ضعف الجسم إحداهن على غسله فليتمّ هذا بمشورة الطبيب وبدون شوشرة»[1].

---

* «البانيو» Baneo كلمة سريانية تعني الحوض.

(1) Augustyn, listy, 211, 13.

أما القديس هيرونيم المنحدر من المنطقة الحدودية ما بين دلماشيا وبانونيا والذي استقر في بيت لحم، فهو يعلّم:

«أيصبح ملمس جلدك خشناً لأنك حرمته من الحمّام؟ إن من اغتسل مرّة بيسوع ليس مضطراً لأن يغتسل مرة ثانية» و: «أنت يعجبك أن تستحم كل يوم، لكن هذه النظافة قذارة في نظر غيرك»[1].

ثم أين هذه الصورة من صورة الإنكليزي ابن لندن، على سبيل المثال، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، الميلاديين، أي حتى قبل مائتي عام كما ينقلها لنا ولـ ديورانت: «أما عن قذارة سكان لندن في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد بلغ حداً أن أحداً لم يكن يعرف الاستحمام خلال عام كامل. وبلغ نتن العفونة والمرض مبلغاً كان يحمل القضاة (في المحاكم) والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مراراً نشقات من الكافور أو الخل أو الأعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة. وفي مايو 1750 جيء بمائة سجين من «نيوجيت» ليحاكموا في «أولد بيلي» وهي محكمة جنايات لندن الكبرى. فبلغ من خبث الحمّى التي أفشوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا. ومات من المحلفين وصغار الموظفين أربعون. وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغسل جميع القادمين للمحاكمة بالخل، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة في قفص المتهمين»[2].

«أما الأرستقراطيون فكانوا يفضلون مدينة «باث». فهناك وسط أرض البريطانيين يشرب الرواد ويستحمون في مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أو صاب من أتخموا بالغذاء الطيب»[3].

إن طقوس النظافة، وبناء الحمامات وكل ما يلحق بها، إنجاز حضاري سوري، نقلوه معهم إلى كل مواقع انتشارهم. وإن حمامات الإمبراطور السوري «كركلا» الباقية في روما إلى اليوم واحد من الشواهد الكثيرة.

(1) Hieronim, listy, 107, 11.

• : ألكسندر كرافتشوك، الوثنية والمسيحية، ترجمة كبرو لحدو، دمشق، 1996، دار الحصاد، الطبعة الأولى، ص34، 35.

(2) ول ديورانت، المرجع السابق، الجزء 35، ص106.

(3) المرجع نفسه، ص17.1

إن إلصاق تسمية «الرومانية» و«التركية» بالحمامات السورية الشهيرة منذ القدم ليس إلا ضرباً من ضروب التزوير الكثيرة. إن من كانت حاله مثل تلك الحالة في القرنين السّابع عشر والثامن عشر الميلاديين يتوقع منه إخفاء وثائق مثل وثائق كريت الكتابية قرناً كاملاً، وتدمير التاريخ الحقيقي للإنسان على هذه الأرض، وقلبه رأساً على عقب.

وإذا كان ثمة من يبقى مصراً على إغلاق مصاريع عقله، مطلقاً العنان لغرائزه التعصبية، ويماري بأحد تلك المظاهر الثقافية السورية، الشواهد، أو ببعضها، فإن الكشف عن حقيقة اللغة التي تكلم بها أولئك الذين دعوا بـ «اليونان» و«الإغريق» وقدامى الكريتيين والطليان، سوف يسكت كل المزاعم الأخرى التي كتب على أساسها تاريخ العالم دون أن يكون لها أساس.

3 – اللغة:

إن علم اللغات أو الألسنيات صار أهم علوم الأنتروبولوجيا اليوم، لما ما له من دور حاسم في تحديد الهوية الثقافية والحضارية والعرقية لشعب من الشعوب، ذلك أن اللغة وجدت مع الإنسان منذ أن بدأ العيش في جماعة، وبالتالي، فهي الحامل الوحيد لتاريخ تعرّفه على الواقع المحيط وفعله فيه في آن معاً.

لقد اكتشف الكثير من الوثائق الكتابية في طول «حزام بيرنيفا» أو في طول الرقعة الممتدة من سوريا القديمة، وعبر البحر المتوسط بجزره، وبشاطئيه الشمالي والجنوبي، وصولاً إلى الشواطئ الأمريكية. وإن الدراسات والأبحاث الجادة والرصينة التي أثيرت من حولها أكدت بما لا يبقي مجالاً للشك أن السورية (السريانية) كانت لغة الثقافة والكتابة الوحيدة على طول تلك الرقعة، التي هي رقعة انتشار السوريين الأقدمين. فسقطت بذلك نظرية التقسيم الألماني للشعوب واللغات إلى سامية وهندو أوروبية، وأثبتت أن كل لغة من اللغات التي تشكلت فيما بعد في تلك البقاع، إنما هي مزيج تاريخي بين لغة شعب حضاري هو السوري، مع لغة الأقوام الهمج المحليين. وأن العناصر الوحيدة المشتركة بين تلك اللغات جميعاً هو المشترك السوري القديم وحده.

وإنه لمثير للعجب فعلاً أن ننظر إلى بعض الباحثين في الغرب وقد وضعوا الهدف الوحيد من أبحاثهم الوصول إلى عراقة واستقلالية الأصل والمنشأ، فيغوصون عميقاً في «سراديب» اللغة التي دعوها «إغريقية»، ويخترعون كل الحلول والافتراضات التي ربما توصلهم إلى إثبات هذا الزعم وتحقيق الهدف، ثم يخرجون من الأنفاق - المناجم اللغوية - إلى ظهر الأرض والعرق يتصبب من جباههم، وقد ارتسمت على جباههم إمارات الخيبة: فليس فقط كل ما في اليونان وإيطاليا القديمة سورياً، بل إن لغة الحضارة في جزر الأطلسي وفي القارة الأمريكية من شمالها إلى وسطها وجنوبها هي سورية أيضاً.

لقد جاء في كتاب «الفينيقيون في جزيرة هاييتي وعلى القارة الأمريكية»:

«إن سكان هاييتي الأصليين أخبروا المرسلين الإسبان الذين أتوا العالم الجديد، بعد اكتشاف كريستوفر كولومبس، أنه منذ قرون كثيرة أتى بحارة من جهة البحر الشرقية، واحتلوا الجزيرة، واستوطنوها مدة طويلة. ثم غدرهم مرة جيش الكاريب، فانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً، وأبادهم، لكنه أبقى نساءهم أحياء. فالأوروبيون الذين سمعوا هذه الرواية افترضوا أن البحارة الذين دخلوا الجزيرة من الناحية الشرقية هم فينيقيون... لكنهم لم يبحثوا وينقبوا كفاية للتثبت من حقيقة هذا الخبر بسبب انشغالهم بأشياء كثيرة».

«أخذ أونفروا دي تورون نقطة انطلاق لأبحاثه من هذا التقليد الموروث، وسعى للتعمق في تقاليد شعوب أمريكا الأصليين، ومن كاراييب وتوني وغيرهم. وركز اهتمامه على نقطة معينة: إبقاء النساء الآتيات من البحر على قيد الحياة بعد تلك الغارة التي شنها شعب الكاريبي على الرجال الغرباء. وافترض انه في حال صدق هذا الخبر لا بد أن تؤثر لغتهن على لغة السكان الأصليين».

ثم يقول أونفروا نفسه:

«إن نجاحي كان كاملاً، لأن لغة التاينو شفئٌ أي اللغة الشريفة المقدسة في جزيرة هاييتي هي مشتقة من اللغة الفينيقية، بل هي لهجة فينيقية». استنتج ذلك بعد أن قام بدراسة لغوية لمائة كلمة من لغة «تاينو» الهيتية المذكورة. وبيّن أن هذه المائة كلمة كلها فينيقية. وهي ربع الكلمات المعروفة في لغة الكاريب هذه، لأن المعجم الذي وضعه ريموند بريتون، وهو أكبر معجم للغة التاينو حتى أيام أونفروا دي تورون، وربما حتى أيامنا، لا يحتوي على أكثر من أربعمائة كلمة.

كما أنه شرح التقليد المذكور على النحو الآتي: إن فينيقيين أو سوريين، ثم فينيقيين قرطاجيين استوطنوا هذه الجزيرة واستولوا عليها مدة طويلة إلى أن ضعفوا جداً وقلّ عددهم لأجل بعثاتهم إلى سائر أنحاء القارة الأمريكية. حينئذ غدرهم جيش الكاريب كما ذكر آنفاً.

ويقول: إن سكان جزيرة هاييتي الأصليين كانوا يعبدون بعل شمون (رب السماء) أو بعل شمين (رب السماوات).

وفي فصل آخر من كتابه يتكلم أونفروا دي تورون عن أسماء القبائل والأماكن الجغرافية في غوايانا البرازيلية، وخاصة أسماء الأنهر والتلال التي، حسب قوله، هي أسماء فينيقية، وتبرهن على أن الفينيقيين أو السوريين سكنوا البرازيل التي يوجد فيها معظم أسماء القرى أسماء كنعانية[1].

وهناك عالم آخر نمساوي تكلم عن تأثير اللغة الفينيقية على لغة شعب البرازيل الأصلي، وهو لودوفيكو شونهاغن، أستاذ التاريخ واللغة في جامعات النمسا. ودعي لزيارة البرازيل ودراسة آثارها علّه يجد حلاً لما غمض من تاريخها. لبّى الطلب عام 1911 وسافر إلى هناك، وانكب على البحث والتنقيب خاصة في ولايتي مارانيون وبياوي. فشاهد في أنحاء شتى من البرازيل كتابات وآثاراً قال إنها فينيقية[2].

ولقد كتب مقالات عدة في بعض المجلات منها مجلة «الشرق» الصادرة باللغة العربية في مدينة سان باولو. وألقى محاضرات عن وصول الفينيقيين إلى البرازيل وأعمالهم. ثم وضع كتاباً عنوانه «تاريخ البرازيل القديم Al Barazil Antiga Historia» ضمّنه دراسات وافية عن الآثار السورية التي وجدها هناك. ومما قاله في دراسة له في مجلة «الشرق»: «توجد إلى الآن آثار مدينة في أعالي نهر بارناهيبا اسمها «فورترويا»* أي أهل طروادة التي كانت سورية»[3]. وطبيعي القول أنهم درجوا في الغرب على إطلاق اسم الفينيقيين على السوريين ككل ما داموا رجال بحر، وهو إطلاق الجزء على الكل، كما أطلق اسم عشيرة «اليونان» على جميع الإغريق فيما بعد.

---

(1) O. De Touron, Les Pheniciens a ile d Haiti et sur le Continent Americain, Louvain, 7881-98.

(2) إميل إده، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، دار النهار للنشر، بيروت، ص21 – 22.

* «فورترويا» بالسريانية هي «فرع ترويا» أي ثغر طروادة، مرفأ طروادة، وقد سقطت العين كالعادة. والفاء كانت تلفظ P، ومنها جاءت «بور» و«بورت» بمعنى: ثغر، مرفأ.

(3) مجلة «الشرق»، سان باولو، 15 أيلول 1928.

ولقد صار ثابتاً اليوم لدى جميع العلماء الموضوعيين أن «أطلانتا» الغارقة غرب مضيق جبل طارق في المحيط الأطلنطي كانت جزيرة سورية اسماً وسكاناً وحضارةً. وهذا ما شق على الباحث الأثاري الألماني هنريخ شليمان الذي اكتشف موقع طروادة ذي الطروادات السبعة المنضدة بالقدم بعضها فوق بعض مثل كل المدن السورية القديمة الأخرى، والتي يعود بعضها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، لكنه لم يصرّح بالحقيقة. وتوفي شليمان الأب سنة 1890، فقام بعده حفيده بول شليمان، وكتب مقالاً في جريدة «هارست» hearst سنة 1912 قال فيه إن جدّه الذي كان كثير الاهتمام لمدة طويلة بموضوع أطلنتا ترك قبل موته بوقت قصير مغلفاً مختوماً كتب عليه «يفتح هذا المغلف من أحد أفراد العائلة الذي سوف يكرس حياته للبحث طبقاً لما هو مبيّن في الرسالة».

وذكر بول أن جدّه، قبل أن يموت بساعة تقريباً، أعطاه ملحقاً للرسالة المختومة، لكن هذا الملحق كان غير مختوم. وقد حوى هذا الملحق تعليمات تقول: «اكسر رأس المزهرية التي على شكل البومة، وافحص المحتويات، فهي تخصّ أطلنتا». وقال بول إنه لم يفتح الرسالة المختومة التي أودعت في أحد المصارف الفرنسية حتى عام 1906. وعندما فتح المزهرية علم أن جده قد وجد أثناء التنقيب عن طروادة مزهرية مصنوعة من البرونز تحتوي على بعض أقراص من الطين المجفف، وأشياء معدنية، وبعض القطع النقدية المعدنية، وعدداً من العظام المتحجرة. ووجد كتابة على المزهرية باللغة الفينيقية معناها «من الملك قرونوس ملك أطلانتا».

بالطبع لم تكن حماسة شليمان للبحث عن طروادة سوى إثبات الأصل «الأوروبي» لحضارة المنطقة. لكن ظهور الكتابة على ألواح الطين التي اختص بها السوريون وحدهم وظهور الكتابة واللغة السريانية كان صدمة وخيبة أمل لم يشأ سليمان «الوفي للحقيقة» أن يظهرها، بل آثر كتمانها على قول الحقيقة طيلة حياته.

ولما كان ما لاكتشاف اللغة مثل هذه الأهمية في كتابة التاريخ بوجه عام، وتاريخ الإغريق بوجه خاص، فقد آثرنا أن نفرد لها قسماً خاصاً يتسع لجميع جوانبها.

السورية (السريانية Syrian)

لغة اليونان والإغريق:

قبل الولوج في عالم السريانية ـ الإغريقية لا بدّ من التنويه بالنقاط المهمة التالية:

1 - إن إغريقية اليوم تختلف اختلافاً كبيراً عن «الإغريقية» التي تكلم بها وكتب بها هيرودوت، وإسخيلوس، وأفلاطون وغيرهم. وإن إغريقي اليوم لا يكاد يفهم عبارة واحدة من اللغة الأصلية التي كتب بها هيرودوت. لقد خضعت تلك اللغة التي دونت بها قديماً جميع الآثار الأدبية والفلسفية والتاريخية إلى مراحل كثيرة من التغيير والتحوير نتيجة لعوامل ومؤثرات كثيرة سوف نمر على بعضها لاحقاً، ولا سيما فيما يتعلق بأصوات اللغة. إن التغيير والتحوير الذي طرأ على أصوات اللغة عبر قرون طويلة أفقد الكثير من مفرداتها ومن معالم وجهها السرياني الأصيل، وضيّع، بالتالي، المعنى الأصلي للكلمة مما جعل الآخرين يحملونها معاني افتراضية مغايرة.

2 - إن التغيير والتحوير الذي طرأ على السريانية في بلاد المورة هو غيره في جنوب إيطاليا. لأن ساكن الكهوف في المورة كان مختلفاً عنه هناك، وخضع لمؤثرات ديموغرافية مختلفة أيضاً. لهذا فإن محصلة التلقي هنا كانت حتماً، إلى حد ما، غيرها هناك، أو في أية منطقة أخرى.

3 - إن محافظة جزء من السوريين (المسيحيين السريان) على السريانية كلغة مقدسة، كونها اللغة التي تكلم بها السيد المسيح أبقت على نقاوتها، مما وفرّ لنا الشرط الحاسم والأهم من أجل التعرف على أصول الكلمات، والتعرف، بالتالي، على ما طرأ عليها من تحوير. ومن العوامل المساعدة أيضاً أن السوريين ما زالوا في معظمهم يتكلمون بلغتهم العامية الدارجة التي تحوي القسم الأغلب من السريانية التي هي لغة سارجون وحمورابي، ولغة ماري وإيبلا، وبالتالي فإن السوري اليوم يفهم من لغته منذ خمسة آلاف عام أكثر مما يفهم أي أوروبي من لغته قبل مائتي عام.

4 - إن النصوص والوثائق القديمة فقدت في معظمها، وما تبقى منها أخضع لعمليات نسخ وتزوير كثيرة، سواء أكانت عمداً أم عن جهل. و«إن شرح ذلك يمكن أن يوجد في مجموع المخطوطات الإغريقية أو اللاتينية التي هي منسوخات محدثة لا أصلية. إن هذه المنسوخات بأيدي القسس، أو رجال الدين المسيحيين، قد ظهرت إلى الوجود في الأديرة أو الجامعات العائدة للإمبراطورية البيزنطية، حيث صارت المسيحية منذ قسطنطين دين الدولة الرسمي. وحين صارت الرومانية عقيدة معتمدة... إن الدولة المسلمة في الشرق، في تسامحها، لم تعتقد أن عليها أن تُخضع للنقد نتائج تحقيقات بيزنطة التاريخية... إننا لا نملك تحت أعيننا سوى نصوص شرحتها ونسقتها و«صححتها» سلطات علمانية أو دينية تهتم قبل كل شيء بتشويه الحقائق لتتلاءم ومعتقدها... إن كمية العمل الملفقة، والمخطوطات التي أنتجتها الأديرة خلال العصور ضخمة جداً، وهي كذلك مثيرة للقلق»[1].

و«لقد كان لتنصر قسطنطين 306 - 337 م. وظهور الكنيسة المسيحية على الوثنية في حدود القرن الرابع الميلادي أثر عميق في فن التاريخ. فقد تحوّل إلى أيدي القساوسة والرهبان، وبقي فيهم طوال العصر الوسيط، أي زهاء ألف سنة من الزمان. وكان من جراء ذلك أن غدا التاريخ خاضعاً للاهوت، مسخراً له، وأنه أصبح تعليمياً في الواقع، وهو ما لم يكنه قطّ من قبل، وأنه فقد كل صفة علمية كان يتمتع بها، وأصبح لا يكترث بحال بما هو حق وواقع أو محتمل الوقوع، وأنه غدا مشحوناً بأخبار الخوارق والكرامات، غير معني إلا بما له صلة بالدين، وأنه فقد حاسة النظر إلى الأشياء موضوعة في مواضعها. فوضع العبرانيين في صدر «دراما» الزمان، وردّ دول العالم القديم إلى المؤخرة أو إلى الجانبين. وجملة القول: إن تحوّل التاريخ إلى رجال الدين كان معناه محو التاريخ الصحيح من الوجود محواً تاماً دام ألف عام».

«ولربما كان التقدم الملحوظ في تاريخ العهد الأخير من العصور الوسطى ناشئاً إلى حد بعيد عن تأثير الحضارة العربية التي شملت العالم الإسلامي في ذلك الزمان. لقد تماسّت النصرانية والإسلام في الأرض المقدسة وما يجاورها، وفي صقلية، وجنوب إيطاليا،

(1) روسي، المرجع السابق، ص226 - 227.

وفي الأندلس، ولم يأتِ هذا التماسّ بحال من الأحوال عدائياً لا في جملته ولا في الأساس الذي قام عليه... أما الصليبيون فقد خرجوا من ديارهم لقتال العرب المسلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة. لقد بهت أشباه الهمج من المقاتلين الصليبيين عندما رأوا «الكفّار» الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم، ذوي حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصحّ معه المقارنة بينهما. ففي مجال التاريخ الذي نحن بصدد الكلام عنه وحده، نجد المسعودي العربي يعرض في كتابه «مروج الذهب» عرض خبير ماهر تاريخ وأتنوجرافيا غرب آسيا وشمال أفريقيا وشرق أوروبا. ونجد ابن خلكان الدمشقي يصنف معجماً في التراجم التاريخية» ...

«ثم نجد شيخ المؤرخين العرب عبد الرحمن ابن خلدون التونسي. فقد كتب فيما كتب مقدمة لتاريخ عام بلغت في سعة الإحاطة وصحة النظر وعمق الفلسفة ما جعلها مصداقاً لما قاله الأستاذ (فلنت) في حق ذلك العالم العربي الكبير من أنه «واضع علم التاريخ»... «ولقد انتقل أثر هذه الثقافة العربية إلى أوروبا عن طريق مدارس الأندلس وجنوب إيطاليا، فكان من العوامل القوية في انتهاء العصور الوسطى وانبثاق فجر العصور الحديثة»[1].

أوردنا هاتين الشهادتين لباحثين معاصرين لإلقاء بعض الضوء على بعض ما لقيته الوثائق التاريخية السورية القديمة التي صارت تدعى «إغريقية»، مما يُبرز ويُعزز دور اللغة في عملية الكشف عن الحقيقة التاريخية لأولئك «الإغريق». ولقد كان ذلك غير ممكن من دون الكشف عن جوهر تلك اللغة قبل أن يتعرض الكثير من أصواتها لعمليات متعددة من التحوير، وانتشالها من تحت ركام آلاف الكتب التي كرّستها عبر القرون، ومنذ البداية، لغة أصيلة مستقلة خاصة بـ «الإغريق».

«لغة الإغريق» و«مفاتيح السر»:

إن في يدنا مفتاحين يكشفان كل أسرار اللغة التي ما زال الدارسون يصرون على دعوتها بـ «الإغريقية»:

(1) فصل من كتاب Out line of Modern Knoledge، ترجمة عبد الحميد العبادي تحت اسم «علم التاريخ»، ص25 – 28.

الأول: إنه باستخدام علم تطور وتغيّر أصوات اللغة عند انتقالها من جماعة سكانية إلى أخرى يمكن إرجاع الكلمات إلى أصولها كما نطق بها أصحاب وأبناء اللغة الأصلاء. وهذا تحديداً لم يكن غائباً عن علماء اللغات في الغرب، وليسوا الآن، في معظمهم، جاهلين به وباستخدامه. لكن الجهل من بعضهم لهذا الأمر من جانب، وتعمد تجاهله وكتمانه من أكثريتهم، من جانب آخر، هو الذي أبقاه سراً طيّ الكتمان طيلة هذه العصور. وإن جهل العرب، وبخاصة السوريين، بتاريخهم القديم، وبلغتهم القديمة، واعتمادهم النقل عن أولئك «الأساتذة المضلّلين»، علماً أنهم هم وحدهم المؤهلون للكشف عن هذه الحقيقة، كل ذلك أضاف عاملاً آخر في إبقاء التزوير منتصراً وحاضراً وحده.

والثاني: هو المفتاح السري الذي أبقاه السوريون في أيديهم وحدهم، والذي ينمّ عن عبقريتهم هم وعبقرية لغتهم المذهلة. ويتمثل في «الألقاب»، وليس الأسماء، التي أعطوها للشخوص التاريخية ولأبطال الأساطير. إن كل لقب من تلك الألقاب قد اشتقّ من «فعل»، دأب العربية بكل لهجاتها منذ أن وجدت إلى اليوم. وإن ذلك «الفعل» يحمل في ذاته كل المعاني والحالات والأوصاف والأوضاع النفسية والجسدية والاجتماعية، التي تشكل مجتمعة قصة هذه الشخصية التاريخية أو تلك، أو بطل هذه الأسطورة أو تلك.

إن هذه الظاهرة من الغنى في المعاني التي تضمها جذور الكلمات، رغم تفوقها الساحق في عدد تلك الجذور، هي الظاهرة التي انفردت بها العربية بلهجتيها السريانية والعرباء (الفصحى) بين لغات الأرض قاطبةً. إنها إحدى مظاهر عبقرية هذه اللغة. وإن اختيار الكلمة «اللقب» التي تستوعب في ذاتها مضامين قصة «البطل» دون غيرها من باقي الكلمات لشاهد آخر على عبقرية أصحاب هذه اللغة السوريين، وكأنما صارت الكلمة هي ذلك البطل نفسه المشكل تاريخياً ضمن مجموعة الحالات التي برزت بها بطولته. إن هذا وحده كان الحارس الأمين الكفيل بالتعرف على هوية أبطال الأساطير السورية التي صارت تدعى «إغريقية» في مكان ما وزمان ما، وعلى يد سوري، أو سرياني

إن شئت، تحديداً، ولو دأب العالم كله إلى تهريب تلك الهوية وتغييبها على مدى الآلاف من السنين. إن هذا المفتاح السري هو ما تركه السوريون للسوريين، وما من أحد بقادر على استخدامه غيرهم شرط اكتشافه أولاً، وإرجاع تلك الأسماء «الألقاب» إلى حقيقتها في أصلها السوري ثانياً، وهذا ما نحن في صدده الآن وفوراً.

السوريون و«سرّهم المكنون»:

المفتاح الأول: السورية Syrian وتغير أصواتها في الغرب:

معلوم وثابت لدى الجميع أن السوريين هم أول من وضع أول أبجدية حرفية في التاريخ، بعد أن طوروا كتابتهم في مراحلها الثلاث: التصويرية (بالسريانية «الهيروجليفية») والمقطعية اللاصقة، ثم الأبجدية الحرفية، كما كانوا أول من طور أدواتها أيضاً من لوح الطين المشوي والقلم الإسفين (الكتابة الإسفينية أو المسمارية) إلى الرق والقلم والحبر، ثم إلى الورق والقلم والحبر. وإن استخدام السوريين لأبجديتهم الحرفية الذي يعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد على الأقل، كما سبق أن أثبتنا، أي إلى زمن آدم الرسول، كان أعظم منحة قدموها للإنسانية في تاريخها الطويل كله.

لقد كانوا أول من حلل الكلام المنطوق إلى عناصره الأولى، أي إلى أصوات. وحصوا أصوات لغتهم في 22 صوتاً، ثم وضعوا لكل صوت صورة أو رمزاً يدل عليه وسمّوه اسماً يذكر به ويبدأ به، لتسهيل حفظه وتعلمه، ثم عمدوا إلى اختصار تلك الصور، إلى أن تحولت إلى رموز بسيطة يتعلمه الصغار في المدارس والكتاتيب من أجل نشرها وتعميمها. وهكذا تم تعميم شكلين من أشكال الكتابة السورية القديمة حتى «زنرت» ـ على حد تعبير المؤرخين ـ الكرة الأرضية كلها: الكتابة بالحرف المربع الذي انداح شرقاً والذي صاروا يطلقون عليه الحرف الآرامي، والحرف الساحلي الذي انداح غرباً ليعمّ الغرب كله إلى اليوم وصاروا يطلقون عليه الحرف الفينيقي. إن الأبجدية السورية Syrian (أو السريانية) منذ أن وجدت إلى اليوم، وبكل التسميات التقسيمية التي فرضها المؤرخون من أكادية، وبابلية، وآشورية، وفينيقية، وآرامية، وكلدانية، وغيرها، هي واحدة مهما تعددت أشكال تصويرها أي كتابتها. لقد ظلت محصورة في عدد أصواتها الـ 22، وفي تسمية هذه الأصوات على مدى هذه الآلاف السبعة من السنين.

أما أصواتها المصورة (أو المكتوبة) فهي:

«أبجد» أ، ب، ج، د	A, B, G, D
«هوز» هـ، و، ز	H, O, Z
«حطي» ح، ط، ي	H, T, I
«كلمن»ك، ل، م، ن	K, L, M, N
«سعفص» س، ع، ف، ص	S, Õ , F, S
«قرشت» ر، ش، ت	Q, R, S, T

وقد أطلقوا على كل من هذه الأصوات اسماً يبدأ به ويدل عليه. فأصوات «أبجد»، مثلاً، هي: ألفا alpha (أي الثور، المخصب، الزوج، السفينة)، بيتا beta (أي بيت)، جملا gamla وجاما gama (أي الجمل)، ودلتا delta (أي باب الخيمة، الباب، شكل المثلث).

وإن أصوات «حطي»، مثلاً، هي حيطا heata (أي حائط)، وطيتا teata (أي الحية)، ويود iod (أي يد)... وهكذا.

ولقد انتشرت الأبجدية السورية كما هي بكتابتها وبأسماء أصواتها في كل مواقع انتشار السوريين، قبل قدوم الفينيقيين من ساحل الخليج العربي إلى الساحل المتوسطي، وأثناءه، وبعده، كما تدل المكتشفات الوثائقية في طروادة وكريت وغيرها. وقد اشتهرت فيما بعد في الغرب كله باسم «الكتابة الفينيقية».

يقول بريستد: «ورتب الفينيقيون حروفهم الجديدة بأسلوب موافق بحيث تألف من الاثنين وعشرين حرفاً مجموعة حروف خالدة، سهلة التعلم. ولو لم يسّم كل حرف منها باسمه لما كان حفظها ممكناً. فسّموا الحرف الأول من أبجديتهم بما معناه «ثور» لأن اللفظة الفينيقية للثور أي «الألف» تبتدئ بالحرف الأول عندهم. وسمّوا الحرف الثاني بما معناه «بيت» لأن اللفظة الفينيقية «بيثا» للبيت تبدأ بالحرف الثاني، وهكذا إلى الآخر. وكان أولاد التجار الفينيقيين إذا تعلموا حروفهم الهجائية وسئلوا أن يسردوها قالوا هكذا، ألفا، بيتا،... إلخ».

«وكان أولاد اليونان، في تعلمهم القراءة، يسمون الحروف بنفس الأسماء التي كان يسميها بها الفينيقيون. ولما كان اليونان يجهلون معنى تلك الأسماء الغريبة حرّفوا لفظها قليلاً. فصار يقرأها أولادهم بحسب ترتيبها الفينيقي المعلوم «ألفا، بيتا... إلخ». كذلك كان يقال إن الولد اليوناني يتعلم ألفا بيتا، التي منها جاءت اللفظة الأوروبية alphabet، وهي أثر باق من الدّين العظيم المدين به الغرب للشرق، ولا سيما للفينيقيين الذين نفحوه بعطية لا تثمن، وهي الكتابة بالحروف الهجائية التي وصلت إلى إيطاليا من بلاد اليونان، ثم امتدت إلى سائر جهات أوروبا.

والحقيقة التي لا مراء فيها هي أن حروف هجاء بلاد الغرب والشرق متسلسلة من حروف الهجاء الفينيقية. وجاء إلى أوروبا مع حروف الهجاء، لأول مرة، القلم والحبر والورق، وجاء مع الورق اسمه الشرقي»[1].

إن نظرة واحدة إلى الأبجدية العربية بلهجتيها السورية (السريانية) والعرباء (الفصحى) سوف تكشف لنا كيف أنها تحوي كل الأصوات الحلقية المعروفة في الطبيعة، وهي الأصوات التي لا تتميز بصعوبة نطقها من قبل الأقوام الغرباء عنها فحسب، بل وبدقة الحدود الفاصلة بين الواحد منها والآخر. لهذا فقد انصب عليها هي تحديدا معظم مظاهر الإلغاء والتغيير والتحوير التي تعرضت لها السورية (السريانية) في بلدان انتشار السوريين. ونذكر، على سبيل المثال كيف أن اللاتينية احتفظت بصوت حلقي واحد هو الكاف k أو q.

وأن لغة أخرى فيما بعد كالإنكليزية احتفظت بثلاثة أصوات حلقية هي الجيم g، والكاف k والهاء h، والروسية بثلاثة هي الكاف k، والجيم g والخاء k و... بالإضافة إلى صوت الألفـء طبعاً.

أما السورية (السريانية) والعرباء (الفصحى) فقد احتفظت بأصواتها جميعاً ذات البنية الرياضية والفلكية المدهشة. إنها تسعة أصوات حلقية في الفصحى مرتبة في ثلاث مجموعات، كل مجموعة مؤلفة من ثلاثة أقانيم متفاوتة الدرجات. وهي، في مجموعها، تمثل كل ما هو عميق، خفّي، باطن، وبكلمة: إنها العقل، الخالق، شمس العقل الأول.

(1) بريستد، المرجع السابق، ص293, 295.

يقول أدولف إرمان:

«ومما يثير العجب أن المصريين منذ العصور الأولى أخذوا يتحدثون عن هذه المجموعة من الآلهة الذين اخترعوهم ليكونوا تاسوعاً كما لو كانوا يمثلون إلهاً واحداً. فقالوا مثلاً: إن التاسوع قد ولد إلهاً»[1].

وفي سوريا يشرح لنا مقروبيو Macrobius الأنطاكي في كتابه «حول الشمس Hilio» كيف أن «أسماء الآلهة تعود إلى درجات طاقة الشمس المختلفة. وهذه الفكرة الأساسية تكاد تكون واحدة عند كل من الشعراء والفلاسفة الذين يقيمون البرهان على التطابق الجوهري بين أبولو، وأدونيس، وأريس، وهرمز، وأسكلبيوس، وهيجيا، وهرقل، وسيرابيس وإيزيس من جهة، والشمس من جهة أخرى».

أما «ملك» الصوري، فيشرح لنا هذه الظاهرة مؤكداً أن الشمس «هيليو» التي لم تكن الآلهة إلا تشخيصات لصفاتها، أو ـ كما يسميها «ملك» الذي هو «فرفوريو» – لقواها أو طاقاتها، فإنها هي أيضاً خاضعة لإله أعلى هو الإله الروحاني الذي لا يرى. ويقول: «إذا أردت رؤية الله فكّر في الشمس ودوران القمر ونظام النجوم. فمن هو الذي يحافظ على نظامها؟ إنه «هيليو» أعظم الآلهة في السماء، والآلهة السماوية كلها تفسح له المكان كما لملك حاكم»[2].

تلك الشمس الخفية، التي هي شمس العقل الأول، الذي تخضع له كل طاقات الشمس الظاهرة ممثلة بالتاسوع في ظهوراته الثلاثية ذات الأقانيم هي التي عكسها العرب الأقدمون في أصوات اللغة الحلقية التسعة حسب تراتيبها، وهي:

مجموعة هاh، حh، خkh.

ومجموعة ج g، ك k، ق k.

ومجموعة أ a، ع، غ g (كما يلفظ الفرنسيون الـ R).

---

(1) أدولف إيرمان، ديانة مصر القديمة، ص105.

(2) فرانتس ألتهايم، إله الشمس الحمصي، ترجمة إيرينا داوود دار المنارة، سوريا، ص191 – 121.

إن نظام التثليث هذا هو من إنتاج العقل السوري القديم الذي أبرز دور المثلث في النظام الفكري العقائدي كما في النظام الهندسي والرياضي، والمثلث في الفكر السوري القديم كان يرمز إلى الطاقة بنوعيها المادية والروحية. ولم تكن «هيكاتي» (وتعني بالسريانية المثيلة، النظيرة) بوجوهها الثلاثة سوى أحد تجسيدات هذا الفكر. وإن الإمبراطور «جوليان» الملقب بالمرتد، الذي أوقف تدمير المسيحية البيزنطية للوثائق السورية القديمة (لكن غضبه كان دون نتيجة وحكمه سرعان ما زال)[1]، كان أحد الأباطرة المثقفين المعدودين والمنحدرين من أصول سورية، وكان قد تتلمذ على يد المفكرين السوريين أمثال نومينو الأفامي وتلميذه جامبليك الكلخي ودامسكيو (الدمشقي) وسمّاق الأنطاكي. فقد شرح لنا الإمبراطور الفيلسوف وجهة النظر السورية التي كان شديد الاعتقاد بها. «فانسجاماً مع فهمه الكوني المثلث الأبعاد الذي يقوم على تراص العالم المحسوس، والعالم المعقول»، و«الأحد» أو «الخير المطلق» فقد ميّز جوليان بين ثلاث شموس:

القرص الباهر الذي نراه «علة الحفاظ على الأشياء المحسوسة»، وشمس أخرى هي شمس الحقيقة، وهي صدور عن «الخير» و«الأحد» المهيمن على «الآلهة العاقلين»... فالشمس، والحالة هذه، موجودة على المستويات الثلاثة... ورغم أن جوليان كان يعتبر نفسه تلميذاً لجمبليك، فقد ابتعد هنا عن معلمه الذي كان يرى أن «الملوك الثلاثة» أدنى من «الأحد»[2].

لكن الأبجدية السريانية اعتمدت هذه الأصوات الحلقية جميعها لفظاً، وأسقطت صوتين منها كتابة هما الخاء kh والغين (الراء الفرنسية). فقد كان السوريون وما يزالون يلفظون أحياناً الكاف والحاء خاءً، والعين غيناً، لكن هذين الصوتين بقيا غير معترف بهما وخارج الأبجدية. لهذا فقد بقي نظام السبعة، أو السباعي، هو، في وحدته المتماسكة غير المنقسمة، المعبرة عن كلمة الله الخالقة وليس سواه.

ولما كانت كلمة الله الخالق تعني الخلق ممثلةً بالعدد 7، فإن حروف الأبجدية الـ 22 تمثل في فكر العرب الأقدمين دائرة الخلق الشاملة لعالمي المادة والروح التي يمثل العدد 7 وحدة الخلق فيها أو قطرها، أو محورها، وسمّوها «منتا» memta والتي مثلتها الربة «مناة».

(1) رومي، المرجع السابق، ص.227.
(2) بيير شوفان، أواخر الوثنيين، ص.290.

وبتقسيم العددين على بعضهما، أي 22 ÷ 7 حصلوا على المثال في الخلق، كل خلق، ودعوه «فليث» وهي في القاموس السرياني تعني المثال. إذ أن لكل خلق «مثاله الأول» في «الكتاب» عند الخالق بوجوده المرمّز. ولمّا كانوا يلفظون الفاء P في كثير من الأحيان فقد لفظوها «بيليث Pelith»، واختصروها بحرفها الأول الذي شكله بالفينيقية «π» وهي التي تعادل 3,14 إلى هذا اليوم، أي ناتج تقسيم محيط الدائرا 22 على العدد 7 الممثل لوحدة الخلق، فكانوا أول من توصل إلى حساب كل ما يتعلق بالدائرة والأقواس والقباب التي اعتمدوها في عمارتهم ذات المضمون الفلكي السماوي إلى اليوم. وإن هذا الفكر السوري القديم تحديداً هو الذي دفع بنظرية «المثل ideas» عند أفلاطون إلى الظهور.

والطريف في الأمر هو أن العلم الحديث هو الذي كشف لنا أن عدد الحموض الأمينية التي تشكل كل أشكال الحياة على الأرض هو 22, وكما تصطف الحروف العربية ثلاثة، ثلاثة لتكون جذور الكلام العربي، أو السرياني، كله، فإن الحموض الأمينية تنتظم في شيفرات ثلاثية ليتحدد بموجب كل «صفّة» نوع الكائن. ومن هنا فقد دعيت الربة عشتار بـ «الربة الصافّة التي تقدّر القدر والمصير»، كما دعيت الملائكة في القرآن الكريم بـ «الصافات» (سورة الصافّات).

لهذا كله ظل العربي، أو السوري، ينظر إلى لغته وإلى حروفها نظرة فيها كل المهابة والتقديس، لأنه ورث - عن وعي أم عن غير وعي - أن لها ترتيباً سرياً يتضمن طاقات سرية، وهو أبعد ما يكون عن الصدفة، وحتى عن إدراك العاديين من البشر. وهذا بالضبط هو ما ألمح إليه نونّوس السوري في كتابه الشعري «الأدونيسيات» حين عرض على قدموس بالقول:

«حمل قدموس إلى عموم اليونان هبات فيها الكلمة والعقل الراجح... ووحد ما بين الأحرف الصوتية والجامدة في تسلسل منسجم منظم. فهو الذي رسم لهم إشارات الكتابة الصامتة وليس بها عيّ، ذلك أنه تلقن في موطنه أسرار العلم الإلهي والحكمة المصرية، ورضع منه حليب الكتب المقدسة التي تعجز اللغة عن تصويره»[1].

(1) نونوس، الأدونيسيات، الكتاب الرابع، الأبيات 259 وما يليه. و: بيير شوفان، المرجع السابق، ص223.

وقبل التطرق إلى مصير تلك الأصوات الحلقية في بلدان انتشار السوريين، وتحديداً في شبه جزيرة المورة وإيطاليا، نرى التوقف قليلاً عند الإضافات على أصول الكلمات المتمثلة في:

1 – صوت «السين» S:

إن قدامى السوريين كانوا يضيفون صوت «السين» S إلى نهايات الأسماء التي تكتسب قداسة معينة مثل: أوزيري (المعين، الشفيع) ـ أوزيريس، أدوني أو عدوني (أي المخصب) ـ أدونيس، لكن الفرس والإغريق فيما بعد أخذوا يضيفون «السين» اعتباطاً إلى نهايات كل الأسماء دونما تمييز. وهذا ما أشار إليه هيرودوت نفسه في أكثر من موضع.

لهذا، فإننا سوف نتعامل مع جميع الأسماء «الإغريقية» مجردة من هذه الإضافة من أجل إرجاعها إلى أصلها السوري.

2– أما الإضافات التي حملتها معها من الأصل السوري فهي الممثلة في أدوات التعريف عموماً وهي:

- اللام أو «أل». أمثلة:

- لحبر LHABR ـ ليبر LIBR بعد سقوط الحاء، وتعني: الخبير، العالم، العرّاف وهو من ألقاب باخوس. لحوسيا LHUSIA ـ لوسيا، بعد سقوط الحاء، وتعني الطاهرة. وكان السوريون يستخدمون أداة التعريف «أم am» بدلاً من «أل a» مع كل الأسماء التي تبدأ بصوت شفوي (أي يلفظ بمساعدة الشفتين) مثل الباء و الفاء b، ph، والـ p. مثل بوبو ـ أمبوبو (الأنبوب)، فورا ـ أمفورا (القدر، الجرة). وما زالت هذه الظاهرة مستخدمة في اللغة الدارجة إلى اليوم كأن نقول «امبارحة» بدلاً من «البارحة» (بمعنى أمس). وهذه الظاهرة ذهبت كما هي إلى مواقع الانتشار.

ثم: قترا kathra تعني: المتكبرة، المستعدة للقتال، المتأهبة، المصباح، المغارة، الصخرة العالية. تصبح إلقترا Electra.

أفني Aphni تعني: الخصب، شجرة الغار. أليفانيا Al-iphania تعني الخصيبة.

وهاتان الأداتان انتقلتا كما هما من السورية (السريانية) إلى اليونان، وإلى جنوب إيطاليا، ثم إلى الفرنسية الحديثة.

- **الدال d أو t:**

أفني aphni وتعني الخصب، شجرة الغار ـ دفني dephni، إيلفي Elphi عرّافة، كاهنة، متنبئة ـ ديلفي Delphi. يمن Emen يمين، جنوب، قبلة ـ تيمن taiman القبلة، الجنوب. وهذه الأداة هي التي انتقلت فيما بعد إلى الفرنسية de وإلى الإنكليزية the.

- الهاء أو الألف، A: بيتا beta بيتا ـ هابيتا، أبيتا بمعنى البيت، المسكن، السكن، ذهبت عبر اليونان وإيطاليا لتصل إلى اللغات الأوروبية الحديثة: بالفرنسية وبالإنكليزية habitation، وبالروسية abitatcia.

بعد هذا صار في الإمكان الآن أن ننتقل إلى الأصوات الحلقية السبعة لنتقصّى مصيرها في بلاد الاغتراب.

الأصوات الحلقية في بلاد الانتشار:

لما كان المصير الذي لقيته أصوات اللغة العربية السورية (السريانية) في إيطاليا يختلف اختلافاً كلياً عنه في شبه جزيرة المورة، وأن التراث الذي يعرف بـ «الإغريقي» قد نقل إلى اللاتينية في معظمه قبل أن يتعرف عليه الغرب في عصر النهضة، فإننا سوف نبدأ بالتغيير الذي طرأ على تلك الأصوات خلال عبورها باللاتينية.

أولا ـ في إيطاليا:

من المعلوم أن اللاتينية أسقطت كل الأصوات الحلقية، ولم تبقِ إلا على صوت الكافً الذي جاء فيها في معظمه تحويراً لصوت القاف. مثل «أفقا» aphka بمعنى ماء، نبع الماء، صارت نتيجة الإبدال بالقلب باللاتينية aqua.

لهذا فإن أصوات «أبجد» التي هي a، b، g، d صارت باللاتينية a, b, c, d ومنها انتقلت إلى كل اللغات الأوروبية عدا الروسية أو السلافيات عموماً التي أخذت عن الإغريقية مباشرةً وليس عن اللاتينية، فحافظت على لفظها السوري السرياني a، b، g، d.

وإن جميع الأصوات الحلقية إذا ما وقعت قبل حرف صوتي مثل: l, e, y تحولت في اللاتينية إلى c أمثلة: فينيقيا ـ فينيسيا، قبرص ـ سيبروس، صقلية ـ سيسيليا، كيليكيا ـ سيليسيا، كيركو (دائرة، حلقة، مرسح) ـ سيركو، جيلون ـ سيلون، كيرينا (المغنية بالسريانية) ـ سيرينا. وكان بعضها يلقى مصيراً آخر: فإما أن يسقط نهائياً أو يتحول إلى ياء والتي اسمها بالسريانية «يود» (أي يد) فصارت «يوت» باللاتينية، وعلامته هذه J وصار باللغات الأوروبية يلفظ جيماً عادية وليس الجيم السريانية (التي هي المصرية اليوم أيضاً) مما جعلها لا تتميز فيما بعد عن الياء ة السورية الأصلية:

- **عن الحاء: حنا ـ جان Jan يعقوب ـ جاكوب Jacob.**

أما الروسية التي أخذت عن الإغريقية مباشرةً فقد أبقت على الياء، يعقوب ـ ياكوب.

- **عن القاف K:**

مثل قسط kest (بمعنى عدل): just، وقسطاس: justice، وقاض: judge.

واللغة اللاتينية التي هي خلطة ضعيفة ما بين السورية (السريانية) واللهجة الشفوية لسكان الكهوف الأصليين هناك لم تكن فقيرة بأصواتها فقط، وإنما بجذور كلماتها أيضاً التي لم تتجاوز حوالي 600 جذر، بينما السريانية أو الفصحى تحوي زهاء ستة عشر ألف جذر، لهذا لم تتمكن من الصمود طويلاً لتحل محلها الإيطالية الحديثة التي جمعت الكثير من التأثيرات، والتي تحتاج اليوم إلى عين خبيرة بارعة من أجل التعرف إلى أصل الكلمات السورية التي تتضمن صوت الحاء h.

إن صوت الحاء إذا لم يسقط نهائياً في إيطاليا فقد تعرض للتحويرات التالية: ح – w - v

فتحوير محلّي من الحاء إلى w ، ثم تحوير هذه الأخيرة إلى الصوت v، بسبب اجتياح القبائل الجرمانية، أو من كانوا يدعونهم بـ «برابرة الشمال» لإيطاليا وتدميرها والسيطرة عليها. ومن المعروف أن قبائل الشمال جميعها لم تكن تقدر على لفظ صوت الواو W، وما تزال، فتحوّله إلى V. ويرجع بعض الباحثين السبب في ذلك إلى شدة البرد. إن الروسي، والألماني، والفنلندي وغيرهم من أقوام الشمال يقولون إلى اليوم valid بدلاً من «وليد»، فيسكي VISKY بدلاً من «ويسكي»، فولكس فاكن بدلاً من «وولكس واجن» إلخ.

أما فيما يخص الكلمات السورية في إيطاليا فهاكم الأمثلة:

إن الفعل السرياني حيوى hiwa بمعنى يحيا، يعيش، صار wiwa ثم viva. وفي الروسية jivo. ثم صيغت المشتقات الأخرى مثل revive الإنكليزية أي إعادة إحياء...

وإن الاسم «حينو» hino بمعنى خمر وجمعها حيني Hine ومنها الحانة = الخمارة، صار wino ثم wine, vino بمعنى خمر.

وإن حيزي hize بمعنى: رأى، أبصر، بصّر، تكهن، صار حكيماً، نبياً. صار wize (وهي wise بمعنى حكيم بالإنكليزية) ثم vize، ثم visa بمعنى «شوهد» وهي التاشيرة. ومن «حيزيون» hision السريانية بمعنى رؤية جاءت vision الإنكليزية والفرنسية.

ثانياً ـ في بلاد المورة:

حرف الألف ء، ALPHA:

1 - أن يكون من أصل الكلمة. مثل: أدمون admon ويعني بالسريانية: الصبّاغ، الصباغ بالأرجوان. وهي من الفعل «إدم» edem لطخ، صبغ بالدم، بالأرجوان.

وفي قصة «بالاس وأراخني» كما رواها أو فيد: «كان أبوها إدمون مواطناً من كولوفون يحترف صباغة الصوف التي كانت تعتمد على أرجوان الرخويات البحرية من فوقيا».

2 - أن يكون من أداة التعريف السريانية «a, am, al» مثل: القترا electra، أمفورا amfora، وأتّيس attis.

إن أتّيس تعني التيس، ذكر الماعز، وقد حذفت اللام لوقوعها قبل حرف شمسي هو التاء، وهذا ما اختصت به العربية السريانية والفصحى.

والدليل ما ورد في قصة «الرب أتّيس» في فريجيا في شمال سوريا، تقول القصة:

«وها هي نانا ابنة الملك تقطف رمانة وتضعها في صدرها فهي منها حامل. ويسجن الأب ابنته التي تصور أنها وقعت في العار ويريد أن يميتها جوعاً، لكن أمها تقيم أودها بثمار البلوط والتين وبالنباتات. ولدى ولادة الطفل أهملوه، فالتقطه راعي ماعز وربّاه، وغذّاه بحليب الماعز وسمّاه attis وهذا معناه باللغة الفريجية (جدي) وكان الطفل آية في الجمال»[1].

(1) بيير شوفان، أواخر الوثنيين، ترجمة سلمان حرفوش، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1987, ص328.

3 – أن يكون تحويراً عن العين، مثل عكروبولي akrobole صارت akropoli، وكلمة عكرو في القاموس السرياني تعني: السلالة، الذرية، العشيرة، كما تعني الحصن. وبولي bole جمع بولو وتعني الأمير، فيكون المعنى سلالة الأمراء، ذرية الأشراف، حصن الأمراء... وقد تحول لفظ الباء b إلى p.

4 – وأما أن يكون تحويراً عن الحاء و وهذا لا يتم إلا في أول الكلمة مثل: (حيرا) hira وتعني الحرة، الشريفة، الأصيلة بنت النسب، السيدة، البطلة، وهي زوجة (زيو) وصارت (ايرا) ira. ومثل: حوطوم hotom وتعني بالسريانية اليابس، الجاف، الهرم، المحطم، الزرع اليابس الحطيم، وصارت (أوطوم) ثم صارت بالإنكليزية automn وتعني الخريف، فصل الخريف وتلك هي مواصفاته وما يصير فيه إليه الزرع.

• حرف الباء، بيتا beta :

إن حرف الباء لم تطرأ عليه تحويرات تذكر إلا في تحوله إلى p وخاصة في أواخر الكلمات، حيث تتحول كل الأصوات المدوّية إلى أخرى خافتة، فالباء تتحول إلى p والدال تتحول إلى t وهكذا. مثال: صقلاب صارت syclap، وأحياناً طرأ عليه التحوير نفسه في أول الكلمة مثل بولي bole بمعنى أمراء، واجتماع الأمراء، وصارت poli، polis وصاروا يفسرونها بمعنى مدينة، دولة، شرطة وسياسة!

وكلمة دبلوما deploma هي سريانية الأصل: فالدال d للتعريف وبلوما bloma تعني الإفحام في النقاش، الاسكات، الدفاع، وهي من الفعل السرياني (بلم) blem أي أفحم، أسكت، دافع، صدّ، ومنها جاءت شهادة الدبلوم أي الإفحام في الدفاع والمناقشة، وكلمة ديبلوماسي deplomcy والديبلوماسية كلها على أساس الإفحام في النقاش وليس في اللطف واللين كما صار يفهم منها اليوم، ويلاحظ كيف تحول صوت الباء b إلى P .

• حرف الجيم، جملا gamla:

1 – أما أن يبقى على حاله مثل (جول) بالسريانية goal التي انتقلت إلى اللغات الأوروبية الأخرى وتعني هدف، نيشان، راية.

2 - وأما أن تكون تحويراً من القاف السريانية، مثل: قرسو gerso وتعني بالسريانية: خصومة، حرب، قتال، شر، أذى، عدوان، وهي من الفعل (أقرس) agres وقد ذهبت بهذه الصيغة إلى بلاد المورة وإيطاليا ثم إلى جميع اللغات الأوروبية agression وتعني عدوان، أذى، حرب... وقيروس kiros تعني بالسريانية: بأس، شدة، حرب، قتال، صولة، وقروسيا krosia هي الزخرف، النقش في الثوب، وقيروس kirosi رؤساء الأسر وأصحاب البأس، ومنها جاءت تسمية قيروسيا kirosia في بلاد الإغريق لتدل على اجتماع أو مجلس رجال العشيرة من المغتربين السوريين المتميزين بأثوابهم المزخرفة والموشاة وذات الأهداب، من أجل الفصل في أمور الحرب خاصة.

مثال آخر (ينقو) yongo وتعني بالسريانية: طفل، رضيع، صبي صغير، ومؤنثه (يونقا) و(يونقتا) وهو من الفعل ينق yaneg أي رضع، أرضع، وانتقلت مع السوريين إلى بلدان الانتشار حتى وصلت بريطانيا فهي اليوم young بالإنكليزية وتعني صبي، فتي، شاب صغير.

3 - وفي أواخر الكلمات تحولت كصوت داو إلى الصوت الخافت الذي يناسبها وهو الكاف k. مثل سناج snag ويعني بالسريانية قصف ولهو وطرب ومقصف، وصارت snak.

• **حرف الدال، دلتا delta:**

لم يطرأ على صوت الدال أي تغيير يذكر إلا بتحوله إلى تاء t كاداة تعريف أو في أواخر الكلمات، أي من صوت داو إلى صوت خافت هو التاء، مثل: فود food وتعني بالسريانية قدم، مقدار قدم الرجل، وصارت foot وهي التي وصلت إلى الإنكليزية.

وقد يحدث هذا التحول في أول الكلمة أيضاً مثل ديل dale وتعني بالسريانية ذيل وذنب، وصارت tale بمعنى ذيل.

• **صوت الهاء h:**

1 - هي إمّا أنها في الأصل السوري أداة التعريف فبقيت على حالها مثل: هوميرو -home ro وتعني بالسريانية الراوي، الشاعر، المدّاح، وهي في القاموس السرياني من الفعل (أمر) amer ويعني: حكى، أخبر، روى، قصّ، وصف، مدح، أنشد، وهذا اللقب لا يخصّ شخصاً بعينه وإنما تطلق على كل من كان ينشد إحدى الملاحم البطولية في سهرة أو في بلاط أمير أو ملك، ويرافقها بالعزف على الربابة أو العود، وهذا تقليد عربي استمر من عهد ملحمة جلجامش إلى قصة عنترة وإلى اليوم. وكثيراً ما يبدأ بالقول: قال الراوي يا سادة يا كرام، أو قال الشاعر، لهذا احتاروا في الغرب في من يكون ذلك (الهوميروس) الذي نظّم الألياذة والتي فيها كل اللهجات اليونانية ما بين القرن الثالث عشر (زمن حرب طروادة) والقرن الرابع قبل الميلاد زمن تدوين الملحمة.

2 - أو أنها من أصل الكلمة السورية. فإن وقعت في أول الكلمة حوفظ عليها مثل همارا humara بمعنى رهينة بالسريانية وقد بقيت كما هي. وإن وقعت في وسط الكلمة، فقد تبقى أو أنها في أغلب الأحيان تسقط، مثل: «مرهطون» marahton وتعني بالسريانية مضمار السباق، ميدان السباق، مضمار إعداء الخيل... إلخ. وهي في القاموس السرياني من الفعل «رهط» rhet ويعني: ركض، عدا، جرى، عبر، مرّ، اجتاز، سعى، جدّ، شاع، ذاع. إن هذا الفعل يحكي قصة المتسابق كلها، ومرهطون صارت ماراثون marathon بعد أن سقطت منها الهاء، وهو ما صار يسمّى بـ (سباق الماراثون) في الألعاب الأولمبية التي أسسها السوريون كما سوف نرى.

• **صوت الحاء (حيطا) heta:**

وتعني الحائط، وصار اسمها (ايثا etha) وفي تحول اسمها دلالة على بداية التغيير، وهذه حالاتها:

1 - في أول الكلمة:

• إما أن تتحول إلى همزة كما تحول اسمها من «حيطا» إلى «ايثا»، مثل «حورا» hora وتعني بالسريانية مغارة، صارت «أورا» ura. وحوراشليم التوراتية تعني في الأصل السرياني مغارة المعتزلين، مغارة النسّاك، لأن «شليم» جمع «شليو» أي المعتزل، المنفرد في خلوة. وكلمة

«شيلو» sheloالتوراتية حيث تجتمع العشيرة زمن موسى تعني الخلوة، المغارة أيضاً، ولم يكن يقصد بها مدينة القدس على الإطلاق[1]. وفي إيطاليا تحولت الحاء إلى «يوت» j، كما سبق أن ذكرنا، فصارت جيروسليم Jerusalem ومن أخذ عن اللاتينية أخذها بهذه الصيغة، وأما من أخذها عن الإغريقية القديمة فقد أخذها بصيغتها الأولى مثل السلافيين والروس.

- وإما أن تتحول إلى هاء مثل «حيفو» hipo وتعني في القاموس السرياني: النخوة، الحمية، الشهامة، العزيمة، الشدة... تحولت إلى «هيبو» hipo، ومنها الأسماء أو الألقاب هيبودمو hipodamo أي نخوة الدم، نخوة العشيرة، أو إلى همزة «ايفو» و«ايفي» epo، epi والمعنى ذاته وهو: همة، نخوة، حمية، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى عند السوريين والعرب عموماً.

يروي لنا أوفيد في كتابه «التحولات» أو «مسخ الكائنات» قصة «ايفي» فيقول إن أحد الفقراء في كريت طلب من زوجته أن تلد له صبياً وإلا فسوف يئدها إن كانت بنتاً، فجاءتها حيو بنت ايناخو بلباسها الملكي وشجعتها على عدم الإذعان لقرار زوجها، وجاء الطفل أنثى فأخفت الأمر عن زوجها وادعت أنه ذكر وسمّاه على اسم جدّه «حيفو» وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى، ولما كبرت أحبتها رفيقتها دون أن تدري أنها فتاة مثلها، وحينما أزف موعد الزفاف استجارت أمها بايزيس التي أجارتها، وجاءت إلى ابنتها «حيفي» وحولتها إلى شاب جميل.

ومثال آخر «حي» hai وتعني بالسريانية: عش، أي دمت سالماً. وهي التحية التي انتقلت إلى شتى بقاع الغرب كما هي.

2 – في آخر الكلمة:

إن وقعت الحاء في آخر الكلمة سقطت لا محال إلا فيما ندر، مثال: الكلمة السريانية «شيريح» shery وتعني: شاب، غلام، مراهق، جنسي، شهواني، وصارت شيري shery، وكلمة «دنح» donh وتعني الفجر، الصبح، الشروق، وصارت دون dawn وتعني الفجر بالإنكليزية. وكلمة «زريح» zarih أيضاً وتعني الفجر والصباح، وصارت زاريا zaria وهي التي انتقلت من اليونان إلى السلافية فالروسية الحديثة وتعني الفجر أيضاً.

(1) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا الثاني «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود»، ص213 وما يليها.

3 - في وسط الكلمة:

في الإغريقية تسقط الحاء أيضاً مثل الكلمة السريانية «فحما» fahma وتعني خبر ورواية وقصة وإشاعة، مثيلة وشبيهة، وصارت fama وانتقلت من الإغريقية إلى السلافية فالروسية الحديثة، إذ «فاما» بالروسية تعني إشاعة.

ومثال آخر «لحيتو» lheto وتعني بالسريانية: الأخت، الراهبة، وصارت ليتو leto وهي «ليتو» الراهبة التي حملت سفاحاً من «زيو» ففضحتها «حيرا» وزلزلت بها جزيرة ديلوس، فثبتها لها زيوس ووضعت التوأمين أبوللو وارتميس، وكلمة «ديلو» بالسريانية تعني المهتزة، المتأرجحة.

مثال آخر: الكلمة السريانية «لحوب» lhub أي الحب وصارت لوب lub وهكذا انتقلت إلى الروسية، ومن مناطق أخرى صارت لوف love, luv .

أما في إيطاليا فقد تحولت الحاء في وسط الكلمة إلى w ثم إلى v بعد سقوطها تحت احتلال قبائل الشمال الجرمانية.

مثال: «لحويرا» lhwera وتعني بالسريانية: الفضة البيضاء، درهم الفضة، الدرهم، وصارت «ليرا» و«ليفر».

«تراحيل» trahil وتعني الراحلين، المترحلين، العمال المتنقلين من مكان إلى مكان طلباً للعمل حسب المواسم، وما تزال مستخدمة في مصر كما هي (عمال التراحيل) إلى اليوم وصارت travel.

- **حرف الطاء طيتا أي الحية وصار اسمه theta:**

وفي هذا دليل أيضاً على تحوله من ط إلى ث.

1 - التحول من ط t إلى ت t عادية، مثال: «طكنو» tekno تعني في القاموس السرياني: صناعة، علم، حيلة، اختراع، وهي من الفعل السرياني «طكن» tken أي صنع واحتال ومكر، وانتقلت إلى الإغريق وإيطاليا ومنها إلى كل اللغات الأوروبية الحديثة tecno، techno بمعنى تقنية ومنها صيغت تسمية (تكنولوجيا).

مثال آخر «طكسو» takso وتعني في القاموس السرياني: طقس، نظام، قانون، رسم، ضريبة وهي من الفعل «طكس» tkes ويعني رسم، كرس، فرض، عيّن، حتم، الزم، رتب، وصارت tax بمعنى ضريبة.

2 - التحول من ط t إلى ث th، مثال: «طيبة» اسم المدينة التي بناها قدموس في بلاد الإغريق وصارت theba، والاسم أو اللقب «طهيمي» theme وتعني في القاموس السرياني الشريفة والحسيبة والأصيلة، بنت الحسب، المطهمة، وصارت «ثيمي» و«تيمي» theme بعد سقوط الهاء أيضاً.

و«طران» teran في القاموس السرياني تعني: حجر الصوان، حجر صلد يقدح ناراً، حجر الظران، وطيراني tirany: صواني، صلد، قاس، وصارت tirany في اللغات الأوروبية لتعني الظلم والقسوة والطغيان.

وقد تتحول في نهاية الكلمة إلى d، مثال:

سولطو، سولط solt تعني حجر صوان، وهي في القاموس السرياني من الفعل «سلط» slet أي: حجر، صلب، قسّى، وصارت في اللغات الأوروبية sold.

وما يزال سكان الساحل السوري يستخدمون الكلمة السريانية «سولاط» بدلاً من (صوان) لذلك الحجر إلى اليوم.

• **حرف الكاف «كف» k, kaf أي كف اليد:**

الكاف السورية الأصيلة بقيت في الإغريقية كما هي وقلq أن تتحول إلى غيرها، أما اللاتينية فقد ذكرنا كيف أنها مثل كل الأصوات الحلقية الأخرى، إذا ما وقعت قبل y ،e ،l تحولت إلى c.

أما تحول بعض الأصوات الأخرى في الكلمات السورية إلى k عند الإغريق فوارد وإليكم بعض الأمثلة:

1 - التحول من ق k إلى ك k ، مثال: «قيط» kit في القاموس السرياني تعني الحوت العظيم، صارت kit ومن اليونان انتقلت إلى باقي اللغات الأوروبية.

«قول» و«قولو» kol في السريانية تعني قول وهتاف ونداء وصراخ وصوت، وصارت kol ومنها جاءت كلمة cole بمعنى صوت وكلمة call بمعنى نداء بالإنكليزية.

ومن الفعل السرياني «فرق» frek بمعنى فرق، فتق، كسر، شقّ جاءت الكلمة -frec tion بمعنى كسر، ومن الفعل السرياني «لقط» lket و«القط» elekt ويعني اختار، انتخب، لقط، جنى، قطف، جاء الفعل elect بمعنى انتخب وكل مشتقاته.

ومن الكلمة السريانية «فلقا» fulka و«فولقان» fulkan بمعنى الفلق، البركان، جاءت كلمة فولكان vulcan بمعنى البركان.

ومن الكلمة السريانية «قلقا» kalka السريانية التي تعني: حصاة، صفاة، وذعة، صدفة، والتي بها بدأوا عمليات العد والحساب ـ كما يؤكد ول ديورانت ـ جاء الفعل calculate بمعنى عدّ وحسب...

ومن الكلمة السريانية «قوصت» kust التي تعني قصة، خصلة شعر، جمّة جاءت kust الروسية بالمعنى نفسه.

ومن «قط» katt بمعنى قطع جاءت cut، ومن «قط» و«قاطو» kato بمعنى هر، قط، جاءت cat.

2 - التحول من ع إلى ك وهذا نادر، مثال: «يدوعوت» eduut في القاموس السرياني تعني: علم وعقل وتهذيب ومعرفة، وهي من الفعل «يدوعيت» eduet بمعنى علّم وهذّب وثقّف وصارت في اللغات الأوروبية educate.

3 - ولا بد من التنويه هنا أن السوريين كانوا يلفظون الكاف خاء في كثير من الكلمات، وهكذا استمرت في بلاد الإغريق وفي اللغات التي نقلت عن الإغريقية مباشرة كالسلافية.

أمثلة: «كيتون» kiton ثوب القطن أو الكتان كانوا يلفظونه أحياناً «خيتون».

«اسكيلو» eskilo أي المعلم بالسريانية وهو مؤلف المسرحيات الشهير، صار «اسخيلوس». ميكائيل صار ميخائيل.

«كميليون» kamilion وتعني بالسريانية الحرباء، الحرذون، صارت «خميليون» وهكذا انتقلت إلى الروسية khameleon.

«أركو» و«أركو» arkon وتعني بالسريانية: الزعيم، الرئيس، الشريف، وكانت تلفظ أحياناً «أرخون».

• **حرف العين:**

سقط نهائياً من الكلام، إلا أن يتحول إلى v أو همزة، خاصة في أول الكلمات، وقد مررنا على ذلك. وفيما يلي مثال يبين تحولات العين من سوريا إلى اليونان إلى إيطاليا فاللغات الأوروبية الحديثة: إن كلمة «الغار» هي «لعار» laar بالسريانية لأن العين فيها تحلّ محلّ الغين وتعني الخصب وشجرة الغار والمجد، وصارت في بلاد الإغريق «لار» وفي إيطاليا laur (لاور) ثم لافر lavr، وذهبت الأولى إلى الإنكليزية والفرنسية بكل اشتقاقاتها lauric, laurel وإلى الروسية ذهبت بصيغتها الشمالية الثانية Lavr, Lavrovi أي غـــاري ومن الغار، نسبة إليه.

• **حرف الفاء ph:**

1 - هناك إبدال بين الفاء ph والباء b بالسريانية نفسها مثل «زبتا» و«زفتا» بمعنى زفت. هذا الإبدال كان له تجلياته في بلدان الانتشار. مثال: في القاموس السرياني «فيو» pheo تعني جميل وبهيّ ولائق وجدير، مؤنثه «فيا» phea و«فيوت» pheot: جمال، حسن، بهاء وجمعها «فيوتي» pheoty وهي التي رحلت غرباً مع السوريين وصارت بالإنكليزية «بيوتي» beauty والفعل السرياني هو «فيي» phee أي جمّل، حسّن.

2 - وقد تبقى الفاء على حالها. مثال: فيجورا figura وتعني بالسريانية: جسم، جسد، بدن، حقيقة ضد خيال. فيجورونوت: جسدية، بشرية، سر التجسّد. وهي من الفعل «فجر» fger أي جسّم، جسّد، شخّص. ومن الكلمة جاءت figure الإنكليزية والفرنسية، hfigura الروسية، و«هيبيغروت» hepegrot أي التشخيص، التمثيل، التجسيد.

3 – كثيراً ما كان السوريون يلفظون الفاء p وهكذا انتقلت معهم إلى بلدان الانتشار فكانت الأساس لوجود صوت p في اللغات الأوروبية. امثلة: الاسم «سفيرو» sphiro وتعني بالسريانية الفصيح، البليغ، الحاذق، الماهر، الأريب، وتلفظ spiro وهو اسم الإمبراطور الفينيقي الليبي زوج الإمبراطورة السورية الحمصية جوليا دومنا أم الإمبراطور كركلا.

«فرديس» pharadis تعني جنة، فردوس، وهي من الفعل السرياني «فردس» phardes بمعنى زرع، جنة، روضة، بستاناً وصارت paradise.

«فاريش» و«فارشو» pharesh أي الفارس، الخيال، الشريف، الفاضل، الفاخر، المحبوب، وصارت parish وهو اسم الجد الأكبر للفرس.

وسأورد هنا مثالاً شاملاً:

إن الفعل السرياني «فصا» phsa يعني: فصل، فرق، قسم، «فيصو» phiso و«فيصوت» phisot: فصل، قطعة، حصة، جزء. فمنه جاءت «افصو» التي هي مدينة إفسوس ephsos أي الحصة (نتيجة الاقتسام بالقرعة)، كما جاءت كلمة «ايفيصوت» episode أي فصل من الكتاب، كما جاءت كلمة piece الإنكليزية بمعنى: قطعة، جزء.

ومن الفعل السرياني «فصي» phse بمعنى خلّص وأنقذ وسلّم، جاءت كلمة peace بمعنى سلام، سلامة، نجاة، و«الفصيي» alphsis أي الأرباب المخلّصين. واللقب الملكي «فاصي إيل» phasil أي المنجي هو الله.

حرف الصاد «صود» ويعني الصيد، الصنارة ويتحول في كل الأحوال إلى سين s. أمثلة:

«صيراكوزا» المدينة التي أسسها قدامى السوريين في شرق صقلّية وتعني صانعي الجرار. وهي من أقدم المدن وأقواها وأغناها في بلدان الانتشار. صارت سيراكوزا serakoza.

«صمر» samar وتعني شدة الحرّ والصيف، وصارت إلى الكلمة الإنكليزية summer أي الصيف، وهي من القاموس السرياني من الفعل «صمر» ويعني اشتدّ حرّ النهار وسكنت الريح وركد الماء واحتبس وجهر البصر من شدة الوهج.

وكالعادة نجد أن الفعل العربي يحيط بالشيء شكلاً ومضموناً.

• **حرف القاف:**

سبق أن رأينا تحولاته إلى k، q وفي إيطاليا إلى c، j كما أنه تحول إلى k ثم إلى خ kh. قوري kuri وتعني بالسريانية: شماس في المعبد، قارئ، مرتّل، مقدّس... وصارت «كوري» kuri ثم «خوري».

• **حرف الشين sh:**

ألغي وجوده نهائياً كصوت أصلي في الأبجدية، وما ظهر منه في اللغات الأوروبية فيما بعد كالفرنسية والإنكليزية والإيطالية، إنما جاء من تحولات بعض الأصوات في الكلمات السريانية، مثل ميكائيل ـ ميشيل.

• **حرف التاء t:**

تحدثنا سابقاً عن التاء للتعريف وعن التاء المتحولة عن الطاء t وبقي أن نتحدث عن ابدالاتها في السريانية نفسها، وأثر ذلك في بلدان الانتشار.

- إن من الشائع في السريانية كما في الفصحى الإبدال بين التاء t والثاء th، ثم بين هذه وبين السين s والشين sh وبخاصة في اللغة الدارجة، إذ كان السوريون يكتبون ما يقولون في حياتهم اليومية وما يلفظون. مثال: إن كلمة ثعلب هي بالسريانية «سعلب» وأيضاً «تعلب» و«شعلب» وإن كلمة «ثلاث» هي «ثلوث» و«سلوس» و«شلوش» و«تلوت».
- وربما من المفيد هنا أن نشير إلى أن السوريين كانوا في كثير من الأحيان يلفظون الدال ذالاً مثل «ديبو ـ ذيبو» dibo – thibo بمعنى ذئب، كما كانوا يلفظون التاء ثاء وبخاصة تاء التأنيث مثل «طليتا talita» وتعني الطَّلية، الصغيرة، الفتيّة من كل حيوان، الذئبة، الغزالة، وكانوا يلفظونها «طليثا talitha». وكثيراً ما كانت تتحول هذه الثاء في آخر الكلمة إلى شين مثل «روديو rodeo» و«روداث rodath» بمعنى ترويض وصارت الأخيرة «روداش rodash». ثم ما لبثت أن تحولت إلى جيم عادية لقربها باللفظ من الشين وصارت في اللغات الأوروبية rodage ومثلها مكياج ومكساج التي هي من «مزج» نتيجة الإبدال بالقلب... إلخ.

• ثم إن صيغة الجمع بالسريانية ذهبت كما هي مع السوريين إلى بلاد المورة لتبقى في الإغريقية مثال: «أثينايو athenaeo» وتعني بالسريانية الأثيني وجمعها أثيناي athenae أي الأثينيين. «معنياثا maaneatha» وتعني المغنية، المنشدة، وجمعها معنياثي manaeathi أي المغنيات، المنشدات. ذاك في المورة. أما في الإيطالية أو اللاتينية التي ليس فيها ثاء فقد تحولت كل ث th إلى d فصارت معنيادي maaneadi ومثلها الياثا iliatha صارت ileada ... إلخ.

نقطة أخيرة لا بد من الإشارة إليها هي أن السوريين بوجه خاص كانت لهم طريقتهم الخاصة وما تزال إلى اليوم في لفظ الأسماء المؤنثة بأن يجعلوا الياء علامة للتأنيث بدلاً من التاء مثل فاطمي fatmi بدلاً من فاطمة fatmat، خديجي khadiji بدلاً من خديجة khadijat وذلك باستثناء الأسماء التي تنتهي بصوت حلقي قبل تاء التأنيث. مثل: رفيقة rafika لا يقولون rafiki... إن هذه الظاهرة سوف تجدها محمولة معهم في بلدان الانتشار.
تيسفي tesfi، كوروني koroni، تيسفوني tesphoni، طهيمي (تيمي temi)... إلخ.

إن هذا الشرح الموجز لما طرأ على اللغة السورية (السريانية) في بلدان انتشار السوريين بعامة، وفي بلاد المورة بخاصة، سوف يكشف لنا حقيقة السكان الحضاريين وهويتهم من خلال لغتهم. وإن نظرة واحدة إلى الأبجدية اليونانية اليوم سوف توضح لنا مواضع التغيير والتحوير في أصوات السريانية عبر العصور، فقد أسقطت أصوات وحلت مكانها أصوات أخرى لا تغني عنها شيئاً في التعبير. لقد سقطت العين وحلت محلها o قصيرة أو ضمّة وعدوها أوميكرون، وأضافوا o خفيفة ودعوها أوبسيلون وأضافوا o طويلة ودعوها أوميغا. وأضافوا تركيبات أصوات كل منها مؤلف من صوتين بسيطين أو أكثر مثل: «اكسي» وتعادل x الإنكليزية المؤلفة من صوتين هما s، k وبالتالي لا داعي له. و«بسي» psi المركبة من ثلاثة أصوات... وهكذا. إن هذا يعبر عن جهل بمفهوم الصوت كعنصر أولي بسيط في تركيب اللغة كما يعبر عن إفقار اللغة التي فقدت أصواتاً أساسية دون أن تعوضها بأي صوت آخر بديل. بعد هذا كله صار بإمكاننا الآن أن ننتقل بخطى ثابتة وواثقة إلى «السر المكنون» الآخر الذي أودعه السوريون في لغتهم، ليبقى شاهداً لهم أبد الدهر على أن ذلك التراث الذي صار يدعى إغريقياً إنما هو تراثهم وحدهم ولو بقي مغرّباً عن ناسه وهويته هذه العشرات الطويلة من القرون.

السوريون و«سرّهم المكنون»:
المفتاح الثاني: الألقاب وأسماء المواقع
أ ـ الألقاب:

أشرنا فيما سبق إلى أن السر الثاني الذي أودعه السوريون في التراث الثقافي الذي صار يدعى (إغريقياً) هو في الأسماء أو الألقاب التي أطلقوها على الأشخاص أو المواقع فتلبسها لبساً، إذ تعبر بدقة عن شكلها أو مضمونها أو عن الاثنين معاً، سلباً أو إيجاباً، بكلمة واحدة، كاشفين بذلك عن عبقرية لغتهم السريانية من جانب، وعبقريتهم هم أنفسهم في اختيار اللقب المشتق من فعل واحد يحكي القصة كاملةً من جانبٍ آخر.

إن هيرودوت السوري الكيليكي كان مدركاً لهذه الحقيقة وعارفاً بالسر، وهو قد أشار إليه ولّمح، ولكن أحداً في الغرب لم يكن يريد أن ينتبه إلى الإشارة بل ولن يقدر، حتى لو أراد، أن يفعل شيئاً بعد أن جرى تشويه تلك الأسماء بعد أن نقلت إلى اللاتينية، وعن طريقها تعرف العالم إلى «تراث الإغريق». لقد غطى السوريون بتلك الألقاب جميع أسماء المناطق الجغرافية، والملوك، والحكام، وأبطال القصص، والأساطير، والمسرحيات، والملاحم، التي هي قصصهم هم وأساطيرهم، صاغوها بلغتهم وتناقلتها عنهم الأجيال، فضاعت ملامح الأصوات في الكلمات وغابت معها ملامح الأشخاص، وصار الناس يسمّون بتلك الأسماء الموروثة منذ القدم إلى اليوم دون أن يعرفوا لها معنى. وكانت النتيجة ـ علاوة على التزوير الفادح في تاريخ البشر ككل ـ أن أحداً في الغرب كله اليوم لا يعرف معنى لاسمه، إن كان هذا الاسم موروثاً ومتداولاً، إذا لم يرجع إلى أصوله السريانية. إن جول وجولييت وجوليا وجوليانا، وكوليا، وكولييت، وأوديت، وإيليا، وميرفت، وما تيلدا، وروزا، وتيد، وداريل، وجورج وجورجيت وجورجينا، وميتران، وديستان، وغيرها، ليس لها أي معنى بأية لغة في العالم بغير السريانية. وما ينطبق على «الإغريق» ينطبق على «الفرس» أيضاً.

يقول هيرودوت مشيراً إلى هذه الحقيقة عينها:

«ومن الغريب عندهم أيضاً وهو مجهول عندهم ولكنه لا يخفى عنا أن أسماءهم مأخوذة عن هيئة الجسم أو عن الأخلاق وتنتهي بالحرف المدعو (سين) عند الدوريين و(سيغما) عند اليونانيين. وإذا تبصرت حق التبصر ترى أن كل اسم عند الفرس ينتهي على منوال واحد دون استثناء»[1].

ولا بد هنا من أن نذكر بأن كل مصادر التاريخ الإغريقي هي مصادر أدبية باستثناء تاريخ هيرودوت الذي يتحدث عن حقبة واحدة هي حقبة الحرب مع الفرس، بينما كل المصادر الأخرى التي كتبها المؤرخون السوريون المعاصرون لتلك الحقب جرى إتلافها أو تغييبها. ونذكر منها على سبيل المثال:

- كتاب في أصل اليونان وأنسابهم للمؤرخ السوري الكيليكي هيكاتو وقد فقد.
- كتاب دورة الأرض لهيكاتو نفسه الذي قسم فيه الأرض إلى قارات وجعل مصر ضمن آسيا وقد فقد.
- كتاب التاريخ لأفريقانو، الرحالة والجغرافي السوري الليبي الذي جعله تاريخاً للعالم منذ بدء الخليقة وحتى عام 122 م، جرياً على التقليد العربي في كتابة التاريخ، ضاع إلا نبذاً منه مضمنة في تاريخ أوزيب.
- وكتب المؤرخ قدموس السوري تاريخ مدينته «ميليتا» في الشمال السوري، وقد فقد.
- وكتب أكسنتو السوري تاريخ «مدن الاتحاد» أو «المتحدين» (وبالسريانية «لحيدي» ثم ليدي) وقد فقد أيضاً. وكانوا يطلقون على أبحاثهم التاريخية اسم «أسطورا»[2].
- كان النبلاء السوريون الذين نزحوا إلى «إسبارطة» يحملون معهم كتباً يسمونها «توني دورو»[3] أي «أخبار السلف» فقدت أيضاً. والكلمتان سريانيتان إذ أن «توني» جمع تونو وتعني أخبار وروايات وذخائر ومؤونة وخزائن و«دورو» تعني الذرية والسلالة والنسل والأصل والسلف والعشيرة.

---

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول، 139، ص76.

(2) عيّاد، المرجع السابق، ص149.

(3) فاستيل دي كولانج، المرجع السابق، ص254.

- أما تاريخ هيرودوت وهو أيضاً سوري من كيليكيا فقد أخضع لعمليات تحقيق كثيرة خرج بنتيجتها مزوراً في معظمه.

لهذا كله فإننا سوف نعتمد في كشفنا عن الأسرار اللغوية المكنونة النصوص المعتمدة المتبقية في تاريخ هيرودوت وفي المصادر الأدبية بدءاً من الأسطورة.

لقد كنا فصّلنا في الحديث عن «الأسطورة» كمصدر للتاريخ في كتابنا الثالث[1]، ونظراً لأن ما دعي بـ«الأساطير الإغريقية» تؤلف ثلاثة أرباع المصادر التي اعتمدوا عليها في كتابة «تاريخ الإغريق» فإننا نجد من المفيد هنا أيضاً أن نعيد بعضاً مما شرحناه قبلاً عن الأسطورة.

الأسطورة والتاريخ:

إن أول كتاب وضعه السوريون في التاريخ هو الأسطورة. والكلمة في القاموس السرياني تعني حرفياً: الكتاب المسطور، المدوّن في سطور... وهي على وزن «أنشودة» و«أطروحة» وهي من الفعل «سطر» ceter أي كتب في سطور، سطر، كتب، زخرف، قسم، زين، رتب. و«سطرا» cetera أي إلى آخر ما هنالك من سطور، إلى آخره.

وهذه الكلمة هي التي ذهبت مع السوريين إلى المورة وإيطاليا، ثم إلى اللغات الأوروبية الحديثة فصارت etcetera أي إلى آخره. إذ أن واو العطف صارت etّ باللاتينية وبقيت الكلمة cetera كما هي إلى اليوم.

أما كلمة «أسطورا» و«أسطورة» فقد صارت عند الإغريق istora وفي الإنكليزية history وفي الفرنسية l'histoire وفي الروسية istoria لتعني جميعاً كتاب التاريخ تحديداً ثم التاريخ مطلقاً.

ولا بد لنا من التمييز بين «الأسطورة» والخرافة سيما وقد درج الغرب على الخلط فيما بينهما طيلة العصور الماضية.

إن الأسطورة سجل حقيقي لأحداث تاريخية معينة خضعت لمحسّنات في اللغة والأسلوب والخيال الشاعري مع الاحتفاظ الأكيد بالمادة التاريخية المراد تدوينها، وتخضع للبحث والتمحيص قبل أن تعتمد، وتحفظ في المعابد أو تصور على الجدران كجزء أساسي من التراث، ينهض بأدوار تربوية وتعليمية معينة.

(1) راجع كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1 - المركز، فصل الأسطورة كمصدر للتاريخ.

أما الخرافة، فهي حكاية شعبية من صنع الخيال تتفاوت في مستوياتها الذوقية والفكرية من بيئة متخلفة إلى أخرى متمدنة، يتناقلها الناس شفوياً عبر الأجيال، فيضيفون عليها أو ينقصون منها إلى أن تخرج في النهاية منتوجاً شعبياً جماعياً شفوياً، يحمل نكهة الجماعة وذوقها عبر جيل واحد ثم عبر أجيال متعاقبة.

إن الأسطورة نسيج سداه المادة التاريخية ولحمته المحسّنات البلاغية من استعارات وغيرها، مما يجعلها سهلة الحفظ، قريبة من الذوق العام، مشوقة، تحكي أو تنشد مصحوبة بالعزف على الربابة في معظم الأحيان. وهذا ما جعلها تبقى حية، خالدة، محفوظة في الذاكرة من جيل إلى جيل عبر كل العصور إلى أن جرى تدوينها بعد اختراع الكتابة.

إن الاستعارة تلعب في صياغة لغة الأسطورة دوراً مهماً سواء أكانت مادتها التاريخية طبيعية أم من صنع البشر. إن البركان، على سبيل المثال «فلقان vulkan » الذي يندفع بعدة فوهات لامعة قاذفة باللهب وبالدخان وبالشرر، صوّر في هيئة وحش خرافي مثل تنين أو ثعبان هائل له عشرات العيون اللامعة والأشداق التي ينفث منها النار والدخان، ثم تسيل ملتوية (كالحية المتلوية)، ثم ما أن يتوقف عن الزمجرة والقذف من فوق حتى يأخذ «يئن» و«ينقّ» و«يشهق» في بطن الأرض تحت الجبل فعبروا عنه في هذه الحالة بـ «أنين الجحيم» (أنقي لادو ـ أنكيلادوس).

إن «أنقي» في القاموس السرياني تعني أنّان، نقّاق، شهّاق، معذّب... و«ادو» هي في الأصل السرياني «عدي» أي الهاوية والجب والعمق والجحيم وهي التي صارت «هاديس» hadis بعد أن أضيفت عليها هاء التعريف والنهاية «سين» وسقطت العين. ثم ما لبث أن جرى تشخيصه في بلاد المورة وأسيء فهمه.

وإن أسطورة اختطاف النبيل السوري «زيو» للأميرة أوروبا ما لبثت أن تحولت إلى فعل «رب الأرباب رب الخصب الذي رمزه الثور»، فتحولت بذلك إلى خرافة نتيجة لتخلف السكان الأصليين في الغرب الذين خلطوا بين «الرب» بمعنى السيد، المعلم، وبين الإله، والأمثلة أكثر من أن تحصى.

إن هذه الظاهرة هي التي جعلت الكاتب السوري فيلون الجبيلي (القرن الأول الميلادي) يكتب قائلاً: «لقد ألفت آذاننا منذ سنواتنا الباكرة سماع مروياتهم الكاذبة، ونفوسنا التي تشربت هذه الأباطيل منذ قرون تحفظ هذه الخرافات المصطنعة كأنها كنز ثمين... وقد جاء الزمن فقوّى تأليفهم وجعل هذا التزوير قوي الركائز تقريباً إلى درجة تظهر معها الحقيقة وكأنها هذيان، وتظهر المرويات الصبيانية مكان الحقيقة»[1].

وفي مكان آخر يقول حول حقيقة هذه التسميات ـ الاستعارات:

«ولا نقوم الآن بهذا التمييز* بدون أساس، بل لإقامة المبدأ الحقيقي الذي بناء عليه يتم احتقار كل هذه الأسماء المستعارة التي صارت مستعملة للأشياء. وهذا ما جهله الإغريق وأخذوه على وجه آخر بعد أن ضللتهم أخطاء الترجمة»[2].

أما نحن فسننتقل فوراً إلى اللغة السريانية و«سرّها المكنون» في ألقاب أبطال الأساطير التي صارت «لقيطة» في الغرب ثم نسبوها لأبوين غريبين.

أ ـ الألقاب:

ألقاب أبطال الأساطير:

المثال الأول: «سالماكيس وهرموفروديتوس»:

مختصر القصة عن «أوفيد»:

هرموفروديتوس شاب في غاية الجمال، ابن أفروديت من هرمز، «فكانت قسماته تجمع بين ملامح أمه وأبيه كما كان اسمه يجمع بين اسميهما وهو هرمافروديتوس...

أما سالماكيس... فلم تضف إلى هواياتها جولات الصيد الشاقة، وبقيت لا عمل لها غير الاستحمام في بركتها وتصفيف شعرها... محملقة في الماء الصافي تتأمل على صفحته مفاتن جمالها...

---

(1) نظرية التكوين الفينيقية، المرجع السابق، ص100.

* أي التمييز بين الاستعارات في الأصل وما صار يفهم منها فيما بعد.

(2) المرجع نفسه، ص52.

وحدث ذات مرة أن وقع بصرها على الشاب هرمافروديتوس، وما أسرع ما أحست باللهفة إلى الاستئثار به. ورغم شوقها وتعجلها في الاقتراب منه فقد تباطأت في أخذ زينتها وإصلاح هندامها لتتجلى له في أبهى صورة». ثم تحدثت إليه قائلة: «ما أجدرك أيها الصبي الجميل بأن تعدّ إلهاً... إن كانت لك خطيبة دعني أنعم بحبك سراً، وإن لم تكن لك خطيبة فلست أتمنى سوى أن أكون عروسك التي تشاطرك الحياة إلى الأبد». «ولم تكد الحورية تفرغ من حديثها حتى تورد وجه الفتى الذي لم يكن قد عرف الحب بعد... وألحت الحورية لتقبلّه ولو قبلات أخوية وحاولت لفّ ذراعيها حول عنقه العاجي فصاح قائلاً: كفّي عن هذا وإلا مضيت بعيداً تاركاً هذه المنطقة ببركتها. فسرت في جسدها رعدة وقالت له: سأبتعد عنك ولن أتطفل عليك بعد أيها الغريب. وأدارت له ظهرها متظاهرة بعزمها على الرحيل، بينما كانت تخطو وعيناها تتلفتان إليه، واطمأن الفتى حين أحس أنه وحده واقترب من البركة وأغراه الماء فخلع ملابسه... وقفز إلى الماء. وما أن فعل حتى ذهب جماله العاري بلب سالماكيس... خلعت هي الأخرى ثيابها ملقية بها هنا وهناك وقفزت وراءه في البركة صائحة: لقد انتصرت وظفرت بك، وأمسكت بالفتى الذي أخذ يقاومها، غير أنها أفلحت في تقبيله عنوة... وقاوم الفتى الحورية لا يريد أن يمنحها المتعة التي كانت تتوق إليها، غير أنها أحكمت قبضتها وطوّقته بجسدها كله ملتصقةً به قائلةً: قاوم ما شئت، لكنك لن تفلت مني أيها الوقح، ولتمنحني الآلهة أمنيتي، فلا يأتي يوم ينفصل فيه هذا الغلام عني أو أنفصل عنه، واستجابت الآلهة وحققت لها أمنيتها واتحد جسداهما المتلاصقان».

أين السوريون وأين «سرّهم» في هذه القصة، أو بالأحرى في لقب كل من الفتى والحورية؟

إن لقب الفتى «هرمافروديتو» واضح وقد جمع الجمال كله من أبويه. أما «سالماكيس» فهل في العالم كله من يقدر على أن يستنبط منه المعنى الذي أشار إليه هيرودوت وأنه «مأخوذ من هيئة الجسم أو الأخلاق»؟

نحن، أولاً، سوف نسقط «السين» التي صاروا يضيفونها اعتباطاً إلى كل الأسماء كما نوّه بذلك هيرودوت. ثم إننا سوف نعيد «سالماكي» إلى أصلها السوري (السرياني) وهو «صاليماكي» وسوف نرى كيف أن هاتين الكلمتين جمعتا كل عناصر الحكاية:

البركة، نقاوة الماء، الميل والانجذاب في الهوى خاصة، التوسل، الإثارة، الاختباء والكمون، الرصد، المصيدة أو الشرك، الانحدار والنزول، التذلل، الانتصار، الالتصاق، المواقعة سفاحاً.

فلنقرأ الآن هاتين الكلمتين في القاموس السرياني «صالي» و«ماكي»:

إن «صليا» و«صلاي» تعني: بركة، غدير، مجتمع الماء، مصيدة، كمون، رصد، مراقبة، ميل، انجذاب، انحراف في الهوى خاصة، صلاة وتضرع، توسل. وصل ـ صلالا: نقاوة، وهي صفة مياه البركة كما وردت.

أما «ماكي» فهي من الفعل «مك» ويعني: ذلّ، شعر بالنقص والدونية، هبط وانحدر، نزل والتصق، دبق، و«مكك»: أخضع وغلب، واقع سفاحاً، قهر وأذلّ.

إن هذا الفعل هو نفسه الذي يحكي لنا قصة «آدم» و«حواء» في الجنة بعد أن انجذبا إلى الفعل الجنسي في الجنة، فذلاً وأهبطا منها إلى مكة التي تعني: السفلى، الانحدار، الهبطة، الوضيعة (نسبة إلى الجنة).

ومن الكلمة السورية (السريانية الموغلة في القدم) جاءت كلمة ميك meek الإنكليزية بمعنى وضيع، سافل، حقير، و moke الفرنسية. وإن هذا يذكرنا باللقب الذي عرفت به زوجة البطل هقتور بن فريام الطروادي، بعد حرب طروادة، ولم تعرف بغيره، وهو «أندرو ماكي» ويعني: العزيزة الذليلة، العزيزة التي ذلّت.

وهذا بدوره يذكرنا بالمثل العربي «ارحموا عزيز قومٍ ذلّ» لأنه ينطبق عليها فعلاً.

إن «أنديرا» يعني: الغالية، العزيزة، الحبيبة، كما يعني النذيرة، المنذورة، و«ماك» هي «ماكي» في الأصل أي الذليلة، المقهورة، التي أذلّت.

و«ملك» mak أيضاً يعني فرش. «مكيكو»: مفروش، مفترش، «مكيكوت»: بسط، فرش، افتراش، «موكيت» و«موكيتا»: فرشة، بساط، مفروش، ومن هنا كانت كلمة «موكيت» المستخدمة للبسط التي تفرش وتلصق بأرض البيت، لأن من جملة معاني «ملك» التصق، دبق كما مرّ.

أما «هقتور» فيعني: المتكبر، المفتخر، العزيز، ومؤنثه «قترا» و«القترا» وهما من أسماء عشتار.

وسنأخذ الآن أسطورة أخرى، قصة أخرى، معكوسة في الاتجاه: أي أن الرجل هنا هو الكامن وهو المغتصب.

المثال الثاني: «أريثوزا وألفويو»:

تقول القصة الأسطورة التي تروى على لسان «أريتوزا» نفسها:

«...كنت عائدة من الغابة مرهقة وسط قيظ ضاعف من وطأة الاجهاد الذي نال مني. فأويت إلى جدول هادئ، كدت لصفاء مياهه أن أعدّ حبات الحصى التي بقاعه. وتظلل ضفافه المغمورة أشجار الصفصاف الفضية التي ترتوي من مياهه. واقتربت من الجدول، وغمست قدمي في مجراه ثم ساقيّ حتى ركبتيّ. ولم أقنع بذلك، بل خلعت ثيابي وعلقتها على شجرة صفصاف وألقيت بجسدي العاري في الماء... وبينما كنت أسبح فيه دائرة، ملتوية... أحسست بزمجرة وسط البركة القت الرعب في نفسي، فقفزت إلى أقرب مكان على الشاطئ وعندئذ صاح «ألفويو»: إلى أين تسرعين بالهرب؟ وقد هربت عارية إذ كانت ثيابي معلقة على الضفة الأخرى... ولقد ضاعف عربي من إغوائه، فأصرّ على اغتصابي، وكنت أعدو فيسرع في العدو ورائي وكأني حمامة تنطلق مرتجفة بين يدي صقر يقترب منها رويداً رويداً، ومع ذلك ظللت أعدو وأنا أرتعد، وكانت الشمس ورائي فرايت ظلاً طويلاً يمتد أمام قدميّ فحسبت الخوف هو الذي صوّر لي ذلك... لكنه كان يلهث بشدة جعلت أنفاسه تحرّك خصلات شعري، حتى إذا أدركني التعب ناديت صائحة: «ادركيني بعونك يا ديانا»، فغلفتني بغمامة كثيفة ألقت بها عليّ... وتوقف حائراً لا يدري أين اختفيت وصاح بي منادياً... يا للرعدة التي اعترتني ساعتها!... وانبثق العرق البادر يغطي أطرافي ويكسو جسدي كله بقطرات لازوردية... فنزع عنه صورته البشرية، وعاد إلى صورته السائلة «نهر الفويو» لتمتزج مياهه بقطراتي التي صارت نبعاً تحت أشجار الصفصاف الوارفة».

ذاكم هو موجز قصة «أريتوزا»، وقد تعمّدنا أن ننقل الكلام الذي جاء على لسانها بحرفيته.

إن وحدة النسيج بين كلمات القصة وبين الاسم «أريتوزا» تعكس عبقرية اللغة وفي صياغة القصة في آنٍ معاً.

ونحن الآن نسأل: هل في الاسم «أريتوزا» ما يوحي بأحداث قصتها بأية لغة من لغات هذا العالم؟ والجواب قطعاً: لا. لنرجعه إذن إلى أصله السرياني ولنتأمل:

إن الاسم «أريتوزا» هو في الأصل السوري السرياني مؤلف من كلمتين هما «عريت عوزا». ولو نظرنا في القاموس السرياني لوجدنا أن «عريت» أي العارية هي من الفعل «عري» ويعني: عري، تعرّى، نزع الثياب، حاصر، كبس، أبى، منع، صدّ، ضعف، ارتعد، اعتري، أخذته حمى باردة، تجلّل بالغيوم... شيء لا يصدّق!

إن هذا كله هو ما حدث لـ «أريتوزا» جملةً وتفصيلاً وقد تضمنه فعل سرياني واحد. ومن هذا الفعل جاءت «عريت» الصفة التي تحمل كل المعاني التي سردناها، أما «عوزا» فتعني: العزيزة، المنيعة، الصعبة، العسرة، الشموس، الرفّاسة، التي ترفض الفحل... ومن الواضح أن حرف العين سقط من الكلمتين وتحول إلى همزة، وإن «أرثوز» في لواء اسكندرونة في سوريا، وعرطوز قرب دمشق ليستا إلا تجسيداً لتلك القصة السورية القديمة، والطريف أن «عريت areet» في السريانية، والعارية والعرياط والعرياطة في الفصحى تعني العارية، المتجردة، وتقال للمرأة كما تقال للفرس.

أما «ألفويو» اسم النهر فهو من الكلمة السريانية «حلفو» halpho وتعني: شجر الحلفا، الصفصاف، كما تعني الظالم، المغتصب. إن هذا هو ما ينطبق على اسم النهر «حلفويو» أي نهر الصفصاف أو الحلفا لأنه يظلله الصفصاف الفضي ويرتوي من مياهه، ثم حينما تمثل في صورة رجل يطارد «أريتوزا» ليغتصبها صار «حلفويو» نسبة إلى «حلفو» بالمعنى الآخر، أي الظالم المغتصب. وحينما «نزع عنه صورته البشرية وعاد إلى صورته السائلة» نهر «الفويو» لتمتزج مياهه «بقطراتي التي صارت نبعاً تحت أشجار الصفصاف الوارفة» جسّد المعنى الآخر وهو: التحول، التقلّب. فهل اخترعت القصة لتنطبق على اللغة أم اخترعت اللغة لتنطبق على القصة!

إنه لولا كون السريانية أقدم لغة على الأرض، وهي لغة آدم وحواء كما يؤكد تراثنا العربي أقدم تراث على الأرض، وما تأكد من خلال المثل السابق حول «مك» و«مكة» وارتباطها بآدم أيضاً، لتملكتنا الحيرة.

وعلى أية حال، وفي كل الأحوال، إن الثابت الآن هو أن تلك القصص والأساطير هي جزء من التراث السوري الذي طبّق الكرة الأرضية لعدة آلاف من السنين قبل أن يعرف العالم كله شيئاً اسمه اللغة والتأليف والكتابة ونظم الشعر.

المثال الثالث: من تاريخ «هيرودوت»:

يسرد لنا هيرودوت في تاريخه قصة «كريسوس» ملك «سرديس» مع ضيفه الطارئ «أدرستوس». ونحن هنا نوجز الحكاية، مبقين على حرفية المواضع التي أسهمت في صياغة لقب كل من الملك وضيفه.

يقول هيرودوت، «إنه بعد أن سيطر كريسوس على كل أغارقة آسيا وطمح إلى إنشاء أسطول الاحتلال الجزر، صارت مدينة سرديس ذات رونق وفلاح عظيم حتى أن جميع الحكماء الذين كانوا حينئذ في أريقيا ذهبوا إليها من تلقاء أنفسهم، وكان في جملتهم صولون، الفيلسوف الذي سنّ قانوناً للشريعة إجابةً لسؤال أهل أثينا... ودخل بلاط الملك كريسوس، فأحسن استقباله وأكرم وفادته ومثواه وأنزله في نفس قصره.

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام صدر أمر الملك بأن يروه محل الخزينة ويطلعوه على جميع الكنوز، فبعد أن شاهد صولون ما شاهد وحقق النظر فيه، أراد كريسوس أن يعلم من هو الرجل ومن أين أتى. فقال له أيها الغريب من تكون ومن أي بلد أتيت. فأجابه قائلاً أيها الملك إني أنا ابن غورديوس وحفيد فيداس واسمي أدرستوس. قتلت أخي خطأً فطردني أبي وسلبني كل نعمة فهرعت إليك لائذاً بك، فقال له كريسوس لقد أخرجت من بيت أنا أحببته فأنت عند أعز أصحابك ولا يعوزك شيء في بلاطي ما دمت فيه، فاصبر على مصابك. ثم قال له الملك: «إن أخبار حكمتك وسفرك ذاعت حتى بلغت إلينا... على أنني أود لو أعلم منك من هو الإنسان الذي رأيته أسعد رجل». قلت وقد سأله ذلك لأنه كان يعتقد نفسه أسعد البشر في الدنيا».

ويذكر هيرودوت أن صولون أجاب مرة أولى وثانية دون أن يسمّي كريسوس. فسخط «كريسوس» الملك وقال: «...ألعلك تعاميت عن سعادتي حتى أنك لم تحسبني نظير هذين الرجلين وهما من عامة الناس». فأجاب صولون: «مولاي، أنت سألتني عمّن رأيت في هذه الدنيا أوفر سعادة، وهل يمكنني أن أخبرك بخلاف الواقع بما أعرفه، وأنا عالم أن الآلهة تغار من توفيق البشر، فيسرها نكد معيشتهم، لأنه كلما طالت حياة الإنسان تكثر عليه النكبات فينقلب من حال إلى حال، وفي كل ذلك يعاني من الجهد والكدّ ما يعاني... فالذي أراه أيها الملك أن من ذكرت هو الخليق بأن يدعى سعيداً. فبقي أن ننظر إلى مصير كل شيء، ونتبصر في العواقب فقد طالما ينال بعض الناس سعادة ثم يسلبها».

«أورد صولون كل هذا المقال ولم يكن في قوله شيء يسرّ كريوس أو يبدي له الاحترام. فطرد من البلاط وحسب جافي الطباع إذ لم يكن يراعي قرائن الأحوال بل أراد أن يحصر قيمة كل شيء في آخرته.

وبعد أن سافر صولون حلّت نقمة الآلهة على كريسوس حلولاً هائلاً، وكان ذلك قصاصاً له لاحتسابه نفسه أسعد البشر. وبعد قليل رأى في الحلم مصيبة عظيمة تتهدد أحد ولديه لأن أحدهما كان تعيساً طبعاً لأنه كان أخرس، والآخر كان فائقاً على جميع أترابه في كل شيء واسمه «أتيس» وهو الذي حلم كريسوس بهلاكه بقطعة سلاح من حديد. ولما أفاق الملك فكّر في حلمه مرتعشاً. وبالحال زوّجه بامرأة وأبعده عن العسكر الذي كان تحت أمرته في الأسفار وأخلى ما كان يتردد إليه من الخناجر والأسنّة وكل سلاح جارح...

وبينما كان كريسوس متلهياً بعرس ابنه جاء إلى سرديس رجل فريجي شقي ويداه غير ظاهرتين. فدخل البلاط وطلب من كريسوس أن يجيره لأنه كان قد قتل أخاه خطأً، فطرده أبوه وسلبه كل نعمة واسمه «أدرستوس» وقبله كريسوس في بلاطه وأجاره...

وفي ذلك الزمان ظهر خنزير بري في ميسيا أعجز الميسيين فطلبوا مساعدة الملك كريسوس، فوافق بشرط ألا يذهب ابنه معهم. لكن ابنه احتج على ذلك رافضاً البقاء مع النساء بينما رفاقه ذهبوا للقضاء على الخنزير. وافق أبوه الملك على إرساله بعد أن اقتنع بأن الخنزير لا يملك أداة حادة حتى يتم تفسير المنام. وأرسل معه ضيفه أدرستوس بعد أن أوصاه به وأخذ عليه عهداً ألا يتركه يغيب عن ناظريه...

وعلى جبل أولمبوس وجدوا الخنزير، فأحاطوا به وأخذوا يرشقونه بالسهام، واتفق أن أدرستوس الغريب الذي كفّر عنه كريسوس وأجاره عنده رمى الخنزير بسهم فأخطأه وأصاب «أتيس» بن كريسوس، فنفذ جسمه وكان السهم من حديد، فتمّت رؤيا الملك.

وفي الحال أنفذ رسول إلى سرديس يخبر الملك بما جرى وبما كان من أمر ابنه التعيس.

ولما سمع كريسوس هذا الخبر المشؤوم اضطرب وشمله الحزن... وتلجلج في بحار الأكدار والآلام وابتهل إلى زيوس وأشهده على ما أصابه من ذلك الضيف العجيب.

وبعد أيام أتى الليديون بجثة أتيس وتبعهم القاتل أدرستوس فوقف فوق الجثة وبسط ذراعيه نحو كريسوس مناشداً إياه أن يهرق دمه على جثة القتيل ولده لأنه لم يعد يطيق الحياة بعد جنايته الأولى والثانية بقتله ابن الذي أضافه وأجاره. لكن الملك الذي كان مرعباً من الكدر والحزن أخذته به الرأفة...

«وبعد دفن ابنه التعيس حصل سكوت حول المقبرة فتبين لأدرستوس قاتل أخيه ثم قاتل مضيفه المكفر عنه أنه أشأم وأشقى إنسان على وجه الأرض فقضى على نفسه فوق قبر أتيس ولحق به».

قبل أن نشرع في جمع عناصر القصة التي ألفت مضمون ألقاب أبطالها، لا بدّ من أن نلفت النظر إلى عنصر أنتربولوجي آخر مهم لا يمكن أن يغفل عنه أي باحث حصيف، وهو التقليد العربي الشهير في أمر الضيف والضيافة، وفي إغاثة الملهوف أو إجارة المستجير. فمن المعروف أن حق الضيف عند العرب ثلاثة أيام منذ الزمن الموغل في القدم وحتى اليوم، لا يسأل فيها الضيف شيئاً عن اسمه أو عن حاجته. حتى صار القول الشائع «ضيف العرب ثلاثة أيام» معروفاً عند الجميع. وهذا ما عومل به الضيف الطارئ «أدرستوس». إن هذا بالتأكيد لم يكن خافياً على هيرودوت السوري الكيليكي، ولم يورده لنا صدفة حين قال: (وبعد ثلاثة أيام أمر الملك...). ثم إن العربي المضيف يسأل ضيفه عمّن يكون وعن بغيته وهذا يعني أن عليه أولاً أن ينتسب، وهذا جزء آخر من التقليد العربي الذي انفرد به العرب وحدهم أيضاً بين شعوب الأرض التي لم تكن تعرف نسباً بعد.

ولقد عرّف الضيف «أدرستوس» عن اسمه واسم أبيه ونسبته إلى جده الأكبر ميداس (وميدا بالسريانية يعني المخلّص)، تلك كانت وقفة لا بدّ من أن تسترعي انتباه أي باحث جاد في علوم الأنتروبولوجيا. ولما كان هيرودوت سورياً وبالتالي عربياً، فإن مثل هذه الأمور لم تكن لتغيب عنه أو ليغفل عنها.

بعد هذا صار بالإمكان الآن الانتقال إلى «الألقاب» المستقاة من مضمون القصة نفسها:

إن الملك «كريسوس» محارب شديد البأس، أخضع كل إغريق آسيا وطمح إلى بناء أسطول لغزو الجزر وضمّها إليه. وهو يحسب نفسه أسعد الناس ولا يرضى بأن يقارن بغيره وحينما لم يعترف له صولون بذلك دهش منه وسخط عليه وطرده من بلاطه حتى قيل إن به جفاء وقسوة.

إن الكلمة هي سريانية وهي في القاموس السرياني «قريسو» وتعني: يابس، قاس، خشن، فظ، جاف، متشنج ومنقبض ومخاصم وحسود وطمّاح، و«قيرسو» Kirso: خصومة، حرب وقتال وعدوان وشدة ومصيبة وخطر وشرّ ومكروه، وبأس وصولة وقوة في الحرب. وهما من الفعل «قرس» gres الذي يتضمن كل هذه المعاني.

ويخبرنا هيرودوت أنه كان له ولدان: أحدهما كان تعيساً طبعاً (أي بالطبيعة) لأنه كان أخرس، والآخر كان فائقاً على جميع أترابه في كل شيء ومع هذا كان اسمه «أتيس». إن أتيس هو لقبه الذي ألبسه وهو سرياني وعربي فصيح ويعني «التعيس» attais لأن التعاسة تلاحقه وكأنها قدره. وبالرغم من تنبيه أبيه الملك من خلال الرؤيا ورغم حرصه عليه فإن ذلك لم ينقذه من حظه التعيس. وفي هذا تأكيد لحكمة صولون «السعادة والتعاسة تتقرران في النهاية».

أما ضيفه الطارئ «أدرستوس» الشقي، الذي جلب معه المصائب والشؤم، فإن أحداً في هذا العالم لن يجد في الصيغة الحالية للقبه وهي «أدرستوس» أي ما يمكن أن يوحي بذلك في أية لغة من لغات العالم إذا لم يعد به إلى أصله السوري «السرياني».

إن أدرستو هي في أصلها السرياني مؤلفة من كلمتين هما «عودي» odi و«عرصتو» aresto، ولما كان حكم صوت العين أن يسقط في الغرب لأنهم لا يعرفونه وليس له مقابل، فقد صارت «أدرستو» adresto. أما معنى كلمة «عودي» في القاموس السرياني فهو: الضيف، الطارق، الغريب، الدخيل، وعديا تعني: غربة، بلية، مصيبة، كارثة، شؤم، وجمعها عدياتي أي بلايا، عاديات، مصائب، كوارث، وهي جميعاً من الفعل «عدي» ade و«اعدي» وتعني أصاب، ابتلى، بعد، نأى، أبعد، طلب، رام، نجا، أفلت، طرق، حل ضيفاً، انتقل، مات. إنها كل ما يتعلق بقصة «أدرستوس» الذي يعني كما نقول اليوم في لغتنا اليومية الدارجة: ضيف الشؤم. وهذا ما تكمله الكلمة الثانية «عرصتو» التي تعني في القاموس السرياني: مصيبة، بلية، شؤم، وهي من الفعل السرياني «عرص» (والصاد في السريانية يحل محل الضاد في الفصحى) ويعني عرض، فاجأ، طرق، ضاف، نزل، زحم، ضيّق، ألزم، ابتلى، أصاب، عرّض للمصائب.

و«عريصو»: عارض، حادث، طارق، ضيف، مكروب، مغموم، متضايق.

و«عرصوت»: ضيافة، نزول، حلول، إصابة، ابتلاء، محنة، شرّ...

ألقاب المشاهير:

إن جميع أسماء المشاهير الإغريق الذين وصلتنا شهرتهم من كتاب ومؤرخين ومسرحيين وفلاسفة وغيرهم، إنما هي ألقاب تعبر تعبيراً صادقاً عما تميز به صاحبها واشتهر به. وإنها جميعها ليس لها معنى بأية لغة في هذا العالم إذا لم يجرِ إرجاعها إلى أصلها السرياني.

فالمؤرخ هيرودوس أو **هيرودوت** أو هيرودوتوس، وقد ورد بهذه الصيغ جميعاً، تميز عن غيره بأنه كتب تاريخه معتمداً على مشاهداته ومحادثاته ومحاوراته من خلال أسفاره التي جال فيها كل أنحاء سوريا القديمة، فمن ميليتا إلى بابل وصور وصيدا وجنوب شبه جزيرة العرب، ثم إلى مصر وادي النيل، فالشمال الإفريقي، وبلاد الإغريق. وإن لقب هيرودو herodo هو بالسريانية من الفعل «ردا» rda ويعني: مشى، سار، سافر، ردى، ركب البحر، علم، ثقف، روض، والهاء أداة التعريف.

وإن لقب الفيلسوف **«سقراط»** هو تحويل بالاختزال من الأصل السرياني «حيزوقراطو» hezokrato ويعني: الحكيم النحات. إن «حيزو» سبق أن شرحناها وهي من الفعل «حزى» وتعني: رأى ونظر متبصراً بالعواقب، تنبأ، صار نبياً، حكيماً، ومنه كان اللقب «حيزيث» أي النبية الحكيمة التي صارت Izis. أما «قراطو» و«قراطيو» kratio فهي من الفعل «قرط» kret أي نحت، مثّل، حفر، كتب، رقم، زخرف، قطع، شرّح، سجّل.

أما لماذا لقب بـ «الحكيم النحات» فلأنه عمل بالاثنين معاً. يقول ول ديورانت:

«وكان أبو سقراط مثّالاً ويقال أنه هو نفسه (أي سقراط) نحن تمثالاً لهرمز، وآخر لربات القدر الثلاث، أقيم قرب مدخل الأكروبولوس، أما أمه فكانت قابلة، وكان من الفكاهات التي ما ينفك ينطق بها عن نفسه أنه لم يفعل أكثر من مواصلة حرفة أمه ولكنه نقلها إلى دائرة الأفكار فكان يساعد غيره على أن يخرجوا للعالم آراءهم... وكان يصبر على الجوع والتعب فلا يشكو ولا يتململ. أما في بلده، إذا طاوعته نفسه على الإقامة فيه **فكان يشتغل بقطع الحجارة ونحت التماثيل**»[1].

أبو قراطو:

قلنا إن من معاني «قرط»: قطع، شرّح، سجّل، دوّن. وهذا ما تميز به أبو قراط الطبيب الذي يعني لقبه «أبو التشريح والتسجيل». يقول ولد ديورانت: «وكان يهتدي في جميع أعماله بالخبرة والتجربة العملية، والنظريات لا شأن لها بالطب ولا موضع لها فيه. لذلك كان يرى أن العلاج يجب أن يقوم على شدة العناية بالملاحظة وعلى **تسجيل** كل حالة من الحالات وكل حقيقة من الحقائق تسجيلاً دقيقاً»[2].

ديموقريت:

إن اللقب «ديموقريت» demokrit يعني بالسريانية: رجل القراءة والدرس والبحث، إذ أن «ديمو» و«دمو» تعني: شخص، دم، أصل وأهل... و«قريت» krit تعني: القراءة والبحث والدرس. وهذا ما تميز به فعلاً «ديموقريت» فهو من أبديرا في شمال سوريا، سافر

(1) ديورانت، قصة الحضارة، المجلد السابع، ص223 – 224.

(2) المرجع نفسه، ص184.

إلى بابل ودرس العلوم البابلية وكان أبوه من ذوي المكانة الملحوظة والثراء العظيم... ورث منه مائة وزنة أنفق معظمها في الأسفار... ولما فرغت منه نقوده لجأ إلى الفلسفة واخشوشن في معيشته ووجه جهوده كلها إلى **الدرس والتفكير،** وقال: «إن الكشف عن برهان واحد خير لي من الحصول على عرش فارس»[1].

اسخيلوس:

هو في الأصل السرياني «اسكيلو» askilo ويعني المعلّم. وكان السريان كثيراً ما يلطفون صوت الكاف إلى خاء مثل: كيتون ـ خيتون. وقد لقب بهذا اللقب لأنه تربع على عرش المسرح دونما منازع لفترة طويلة ونال الكثير من الجوائز. أما كلمة «اسكيلو» فهي في القاموس السرياني من الفعل «سكل» skel ويعني: جهل، حمق، علّم، هذّب. وكنا قد مررنا على شرحها.

أرسطوفاينس:

اللقب في الأصل السرياني هو «عرصتو فاني» arestofani أي المعارض المرتد. إذ «عرصتو» تعني المعارضة، المعارض، المعترض، القاسي، و«فاني» أي: العائد، الراجع، المرتد ومنها «فون» phon أي رجع الصوت، الصدى.

وبالفعل لقد تميز أرستوفاني بالنقد المرير اللاذع لما دعي بالديموقراطية، و«كان دائماً يقف من الحكومة **موقف المعارضة**... وكان عديم الثقة بالجديد، سيئ الظن بالتجديد مناهضاً للبدع الاجتماعية والدينية وحتى الموسيقية. ولم يتردد أبداً في مهاجمة المتسببين في هذه البدع والمسؤولين عنها». من أشهر مسرحياته sophokes التي يترجمونها في كل العالم إلى «الدبابير» خطأً. والكلمة سريانية هي «سفوقي» sphoke جمع «سفوقيو» وتعني: الصفيق البطّال، العاطل، السخيف، الأرعن. ومسرحية «نيفيلاي» nephelai التي يترجمونها خطأً إلى السحب. والكلمة سريانية تعني: الساقطين، المنحطين، المتورطين، المصروعين، وتسمية كل من المسرحيتين يعكس مضمونها الحقيقي.

(1) المرجع نفسه، ص178، 201 – 203.

أرسطوطاليس:

ويعتبر من أعظم الحكماء السوريين في المغترب. ولقبه سوري سرياني يعني: معلّم الرواق الشاب، إن «أرسطو» Aresto مؤلفة من كلمتين سريانيتين هما «أريا» area وتعني: معلم، مهذب، مزيّن، مزخرف، وهي في القاموس السرياني من الفعل «أري» are، و«سطوا» ويعني: الرواق، الممشى المسقوف خاصة. ومنها جاءت كلمة «أسطوانة» و«أسطواني». و«طاليس» هي «طالي» tali السريانية و«الطلي» و«الطلو» بالفصحى تعني الشاب، الفتى.

إن أرسطو هو رأس الفلاسفة المعروفين بالمشائين (هاليكي). إذ كان من عادته إلقاء الدروس على تلاميذه وهو يتمشى في ممشى محاط بالأشجار وتكاد أغصانها تكوّن سقفاً له، ومن هنا دعي «هليكو» haleko وسمّي أتباعه بالـ «هليكي» أي المشائين، وطريقته بمدرسة المشائين.

والتسمية سورية سريانية وهي في القاموس السرياني من الفعل «هلك» halek ويعني: مشى، سار، كما تعني: هلك، تعب، والصفة منها «هليكوي» helekoi وجمعها «هليكي» heleki ثم تحولت الـ k باللاتينية إلى c فصارت «هاليسي» halecei ومنها جاءت كلمة lecee بمعنى: مدرسة، معهد.

ب ـ أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية:

من كل ما تقدم يتبين بجلاء كيف أن السوريين بمفهوم الكلمة الواسع كانوا هم السادة المعلمين في كل أرجاء العالم القديم الممتد ـ حسب تحديد ول ديورانت ـ من شواطئ البحر الأسود إلى بحر العرب، ومن وادي السند وغرب أفغانستان إلى الأطلسي غرباً، وكانوا هم المهيمنين بكل اسباب ومجالات الثقافة والحضارة، وبالتالي، فهم الذين منحوا المواقع الجغرافية أسماءها بدءاً من القارات الثلاث المعروفة آنذاك وانتهاء بأسماء أصغر المواقع التي شهدت حضورهم وانتشارهم السكاني والحضاري.

إن **«آسيا»** تسمية سورية وهي أحد أسماء الأم السورية الكبرى عشتار وتعني: المخلّصة، المنقذة، الشافية، المخصبة، الخصيبة. وهي من الفعل السرياني «اسي» ese ويعني: أسى، شفى، داوى، أخصب، خلّص، أنقذ «أسيوت» aseot: شفاء، دواء، صحة، خلاص، خصب. ميثياسينا metheasena قابل للعلاج، للشفاء، طب، علاج ومنها جاءت الكلمة اللاتينية medicina التي ذهبت إلى كل اللغات الأوروبية فيما بعد، بعد أن تحولت فيها الثاء إلى d.

وإن «موسي» mose تعني المخلص، الشافي، المخصب ومنها كانت ألقاب الملوك في وادي النيل المقترنة بالمخلص، المخصب مثل: «رع مسيس» وتقرأ راعي موسي وتعني الراعي، المخلص. والراعي هو أحد أسماء رب الشمس. وبالمناسبة إن المؤرخين السوريين من أمثال هيكاتو وهيرودوت لم يكونوا يعتبرون مصر وادي النيل خارج آسيا.

أما تسمية **أوروبا** uropa أو «يوروبا» فقد أطلقت على اسم الأميرة السورية الفينيقية «أوروبا» بنت أجينور ملك صور وقصة اختطافها من قبل «زيو» النبيل السوري إلى جزيرة كريت معروفة حيث أنجب منها «مينا» و«رادامنتا» وسارفيدون وسيطر أبناؤها على عرش الجزيرة. وفي حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد فرضوا سيطرتهم على تجارة بحر إيجه وجنوب المورة إبان فترة ضعف ألّمت بالدولة المركزية السورية، وفي تلك المرحلة تحديداً أطلق اسم «أوروبا» على شمال المتوسط كما أطلق اسم جدتها لأبيها «ليبيا» libia على جنوبه.

وظل اسم **ليبيا** يطلق على القارة جنوب المتوسط إلى أن وصلتها موجة من سكان جنوب شبه الجزيرة العربية بقيادة افريقس بن قيس بن صيفي الذي ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان، ومعه أيضاً جماعة من الكنعانيين أبناء كنعان بن حام بن نوح فقتل جرجيرا المتملك على القبائل هناك وملك على المنطقة فدعيت باسمه **«أفريقيا»**. وجماعة الكنعانيين أولئك هم الذين أطلق عليهم اسم «البربر».

أما الاسم «يوروبا» «أوروبا» فهو في القاموس السرياني يعني العظيمة، الكبيرة، الشريفة وهو من الفعل «يرب» iareb ويعني: كبر وعظم، زاد ونما، ارتفع، تكبّر، و«أورب» oreb وهو الفعل المتعدي ويعني: كبّر، أنمى، رفع، مجّد، عظّم، شرّف، فمن الأول جاء الاسم «يوروبا» ومن الثاني جاء الاسم «أوروبا».

أما أسماء المواقع فقد كان يطلقها السوريون في تجوالهم البحري والبري بموجب ما توحي به أشكالها، أو بما يفيدون منها. أو أنهم كانوا يطلقون أسماء بعض الأرباب عليها لتتولى نيابة عنهم مهمة حمايتها والدفاع عنها وبخاصة في تلك المواقع النائية الملاصقة للقبائل الهمجية. وعند تأسيس المدن أو المستوطنات الجديدة كانوا يطلقون عليها اسم الجد المؤسس، أو السلالة، وأحياناً عند اقتسام الأرض بالقرعة كانوا يسمّونها «الحصة» أو «حصة الرب الفلاني». وإن بعض المدن التي كان سكانها يبرعون بحرفة معينة ويتميزون بها كانت تأخذ التسمية من تلك الحرفة، وسوف نورد أمثلة على كل من تلك التسميات.

يقول كيتو: «إن البحارة الذين يسافرون في هذا البحر (المتوسط) لا يغيب البر عن أنظارهم من جميع الجوانب حيث اتجهوا. إنه يمكن من رأس ميليثا في جنوب شبه جزيرة البليوبونيز رؤية جبال كريت. ومن شرقي جزيرة كريت تشاهد جبال رودوس، كما أننا من شواطئ جزيرة رودوس نستطيع أن نرى شواطئ آسيا الصغرى. وأكبر الجزر في بحر إيجه قريبة بعضها من بعض إلى درجة أن الانتقال من إحداها إلى الأخرى لا يستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين. إن لكل جزيرة وكل رأس وكل خليج في بحر إيجه شكلاً خاصاً ومظهراً مختلفاً يمكن تمييزها به من بعيد»[1].

إن **قبرص** أول من نزلها وعمّرها واستوطنها السوريون. ودعوها «جيفرو» gypro وكانوا يلفظون الفاء P، وتعني في القاموس السرياني: الظفر، المخلب. وهي بالفعل تمدّ رأسها كالمخلب صوب الساحل السوري ما بين اللاذقية وإنطاكية. وأكبر دليل على ذلك القصيدة السورية القديمة التي تعود إلى زمن الألياذة والمسمّاة gypria أي القبرصية والتي لا يعرف صاحبها حتى اليوم.

وكان هيرودوت يطلق على قبرص اسم «الجيفريين»[2] لكن الاسم ما لبث أن تحول باللاتينية إلى Cypros لوقوع الـ g قبل y. وكالعادة. ودعوا الرأس المتطاول الممدود **«قليدا جيفرو»** أي خرطوم قبرص لأن «قليدا» تعني بالسريانية: مفتاح، باب، خرطوم، خطام، مقود، وأنشأوا في جانبها الشرقي مقابل الساحل السوري مرفأ دعوه **«فاماجوستا»** famagusta ويعني بالسريانية ثغر الملجأ. إن «فاما» تعني: فم، ثغر، و«جوسا» و«جوستا» تعني: ملجأ، ملاذ.

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص94.

(2) تاريخ هيرودوت، الكتاب الخامس، 63، ص359.

وإن **«كريت»** هي قريت بالسريانية وتعني إصبع الإبهام، وهي تمتد بشكل إصبع الإبهام لمن ينظر إليها من جزر إيجه أو من الشاطئ الليبي الإفريقي، كما تعني: الموجز، المختصر، الطريق القصير وذلك لموقعها الذي يختصر طريق السفن بين القارات الثلاث. وإن شبه جزيرة **المورة** تمتد كورقة التوت ذات الثلاثة رؤوس، وكلمة «مورا» بالسريانية تعني ورقة التوت.

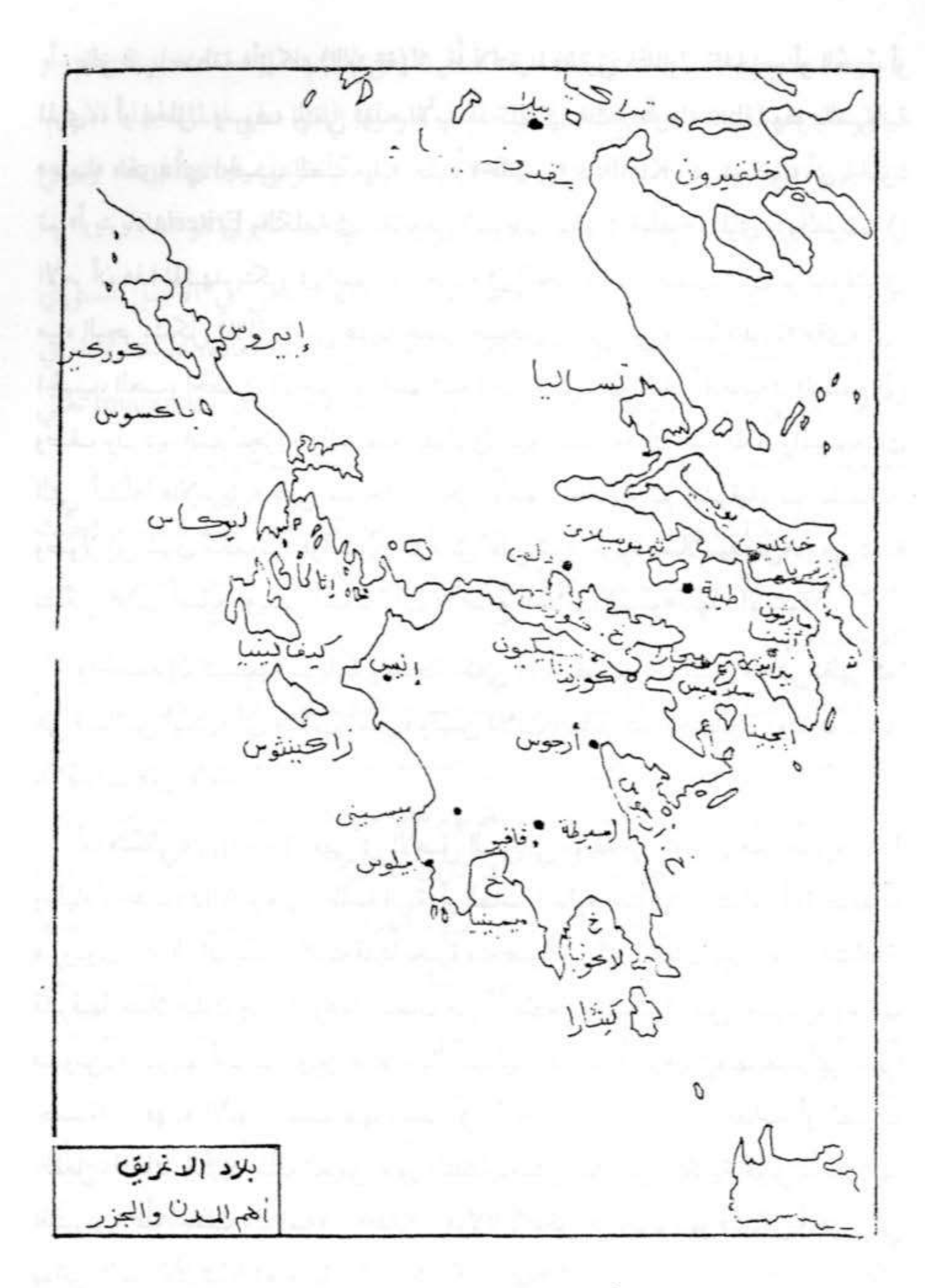
وإن خليج **«قورنتا»** korenta الذي يكاد يقطع شبه جزيرة المورة عرضياً من منتصفها يحدث ما يشبه الجرة، وقورنتا بالسريانية تعني الجرة، القارورة، البوق، كما تعني القرنة. وأكبر برهان على ذلك أنها كانت تعرف في عهد هوميروس باسم «أوفورا» ophura[1] والكلمة في القاموس السرياني تعني: الجرة، البرنية الصغيرة.

وإن جزيرة **«رودوس»** هي بالسريانية «رودو» rodo وتعني الوردة. وإن جزيرة «ميلوس» هي بالسريانية «ميلو» milo وتعني: التفاحة. يقول الدكتور فوزي مكاوي: «ميلوس melos تعني بالإغريقية: التفاحة، وتطلق اسماً على جزيرة تقع إلى الشرق من شبه جزيرة اليونان في البحر الإيجي يشبه شكلها التفاحة بالفعل»[2].

ولما كان خليج **سلاميس** يشكل مقتلاً للبلاد، لأن مياه البحر فيه تقترب حتى تكاد تتصل بخليج «قورنتا» فتفصل بلاد الإغريق إلى شطرين، لهذا فقد تم تحصين الجزيرتين الصغيرتين فيه فدعيت الأولى **«أيجينا»** igina ودعيت الثانية «سلاميس»، وهي تفصل الأولى عن البر حيث «ميجارا».

أما «إيجينيا» فهي في الأصل «حجينيا»، وتعني في القاموس السرياني: السياج، السور، الحاجز لأنها تقف بمثابة الحاجز عند مدخل خليج «سلاميس». أما سلاميس فهي في الأصل «صلامي» Salami أي الأصنام، تماثيل الأرباب. وإن **«ميجارا»** Migara التي هي أهم موقع على الخليج تعني بالسريانية المغترب، دار الغربة. وهي من الفعل «جَرْ» gar أي اغترب، تغرب. «اتجير»: تغرب، انتسب إلى قوم غريب، فسق، فجر. ومن الكلمة جاءت «إميجرانت» emegrant أي مغترب، مهاجر.

(1) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص 46 .
(2) المرجع نفسه، ص168.



مصور رقم (4): خارطة تظهر بلاد الإغريق أهم المدن والجزر.

ولو عبرنا منطقة «أتيكا» (العتيقة) شرقاً لالتقينا بمضيق متطاول كالجيب أو العُبّ، أو المريء، أو الحلق. وسوف نلتقي بهذه الأسماء كلها في خليج **«أوبيا»** Ubia وهو بالسريانية «عوبيا» صقىة أي الجيب، العبّ. يليه جنوباً **«خلقيس»** Khalkis وهو «حلقي» أي الحَلْق، ثم «أريتريا» Eriteria والكلمة في القاموس السرياني تعني: البلعوم، المريء. والطريف في الأمر أن هذا المشهد يتكرر في اسم شبه جزيرة في البحر الأسود جنوب شرق تراقيا، تمتد في مياه البحر بشكل ثلاثة رؤوس طويلة تحصر خليجين يدعى كل منهما «عوبيا» صقىة أي: الجيب، العب، الحضن، الرحم. أما اسم شبه الجزيرة كلها فهو «الجزر العوبية». فلنسمع إلى وصف ول ديورانت للجزيرة وللتسمية. يقول ول ديورانت، بعد أن عدّد المدن والمستوطنات التي أنشأها «الإغريق» على سواحل البحر الأسود الجنوبية ثم الشرقية، ثم الشمالية، وصولاً إلى شرق مكدونيا: «واستولى الإغريق على شبه جزيرة **«سلاسيديس»**، وهي ممتدة بشكل ثلاث أصابع، ويعني اسمها ذات الأصابع الثلاث، فسمّوها بهذا الاسم»[1].

والحقيقة إن التسمية سريانية واضحة يكفي أن نسقط نهاية «السين» حتى تظهر كما هي «سلاس أيدي» أي «ثلاث أيدي» وليس ثلاث أصابع كما يجتهدون دون أن يرغبوا بالاقتراب من الأصل!

أما **«تسّالي»** Tassalia فهي في الأصل السرياني مؤلفة من كلمتين هما «طس» Tass و«آليا» أو «عاليا» Alia وتعني: طاسة الربة، أو الطاسة العالية. ولتأكيد ذلك لنقرأ ما يصفها به هيرودوت: «يقال إن تسّاليا كانت قديماً بحيرة منحصرة من كل الجهات بين الجبال الشاهقة، فشرقيها جبلا فيلون وأوسّا، وهما يلتقيان من أسفلهما، وشماليها جبل أولمبوس، وغربيها فندوس، وجنوبيها أوتريس، وبين هذه الجبال تسّاليا. وهي بلاد جوفاء ترويها عدة أنهر أشهراً خمسة»[2]. فهذه الأنهار تصب فيها وليس في البحر جاعلة منها شبه الطاسة أو الطست بالفعل. لذلك لما أراد ملك الفرس عبور المنطقة بجيش سأل عن إمكانية تحويل مجرى نهر «فينيوس» علّه يجفف «الطاسة»... «فقالوا يا مولانا لا يمكن أن يكون لنهر فينيوس مجرى كي يدخل البحر لأن تسّاليا محاطة بالجبال من كل جهة»[3].

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، المجلد 6 - 7، ص 287 .

(2) تاريخ هيرودوت، الكتاب السابع، 139، ص479.

(3) تاريخ هيرودوت، الكتاب السابع، 130، ص480.

وعند مدخل المضيق الذي كان اسمه «معبر البعل»[1] ثم صار اسمه معبر الرخام، أو فم الرخام «فوسفورا» بعد أن اكتشفوا الرخام في «مرمرة» الذي دعي لذلك بهذا الاسم، نجد جزيرة **«امفروس»** Ampharos وهي في السريانية «أمفرعو» Ampharoo وتعني المدخل، المخرج، الثغر، و«أم» للتعريف، لابتداء الكلمة بصوت شفوي هو الفاء.

وإلى الجنوب الغربي منها جزيرة **«لمنوس»** **Lemanos**. وهي في الأصل السوري السرياني «لْحيما نوثي» Lhemanothi فاللام أداة التعريف، وكالعادة، تحولت الحاء في أول الكلمة إلى همزة أو سقطت، ولفظت الثاء سيناً. وكلمة «حيما نوثي» Imanothi تعني بالسريانية: الحاميات، الذابلات، الهائجات، الثائرات، المستعرات شوقاً، الشبقات...

أما لماذا أطلقت هذه التسمية على الجزيرة فهذا ما يكشفه لنا باليو كاسنرتزا حيث يقول حول رحلة مسيرة سفينة «الأرجو» إلى البحر الأسود من اجل الحصول على الفرو الذهبي:

«ومرّت السفينة بجزيرة ليمنوس، فإذا ثمة نساء يلقينهم أول الأمر فزعات. ثم يسكنّ إليهم بعد أن يكشفن قصدهن. وكان من حديث هؤلاء النسوة أن رجالهن كانوا قد خرجوا عنهن إلى طراقيا. ولبث النساء ينتظرنهم عاماً على شغف وشوق، وإذا هم يعودون إليهن ومع كل منهم محظيته. عند ذلك ثارت ثائرتهن. وإذا هن يثرن ثورة جامحة يقضين فيها على الرجال جميعاً لم يُبقين منهم أحداً. وعندما أقبلت السفينة، وعليها ملاّحو الـ «أرجو» ظننّهم قوماً من الطراقيين جاؤوا ليثأروا لمن قتل من أقاربهم. ولكنهن حين علمن أنهم ليسوا كما حسبن تلقينهم بالبشر والترحاب، وتحركت العواطف المكبوتة، وكان ما يكون بين رجال ظامئين ونساء ظمأوات»[2].

ولو مضينا إلى أقصى الغرب، إلى المحيط الأطلسي، حيث أسس السوريون أول مستوطنة في المحيط، تمتد وتتطاول غرب الساحل الإسباني مثل سفينة طويلة أقلعت باتجاه المحيط، فدعوها «قادس» Kades. وإن كلمة **«قادس»** تعني بالسريانية والعربية الفصحى السفينة الطويلة.

---

(1) راجع وثائق قره تبه، المرجع السابق.

(2) باليوكا سنرتزا، المرجع السابق، ص226 - 227.

النموذج الثاني هو أن ينتقل مع السوريين اسم البلد الأم أو ما يعبر عنه. وهذه العادة ما تزال ملتصقة بهم إلى اليوم.

فعند مداخل المضائق في الشمال أسس السوريون **بنورمو Panormo** وتعني المطلّة (أو الطلة العالية) ومنها جاءت تسمية «بانوراما» وأسسوا أخرى في صقلية بالاسم نفسه، وهي اليوم «باليرمو». وأنشأوا في جنوبها مدينة أخرى سمّوها **«أفاميا» Aphamia** على اسم المدينة السورية الشهيرة في وسط سوريا، وهي في الأصل «أفحاميا» أي النظيرة، المثيلة، Aphhamia وهي من أسماء عشتار.

وعلى الشاطئ الشمالي للبحر الأسود شادوا **«ألاذقيا» Aladikia** على اسم اللاذقية، وهي أيضاً من أسماء عشتار، وتعني الربة الحارسة، وصارت باللاتينية «ألوديسيا» Laodicia.

وعلى الشاطئ الغربي للبحر الأسود بنوا مدينة **«عشتار» Istar** (قنسطنطا الحالية في رومانيا حيث يصب نهر الدانوب الذي دعوه أولاً نهر عشتار، ثم نهر «طيتا» أي الحية، ثم نهر الدانوب، (وتعني كلمة الدانوب بالسريانية مجموعة كواكب في السماء بشكل الحية).

وشادوا «ألاذقيا» (الأوديسّا) أخرى على الشاطئ الغربي، وهي اليوم «فارنا» البلغارية.

وعلى الساحل الجنوبي للبحر الأسود بنوا مدينة **«حمصو» Hemso** على اسم «حمص» السورية الشهيرة التي اشتهرت بأميراتها الأربع اللاتي حكمن روما بدءاً بجوليا دومنا وأختها جوليا ميزا، وانتهاءً باسكندر سفيرو.

كما أنشأوا قريباً منها مدينة **«طرابلس»** Tripolis وتعني أرض الأمراء بالسريانية.

وإلى الغرب من إفسوس أنشأوا مدينة على جزيرة دعوها **«فوقايا» Fokaia** وتعني الفوقية، الفوقانية، العالية. وعند غزو الجيش الفارسي للمنطقة انحدر قسم كبير من سكان «فوقايا» إلى البحر الأبيض المتوسط حيث شادوا مستوطنتهم التي دعوها **«العالية» Alalia** في كورسيكا[1]. والعربي لن يبذل جهداً حتى يعرف أن «فوقايا» و«العالية» شكلان لمضمون واحد هو: التي فوق، في الأعلى.

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص103، 108.

وكنا قد ذكرنا أن «قورنثا» تعني الجرة، وكان اسمها زمن هوميروس «أوفورا» أو «أمفورا» التي تعني أيضاً الجرة. وقد اشتهرت بمعامل الجرار فيها ذات الطلاء الرائع بالفعل. يقول كيتو: «فكانت قورنتا مثلاً، وهي مدينة ذات موقع ملائم جداً للتجارة، تشتغل ببناء السفن، وصنع الأدوات البرونزية، وترقية الأسلوب الطبيعي في طلاء الآنية الفخارية بشكل لم تكن رأته بلاد الإغريق خلال عدة قرون»[1].

وإن أشهر المدن التي بناها السوريون وأقدمها في صقلية مدينة **«صيراكوزا» Serakoza** وتعني بالسريانية صانعي الجرار (لأن «صيرا» من الفعل «صير» ويعني: عمل، صيّر و«كوزا» تعني الكوز، الجرة).

وإن أقدم مدينة أسسها السوريون في البر الإغريقي **«موقيني» Mokini و«أرقو» Argos**. أما «موقيني» فتعني بالسريانية صانعي الأحذية، الحذائين. إن «موق» Muk في القاموس السرياني تعني حذاء، و«موقينو»: حذّاء، إسكافي، وجمعها «موقيني» Mokine.

وقد هاجر بعض سكانها إلى صقلية حيث «موكيني» التي أصبحت باللاتينية «موسّيني» Mossine، وتعني الحذّائين، يقول الدكتور فوزي مكاوي:

«وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن «مسّينا» في صقلية قد اكتسبت اسمها بعد أن سكنها المسينيون الهاربون من الاحتلال الأسبرطي بعد الحرب المسينية الثانية. وكانت تلك المدينة تعرف قبل ذلك باسم **«زنقلي» Zankle**[2].

والطريف في الأمر أن «زنقلي» Zankle أيضاً تسمية سريانية وتعني صانعي الأحذية أيضاً. وهي في القاموس السرياني من الكلمة «زنقا» Zanka وتعني: خف، مداس، حذاء. زنقوي: إسكاف، صانع الأحذية. زنقويوت: سكافة، حرفة الإسكاف.

ج ـ ظاهرات أخرى:

1 – ظاهرة الأسماء العالمية المتداولة للأشخاص:

إن السوريين الذين أعطوا الجغرافيا أسماءها هم الذين أعطوا الناس أسماءهم أيضاً. إن الأسماء العالمية المتداولة للأشخاص من ذكور وإناث هي جميعها من أصل سوري، وليس لها أي معنى بأية لغة غير السريانية:

(1) المرجع نفسه، ص 104.

(2) مكاوي، المرجع السابق، ص90 – 91.

إن اسم **«جورج»** في الأصل السرياني يعني: الفاتن: الجذاب، المغري، الآسر، المبهج، المسّر... ومؤنثه **«جورجيت» و«جورجينا»** وهما أوسع صيغ التأنيث في السريانية. هذا فضلاً عن أن كل «تاء» تأنيث في العالم أصلها من العربية السريانية والفصحى.

وإن **«أوديت»** تعني: ثناء، مدح، إطراء. وهي من الفعل «أودي» ويعني: مدح، أثنى. «أودا» Oda: مدح، ثناء، قصيدة مدح. وقد ذهبت مع السوريين إلى بلاد الإغريق، ومنها إلى السلافية فالروسية الحديثة.

وإن **«جول»** تعني: السنيّ، البهي، الجميل، الواضح، البشوش، العارف، الخبير... ومؤنثه: **جولييت، وجوليا، وجوليانا.**

وإن **«ماتيلدا»** تعني بالسريانية أم البنين. وهي مؤلفة من «مات» Mat وتعني بالسريانية: رحم، أم، و«يلدا» وتعني: أولاد، بنين. وقد ذهبت كلمة «مات» السريانية عن طريق اليونان إلى السلاقية فالروسية الحديثة لتعني الأم.

وإن **«ناتاليا»** تعني بالسريانية الوهيبة، الوهابة، وهي من الفعل «نتل» natel ويعني أعطى بسخاء، وهب.

وإن **«أرجو» و«مارجو» و«ريجان» و«ريجينا»** كلها من الفعل السرياني «رجى» و«أرجى» arge ويعني: أغرى، أثار، رغبّ، شوّق.

وإن **«ماري»، «ماريا»، «مريم»، «مارثا»** جميعاً تعني: السيدة، الربة، وهي مؤنث «مار» بمعنى السيد، الرب.

وإن **«روزا»** تعني الوردة، وهي من الفعل السرياني «رْوِز» rwez بمعنى أزهر، أورد.

2ـ أسماء أفراد الأسرة:

إن الأب الوالد في السريانية هو «أب» وأبو abo.

وإن الأم الوالدة هي «إم» و«إما» ema.

وإن الأخ هو «أحو» و«أحينو».

وإن الأخت هي «حيتو».

والابن هو «بار» و«بن».

والبنت هي «برث» barth، و«بنت» و«بت».

فمن أين جاءت تلك الألفاظ التي تدل على أفراد الأسرة في اللغات الأوروبية مثل: father, mother, sister, brother وغيرها، وبصيغهطا المتباينة: father, mat, brat... إلخ؟.

كنا قد ذكرنا أن الجنس العربي هو وحده الذي كان قد عرف نظام الأسرة وشجرة النسب منذ عدة آلاف من السنين حين كانت شعوب أوروبا ما تزال تسكن الكهوف وتأكل لحوم البشر وتتناسل عشوائياً. وبالتالي ففي زمن الانتشار السوري في بلدان حوض المتوسط لم يكن إنسان «الصقلاب» يعرف بعد من هو أبوه. وكان الابن يعرف أمه إلى أن يشب، ثم يسوح بعيداً عنها ما بين الغابات والكهوف. لهذا فإن أحداً لم يعثر على أي نسب لذلك الإنسان قبل تدجينه وتأليفه من قبل الوافدين السوريين. ولهذا بالذات فإن الكلمات التي تدل على الانتساب للأب الوالد لا وجود لها في كل اللغات الأوروبية.

إن كلمة Pater وصيغها الأخرى مثل**fater, otets** (الروسية) لا علاقة لها بالأب الوالد. بل هي تعني في أصلها السرياني الأب أو الجد المؤسس للمدينة الذي تقام على اسمه الطقوس، ويجري الاحتفاظ به محاطاً بهالة من التبجيل والتقديس عبر الأجيال كأب مقدس للمدينة كلها ما دامت قائمة، ولم يكن يقصد به أنه الأب الوالد المباشر لهذا الفرد أو ذاك، بل اتخذ صفة الأب الروحي أو الديني، وهو استمر في المسيحية إلى اليوم.

أما أصل الكلمة السورية فهو «فاطر» Fater والفاء كانت في بعض الأحيان تلفظ P أي Pater وتعني بالسريانية والفصحى: البادئ، الخالق، المؤسس. فهو بادئ خلق المدينة أي مؤسسها، والله هو فاطر السموات والأرض، أي هو بادئ خلقها. وقد روى الطبري عن عبد الله بن عباس أنه قال: ما كنت أعلم ما الفاطر حتى جاءني أعرابيان يختصمان في بئر احتفراها. فقال أحدهما أنا فطرتها أي أنا بدأت حفرها أو خلقها[1]. وإن الصيغة التي وصلت بها إلى الروسية otets تدل على الجذر «التأسيسي» للكلمة في الأصل السرياني «اتأسِسْ» tases...

(1) قاموس «محيط المحيط».

وإن mother أو صيغتها الأخرى mat، mater هي من السريانية mat بمعنى: رحم، مسقط الرأس، بلد الأم وإن sister التي لم تأتِ للدلالة على أية قرابة في الدم من أبوين معروفين دليل آخر وشاهد على صحة التعليل. إنه كان من الطبيعي أن أحداً من الهمج السارحين في البراري بين الكهوف والجبال والغابات، والذي لم يكن يعرف أباه، وربما أمه، لم يكن يعرف أخاه أو أخته بالتأكيد. فما المقصود إذن بكلمة مثل sister إذن، وما هو أصلها؟

إن السوريين الذين كانوا أول من اخترع الآلات الموسيقية الوترية كالقيثارة والعود وغيرهما إلى جانب آلات النفخ والإيقاع الأخرى، فإنهم هم واضعو أول نوتة موسيقية في التاريخ. وقد اكتشفت نماذجها في أوغاريت لزمن يعود إلى نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. وإن جميع أسماء الآلات هي سورية سريانية.

وكان شائعاً عند السوريين أن يطوف الشعراء والمنشدون الجوالون في المدن والقرى، ويحيوا حفلات الإنشاد، وبخاصة ما دار منها حول الملاحم البطولية، مرافقة بالعزف على القيثارة أو الربابة في بيوت الأغنياء وقصور الأمراء. وكان من جملة الآلات المعروفة عندهم «القيثارة»، والـ «سيسطار» sistar الشبيهة بالقيثارة وكأنما أختها، لكن صوت أوتارها أرق وأدق. فكان الشاعر المنشد يسأل مضيفه: أَعَلَى هذه؟ يقصد القيثارة، فيجيبه السيد وهو مضطجع على المتكآت «أسماكي»* في مجلس الشراب: «بل على أختها»، ويقصد آلة الـ «سيسطار». فالتقطها السكان الأصليون في الغرب ليعبروا بها عن «الأخت» بنت الأب والأم.

وفي القاموس السرياني نجد أن الـ «سيسطار» Sistar آلة موسيقة، أخت القيثارة، شبيهة بها.

أما كلمة «ابن» التي هي Son بالإنكليزية و sin بالروسية فلم يعرفها إنسان أوروبا إلاّ من السوريين. فهي «صنو» Sino والـ «صِنْو» بالفصحى Sino أيضاً وتعني: الابن والأخ.

* «أسماكي» في القاموس السرياني تعني المتكآت. انظر تاريخ هيرودوت، المرجع السابق، ص109.

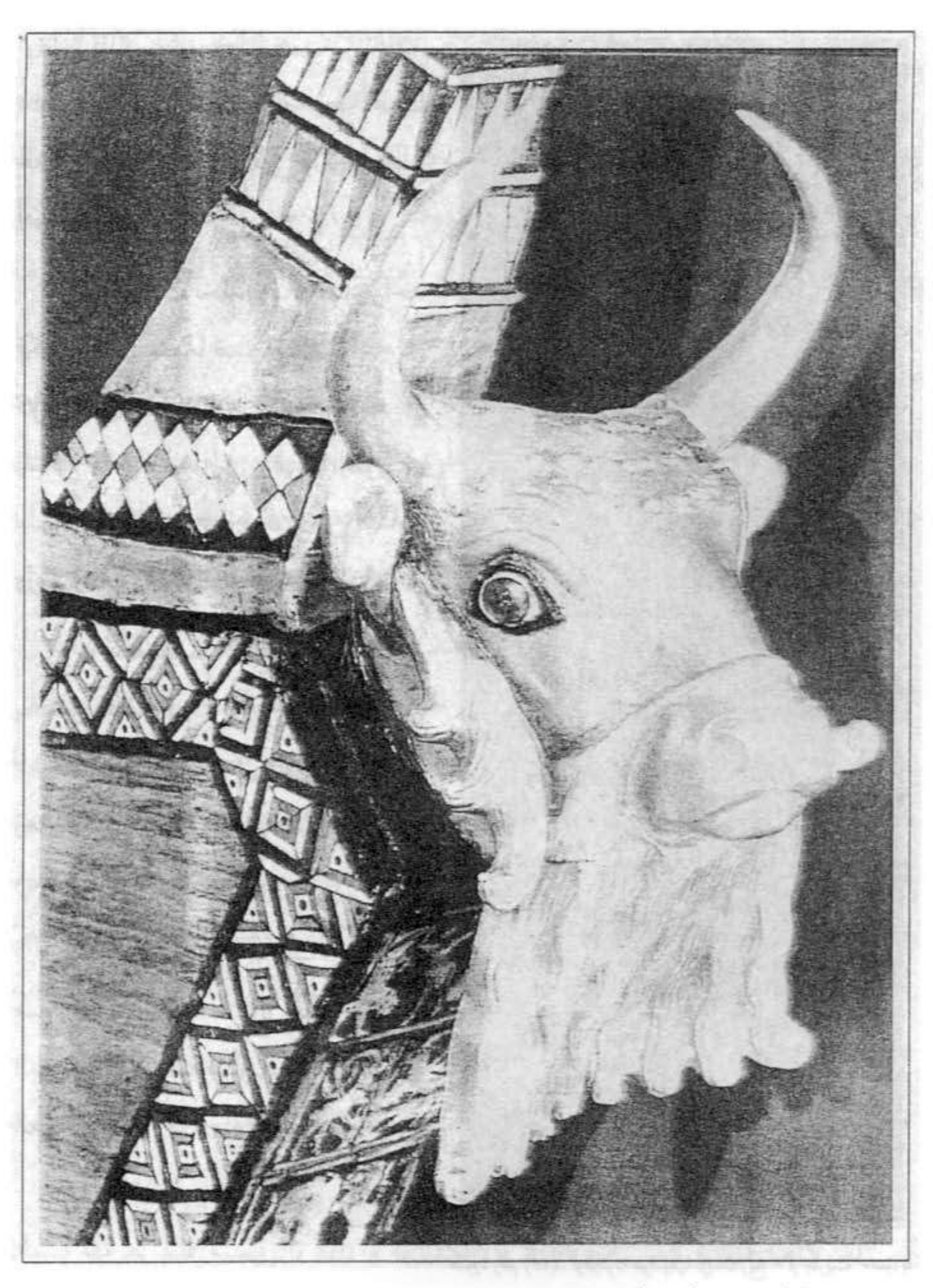
وتُثنّى وتجمع بالفصحى على «صنوان». ففي قاموس «محيط المحيط» نجد: والصنو الأخ الشقيق والابن جمع أصناء وصنوان.

وإذا خرجت نخلتان من أصل واحد فكل واحدة منهما صنو. والصنو عامّ في كل فرعين يخرجان من أصل واحد في النخل وغيره. ومنه في القرآن الكريم في سورة «الرعد»: **﴿وجناتٍ من أعنابٍ وزرعٍ ونخيلٍ صنوانٌ وغير صنوانٍ﴾**.

وإن كلمة «دادا» لفظ تعني بالسريانية: عم، خال، حبيب، عزيز، ذهبت مع السوريين إلى بلاد الإغريق، ومنها إلى السلافية فالروسية الحديثة، وصارت لىفلىف أي عم، خال.

وإن العمّة «عمتا» أو «أنتا» بالإبدال صارت بالإنكليزية aunt وبإضافة «تاء» التعريف السريانية صارت «تانت»... أي العمة... إلخ.

صورة رقم (15): أول نوتة موسيقية في التاريخ - أوجاريت - سوريا - الألف الثالث ق.م.



صورة رقم (61): رأس قيثارة – أور – الألف الرابع ق.م.

3 – تسميات تصنيفية:

ديموقراطيو. أرستقراطيو. بوروقراطيو. بورجوي (بورجوازي) إن جميع هذه التسميات سورية سريانية، وقد فهمت في الغرب، ولا سيما كلمة «ديموقراطيو» على غير ما هي في الأصل والحقيقة.

ـ ديموقراطيو demokrateo:

إن السوريين الذين نزحوا إلى بلاد المورة طوعاً أو كرهاً، كانوا يتجنبون الاختلاط مع السكان الأصليين، سكان الكهوف، اختلاطاً جنسياً شرعياً، حفاظاً منهم على نقاوة الدم وشرف المحتد. لذلك فقد عمدوا إلى تسجيل مواليدهم الشرعيين، متبعين في ذلك طقوساً معينة، منها إحضار الشهود، وأن يقسم الزوجان اليمين على أن المولود هو ابنهما الشرعي. لذلك فقد انحصر حق «المواطنية» في مجلس الندوة bole على النازحين السوريين وحدهم دون السكان الأصليين الذين أطلقوا عليهم اسم «الهمج» أو «البرابرة».

من هذا يقول الخطيب «ديموستينو»:

«إننا نتخذ الخليلات من أجل المتعة، والجواري من أجل العناية اليومية بأشخاصنا، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا أطفالاً شرعيين، وليكنّ حارسات أمينات على بيوتنا وأسرنا»[1]. ولهذا فقد حوكم ستيفانو على «ضخامة الجرم الذي اقترفه بدس أرومة أجنبية فاسدة على الـ «بولي» bole[2]. «لأن الـ «بولي» الإغريقية كانت نظرياً وعاطفياً مجموعة من الأقارب لا مجرد سكان منطقة ما»[3].

لهذا فقد نشأت هناك في ديار غربة السوريين هذه التسمية «ديموقراطيو» التي أساؤوا فهمها في الغرب إلى هذا اليوم، واعتبروها تعني «حكم الشعب!».

والحقيقة هي أنها مؤلفة من كلمتين سريانيتين: «ديمو» أو «دمو» demo وتعني: الدم، رابطة الدم، الأصل، الشخص القريب، ابن العشيرة، ابن النسب، كما تعني الشبيه، المثيل، الشبح. و«قراطيو» krateo وتعني: المسجَّل، المكتوب، المحفور، المنقوش... والمحصلة هي:

(1) كيتو، المرجع السابق، ص290.

(2) المرجع نفسه، ص303.

(3) المرجع نفسه، ص163.

الشخص المسجّل. وجمعها «ديمي قراطي» أي الناس المسجّلين. وليس لتلك الصيغة، لا بالشكل ولا بالمضمون، أي ما يمتّ بصلة لمفهوم «الديمقراطية» التي يتغنى بها المنظرون في الغرب بمفهومها السائد جاعلين مولدها في الغرب منذ عهد «الإغريق». وسنفرد لاحقاً بحثاً خاصاً بـ «الديمقراطية» من حيث منشأها وتطورها التاريخي كما تفهم اليوم.

- أرستقراطيو **Arestokpateo** :

كان السوريون النازحون إلى بلاد المورة هم وحدهم العارفين بشؤون الزراعة والفلاحة واستثمار الأرض. لذلك فقد كانوا هم أول المالكين للأراضي الزراعية حول المدن أو المستوطنات، فيؤجرون للعمل فيها غيرهم من السكان الأصليين بعد أن يعلموهم ويشرفوا عليهم. وحتى لا يتحول التنافس في ملكية تلك الأراضي التافهة الضيقة إلى صراع فيما بينهم فقد عمدوا إلى تسجيل أملاكهم، وهذا ما دعوه بـ «أرستقراطيو».

إن التسمية سورية سريانية مؤلفة من كلمتين هما:

«رستاق» restak أو «رزداق» وتعني في القاموس السرياني وفي «محيط المحيط»: الريف، الأرض الزراعية المحيطة بالمدينة. و«قراطيو» وتعني المسجّل. وصار صاحب هذه الأملاك المسجلة الذي يعيش على خيراتها وهو في قصره يدعى «أرستقراطياً» arestokrat. والهمزة للتعريف بعد أن حذف لامها من اللفظ لأن الراء من الأصوات الشمسية.

- **بوروقراطيو:**

ولما كانت تلك السجلاّت، سواء ما كان منها متعلقاً بالمواليد، أي بالمواطنين، أو بالأملاك، قابلة لأن تتعرض للتغيير أو التزوير، فقد عيّن لها موظفون خاصون في الـ «بولي» أي مجلس الأمراء، لفحصها وتدقيقها وحفظها. إن هذا الموظف دعي «بوروقراطي» bourokrati أي فاحص السجلاّت. والتسمية سورية سريانية مؤلفة من كلمتين هما: «بحورو» bhoro وتعني في القاموس السرياني: الفاحص، المدقق، الممتحن، الباحث، العالم، الخبير. وهي من الفعل «بْحِر» bher ويعني: فحص، بحث، دقق، تبحّر، علم، رأى. وقد سقطت «الحاء» كالعادة. أما «قراطي» فهي جمع «قراطيو» وتعني: المسجّلات، السجلاّت...

وفي كل هذه التسميات افترض علماء اللغة في الغرب أن «قراطيو» تعني: حكم، سلطة، وأخذوا يفسرون التسميات الثلاثة كما يلي: سلطة الشعب، سلطة الأقلية (!)، سلطة الموظفين أو المكاتب، لأن كلمة «بحورو» صارت beuro وفهموا منها المكتب.

وهناك اصطلاح فثوي آخر أحدثه صولون (= المصلح بالسريانية)، وهو الـ «تيموقراطي». يقول ول ديورانت: «وقد أضعف هذا التقسيم نظام القرابة الذي كانت تعتمد عليه قوة الأوليجارشية وأحلّ محله مبدأً جديداً هو مبدأ الـ «تيموقراسيا timo-cracy» أي حكم ذوي الشرف والمنزلة»[1].

والحقيقة إن الصيغة السريانية مكونة من «طهيمو» thimo أي: مطهمّ، كريم النسب، شريف، و«قراطيو» krateo أي المسجّل، المكتوب.

- بورجوي burgoi:

ولما كان كبار الأغنياء من السوريين النازحين منعزلين عن غيرهم، يسكنون قصورهم المحصنة بأسوار ذات أبراج، والمبنية عادةً فوق تلة مشرفة هي «عكروبولي» أي سلالة الأمراء، أو حصن الأمراء، فقد أطلقت عليهم هذه التسمية السورية السريانية «بورجوي» burgoi وهي النسبة إلى «بورجو» Burog وتعني البرج. ولما كانت الـ «بولي» هي في «البرج»، والبولي bole أي الأمراء، الأشراف هم أصل المدينة السكاني ونواتها، والبرج هو نواتها العمرانية، فصار يُفهم منهما معنى المدينة في الغرب.

فصارت «بطرس بورج» Peter burg تعني مدينة بطرس... وهكذا. ومن «بورجوي» burgoi السريانية جاءت bourgoes الفرنسية، و«بورجوازية» التي عاد العرب إلى نقلها عن الفرنسية، و«بورجوي» burgoi الروسية أي بورجوازيين أو الفئات الموسرة، المالكة.

4 - تسميات لمخترعات حديثة:

إن القرون الأربعة التي رزح فيها العرب للاحتلال التركي المتخلف البليد كانت هي المدة التي استغرقتها أوروبا لاستيعاب العلوم العربية وتحقق على أساسها نهضتها الحديثة، بعد أن ترجمت تلك العلوم، وظلت تدرّسها في جامعاتها دون أن تمتلك شيئاً ما غيرها[2] حتى منتصف القرن التاسع عشر.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 6، ص213 - 214.

(2) انظر: زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، «أثر الحضارة العربية في أوروبا» نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثامنة، 1993.

ثم ما أن تحولت تلك العلوم إلى نهضة تطبيقية وثورة في التكنولوجيا حتى أخذت أوروبا تتنكر لكل ما هو عربي، فأخذت تبحث لكل مخترع جديد عن تسمية تعبّر عنه في «تراث الإغريق ولغة الإغريق» جاعلين منهم «أوروبيين»، وأن العلم، أو الحضارة، ذو جذور أوروبية مستقلة منذ القدم. لكنهم لو علموا أن تلك التسميات التي نبشوا عن جذورها في «اللغة الإغريقية» ليست إلا تسميات سورية سريانية، لما كانوا، على الأغلب، تحمسوا لها، ولكن كما يقول المثل العربي: «أرادت ضرّي فنفعتني» و«رب ضارة نافعة».

أمثلـة:

حين اكتشفت الطاقة الكهربائية واخترع المصباح الكهربائي دعي «إلقترا» electra. وكنا قد شرحنا معنى «قترا» وقلنا إنها من أسماء عشتار وتعني: المتكبرة، المتعظّمة، المصباح. وواضحة فيها أداة التعريف العربية «أل».

حين اكتشفت الطاقة البخارية واخترع «المحرّك» جرى البحث عن جذر «إغريقي» ليعبر عن معنى «المحرّك» فوجدوه في «موتور» motor. والكلمة سورية سريانية وهي في القاموس السرياني من الفعل «أتير» ater ويعني: أثار، حرّك. «موتورو» motoero: محرّك، مثير.

ولما استثمرت طاقة «المحرّك» الميكانيكية في الحركة والنقل دعيت «ماكينا» makina machine، وهي من الكلمة السورية السريانية «ماكينا» makina و«مكنوت» meknot وتعني الأولى القادرة المستطيعة، وتعني الثانية: القدرة، الاستطاعة. وهما من الفعل «كان» kan ويعني في القاموس السرياني: قدر، استطاع، حدث، وجد، كان. ومنها جاء الفعل can في الإنكليزية بمعنى قدر. وللتعبير عن النقل والحركة عثروا على كلمة «موبيل» mobil وهي في القاموس السرياني من الفعل «يبلْ» ebel ويعني: أوصل، أبلغ، نقل، أدى، ذهب بـ، سلّم. يوبيل eobil مناوبة، معاقبة، تسلسل، تقليد، تسليم، حق موروث، زمان، وقت، حقبة، تاريخ. ومن هذه المعاني الأخيرة جاء تقليد اليوبيل الفضي والذهبي والماسي.

ومن المعنى الأول (النقل) جاءت كل الاشتقاقات في اللغات الأخرى مثل: mobilize، mobile... إلخ.

وإن كلمة «أطوم» atom بمعنى ذرة، هي كلمة سريانية كان أول من استخدمها الباحث والفيلسوف السوري «ديموقريط» الذي تلقى علومه في بابل.

والكلمة في القاموس السرياني «أطوم» atom و«أطيم» وتعني: ذرة، جسم، شخص، فرد، مصمت، غير مجوّف، مطموم، مسدود، راسخ، ثابت، غير متزعزع، كثيف، مادّي، حقير، صغير، دقيق، زهيد... و«أطيموت» atimot: صلابة، قساوة... و«أطوموت» atomot: فردية، ذرية، جسمية...

وحين اخترع التلفزيون television كان لا بدّ من البحث عن كلمة ما في «الإغريقية» تعبر عن وظيفة هذا الجهاز الجديد، وهي نقل الرؤية، فكانت television.

والحقيقة إن الكلمتين من أصل سوري سرياني. قلنا سابقاً إن الفعل «حزي» heze يعني في السريانية: رأى، نظر متبصراً بالعواقب، تنبأ، تكهن، صار نبياً، صار حكيماً. وفي الفصحى، الحازي هو الرائي، والذي يرى متبصراً بالعواقب.

وبينّا كيف أن الحاء في أول الكلمة صارت همزة. إن «حيزيث» hizeth بمعنى العرّافة، النبيّة صارت Izith» ثم Izis وهي زوجة أوزيريس. وفي إيطاليا تحولت الحاء إلى w، ثم بعد اجتياح القبائل الجرمانية لها وتأثير لهجتهم الشمالية، صارت v. وهكذا فإن «حيزيون» hizion التي تعني بالسريانية رؤية، مشاهدة، تبصر، معرفة، صارت vision.

أما tele فهي من الفعل السرياني «تْلي» tle ويعني: تلا، قرأ، نقل، حث، حرّض، أشاع، أذاع.

والشيء نفسه مع «تليفون» telephone أي نقل الصوت أو رجع الصوت أو ارتداده، أو تردده، إذ أن «فون» phone في السريانية تعني: رجعة، عودة، ارتداد، رجع، صدى... إلخ. وهي من الفعل «فنْى» phne أي: رجع، ارتد، عاد... ومنها كان اللقب «أكسينوفون» أي المبعَد العائد، لأن «أكسينو» Aksino تعني: مبعد، منفي.

5 – مصطلحات حديثة على أساس خاطئ:

- **فيلوسوفيا Philosophy • فيلولوجيا Philology**

انطلاقاً من إصرار علماء اللغات في الغرب على جعل كل الأصول «غربية» ومنها الفلسفة، فقد تضافر الجهل مع التعصب لينتجا صيغاً لمصطلحات لا تقوم على أساس.

قالوا: إن «فيلوسوفي» كلمة يونانية (أو إغريقية) تعني «أحب الحكمة» إذ أن «فيلو» تعني أُحب، و«سوفي» تعني الحكمة. وهذا هراء! فلو سلّمنا بهذا التخمين سينتج لدينا أن معنى «فيلولوجيا» هو أحب اللغة، لأن «لوجيا» هي من «لوجوس» أي اللغة!

وإذا ما سلّمنا بهذا الهراء أيضاً فكيف نفهم معنى «جيولوجيا» و«بيولوجيا» و«إيكو لوجيا» وعلى أي أساس تمّت صياغتها؟ قالوا: لا. إن «لوجيا» لا تعني اللغة، بل تعني العلم! إن كان الأمر كذلك فكيف نطبقه على «فيلولوجيا»؟ هل يصبح معناها علم الـ «فيلو»؟ وإذا كانت «فيلو» تعني «أُحبّ» فهل صار معناها «علم أحب» أو «علم الحب»؟ إذن كيف أبقيتم عليها لتدل على علم اللغة، وصارت كلمة «فيلولوج» تعني اللغوي، العالم باللغات؟

أما الحقيقة فهي أن جميع الفلاسفة «الإغريق» هم سوريون نازحون وأن لغتهم هي السريانية، ولم يتكلموا أو يكتبوا أو يبدعوا بأية لغة أخرى. وهذا ما سوف يأتي لاحقاً وبالتفصيل.

أما «فلسفة» Philosophy فهي مكونة فعلاً من كلمتين، لكن سريانيتين، هما «فيلو» التي Philo، وتعني: الباحث، الطالب. وإن Sophy هي من الكلمة السريانية «صوفي» وتعني: التوهج، الاتقاد، الاشتعال. وهذا كله يعني التخلص من أثقال المادة والتوهج بنور العقل، من أجل الاتحاد بشمس العقل الأول المبدع لكل شيء. وهذا كله لا يتم إلا بالحب. وكلمة «الحب» هي بالسريانية «حوب» hub وتعني حرفياً: الاتقاد، الاشتعال، التوهج. ومن هنا كانت عشتار هي «ربة الحب» و«ربة الشعلة» لأن الحب هو الشعلة. وهذا كله لا يوصل إليه إلا بالتأمل. وهذا شيء، و«الحكمة» شيء آخر. إن «الفيلسوف» في الأصل السوري شيء، و«الحكيم» شيء آخر. فالحكيم هو «حكيمون» التي صارت في الغرب الإغريقي «أكيمون» و«أكيموس»، وباللاتينية «أسيمون» و«أشيمون». والحكيم بالسريانية وبالفصحى هو العالم صاحب الحكمة المتقن للأمور. ولا يسمّى الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل. لهذا قال الشاعر:

وهذا شيء، والتصوف أو الاتقاد والتوهج بنور العقل للوصول إلى المعرفة الحقة شيء آخر.

أما «فيلولوجيا» Philology فهي من كلمتين سريانيتين تعنيان امتهان اللغة. لأن «لوجي» هي من الفعل السرياني «لْجا» lga ويعني: لغا، قال، نطق، تكلم. و«لوجو» logo تعني: قول، نطق، لغة، كلام، كلمة، و«ملاجو» أداة النطق، اللسان. وهي التي صارت في بلاد الإغريق logos بعد إضافة السين الاعتباطية، ثم أخذ علماء اللغات في الغرب يضربون الأخماس بالأسداس من حولها حتى أفقدوها جوهرها. وخاصة عندما جوبهوا بالمقولة التراثية العربية الموغلة في القدم «الخلق بالكلمة» و«في البدء كانت الكلمة» التي هي الـ logo، فضاعوا وضيّعوا معهم الآخرين.

وهكذا يصبح معنى «فيلولوجيا» العامل باللغة، المتهن اللغة، الباحث اللغوي. ولما افترضوا أن «لوجيا» logy تعني «علم» فقد تناسوا «الخطيئة» التي ارتكبوها مع «فيلوسوفي» و«فيلولوجي» وأخذوا يصوغون الاصطلاحات الأخرى بناء على هذا الافتراض الجديد مثل: «جيولوجيا» geology، إيكولوجيا ecology، ابستمولوجيا epstemology... وغيرها.

ولم يعد يهم الأساس الخاطئ الذي صيغت بناء عليه مثل هذه الاصطلاحات، بل كل ما يهمنا هنا هو الكشف عن الجذر السرياني في كل هذه العلوم بعد تجريدها من فرضية أن «لوجيا» تعني العلم.

إن «إيكولوجيا» ecology التي يعنون بها علم البيئة قائمة في أساسها على الكلمة السريانية «إيك» أو «إيكو» eco وتعني: المكان، الأيْن، حيث. وفي الاستفهام تستخدم للاستفهام عن المكان مثل: إيكو هو؟ eco ho أي: أين هو؟ ذهبت مع السوريين إلى المغترب في بلاد المورة وحسبوها في الغرب «إغريقية» أصيلة، وبنوا عليها الاصطلاح.

وإن جيولوجيا geology قامت على أساس الكلمة السريانية «قيعا» keaa التي صارت gea وهي في الأساس تعني الأرض. وكنا بيّنا كيف أن صوت القاف k يتحول في الغرب إلى g. وقد سقطت العين حتماً. وفي الفصحى القاع والقيعة الأرض السهلة المطمئنة.

وإن إبستمولوجيا epistemology التي صاغوها ليعنوا بها «علم المعرفة» قائمة في أساسها على الجذر السرياني «أفيس» apes ويعني: عرّف، أقنع، برهن. مفوسو mposo: عارف، متيقن، خبير. فيستو pisto: معرفة، تيقن، برهان. فيستيمو pistemo: عارف، متيقن، وإفستيمو epistemo تعني الشيء نفسه مع أداة التعريف. وكنا ذكرنا من ذي قبل كيف أن الفاء يلفظها السريان ذ في كثير من الأحوال.

6 – أمثلة لـ «عيّنات» من مجالات مختلفة:

إن اللغات الأوروبية، التي تشكلت أصلاً من مزيج من لغة حضارية هي السورية السريانية ولغة السكان الأصليين الهمج البربرية، في كل بقعة أو أرض من البقاع التي انتشر فيها السوريون الأقدمون، قد تضمنت كماً من الكلمات السريانية، هي من الكبر والاتساع والضخامة بحيث لا يخطر على بال. وإليكم بعض الأمثلة:

* إن كثيراً من الكلمات السريانية سواء بُدئ مقطعها الأول بالنون أو بدونها لا يغير ذلك من المعنى شيئاً: مثل بنت ـ بت، مسارو ـ منسارو (منشار)، مجالو ـ منجالو (منجل).

إن هذه الظاهرة ذهبت معها إلى اللغات الأوروبية.

أمثلة:

• داص ـ دانص dance بالسريانية تعني رقص.

• أجيليو ـ أنجيليو angeleo تعني: وحي، إلهام، ملاك. صارت angeleo بمعنى إنجيل، وحي، angle بمعنى ملاك، ناقل الوحي.

• عتيقا ـ عنتيقا (قديم، عتيق) صارت antique بمعنى عتيق، قديم.

• قنفيزو (مطرود، منبوذ) صارت konfuse. قيسوار، و«أقيسوار» (زينة، أدوات زينة) صارت إكسسوار.

• فيتوو (فتوى، حكم، أجل، مهلة) صارت fate بمعنى قدر، قضاء، حكم... أإر aer (جو، هواء) و«إيار» بالفصحى: هواء. بقيت air في كل اللغات الأوروبية لتعني الجو، الهواء.

• فيرنيتا fernita (جهاز العروس) صارت ferniture.

• **مع أداة التعريف:**

إن كلمة «إيك» aik السريانية تعني: مثل، شبه، شبيه، مثيل. ومنها «هيك» بالعامية الدارجة أي مثله، هكذا. صارت: like alike مع أداة التعريف العربية.

ومن «عر» «يعر» (بمعنى يغري، يفتن) جاءت allure بعد إضافة أداة التعريف وسقوط العين، بمعنى الإغراء، ويغري.

ومن «أتر» (بمعنى آثر، فضّل على نفسه ومنها الإيثار) جاءت altruist، altruism أي: الغيرية، الإيثار، بعد إضافة «أل» التعريف.

ومن «حولو» holo (بمعنى: ثقب، شق، غار) جاءت hole، alveolus بمعنى الثقب الرئوي، بعد تحوّل الحاء إلى V وإضافة أل التعريف.

• **أفعال مشتقة من كلمات عربية من السريانية والفصحى:**

أمثلة:

• من «عزلة» جاء الفعل isolate (بمعنى يعزل)، isolation بالإنكليزية والفرنسية، -iso latsia بالروسية بمعنى عزلة.

• من «هزّة» جاء الفعل hesitate (بمعنى اهتز، تردّد).

• من «برحت» breht السريانية (بمعنى تقييم، فحص، كشف، فضح) وهي من الفعل «برحْ» breh (أي قيّم، فحص، كشف، أوضح، صقل، أبرق، جعله يلمع ويضيء، فضح، عاب، شان) وهي العملية التي ترافق تقييم وزنات الذهب والفضة أو العملة بوجه عام من أجل تقييمها. فقد تحولت الحاء باللاتينية إلى e ثم انتقلت إلى الإنكليزية بصيغة ذْى كه، appreciation بمعنى تقييم، تثمين.

• وإن كلمة «أفردْ» afred السريانية تعني: أفزع، نفّر (الطيور أو الحيوانات خاصة)، أجفل، أفرد، أي جعل كلاً ينفر في اتجاه، صارت afraid.

• وإن «فيور» fior تعني: النار، فوران، تموّج. صارت fire.

- وإن «ناطورا» natura تعني: سنّة، قانون، دورة طبيعية وهي من الفعل «نطِرْ» nater بمعنى انتظر، تربّص، حفظ، حرس، راقب، وقف على الحياد. فمن natura بمعنى الدورة الطبيعية التلقائية جاءت natura ،nature بمعنى الطبيعة. ومن الثانية كانت كلمة natural بمعنى محايد، neitral.

- ومن «ميسورا» mesura السريانية (بمعنى خيط للقياس) جاءت كلمة mesure بمعنى يقيس.

- ومن «دوكاتو» dokato السريانية بمعنى: نائب مناب، قائم مقام، وكيل، جاءت -avo cato الفرنسية advocat الروسية بمعنى محام، وكيل.

- ومن «لْقِطْ» و«إلقط» elket السريانية التي بمعنى: اختار، انتخب، لقط، جنى، قطف، جاءت elect بكل مشتقاتها في اللغات الأوروبية بمعنى: انتخب، اختار.

- ومن «يريتوث» eritoth و«هيريتوث» heritoth السريانية التي بمعنى ميراث، إرث، جاءت heritage.

- ومن «طبْع» tabe بمعنى طباعة، و«طابع» tabe جاءت tipe بمعنى طباعة، tip بمعنى طابَع، نموذج، tape بمعنى شريط مطبوع أو مسجّل.

* وفي مجال اللياقة واللباقة الاجتماعية، هل يخطر ببال أحد أن «هتيقا» hetica السريانية تعني: سيرة، سلوك، أدب، علم الأداب. التي جاءت منها ethica بمعنى علم الأخلاق. وأن الفعل السرياني «لِتِكْ» letek يعني: لاق، ناسب، لاءم. و«لِتِكوت» letekot تعني: لباقة، التي جاءت منها الـ«إتيكيت» التي يحسبها الناس إنتاجاً للحضارة الغربية الحديثة!

* وهل يخطر في بال أحد أن أصل مثل هذه الكلمات عربي وسرياني:

- فعل الكون الإنكليزي is هو من إيث ith السرياني، و«إيس» الفصحى، والأيس بالفصحى يعني الوجود، الكون!

- «فيلاّ» أصلها «حيلاّ» وقد تحولت الحاء إلى V. والحِلّة بالفصحى: المحلة، البيت، المجلس.

- Drop الإنكليزية بمعنى قطر، أصلها «درف» drop بالسريانية و«ذرف» بالفصحى، واستذرف الشيء قطره.

- «الحوطة» hotha بمعنى الدارة، صارت في اليونان «أوثا» otha وباللاتينية oda لأن كل ثاء تتحول في اللاتينية إلى d وهي: الدارة، الغرفة الرحبة، القاعة، (الأودا)، ومنها جاءت أوداتوريا audetoria أي قاعة التعليم. لأن «تار» taer بالسريانية: علّم، و«ترْؤو»: تعليم. و«ميتران» meteran و«مِتر» metr: معلّم...

د ـ ظاهرة «التاريخية» و«الاستراتيجيا» في «الفعل» العربي:

كنا قد أشرنا فيما سبق إلى أن «الفعل» هو الجذر، وهو أصل الكلام كله في اللغة العربية بلهجتيها السريانية والفصحى.

وإذا كان الإنسان العاقل منذ بدء ظهوره قد تميز عن باقي المخلوقات بالعقل الذي هو قوة الخلق فيه، فإن «فعل» هذا الإنسان كان ينبغي أن يتميز بكونه فعلاً عقلياً، أي صادراً عن العقل. وإن كل فعل عقلي يستند بالضرورة إلى وعي بالواقع من أجل أن يعود ويفعل فيه من أجل تغييره بما يتلاءم والغرض المنوي تحقيقه. وبالتالي فإن كل فعل عقلي هو حتماً فعل استراتيجي ينطلق من واقع راهن لتحقيق واقع آخر، وهو بهذا فعل واع من جهة، وهادف من جهة أخرى، وهذه بالضبط هي الاستراتيجيا. إن الاستراتيجيا في أبسط تعريف لها هي خطّة أو مجموعة خطط توضع بناء على معطيات واقعية معينة من أجل تحقيق هدف أو حزمة من الأهداف قابلة للتحقيق. وهي في الأصل من الكلمة السريانية «اسطرا» estra و«اسطراتا» estrata وتعني خطّة، وهي من الفعل «سِطِرْ» seter أي سطرَ، خطّ.

وهكذا فإن الفعل في اللغة العربية هو في جوهره تحقيق لهذه الظاهرة: إنه فعل عقلي، وبالتالي هو فعل واع وهادف، وبكلمة إنه فعل استراتيجي.

إن الفعل السرياني «سْكلْ» skel على سبيل المثال يعني: جهل، حمق، علّم، عرّف. فكيف جمع المتناقضين؟ ببساطة نقول: لأنه فعل استراتيجي، انطلق من واقع معين الذي هو الجهل، لتحقيق واقع آخر جديد الذي هو العلم. فالواقعية في المفهوم العقلي ليست ما هو موجود، بل الموجود المتغير بفعل العقل.

إن العربي أو السوري القديم حينما وقف على إحدى ضفتي النهر وفكر في عبوره لم يكن هذا التفكير دونما غرض. إن عبور النهر ليس فعلاً غريزياً هنا حتى وإن توفرت الوسائل كالزوارق مثلاً. فإن كان ثمة أسرة ما تقطن على الجانب الآخر من النهر لن يكون العبور إليها إلا من أجل تحقيق غرض ما. قد يكون زيارة سلمية وقد يكون عدواناً. والفعل العربي أو السرياني لا يتخلى عن كونه خطة تسعى لتحقيق غرض. فلو نظرنا في القاموس السرياني إلى الفعل «عبرْ» aber لوجدنا المعاني التالية: عبر، اجتاز، اعتدى، حارب، ضاف، حلّ ضيفاً على، أي إنه تضمن المعنى في اتجاهيه: الغزو والضيافة. إن الغرباء عن اللغة العربية قد يستهجنون هذا التناقض في المضمون للفعل العربي لأول وهلة، إذ أن هذه الظاهرة التي هي جزء من عبقرية اللغة العربية تنفرد بها بلهجتيها السريانية والفصحى بين باقي لغات العالم، إذ هي تجسيد لظاهرة العقلانية والاستراتيجية في فعل الإنسان العاقل.

ولما كانت العربية السريانية هي لغة الإنسان العاقل منذ أن بدأ العيش في جماعة فإن كل «فعل» في هذه اللغة هو الجذر وهو الأصل، ويحكي قصة كاملة.

ولإيضاح الظاهرة التاريخية لنأخذ الفعل السرياني «عبدْ» فقمل على سبيل المثال، ولنتأمل في سلسلة المعاني لهذا الفعل في القاموس السرياني. إنه يعني: عمل، فعل، صنع، خلق، برأ، جعل، نصب، ولّى، سلّط، صلح، نفع، اقتنى، ملك، ساعد، أعان، أسعف، احتفل، اهتم، قضى، مكث مدة في موضع، أساء، عمل شراً، أهمل، مثّل، ناب، قام مقام، حُثّ، أثير، تخبط، صرع الشيطان أحداً، جعله يفعل ويصنع، انتقم، عاقب، تاب، طلب العفو، خضع، أطاع، شاخ، ابيضّ شعره، استعبد، استرق، أخضع، قهر...

أليس في هذه المعاني لفعل سرياني واحد تلخيص لقصة «آدم» الإنسان العاقل كلها: فقد خلقه الخالق، ونصبه خليفة له على الأرض ليعمل ويصنع ويخلق ويساعد ويعين ويهتم، لكنه أساء وخضع للشيطان، فتخبطه، بعد أن أقام في الجنة فترة، فعوقب بإخراجه من الجنة، ثم تاب وأطاع وعانى الموت، ثم استعبد بعضه بعضاً. إن الفعل هنا مثل المستودع أو السلة، يستوعب كل طارئ جديد يطرأ ويضيفه إلى مخزونه في الزمان والمكان.

إن مثل هذه الظاهرة لن يعثر عليها إلا في اللغة التي واكبت الإنسان العاقل الأول منذ بدء وجوده إلى اليوم. وهي الظاهرة التي يمكن أن نسمّيها بـ «الكلمات المجنّحة» أي التي تطير بأجنحة كثيرة هي معانيها الكثيرة. وبالطبع كان من المستحيل أن «تطير» الكلمات السريانية لتحط في لغات الأقوام الأخرى بكل أجنحتها التي هي معانيها. وكثيراً ما نلتقي بها هناك بجناح واحد.

إن فعل «كان» can على سبيل المثال في القاموس السرياني يعني: كان، وُجد، تكوّن، صار، حدث، قدر، استطاع، كوّن، أبدع، خلق، نفع، أفاد، عدل، استقام، كان عادلاً.

إنه «فعل» سرياني آخر لا ينفصل عن هدفه أو الغاية منه. فماذا بقي منه حين وصل إلى الإنكليزية، على سبيل المثال، غير can التي بمعنى: قدر، استطاع؟ والتي منها «ماكينو» و«مكنة» و«مكنوت» و«إمكانية»؟ وهناك كلمات لم يبقَ من مضامينها غير ملحقاتها الثانوية.

إن «حول» hol و«حولون» holon تعني بالسريانية: كهف، غار، مغارة، ثقب، شق، سرداب... وإن «حولي» holy تعني: ناسك، زاهد، ساكن الكهوف والمغاور، معتزل. فمن «حول» hol جاءت الكلمة الإنكليزية hole بمعنى ثقب. أما حولي holy، أي الناسك ساكن الكهف، فقد فقدت معناها الأصلي في السفر ليبقى منها ما لحق بها من معنى ثانوي وهو «المقدّس» إذ اعتبروا أن الراهب أو الناسك المعتزل في المغارة مقدّس، فصارت holy بالإنكليزية تعني «مقدس» وغاب المعنى الأصل للكلمة، وعبثاً نبحث عن «جذر» لهذه الكلمات في اللغات الأوروبية.

وهنا تبرز الظاهرة الأخرى التي انفردت بها العربية بلهجتيها السريانية والفصحى، وهي أنه يستحيل أن تجد كلمة عربية ليس لها جذر في الفعل، وهذا دليل آخر على المعنى الواسع من جهة، وعلى الأصالة من جهة أخرى.

أما اللغات الأوروبية فإن قواميسها تعجّ بالكلمات التي ليس لها جذور، وبالتالي لا يعرفون لها أصلاً، وهي تشكل معظم الكلام في القواميس، كما أنها، في معظمها، جاءت من السريانية.

إنك لو سألت إنكليزياً، أو إيطالياً، أو فرنسياً، أو روسياً، أو غيرهم ما هو جذر كلمة medicine، على سبيل المثال، في لغاتكم؟ لأجابوا إنها جاءت من اللاتينية. ولو سألتهم ما هو جذر كلمة medicine في اللاتينية لوقفوا دون أن يحيروا جواباً.

إن الكلمة هي من الفعل (الجذر) السرياني «إيسي» eci ويعني: آسى، داوى، عالج، طبّب، والأسي هو الطبيب. «تإيسي» teece: تآسى، تداوى، تطبب. «مثإيسيو» methe-cio: متآسٍ، متعالج، متداو، متطبب. «مثإيسينا» methecina: قابل للعلاج، طب، علاج، دواء. وإن كل «ثاء» تحولت في اللاتينية إلى d.

لنتأمل الآن في فعل سرياني آخر هو «كلا» kala، على سبيل المثال، وسنرى كيف ضاع هو كجذر وكأصل، ثم تطايرت مشتقاته وحدها، أو معانيه، أو «أجنحته» في كل اتجاه دون أن يهتدي أحد إلى أصله.

إن الفعل «كلا» kala في القاموس السرياني يعني: كلأ، حمى، رعى، حرس، حفظ، كبح، أوقف، عاق، أغلق، سكر، قفل. واسم الفاعل منه «كولي» koli أي الحامي، الحارس، الراعي. و«كولونيا» kolonia تعني المحميّة. وهي التسمية التي كان يلحقها الأباطرة السوريون الذين حكموا روما لبعض المدن السورية كامتياز من قبل الإمبراطور يقصد به أنها محمية من قبله شخصياً ولا يجرؤ أحد على النيل منها. وقد قلب مفهومها في الغرب إلى «مستعمرة» أي محتلة، واشتقوا منها نظامهم الاستعماري kolonealizm.

ومن اسم الفاعل «كولي» بمعنى الحامي، الكابح، الموقف جاءت كلمة «كوليه» الفرنسية بمعنى كابح، موقف (فرامل).

ومن «كليوث» kileoth السريانية بمعنى مانع، عائق، جاءت كلمة «كيلوت» أي السروال الداخلي.

ومن «كليوي» السريانية بمعنى «قِفل» جاءت kle بمعنى قفل، مفتاح، ومن «كليوث» السريانية جاءت «كليوتش» kleoch الروسية بمعنى مفتاح، قفل. كما جاءت كلمة kle الروسية بمعنى لاصق، موقف، مثبت.

هـ - ظاهرة أخرى تختص بالصياغة:

ونعني بها هنا إضافة مقطع er إلى نهايات بعض الأسماء لتدل على صاحب الشيء أو فاعله. أمثلة:

• «قنبا» بالسريانية تعني قنّب، «قنبار»: صانع حبال القنّب.

• «بازيقا» تعني: بازي أو باشق، «بازيقار» الصائد بالباشق.

• «نفط» كلمة سريانية، «نفطار» حامل مشاعل النفط.

• «سكولا» تعني مدرسة، «سكولار»: معلم أو تلميذ... إلخ.

وقد ذهبت هذه الصيغة إلى الغرب لتستخدم في صياغة اسم الفاعل حتى من الأفعال، مثل: reader, teacher, user ...

كان ذلك غيضاً من فيض. نحن، إذ نتحدث عن تأثير السريانية في اللغات الأوروبية، نشعر وكأنما نغرق في بحر. وقد تعمدنا أن نأتي بالأمثلة من اللغات التي يفترض أنها أبعد عن مثل هذا التأثير كالإنكليزية والروسية، ولو تحرّى الباحثون مثل هذا التأثير في لغات أخرى كالإيطالية والإسبانية لكان الأمر اكثر إدهاشاً. وقد تعمّدنا أن تكون الأمثلة شاملة وتغطي كل مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية.

لكننا الآن نختم هذا البحث مكتفين بما أوردناه من أمثلة، متمثلين بالقول الشعار الذي نقشه «صولون» ذات مرة على جدار معبد أبوللون في «دلفي»: MEDINA GANZA[1] ويعني بالسريانية «القناعة كنز». فكلمة «ميدينا» في القاموس السرياني من الفعل «دْني» dne: قنَع، رضي، دنا، قرُب. «إدني» edne: أقنع، أرضى، قرّب، أدنى. «ميدينا» medina: قناعة، رضى، اقتراب. أما «جنزا» ganza فتعني كنز. وهو المثل العربي الشهير «القناعة كنز لا يفنى».

وجدير أن نشير هنا أيضاً إلى أن اللقب «صولون» Solon يعني بالسريانية المصلح، وهو من الفعل «صلى» بمعنى أصلح.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 6، ص218.

نتائج:

من خلال ما تقدم صار حتمياً ومؤكداً أن نخلص إلى النتائج المهمة التالية:

أولاً - إن السوريين هم السكان الأصليون لما دعي فيما بعد بـ «سوريا الطبيعية» وشبه جزيرة العرب: وقد شغلوا هذه المنطقة منذ التجمعات الأولى للإنسان العاقل الأول.

وقد أكدت كل معطيات علوم الأنتروبولوجيا، بالإضافة إلى معطيات العلوم الأخرى كعلم الجغرافيا، والمناخ، والمنطق... أن أرض السوريين هذه هي المهد الأول للإنسان العاقل التي فيها وجد، وتكاثر، وأبدع، ومنها توسع وانتشر بشراً وثقافة إلى شتى بقاع وجوده الأخرى. وقد تميز وجوده في سوريا بأنه: الوجود الأصيل غير الوافد، المستمر والمتواصل دون انقطاع، والأقدم في الزمن.

ثانياً - إن اللغة التي تكلم بها سكان سوريا منذ التجمعات الأولى للإنسان العاقل الأول وحتى التحرير العربي الإسلامي هي العربية بلهجتها السريانية. إن السورية (أو السريانية) Syrian هي لغة التخاطب اليومية، ولغة الدولة الرسمية، واللغة المدونة والمكتوبة في كل الوثائق المحفوظة والمكتشفة في كل الحقول والمجالات: الاقتصادية، والدينية، والسياسية، والتشريعية، والتجارية وغيرها. وهي نفسها اللغة التي حملها معهم السوريون إلى بلدان الانتشار في حوض البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأسود، وفي الجزر، ومن وادي السند شرقاً إلى الشواطئ الأمريكية غرباً. وقد جرت عمليات تصويرها في كتابات مختلفة، كما تعرض الكثير من أصواتها، ولا سيما الحلقية منها، إلى عمليات تحوير وتغيير كانت تختلف من مكان إلى آخر ومن بقعة إلى أخرى من بقاع انتشار السوريين، فكانت تختلط في كل بقعة مع اللغة الشفوية للجماعة السكانية الهمجية الأصلية لتكوّن مع الزمن ما صار يدعى فيما بعد بـ «اللغات الأوروبية» غرباً و«اللغات الهندية» شرقاً. إن القاسم المشترك بين المجموعتين في الشرق والغرب هو السريانية التي هي الأصل الحضاري لهما معاً. إن هذا من شأنه أن يسقط النظرية الألمانية التي اخترعت حديثاً في تقسيم الشعوب عرقياً ولغوياً إلى مجموعتين: «سامية» و«هندو أوروبية».

ثالثاً – إن الدولة السورية بشتى تسمياتها المرحلية نسبة إلى المركز أو العاصمة، الأكادية والبابلية والآشورية، هي أقدم دولة عرفها التاريخ بالمعنى الشمولي التكاملي للدولة، وبكل جوانبها: السياسي، والاقتصادي، والثقافي، والعسكري، والحقوقي، والإداري. فتمكّن من خلالها العرب السوريون، لأول مرة في التاريخ، من تجسيد مفهوم الأمة، وتجسيد المضمون القومي للدولة. وكانت رقعة تلك الدولة منذ أن أسسها سرجون الأكادي تمتد من البحر الأعلى (البحر الأسود) إلى البحر الأدنى (بحر العرب والخليج العربي)، ومن وادي السند شرقاً إلى جزر اليونان غرباً. وقد برهن السوريون على تمسكهم بوحدة دولتهم القومية عبر عدة آلاف من السنين قبل الميلاد. وفي كل مرة كانت تتعرّض تلك الدولة للغزو أو للتصدع كانت سرعان ما تنهض وتستعيد وحدتها من جديد. إن ذلك هو ما حدث زمن أشهر ملوكها بعد سرجون: شولجي، أورنامو، نارام سين، حمورابي، سمير اميس، سنحاريب، نبوخذ نصر، سرجون الثاني، وآشور بانيبال... أي حتى القرن السابع قبل الميلاد، وفي زمن الإسكندر ومن خلفه من الملوك السوريين حين صارت العاصمة سلوقيا ثم إنطاكية.

يقول موسكاتي:

«لقد وسّع سرجون إمبراطوريته، فشملت بابل وآشور وسوريا الغربية كلها، إذ دخل آسيا الصغرى، وامتدت تجارته إلى قبرص. وكان لدولة أكاد في عهده إدارة منظمة ومركزية أصبحت فيما بعد مثالاً للأنظمة اللاحقة. ومنذ ذلك العصر ظهرت بوضوح نزعة إلى الملكية الشاملة طبعت كل تاريخ آسيا الأمامية بطابعها حتى عصر الإسلام»[1].

إن هذه الحقيقة التي أثبتتها كل علوم الأنتروبولوجيا، بما فيها علم الوثائق والآثار المكتشفة، من شأنها أن تسقط كل تلك التسميات التجزيئية المغرضة لتاريخنا القديم مثل «حضارة الرافدين» و«حضارة ما بين النهرين» وغيرها من التسميات الشعوبية أو التوراتية الأخرى. وصار ملزماً لكل الجهات المشرفة على وضع المناهج التدريسية في

(1) موسكاتي، تاريخ وحضارة الشعوب السامية، ص49.

المدارس والمعاهد والجامعات أن تصحو من غيبوبتها وتخلفها وجهلها وركودها، وأن يتم تجاوز وجودها المحنّط العاجز حتى عن استقبال الحقائق الجديدة وتوظيفها في إعادة الألق إلى وجه تاريخنا المشوّه والمغيب، بكل ما يترتب على ذلك من نتائج بالغة الأثر والتأثير في تشكيل وبناء شخصية الجيل الراهن والأجيال المقبلة.

رابعاً – إن سوريا، الوطن والدولة والشعب، ظلت طيلة العصور القديمة والعصر الوسيط، محاطة من ثلاث جهات بالهمجية، أو ما دعي بـ «برابرة آسيا» و«برابرة أوروبا»[1]، وبالتالي فإن كل الإبداعات والإنجازات الثقافية والحضارية التي تمت على أرض سوريا خلال تلك العصور التاريخية الطويلة إنما هي إبداعات محلية أصيلة. وهذا تحديداً هو ما يعترف به معظم المؤرخين في الغرب، رغم تعمّدهم إخفاء اسم «سوريا»، تارة تحت مجموعة من الأسماء الشظايا مثل بابل وأشور وفينيقيا، وتارة أخرى تحت تسميات جيوسياسية حديثة مثل: الشرق، الشرق الأدنى، آسيا، آسيا الصغرى، الشرق القديم وغيرها.

يقول بريستد:

«ماذا فعل الشرق القديم للجنس البشري في هذه الحقبة الطويلة؟ لا مراء في أنه حبا العالم بالصناعات الأولى، بالغةً درجة عالية من الإتقان، كالصناعات المعدنية، والنسيجية، والزجاج، والورق، وغير ذلك من ضروب الصناعات، وبناء أقدم السفن. وقد سبق «الشرق» أهل الأرض طراً في رفع الأثقال، والإقدام على تشييد المباني الكبرى. «فالشرق القديم» قد نفح العالم باختراعات جمة مهمة لا يفوقها إلا اختراعات هذا العصر. لقد أخذ الغرب عن الشرق القديم أقدم المباني الحجرية الفنية، والأروقة المعمّدة، والأبراج اللولبية الشكل، وأقدم المنحوتات المكملة الصنعة، من الصور والتماثيل الهامة إلى الأختام النفيسة... وأخذ عنه أيضاً الكتابة وحروف الهجاء، وأقدم الروايات المنثورة المعروفة، والقصائد الشعرية والأسفار التاريخية، والمباحث الاجتماعية، حتى الروايات الشعرية التمثيلية، وتقويم السنين الذي لا يزال الغرب يستخدمه حتى اليوم، ومبادئ الحساب، والفلك، والطب. وقد نظم الشرق أول حكومة كبيرة من أمة واحدة عظيمة»[2].

---

(1) انظر: بريستد، المرجع السابق، ص592, 593, 622, 626, 623, 505, 629, 630, ,,287.

(2) بريستد، المرجع السابق، ص6.

إنه، إذن، اعتراف واضح بوجود «الأمة الواحدة العظيمة» منذ ذلك الزمن. ولن يضير هذه الأمة تجنبهم لذكرها بالاسم، كما لا يغيّر من جوهرها في شيء إن دعوناها سورية أم عربية أم عربية سورية.

إن السوريين الذين امتلكوا لغة مكتوبة على غاية من التطور والدقة في التعبير منذ ثمانية آلاف سنة على الأقل، أي منذ آدم الرسول وكتابه «كنزا رابا» (الكنز الكبير) المحفوظة نصوصه إلى اليوم، ونظموا بها الشعر ودونوه في ملاحم وأساطير وقصائد وحكم وأمثال، وتدوين للتاريخ وللأحداث وللقصص والمسرحيات، كما دونوا بها أقدم نظم للشرائع والحقوق والعقود منذ خمسة آلاف سنة، كانوا هم وحدهم أصحاب تلك الإنجازات الثقافية الشعرية والنثرية في كل مواقع انتشارهم شرقاً وغرباً.

إن بلاد الإغريق كانت أول من عرف الكتابة في الغرب، وهي لم تعرفها إلا بعد 700 ق.م. ولقد كان ـ وكما سبق أن بينّا ـ أقوام أوروبا جميعها ما زالوا يسكنون الكهوف ويأكلون لحوم البشر، ولم يكونوا قد عرفوا بعد نظام الأسرة وتقاليد الزواج وحياة الاستقرار اللازمة لأي إنجاز ثقافي على أرض الواقع. فكان طبيعياً أن تجيء مثل تلك الإنجازات الأدبية والإبداعية المتطورة من ملاحم وأساطير ومسرحيات وأفكار، مع مجيء السوريين إلى تلك البلاد وإعمارها لأول مرة في التاريخ، وهذا ما سوف يتبين لنا لاحقاً وبالتفصيل.

خامساً – إن السوريين هم السكان الأصليون في سوريا. وإن مدنهم، في معظمها، تعود إلى الألف الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد، فهي أقدم مدن على وجه هذا الكوكب، كما أن وجود السوريين أقدم من زمن نوح وطوفانه في جنوب شبه جزيرة العرب بعدة آلاف من السنين، وبالتالي لا تصح نسبتهم إلى سام أو حام أو يافث أبناء نوح، كما لا تصحّ نسبة الأجداد إلى الأحفاد. إن نوحاً وأبناءه ليسوا إلا أحد الفروع العربية السورية أو السريانية، وجدوا وعاشوا وانتشروا وتكاثروا على الأرض العربية أو السورية، وتكلموا العربية بلهجتها السورية (السريانية) كما تؤكد مصادر التراث العربي كلها، وسبق أن ذكرنا.

سادساً - أما الفينيقيون - كما تؤكد كل المصادر القديمة - فإن موطنهم الأصلي كان في السواحل الجنوبية الشرقية لشبه جزيرة العرب، وتحديداً ما بين جبيل (الميناء السعودي حالياً على الخليج) وصور (في عمان الحالية). ومن حيث النسب فهم حاميون، ينتمون إلى حام بن نوح. فبعضهم ينتسب إلى قانئ الذي كان أول من لقب نفسه بـ «فونيق» أي السيد المنعّم، الراغد، وهو أخو أوزيريس (حسب تاريخ سانخونياتن)، الذي هو أيضاً حاميّ، من أبناء مصرا بن حام بن نوح، وبعضهم كنعاني، أي من أبناء كنعان بن حام بن نوح، والذين كان موطنهم جميعاً في الجزء الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة العرب.

وبعد أن حدث الطوفان الذي اقترن بنوح في حوالي 2800 ق.م كما يحدّده الدارسون تفرّق العرب الحاميون، فذهب بعضهم متتبعاً البقاع الجنوبية ما بين السودان والحبشة والصومال وما بين شواطئ الهند الغربية ووادي النيل، ويمّم قسم منهم شطر الشمال وصولاً إلى الشواطئ السورية على البحر الأبيض المتوسط. إن هذا ما أكده كهنة معبد ملقارت (هرقل) في صور المتوسطية لهيرودوت حين زيارته له، وهذا ما أكده سترابو أيضاً حيث قال: «والفينيقيون، حسب مروياتهم المتأخرة، أتوا إلى ساحل سوريا بالأصل من منطقة البحر الأرتيري (الخليج العربي حالياً) حيث كانت لهم مدن تحمل الأسماء نفسها مثل أرواد وصور وصيدا»[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة «أريتريا» تعني في القاموس السرياني: المريء، البلعوم. والخليج العربي يمتد من مضيق هرمز كالبلعوم أو كالمريء فعلاً. وقد دعيت أريتريا عند مضيق باب المندب بهذا الاسم للسبب نفسه. وكانت حرفتهم الأساسية في موطنهم الأصلي وفي سوريا المتوسطية الصيد البحري والتجارة. وهذا ما تدّل عليه أسماء مدنهم، وقد سبق أن شرحناها.

أما بعضهم الآخر فقد ذهب مع أفريقيس بن قيس بن صيفي من جنوب شبه جزيرة العرب، مع من التحق به منهم من الساحل الشرقي الشمالي للبحر الأحمر، إلى الشواطئ المتوسطية الجنوبية (الليبية) ودعوا هناك بالبربر. وكنّا قد شرحنا ذلك.

(1) Strabon, XVI, ch. 3. S4.

ولا بدّ من التنبيه هنا أيضاً إلى أن حقيقة قدوم بعض أبناء كنعان بن حام بن نوح إلى بعض المواضع على الشاطئ السوري المتوسطي لا يجعل من سكان سوريا كنعانيين وحاميين. فالسوريون ـ كما سبقت الإشارة ـ موجودون على الأرض السورية منذ الألف الثامن قبل الميلاد على الأقل، وقد ملأوها بمدنهم القديمة من طروادة شمالاً إلى جبل «قاسيو» جنوباً والذي يفصل سوريا عن مصر[1] ـ حسب هيرودوت ـ عند بلاد «فونط» أي المضيق على بحر العرب، وكما ورد في النبذة العاشرة من تاريخ سانخونياتن أيضاً.

وقد تميز هؤلاء الفينيقيون الكنعانيون الحاميون عن باقي أشقائهم السوريين بميل لون البشرة إلى السواد، وبميل في الشفاه إلى الغلظة، وبالأنف إلى التفطس، ولا سيما في بعض أجزاء القسم الجنوبي من سوريا، والذي دعي فيما بعد باسم «فلسطين». أما لهجتهم فقد تميزت بصيغة الجمع فيها ذات النهاية «يم» بدلاً من الياء. كما تميزت باستخدام الهاء كأداة تعريف بدلاً من الدال واللام والميم والتاء.

سابعاً ـ في الوقت الذي كان فيه السوريون قد أقاموا دولتهم القومية الواحدة القائمة على وحدة الأرض والسكان واللغة والثقافة والدين، ويراكمون خبراتهم وإبداعاتهم الثقافية والحضارية عبر آلاف السنين كانت الأقوام المحيطة بهم من الغرب والشمال، بالدرجة الأولى، ما تزال تعيش في ظلام الهمجية، تسكن الكهوف والمغاور وتأكل لحوم بعضها، لم تعرف نظام الأسرة، وبالتالي الاستقرار والزراعة. إن هذا جعل من المحتّم انعدام أي إبداع ثقافي لديهم خارج نطاق التجارة البحرية ومكوّنات تطورها، وبالتالي انعدام أية أداة نقل وتركيم للثقافة كاللغة الاجتماعية الواسعة، والكتابة، والمدرسة، والمعبد، و المسرح، وغيره.

ثامناً – إن ما صار يدعى حديثاً بـ «آسيا الصغرى» لم يكن في تاريخ العصور القديمة والوسطى إلا جزءاً من الوطن السوري والدولة السورية، أرضاً وبشراً وثقافة، تشهد على ذلك كل الآثار المكتشفة فيها إلى هذا اليوم.

(1) تاريخ هيرودت، المرجع السابق، الكتاب الثاني، 158, ص138.

تاسعاً - إن شبه جزيرة المورة، أو ما صار يطلق عليها بلاد الإغريق أو اليونان، كانت جزءاً من العالم الهمجي القديم قبل وصول السوريين. ولم تكن مؤهلة لقيام أي تجمع بشري كبير من الناحية الجغرافية والمناخية، ولم يتوفر فيها أي شرط من الشروط لنشوء مجتمع ثقافي أو حضاري نابع منها محلّي وأصيل.

عاشراً - إن التاريخ علم، بل هو العلم الموسوعي الشمولي الوحيد، وليس إيماناً بـ «المعجزات» وإحجام عن التفسير. وإن ما دعي في الغرب بـ «معجزة اليونان الحضارية» التي ولدت في شبه جزيرة المورة شابة ناضجة شاملة في قرن واحد هو القرن الخامس قبل الميلاد لتختفي من الوجود في القرن الرابع مرة واحدة وإلى الأبد، لم تكن إلا محاولة بائسة من كتبة التاريخ في الغرب من أجل تغييب الدور السوري التعليمي، وفضل السوريين خاصة والعرب عامة في انتشال أوروبا من براثن الهمجية، كما عبر عن ذلك بعض المؤرخين الغربيين في لحظات يقظة من الضمير أمثال بريستد وديورانت، وكما عبّر عن هذه الحقيقة بأصوات عالية كثير من المؤرخين الموضوعيين المنصفين أمثال هونكه وروسّي وغيرهم.

وسوف نبين في الأبحاث اللاحقة من هذا الكتاب ظروف وأسباب الظهور المفاجئ للثقافة والحضارة على أرض المورة كنتيجة لنزوحات سورية كانت في معظمها قسرية، وليست نتيجة لمعجزة مزعومة تقوض كل الأسس التي قام عليها علم التاريخ دفعة واحدة وتنسفه من الجذور. وبكلمة موجزة: إن الثقافة أو الحضارة مُنتج تاريخي وليست وليدة لأية صدفة أو معجزة.

إحدى عشر - مما تقدم أيضاً صار من الجلي كما صار من الواجب والضروري التمييز بين الثقافي والحضاري في النشاط الإنساني. فليس كل ما هو ثقافي حضارياً وإنما هو بمثابة الأساس اللازم لقيام الحضارة. كنا قد بيّنا كيف أن الفعل الإنساني هو فعل عاقل، أي إنه واع أولاً وهادف ثانياً. إنه خلق وإبداع. وإذا كان كل فعل إبداعي يندرج في «الثقافي» إذا ما توفرت فيه خاصية الإتقان، فإنه لا يرقى إلى «الحضاري» إلا متوجاً بالغاية النبيلة. إن مجموع الإبداعات الثقافية الباهرة، ولا سيما في المجال الصناعي والتقني، الذي تتميز به اليوم هذه الأمة أو تلك لا يرقى بها من «الثقافي» إلى «الحضاري» إلا مقروناً

بالأهداف النبيلة. إن كل ما يخدم في غنى الحياة وتنوعها وازدهارها على الأرض هو فعل نبيل، ويندرج حتماً في الثقافي الحضاري. وإن كل ما يفسد الحياة على الأرض أو يدمرها هو حتماً في الثقافي الهمجي. فكما أن السلام والمحبة والعدل والإخاء والتعاون والإعمار غايات نبيلة، فإن القتل والعدوان والظلم والقهر والسلب والتدمير غايات منحطة، تسوق كل الإبداعات الثقافية المقترنة بها إلى درك الهمجية. ولا بد لنا هنا من التنويه بتاريخية هذين المفهومين: الحضاري والهمجي، إذ أن كلاً منهما اكتسب مع الزمن مضموناً أكثر اتساعاً وغنى. فبينما كنا نجد أن كلمة الحضاري أو المدني في العصور القديمة كانت تطلق على كل الأقوام التي تركت حياة التنقل واستقرت في بيت وأسرة وأرض وقرية ومدينة، لتنتج قوتها وأدوات إنتاجها، وبالتالي ثقافتها وحضارتها، فإن كلمة «همجي» كانت تطلق على كل من تخلف عن ذلك. ولما كانت اللغة العربية أقدم لغة على وجه الأرض، كما أن الأرض العربية كانت بشكل ثابت وأكيد مهد الإنسان العاقل الأول ومهد تجمعاته الأولى، فقد حفظت لنا في صدرها هذا المضمون منذ البداية. إن كلمات مثل: قرية، ومدينة، وبلدة، وحاضرة هي من الأفعال: قرّ، ومدن، وبلد، وحضر، والتي تعني جميعها أقام واستقر وترك حياة التنقل.

أما اليوم، وبعد أن استقرت كل شعوب الأرض تقريباً وأنتجت ثقافاتها الخاصة، وتوصل بعضها في إنجازاته الثقافية حد الإعجاز والإبهار، فكثيراً ما يجري الخلط، حتى في أوساط المثقفين، بين ما هو ثقافي وما هو حضاري.

إن وعي العربي، والسوري تحديداً، لهذه الحقيقة منذ عدة آلاف من السنين قبل الميلاد، هو الذي جعله يقرن دائماً إبداعاته الثقافية بالغايات النبيلة كالسلام والمحبة والعدل والإخاء، وجعل منه صاحب حضارة معمّرة لا مدمّرة طيلة العصور القديمة والعصر الوسيط، فكان بهذا أول من أنتج الإنسان الرسولي، صاحب الرسالة، التي حملها وحده إلى البشرية قاطبة. وسواء أكان مصدر تلك الرسالة سماوياً أم أرضياً فإن الإنسان العربي، والسوري خصوصاً، كان صاحبها وحاملها وناقلها على مر تلك العصور. وكان دائماً في صلب تلك الرسالة قيم السلام والمحبة والعدل والإخاء بين بني البشر.

فمنذ ما يقرب من خمسة آلاف عام جاء في الرسالة الموجهة من «البعل» إلى شعبه في سوريا:

«حطم سيفك
تناول فأسك واتبعني
وازرع السلام والمحبة في كبد الأرض»[1].

ولقد جاء في مقدمة مجموعة القوانين التي قدمها الملك السوري العظيم حمورابي لشعبه منذ أربعة آلاف عام:

«أنا حمورابي الأمير الأعلى، عابد الآلهة، لكي أنشر العدالة في العالم، وأقضي على الأشرار والآثمين، وأمنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء... وأنشر النور في الأرض، وأرعى مصالح الخلق».

يقول المؤرخ الأمريكي ول ديورانت بصدد حديثه عنها:

«إن هذه القوانين تكوّن في مجموعها شريعة... هي من وجوه عدة لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة أوروبية حديثة. وقلّ أن يجد الإنسان في تاريخ الشرائع كله ألفاظاً أرق وأجمل من الألفاظ التي يختتم بها البابلي العظيم شريعته»[2]*.

ويقول عيسى المسيح:

«أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة مبنية على جبل. ولا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال لكن على المنارة لينير على كل من في البيت. هكذا فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدّوا أباكم الذي في السموات»[3].

ويقول النبي محمد:

«كل ابن آدم إخوة. ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[4].

---

(1) من وثائق أوغاريت.

(2) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 2، ص190- 191.

* في الوقت الذي أكتب فيه هذه الأسطر يقوم مغول هذا الزمان بغزو العراق وتدمير متاحفه ونهب تلك الكنوز الثقافية والحضارية التي هي أثمن تراث للإنسانية جمعاء.

(3) إنجيل القديس متى.

(4) حديث شريف.

تلكم هي أهم ملامح الحضارة ـ الرسالة التي اضطلع بحملها إنساننا قولاً وعملاً. فكان سيداً ومعلّماً بحق للبشرية كلها، وللشعوب الأوروبية بوجه أخص، طيلة العصور القديمة، والعصر الوسيط. ولم يكن الإسلام إلا آخر التوهجات الرائعة للروح العربية وللعقل العربي الذي غمر بنوره وسطوعه المعرفي والقيمي كل أرجاء أوروبا، ومن الهند إلى الأطلسي حتى القرن الثامن عشر الميلادي.

يقول غوستاف لوبون:

«إنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم. وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم، فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم. وإن العرب هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي. وإن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا ممدّنين لنا، وأئمة لنا ستة قرون»[1].

لقد حققت أوروبا ومن ثم أمريكا نهضتهما الحديثة على أساس الثقافة العربية والسورية منها بوجه خاص، وبلغت الإنجازات الثقافية اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية ولا سيما في المجالين الصناعي والتقني حد الإبهار. لكن نظرة متمعنة واحدة ترينا مدى البؤس الذي تعيشه هذه الثقافة في المجال القيمي الإنساني، ومدى عجزها عن النهوض من الدرك الغرائزي والارتقاء إلى مرتبة الحضارة ـ الرسالة.

اثنا عشر – من كل هذا نخلص إلى أن الحضارة التي وجدت فجأة في أرض المورة أو ما صار يطلق عليها «بلاد الإغريق» شابة، ناضجة بكل أطيافها الفكرية والفنية، وبكل ما خلفته من قصص وأساطير ومسرحيات وفلسفة وغيرها، والتي اختفت فجأة في القرن الرابع كما ظهرت فجأة في القرن الخامس، لم تكن إلا حضارة وافدة مع مجيء السوريين إلى تلك البقعة من حوض المتوسط بعد أن كانوا قد انتشروا في جزره والبلدان المشاطئة له. ولما كانت أرض المورة لا تغري أحداً بالقدوم إليها من أجل الاستيطان الدائم لانعدام الشروط الجغرافية والمناخية الصالحة لحدوث مثل هذا الاستيطان الذي هو شرط أساس لقيام أية ثقافة أو

(1) غوستان لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ص579.

حضارة ذات شأن، فقد كان من غير العسير على أي باحث أن يتوصل إلى الحكم بأن الانتشار السوري إلى أرض المورة كان في معظمه نزوحاً قسرياً لأسباب عرضت في الموطن الأصلي، الذي هو سوريا، أكثر منه انتشاراً طوعياً. ثم إنه من اليسير أيضاً أن نلاحظ كيف أن ذلك النزوح كان يتم على شكل دفعات متقطعة اختلف فيها النازحون من حيث نمط عيشهم ودرجة تكوينهم الثقافي، لكنهم جميعاً كانوا يتحدرون من جنس واحد، تشهد على ذلك لغتهم الواحدة، وديانتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وفنونهم، وملامحهم الفيزيائية الجسدية. فكيف تمت ظاهرة النزوح تلك التي دعاها السوريون بـ «الظاهرة الإغريقية»، وما هي أسبابها، وأهم ملامحها السكانية والثقافية في مواقع الاغتراب، وبخاصة في شبه جزيرة المورة؟

القسم الثاني

الفصل الأول

ظاهرة الانتشار الحضاري السوري في الغرب

أ ـ الانتشار الطبيعي:

قبل الحديث عن ظاهرة الانتشار السوري في الغرب والشمال الغربي نرى أن من الضروري العودة مرة ثانية إلى التذكير بجملة من الحقائق الثابتة كي يبقى القارئ ضمن إطار منطقية التاريخ، الذي تحوّل على أيدي كثير من كتبته في الغرب، وعلى مدى قرون كثيرة، إلى ركام من الأقوال والتخمينات والفرضيات العشوائية والمتناقضة، والتي لا تمت إلى التاريخ كعلم أو إلى جوهر البحث العلمي بأية صلة، ولتبقى الأساس والمنطلق العلمي الصحيح لفهم كل الأحداث التاريخية التي صارت مقترنة بـ «الإغريق».

من هذه الحقائق الثابتة:

1. إن الدولة السورية، أول دولة مركزية كبرى في التاريخ، بلغت خلال تاريخها الطويل درجة من الرقي والتقدم الثقافي والحضاري بكل المجالات السياسية، والإدارية، والحقوقية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية، والعلمية، والدينية، والأدبية، والفنية، ما لم تدانيها به أية بقعة أخرى في العالم. إن هذا أدهش الكثير من المؤرخين في الغرب، وبخاصة المتعصبين لكل ما هو غربي حتى لو كان وهماً، من أمثال أندريه إيمار وجانين أوبوايه. لقد أقرّ المؤلفان أن الحياة في سوريا في الزمنين البابلي والآشوري كانت «لا تقل في كثير من الأوجه عن حياتنا العصرية»[1].

2. إن ما صار يدعى حديثاً بـ «آسيا الصغرى» كان جزءاً لا يتجزأ من تلك الدولة سكاناً، وثقافة، ولغة، وحضارة، وإدارة حتى آخر يوم من حكم الملك آشور بانيبال.

(1) أندريه إيمار وجانين أوبوايه، المرجع السابق، ص160.

ومفيد هنا أن نذكّر بما كتبه المؤرخ الأمريكي جيمس هنري بريستد عن قوة هذه الدولة ومدى اتساع رقعتها زمن آشور بانيبال. يقول بريستد:

«وكانت دولة آشور، ولا سيما في أيام مجدها العسكري، أول دولة خطر لها أن تشمل سيطرتها العالم بأسره، وخطت في هذا السبيل خطوات مهمة[1]... وظلّت حملات آشور جارية في مجرى الشدة والقوة حتى صارت أعظم مملكة رآها العالم منذ وجد. ولم تكن دولة في الأرض تجرؤ على مناوأتها[2]... وكانت جيوشهم أول جيوش تسلحت بأدوات مصنوعة من الحديد. وقد وجد في مخزن السلاح بقصر سرجون مائتا طن من الأدوات الحديدية»[3].

وكانت «آسيا الصغرى» جزءاً من الدولة السورية على مدى ثلاثة آلاف عام، أي منذ عهد أور أنجور في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

يقول ول ديورانت:

«وفي هذه الأثناء كانت «أور» تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاءً وازدهاراً، امتد من عام 3500 ق.م إلى عام 700 ق.م. وأخضع أعظم ملوكها «أور أنجور» جميع بلاد آسيا الغربية، ونشر فيها لواء السلام. وأعلن في جميع الدولة أول كتاب شامل من كتب القانون في تاريخ العالم. وفي ذلك يقول: «لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمش الصالحة العادلة»[4].

وفي حوالي 3000 ق.م «كان سرجون أول قائد عظيم في تاريخ الجنس السامي، وأول ملك أنشأ أمة عظيمة في آسيا الغربية تمتد بلادها من عيلام إلى البحر المتوسط... وخلفه أبناؤه... وأضاف أحدهم المسمّى نارام سين فتوحات جديدة»[5].

«وإن القوافل البابلية كانت منذ أيام حمورابي أو قبلها تجوب آسيا الصغرى... ومعها صكوك ووثائق تجارية مكتوبة بالخط المسماري على ألواح من آجر»[6].

---

(1) بريستد، المرجع السابق، ص180.

(2) المرجع نفسه، ص166.

(3) المرجع نفسه، ص167.

(4) ديورانت، المرجع السابق، المجلد 1، الجزء2، ص21.

(5) بريستد، المرجع السابق، ص134.

(6) المرجع نفسه، ص261.

وفي القرن السابع كانت جزيرة قبرص وليديا وكل المدن في شواطئ آسيا الصغرى خاضعة للدولة الآشورية، وقد أقاموا حاميات عسكرية في عدد من هذه المدن[1]. وكان حاكم سرديس في ليديا كثيراً ما يطلب الحماية من آشور بانيبال عند كل خطر[2].

ويؤكد أيفانز في كتابه «هيرودوت» أن كبادوكيا وآسيا الصغرى جزء من سوريا[3]. أما هيرودوت نفسه فلم يكن يميز بين أوروبا وآسيا[4]. وكنّا قد بيّنا كيف أن هيرودوت أكد أن «الأغارقة يسمّون أهل كبادوكيا سوريين»[5]، وأن «كبادوكيا المدعوة بـ «تيريا» هي أعظم مقاطعة في تلك البلاد... وأن كريسوس دخل بجيوشه كبادوكيا بالقرب من سينوب القريبة من شاطئ البحر الأسود وأنزل عساكره في ذلك المحل، وأباح لهم نهب أراضي السوريين»[6]. وإذا ما علمنا أن كبادوكيا تمتد من كيليكيا إلى البحر الأسود، وتشكل ثلاثة أرباع آسيا الصغرى، أدركنا ما لهذه الحقيقة من أهمية، علماً أن التسمية سريانية وتعني «قبة الطاهرة»* كما أكد هيرودوت أن الأشوريين احتفظوا «بآسيا الكبرى لمدة تزيد على 520 سنة»[7].

وحين يؤكد هيرودوت هذه الحقيقة فلم يكن يعني غير سيطرة السوريين على آسيا الكبرى، لأنه كان يدرك تماماً أن الآشوريين سوريون سكاناً ولغة وأرضاً وديناً وثقافة وحضارة وتقاليد. وهم ورثة الدولة السورية وإحدى مراحلها، من الأكادية فالبابلية فالآشورية، تبعاً للعاصمة التي كانوا يختارونها من مرحلة إلى أخرى. وهو، مثله مثل كل الأغارقة، لم يكن يعرف مثل هذا التمييز الذي ابتدعه مؤرخو الغرب المحدثون بين سوري وآشوري. وقد بيّن لنا في أكثر من موضع في تاريخه كيف «كان الأغارقة يسمون الأشوريين سوريين، والبرابرة يسمونهم آشوريين، وكان الكلدان من ضمنهم»[8]. «وكنا نرى في مستعمرات الأشوريين ببلاد كبادوكيا في أوائل الألف الثاني بعض المنظمات الجماعية التي تسيطر عليها طبقة أرستقراطية ـ بورجوازية»[9].

---

(1) عباد، المرجع السابق، ص253.

(2) المرجع نفسه، ص136.

(3) إيفانز، هيرودوت، ص16.

(4) روسي، المرجع السابق، ص28.

(5) روسي، المرجع السابق، ص28.

(6) تاريخ هيرودوت، المرجع السابق، الكتاب الأول، ص46.

* «كبادوكيا» مؤلفة من «كفا» Kapa وتعني قبة، صرح، تمثال، صنم، ودوكيا dokia وهي اسم الفاعل من الكلمة السريانية «دكي» أي: طهر، تعفف، تنزه، قضى، حكم. والديك في الفصحى تعني القاضي. وقد أطلقت التسمية على المقاطعة لوجود هيكل أرتميس وصنمها في أهم مدنها وهي إفسوس.

(7) المرجع نفسه، ص95، ص59.

(8) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب السابع، 63، ص462.

(9) إيمار، المرجع السابق، ص139.

«وقد أثبتت المستندات المدعوة «اللوحات الكبادوكية» بأنه في أواخر الألف الثالث كان يوجد في أواسط آسيا الصغرى، في ضواحي جبل «أرجيا» جماعات من التجار الآشوريين يتعاطون أعمال السمسرة للتصدير والاستيراد. وهم يديرون شؤونهم كما لو كوّنوا جمهوريات صغيرة مستقلة... ويبقون على اتصالهم مع بلاد ما بين النهرين»[1].

طبعاً من الصعب على المؤلف أن يقرّ بتسمية «سوريا»، فليس في كل الوثائق الكثيرة المكتشفة في سوريا الطبيعية القديمة، ومن ضمنها العراق، أي ذكر أو إشارة إلى هذه التسمية «ما بين النهرين» التي تمت استعارتها من مدونات التوراة وأسقطت على العراق، الجزء الشرقي من سوريا، تزويراً، وهي ترجمة للكلمتين السريانيتين الواردتين في التوراة السبعونية «ميسو فوطامي» وتعني بالسريانية وسط الخصب. ومن الصعب عليه أكثر أن يقرّ بأن السكان كانوا في «آسيا الصغرى» كما في العراق، هم جميعاً سوريين رغم كل تفرعاتهم القبلية والعشائرية، ومن ضمنهم اليونان أبناء يونا بن جيلان، المتحدرين من فرع يافث بن نوح حسب المصادر اليونانية نفسها. إنه لا يقدر، ولا يريد أن يرى في سوريا غير عشائر التوراة البدوية الرعوية المتخلفة ومن بينها عشائر الآراميين، بعد أن تم نقل جغرافيا وأحداث التوراة من منطقة جد ضيقة في برية شبه جزيرة العرب إلى سوريا الطبيعية. فيقول في الموضع نفسه: «ومما يثير الدهشة أن يلاحظ المرء في بدء القرن السادس وجود يونان في مملكة نبوخذ نصر ليس لهم صفة المرتزقة، إذ تشير مستندات تجارية إلى وجود تجار إيونيين في بابل. ولكن يصعب على المرء خاصة أن يفهم هذا التوسع للآراميين الآتين من السباسب»[2].

إن أندريه إيمار ليس حالة شاذة بين معظم المؤرخين في الغرب، الذين لم يقدروا على التوفيق بعد بين ما قدمته المكتشفات الآثارية في سوريا القديمة، بما فيها من الرقم الكتابية التي تعدّ مئات الألوف، وبين ظلمات العصور الوسطى في أوروبا التي لم تتح لهم تلمّس أي ضرب من ضروب المعرفة بتاريخ المشرق العربي خارج عشائر «الكتاب المقدس».

(1) المرجع نفسه، ص158.
(2) المرجع نفسه.

إنهم لا يجهلون اليوم معطيات الآثار التاريخية في المنطقة العربية منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل. والدليل ما يورده المؤلف نفسه قبل صفحة واحدة من هذا القول الذي يبدي فيه دهشته من أولئك البدو «الآراميين الآتين من السباسب». يقول إيمار: «يدلنا كل ما تقدم على أهمية وقوة وتنوع الحياة الاقتصادية. ويعتقدون بأنه من واجبات المؤسسات الجماعية الأساسية السهر على هذه الحياة وتنظيمها لتأمين ازدهارها وإبقائها على مستوى من الاستمرار العادل... تتبوأ الزراعة مركزاً مرموقاً، الأول دون شك، في حقل اهتمام المسؤولين عن مجموع الأمة. وقد مسحت الأرض باكراً جداً، وغدا ضرورياً تسجيل كل تغيير يطرأ على تقسيمها أو ملكيتها أو حتى على طرق استثمارها. وتحفر قنوات التجفيف والري، ويسهر على صيانتها تحت إشراف السلطات... ويدير مهندسون جهابذة مكاتب فن ودراسة، ليضعوا تصاميم أحواض وخزانات المياه وقنواتها كما تنظم القوانين والتقاليد أسس توزيع المياه المنعشة، ومعاقبة كل إهمال أو غش يلحق الضرر بالمجاورين. ويحدد القانون أيضاً شروط المزارعة وواجبات المزارع وكيفية تقسيم الأضرار التي تسببها تقلبات الجو بين المالك والمزارع أو المستأجر... وتكشف هذه الدقة التي تصل غالباً حد المغالاة عن نظم حياة زراعية شديدة التطور، ومبدأ الملكية العقارية المصغرة جداً، وترتيبات لا حصر لها في كيفية ملكية وتوزيع الأراضي الزراعية...»[1].

أما عن الصناعة فيقول:

«إن مهارة الصناعيين لا تقلّ عن مهارة الفلاحين ودأبهم على العمل. ويكفي أن نتفحص ما وجد في قبور أور الملكية لنتأكد من دقة الصناعات اليدوية في أعمال على الخشب والمعادن، خاصة منذ أواخر الألف الرابع وأوائل الألف الثالث. لقد عرفوا خمسة معادن: الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص. وقد أتقنوا تنقيتها من الشوائب والأقذار، وقاموا بأعمال المزج واللحام والصقل والصياغة والترصيع والتزيين بالمينا. وقد استبدل الخزف بالمعدن للأواني الثمينة. ومع الزمن فإن الجمهور الذي يتعاطى مع الهياكل والقصور التي تغذي المصانع المختصة بالنسيج والتطريز والصياغة والنقش والحفر... إلخ، ساعد على تطور الفنون اليدوية وتقدمها المستمر والتدريب على هذه الأعمال. وقد أصدر لها حمورابي تشريعاً دقيقاً يؤمن توارثها»[2].

---

(1) المرجع نفسه، ص154 - 155.
(2) المرجع نفسه، ص156 - 157.



صورة رقم (17): تحت يمثل الفن السوري في فرغام، إفريز المذبح – الألف الثاني ق.م.

وهكذا يتضح كيف أن السوريين لم يكونوا يوماً أمة من البدو الآراميين الخارجين من الصحراء. فقد أنتجوا هذه الحضارة قبل أن يولد آرام بن سام بن نوح نفسه كما هو واضح من قول إيمار وغيره.

3. إن بإمكان أي منّا أن يتصوّر الخارطة الجيوثقافية لذلك الزمن: السوريون في إطار دولتهم المركزية الكبرى بلغوا شأواً بعيداً من التقدم والتفوق الثقافي والحضاري في شتى المجالات وعلى كافة الصعد. فكان من غير المتوقع على الإطلاق أن يكبحوا جماح حيويتهم الزاخرة والمتدفقة عن تحقيق الرغبة في ارتياد عوالم جديدة هي بالنسبة لحضارتهم كالأرض البور. كان لا بد لمحراث عشتار أن يتقدم صوب كل أرض صالحة لأن يشقها المحراث السوري وتنتج الغلال، في وقت كان كل من يحيط بهم من الشمال والغرب أقواماً متوحشين من الهمج. وفي الإطار ذاته، إن الازدهار الاقتصادي الذي عرفته سوريا القديمة في ظل دولتها المركزية الكبرى، سواء على صعيد الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو المال، وما واكبه من دقة مدهشة في الإدارة والتنظيم والتشريع، كان حافزاً آخر على توسيع خطوط التجارة في البر والبحر على حد سواء، بما يتطلبه

ذلك من إنشاء المدن في المراكز المهمة على طرق القوافل، وإحداث المدن الموانئ في كل المواقع الصالحة من خلجان ومداخل بحار. إن تأمين المعادن الثمينة وغيرها كان قد أصبح ضرورة قصوى للتطور الصناعي والحرفي منذ الألف الرابع قبل الميلاد. وإن فيض الإنتاج الزراعي والصناعي والحرفي كان يستوجب بالضرورة استكشاف كل البقاع لتأمين تصريفه، خاصة وأنهم وحدهم كانوا سادة البحار.



صورة رقم (18): رأس عاجي ملوّن. نمرود 720 ق.م.

يقول أندريه إيمار بهذا الصدد: «كانت هذه المنطقة، منطقة الشرق الأدنى، أبداً ودوماً الأرض المختارة، أو الأرض المدعوة لإطلاع الممالك الكبيرة. يبدو أن قادة هذه الشعوب لم يستطيعوا مقاومة ما للأفق المديد من سحر وفتنة. فوقعوا تحت تأثير هذه الآفاق صرعى إغرائها وفعلها الأخاذ. وقاموا يذرعون مشارق الأرض ومغاربها طولاً وعرضاً، ويقطعون مضايق البحار وبرازخها، تحقيقاً منهم لحلم راودهم بفتح مبين»[1]. ليس يعنينا هنا هذا التفسير الرومانسي للظاهرة بقدر ما تعنينا الظاهرة نفسها. إن «هذه الحضارة التي يكتنف الغموض نشأتها المبكرة... عرفت، بما تمّ لها من موارد طبيعية هائلة ورفد كريم، وبما امتازت به في الداخل من تماسك وتراصّ، زادتهما النجاحات التي سجلتها، والتفوق الذي حققته، قوة ومتانة، أن تكفل للشعوب التي قامت عليها ونهضت بها تفوقاً ساحقاً على ما حولها من أمم مجاورة، وطوائف دارت في فلكها... لقد تم لها منذ الفجر الباكر وسائل ساعدتها على الفتوحات العريضة وبسط سيطرتها بعيداً»[2].

4. وإن نظرة واحدة على الخريطة الجغرافية لسوريا ولحوض المتوسط ذلك الزمن ترينا أن رصيف «آسيا الصغرى» هو وحده المهيأ لأن يكون رصيف الانطلاق السوري إلى عالم البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود. إذا كان السوريون أول من أنزل سفينة في البحر فإن البحر الأبيض المتوسط كان حوض السباحة لأطفال البشرية، رواد الحضارة الأوائل ومعلميها، السوريين، الذين انسابوا بسفنهم على صفحة مياهه، زارعين في كل شواطئه الشرقية والشمالية، الجنوبية والغربية، مدنهم، وموانيهم، مخلفين في كل رقعة من تلك الشواطئ بصماتهم العمرانية والفنية الدينية والفكرية، وأهم من هذا وذاك فقد تركوا وراءهم أنسالهم الجينية التي اختلطت بدماء كل الأقوام الهمجية التي كانت تشاطئة وبصماتهم اللغوية التي أضحت جزءاً أساسياً في كل لغات تلك الأقوام مجتمعة ومنفردة، على شطآن المتوسط وفي قارة أوروبا كلها. لهذا فقد كان هذا البحر بحيرة سورية بحق، حمل اسم السوريين في عدة مراحل أساسية من

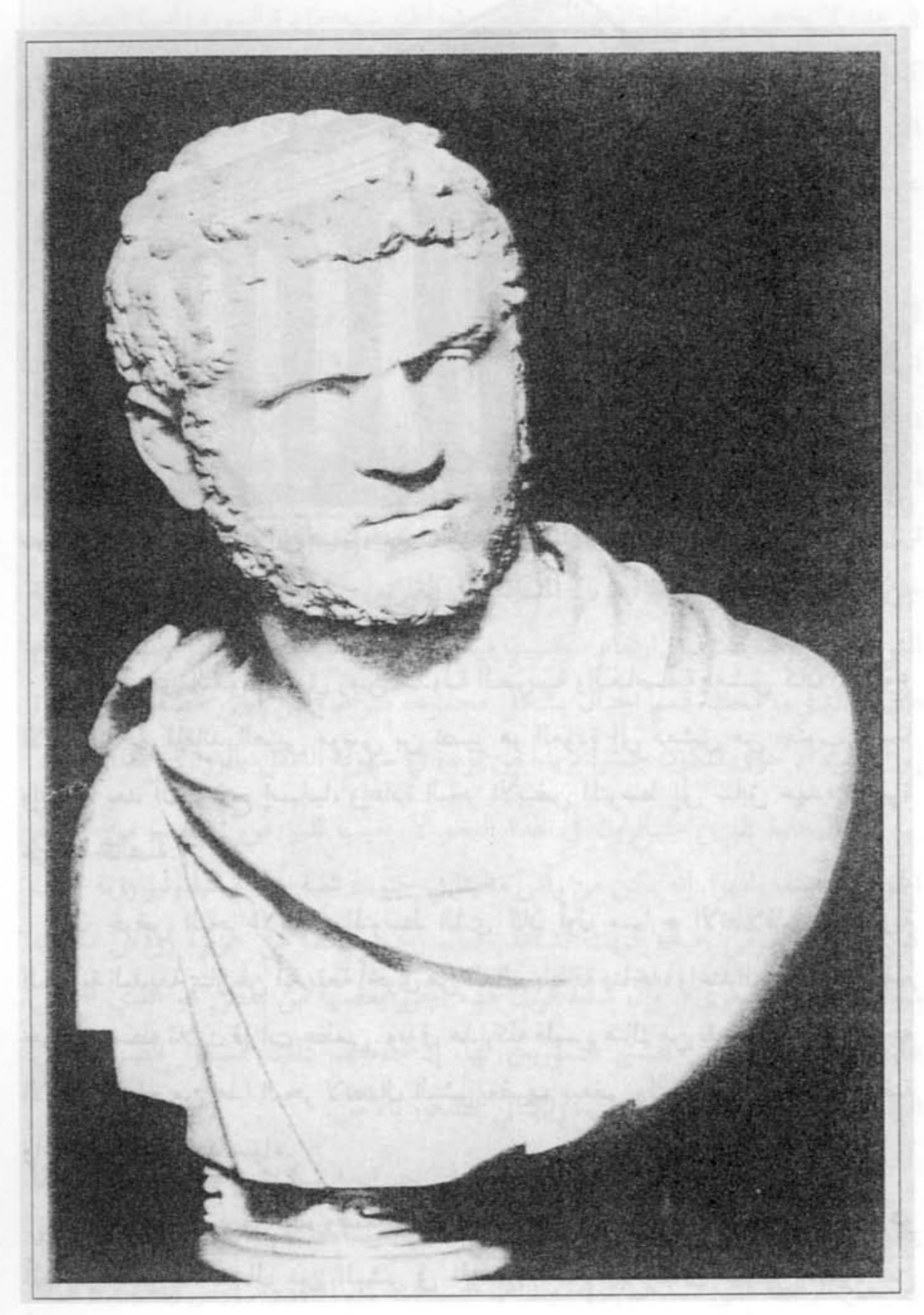
(1) إيمار، المرجع نفسه، ص.38.
(2) المرجع نفسه، ص.37.

التاريخ: بحر أمورو، البحر السوري، البحر الفينيقي... وإبان سيطرة الإمبراطورية الرومانية دعي بحر الروم... لكن نظرة متمعنة إلى داخل تلك الإمبراطورية تكشف لنا بوضوح السيطرة السورية على الاقتصاد والتجارة والمصارف والإدارة والجيش، وأن روما وجيشها الإمبراطوري لم تكن إلا أداة لحماية خطوط التجارة السورية، وتعيش على تمويل السوريين، هذا فضلاً عن أشهر أباطرتها سواء أكانوا من سوريي إسبانيا، أو من سوريي ليبيا، أو من سوريي سوريا نفسها. حتى قال أحد المؤرخين الغربيين «لقد حكم روما جيلان من الأباطرة، جيل من النبلاء المثقفين السوريين وجيل من الهمج اللاتين». إن العديد من الباحثين الموضوعيين في الغرب اليوم أخذوا يتنبهون وينبهون إلى هذه الحقيقة، ومنهم الباحث الفرنسي بيير روسّي. يقول روسي بهذا الصدد: «إننا لمزودون بمعلومات تلقيناها من مؤلف ليشيشرون عن الحركات المصرفية، والإسراع في الإثراء الفاحش الذي حصلت عليه الأسر الرومانية المشاركة في المصارف الشرقية. فلقد كان الدفاع لصالح حاكم قديم من سوريا... يكشف كم كانت سلطة بعض المصرفيين مخيفة... وهكذا اشترى الشرق روما. إن هذا يعني أن سيادتها لم تكن أكثر من سيادة نظرية غير حقيقية... لقد كان المجتمع الروماني مستهلكاً للثروات، ولم يكن أكثر من هذا، لأن تدفق النقود العينية مصحوباً بتضخم مدوّخ قد حطم الطبقات العاملة: فلم يكن في روما مكان للصناع والعمال وصغار الصناعيين أو التجار المحليين... لقد سقط اقتصادها في التبعية الخارجية. إن هذه الاعتبارات ستساعدنا على فهم أفضل لما كانت عليه الديبلوماسية الرومانية التي زينوها كثيراً بريش الطاووس»[1]. «من كان يحكم روما إذن؟ إنها طبقة صغيرة من النبلاء والأشراف المتميزين المستعلين على المجتمع، يساعدهم حالياً رجال المصارف الآسيويون الذين يتخذون منهم لعبة... إن سير السياسة الرومانية الظاهر كما تعرضه كتبنا المدرسية ليس إلا انعكاساً لقرارات تتخذ في مكان آخر وتخالف الحقيقة بعض الشيء»[2].

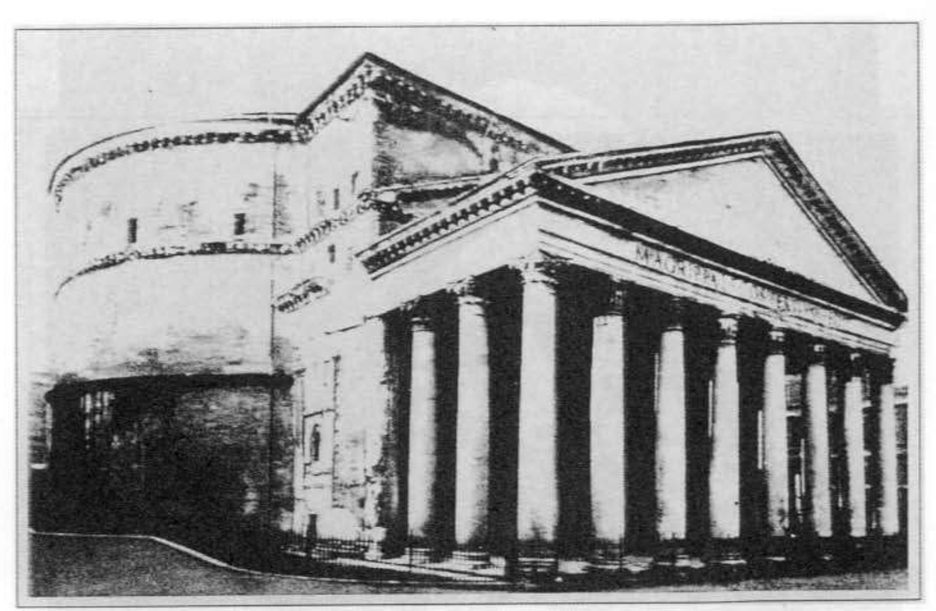
(1) روسّي، مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب، ص213 – 214.
(2) المرجع نفسه، ص215 – 216.



صورة رقم (19): تمثال رأس للامبراطورة السورية جوليا دومنا.



صورة رقم (20): تمثال رأس للامبراطور السوري كركلا، ابن الامبراطورة جوليا دومنا.



صورة رقم (21): معبد البانثيون في روما، تصميم وتنفيذ المهندس المعماري السوري الشهير أبولودور الدمشقي.

وغنيٌ عن القول إنه في زمن الدولة العربية والعاصمة دمشق كان المشروع الاستراتيجي للقائد العربي موسى بن نصير هو العودة إلى دمشق من جنوب فرنسا وإيطاليا بعد أن تم فتح إسبانيا، وإعادة البحر الأبيض المتوسط إلى سابق عهده «بحيرة عربية» خالصة.

إن حوض البحر الأبيض المتوسط الذي كان أول مسارح الانطلاقات الحضارية السورية البديعة يمتاز عن أية بقعة أخرى من العالم بلطافة مناخه، واعتدال طقسه، وصفاء جوّه، وتوسطه ثلاث قارات عظمى. وفوق هذا كله فليس هناك من بقعة أخرى على وجه الأرض أصلح من هذا البحر لاتصال البشر بعضهم ببعض ولتبادل الإبداعات الثقافية والحضارية على حد سواء.

ينقل لنا ول ديورانت وصفاً شيقاً لواقع هذا البحر، ولا سيما من حيث هو أبدع واسطة للاتصال بين البشر في الزمن القديم، بكلمات شيقة ومعبرة عن أهم مميزاته.

تتجلى هذه الميزة بصورة خاصة في بحر إيجه. «فهو يعانق البر، ويتداخل مع الأرض في عدد لا يحصى من الخلجان العميقة على شواطئ شبه جزيرة الموره وآسيا الصغرى. كما أن الأرض نفسها تترامى في أحضانه، وتقفز إلى أعماقه بالرؤوس وأشباه الجزر الكثيرة التي تبرز منها، وتمتد إلى داخله، ثم بالجزر التي تتناثر وتتوزع في كل أنحائه، والتي لا يقل عددها عن خمس مائة جزيرة».

في الزاوية الشمالية الشرقية من هذا البحر نجد مضيق الدردنيل (الذي كان يسمّى في الزمن السوري القديم «عبر إيل» أي مضيق إيل) ومضيق البوسفور (وكان اسمه «عبر البعل» أي مضيق البعل، حسب ما أكدته الوثائق المكتشفة في قره تبه). ويعتبر هذان المضيقان واسطة اتصال بين آسيا وأوروبا، وقد أقام عليهما المهندسون السوريون أول الجسور، وقد رأينا كيف أن هيرودوت كان يرفض الفصل بين أوروبا وآسيا في كتاباته. ثم نرى في وسط هذا البحر الرؤوس وأشباه الجزر تمتد من شواطئ آسيا الصغرى ومن شبه جزيرة المورة بصورة متقابلة لتقرب المسافة بين القارتين، ولتشير إلى الرابطة الجيولوجية التي كانت توحدهما قبل ارتفاع مناسيب مياه البحار مع انتهاء آخر عصر جليدي وتقدم عصرنا الدفيء، مخلفةً قمم الجبال بشكل مجموعة متراصة من الجزر مصفوفة الواحدة إلى جانب الأخرى لتكون جسراً فريداً من نوعه في سهولة التنقل بالزوارق القديمة.

إن البحارة الذين يسافرون في هذا البحر لا يغيب البر عن أنظارهم من جميع الجوانب حيثما اتجهوا. إنه يمكن من رأس ماليثا في جنوب شبه جزيرة البلبونيز رؤية جبال كريت. ومن شرقي جبال كريت تشاهد جبال رودس. كما من جزيرة رودس تشاهد شواطئ آسيا الصغرى». وإن شدّة قرب هذه الجزر بعضها من بعض هو الذي أضفى عليها تلك المسحة من عشق السوريين لها، إذ منحتهم ذلك الشعور الضروري في البدايات، الشعور بالإلفة والقرب، وبالتالي الشعور بالأمن.

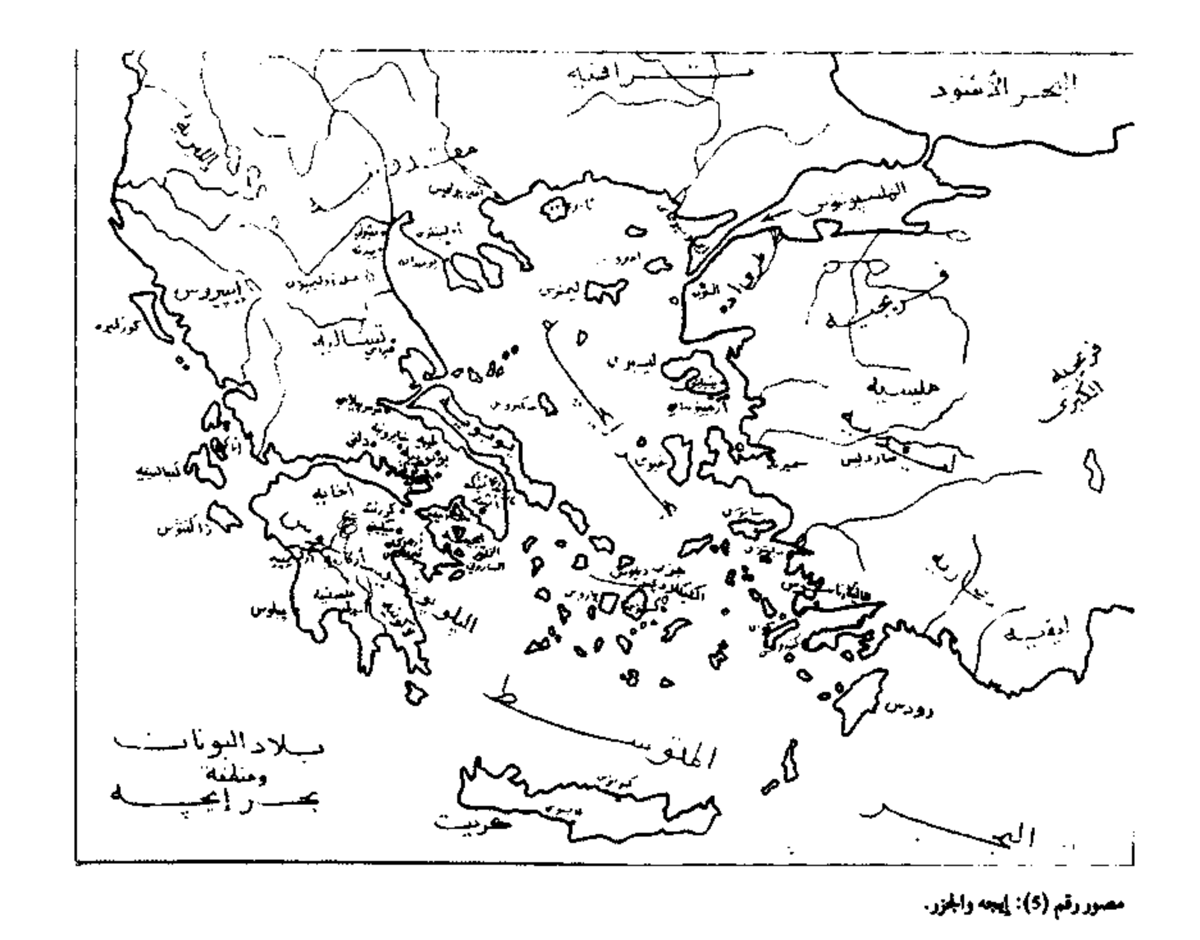
ثم إن لكل جزيرة ولكل رأس أو خليج في بحر إيجه شكلاً خاصاً ومظهراً مختلفاً يمكن تمييزه من بعيد. فأضفى قدامى السوريين عليها أسماءها بما يتناسب وأشكالها مما زاد في عمق الرابطة التي تشدهم إليها، وبذلك أصبحت كل الجزر والرؤوس والخلجان نقاطاً وعلامات مألوفة ومعروفة، وتغلغلت عميقاً في الوجدان والذاكرة.

«وإذا كانت هذه الجزر البارزة فوق سطح الماء هي قلل سلاسل جبلية قديمة متصلة بعضها ببعض... فإن عين الملاح كانت تقع على الدوام على قلّة من هذه القلل المحببة كأنها تحيّيه وترحب بمقدمه. وكانت أشبه بمنارات تهتدي بها السفن في وقت لم تكن تهتدي فيه بالبوصلة البحرية. وفوق هذا كله فإن حركات الريح والماء كانت تعين الملاح على الوصول إلى هدفه. فقد كان تيار ماء قوي أوسط يسير من البحر الأسود إلى بحر إيجه. وكانت تيارات أخرى مضادة له تسير نحو الشمال محاذية شواطئ البحر. وكانت الرياح الشمالية الشرقية تهب بانتظام في فصل الصيف، فتساعد السفن التي خرجت من موانيها لتأتي بالحب والسمك والفراء من بحر اليوكسيني* على العودة إلى موانيها. وكان الضباب نادراً في البحر المتوسط، كما أن أشعة الشمس التي لا تكاد تحتجب عنه ينشأ عنها بالليل والنهار نسيم البر والبحر، حتى ليستطيع الإنسان من بدء الربيع إلى أواخر الخريف أن يستمتع ويستعين في أي ثغر من ثغوره بنسيم الصباح في خروجه منه وبنسيم المساء في عودته إليه»[1].

ولما كانت اللغة هي الركن الأساس في تحديد الهوية القومية للسكان وللثقافة التي ينتجونها فإننا سوف نولي هذا الركن أهمية خاصة عند الحديث عن التسمية التي أطلقها قدامى السوريين على كل موقع من المواقع. وغني عن القول إن من عمّر المواقع هو الذي كان يمنحها أسماءها. لكننا نجد هنا أن من اللازم والواجب الإشارة إلى أهم الطرق التي اتبعها قدامى السوريين في إطلاق الأسماء على المواقع، والتي نلخصها بما يلي:

- كانوا يطلقون التسميات طبقاً لما توحي إليهم به أشكال المواقع الخارجية، مثل رودس هي من «رودا» السريانية وتعني الوردة. ميلوس من «ميلا» السريانية وتعني التفاحة.
- أو بأسماء الأرباب والربات السوريين بكل ألقابهم المختلفة مثل «ألادقيا» (الأوديسا بعد التحريف) أي الربة الحارسة، ميليثا: المعينة، أفحاميا (أفاميا): النظيرة، المثيلة، أنطاخية (أنطاكية): السنية، البهية... مضيق إيل، ومضيق البعل.

* أكسينو تعني في القاموس السرياني: عزلة، منفى، غربة، بعد، ضيافة.
(1) ديورانت، الجزء 5، ص11.



مصور رقم (5): إيجه والجزر.



صورة رقم (22): سورية تعزف على المزمار.



صورة رقم (23): سورية تنسج السلال.

- أو للدلالة على مضمون الموقع الزراعي أو الصناعي أو الخدمي، مثل لسبوس: الخصيبة وهي بالسريانية من الفعل سبسْ = أخصب، قورنتا، وتعني الجرة، وقد اشتهرت بصناعة الجرار، «صيراكوزا»، أي معمل الجرار، «أمفورا» أي الجرة... وكلتاهما اشتهرتا بصناعتهما الخزفية. «موقيني» أي صانعي الأحذية، وهي بالسريانية من «موق» أي حذاء (صارت موكيني، ثم موسيني).

- أو للدلالة على موقعها بالنسبة إلى الجماعة التي أطلقت عليها الاسم مثل «فوقايا» أي الفوقية، الفوقانية، التي فوق، في الأعلى. والطريف أن أهالي «فوقايا» حينما ذهبوا إلى كورسيكا وأنشأوا مستوطنة هناك دعوها «العالية» (ألاليا) أي أنهم نسخوا اسم موقعهم الأم بصيغة أخرى، لكن بالمضمون نفسه.

- أو باسم الجد المؤسس، مثل إيلون بن ترأو، ودعيت ترأوي (تروي، طروادة) ثم «إيلون»، وهي التي دعيت «تروي» أي المعلمين وهي جمع «ترأو» اي المعلّم، الذي هو ابو إيلون.

- أو باسم حادثة أو قصة اشتهرت بها مثل «لمنوس» «الحمانوث»، وكنا قد شرحناها آنفاً، ومثل «ديلوس» التي تعني المدلدلة، المزلزلة، المتحركة، المهتزّة. وتقول القصة إن الجزيرة كانت فعلاً متأرجحة ومتحركة إلى أن ثبتها زيوس من أجل ولادة التوأمين أبولو وأرتميس[1].

إن الدولة السورية في مرحلتها البابلية المبكرة أرست قواعد البناء الاقتصادي المزدهر من صناعة وزراعة وتجارة، كما أنشأت لأول مرة في التاريخ كل المؤسسات الناظمة لاستمرار وتطور الاقتصاد من مصرفية ونقدية وتشريعية ونقابية إلى طرق التجارة الدولية البعيدة المدى.

«وحيثما وجدت التجارة المزدهرة ينبغي أن توجد طرق المواصلات. ورغم أن الطرق كانت غير مبلطة في معظمها فإن الخطوط منتشرة حيثما توجه الإنسان، وحيث القوافل تبلغ أهدافها بشكل أسرع وأحسن. وفي مواسم التجارة المنتظمة تكون القوافل محملة بثروات طائلة. لذا تنتصب في الطرقات الهامة مراكز للحراسة مسافة كل ساعتين. وفي الصحراء مواقع صغيرة محصنة تتوفر بالقرب منها ينابيع المياه. ويمكن أن يقضي هناك فترة استراحة سعاة البريد الملكي من حاملي الوثائق الهامة والرسائل...

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، المرجع السابق، ص.14.

وكانت هذه الطرق التي تحتل عادة في أوقات الحرب من قبل الجيش تحتوي على علامات تحدد الاتجاهات والمسافات من منطقة إلى أخرى، وهذه العلامات الهادية تفيد التجار في معرفة المسافات التي سيقطعونها سلفاً، وفي ما يحتاجونه من الوقت والتجهيزات. أما طرق التجارة الخارجية الهامة فتنتهي في السواحل السورية، إذ تتجه بامتداد الفرات، ثم تعرج في أواسطه إلى تدمر فسوريا الوسطى إلى حلب وآسيا الصغرى»[1].

وكان طبيعياً بعد هذا أن ينشئ السوريون المدن والمرافئ عند عقد المواصلات، وعند ملتقى خطوطهم التجارية البرية بخطوط تجارتهم البحرية في مداخل البحرين المتوسط والأسود. وكانت جزر بحر إيجه بمثابة «خميلة» بحرية، ومنطقة تجمع والتقاء وسهر وسمر وتبادل عند مداخل البحرين، مما جعل سواحل آسيا الصغرى منطقة تكثف لأرباب الفكر والفن والمال والصناعة والتجارة من السوريين كافة. فما كاد الألف الثاني يطلّ على المنطقة حتى كادت مدنها تنعم برخاء وثراء لا يكاد يقلُّ عن ثراء المدن السورية الكبرى الأخرى. ومن بين سكان تلك المنطقة السوريين كان اليونان أبناء يونا بن حيلو بن يافث بن نوح. والخطأ الذي يُصرّ معظم المؤرخين في الغرب على ارتكابه إلى اليوم هو جعل اليونان «عرقاً» خاصاً منفصلاً عن سكان المنطقة من السوريين، أخذ عنهم، و«اقتبس» منهم كل شيء، لكنه يبقى عرقاً «أوروبياً»، وكالببغاوات يردّد «الأساتذة» العرب هذه المقولات في الجامعات العربية إقراراً منهم بقزوميتهم أمام أساتذتهم الذين تصدقوا عليهم بشهادة الدكتوراه.

يقول الدكتور محمد كامل عياد: «على أن اقتباس اليونانيين لهذه العناصر من حضارة ما بين النهرين لم يكن بصورة مباشرة وإنما من طريق آسيا الصغرى التي كانت على اتصال دائم بالبابليين والآشوريين والتي خضعت لنفوذهم»[2]. فأية «آسيا صغرى» هذه إذا كانت كما أكدت الوثائق والمكتشفات، وأسلفنا، جزءاً من سوريا القديمة على مدى ثلاثة آلاف عام، أي منذ زمن أور أنجور في الألف الرابع وحتى زمن آشور بانيبال في حوالي 700 ق.م. واستمرت كذلك في زمن احتلال داريوس، وزمن التحرير من الفرس بفضل اتحاد مدنها مع الأسطول السوري بقيادة الإسكندر، ثم في زمن الدولة السورية ما بعد الإسكندر حين انتقلت العاصمة إلى سلوقيا ثم إلى أنطاكية!

(1) إيفلين كلنيكل - براندت، رحلة إلى بابل القديمة، ترجمة زهير الداوودي، دار الجليل، دمشق، 1989، ص 81.
(2) عياد، المرجع السابق، ص135.

لنمعن النظر قليلاً فيما يقول جيمس بريستد:

يقول بريستد: «وقد كانت آسيا الصغرى بطرقها التجارية حلقة الاتصال بين العالم الإيجي والهلال الخصب»[1].

ثم يقول: «وفي العصر الحجري المتأخر صارت جزر بحر إيجه مراكز فرعية لمدنيّات الشرق العظيمة التي وجدت قديماً في أرض النيل والفرات»[2].

فكيف تكون «آسيا الصغرى» مجرد حلقة وصل بين «الهلال الخصيب» وجزر إيجه، فتتحول هذه الأخيرة إلى «مراكز فرعية لمدنيّة الهلال الخصيب العظيمة» وتبقى «آسيا الصغرى» قناة اتصال، (كابل cable)، بلا بشر، بلا تأثر؟

ويضيف بريستد، وكأنما ليزيد إمعاناً في استفزاز العقل:

«وكانت كريت من أول عهدها في الرتبة الأولى حضارة بين جميع الجزر الإيجية. وتمتد هذه الجزيرة امتداداً عظيماً في المتوسط حتى لا يُعلم أهي لأوروبا أم لأفريقيا. وكانت عند أول فجر المدينة تعدّ كأنها جزء من الشرق»[3]. ثم «أما الجانب الآسيوي من بحر إيجه فقد سبق الجانب الأوروبي في مضمار التقدم زمناً مديداً»[4].

إن الجانب الآسيوي من بحر إيجه هو الساحل السوري بما فيه ساحل ما دعي مؤخراً بـ «آسيا الصغرى». إذن لم يكن حلقة اتصال فقط، وإنما كان جزءاً من الحضارة السورية التي أخذت تتقدم وتنتشر من الشرق إلى الغرب عبر جزر بحر إيجه. في الوقت الذي ظلّ فيه «برّ أوروبا العظيم ـ ومن ضمنه شبه جزيرة المورة ـ متخلفاً وراء الجزر»[5]. و«إن أوروبا في عصر البرونز لم تستطع أن تنشئ مدنيّة كمدنيّة الشرق إلا أن جزءها الواقع في جوار بحر إيجه نشأت فيه مدنيّة ترقّت بسرعة عجيبة»[6].

إن للتوسع الاستيطاني الذي مارسه السوريون منذ الألف الثالث قبل الميلاد على الأقل، والمشهود آثارياً ووثائقياً، أسباباً نجملها بما يلي:

---

(1) برستد، المرجع السابق، ص244.

(2) المرجع نفسه، ص244 - ٢٤٥.

(3) المرجع نفسه، ص.245

(4) بريستد، المرجع نفسه، ص.258

(5) المرجع نفسه.

(6) المرجع نفسه، ص.242

1 – ازدياد عدد السكان في سوريا الطبيعية مع ازدهار الاقتصاد وزيادة الرخاء زيادة جعلتهم منذ الألف الثالث قبل الميلاد يبحثون عن مواقع وبقاع جديدة تتوفر فيها الشروط للاستيطان وإنشاء المدن، وممارسة الأعمال الأخرى التي توصلوا إليها في الوطن الأم.

2 – بعد اكتشاف المعدن وتصنيعه لأول مرة في سوريا، وبخاصة المعادن الثمينة من ذهب وفضة، نشطت رحلات الاستكشاف البرية والبحرية للبحث عن مكامن المعدن خارج حدود الدولة السورية المركزية من أجل استخراجها واستثمارها. في الوقت الذي كانت فيه الشعوب الأخرى ـ باستثناء المصريين ـ لا تقيم أي وزن لهذين المعدنين الثمينين. وكنا قد رأينا من ذي قبل كيف أن جميع المكتشفات من المصنوعات المعدنية، وبخاصة، الذهبية والفضية، كانت ترد إلى بلاد الإغريق بواسطة السفن الفينيقية. وغني عن القول أن ما دعي بعصور النحاس والبرونز والحديد عرفته سوريا قبل بقية أنحاء العالم بعدة آلاف من السنين.

3 – لما كان من الثابت أن السوريين كانوا أول من أنزل سفينة في البحر، وكان البحر الأبيض المتوسط، ولا سيما شاطئه الشرقي، أنسب البحار جميعاً لنشوء وتطور الملاحة البحرية، نظراً لما توفره جزره المتراصة قرب بعضها في قسمه الشرقي والشمالي الشرقي، فإن هذا هيأ للسوريين قبل غيرهم استكشاف كل المواقع الصالحة لرسو السفن كموانئ، وللاستيطان وإنشاء المدن كأراضٍ خصبة، كما تعرفوا على مكامن المعادن من أجل إقامة المستثمرات لاستخراجها، كما في طاسوس ومكدونيا وأتيكا.

4 – إن من جملة الشروط الأخرى التي لا تقل أهمية، هي أن السوريين منذ أن أقاموا دولتهم المركزية وجيشهم المركزي قبل أي شعب آخر، ملأتهم مشاعر العزة والشعور بالقوة وبالتفوق، وبأنهم آمنون «محميو الظهر» مما شجعهم على الاندفاع وارتياد المناطق المجهولة في أوروبا وحوض المتوسط. ولما كانت دولتهم المركزية ـ كما سبق أن رأينا ـ قد وفرت لشعبها أعظم وأطول وأهم خطوط تجارة في العالم القديم، كما أمنت السيادة عليها وتوفير الأمن، فإن «ترفيق» القوافل إلى أقصى البقاع التي كان الوصول إليها ممكناً، قد راكم خبرات طويلة عن المواقع، والأراضي، والشواطئ، وشطوط الأنهار، والأقوام وأحوالهم، مما حفز ـ لا شك ـ الكثيرين عبر مرور الزمن على تجاوز أراضي الدولة إلى خارجها من أجل إعمار المدن واستيطانها.

5 - وهناك عامل آخر كان يتوفر للإنسان العربي وحده دون غيره، ويدفعه إلى البحث عن موقع جديد يصلح للإقامة والاستيطان، هذا العمل الذي تميزت به القبيلة العربية منذ تكونها، وهي أقدم القبائل على وجه الأرض وأشدها عراقة، هو التقيد بنظام «البكورية» في الأسرة. إذ كان الابن البكر يرث ممتلكات أبيه كلها، فيديرها، ويشرف عليها وعلى باقي إخوته، بعد أن يباركه الأب، فتكون المباركة بمثابة عهد إلى الابن البكر لينوب مناب أبيه في كل شيء. إن هذا كان من شأنه أن يدفع بكثير من الأبناء إلى أن يغادروا مقر القبيلة ويبحثوا لهم عن مستقر جديد يبدؤون فيه حياة جديدة.

6 - أما وإذا ما توفرت لإحدى المدن معلومات عن موقع قريب أو بعيد، يمتاز ببعض الميزات التي تشجع على الاغتراب والاستيطان فيه، كأن تتوفر فيه أرض زراعية خصبة، أو أنهار للملاحة، أو ينابيع للشرب والري، أو ثروات معدنية، أو سمكية، أو أن يتمتع بموقع ذي أهمية بالنسبة لخطوط التجارة البرية أو البحرية، أو بموقع حصين كميناء تلجأ إليه السفن إبان الطوارئ أو اتقاء للعواصف... فإن عملية تأسيس الموقع الجديد، أو المدينة الجديدة، كانت تخضع لطقوس لا بد منها حتى يبقى ارتباط المدينة الجديدة بالمدينة الأم خالداً قوياً لا ينفصم. ففي مثل هذه الحال كان لا بد من أخذ المشورة من «مجلس المدينة» ومن ثم الموافقة. عندها يتم تعيين جماعة المهاجرين وقائدهم، ويتم تزويدهم بالعدة اللازمة والسلاح الضروري، وبإبريق من زيت الزيتون الذي تم تقديسه في هيكل المدينة الأم من أجل إيقاد الشعلة المباركة في الهيكل الجديد. ويتم ذلك كله بقيادة وإشراف كاهن يسمى «أقصتو»[1] AUGEST. أما إذا كانت الهجرة قد تمت في غفلة عن مجلس المدينة ورئيس كهنتها، فيتزعم المهاجرين أكفأهم قيادة وأشدهم بأساً وشجاعة، فتدعى المدينة حينئذ باسم بطلها المؤسس. ثم يجري تقسيم الأرض إلى حصص على عدد الأسر أو الفصائل بالقرعة.

(1) «أقصتو» تعني بالسريانية: الكاهن، مقرب القربان، الحاكم، القاضي، الغافر، المعاقب. القاصّ، المقاصص. وهي من الفعل «قصا»: كسر، قسم الخبز خاصة، كرس، قدس القربان. «أقصى»: حدد، قدر، حتم، حكم، غفر، عفا. ومنها انتقلت إلى إيطاليا لتطلق على الحاكم Augest أوجست، التي صارت أغسطس.

«آسيا الصغرى» السورية ـ عتبة الانطلاق:

سكان «آسيا الصغرى»:

ذكرنا في أكثر من موضع من ذي قبل كيف أن علم اللغات (أو الألسنيات) في صميم أي بحث تاريخي جدي، ذلك أن اللغة التي تكلمها هذا الشعب أو ذاك وأنتج بها ثقافته بحيث صارت هي حاملها الأساس من جيل إلى جيل، هي وحدها القادرة بالدرجة الأولى على تحديد هويته القومية والثقافية.

لقد أقدم علماء اللغات في الغرب، وبالأخص الألمان منهم، على تقسيم اللغات، وبالتالي الشعوب، تقسيماً قسرياً لا يقوم على أساس، إلى هندو ـ أوروبية (أو آرية) وساميّة. وعملوا على تعميمه وفرضه في كل المدارس والجامعات. وبالرغم من سقوط هذا الاختراع الفرضي لدى الكثير من العلميين الموضوعيين في الغرب إلا أنه ما زال مهيمناً بالقوة في المدارس والمعاهد والجامعات التي أخضعت علم التاريخ لأغراض سياسية استعمارية واضحة على مدى القرون الثلاثة الأخيرة.

يقول الباحث الفرنسي بيير روسي بهذا الصدد: «والواقع أنه انطلاقاً من الوثائق والمصادر والمواد التي كانت تحت تصرف العالم، يبدو أن من المستحيل البرهان على وجود شعوب سامية وآرية... إنه ليس هناك إنسان ما، أو ثقافة ما، أو مجتمع ما، قد طالب بهذا الارتباط بالمصير السامي أو الآري... إن كثيراً من المعلمين والمفسرين، وهم الخائفون من مضايقة الأساتذة الذين تتلمذوا عليهم قد فشلوا في التصدي لهم، متحملين بذلك الوزر أمام أنفسهم، إذ يوزعون تعليماً غير مؤمنين به أبداً متحولين إلى مزورين على الرغم منهم»[1].

وبالرغم من محاولاتهم الدؤوبة لـ «غرس» الحثيين في آسيا الصغرى وجعلهم «آريين» بإيحاء من التوراتيين والصهاينة، إلا أن هذه المحاولات سرعان ما باءت بالفشل، إذ أن كل المكتشفات الآثارية في المنطقة، ومن البحر الأسود إلى بحر العرب، لم تأتِ على ذكر للحثيين المزعومين، والذين لا ذكر لهم خارج مدونات التوراة، إذ هم فيها أبناء حث بن كنعان بن حام بن نوح، وحث هو ثاني أولاد كنعان الحامي حسب التوراة. فسقط هذا

---

(1) روسي، المرجع السابق، ص13 – 14.

التزوير مرة أخرى حتى عند مبتدعيه. حتى أن بريستد المتحمس كثيراً للبدعة الأرية لم يسعه إلا الاعتراف بأن من أطلق عليهم تسمية «الحثيين» في شمال سوريا (في آسيا الصغرى) لم يكونوا هندو ـ أوروبيين حتى 1500 ق.م على الأقل[1]. ويؤكد «جارني» في كتابه «الحثيون» أن تسمية «الحثية» اصطلاح وليست حقيقة[2].

والحقيقة هي أنه ما كان يجب أن يتوقف باحث أو مؤرخ محترم عند مثل هذا الإعلان المبتور. فما داموا قد قسموا شعوب العالم ولغاته إلى قسمين آري وسامي، وليس من ثالث، فإن من لم يكن «آرياً» كان حتماً، وحسب التقسيم ذاته، سامياً بالضرورة. ونحن، من جانبنا، نضيف أن سام ليس إلا فرعاً بدوياً من فروع العروبة، وأن العرب، والسوريين منهم تحديداً، ملأوا الأرض العربية بمدنهم العامرة الزاهرة التي تسبق ميلاد سام بن نوح نفسه بعدة آلاف من السنين، مثل دمشق، وأريحا، وأوغاريت، وماري، واللاذقية، وشتال هيوك، وغيرها. وما دامت «شتال هيوك» في «آسيا الصغرى» فلن يكون ثمة من شعب آخر عمّرها وسكنها كما عمّر غيرها غير السوريين.

إن هذه الكتابات الملتوية، المتحايلة، المبتورة، هي ما يطبع كتابة التاريخ في الغرب في معظمه إلى هذا اليوم.

وكنا قد ذكرنا من ذي قبل كيف أن هيرودوت ـ أبا التاريخ ـ أكد أن سكان كبادوكيا سوريون، وكان السوريون هناك يلقبون بالمعلمين، (بالسريانية: ميتراني، جمع ميتران، أي معلم، و«ترأو» أيضاً معلّم، والمؤنث ميترا، وميترانا). ويعترف أندريه إيمار بأن السلالات في كبادوكيا شرقية المنشأ، ويضرب على ذلك مثالاً سلالة الـ «ميتراتي» أي المعلمين. وسوف نرى أن لقب «المعلمين» «المهرة» بصيغه المختلفة لاحق السوريين في كل مواقع انتشارهم في حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، حتى صار يطلق عليهم «السادة المعلمون أبناء الألهة». ومقاطعة كبادوكيا تعادل ثلاثة أرباع ما دعوه بـ «آسيا الصغرى» وتمتد من كيليكيا جنوباً إلى البحر الأسود شمالاً. وإن كيليكيا نفسها وحسب هيرودوت نفسه ـ جزء من سوريا، وقد حافظت على هويتها السورية منذ الزمن الموغل في

(2) بريستد، المرجع السابق، ص277.

(3) جارني، الحثيون، ص62.

القدم إلى أن قدمها الاستعمار الفرنسي بالإضافة إلى لواء اسكندرون هدية إلى تركيا في القرن الماضي لأسباب سياسية استعمارية محضة. ثم إن هيرودوت نفسه من بلدة «هلك أرنو» (أي مدرج الوعل بالسريانية) في كيليكيا، وكانت لغته التي تكلمها وكتب بها تاريخه هي السريانية بالأحرف الفينيقية. وقد دعيت «كيليكيا» بهذا الاسم نسبة إلى كيليك بن أجينور شقيق قدموس وأوروبا.

إن التسمية العامة لسكان آسيا الصغرى، إذن، هي السوريون. ولن يغيّر من هذه الحقيقة كونهم بابليين في مرحلة دولتهم حين كانت العاصمة بابل، وآشوريين حين كانت العاصمة آشور ثم نينوى. وقد أكد هيرودوت لنا هذه الحقيقة التي سبق أن أوردناها آنفاً.

وإن هذا لن ينفي وجود تسميات تفصيلية لأولئك السكان، سواء أكانت قبلية كاليونان والفالجيين أبناء «يونا» و«فالج» أو تسمية سياسية ضمت قسماً منهم نتيجة لظرف سياسي طارئ في مرحلة تاريخية معينة مثل «المتحدين» وهي بالسريانية «الحيدي» والتي صارت «ليدي» بعد سقوط الحاء، أو تسمية وصفية لحالة قسم آخر مثل «الإغريق» والتي تعني بالسريانية: الفارين، الهاربين، النازحين، أو نتيجة لتوزع بعض الجماعات العربية أو السورية الذين قدموا من جنوب شبه جزيرة العرب وانداحوا بين الشواطئ السورية الغربية كالفينيقيين.

إن «هوس» المؤرخين في الغرب بتمزيق الشعب الواحد وتفتيته إلى قبائل وعشائر من أجل تحقيق أغراض لم تعد خافيةً، تتلخص في: تغييب التسمية القومية الشاملة سواء قيل عنها عربية أم سورية، ثم التركيز على استقلالية الأجزاء عرقياً وثقافياً وحضارياً، وبصورة أخصّ على تلك الأجزاء السكانية التي انتشرت في الغرب الأوروبي سواء أكان ذلك في الجزر أم في بلاد المورة القارية، وإبراز منجزاتهم الثقافية هناك بصورة مستقلة من أجل إلصاقهم قسراً بما اخترعوه ودعوه بـ «الجنس الآري» أو «الهندو أوروبي». وبالرغم من كل الأدلة والشواهد الآثارية والكتابية، السكانية واللغوية، الثقافية والدينية، وبكلمة واحدة: بالرغم من كل تأكيدات علوم الانتروبولوجيا كلها على وحدة أولئك الأقوام العرقية والثقافية فقد بقيت الأبحاث التاريخية في الغرب، في معظمها، مصرّة على التجزيء والتحليل دون اللجوء مرة واحدة إلى التركيب.

إن هذا تحديداً هو ما جعل باحثاً موضوعياً نزيهاً مثل بيير روسي يقول:

«إن فن التقسيم قد ذهب بعيداً جداً، بحيث أن الحضارات، تحت مجهرنا القاتل، قد انتهت بالانشقاق إلى فتات. لأنه، في الوقت نفسه الذي كان فيه سيرنا التحليلي يندفع متقدماً، كانت إرادة التركيب تتراجع، ذلك التركيب الذي لا يمكن بدونه أن يكون هناك تاريخ ممكن. وإن من غير الممكن تصوره وإدراكه بالنسبة لنقادنا أن يحكموا على تاريخ الشرق والغرب انطلاقاً من هذا البلد المنعزل أو ذاك، أو اعتماداً على هذا الحادث المعترض أو الطارئ، ولكن انطلاقاً من وحدة ثقافية واجتماعية تُظهر فيها الوثائق الالتحام الذي لا يناقش: إن الحدود المرسومة عسكرياً أو سياسياً حسب مقتضيات آراء الأساتذة أو علماء الآثار لا تتجاوز بالضرورة قلوبهم إلى العقول. وإننا عندما نؤكد من خلال نظرة شاملة أن الشرق يتعين من خلال ثقافة عربية في مساحة عربية فإننا لا نخترع شيئاً. إننا لا نفعل شيئاً جديداً سوى جمع وإحكام العناصر الجغرافية والثقافية الموطدة الواحد إلى الأخر، تلك العناصر الوطيدة والممزقة حتى الآن بإرادة تحليل زائد عن الحد. تلك الإرر ادة نفسها هي المسؤولة الأولى عن نفي عالمنا الحقيقي. والمذنب الثاني هو التعليم الجامعي المنتشر منذ النهضة، والذي كان الوحيد لصالح أثنيا وروما»[1].

إن ظلمات الجهل التي خيمت على أوروبا طيلة العصور الوسطى جعلت الناس هناك لا يعرفون شيئاً عن العالم إلا من خلال «الكتاب المقدس» فاعتقدوا أن طوفان نوح كان شاملاً لذرية آدم كلها. وأن الناس تسلسلوا بعد الطوفان من أبناء نوح الثلاثة سام وحام ويافث. وعلى هذا الأساس كان التقسيم بين «ساميين» و«آريين». لكن حتى في هذا الموضوع كان التزوير التعصبي بارزاً، مما جعل بيير روسي يكتب قائلاً: «يضاف إلى هذا أننا، من أجل احترام التراث التوراتي، ينبغي أن نقول «اليافثيون» وليس «الآريون» لأن يافث من أبناء نوح الثلاثة هو الذي نسل اليونانيين والأناضوليين وأقاربنا الأوروبيين. فبأية غفلة لا تغتفر تقدمت مدرستنا العلمية في ميدان ليس فيه شيء من الثبوت والصحة؟»[2].

---

(1) روسي، المرجع السابق، ص30.

(2) روسي، المرجع السابق، ص14.

إن السوريين ـ كما سبق أن بينّا ـ موجودون، ويملأون الساحة التي من ضمنها آسيا الصغرى كلها، قبل أن يولد نوح نفسه وبالتالي أبناؤه. وإن بناءهم الحضاري والعمراني يمتد من طروادة شمالاً إلى كريت في أقصى جنوب جزر إيجه منذ ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد، أي قبل نوح وأولاده.

طروادة:

إن أعمال الحفر الاستكشافية التي قام بها شليمان ما بين 1870 – 1890م ثم البعثة الألمانية بقيادة دوريفلد بين 1893 – 1894م، ثم البعثة الأمريكية من 1932 – 1938م أدت «إلى الكشف عن تسع طبقات حضارية في طروادة، يعود أقدم هذه الطبقات إلى العصر الحجري الحديث، وتؤرخ بدايته فيما بين 4000 و3000 ق.م. وقد استمر إلى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد... كانت المدينة آنذاك صغيرة الحجم، أقيمت دورها من الطين واللبن على أساس من الحجر... وكانت محاطة بسور. وكانت المدينة لا شك تخضع لأمير ما تم العثور على قصره الصغير الذي كان قد اتخذ شكل «ميقارون» (المضافة). وقد ظهر البرونز خلال تلك الطبقة الحضارية الأولى. وقد انتشرت سمات تلك المرحلة الحضارية في مناطق أخرى منها جزيرة لسبوس»[1].

ويقول بريستد: «أما الجانب الآسيوي من بحر إيجه فقد سبق الجانب الأوروبي في مضمار التقدم زمناً مديداً... وفي الزمان الذي وصل فيه المعدن أول مرة إلى كريت (بعد سنة 3000 ق.م.) قامت عند الزاوية الشمالية الغربية من آسيا الصغرى قرية صغيرة من قرى العصر الحجري المتأخر تدعى طروادة. ويرجّح أنه قام ببنائها جماعة من التجار استهوتهم التجارة الرائجة بين آسيا وأوروبا في هذه المنطقة. وفي سنة 2500 ق.م بعد دخول المعادن إلى طروادة ببضعة قرون كان حكامها قد صاروا ملوك التجارة وأرباب الثروة. وكانت القلعة التي شيدوها أقدم حصن في العالم الإيجي... ونحو سنة 1500ق.م أصبحت طروادة الجميلة الراقية حصناً منيعاً وخصماً شديداً قام في الشمال لمزاحمة كنوسوس المتنعمّة في الجنوب»[2].

(1) الدكتور فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص41 – 42.

(2) بريستد، المرجع السابق، ص258 – 259.

واضح أن الكلام يدور حول مدينة سورية، فالسوريون هم وحدهم أصحاب الحضارة في المنطقة منذ ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد، وهم وحدهم كانوا منشئي خطوط التجارة الدولية في البر والبحر، وكذلك المحطات والموانئ، وفارضو الرسوم. وتشهد على ذلك عمارتهم أيضاً، وبالأخص المضافة، (أو الميقارون) الذي هو في صلب البيت العربي أو السوري منذ الزمن القديم إلى اليوم.

ويقول يوهارد برينتيس في كتابه «نشوء الحضارات القديمة» بهذا الصدد ما يلي:

«ولقد ظهرت الفخاريات إلى جانب الأبنية ذات القاعات (الميقارون) في الطبقات السفلى من بيشي سلطان التي تم بناؤها قبل عدة آلاف من السنين في أريحا ما قبل الفخارية. ولقد أسس سكان هذه الحضارة مدينة طروادة المشهورة، وبنوا في بداية الألف الثالثة أول قلعة مساحتها (80 × 90 م) في منطقة استراتيجية هامة تسيطر على الطرق الملاحية بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود وتغلق الطريق بين أوروبا وآسيا. هل هذا يعني أن هذه الشعوب كانت تخاف خطر برابرة جبال البلقان؟ أم أنها جاءت هنا محتلة غاصبة؟ لقد دافعت الأبواب الكبيرة عن المباني السكنية الواقعة داخل القلعة التي تم بناؤها مع «ميقارون» وفق الأسلوب الآسيوي القديم الذي أضحى نموذجاً للإغريق في الألف الثانية قبل الميلاد. ويبدو أن مقر الحاكم كان يقوم داخل مدينة طروادة... لقد تهدمت طروادة عدة مرات ثم أعيد بناؤها ولكن أسلوب البناء لم يتغير قط. ولقد اكتشفت حضارات مماثلة في جزيرة لسبوس»[1].

إن موقع طروادة كان متميزاً، وقد اختير بعناية. فهو يسيطر على سهل «إسكاماندر» الذي تتدفق مياهه غزيرة صافية، وهذا ما يدل عليه اسمه السوري (السرياني) إذ أنه يعني: الفضة المتدفقة. إن «إسكا» في القاموس السرياني تعني الفضة، وهو اسم زوجة ابراهيم[2] التي لقبت بـ«سارة» أي السيدة. و«مندر» تعني: المتدفق بغزارة كما تعني: العزيز، الحبيب، المنذور للرب. أما أهمية الموقع الحقيقية فتأتي من إشرافه على مدخل المضايق. «إن جميع السفن التي تقصد البحر الأسود لا بد من أن تمر أمام طروادة. وهي كثيراً ما تضطر للالتجاء

(1) يوهارد برينتيس، نشوء الحضارات القديمة، ترجمة جبرائيل يوسف كباس، الطبعة الأولى، 1989، دار الأبجدية، دمشق، ص108.
(2) انظر: القاموس الكلداني.

إلى الشاطئ بسبب الرياح الشديدة التي تعصف من حين إلى آخر. وكان أكثر التجار ينزلون بضائعهم في المدينة ويرسلونها إلى البلاد الداخلية في آسيا الصغرى. وقد كانت طروادة مركزاً لطرق القوافل، والآثار التي وجدت في أطلال المدينة تثبت بأن تجارتها كانت واسعة جداً... ويظهر أنه كان يقام في المدينة كل عام سوق عامة يشترك فيها التجار من مختلف البلدان. وكان ملوك طروادة يفرضون المكوس والضرائب على جميع البضائع»[1].

ومن أقدم العائلات السورية المعروفة التي حكمت هذا الموقع «آل دردو»، و«دردو» بالسريانية تعني الصقر، وليس اسم «دريد» الواسع الانتشار في سوريا إلى اليوم إلا تصغير هذا الاسم، وباسم «دردان» دعي المضيق الذي كان اسمه «عبر إيل» بـ«دردن إيل» الذي هو مضيق الدردنيل إلى هذا اليوم. ومن أحفاده «ترأو» ويعني في القاموس السرياني المعلّم. وجمعه بالسريانية «ترأوي» ونسبة الجمع ترواتي ثم حولها العرب فيما بعد إلى طروادة. وباسم «ترأوي» أي عشيرة «ترأو» دعي اسم المدينة أولاً.



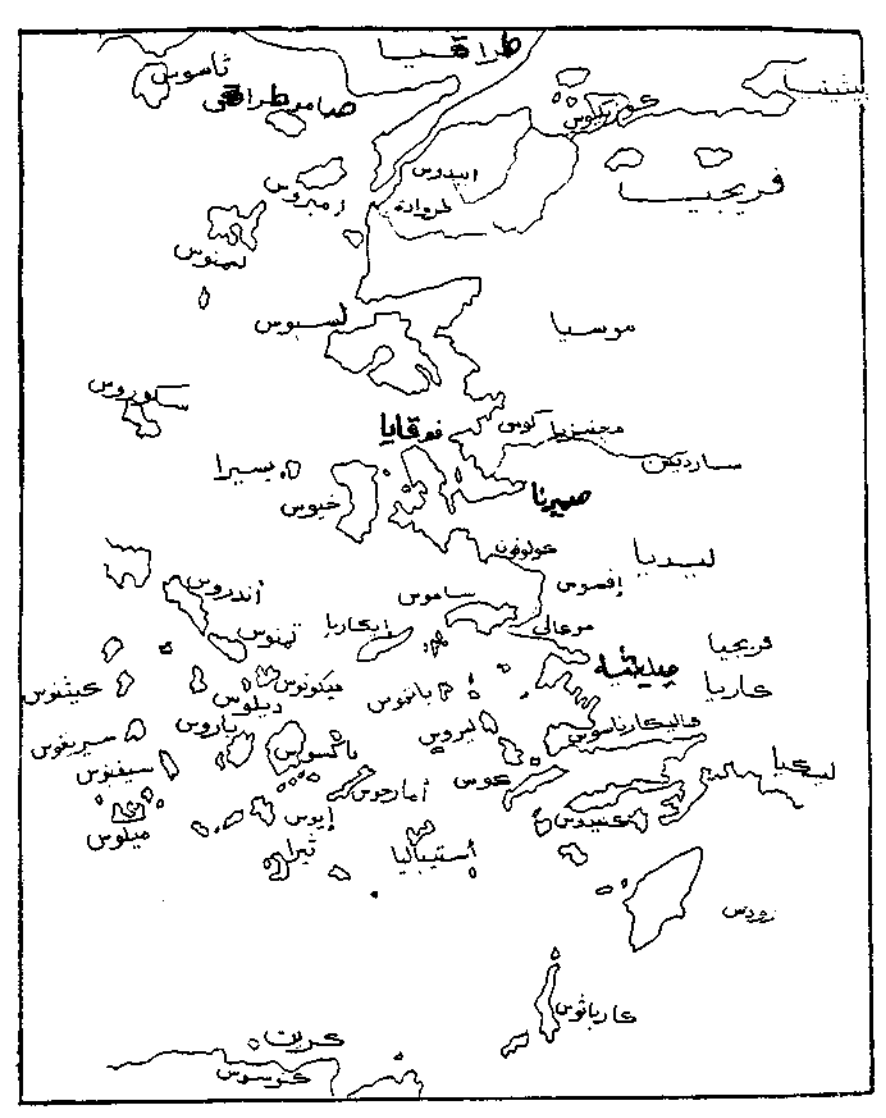
صورة رقم (24): طروادة - المدينة السادسة

ثم دعيت باسم ابنه «إيلو» و«إيلون» الذي يعني بالسريانية: الغزال والشمس كما تعني السيد الرب. وما تزال في العربية الفصحى الغزالة من أسماء الشمس فأخذت المدينة اسمه «إيلون». وبإضافة هاء التعريف إلى الاسم يصبح «هيلو» «هيلا» «هيلون» «هيلان»، وبإضافة السين فيما بعد التي صاروا يضيفونها اعتباطياً إلى نهايات كل الأسماء المذكرة صارت «هيلاس» الذي اعتبر جداً لليونانيين.

(1) عياد، المرجع السابق، ص82 - 83.

ومن أحفاده المعروفين أيضاً والذي عاش قبيل حرب طروادة «لاوميدون»، و يعني بالسريانية: المقضي عليه، المعاقب، المدان. وهو من الفعل «دين». ويعني: حاكم، قاصص، شجب، أهلك... و«ميدون» اسم المفعول. وواضح أن اللام أداة التعريف العربية الشهيرة. وقد لحق به هذا اللقب بناء على قصة اشتهر بها. وهي أنه لما تولى عرش طروادة بعد أبيه، وبنى أسوارها ومرفأها الحصين بمعونة الربين أبولون وبوزيدون كان قد وعدهما بأن يقدّم لهما كل ما تلده قطعانه خلال عام كامل. لكنه حنث بوعده، فانتقما منه بأن أرسل أبولون وباء على المدينة، وسلّط عليها بوزيدون الريح البحرية، فخرب حقولها وأغرقها بمياه البحر. واستشار لاوميدون الوحي، فنصحه بأن يقدم ابنته «حزيونا» ضحية للوحش البحري حتى يرضى بوزيدون. وشرع في التنفيذ. فأوثق ابنته إلى صخرة على الشاطئ وتركها ليفترسها الوحش. وشاءت الصدفة أن تسوق إلى المنطقة هرقل وصديقه طيلامون، فخلّص الفتاة، وعرض على أبيها أن يقتل له الوحش لقاء حصانيه الأبيضين الشهيرين اللذين كانا أسرع من الريح. وقتل هرقل الوحش. لكن لاوميدون نكث كعادته، فخرج هرقل من طروادة مغضباً وعاد بجيش، هاجم به المدينة، وقتل لاوميدون وجميع أبنائه ما عدا «فريام» الذي أجلسه على العرش و حزيونا التي قدمها إلى صديقه. ومن هنا أيضاً جاء لقب «فريام» Priam الذي في عهده جرت حرب طروادة، لأن «فريام» تعني بالسريانية أبا النسل. وهذا ما سوف نشرحه مفصلاً. تناقلت القصص أخباره، وحدّثت أنه كان يلقب بـ «فودا ركيك» ويعني بالسريانية «القدم الخفيف» إذ «فودا» و«فود» تعني القدم التي جاءت منها Foot وركيك تعني: خفيف، لطيف، ناعم، دقيق، رقيق ولما كان السريان يلفظون الفاء P في أغلب الأحيان صار لفظها «بودا ركيك»، وصارت باللاتينية «بودارسيسيس» لأن الأصوات الحلقية تتحول هناك قبل أحرف العلة إلى C.

تقول القصة: لما اجتاح هرقل مدينته قتل لاوميدون وجميع أبنائه لأنهم منعوه من الزواج بأختهم حيزيونا. وحافظ على حياة «بودارسيس» سجيناً، فاشترته أخته وأنقذته. تزوج أريسا أولاً ثم هقيوبي، وأصبح آخر ملوك طروادة. وقد ولدت له ذرية كثيرة منها هقتور، وباريس، وكسندرا، وكريوزا. ومن هنا جاء لقبه «فريام» الذي يُلفظ بريام، ويعني: كثير النسل والذرية، أبا النسل. وهو في القاموس السرياني من الفعل «فري» ويعني: أنمى، كثّر، أخصب، أحبل، أولد، أنسل، أثمر، و«فريوت»: ثمر، نسل، ذرية. ومنها جاءت fruit الإنكليزية. إن «فريام» الذي كان بقية النسل الملكي هو الذي حافظ عليه وكثّره وزاده، ولذلك منح هذا اللقب.



مصور رقم (6): الساحل الشمالي السوري القديم – وتظهر عليه طروادة، فوقايا، صميرنا، ميليثيا.

ولو تابعنا أسماء بقية الأسرة لوجدناها سورية (سريانية) خالصة، لا معنى لها بأية لغة أخرى في هذا العالم، وخاصة وأنها ألقاب تحكي لنا عن أوصاف حاكمها كما هي.

إن «حزيونا» أخت فريام تزوجت أحد السوريين الموسرين الذي رحل بها إلى إيطاليا وصارت هناك حكيمة عرافة. و«حزيونا» يعني: البصيرة، الحكيمة، العرافة، الجميلة، البهية. وهي من الفعل «حزى» الذي سبق شرحه.

وإن «أريسا» تعني الأميرة، والأريسة في الفصحى إلى اليوم تعني الأميرة، ومنها جاء اسم «لاريسا» بإضافة لام التعريف. وإن «هقيوبى» تعني: العجوز، القوباء، المحدودبة الظهر من شدة الحزن، والهاء للتعريف.

وإن «هقتور» يعني: المفتخر، المتكبر، المزهو، المجيد. وتلك أوصاف هقتور الذي أفضت به إلى الهلاك في الحرب. و«قترا» من أسماء عشتار، و«إلقترا» هو الاسم نفسه بإضافة أل التعريف.

وإن «باريس» الجميل كان اسمه »كساندر» ويعني: القمر الغالي، أو الفضة المنذورة والمتدفقة. إذ أن «كسؤو» في القاموس السرياني يعني القمر البدر، البدر التمام، و«أندر» المنذور، الحبيب، العزيز، الغالي، المتدفق. ومثله أخته «كساندرا». أما «باريس» فهو اللقب الآخر الذي لحق به في إثر قصته الشهيرة حينما حلّ ضيفاً على مينيلاوس في إسبارطة، وأعجب بجمال زوجته «هيلين» الذي يعني اسمها الشمس أو الغزالة فاحتال، وانتهز الفرصة، وخطفها إلى طروادة، فكان ـ كما يقال ـ السبب المباشر في نشوب حرب طروادة. إن أصل اللقب هو «فاريس»، وهو في القاموس السرياني من الفعل «فْرِس» و«فرسي» ويعني: احتال، مكر، انتهز الفرصة، فرس، فرّق، هتك، فضح، ضاف، قات، عال، كشف، أعلن... إن هذا الفعل السرياني يحكي قصته كاملة.

وإن «أندروماك»، وهو اللقب الذي لحق بزوجة هقتور، يعني: العزيزة التي ذلت، العزيزة الذليلة. إذ أن «أندرا» كنا قد شرحنا معناه، أما «ماك» فهو من الفعل السرياني «مك» ويعني: ذلّ، نزل، هبط، طأطأ، خضع، قهُر، ومِكِكْ: أذل، أخضع، قهر، واقع المرأة سفاحاً. وتلك هي قصتها التي لم يصلنا غير لقبها بعد مقتل زوجها وتدمير طروادة. ففي أثناء الحرب قتل زوجها على يد أخيل، ووالدها، وإخوتها السبعة، وابنها الطفل أيضاً، ووقعت عند سقوط طروادة سبية في يد ابنه نبتوليم وولدت منه ثلاثة أولاد منهم فرجام. وقد بقيت وفية لذكرى زوجها هقتور رغم كل ما حلّ بها. ماتت في سوريا بعد أن لحقت بابنها فرغام في المدينة التي سميت باسمه وكان أول ملوكها.

وأما ابنها الطفل الذي قتل أيضاً برميه من فوق الأسوار ليسقط كومة لحم على الأرض فلم يصل إلينا عنه إلا لقبه «أستيو ناكسو» وهي بالسريانية «حستيو ناكسو» ويعني: البريء القتيل. إن «حستيو» تعني: البريء، الطاهر وهي من الفعل: حسي: زكي، بريء، طهر. و«نكسو» تعني: قتيل، ذبيح، كومة لحم، هبرة. وهي من الفعل «نكس».

أما «كريوزا» بنت فريام فيعني لقبها: الكارزة، الواعظة، المبشرة، الكاهنة، وهي من الفعل السرياني «كرز». وقد تزوجت من كاهن طروادة «عنيا» الذي صار «إنيا» ثم «إنياس» ويعني: الكاهن، المنشد، المرتل، المغنّي، الممجد، وهو من الفعل السرياني: عنى: غنّى، رتّل، أنشد، مجّد، سبّح، اعتنى، اهتم.

هرب «عنيا» الكاهن من طروادة المحترقة حاملاً والده المقعد الأعمى وابنه «أسكانيو»، وانضمت إليهم جماعة من النازحين. وقد نفذ «عنيا»أوامر الآلهة حين مضى إلى المستوطنات السورية في إيطاليا حاملاً أصنام طروادة. وقد مرّت عليه في رحلته تقلبات كثيرة، وأثناءها أقام عند ديدون ملكة قرطاجة التي أحبته، ولم تسمح أمه السورية الكبرى عشتار بزواجهما بعد أن تجلت له وفاحت من عنقها الوردي عطور بلاد العرب، وأمرته أن يتوجه إلى إيطاليا. وهناك تزوج «لافينيا» بنت «لاتينوس» و«أماتا» حاكمي مقاطعة «لورنتوم» بعد انتصاره على «طورنو»، ومن نسله جاء «ريمو» و«روملو» مؤسس مدينة «روما».

إن «أسكونيو» الذي هو لقب ابنه هو في الأصل السرياني «حسكونيو» والحاء في أول الكلمة تتحول إلى همزة، ويعني: البريء، المخلّص، الناجي. وهو من الفعل «حسك» أي: حفظ، عصم، أنقذ، نجّى، خلّص، قنع، زهد، كان عفيفاً، زاهداً، بريئاً، محروماً...

وإن «لافينيا» التي تزوجها «عنيا» تعني بالسريانية الخصيبة، وهي التي أنجبت له الكثير من الأولاد. إذ أن «أفني» بالسريانية تعني الخصب، كما تعني شجرة الغار رمز الخصب والجد. واللام أداة التعريف. ومثلها «دفني» إذ الدال أداة التعريف السريانية الأكثر استعمالاً، وتعني الخصب كما تعني شجرة الغار، ودفني دين: حب الغار.

أما أمّ لافينيا وأبوها فقد وصل إلينا لقباهما اللذان يحدّدان العلاقة بـ «عنيا». فأم لافينيا هي حماة عنيا، وبالسريانية «حماتا»، وقد صارت «أماتا». وأبو لافينيا هو «حَتِنو» بالسريانية، وقد صارت الحاء همزة أي «أتِنو» وبإضافة لام التعريف صار «لاتِنو» أي الختن، أي أب الزوجة. وحتى لا يدهش القارئ نحيله إلى العربية الفصحى أيضاً. ففي «محيط المحيط» نجد: الخَتَن كل من كان من قِبل المرأة كالأب والأخ جمع أَختان. وقال في الصحاح: الخَتَن كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ، هكذا عند العرب، أما عند المولَّدين فختَن الرجل زوجُ ابنته. وهكذا فقد أطلق اسم «اللاتين» على قدامى السوريين المستوطنين في جنوب إيطاليا الذين ناسبهم الكاهن «عنيا» وتزوج ابنته، فصاروا له «الأختان» وبالسريانية «الحاتيني» وبسقوط الحاء «لاتيني».

ولن نخوض الآن في أسباب حرب طروادة ونتائجها، وفي هوية الطرف الآخر «الإغريق» في تلك الحرب، بل كل ما يهمنا هنا الآن هو البرهان على أن طروادة سورية منذ لحظة تأسيسها إلى دمارها سكاناً وعمارة وعادات وتقاليد ولغة وحضارة.

«والصورة التي تطالعنا في الإلياذا عن فريام وبيته هي صورة العظمة والعطف الأبوي... فالملك فريام كثير الزوجات. ولم يكن منشأ هذه الكثرة حب المتعة، بل كان منشأها ما يشعر به من تبعة تفرض عليه أن يستمر في إنجاب الأبناء وزيادة عددهم*. أما أبناء الملك فيقتصرون على زوجة واحدة. وكلهم حسنو الأخلاق، مستقيمون - إذا استثنينا بطبيعة الحال فاريس المرح - وإن هقتور، وهيلينو، وترويلو لأجدر بالحب من أجاممنون المتقلب وأوديسيوس الغدّار، وأخيل المشاكل. وإن أندروماك وفوليكسينا لا تقلاّن سحراً وفتنة عن هيلين وإفجينيا. وإن هقيوبا أحسن قليلاً من كليتمنسترا. والطرواديون في جملتهم كما يصورهم أعداؤهم يبدون أقل خداعاً، وأكثر وفاءً، وأحسن هذيباً من الإغريق الذين غلبوهم»[1].

* إن هذا يفسر لنا سبب إلصاق اللقب «فريام» به إذ على عاتقه صار واجب الإكثار من النسل والحفاظ على السلالة حتى لا تنقرض.

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص72 - 73.

كريت:

«وفي وسط البحر القاتم كلون النبيذ أرض تسمى كريت. وهي أرض جميلة غنية يحيط بها الماء، وفيها خلق كثيرون يخطئهم العد، كما أن بها تسعين مدينة» هذا ما ذكره الشاعر (هوميروس) عن كريت ونقله ول ديورانت[1].

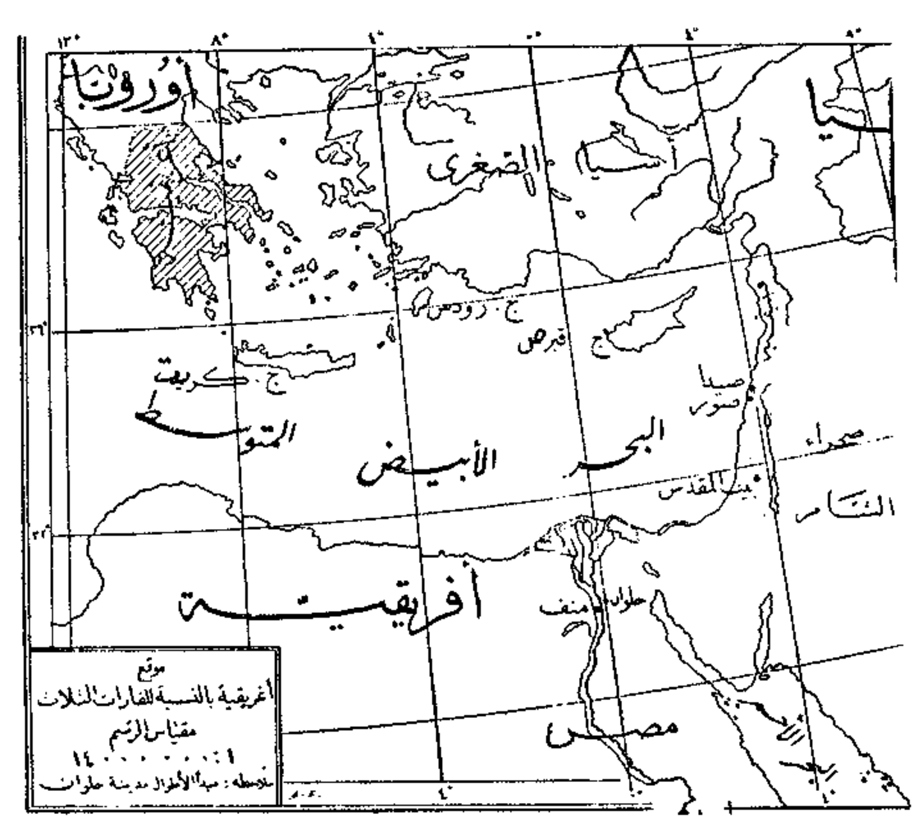
إن الموقع الذي تميزت به كريت والذي يتوسط الطريق ما بين سوريا وإيطاليا، وما بين مصر واليونان ويختصرها إلى النصف هو الذي منحها لدى قدامى السوريين تلك الخصوصية، كما منحها اسمها «كريت» الذي يعني في القاموس السرياني: الموجز، المختصر، القصير، كما يعني: الحزين، الكئيب. وهو من الفعل السرياني «كْري» و«أكري»: قصّر، قلّل، أوجز، لخّص، اختصر، جمع، كوّم، ركم، كدّس، أحزن. كريوت: قصر، صغر، اختصار، حزن، كآبة. تكريت: تقصير، إيجاز، اختصار، تكويم، تكديس، حزن، غمّ، ومن «كريوت» بمعنى قصير، مختصر، جاءت short الإنكليزية و«كراتكي» kratki الروسية، و court بالفرنسية. وكأنما جمعت هذه التسمية وظيفة الجزيرة ومصيرها الكئيب فيما بعد بعدَ أن دمّرتها الزلازل والأوبئة والنيران التي التهمتها بفعل الزلازل نفسها.

أما بقية جزر بحر إيجة الصغيرة المتراصة فقد دعاها السوريون الـ «كِكْلاثي» وهي في القاموس السرياني جمع «كِكِلْثا» وتعني: قرصة، حبة، فرنية، كرة، حبة دواء، رقطة، بقعة سوداء في بياض أو داكنة في وسط فاتح. ككولان: أرقط، منمّر. وقد تحولت كِكلاثي keklathe إلى «سيكلادي» إذ الصوت الحلقي الأول (الكاف) تحول إلى c لوقوعه قبل e، وتحولت الـ th إلى d كأمر حتمي في اللاتينية.

وتبلغ مساحة جزيرة كريت قدر مساحة أكبر جزر السيكلادي عشرين مرة. «جوها جميل، تنتج حقولها غلات مختلفة. وتلالها كانت في وقت من الأوقات كثيرة الأشجار، وموقعها من أصلح المواقع للتجارة والحرب... وقد تحدث أرسطو طاليس عن هذا الموقع الحسن»[2].

وقد استوطنها السوريون وعمّروها منذ الألف الرابع قبل الميلاد. وهذا ما شهدت به الآثار المكتشفة في الجزيرة.

(1) المرجع نفسه، ص13.
(2) المرجع نفسه، ص13 - 14 .



مصور رقم (7) مخطط يظهر أهمية موقع كريت المتوسط.

ففي عام 1893 ابتاع دكتور آرثر إيفانز Arthur Evans عالم الآثار البريطاني من امرأة في أثينا عدداً من الحجارة البيضاء كانت تمائم. وقد أدهشه ما كان محفوراً عليها من كتابة أثرية لم يكن في وسع عالم من العلماء أن يقرأها. وما زال يتقصى مصدر هذه الحجارة حتى عرف أنها من كريت. فحصل على إذن بالسفر إليها، وأخذ يطوف في أنحاء الجزيرة، ويجمع منها ما يعتقد أنه نماذج للكتابة الكريتية القديمة. وفي عام 1895 ابتاع جزءاً من المُوقع الذي كان شليمان والمدرسة الفرنسية يعتقدان أنه موقع كنوسس. وبعد أن أمضى تسعة أسابيع من ربيع ذلك العام يحفر فيه مستخدماً في ذلك خمسين رجلاً أماط اللثام عن أعظم ما أسفرت عنه البحوث التاريخية الحديثة من كنوز، نقصد بذلك قصر مينوس. وليس فيما كشف من الصروح القديمة صرح يعادل هذا الصرح المعقد في اتساعه. وأكبر الظن أنه هو قصر التيه الذي لا نهاية له، والذي اشتهر فيما يروى من

القصص اليونانية القديمة عن مينوس، وديدالوس، وتيسيوس، وأريادني، والمينوتور... وعثر في هذه المواقع وفي غيرها على آلاف من الأختام وألواح الطين، عليها رموز تشبه الرموز التي كان يتعقبها... ولما ذاع نبأ هذا الاكتشاف هرع العلماء إلى كريت من كثير من الأقطار. وبينما كان إيفانز يعمل في كنوسس كشف جماعة من الإيطاليين في حاجياترياد Hagia teriade تابوتاً عليه صور من الحياة الكريتية واضحة الدلالة. كما كشفوا في فحزتوس Phaestus عن قصر لا يفوقه في سعته إلا قصر ملك كنوسس...

«وفي هذه الأثناء كان اثنان من الأمريكيين هما سيجر Seager ومستر هاوس Hawes يقومان بأعمال الكشف في حفائر فاصيليكي ومخلوس Mochlos وجورنيا Gournia، وكان البريطانيون الأخرون ينقبون في فالاي قسطرو، وفسيكرو، وزكرو... وظل إيفانز يواصل أعمال الحفر تحت كنوسوس حتى قابلته على بعد ثلاثة وأربعين قدماً من سطح الأرض الصخور الصماء. وكان النصف الأسفل من الأرض التي حفرها تشغله بقايا عليها طابع العصر الحجري الحديث، من أشكال بدائية لفخار مصنوع باليد، محلّى برسوم مكونة من خطوط بسيطة، ومن لوالب مغازل تستخدم في الغزل والنسيج، ومن ربّات ذوات أعجاز ضخمة من الحجر الصابوني أو الصلصال، ومن أسلحة وحجارة مصقولة. وصنف إيفانز الفخار ووازنه بما وجد منه في مصر القديمة وسوريا، وعلى أساس هذا التصنيف قسم ثقافة كريت فيما بعد العصر الحجري الحديث وفي عصر ما قبل التاريخ إلى ثلاثة عصور: المينوي المبكر، والمينوي الأوسط، والمينوي المتأخر».

«ولما كان من المستطاع تحديد تاريخ أقدم الطبقات المحتوية على أدوات نحاسية في كنوسوس بعام 3400 ق.م... وذلك بمقابلتها بآثار الحضارات المجاورة لها، وإذا كانت الطبقات المحتوية على أدوات من العصر الحجري الحديث في كنوسس تشغل نحو خمسين في المائة من سمك مجموع عمق الأرض من سطحها إلى الطبقات الصخرية فقد قدر إيفانز أن العصر الحجري الحديث في كريت بقي 4500 سنة على الأقل قبل معرفة المعادن، أي من عام 8000 إلى 3400 ق.م تقريباً... ولم توجد في كريت أدوات من العصر الحجري القديم»[1].

(1) المرجع نفسه، ص17.

ونحن نستعرض أقوال أولئك المؤرخين، وبالتوازي معها، يمكننا أن نسجل الحقائق التالية:

1. لقد اكتشف قدامى السوريين أن جزيرة كريت تختلف اختلافاً بيّناً عن شبه جزيرة المورة وبقية جزر إيجه من حيث الموقع والتربة والمناخ. فهي صالحة للزراعة والتجارة البحرية والصناعة وتخزين البضائع لموقعها المتوسط، وبالتالي للاستيطان الدائم. لهذا فإننا نجد فيها ما بين الألفين الرابع والثاني قبل الميلاد المظاهر الثقافية والحضارية نفسها التي تعرفنا عليها في سوريا. فمن تماثيل الأم الكبرى ذات الأعجاز الضخمة الكثيرة الوجود في مواقع العصر الحجري الحديث في سوريا والذي يمتد من 8000 -4000 ق.م. كأقدم وجود له في العالم، إلى الأدوات الأخرى.

2. إن التقسيم الذي اعتمده إيفانز لعصور حضارة كريت، وتبنّته حالاً ودونما نقاش الجهات الغربية والعالمية الأخرى لا يقوم على أي أساس عدا ذلك الذي اعتدنا عليه، وهو تهريب الهوية السورية وتغييبها. فقد دعا الفترة ما بين 3000 - 2400ق.م. بالعصر المينوي القديم الأسفل والأوسط. وإذا علمنا أن تسمية «مينوي» هي نسبة إلى «مينو» ابن الأميرة الفينيقية أوروبا التي اختطفها زيوس وهرب بها إلى كريت في حوالي 1500ق.م وأنجب منها «مينا» و«رادامنتا» و«سارفيدون»، فطرد «مينا» أخاه إلى شمال سوريا وحكم في كنوسوس هو وأولاده من بعده، الذين صاروا يأخذون اللقب «مينا» (أي صاحب الشأن) علمنا أن تسمية «مينوي» لا يصحّ أن تُطلق على العصور السابقة لوجود «مينو» ابن أوروبا، وأنها جزء من التزوير. يقول ديورانت: «وفي الطور الأول من العصر المينوي الأوسط تظهر أقدم القصور: فيقيم أمراء كنوسس وفحزتوس Pheztos وماليا لأنفسهم مساكن مترفة كثيرة الحجرات، ومخازن واسعة، وحوانيت متخصصة، ومذابح، وهياكل، ومجاري تبهر الغربي المتعجرف، وتجعله يغض الطرف منها استحياء. ونرى الفخار ذا ألوان كثيرة براقة، والجدران تزينها مقرنصات ساحرة جميلة، ونرى نوعاً من الكتابة الحرفية قد تطور من الكتابة التصويرية التي كانت في العصر السابق»[1].

(1) المرجع نفسه.

فإذا ما علمنا أن زمن الطور الأول من العصر المينوي الأوسط حسب تصنيفهم يبدأ بـ 2400 ق.م. فإن هذا يؤكد أن تلك القصور شادها السوريون قبل قدوم الفرع السوري الآخر (الفينيقي) والذي تمثل بأوروبا وأبنائها بما يقرب من ألف عام.

ويضيف ول ديورانت: «وقد أبقت الزلازل التي دكت القصور في كريت على مظلم في جدار هنا وآخر في جدار هناك. وإذا ما جلنا في هذه القصور المخربة، وتخطينا أربعين قرناً من الزمان، التقينا بالرجال الذين زينوا حجرات الملوك المينويين، ورأيناهم في عام 2500 ق.م. يضعون على الجدران طبقة من الجير النقي. ويهديهم تفكيرهم إلى التصوير على السطح المبلل، فيحركون الفرشاة حركات سريعة ينفذ بها اللون إلى الطلاء قبل أن يجف سطحه. وقد استطاعوا بحذقهم أن ينقلوا إلى أبهاء القصور المظلمة جمال الحقول المكشوفة الوضيئة، فيستنبتون الجص زنبقاً، وسوسناً، ونرجساً، ومردكوشاً. ونرى في متحف هركولانيوس جامع الزعفران حريصاً على قطف أزهاره كما صوره مصوره في العصر المينوي الأوسط... ونرى الألوان هادئة، والأزهار نضرة كما كانت منذ أربعة آلاف عام»[1].

مرة أخرى نسأل: كيف دعي بـ «العصر المينوي الأوسط» إذا كان «مينو» نفسه سيولد بعد ألف عام من ذلك التاريخ؟

ويضيف المؤرخون في الغرب:

«وفي نهاية الطور الثاني من العصر المينوي الأوسط (أي حوالي 2000 ق.م) حلّت بالبلاد كارثة عجيبة تركت ما يدل عليها في الطبقات الأرضية. فقد تهدّم قصر كنوسس كأن الأرض قد انشقت فحطمته... ثم أصاب فستوس ومكلوس وجورنيا وفاليا قسطرو ومدناً أخرى كثيرة في الجزيرة ما أصاب كنوسس من تدمير، فنرى الفخار قد غطاه الرماد، والجرار الكبيرة في المخازن ملأى بالأنقاض»[2].

واضح أن ذلك الدمار هو بفعل الزلازل التي ضربت الحوض الشرقي للمتوسط مرات كثيرة في ذلك الزمن، فدمرت مدن كريت كما دمرت كثيراً من المدن السورية في شرقي المتوسط. والزلازل كثيراً ما تسبب الحرائق المدمّرة أيضاً.

(1) المرجع نفسه، ص37.
(2) المرجع نفسه، ص17 – 18.

ثم «وفي العصر المينوي المتأخر يبدأ كل شيء من جديد... فتقوم قصور جديدة أجمل من القصور السابقة في كنوسس، وفستوس (فحزتو)، وتليسوس، وحاجياترياد، وجورنيا، فتعمها الفخامة، وتكثر المباني ذات الأطباق الخمسة، والنقوش البديعة. وتوحي المباني الفخمة بأن أحوال البلاد قد بلغت من الثراء ما لم تعرفه بلاد اليونان حتى عصر بركليس نفسه. هنالك ترى دور التمثيل قد شيدت في أفنية القصور... وتنشأ مئات من الصناعات... وترى أبهاء الملوك تدوي فيها أصوات الكتبة وهم يحصون السلع التي يوزعونها أو يتسلمونها، وأصوات الفنانين و هم ينحتون التماثيل أو يرسمون الصور، أو يصنعون الفخار أو ينقشون النقوش، وأصوات كبار الموظفين يعقدون المؤتمرات، ويستمعون إلى القضايا، أو يبعثون بالأوراق ممهورة بأختامهم الجميلة الرقيقة الصنع. بينما ترى الأمراء ذوي الخصر النحيل والأميرات المحليات بالحلي، المغريات، العاريات النحور حول موائد وقد صفّ الشراب والطعام في أوان وصحاف تتلألأ بالذهب. لقد كان القرنان السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد هما العهد الذي بلغت فيه الحضارة الإيجية ذروة مجدها، وهما عصر كريت الذهبي القديم»[1].

إن هذا كله حدث قبل أن يولد «مينو»، فكيف يدعى بـ«العصر المينوي المتأخر»؟ إنه العصر السوري الذهبي القديم في كريت. وهذا ما أكده حتى أولئك الذين يفرّون من ذكر اسم «سوريا» والسوريين. ومفيد هنا أن نعود لنذكر بقول أحدهم وهو جيمس بريستد: «كانت كريت من أول عهدها في الرتبة الأولى حضارة بين جميع الجزر الإيجية... وكانت عند أول فجر المدنيّة تعدّ كأنها جزء من الشرق مثل القسطنطينية اليوم»[2]. «وفي العصر الحجري المتأخر صارت جزر بحر إيجه مراكز فرعية لمدنيّات الشرق العظيمة التي وجدت قديماً في أرض الفرات والنيل»[3].

إن مثل هذه التأكيدات كانت كفيلة، لو توفرت النية الصادقة والتوجه العلمي الصحيح، بأن تجعل أصحابها يسمّون الأشياء بمسمياتها الحقيقية.

(1) المرجع نفسه، ص18 - 19

(2) المرجع نفسه، ص245

(3) المرجع نفسه، ص244 - 245

وينقل لنا الدكتور محمود السعدني كيف أنه «في حوالي 2600 ق.م. وصلت إلى الجزء الشمالي الشرقي من كريت موجة أخرى جديدة... ربما جاءت من شمال سوريا أو من آسيا الصغرى، ودخلت كريت في صورة موجات متلاحقة»[1].

إن السوريين هم الذين عمّروا كريت وجزر إيجه في الألف الثالث قبل الميلاد كما سوف تؤكد - ونرى لاحقاً - كل تفاصيل الحياة الكريتية لذلك الزمن. وهذا لا يقلّل من شأن حضارة وادي النيل. لكن تلك الحضارة كانت آنذاك منكفئة على نفسها في وسط وجنوب الوادي، لأن منطقة الدلتا ظلت مليئة بالمستنقعات حتى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

وإن المدن الكريتية التسعين التي ذكرها هوميروس في زمانه لا يمكن أن تنشئها مدينة صور أو صيدا الفينيقيتان وحدهما. فالفينيقيون الذين قدموا إلى سوريا من شواطئ الخليج العربي واستقروا في بعض مواقع الشاطئ السوري مثل صور وصيدا وأرواد وجبيل، وعملوا بحّارة في صيد السمك والتجارة، صاروا جزءاً من السوريين، مثلهم مثل الفروع السكانية الأخرى التي لم ينقطع توزعها وانتشارها أفراداً وجماعات، ولا سيما أن السوريين عمّروا كريت قبل وصول الفينيقيين من شواطئ الخليج العربي ليستقروا في بعض المواقع على الشاطئ السوري.

ومن بين تلك المدن التسعين نتوقف عند أهمها: قنديا، فستوس، فالاي قسطرو، حاجياتريادا، وجورنيا.

قنديا:

إن «قنديا» القديمة كانت تقع على أحد التلال جنوب «قنديا» العاصمة الجديدة للجزيرة والتي غيروا اسمها حديثاً إلى هيرقليوم. و«قنديا» تسمية سورية، وتعني في القاموس السرياني «المركزية» و«قندا» تعني المركز، أي العاصمة. وفي أطلال ذلك التل عثر إيفانز على آلاف من الأختام وألواح الصلصال بكتابتين تصويرية وحرفية. وكنا قد ذكرنا قبلاً أن وجود الأختام وألواح الصلصال، أو الرقم الكتابية، في أي موقع من العالم دليل لا يقبل الشك أو الجدل على وجود السوريين.

---

(1) د. محمود السعدني، الحضارة الهيلينية، الجزء الأول، 1990-1991 دار الثقافة، القاهرة، ص.70.

ففي الدولة السورية البابلية كان «من الطبيعي أن يكون للعاملين في صنع الأختام الأسطوانية سوق رائجة، لأن الأختام ضرورية لكل سوري حر، إذ أنه بعد الانتهاء من عقد صفقة تجارية أو كتابة وثيقة كان عليه تصديقها بالختم. ولفنّ صناعة الأختام تاريخ طويل من التطور يرجع إلى فجر العصر السومري»[1]. أما بخصوص الأختام في كريت القديمة فهناك من يؤكد بأن «فن صناعة الأختام والحفر عليها، وكذلك صناعة الآنية الحجرية، ربما جاء مع بعض المهاجرين واللاجئين الذين تركوا سوريا قادمين إلى كريت»[2].

أما الحقيقة فإن وجود الفخاريات الملونة والأختام في سوريا يعود إلى زمن أقدم من السومريين بعدة آلاف من السنين. ومن سوريا انتشرت مع السوريين في كل الاتجاهات: «ففي سوريا وفلسطين زحفت المستوطنات الزراعية باتجاه الجنوب ببطء حيث قامت صناعة أدوات فخارية... وصلت مجموعاتها الأولى مضيق السويس في نهاية الألف السادسة وسكنت شاطئه ووديان الأنهار وبعد ذلك اقتبس السكان الأصليون عن القادمين الجدد أدوات عملهم ومهاراتهم... أما الفخاريات المزينة التي انتشرت في سوريا بكثرة في الألف الخامسة قبل الميلاد فلم يعثر عليها إلا في الشمال فقط وتنحدر من منطقة حضارة تل حلف... حيث عاش سكان تلك الحضارة في مستوطنة مزدهرة قرب شاطئ أوغاريت الطبيعي في شمال سوريا. وقد وصلت رحلاتهم التجارية وغزواتهم العسكرية إلى كل السواحل... وقد امتدت حضارة تل حلف (الألف الثامن ق.م) من أوغاريت على شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى (تلكي تبه) على بحيرة (وان) وحتى (تبه غورا) قرب الموصل... وإن الأختام الفخارية تربط بين شتال حيوك (في الأناضول) وأريحا... وإن مصطلح (خاتم) المستخدم هنا يخص مراحل لاحقة من تطور الحضارة الشرقية عندما استخدمت تلك الأداة للإشارة إلى الملكية... وعلى أية حال لم تظهر تلك الحضارة إلا بعد أن ظهرت مثيلاتها في سوريا... وفي الألف الرابعة قبل الميلاد كان الجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان وآسيا الوسطى ومصر ميادين لانتشار حضارة آسيا الأمامية، كما امتدت تأثيراتها إلى دول حول المحيط الأطلسي وبحر البلطيق وبحر الشمال... ووصلت حتى شواطئ شمال أفريقيا وإسبانيا وفرنسا»[3].

(1) إيفين كلينكل - براندت، رحلة إلى بابل القديمة، دار الجليل، ترجمة زهدي الداوودي، دمشق، 1984, ص100.

(2) محمود السعدني، الحضارة الهيلينية، الجزء الأول، دار الثقافة، القاهرة، ص162.

(3) يورهارد برينتيس، المرجع السابق، ص.94 ,91 ,61 ,73 ,87 ,86

كنوسوس:

وفي هذا المكان تم العثور على قصر الملك أو الأمير السوري الحاكم في المركز، وهو قصر «لابيرانت» الذي يترجمونه خطأ إلى «قصر التيه» وينسبونه إلى مينوس. إن الكلمة سورية (أو سريانية Syrian) وهي في القاموس السرياني «بيرات» و«بيرانت» و«بيروت» و«بيرتا» وتعني: القصر، الحصن. واللام أداة التعريف العربية الشهيرة. أما إرجاعه إلى عهد «مينوس» الذي جاء متأخراً عنه ما يقرب من ألف عام فلا يقوم على أساس. وبهذا الصدد يقول ول ديورانت: «ونحن نسميه في كتابنا مينوس، ولكننا لا نعرف حقيقة اسمه. ولعل هذا لقب لا اسم، شبيه بلفظ فرعون أو قيصر يطلق على عدد كبير من الملوك»[1].

ونحن حينما نستشهد بـ «ول ديورانت» فلأن ما كتبه ديورانت جامع لكل كتابات المؤرخين الغربيين ومن نقل عنهم من «الأساتذة ـ النقلة» العرب.

يقول ديورانت في وصف هذا القصر:

«وجدير بنا أن نذكر أن الذين شادوا قصر كنوسس كانت تنقصهم وفرة مواد البناء والرجال، فالمعادن قليلة في كريت... ومن أجل هذا تراهم يبنون بحجر الجير والجبس، ويستخدمون الخشب في إنشاء الأروقة المقامة على العمد والسقف وجميع الأعمدة التي فوق الطابق الأرضي. وهم يقطعون الكتل الحجرية قطعاً محدّداً دقيقاً يستطيعون به أن يضعوها في أماكنها من غير ملاط. وبهذه الأدوات شادوا حول فناء أوسط سعته عشرون ألف قدم مربع ثلاثة أطباق من البناء أو أربعة يرقى إليها بدرجات حجرية واسعة، وتحتوي على ما لا حصر له من الحجرات، ومراكز للحراسة، وحوانيت، ومعاصر للخمر، ومخازن، ومكاتب لتصريف شؤون الدولة، ومساكن للخدم، وحجرات للانتظار، وأخرى للاستقبال، ومخادع، ومعابد، وجب، وحجرة عرش، وبهو للبلطة المزدوجة. وبالقرب من هذه كلها دار للتمثيل، وقصر صغير ذو حديقة، ومقبرة... وأكبر الظن أن هذا القصر الفسيح هو قصر التيه الشهير (لابيرانت) أو هيكل البلطة المزدوجة (البريس Labriz) الذي يعزوه الأقدمون إلى ديدالوس... وقد جهز القصر بنظام لصرف مياهه وفضلاته أرقى من كل نظام مماثل له في التاريخ القديم. فقد كانوا يجمعون في قنوات حجرية الماء الذي

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص.39

يسيل على سفوح التلال أو ينزل من السماء ويسيرونه في أسطوانات مجوفة إلى حمامات ومراحيض، ثم ينقلون الفضلات في أنابيب من الصلصال المحروق مصنوعة على أحسن طراز، كل قسم منها مزود بشبك لحجز الرواسب ومنته بطرف رفيع يدخل في الطرف الذي يليه، ويرتبط به ربطاً محكماً برباط من الإسمنت، وربما كان فيها جهاز يمد القصر الملكي بالماء الساخن. وقد زين الفنانون داخل القصر على سعته بأرق وسائل التزيين. فجملوا بعض الحجرات بالمزهريات والتماثيل الصغيرة، وبعضها الآخر بالصور الملونة أو النقوش البارزة، وبعضها بالقوارير الحجرية أو الآنية الضخمة، وبعضها بتحف من العاج أو الخزف أو البرونز... وصوّر لنا المصور في إحدى حجرات الاستقبال سيدات في ثياب زرقاء، فاجأهن وهن يثرثرن، فأبرز أعرافهن، وأذرعهن الجميلة، وصدورهن، وأثداءهن الخبأة، وصور على جدار غيره حقولاً من اللازورد، والنيلوفر وغصون الزيتون، وعلى جدار آخر سيدات في دار التمثيل، ودلافين تسبح، وخير من هذه الرسوم الصورة الرائعة الذائعة الصيت، صورة الساقي المنتصب القامة، القوي البنية يحمل سائلاً ثميناً في وعاء أزرق رفيع... وقد تدلى شعره في غديرة سميكة على كتفيه الأسمرين، وتلألأت الحلي في أذنيه وحول عنقه وذراعيه ومنطقته، وزين ثوبه الغالي بصور جميلة لبعض الأزهار...»[1].

أما شعار «البلطة» (لابريز) Labriz فهو شعار «حدد» الرب السوري الشهير، رب الصاعقة والنار والحدادة والصناعة. وهو نفسه «فولقان» أي الفالق، البركان (وقد صارت في الغرب vulkan) وكلمة «لابريزو» سورية، وهي في القاموس السرياني «أبريز» و«أبريزو» abrizo وتعني: فأس ذات رأس، أو سن في رأس الفأس. واللام أداة التعريف العربية.

يقول ليونارد وولي: «حينما بنَتْ كريت حضارتها القصرية في فايستوس وماليا وكنوسوس (2000 – 1700ق.م) بقيت متجهة نحو ممالك الشرق الأدنى الكبرى. فبين القصور الكريتية وتلك التي أظهرها التنقيب الأخير في ألالاخ عند انعطاف العاصي، وفي ماري على طريق القوافل التي تربط بلاد ما بين النهرين والبحر ظهر التشابه صارخاً إلى حد أننا نرى فيه عمل المدرسة نفسها من المهندسين والرسامين والجداريين»[2].

---

(1) المرجع نفسه، ص40 – 41.

(2) Cf. Leonard Woolley, A Forgotten Kingdom, London, 1953, et Andre Parrot, Mission Archeologique de Mari, II, Paris, 1958.

ومنذ الألفين السابع والسادس قبل الميلاد وفي المراحل اللاحقة «نرى إله الرعد (حدد) في سوريا وبلاد الرافدين... يمسك بيده فأساً مزدوجة رمزاً للبرق على الدوام... ومن المستبعد أن يكون وجود رسم لفأس مزدوجة تحت بقايا رسم للشمس في شتال حيوك من قبيل المصادفة. ومن الجدير بالملاحظة أن الفأس المزدوجة من أكثر الأشياء حضوراً في لوحات آسيا الأمامية وكريت وإيران، بحيث تتصل برباط معين بالأم الكبرى»[1].

وقبل أن ننتقل إلى مظهر آخر من مظاهر الحضارة السورية في كريت نجد أن إيضاح حقيقة قصة مينوس وامرأته مع ديدالوس صارت ملحة، خاصة وأن هذه القصة حفظت لنا كواحدة من «أساطير الإغريق» وقد أعاد روايتها أوفيد في كتابه «التحولات» وتناولها الفنانون على مر العصور، وأسيء فهمها من قبل الباحثين والمؤرخين في الغرب الذين ظلوا كعادتهم يعزفون عن الاعتراف بالأصل السوري للقصة وأبطالها، وبالتالي للغتها ولأسماء أولئك الأبطال التي وحدها تحوي مفاتيح السر.

حكاية «مينوس» و«فاسيفايا»:

بات معروفاً أن النبيل السوري زيوس الذي اختطف الأميرة الفينيقية أوروبا ومضى بها إلى كريت، أنجب منها هناك: مينو، ورادامنتو، وسارفيدون. ثم لما تركهم في كريت وغادر إلى أرقوس في المورة حيث حيرا زوجته، تزوج أوروبا أمير سوري آخر لقبه أسطوريوس[2] من أجل رعاية أولادها حتى يكبروا، وكان عاقراً. ثم لما مات تسلم عرشه مينو كبير أبناء أوروبا بعد أن تخلص من أخويه بطردهم إلى خارج كريت.

ثم ـ وبعد فترة ليست طويلة ـ تولى العرش حفيده الذي أخذ اللقب «مينو» أيضاً. وتزوج الجميلة اللعوب «فاسيفايا»، لكنه كان عاقراً، أو عاجزاً عن الجماع.

كان ديدالو أحد السوريين المقيمين في أثينا. كان نموذج العبقرية الحرفية: فهو حداد، صناع، وبنّاء ماهر، ونحّات بارع. وقد لازمه ابن أخيه طالو وتتلمذ عليه حتى فاقه، فامتلأ صدره حسداً، وقذفه من أعلى الأكروبول فقتله، وحكم عليه بالنفي. فالتجأ إلى «مينو» في كريت وأصبح مهندسه الخاص.

¥ : جان بيار فرنان، أصول الفكر اليوناني، ترجمة سليم حداد، بيروت 1987, ص9.

(1) يوهارد برينتيس، المرجع السابق، ص56.

(2) انظر: معجم الأساطير اليونانية ـ الرومانية. ترجمة وإعداد سهيل عثمان، وعبد الرزاق الأصفر.

اغتنمت الفرصة فاسيفايا زوجة مينو وأقامت معه علاقة جنسية سرية، وأنجبت منه ولداً ادعت أنه من الرب زيوس الذي تجسد لجدته أوروبا في هيئة ثور! لم تنطل الحيلة على مينو فحكم على ديدالو وابنه إيقارو بالحبس في أعلى برج من القصر. احتال هذا وصنع لنفسه جناحين من الريش ثبتهما بالشمع وحمل ابنه على ظهره وألقى بنفسه من أعلى القصر، لكنه سرعان ما ناء بحمل ابنه الثقيل وسقط في البحر. وقد أطلق على الطفل الذي أنجبته فاسي فايا بعلاقتها غير الشرعية اسم «مينوتور»، حبسه أيضاً مينو في دهاليز القصر، وفرض على أهالي أثينا سبعة شبان من أبنائه سنوياً لخدمته... وبقية القصة لا تعنينا الآن.

ولو أتينا إلى هذه الأسماء الألقاب في أصولها السريانية لتكشفت لنا الحقيقة وحلّت كافة الألغاز.

إن «مينو» في القاموس السرياني تعني: الوهاب، المنّان، كما تعني المحاسب، المقاصص. لأن الفعل «منا» يعني: حسب، عد، أحصى، أعطى بسخاء، وهب. كما تعني: المني، الزرع، الأصل، النسل.

يقول ديورانت: «يلقّن كهنته الناس أنه من نسل فولكانوس... وكلما كان الملك قديراً أو سخياً فإن هؤلاء الكهنة يخلعون عليه من جديد السلطة الإلهية... وهو يختزن في جرار ضخمة موارده... ومن هذه الموارد يؤدي رواتب رجاله عيناً. وهو يقضي وهو جالس على عرشه في القصر من مجلسه في بيته الملكي الصغير فيما يرفع إليه من القضايا التي مرت بمحاكمه. وقد بلغ من شهرته في أحكامه أنه يصبح في الدار الآخرة بعد موته قاضي الموتى (الذي يحاسبهم على أعمالهم) والذي لا مفر من عرض قضاياهم عليه»[1].

إن في مضمون الكلمة السريانية «مينو» تلخيصاً لهذه الوظائف كلها. ثم إن اللقب «أستيريوس» للملك السوري الذي تزوج أوروبا بعد زيوس من أجل الحفاظ عليها ورعاية أبنائها، دون أن ينجب منها أولاداً، يدل على حالته أيضاً. فهو في الأصل السوري «سطيرو» stero وتعني الكلمة في القاموس السرياني العاقر.

---

(1) المرجع نفسه، ص24 - 25.

وإن «باسيفايا» Paseiphaia، وهو لقب زوجته، هو في الأصل السوري أو السرياني مؤلف من كلمتين «فسعيا» أو «فسعي» والفاء، كالعادة، تلفظ P في أغلب الأحيان ويسقط صوت العين، و«فايا».

أما «فسعي» فهي في القاموس السرياني من الفعل «فَسعْ» ويعني: سلك، تعدى، تجاوز، خالف، تطاول، تهاون، تجرأ، أقدم، بسط، مغط، مد، لطف، رقق، أرخى، حلل، فرّق، فرّج ما بين ساقيه، هاج، اغتلم، سافح، باضع. و«سفاعا» و«سفاعتا» تعني: سفاح، مباضعة، اتصال غير شرعي.

أما «فايا» فتعني في القاموس السرياني الجميلة. و«فيوت»: جمال، حسن. وجمعها «فيوتي» وهي التي تحولت إلى beauty بعد أن تحولت الفاء إلى P، وهذه إلى B.

أوليس في هذا اللقب السوري السرياني ما يحكي لنا قصة زوجة الملك مينو كاملة؟ وهل بعد هذا من شك في أن أولئك الناس سوريون؟

وقد جرى الخلط مع مرور الزمن بين اسم المدينة أو لقبها «كنوسّو» وبين لقب هذا الملك الحفيد «نكسو» وصار الاثنان «كنوسّوس».

إن «كنوسو» knosso في القاموس السرياني مثلها مثل «كنيشو» و«كنشو»، وتعني: جمع، ملأ، محفل، جيش، بيعة. ومنها جاءت كلمة «كنيس» و«كنيسة». وهذا اللقب كان ملازماً للعاصمة قنديا. أما «نكسوس» الذي هو لقب الملك الحفيد زوج «فسعي فايا» فهو في القاموس السرياني «نكسو» nekso ويعني: نكس، خصيّ، عاجز عن الجماع.

أما «مينو تور» وهو الاسم الذي أطلق على الابن الذي أنجبته أمه سفاحاً من ديدالو وادعت أنه ابن الرب الثور زيوس، فهو مؤلف من كلمتين: «مينو» وتعني في القاموس السرياني المني، الزرع، النسل، الذرية، و«تور» تعني الثور، ويكون المعنى: نسل الثور، ذريته، زرعه. والثور هو رمز الرب حدد والبعل كما هو رمز زيوس كقوة إخصابية ليس إلا. فهمها الغرب بشكل آخر، وحاك حولها قصة حوّلت الحقيقة كلها إلى خرافة.

وإن «ديدلو» Daedalo لقب لحق بالرجل بعد مجمل سيرته. فالدال أداة التعريف السريانية الشهيرة، وشكل ما تبقى من الكلمة وهو إيدالو aedalo ووجود حرفين صوتيين معاً ينبئنا أن أحدهما تحوير من صوت حلقي إما الحاء أو العين. والحقيقة إن الكلمة في الأصل السرياني هي «عِدلويو» edaloeo وتعني: العذول، الرذيل، الناقص، المذنب، المذموم، الملوم. وهي من الفعل السرياني «إعدلْ» و«عدلْ» edal وتعني: عذل، لام، ذم. ومعلوم أن الدال في السريانية يقوم بدور الدال والذال في الفصحى. «عديلوتي»: رذائل، نقائص... إلخ.

أما ابنه «إيكارو» فهو في الأصل السرياني «إيقارو» ويعني: الوقر، الثقيل، الحمْل، العبء، كما تعني: الوقور، الشريف، الكريم، الغالي. وهو من الفعل السرياني «يقرْ» ويعني: وقرَ، ثقلَ، ضد خفَّ، عسر، اشتد، ثقّل. أوقرْ: ثقّل، كرّم، جعله نفيساً، غالياً، أزعج، أحزن. إيقارو: ثقل، حمل، شدة، صعوبة، إعياء، عجز، وقار، كرامة، نفاسة... وهذا ما يعبّر فعلاً عن حالته عندما احتمله أبوه على ظهره وطار به، ثم ناء بحمله وأسقطه.

فستوس Phestus

إذا كانت «قنديا» أو «كنوسوس» كما صارت تسمّى فيما بعد هي عاصمة الشمال الكريتي في العهد السوري القديم فإن فستوس التي تقابلها في الساحل الجنوبي هي عاصمة الجنوب الكريتي. «ومن مينائها تحمل قوة الريح والأمواج إلى ليبيا ومصر السفن ذات المقدمات القاتمة، كما يقول الشاعر هوميروس، وفي هذه المدينة تتجمع تجارة كريت الذاهبة إلى الجنوب، مضافاً إليها السلع التي يأتي بها تجار الشمال الذين ينقلون بضائعهم إليها بطريق البر ليتجنبوا أخطار الطريق البحري الطويل. وتصبح فستوس بعدئذ لكريت، كما كانت «بيريو» لليونان، مولعة بالتجارة أكثر من ولعها بالفن، ومع هذا فإن قصر أميرها صرح فخم، يرقى إليه بطائفة من الدرج يبلغ اتساعها خمساً وأربعين قدماً. ولا تقل أبهاؤه وأفنيته عن مثيلاتها في كنوسس... فحجرة الاستقبال فيه تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف، أي أكبر من الردهة العظيمة، ردهة البلطة المزدوجة في العاصمة الشمالية»[1].

(1) المرجع نفسه، ص25.

إن «فستوس» إذن هي مجتمع التجار، حيث ضوضاء المزايدات، والاختيارات والشركات، والأسهم، والقرعة، والحصص، والجوقات والجماعات. وهذا ما جمعه كله اسمها. إن «فستو» Phesto في القاموس السرياني تعني: قرعة، حصة، نصيب، انتخاب، اختيار، شركة، سهم، صوت، جوقة، فئة، جماعة... وهي من الفعل السرياني «أفس» و«فِسْ» ويعني: اقترع، ألقى قرعة، أذن، أجاز، سمح...

«وقد بنى الكريتيون في فستوس حوالي عام 2000 ق.م. عشرة صفوف من المقاعد الحجرية تمتد نحو ثمانين قدماً بجوار جدار يطل على فناء ترفرف عليه أعلام. كما أقاموا في كنوسس ثمانية عشر صفاً من المقاعد الحجرية أيضاً طولها ثلاث وثلاثون قدماً. وهذه الدور التي تتسع لعدد من النظارة يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة من أقدم ما تعرفه دور التمثيل، فهي أقدم من ملهى أدونيس (في اليونان) بألف وخمسمائة عام. وترينا الصور مشهداً، أكبر الظن أنه خليط من الموسيقى والرقص. وقد احتفظت لنا صورة من كنوسس بطائفة من سيدات المجتمع الراقي ومن حولهن جماعة من الرجال المعجبين بهن يشاهدون رقصاً تقوم به بعض الفتيات المرحات ذوات «النقب» في أيكة من شجر الزيتون... وهناك صور تمثل رقصات ريفية شعبية... ويصف هومر المرقص الذي أنشأه يوماً ديدالو في كنوسس لأريادني ذات الشعر الجميل وفيه يرقص ثلاثة شبان وثلاث عذارى فاتنات مغريات يتماسكون بالأيدي على صوت القيثارة وتقاسيم شاعر. وترى القيثارة ذات السبعة أوتار التي يعزو اليونان اختراعها إلى عبقرية تربندر مصوّرة على تابوت في حاجياتريادا قبل أن يولد تربندر بألف عام. وهناك أيضاً الناي والمزمار المزدوج... كما نرى على زهرية جلاجل تضبط الإيقاع لأقدام الراقصات»[1].

مرة أخرى يتأكد أن المسرح والتمثيل إنجاز سوري منذ البداية. وليس هناك مدينة سورية قديمة إلا والمسرح فيها جزء من المعبد، لأن المسرح منذ أن نشأ بإيعاز من الأم السورية الكبرى عشتار إنما نشأ من أجل تمثيل موت أدونيس رب الخصب وتمثيل قيامته من الموت، للتذكير بمدى حزنها عليه أثناء موته، ومدى فرحها ببعثه من الموت.

(1) المرجع نفسه، ص 533

وإن المشاهد الموصوفة في كريت ليست إلا مشاهد الرقصة السورية المعروفة بـ «الدبكة» والقديمة قدم السوريين، وما تزال هي، هي، إلى هذا اليوم. وإن كلمة «أركسترا» هي في الأصل السوري ساحة الرقص «حور رقصتا»، و«رقصتار» تعني الراقص مثل «قنبا» تعني بالسريانية القنّب، و«قنبار» صانع حبال القنب. بازيق، تعني الباشق، الصقر، وبازيقار تعني الصائد بالباشق... ومن أجل أن تكتمل الصورة للنساء الكريتيات اللاتي وصفهن ديورانت بـ «الباريسيات» جدير بنا أن نذكر هنا بوصف النساء السوريات ذلك الزمن، وهو زمن الملك حمورابي تحديداً. تقول إيفلين كلنيكل براندت حول المرأة السورية ذلك الزمن:

«كانت المرأة في الأسر الغنيّة... تقضي معظم وقتها بالعناية بنظافتها وجمالها أو للالتفات إلى الأعمال المريحة... وكانت الموضة في تغير مستمر... وكان التجميل واستعمال العطور من الأمور اليومية. وكان للنساء مختلف ألوان التجميل يحتفظن بها داخل أوعية حجرية أو فخارية أو داخل أصداف زوقت بنقوش فنية جميلة. وكن يستعملن الصبغ الأسود للحواجب والأهداب، والأخضر لظلال العينين، والأحمر للشفاه والخدود... وكانت النساء، المتزوجات يخفين شعرهن إذا خرجن إلى الشارع تحت منديل للرأس ويغطين وجوههن بحجاب شفاف»[1].

إن النساء الكريتيات «ذوات النُقُب» هن السوريات ذوات الحجاب الشفاف ولسن غيرهن.

إن الأختام وألواح الطين الكتابية والمسرح أينما وجدت لهي دلائل وشواهد لا يرقى إليها الشك على وجود السوريين في الزمن القديم. يقول ديورانت: «وإننا لنجد في فستوس نوعاً من الكتابة باقياً من أزمنة ما قبل التاريخ. فقد كشف في تلك المدينة قرص كبير... طبعت على صلصاله وهو لين رموز تصويرية لأصنام، لكل رمز منها خاتم. ولكن الذي يزيد من حيرتنا في أمر هذه الرموز أنها ليست كريتية بل أجنبية. وربما كان هذا القرص قد نقل إلى كريت من أحد البلاد الشرقية»[2].

(1) إيفلين كلنيكل - براندت، المرجع السابق، ص56 - 57.

(2) ديورانت، المرجع السابقو ص32 .

حاجيا ترياذي Hagia teriade

ترجم الاسم في الغرب إلى «الثالوث المقدس» لمجرد رؤيتهم المقطع tri في الكلمة الثانية، لعلّ ذلك يجعل لهم نصيباً في أساس تلك الحضارة، بالرغم من أن «حاجيا» لا تعني «المقدّس» في أية لغة من لغات الغرب!

والحقيقة هي أن التسمية سورية وهي في الأصل «حاجيا ترياثي» Hagia teriade وتعني سوق الصيادين أو محفل الصيادين. إن «حاجا» و«حاجيا» Hagia في القاموس السرياني تعني: حجّ، عيد، احتفال، موسم، جمع، اجتماع، محفل، سوق، فرح، سرور، مرسح رقص، عيد، احتفال، مهرجان. «حجيوت»: تعييد، حج، زيارة مكان مقدس، فرح. «حاجا» Haga: كهف، شقيف، مغارة في الجبل. والفعل «حجي»: دار، طاف في البيعة، عيّد، عظّم، احتفل بالعيد، احتشد، اجتمع، فرح، رقص. محجيانو: احتفالي، عيدي.

أما «ترياثي» Teriathe فهي جمع «تير» و«تيرو» وتعني: الصياد، القناص. «تريار» teriar: صياد، قانص، سفينة سورية كانت مزودة بمخلب فولاذي في مقدمتها تحت الماء لخرق السفن المعادية. وقد دعي سكان صور تيري أي الصيادين.

و«ترياتو»: ممتهن الصيد، وجمعها «ترياتي»، وكان السوريون كثيراً، بل دائماً، يلفظون تاء التأنيث في المفرد والجمع ثاء دون أن يكتبوها. ثم ـ وكما صار معروفاً ـ تتحول كل ثاء باللاتينية إلى d.

وهكذا يكون معنى المكان الذي صار مدينة عامرة «عيد الصيادين»، أو محفل الصيادين أو سوق الصيادين.

ولما كان التراث السوري القديم يؤكد أن الطفل الإلهي ولدته أمه العذراء من بزرة سماوية شريفة، حملته في رحمها المقدس، ووضعته في مغارة في جبل كان اسمها «حورا نينا» أي مغارة السيدة، فقد انتقلت هذه الطقوس مع السوريين إلى طروادة وإلى كريت، حيث المغارة المقدسة في «جبل إيدا». وأصل التسمية «جبل حيدا» ويعني بالسريانية جبل الفرح، كما يعني جبل العروس والطفل. ففي القاموس السرياني نجد الفعل «حدي» يعني: فرّح، سرّ، أبهج، هنّأ، رحّب. حيدو، وحيدوت: فرَح، عروس. برحديا: طفل رضيع. درع، جوشن. وكان الدرع أحد رموز عشتار المحاربة. حديوت: اتحاد، اقتران، خلوة، عزلة.

وهكذا فقد كان السوريون يستنسخون هذا الجبل والمغارة في كل أماكن انتشارهم من طروادة إلى كريت، ويحجّون إليه كبقعة مقدسة. وقد دعي الطفل السماوي طفل المغارة اعتباراً من دوموزي، وأدونيس، وحورس، وزيوس، وصولاً إلى السيد المسيح. وكان هذا المكان المقدس في كريت قريباً من «فستو» مدينة التجار والصيادين، في «حاجيا ترياثي» يقوم على خدمته حشد من الكهنة والرهبان والمتعبدين. وقد دعوه «كهف كوماري» Komares[1]. والتسمية سورية، وهي في القاموس السرياني «كومار» وتعني: حَبر، كاهن، ناسك، متزهد، حزين. كومرتا: كاهنة الأوثان، ناسكة، متزهدة. «رب، ورِشْ كوماري»: رئيس الأحبار. كوماروي: حَبْري، كهنوتي...

يقول ول ديورانت: «وعلى بعد ميلين من فستوس في اتجاه الشمال الغربي منها تقع «حاجيا ترياداً»، وإلى بيتها الملكي الصغير (كما يسميه علماء الآثار) يلجأ أمير فستوس ليتّقي حر الصيف»[2].

جورنيا Gournia

إن التسمية سورية وتعني في القاموس السرياني «المغتَرِب» أو دار الغربة. وهي من الفعل «جور» و«جيور» ويعني: جار، تغرّب، نسب إلى قوم غريب، فسق. أجير: جعله يتغرب ويفسق. جورا: فجور، فسق، زناء. برجورا: نغل، ولد الزنية. جريقو: نغل، ابن زنا. وهي تقع في المنطقة الشرقية من كريت، وتعتبر تجمعاً للنازحين السوريين من أرباب الحرف والمهن والصناعات. بنيت، مثل كل المدن الكريتية الأخرى، على طراز البلدات والمدن السورية، بحيث لا يشعر الزائر السوري أنه في بلد غريب.

يقول ول ديورانت:

«ولجورنيا أن تفخر بما كان فيها من شوارع واسعة مرصوفة بالجبس، وبيوت مشيدة بالحجارة من غير ملاط، وحانوت حداد لا يزال كيره باقياً إلى الآن، وحانوت نجار وجد فيه صندوق يحتوي على عُدد، ومصانع تعج بصناعة المعادن، وصناع الأحذية، والمزهريات، وتكرير الزيت، والنسيج. وإن العمال الذين يكشفون عن تلك الآثار في هذه الأيام ويجمعون ما فيها من مناضد ذات ثلاث قوائم، وجرار، وفخار، وأفران، ومصابيح، ومدى، و«هاونات»، وأدوات للصقل، وخطاطيف، ودبابيس، وخناجر،

وسيوف... نقول إن العمال الذين يكشفون الآن عن تلك الآثار ويجمعونها لتعتريهم الدهشة من كثرة ما كانت تخرجه مصانعها من أدوات مختلفة الأنواع، ويطلقون عليها اسم «مدينة الآلات». وإذا قيست شوارع المدينة إلى شوارعنا في هذه الأيام بدت لنا ضيقة. فهي لا تزيد على أزقة من طراز أزقة المدن الشرقية... التي تخشى حر الشمس اللافح. أما بيوتها المستطيلة الشكل المشيدة من الخشب أو الآجر أو الحجر فلا ترتفع في الغالب إلى أكثر من طابق واحد»[1].

إن هذا الوصف ينطبق على أية بلدة سورية قديمة الذي لا يزال محافظاً عليه إلى اليوم.

وكان طرف الجزيرة الشرقي غنياً بالبلدات والقرى الصغيرة، سواء أكانت موانئ منيعة مثل «سكرو» و«مكلو» أو قرى صغيرة مثل «فريسو» و«فسيرا» أو مقرات لسكنى رجال الأعمال والمال مثل «فالاي قسطرو».

والطريف أن الأسماء جميعاً توحي بمضمونها: إن «سكرو» تعني: الصادّ، المانع، المنيع، و«مكلو» تعني: المنيع، المحمي، وهو من الفعل «كلا» أي كلأ، رعى، حمى. و«فريسو» تعني: الكوخ، الخيمة، المظلة. أما «فالاي» جمع «فليو» وهي من الفعل «فلى» أي فحص، انتقد. و«قسطرو» تعني في القاموس السرياني: حصن، معسكر، محط، كما تعني: منتقد الدراهم، فاحص الدراهم.

المواصفات الأنتروبولوجية للسكان في كريت

يقول ديورانت:

«بين الكريتيين، كما يتصورهم فنانوهم، وبين البلطة المزدوجة التي تظهر كثيراً في رموزهم الدينية شبه غريب. فالرجال منهم والنساء لهم أجسام تدقّ من أعلاها ومن أسفلها حتى تنتهي في الوسط بدائرة شديدة الضيق كطراز هذه الأيام، ولكنه مبالغ فيه. وكلهم تقريباً قصار القامة، نحاف، لدن، رشيقو الحركة، ذوو أناقة رياضية. وهم بيض البشرة وقت مولدهم. فأما نساؤهم اللاتي يلازمن الظل فلهن وجوه بيض. وأما الرجال الذين يسعون في مناكب الأرض طلباً للرزق فقد لوحت الشمس وجوههم فاحمرّت، وكان اليونان يسمونهم «الفونيقيين»*. رؤوسهم أقرب إلى الطول منها إلى العرض،

---

(1) المرجع نفسه، ص26 – 27.

* في القاموس السرياني تأكيد لصحة هذه التسمية «فونيق» أي السيد المنعّم، المرفّه وليس «فينيق» وهي من الفعل «فنِق»: نعّم، رفّه.

ومعارفهم حادة دقيقة، وشعورهم وعيونهم سوداء براقة كشعور الإيطاليين وعيونهم في الوقت الحاضر. ولا شك في أن هؤلاء الكريتيين فرع من جنس «البحر المتوسط». والرجال منهم والنساء يرسلون شعورهم، بعضه معقوص فوق رؤوسهم وأعناقهم، وبعضه في حلقات فوق جباههم. وبعضه الآخر في غدائر تنوس على أكتافهم أو صدورهم. ويضيف النساء إلى ذلك أشرطة في غدائرهن. أمّا الرجال فكانوا يصطحبون معهم حتى في قبورهم طائفة من شفرات الحلاقة ليحتفظوا بوجوههم حليقة نظيفة حتى في القبور.

«وكان الرجال يضعون على رؤوسهم عمائم أو قبعات أو يتركونها عارية في أغلب الأحيان. وكان النساء يلبسن قبعات فخمة من طراز القبعات التي كانت منتشرة في بداية القرن العشرين... وكان من عادات الكريتيات الظريفة أن تبقى صدورهن عارية أو تكشفها قمصان شفافة، ولم يكن أحد يتحرج من هذا أو يرى فيه غضاضة*... ولم يتأثر اليونان بالكريتيين في هذه المسائل، ولم تنقلب أزياؤهم على غيرها من الأزياء إلا في العواصم الحديثة. بل إن علماء الآثار أنفسهم يطلقون اسم «الباريسية» على صورة المرأة الكريتية ذات الصدر المرتفع البراق، والعنق الجميل، والفم المغري، والأنف البارز، والجمال القوي المثير... وقد كشف في الآثار عن حلي كثيرة مختلفة الأنواع، من دبابيس للشعر نحاسية وذهبية، ودبابيس ومشابك منقوشة عليها بالذهب حيوانات أو أزهار أو رؤوس من البلور أو المرمر، وأقراط مزركشة من الذهب تختلط بالشعر، وعصائب أو حلي من المعادن النفيسة، وأقراط أو قلادات مدلاة من الأذان، ومشابك وخرز وعقود على الصدر، وأساور في الأذرع، وخواتم في الأصابع من فضة، وعقيق، وجزع، وجمشت، وذهب. وكان الرجال يتحلّون أيضاً ببعض هذه الحلي. فإذا كانوا فقراء لبسوا عقوداً وأساور من حجارة عادية، وإذا أمكنتهم مواردهم ازّينوا بخواتم كبيرة نقشت عليها صور الحرب أو الصيد... وكانت المرأة الكريتية تنسج الأقمشة، وتضفر السلال، وتطحن الحب، وتخبز الخبز، وكانت، مع ذلك، تعمل مع الرجل في الحقل، وتصنع معه الفخار، وتختلط بالرجال في الأسواق. وكان النساء يجلسن في المقاعد الأمامية في دور التمثيل وفي حلبات الألعاب، وينتقلن في المجتمعات الكريتية وعليهن سيماء العظمة والملل من التعظيم والتمجيد»[1].

* إن ثدييّ المرأة كانا رمزاً للخصوبة عند السوريين منذ زمن عشتار التي كثيراً ما أظهرتها صورها وتماثيلها ممسكة بثديها العاريين. وكلمة «ثدي» بالسريانية تعني الربيع، والربيع تعني الخصيب. وقد استمرت النساء السوريات على ممارسة هذه العادة في كل أنحاء سوريا الطبيعية وفي معظم بقاع شبه جزيرة العرب إلى أن جاء الإسلام ونزلت الآية **﴿ يا أيها النبي قل لنسائك ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن ويضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾** والجيب هو الصدر.

(1) المرجع نفسه، ص21 – 23.

إن كل هذا الوصف المفصل للناس في ملامحهم، وملابسهم، وزينتهم، وحياتهم اليومية، وعاداتهم، وأعمالهم... لا ينطبق على أي شعب آخر في المعمورة كلها غير السوريين. وإن الهروب من هذه الحقيقة إلى اختراع ما دعوه تلفيقاً وزوراً بـ «العرق المتوسطي» لن ينتج في العقول السليمة شيئاً غير الشعور بالمقت لتلك الروح التعصبية التي سادت كتابة التاريخ في الغرب منذ عصر النهضة إلى اليوم. إن ذلك الإنسان «المتوسطي» الذي أتحف البشرية بكل تلك المنجزات الحضارية الرائعة لم ينبثق من قاع البحر المتوسط، ولا من شبه جزيرة المورة، ولا من روما التي ستولد بعد عدة آلاف من السنين على أيدي السوريين أنفسهم، ولا من شبه جزيرة إيبيريا أو الجزر البريطانية التي ظل إنسانها ـ وحسب ول ديورانت نفسه ـ يأكل لحوم البشر حتى القرن الحادي عشر بعد المسيح[1].

إن تلك المظاهر الحضارية في كريت التي نقلها لنا ديورانت بحماسة بالغة ليست إلا نسخة سورية في بلدان الانتشار. ومن أجل التحقق من صحة ما نقول لنقرأ ما ينقله لنا ديورانت نفسه عن صورة الإنسان السوري في مرحلة الدولة البابلية، أي في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

يقول ديورانت:

«كان البابليون ساميّين في مظهرهم، سود الشعر، رجالهم ملتحون، ويضعون على رؤوسهم أحياناً شعراً مستعاراً. وكانوا رجالاً ونساءً على السواء يطيلون شعور رؤوسهم، وحتى الرجال كانوا أحياناً يرسلون شعورهم في ضفائر تنوس على أكتافهم. وكثيراً ما كان رجالهم ونساؤهم يتعطرون... ولم يكونوا حفاة الأقدام بل اتخذوا لهم أخفافاً ذات أشكال حسنة... وكان النساء يتزيّن بالقلائد والأساور والتمائم، ويحلّين شعرهن المصفّف بعقود من الخرز. وكان الرجال يمسكون في أيديهم عصياً ذوات رؤوس منحوتة منقوشة، ويحملون في مناطقهم الأختام الجميلة الشكل التي كانوا يمهرون بها رسائلهم ووثائقهم... لقد سيطر التجار البابليون على جميع مسالك التجارة التي كانت تعبر غربي آسيا ومن الخليج (الفارسي) إلى البحر المتوسط... وصارت بابل عاصمة الشرق الأدنى أكبر عواصم العالم القديم وأعظمها أبهة وفخامة... وكانوا ينسجون القطن والصوف، وكانت الأقمشة تصبغ وتطرز بمهارة جعلتها من أثمن السلع التي تصدرها بابل إلى

(1) ديورانت، الجزء 1، ص19 – 20.

الخارج، والتي وصفها كتاب اليونان والرومان فيما بعد أحسن وصف وأثنوا عليها أجمل الثناء. كذلك نجد نول النساج وعجلة الفخراني في أقدم عهود التاريخ البابلي... وكانت الصناعات والحرف كثيرة متباينة، وكثر المهرة من الصناع، وتألفت منهم منذ عهد حمورابي نقابات كان يشترك فيها الصبيان والمعلمون... وكانت القوافل التجارية الكثيرة تحمل إلى أسواق بابل وحوانيتها غلات نصف العالم المعروف...».

«وكانت المرأة التي تعمل في تربية الأبناء، ونقل الماء من النهر أو البئر، وطحن الحبوب، والطهو، وغزل الخيوط ونسجها، وتنظيف دارها، حرّة في غدوّها ورواحها بين الناس لا تكاد تفترق من هذه الناحية عن الرجل في شيء. وكان من حقها أن تمتلك الثروة، وتستمتع بدخلها، وتتصرف فيهما بالبيع والشراء، و أن ترث وتورّث، ومن النساء من كانت لهن حوانيت يتجرن فيها. بل إن منهن من كنّ كاتبات، وفي هذا دليل على أن البنات كنّ يتعلمن كالصبيان...».

«وكان الشبان يصبغون شعوهم يعقصونه، ويعطرون أجسامهم، ويحمرون خدودهم، ويزينون أنفسهم بالعقود، والأساور، والأقراط، والقلائد... وأصبحت نساء الأسر الكبيرة ترى أن إظهار محاسنهن ليستمتع بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع، أصبحن لا يرين في هذا شيئاً أكثر من مجاملة عادية...».



صورة رقم (25) سيدة سورية عند المنهل (نبع الماء) في اغريقيا. وقد كتب على أعلى يمين الصورة كلمة «منهل» بالعربية الفينيقية.

«ولم يكن الزواج في بابل يقلّ إخلاصاً واقتصاراً على واحدة عنه في العالم المسيحي في هذه الأيام. وكانت الحرية المباحة للأفراد قبل الزواج يتبعها إرغام شديد على الاستمساك بالوفاء الزوجي بعده...».

«وكان للمرأة من الوجهة العملية أن تفارق زوجها... إذا أثبتت قسوته عليها مع إخلاصها له. وكان في وسعها في هذه الحال وأمثالها أن تعود إلى أهلها، وأن تأخذ معها بائنتها وما عسى أن تكون قد حصلت عليه لنفسها بعدئذ من المتاع. ولم تستمتع نساء إنكلترا نفسها بهذه الحقوق إلا في أواخر القرن التاسع عشر»[1].

عقيدة الخصب الزراعية السورية المركزية والأم الكبرى في كريت:

«في الواقع إن الثورة النيوليتية التي أدت إلى الاستقرار واكتشاف الزراعة وتدجين الماشية هي البداية الحقيقية لحضارتنا القائمة الآن. أما الثورة المدينية فهي التي أعطت هذه الحضارة أطرها الأولى التي ما زالت قائمة في أساسات مجتمعات العصر الحديث. ورغم أن كل الحضارات، القائمة منها والمندثرة، قد حققت هاتين الثورتين في زمان ما من تاريخها، فإن علم الآثار الحديث يقرر اليوم أن الثورة النيوليتية والثورة المدينية قد حدثتا لأول مرة في تاريخ البشرية في منطقة الشرق الأدنى القديم. وهي المنطقة الوحيدة التي حققت ثورتها في معزل عن كل تأثير خارجي، جاعلةً من نفسها نموذجاً أولاً للتحولات التالية في المناطق الأخرى»[2].

«إن أولى التجارب الزراعية قد تمت في المناطق الداخلية من سوريا على طول الشريط الممتد من جنوب حلب إلى صحراء سيناء. ويعتقد أن قصب السبق في هذا المضمار كان لموقعين رئيسيين هما موقع تل المريبط في الشمال عند شاطئ الفرات، وموقع أريحا في الجنوب بوادي الأردن، وذلك نحو نهاية الألف التاسع وبداية الألف الثامن قبل الميلاد»[3].

«لقد شكلت المرحلة الممتدة بين الألف العاشر والألف السادس قبل الميلاد مرحلة حاسمة في تاريخ الإنسانية. فالتحولات الجذرية التي تمت هنا قد نقلت الإنسانية من مرحلة الصيد والالتقاط إلى مرحلة الاستقرار والزراعة وتربية القاعدة المكينة لحضارتنا المدنية قد تمت في هذه المنطقة قبل أي مكان آخر على سطح الكرة الأرضية»[4].

(1) المرجع نفسه، ص193 – 194، 196، 197، 203، 233، 234، 232.

(2) Charles Redsuan, The Rise of Civilization, P.6-7.
(3) Ibid, PP. 71-74.
(4) J. Caurin, Religions Newlitiqes, P.7..





صورة رقم (26) عشتار الأم السورية الكبرى والطفل الإلهي في مواقع الانتشار: في سوريا وكريت.

«ومنذ مطلع الألف الثامن كانت قد ظهرت الوضعية التي كانت قد غدت كلاسيكية فيما بعد: وهي وضعية عشتار الممسكة بثدييها العاريين والتي سنجدها خلال الفترات اللاحقة لدى كل ثقافات الشرق القديم تقريباً كرمز لخصب الإلهة الأم. ولقد أعطتنا التنقيبات الأثرية في مواقع الألف الثامن والألف السابع الكثير من هذه التماثيل، كما هو الأمر في أريحا، ومنهاتا، والبيضا، ووادي فلاحة، والخيام، وتل أسود، وتل الرماد، وتل المريبط، وشتال حيوك. وهذا يدل على أن عبادات الشرق القديم في تلك الفترة إنما كانت تنويعات على أرضية مشتركة. هذه الأرضية المشتركة هي ما نعنيه بمصطلح «الديانة المركزية»... وخلال العصر النيوليتي نضجت في سوريا الرموز التشكيلية الخاصة بالأم الكبرى... وهي الرموز التي انتقلت معها انتقال ديانتها

النيوليتية إلى الأصقاع الأخرى. من تلك الرموز: الصليب المعكوف، والصليب العادي، وزهرة الزنبق، وشقائق النعمان، والفأس المزدوجة رمز الصاعقة التي حفلت به بشكل خاص حضارة تل حلف، والذي سوف نراه في كثير من رسوم الأم الكبرى في حضارة كريت ومطلع الحضارة الإغريقية... وإلى جانب الرموز التجريدية ارتبطت بالأم الكبرى رموز حيوانية أهمها: الحمامة، والأفعى، والثور، والأسد... وقد انتقلت مجموعة هذه الرموز مع انتقال عبادة الأم النيوليتية إلى الثقافات الأخرى. فانتقلت أولاً إلى كريت. ومن هناك نقلتها السفن عبر مضيق جبل طارق إلى الجزر البريطانية، وجنوباً على طول الشاطئ الأفريقي. ومن كريت أيضاً إلى «مكيني»، وهي أول مدينة متحضرة على الأرض اليونانية... ومن الهلال الخصيب وصلت مجموعة هذه الرموز أيضاً إلى مصر منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد، وكذلك اتجهت شرقاً نحو آسيا حتى أقصى أنحاء المعمورة جنباً إلى جنب مع ديانة عشتار»[1].

«ولقد واصل الرب «الثور» السوري الذي هو «البعل» أو «إيل» أو «حدد» رحلته إلى الأناضول، وقبرص، وكريت، إلى أن حط رحاله عند حواف العالم القديم وشواطئه، حيث حافظ على اسمه السامي «ثور». ففي الثقافة السكندينافية القديمة كان الإله «ثور» ابناً للأم ـ الأرض، ورباً للصاعقة والعاصفة والمطر والطبيعة»[2].

وكما كان الرب حَدَدْ أو البعل يرمز إليه بالثور بل ويدعى به فقد كانت عشتار يرمز إليها بالبقرة «تورا» (وهي مؤنث تورو السريانية) وتدعى بها. وقد انتقلت هذه التسمية مع السوريين إلى كريت «فلقد آمن الكريتيون القدماء بالربة «تورت»... وهنا لا بدّ من أن نعترف بأن التغيير الذي طرأ على هذه الربة المصرية على يد الكريتيين يعزى إلى علاقاتهم المباشرة بالسوريين التي كانت أكثر تنوعاً وأكثر قدماً من تلك التي أقاموها مع المصريين، وذلك بفضل موقع الساحل السوري الجغرافي على امتداد الطريق البحري الساحل الأكثر أمناً بالنسبة لسفن حضارة الألف الثانية قبل الميلاد»[3]. والحقيقة إن ديانة الأم الكبرى بمجملها في مصر وغيرها تعود في أصولها إلى جذور نشأتها السورية.

(1) Joseph Campbell, Primitive Mythology, P. 143.
(2) Shapiro, Hendricks, A Dictionary of Mythology, PP. 56, 192.

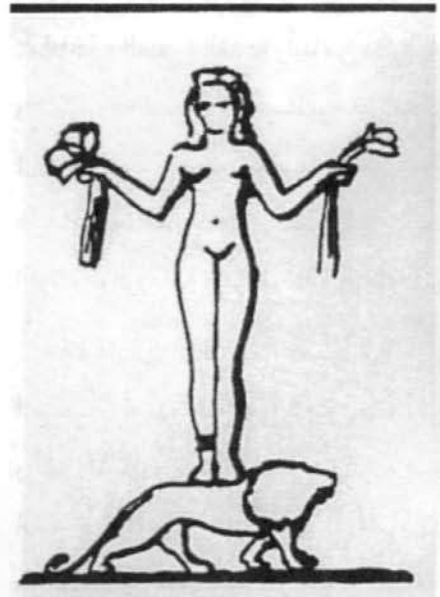
(3) محمود السعدني، المرجع السابق، ص183.



صورة رقم (27): الرب السوري «بعل» وقد كتب أمامه من الأسفل إلى الأعلى «بال» وفي الأسفل من اليمين إلى اليسار «يبعل» أي يا بعل.



صورة رقم (28): الثور رمز رب الخصب السوري – سوريا – الألف الثاني ق.م.



صورة رقم (29): عشتار على ظهر أسد سماوي، وبيديها أزهار الزنبق.

بعد هذا الاستعراض كما يقرره بعض علماء الآثار الموضوعيين نعود إلى كلام ول ديورانت ومجموعته من المترددين عند عتبة الحقيقة.

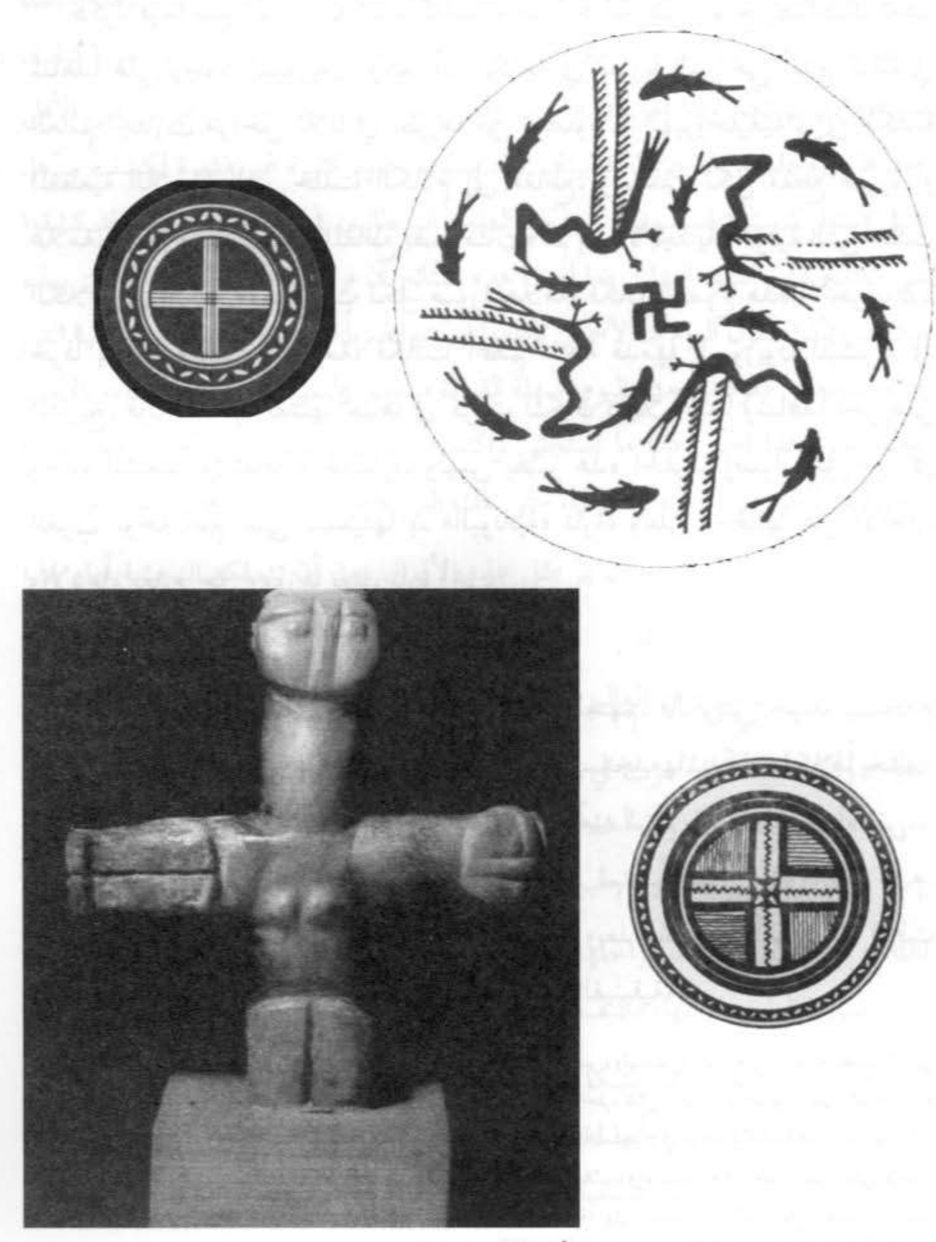
يقول ول ديورانت:

«ربما كان الكريتي وحشياً قاسياً. ولكنه كان، بلا شك، متديناً... فهو يعبد الجبال، والمغارات، والعدد 3، والأشجار، والأعمدة، والشمس، والقمر، والتيس، والأفعى، والحمامة، والثور، وقلّما يسلم شيء من عبادته... وحين يسمو به تفكيره إلى إيجاد إله بشري يصور لنفسه إلهته أماً ذات ثديين وجسم فارع الطول، وأفاع تلتف حول ذراعيها وثدييها... وهو يرى في هذه الإلهة الأم الحقيقية الأساسية من حقائق الطبيعة، وهي أن الموت عدو الإنسان الألد تغلبه قدرة الأم الخفية العجيبة على التناسل والتكاثر، وهو لذلك يؤله هذه القدرة. فالإلهة الأم تمثل له مصدر الحياة بأجمعها في النبات والحيوان والإنسان. وإذا ما أحاط صورتها بالحيوان والنبات فما ذلك إلا لأن الحيوان والنبات يوجدان من خصوبتها الخلاقة، وهما لذلك يرمزان لها ولما ينبعث منها. وهي تظهر في بعض الأحيان تضم بين ذراعيها طفلاً قدسياً هو فولكانوس ولدته في مغارة جبلية. وإذا ما تأملنا هذه الصورة القديمة رأينا من خلالها عشتار وتموز، وإيزيس وحورس، وسيبيل وأتيس، وعشتار وأدونيس، وأحسسنا بوحدة ثقافات ما قبل التاريخ، واتصال الآراء والرموز الدينية في عالم البحر المتوسط بعضها ببعض... والرموز المقدسة عند الكريتي لا حصر لها... ومن هذه الرموز: الدرع، ولعله كان يراه رمزاً للإلهة في صورتها الحربية، ثم الصليب في صورتيه اليونانية والرومانية... وأهم هذه الرموز كلها الفأس (البلطة) المزدوجة»[1].

أما عادات الدفن فهي نفسها في سوريا كلها، فقد كانوا يدفنون الميت إما في تابوت من الصلصال أو بدونه. وكانوا يدفنون معه أعز حاجاته أو أدواته كأدوات الشطرنج مع اللاعب، وآلات الموسيقى مع الموسيقي، وقارب صغير مع البحار... لتأنس بها روحه. فهم، مثل كل السوريين، كانوا يعتقدون بالبعث بعد الموت. فكما كان رب الخصب السوري يموت ثم يقوم من الموت في بدء الربيع مع حيوية الطبيعة في النبات والحيوان هكذا كان الأمر مع «زيوس الكريتي». فيحزنون على موته في شهر يباس الزروع (تموز) ويحتفلون بقيامه في مجموعة من

(1) ديورانت، المرجع نفسه، ص28 – 30.

الأعياد المتصلة هي أعياد الربيع بالرقص والفرح وكثير من المجون. وكان الاحتفال في هذه الأعياد يبدأ بتمثيل موت الإله ثم بقيامته من الموت كجزء من الطقوس الدينية السورية تخليداً لذكرى حزن عشتار على موت حبيبها تموز أو أدونيس.



صورة رقم (30): الصليب رمز الخصب - سوريا - الألف الرابع قبل الميلاد.

أما كلمة «زيوس» فهي في الأصل السوري السرياني «زيو» وتعني في القاموس السرياني: شعاع، ضياء، بهاء، باشق، صقر، نسر، مجد.

السورية « السريانية» لغة الكريتيين:

ذكرنا فيما سبق كيف أنه أينما كانت توجد الكتابة على ألواح الصلصال تعتبر شاهداً على وجود السوريين. وكما أن الكتابة في سوريا التي هي أقدم كتابة في العالم اجتازت مراحل ثلاثاً في تطورها من التصويرية الهيروجليفية*، إلى الكتابة المقطعية اللاحقة التي حللت الكلام إلى مقاطع، ورسمت لكل مقطع صورة أو علامة، فكان مجموع تلك المقاطع بضع مئات، ثم إلى الأبجدية الحرفية التي حلّلت الكلام إلى أصوات، فوضعت لكل صورة علامة، فكان مجموع هذه الأحرف 22 حرفاً باثنين وعشرين علامة، فكانت أعظم منحة قدمها السوريون للبشرية في التاريخ، فإن الظاهرة نفسها نجدها في كريت لتكون دليلاً أكيداً وشاهداً آخر على وحدة الشعب والثقافة والحضارة. وليس يضير هذه الحقيقة إصرار المؤرخين في الغرب بوجه عام على تسميتها بـ «اليونانية» تارة، وعلى إخفائها عن الأنظار، والادعاء بعدم حل رموزها بعد، تارة أخرى.

يقول ول ديورانت:

«أصعب ما يواجهنا في حضارة الكريتيين هو لغتهم. فالكريتي حينما يستخدم الحروف الهجائية اليونانية بعد غزو الدوريين بلاده إنما يستخدمها ليدوّن بها كلاماً يختلف كل الاختلاف عن الكلام اليوناني المعروف وأقرب منه شبهاً بلغات الشرق الأدنى... وقد اقتصر في أقدم العصور على الرموز التصويرية. ثم بدأ حوالي عام 1800 ق.م. يختصر هذه الرموز إلى نحو تسعين علامة مقطعية. وبعد مائتي عام من ذلك الوقت استنبط نوعاً آخر من الكتابة تشبه الحروف الهجائية الفينيقية»[1].

* كلمة «هيروجليفي» سريانية تعني النقش على الحجر أو على لوح الطين اليابس، وليست إغريقية تعني «الكتابة المقدسة»! وهي في القاموس السرياني مؤلفة من كلمتين «أوريو» وهي من الفعل «أري» أي: حفر، نقش، زخرف. و«جليفو» وتعني: اللوح، اللوح اليابس، الحجر، القلم، برية القلم. والجلف في الفصحى اللوح والقلم. وكانت تستخدم في مرحلة الكتابة التصويرية حيث لكل كلمة أو فكرة صورة تعبر عنها، لذلك فهي لم تكن تصلح للسجلات والمراسلات، وإنما تستخدم في الحفر والنقش على الأعمدة وجدران المعابد في الدرجة الأولى. لذلك ألصقوا بها تسمية «الكتابة المقدسة». وفي الفصحى: الجلف، اللوح، القلم، برية القلم.

(1) المرجع نفسه، ص31 – 32.

ويقول أندريه إيمار:

«فهناك، على الأقل، أكثر من 1500 لوح غريني مجفف بالحرارة اكتشفت في أطلال كنوسوس وحدها، وعدة مئات أخرى عثر عليها في بيلوس من أعمال البيلوبونيز. ويستدل من ذلك أن القصور كان لها مكاتبها ومحفوظاتها وربما مكتباتها أيضاً. ثم إن كريت قد زودتنا، بالإضافة إلى ذلك، بالكثير من العاديات، لاسيما الأختام والخزفيات التي تحمل رموزاً كتابية. فالكتابة إذن لم تكن وقفاً على الإدارات... وقد اعتمدت في الكتابة ثلاث طرائق على الأقل إحداها هيروجليفية والأخريان كتابيتان. وقد بذلت جهود كثيرة غير مثمرة لكشف سرّها. فقيل «تنتظر كريت شامبوليونها»... ولكن العلماء البريطانيين في أواخر عام 1953 قد كشفوا عن النتائج التي انتهوا إليها... وما لبثت هذه النتائج أن فرضت نفسها على المعنيين بهذه الكتابة. ويمكن القول اليوم إن الآخيين تكلموا أو كتبوا ضرباً من ضروب اللغات اليونانية التي أُصبحت بعض مفرداتها، منذ اليوم، سهلة القراءة والفهم. وليس من ضرورة للتنويه بالآمال المعلقة على هذا الحل. فإذا ما استجلي واكتمل وتناول المستندات الأخرى قد تنقلب النظريات المأخوذ بها رأساً على عقب، حتى تلك التي أوجزناها في الصفحات السابقة»[1].

لا يمكن للباحث المحترم أن يمرّ بمثل هذه الأقوال دون أن تتملكه الدهشة أمام هذا الإصرار على تغييب الحقائق:

أولاً – إن كل الباحثين في العالم يعرفون أن الكتابة اختراع عربي، وسوري تحديداً.

ثانياً – وأن هذه الكتابة مرت في سوريا في ثلاث مراحل: التصويرية، ثم المقطعية، ثم الأبجدية الحرفية. وأن أحداً لم يعرف الكتابة بالمقطعية والأبجدية الحرفية في كل الجزر والبلدان الأوروبية غير السوريين في تلك الحقبة من التاريخ.

ثالثاً – وأن هذه الكتابة، بمراحلها الثلاث، حلّت رموزها، وقرئت وثائقها المكتشفة في سوريا الطبيعية كلها، فكيف تعثرت في كريت وحدها على مدى نصف قرن؟

رابعاً – إن ديورانت يعترف بشكل غير مباشر بأن أمر هذه اللغة المكتشفة في كريت لم يبقَ لغزاً، بل ظهر «أنها لغة شبيهة بلغات الشرق الأدنى»، فأي شرق أدنى هذا إن لم يكن سوريا الطبيعية؟

---

(1) أندريه إيمار، المرجع السابق، ص239.

وينقل لنا الدكتور عياد عن غيره قائلاً: «وما زالت الجهود تبذل اليوم لقراءة كتابات المجموعة الأولى A وخاصة بعد أن توصل العلماء إلى حل مقبول نسبياً لرموز المجموعة الثانيةَ... فلقد اعتقد فريق منهم أن للكتابة المعنية بالمجموعةَ علاقة ما باللغات السامية... وتحتوي كتابات المجموعة B على 80 رمزاً مقطعياً، ويفصل المفردات بعضها عن بعض خط شاقولي كما هو الحال في الكتابات السامية. ويقابل كل إشارة مقطع مكوّن من حرف صوتي مع حرف ساكن، أو من حرف ساكن مع حرف صوتي... ويجب القول إنه عثر في قبرص ورأس شمرا (أوغاريت) وتل عطشانة (السوريتين) على بعض الكتابات الشبيهة لكتابات المجموعةَ، مما سهّل جهود الباحثين، إذ أن رموز الكتابات التي تم العثور عليها في المناطق المذكورة قد فكت خطوطها»[1].

خامساً – ويعترف إيمار بأن العلماء توصلوا إلى النتائج التي فرضت نفسها على المعنيين بهذه الكتابة... فلماذا الإصرار إذن على إخفاء حقيقة هذه اللغة؟ إنه بعبارة واحدة: الخوف أمام النتائج الذي لم يقدر إيمار على كتمانه حيث قال: «قد تنقلب النظريات المأخوذ بها رأساً على عقب، حتى تلك التي أوجزناها في الصفحات السابقة» والتي كان قد ركز فيها على استقلالية الكريتيين جنساً وثقافة ولغة!

سادساً – إن ديورانت يعترف بانكشاف أمر هذه اللغة، وأنها ضرب من اللغات اليونانية. لكن اليونانية ليست سراً. ووثائق دلفي الكثيرة ـ على الأقل، مقروءة ومعروفة كلها باعتراف إيمار[2]. فلماذا كل هذا الدوران!

سابعاً – لقد عرف المؤرخون ـ ومن خلال هذه اللغة والكتابة نفسها في كريت ـ أسماء كل المدن الكريتية القديمة، كما تعرفوا على العبادات والعادات والتقاليد التي شدّ ما أعجبوا بها، ولم يضيفوا شيئاً سوى حصر هذه الحضارة كلها بالتسمية التي اخترعوها من أجل تغييب الهوية الثقافية والقومية للسكان. تلك التسمية هي «العصور المينوية» بما في ذلك من افتئات على علم التاريخ ككل، مع أن «مينو» هو أيضاً سوري وابن الأميرة السورية أوروبا.

(1) عياد، المرجع السابق، ص61 – 63.

(2) إيمار، المرجع السابق، ص449.

ثامناً ـ وقد تبين أخيراً للقارئ، من خلال ألقاب الحكام وأبطال القصص، وتسمية المواقع والمدن، بل واسم كريت نفسه، كيف أنها سورية سريانية، تعبر عن مضامين شخوصها، وليس لها أي معنى آخر بأية لغة أخرى في العالم. وبعد، ما الذي بقي في كريت ليس سورياً! الموازين؟ يقول ديورانت: «وكان فيها الشاقل وحدة الموازين»[1]. والشاقل هو العملة السورية منذ الزمن الأكادي والبابلي، وهو «الثاقل» أي الثقل الموازن للبضاعة. وإن الإبدال في السريانية شائع بين الشين والسين والثاء والتاء. إن «ثعلب»، على سبيل المثال، هو في السريانية: ثعلب، وشعلب، وسعلب، وتعلب، وتعلا... وإن «ثلاث» هي سلوس، وشلوش، وثلوث... إلخ. ومن الأوزان البابلية أيضاً «التالنت» (ويعني الوزنة أيضاً) و«المنا»... وكل منها أجزاء من الآخر.

وعودة إلى المرحلة التالية من تاريخ كريت:

إن النبيل السوري المهاجر زيوس لما هجر الأميرة الفينيقية أوروبا وأولادها في كريت عائداً إلى زوجته «حيرا» في بلاد المورة، رأف بها الملك السوري العاقر في كنوسوس، فتزوجها، ورعاها، وحرص على تربية أولادها وإيصال «مينو» إلى أن يرث من بعده عرش كنوسوس. وهكذا كان.

لقد حكم أبناء الأميرة أوروبا في كريت ثلاثة أجيال ما بين القرنين الخامس عشر وبداية الثالث عشر قبل الميلاد، تميزت هذه الفترة بمجموعة من الأحداث الكبرى في سوريا، وكان لها انعكاسها على عالم الجزر وفي مقدمتها كريت:

1. إن عاصمة الدولة السورية بابل، ونتيجة لضعف عدة ملوك متتابعين، سقطت في أيدي قبائل الكاشيين الهمجية الذين انقضوا عليها من الشرق بعد أن ضربتها الزلازل، وأعملوا فيها الحرق والنهب، وذلك في عام 1595 ق.م. إن هذا، على الأقل، هو ما يرويه لنا المؤرخون. ولما كانت قبائل الكاشيين رعوية، فإن سطوها لم يوفر القبائل الرعوية الآرامية السارحة بقطعانها قرب أور جنوب بابل، مما أضطر الكثير منها إلى الانسحاب إلى عمق شبه جزيرة العرب، وكان من جملتهم ابراهيم.

(1) المرجع نفسه، ص242.

2. إنها الفترة نفسها التي يصفها الإخباريون والمؤرخون العرب بأنها ترافقت بحدوث زلازل، وحروب، وانقسامات كثيرة في المنطقة. «فلما قبض الله ساروج قام بعده ناحور بن ساروج مقتدياً بمن سلفه من آبائه. وحدث في أيامه رجف وزلازل لم تعهد فيما سلف من الأيام قبله... وكانت في أيامه حروب وتحزيب الأحزاب»[1].

3. في هذه الفترة اغتنم الفينيقيون في صيدا وصور وأبناء أوروبا في كريت ضعف الدولة المركزية، وانهيار سيطرتها على خطوط التجارة الدولية، فأخذوا يبسطون سيطرتهم تدريجياً على تجارة جزر إيجه، كما طمحوا إلى منافسة السوريين على تجارة البحر الأسود. وقد ذكرنا قبلاً أن أولئك الفينيقيين الحاميين كانوا صيادين وتجار بحر، ولم يشعروا يوماً بالانتماء إلى الدولة السورية المركزية إلا مرغمين. وقد لازمهم هذا السلوك ـ كما سوف نرى ـ طيلة تاريخهم القديم. وكان من جملة النتائج أنهم حرضوا النازحين الآخرين «الإغريق» على حربهم ضد طروادة وقدّموا لهم المساعدة، لأن طروادة السورية كانت ما تزال تمسك بمداخل التجارة إلى البحر الأسود. وفي هذه المرحلة بالذات ازدهرت تجارة الفينيقيين في كل مواقع الانتشار السّوري، ولا سيما في كريت والجزر والشاطئ الليبي (الأفريقي)، وصار «الإغريق يطلقون على الكريتيين اسم «الفونيقيين»[2]. وهذه التسمية سورية سريانية صرفة، إذ هي في القاموس السرياني من الفعل «فْنِقْ» ويعني: نعم، رفه، عاش عيشاً رغيداً، ساد... و«فونيق» (وليس فينيق): الناعم، المرفّه، السيد، الراغد. وفي الفصحى نجد: فنق: تنعم، ترفه، عاش عيشاً رغيداً. وعيش مفانق عيش رغيد، والجواري الفنق الناعمات المنعمات.

4. وإذا ما علمنا أن «ساروج» هذا الذي حدثت في أيامه «الحروب والزلازل وتحزيب الأحزاب» كما روى المسعودي هو جد ابراهيم، إذ أن ابراهيم ابن تارح (الذي هو آزر) بن ناحور بن ساروج[3]، وساروج هذا هو ابن أرقو بن فالج بن عابر. يقول الطبري: «وولد لشالح عابر، وولد لعابر ابنان أحدهما فالج ومعناه بالعربية قاسم، وإنما سمي بذلك لأن الأرض قسمت والألسن تبلبلت في أيامه، وسمي الآخر قحطان، فولد لقحطان يعرب ويقطان، وكان أول من ملك اليمن»[4].

(1) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء 1، ص44.
(2) ديورانت، المرجع نفسه، ص20.
(3) تاريخ الطبري، الجزء الأول، ص142.
(4) المرجع نفسه.

والذي يهمنا هنا هو أن كلاً من هذه الأسماء إنما هو اسم لأب عشيرة سريانية، لأن لغتهم جميعاً كانت السريانية، أو كما يسميها المؤرخون في الغرب «الآرامية».

والأمر الثاني المهم هنا أنه في زمن «فالج» قسمت الأرض وتبلبلت الألسن. وهذا تعبير عن توزع الفالجيين إلى بقاع شتى ليتكلموا لهجات شتى. فمنهم من بقي في رعاية المواشي والتنقل مثل فرع ساروج الذي جاء منه ابراهيم وظل يتكلم العربية بلهجتها السريانية. ومنهم من استقر في المدن، وتكلم اللهجتين الفصحى والسريانية، مثل أبناء قحطان في اليمن. ومنهم من تولى حماية القوافل ومرافقتها إلى الشمال السوري مثل بقية أبناء عشيرة أرقو بن فالج، وهم الذين دعوا فيما بعد في التاريخ اليوناني بـ «الفالجيين» و«الأرقوسيين».

وهكذا نكون قد جعلنا القارئ يمسك بطرف الخيط الذي سوف يوصله إلى حقيقة «الإغريق» فيما سوف يلي من هذا الكتاب.

وقبل هذا لا بد من العودة إلى ساحل «آسيا الصغرى» مرة أخرى لنتابع عملية الانتشار السوري من هناك:

لقد تميز الانتشار السوري، من حيث الاتجاه، بالتغريب في معظمه، ومن حيث السبب، من جهة، والغرض من جهة ثانية، إلى نوعين: انتشار طوعي، إرادي، طبيعي، وآخر قسري، اضطراري، هو النزوح الإغريقي.

أما الانتشار الطبيعي فكان يعتمد بالدرجة الأولى على استكشاف المواقع الخصيبة التي تتوفر فيها التربة الواسعة ومياه الري للسقاية أو مياه المطر، وتصلح لبناء القرى والمزارع وتربية الماشية، في زمن كانت فيه كل الأقوام المتاخمة للسوريين من الشرق والشمال والغرب أقواماً همجية، لم تعرف الزراعة، ولا حياة الاستقرار في قرية أو مدينة بعد. كما كان يعتمد على استكشاف مكامن المعادن من ذهب وفضة ونحاس وقصدير ورصاص من أجل استثمارها، لأن السوريين أول من عرف المعدن وصناعة التعدين. وتأتي أيضاً في الأهمية نفسها عملية اختيار المواقع البحرية الصالحة لأن تكون موانئ أو عقد مواصلات لتجارتهم البحرية الناشطة والمسيطرة منذ الزمن الموغل في القدم.

وكنا قد ذكرنا كيف أن وحدة حضارية شملت مختلف أنحاء سوريا منذ الألف الثامن قبل الميلاد، ومن جنوب سوريا (فلسطين) إلى شمال الأناضول، وأن ساحل ما دعي فيما بعد بـ «آسيا الصغرى» كان أنسب مكان لانطلاقة السوريين غرباً نحو الجزر وشمالاً نحو شواطئ البحر الأسود لما تشكله تلك الجزر المتراصفة من إغراء طبيعي للتقدم والارتياد إلى حيث المواقع ذات الشروط الحقيقية المحفزة لمثل ذلك الارتياد.

وبالرغم من اتفاق جميع الباحثين على أن شبه جزيرة المورة، أو كما صاروا يسمونها «بلاد الإغريق القارية» لم يتوفر فيها أي شرط من شروط جذب السكان المدنيين إلى المجيء والاستيطان الدائم فيها، وأن المدنيّة تقدمت من شرق المتوسط إلى جزر إيجه ومنها كريت أولاً، ومن الشواطئ السورية، ومن ضمنها شاطئ ما صار يدعى بـ «آسيا الصغرى»، فإنهم، وللأسباب التعصبية ذاتها للغرب ضد الشرق، عمدوا إلى تدوين تاريخ الإغريق بصورة مقلوبة، أي جعلوا الهجرة من المورة إلى آسيا الصغرى، وأن مدن آسيا الصغرى والمدن السورية الأخرى أضحت «مستعمرات» إغريقية! وهذا عينه هو ما ينقله النقلة من «الأساتذة» العرب دونما تبصر، ودون إشارة إلى المصدر الذي نقلوا عنه كي يظهروا أمام طلابهم بمظهر المؤلف الباحث، ظناً منهم أن ما ينقلونه علم لا يأتيه الباطل!

لنمعن النظر في قول كهذا:

«في المستعمرات ولد الشعر والأدب اليوناني. وفيها نشأت العلوم الرياضية والفلسفة وبرز أول الخطباء والمؤرخين. إنه في المستعمرات، وليس في شبه جزيرة اليونان نفسها ظهرت الحضارة اليونانية. وعن طريق هذه المستعمرات انتقل ميراث الحضارات الشرقية القديمة إلى اليونان، كما أن الحضارة اليونانية انتشرت في العالم عن هذا الطريق»[1].

ونحن نسأل: هل فهمتم شيئاً؟

إن مثل هذه التقارير العنكبوتية يحفزنا إلى تأجيل الجولة التي كنا مزمعين القيام بها على طول شاطئ آسيا الصغرى الجميل لنتوقف ونوضح الحقيقة التاريخية لهاتيْن التسميتين السكانيتين الملتبستين إلى اليوم: اليونان والإغريق.

(1) محمد كامل عياد، المرجع السابق، ص128.

اليونان و«إيونيا»:

تجمع المصادر اليونانية الأدبية والتاريخية على أن اليونان أبناء يونا بن حيلا بن يافث بن نوح. وهذه الأسماء ـ كالعادة ـ هي ألقاب تعبّر بطريقة ما عن صاحبها.

إن «نوح» في السريانية تعني: السعيد، المرتاح، المطمئن، القديس. وهو اللقب الذي تبنته الكتب السماوية واستمر إلى اليوم. ومن ألقابه عند السومريين «أوتونفشتيم» أي سيد النفوس. لأن نفشتيم هي جمع نفشو ونفشتو بالسريانية وتعني: نفس، روح. وهو في اللغات الأوروبية «نوا»، و«نوي» لسقوط الحاء في نهاية الكلمة.

ومن ألقابه في الآداب الأكادية والبابلية «ذوسدرا» أي صاحب السدرة أو الكوخ أو المظلة من السعف أو القصب، أو القلاّية وبهذا ناداه «إيا» لينبهه إلى الطوفان: «يا صاحب الكوخ»، و«إيا» هو «شمش» نفسه أو رب الشمس، وفي الفصحى «إيا» من أسماء الشمس.

وعرف عند أحفاده من اليونان بلقب «دو قليون» أي صاحب القلاية أو الصومعة أو الكوخ بالسريانية.

أما «يافث» فيعني المخصب أو الخصيب، وهو في القاموس السرياني من الفعل «فْتي» ويعني أخصب. و«فيتون»: الكاهن، المخصب، و«فتّيا» كاهنة الخصب، مخصبة. وما يزال سكان الساحل السوري إلى اليوم يسمّون الزهر الأصفر الذي يغطي البراري في بدء الربيع «زهر الفتي» أي زهر الربيع، والربيع تعني الخصيب.

وقد دعي بهذا اللقب لكثرة نسله حتى قيل إن نسله توزعوا إلى ست وثلاثين لهجة أو لساناً... ولولا الطاعون الذي أصابهم لملأوا الأرض!

وإن «حيلا» أو «حيلان» أو «هيلا» يعني القوي، الشجاع، والحيل في السريانية هو الحول والقوة.

وإن «يونا» يعني حمام، وقد اشتهر نسله برقة الخلق ودماثته، وببعدهم عن الحروب إلا مضطرين. وهو الذي تحول في اللاتينية إلى «جون». ولما كانت الحمامة أحد رموز عشتار الأم السورية الكبرى، فقد صار اسمها «جونو» في إيطاليا.

وقد دعي بهذا اللقب لكثرة نسله حتى قيل إن نسله توزعوا إلى ست وثلاثين لهجة أو لساناً... ولولا الطاعون الذي أصابهم لملأوا الأرض!

وإن «حيلا» أو «حيلان» أو «هيلا» يعني القوي، الشجاع، والحيل في السريانية هو الحول والقوة.

وإن «يونا» يعني حمام، وقد اشتهر نسله برقة الخلق ودماثته، وببعدهم عن الحروب إلا مضطرين. وهو الذي تحول في اللاتينية إلى «جون». ولما كانت الحمامة أحد رموز عشتار الأم السورية الكبرى، فقد صار اسمها «جونو» في إيطاليا.

يقول ول ديورانت:

«تقول الرواية اليونانية إن زيوس غضب على الجنس البشري لما كان يقترفه من مظالم، فسلط عليه طوفاناً جائحاً لم ينج منه إلا رجل واحد هو «دوكاليون» وزوجته «فورتا» في فُلك استقر على جبل فرناس. وتناسلت من هيلان بن دوكاليون جميع القبائل اليونانية، واشتق من اسمه هيلينس Hellens اسم هذه القبائل مجتمعة. وكان هيلان جد أخيوس وأيون Ion الذين تناسلت منهما القبائل الآخية والايونية، واستقرتا بعد تجوال طويل أولاهما في البلبونيز والثانية في أتيكا»[1].

ويلاحظ بسهولة كيف أن قصة طوفان نوح فهمت عند البرابرة آنذاك بصورة مغلوطة وتحولت إلى ما يشبه الخرافة. بينما هي في التراث العربي كله تؤكد على أن الطوفان حدث في منطقة محددة في وسط وجنوب شبه جزيرة العرب، ولم تشمل الجنس البشري كله. وإن نوحاً كان مرسلاً إلى قومه هناك، ولقي منهم العنت والتكذيب.

أما لقب زوجته «فورتا» فيعني بالسريانية: الخصيبة. وهو من الفعل «فري» أي: خصب، أثمر، ولد، نسل، حبل...

وإن جبل «فرناس» هو في الأصل السرياني «فرنا» ويعني: الفرن، التنور، البركان، فوهة البركان الخامدة. وهو الذي فار بالماء بدلاً من النار أثناء الطوفان. وهذا ما أورده القرآن الكريم: ﴿**إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول**﴾ (سورة هود 40). وهي التي صارت بالإنكليزية furnace بمعنى فرن.

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص78 – 79.

وهو جبل «الجودي» الذي رست عليه سفينة نوح في القرآن. و«الجودي» تسمية سريانية وتعني أيضاً جبل البركان. وهي في القاموس السرياني من الفعل جدي - جودي، ويعني: أصعد، قذف، شبّ، علا، ارتفع النار خاصة.

الأمر الآخر الجدير بالتوقف عنده هو أن أبناء نوح كأبيهم سريان أو سوريون. وهذا الأمر ثابت حتى في التراث الديني الإسلامي. فقد أورد الطبري في تاريخه حديثاً عن أبي ذر الغفاري قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يا أبا ذر، أربعة من الرسل سريانيون: آدم وشيث ونوح وإدريس»[1]. وبالتالي فإن حركتهم كانت من شبه جزيرة العرب إلى سوريا الشمالية إلى الجزر وأرض المورة، وليس العكس.

وفي تاريخ الطبري أيضاً: «وأما يافث بن نوح فولد له جامر وموداي ويون وتوبال وماشج... ومن ولد يون الصقالبة وبرجان والأشبان الذين كانوا في القديم بأرض الروم»[2].

إن «يون» الذي هو أبو اليونان هو من أبناء يافث بن نوح في التراث العربي أيضاً. وإن «برجان» هم أبناء «فرجا» بن يونا. و«فرجا» في القاموس السرياني تعني: البهي، السني، الوضيء، المنير، الجميل، المفرج الهم، المفكّه... والفاء كانت تلفظ P في كثير من الأحيان. وباسمهم دعيت «فريجيا» المنطقة الساحلية من آسيا الصغرى التي سميت «إيونيا» أيضاً نسبة إلى يونا.

يقول هيرودوت: «والفريجيون سمّوا أنفسهم «بريجي» على رأي المكدونيين مدة إقامتهم في أوروبا ساكنين معهم، لكن، إذ اجتازوا عائدين إلى آسيا غيروا اسمهم بتغيير بلادهم وسمّوا فريجيين»[3].

وجدير بالذكر أن على الساحل السوري في جنوب جبلة ما تزال إلى هذا اليوم منطقة تدعى «البرجان» وفي ميناء «سوكاس» التابع لها على البحر اكتشفت حتى الآن سبع عشرة طبقة حضارية منضدة بعضها فوق بعض. ولربما كان «برج البراجنة» في بيروت قد اكتسب هذا الاسم من ذلك الزمن.

---

(1) تاريخ الطبري، المرجع السابق، ص161.

(2) المرجع نفسه، ص142.

(3) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب السابع، 74، ص464.

ويقول الدكتور محمود فهمي نقلاً عن غيره:

«وبعد ذلك بزمن طويل وفد (إلى المورة) الهيلينيون فرقاً متمايزة. في أوقات مختلفة. فحضر منهم أولاً الإيوليون والإخائيون... وهؤلاء وفدوا من السواحل الآسيوية عن طريق جزر بحر الأرخبيل... ثم حضر أخيراً في القرن الثاني عشر ق.م. الدوريون»[1]. لكن المؤلف المحترم كان قد أتحفنا قبل ذلك بالقول: «أصل الإغريق من سلالة الآريين من بني يافث!».

على مثل هذا الافتئات على الحقيقة ثارت ثائرة الباحث الفرنسي بيير روسي حين كتب:

«ومن أجل احترام التراث التوراتي كان ينبغي أن نقول (اليافثيون) وليس (الآريون)، لأن يافث من أبناء نوح الثلاثة هو الذي نسل اليونانيين والأناضوليين وأقاربنا الأوروبيين»[2].

أما «الدوريون» فهي نسبة إلى «دورو» وتعني: المحارب، المقاتل، المكافح. وهي من الفعل السرياني «درْ» ويعني: قاتل، كافح، حارب، صارع. و«دْرَرْ» مبالغته، ومنها جاءت «دراما» أي الصراع. وقد لحق بهم هذا اللقب لتميزهم بهذه الخلّة عن اليونان المسالمين، الرقيقي الطباع.

وأما «الإيوليون» فهم نسبة إلى «إيولو» حسب المصادر اليونانية، ويعني في القاموس السرياني: المعين، الشفيع.

بقي أن نقول إن «الإخائيين» لم يسمّوا بهذا الاسم نسبة إلى جدهم الذي اسمه «آخيو» كما يفترض المؤرخون. إن التسمية في الأصل السرياني «أحيني»، وهي جمع «أحينو» وتعني في القاموس السرياني: قريب، نسيب، عشير، أخ، رفيق، صديق، مماثل، مشابه، متحزب، مشايع... «أحينوت»: أخوة، قرابة دموية، علاقة، مشايعة... وهو الأخوة، أو التحالف الذي شكلته بعض العشائر بعد نزوحها إلى أرض المورة.

---

(1) محمود فهمي، تاريخ اليونان، ص1.1

(2) روسي، المرجع السابق، ص14.

ويضيف الطبري: «فنزل بنو سام المجدل سرة الأرض، وهو ما بين ساتي دما (بالسريانية تعني وادي الدم) إلى البحر، وما بين اليمن إلى الشام، وجعل الله النبوة والكتاب والجمال والأدمة (السمرة) والبياض فيهم... ونزل بنو يافث الصفون مجرى الشمال والصَّبا، وفيهم الحمرة والشقرة، وأخلى الله أرضهم، وأشدّ بردها، فليس يجري فوقهم شيء من النجوم السبعة الجارية لأنهم صاروا تحت بنات نعش والجدي والفرقدين، فابتلوا بالطاعون»[1].

بعد هذا الإيضاح لأصول القبائل التي عرفت فيما بعد باسم «اليونان» صار في الإمكان الانتقال إلى المنطقة التي استقروا فيها في الشمال السوري والتي دعيت «يونيا».

يقول هيرودوت: «وهؤلاء اليونان المنسوب إليهم «البانيونيوم»* قد بنوا مدنهم في أجمل بقعة أعرفها باعتبار صفاء جوها وجودة هوائها. وبالحقيقة إن البلاد المحيطة ببلاد يونيا سواء من أسفلها أو أعلاها، شرقاً أو غرباً، بعيدة الشبه من يونيا نفسها، لأن بعض هذه البلاد عرضة للمطر ولابرد وبعضها لليبس والحر. وأما لغة يونيا فتحسب أربع لهجات. وأول بلدة لهم في جهة الجنوب هي مدينة ميليتوس وفريانا... ولهجتهما واحدة. ومدينة إفسوس وكولوفون وليبيدوس وطاوس وكلازوميني وفوقيا، وجميعها واقعة في ليديا، وأهلها يتكلمون بعضهم مع بعض بلهجة واحدة... وفيها أيضاً ثلاث مدن: اثنتان في جزيرتي ساقوس وصاموس، والثالثة التي يدعونها أريتريا واقعة على البر، ولهجة أهل ساقوس وأريتريا واحدة، ولأهل صاموس لهجة خاصة بهم، فهذه هي اللهجات الأربع المختلفة بها لغة اليونان»[2].

ويقول ديورانت: «كان يمتد إلى الشمال الغربي من كاريا مسافة تسعين ميلاً شريط ساحلي جبلي يختلف عرضه بين عشرين وثلاثين ميلاً، وهو المعروف في الزمن القديم باسم إيونيا... وكانت كثرة مدائنه عند مصاب الأنهار أو عند منتهى الطرق. وكانت هذه الأنهار والطرق تنقل البضائع مما وراءها من الإقليم إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ومنه تنقل على ظهور السفن إلى كافة الأنحاء»[3]. ومن أهم هذه المدن:

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء 1، ص144.

* الكلمة سريانية مؤلفة من «بوني» بمعنى: تعريس، تهنئة، تعييد، تجديد، و«إيونيوم» أي اليوناني. ومثلها «بوني أثينايا» عيد الأثينيين. وليست بمعنى «كل» كما فهموها واستخدموها مثل «بان أمريكان» أي كل الأمريكيين.

(2) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول 143، ص 77 – 78 .

(3) ديورانت، المرجع السابق، ص 247

ميليثـا:

كثيراً ما كان يطلق السوريون على مدنهم تسميات مأخوذة من الألقاب الكثيرة للأم السورية الكبرى عشتار ربة كوكب الزهرة، وربة الحب والخصب والجمال، وربة الكثرة والنسل وراعية الأمهات، والمعينة في الولادات، وحارسة المدن، والربة الفلاّحة، الزراعة، النسّاجة التي علمتهم الحياكة والغزل والنسيج والزراعة، وربة الحرب والموت والقيامة، وربة الزهر والربيع... ومن هذه التسميات الألقاب «ميليثا» وتعني المعينة، وهذه التسمية تستخدمها النساء التي تستجديها لأن ترزقها الحمْل والنسل، وعند الولادة لتعينها في تحمّل آلام المخاض. والكلمة مشتقة من «إيل» أو «إيلو» (الذي هو الله)، ويعني: المعين، الشفيع، المستعان.

يقول هيرودوت: «ثم مال الفرس إلى عبادة الزهرة السماوية، أخذوا ذلك عن الأشوريين والعرب، وكان الأشوريون يسمون الزهرة باسم «ميليثا» والعرب «إيليثا»[1]. ويقول ول ديورانت حين تأتي المرأة إلى معبد عشتار في يوم عشتار لتتوسل منها ولداً، يقترب منها الرجل، «وبعد أن يلقي القطعة الفضية يقول: أضرع إلى الإلهة ميليثا أن تعينك، ذلك أن الأشوريين كانوا يطلقون على الزهرة اسم ميليثا»[2].

لما كانت مدينة «ميليثا»، منذ عدة آلاف من السنين قبل أن توجد أثينا على الخارطة، سكاناً ولغة وثقافة وحضارة، جزءاً من الأرض السورية والدولة السورية، وأهم الثغور السورية للإشراف على الجزر والاتجار مع أوروبا وشواطئ البحر الأسود، فقد توفر لها من الرخاء والازدهار الاقتصادي ما لم يتوفر لغيرها، وهذا الازدهار نفسه هو الذي وفر أهم العوامل في تحويل وتشجيع عمليات استكشاف وارتياد المواطن الجديدة، ومن ثم بناء المستوطنات.

وحيث تتلاقى طرق التجارة السورية القادمة من البر والبحر، حاملة من دمشق وبابل وحلب وشبه جزيرة العرب أغلى وأنفس سلع ذلك الزمان، وتستقبل المعادن والحجارة الثمينة والفراء والكهرمان وغيرها، وحيث تتلاقى مثل هذه الطرق تتكاثف

(1) تاريخ هيرودوت، الكتاب الأول 131، ص73.
(2) ديورانت، الجزء الثاني من المجلد الأول، ص230.

الناس، ويتوافد أصحاب رؤوس الأموال والمطامح الكبرى البعيدة المدى، وتتلاقح الأفكار المتحررة من التقاليد المتزمتة في المدن الصغيرة المعزولة، فأثمر ذلك كله في أرض يونيا أو فريجيا، وفي مدينة ميليثا بوجه خاص، نهضة على مستوى آخر أيضاً، وأعني صعيد الفكر والفن والأدب. إن سوريي ميليثا تميزوا، ككل السوريين عبر تاريخهم الطويل، بالطموح، وحب ارتياد المجاهيل، والحركة الرافضة لأي ركود، والتكيف الحضاري المرن مع كل جديد. إن هذا كله، بالإضافة إلى ما وفره لها موقعها المميز، جعل منها بحق العتبة الحضارية التي أطلت بها ومنها سوريا القديمة على الغرب، والبوابة التي تدفقت منها حضارة السوريين المعلّمين «لينتشلوا أوروبا من براثن الهمجية» كما عبّر جيمس بريستد، ومر ذكره.

إن هذه الحقيقة ظلت لدى معظم المؤرخين في الغرب عسرة على الهضم منذ بدء عصر النهضة إلى اليوم. فأخذ بعضهم يفلّي صفحات تاريخ اليونان من أجل العثور على حادثة ما، ربما تصلح ذريعة لإيقاف علم التاريخ على رأسه، وتم العثور عليها في قصة مجموعة من صعاليك أثينا في الزمن المتأخر الذين هربوا إلى ضواحي ميليثا، وسطوا على بعض السكان، فقتلوا الرجال واغتصبوا النساء. إن تلك الحادثة، رغم هامشيتها وتفاهتها من وجهة النظر التاريخية، تحولت على أيدي المؤرخين في الغرب إلى الأساس الذي قامت عليه حضارة الغرب «بامتزاج ثقافتين أوروبيتين جراء امتزاج دماء الأهلين والوافدين». إنها اتحاد ثقافة أثينا وجزر إيجه[1]. هكذا تنسف كل الأسس التي يقوم عليها علم التاريخ بضربة قلم تعصبية واحدة! والأنكى من هذا أن «الأساتذة» العرب الذين أدمنوا على تعطيل العقل وتشغيل النقل، جعلوا من أنفسهم أدوات صماء لمدّ كل ذلك التزوير على ساحة العقل العربي في كل الجامعات ولعدة أجيال متعاقبة[2]. إنه حين ازدهار ميليثا وغيرها من مدن الشمال السوري الأخرى العريقة في القدم مثل طروادة، وصميرنا (إزمير الحالية) التي يقال إن عمرها ربما يواكب عمر دمشق نفسها، وطيلة زمن الدولة الأكادية والبابلية والآشورية حيث كانت هذه المدن جزءاً من الدولة... أعود فأقول: إنه حين نشأت تلك المدن، وعاشت فترة ازدهارها لم تكن «أتيكا» نفسها قد منحها السوريون هذا الاسم بعد.

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص247.

(2) انظر: محمود فهمي، تاريخ اليونان، ص74.

ثم إن الميليثيين ليسوا سلالة حفنة من المجرمين الذين جاؤوا من الغرب إلى الشرق ليقتلوا بعض الرجال، ويغتصبوا بعض النساء، ولينشئوا حضارة رائعة بلغ فيها الفكر والفن والأدب والتاريخ والفلسفة الأوج. ولم تكن «ميليثا» في يوم من الأيام قطعة مستقلة عن سوريا لتنشئ وحدها ثمانين مستعمرة! يقول ديورانت وينقل عنه غيره:

«فكان لميليثا وحدها ثمانون مستعمرة من هذه المستعمرات التجارية ستون منها في الشمال»[1]. إنها ـ كما أسلفنا ـ عتبة للانطلاق إلى الأمدية الرحبة في الغرب والشمال والجنوب، وليست كياناً مستقلاً تأثر بحضارة بابل ومصر كما يحب أولئك المؤرخون تسجيل رغباتهم لتكون هي التاريخ.

لقد أنجبت ميليثا المهندس والفيلسوف الموسوعي طاليس. وما من أحد ينكر شرف محتده السوري، وإن صعب على البعض الاعتراف بذلك يهربون إلى القول القابل للشك بأنه من أبوين فينيقيين. يقول ديورانت: «وأكبر الظن أنه ولد في ميليثا، وكان الدائر على ألسنة الناس أنه من أبوين فينيقيين، وتلقى معظم تعليمه في مصر والشرق الأدنى. وفيه يتمثل انتقال الثقافة من الشرق إلى الغرب... وتعزو إليه الروايات المتواترة كلها إدخال علوم الرياضيات والفلك إلى بلاد اليونان»[2]. كما أنجبت الكثيرين غيره أمثال تلميذه أنكسي مندر، وأنكسي مينا، والمؤرخ قدموس الذي كتب تاريخاً لميليثا وفقد، والمؤرخ يوجايون الذي كتب تاريخ صاموس، وأكسانتوس الذي كتب تاريخ ليديا، وهيقاتيو الذي كتب التاريخ والجغرافيا... وقد فقدت تلك المؤلفات أو أخفيت عن الأنظار.

لنتابع الآن مسيرتنا على الساحل، ولنتجه من ميليثا إلى الشمال. فعلى شاطئ خليج ميليثا الشمالي المتقدم كلسان في البحر تكثر منافذ المياه والأنهر والينابيع المتدفقة، فدعيت المنطقة «فروعيني» Priene، والتسمية سريانية جمع «فرعا» ويعني: منفذ، مدخل، مخرج، ثغر، فرع... فريعي د فجرو: منافذ البدن. وما تزال تسمية «فريعين» أو «بريعين» (لأن الفاء تلفظ P) تحتفظ بها قرى في الساحل السوري منذ ذلك الزمن إلى اليوم، وتعني: الكثيرة المخارج أو الينابيع.

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص248.

(2) المرجع نفسه، ص250 – 251.

يقول ديورانت:

«على شاطئ الخليج في مقابل ميليتا، بالقرب من منافذ نهر المياندر Maeandr كانت تقوم بلدة «ميوس» المتواضعة أشهر مدائن الفرييني Priene، وكان يسكنها في القرن السادس بياس Bias أحد الحكماء السبعة»[1].

إن «مياندر» يعني بالسريانية المياه المتدفقة. وإن «مايوس» تعني المياه، عين الماء. أما «بياس» فهو بالسريانية «بيا» ويعني: المعزّي، المواسي، مفرج الهم. وقد عبرت حكمه عن لقبه. فهو يقول: «إن أبأس الناس من لم يعرف كيف يصبر على البؤس» و«إن الحكمة يجب أن يعتز بها، وأن تكون وسيلة للانتقال من الشباب إلى الشيخوخة، لأنها أبقى من كل ما عداها مما يملكه الإنسان».

صاموس

وإلى الغرب من منطقة منافذ المياه «فريعيني» تقوم جزيرة صاموس تاركةً بينها وبين الرأس ممراً ضيقاً يصل خليج ميليتا من الجنوب بخليج إفسوس من الشمال، وكأنما هي الراصد والحارس لمدخل الخليجين. ومن هنا جاءت تسميتها «صامو». فهي في القاموس السرياني من الفعل «صم» و«صمى» ويعني: سدّ، صمّ، حفظ، حرس، رصد، راقب. مصامو: محفوظ، محروس، مراقب.

وتعتبر جزيرة «صامو» ثانية جزائر إيونيا في الاتساع. «وكانت حاضرتها تقوم على ساحلها الجنوبي الشرقي. وكان الإنسان إذا ما دخل مرفأها الأمين ماراً بالسفن الحمراء الذائعة الصيت التي يتألف منها أسطول الجزيرة، شاهد المدينة تقوم أمامه كأنها مشيدة من القرميد على سفح التل. وكان أول ما يشاهده الأرصفة والحوانيت، ثم يرى بعدئذ البيوت، ثم حصنها القائم على الربوة، ثم هيكل حيرا العظيم، ومن وراء هذه كلها سلاسل متتابعة من الجبال تعلو إلى خمسة آلاف قدم... ووصلت صاموس إلى أوج عظمتها في القرن السادس تحت حكم بوليقراتي*... الذي وضع خطة لإقامة منشآت عدة أثارت إعجاب هيرودوت. وكان أعظم مشروعاته نفق في جبل ينقل الماء إلى المدينة

(1) المرجع نفسه، ص258.

* بوليقراتي هي «بولو» وتعني بالسريانية أمير، و«قرت» وتعني المدينة، القرية، البلدة.

مسافة 4500 قدم. وفي وسعنا أن نستدل على مهارة اليونان في الرياضيات والهندسة إذا عرفنا أن الثقبين اللذين بدأا من اتجاهين متضادين التقيا في وسط النفق، وأن الخطأ في التقدير عند التقائهما لم يزد على ثمانية عشر قدماً في الاتجاه، وتسع أقدام في الارتفاع»[1]. إن مثل هذه الأعمال الهندسية المدهشة في ذلك الزمن كانت مقتصرة على السوريين وحدهم في كل مواقع تواجدهم الدائم وليس الموقت. والدليل أن شبه جزيرة المورة نفسها لم تشهد في تاريخها أي عمل مماثل. والطريف أن جميع الشخصيات التي اشتهرت بها «صاموس» حملوا لقب «المغترب» فإما أنه جاء إليها غريباً أو متغرباً، أو أنه خرج منها ليتغرب في مواقع التواجد السوري الأخرى.

ومن أشهر هؤلاء فيثاجورا (فيثاغورس) الذي ولد في صاموس، لكنه غادرها ليتلقى علومه في سوريا، ثم عاد إليها، ثم غادرها إلى كروتونا (= الخضراء بالسريانية) المستوطنة السورية في إيطاليا. ولقبه «فيتاجورا» يعني بالسريانية كثير الاغتراب والتنقل. ومنهم «تيودورو» Theodoro، وهو في الأصل السرياني «حودورو» ويعني: الدوار، الطواف، الكثير التنقل، من الفعل «حدر» والتاء للتعريف، وقد سقطت الحاء كالعادة. نقل إلى صاموس العلوم وكثيراً من الصناعات والحرف مثل زاوية النجار، وميزان الماء، والمخرطة، والحفر على الجواهر. وكان مثالاً ومهندساً معمارياً فذاً، اشترك في تصميم المعبد الثاني لأرتميس في أفسوس، وأسهم في نقل صناعة صب البرونز المجوف من سوريا إلى هناك مع الفنان السوري المغترب «رحيقو». إن إحدى ميزات ول ديورانت هو أنه ينقل لنا تلك الألقاب كما هي في الأصل اللاتيني، فنتعرف من خلال ذلك على أصول أصواتها في اللغة الأصلية لأصحابها التي هي السريانية. وليس يهملها كما يفعل النقلة العرب.

إن ديورانت يقول: «لقد شارك Theodorus ريكوس Rhecus شرف إدخال صناعة صب البرونز المجوف من مصر أو من آشور إلى ساموس»[2]. فنبهنا حالاً على أن الـ h بعد حرف R ليست إلا تحويراً لصوت الحاء. والاسم حقيقةً في الأصل السرياني هو «رحيقو» ويعني: المبتعد، الغائب، المغترب، وهو من الفعل «رحقْ» ويعني: رحق، ابتعد، نأى، غاب، تغرب.

---

(1) المرجع نفسه، ص259 - 260.

(2) ديورانت، المرجع نفسه، ص261.

إفسوس:

وهي في الأصل السرياني «أفصو» و«أفصوث» وتعني: الخلاص، النجاة، كما تعني المخلّص والمخلّصة، وهي من الفعل «فصا» أي: أنقذ، خلّص، حكم، قضى، و«فيصو»: سلام، نجاة، التي جاءت منها كلمة Peace. كما تعني: الحصّة والقرعة.

إن «أفسوس» هي في المحصلة دار السلام، حيث فيها هيكل الربة الكلية القدرة «أرتميس» المخلّصة، الحاكمة، الديّانة، الذي اعتبر قديماً من عجائب الدنيا السبع. واسم «أرتاميص» هو في الأصل السرياني «حرتا» وتعني السيدة، الربة، الحرّة، الشريفة، بنت الحسب، البطلة... ومثلها «حيرا» اسم زوجة زيوس. والمذكر «حيرو» التي جاءت منها «هيرو» بمعنى بطل بالإنكليزية، her بمعنى السيد بالألمانية. والكلمة الثانية في الاسم هي «ميسي» وتعني المخلّصة، المنقذة. والكلمة من الفعل السرياني «آسى» ويعني: آسى، داوى، خلّص، أنقذ، ومويسي تعني: المخلّص، المنقذ. وقد ارتبطت في مصر بالرب «رع» (أي الراعي) في رعمسيس، أي رع المخلّص، ومع تحوت في تحوتمس، أي تحوت هو المخلص، وإن «آسيا» تعني المخلّصة، وهو أحد ألقاب عشتار. إنها إحدى تجليات عشتار في عقيدة السوريين، وقد بعث مولدها مع أبوللو في جزيرة ديلوس.

يقول ديورانت: «وعلى الجانب الثاني المقابل لساموس من خليج كايسترا كانت تقوم أفسوس أشهر مدائن إيونيا. وقد أنشأها حوالي 1000 ق.م. مستعمرون من أثينا. وكان اجتماع تجارة نهري كايشتر ومايااندر سبباً في رخاء المدينة. وكان في أصلها، وفي دينها، وفي فنها عنصر شرقي واضح. وكانت أرتميز التي تعبد فيها من بداية أمرها إلى نهايته إلهة شرقية للأمومة والخصوبة»[1].

يصرّ ديورانت هنا على قلب الحقائق! فأية أثينا كانت في القرن العاشر لتنشئ مستعمرة هي أقدم وأكبر وأعظم من أثينا بآلاف المرات! أية أثينا تلك التي كان «المسرح يتسع لجميع سكانها في القرن الخامس» و«يستمعون جميعاً إلى سقراط في موضع واحد» ويتمكن رجل واحد هو بيزاستراتوس بخمسين رجلاً مسلحين بالعصي من أن يستولي عليها ويحكمها مرتين في القرن الخامس قبل الميلاد لا العاشر! وأي تناقض هذا مع قوله إن كل ما فيها شرقي من بداية أمرها إلى نهايته!

(1) المرجع نفسه، ص261.

أما تسمية النهرين فقد كنا شرحنا معنى «مياندر» (المياه المتدفقة)، وتسمية نهر «كايستر» الذي نقله ديورانت بصيغتين كايستر، وكايشتر، فهو مؤلف من كلمتين «قوي» وتعني: قوة، طاقة، وأشتار أو عشتار، فهو قوة عشتار، وذلك لقوته وغزارة مياهه.

وكانوا قد أطلقوا على نهر الدانوب هذه التسمية أيضاً «نهر عشتار» وأقاموا مدينة عند مصبه دعوها «عشتار».

لم تشتهر أفسوس بهيكلها البديع فقط وإنما بما أنجبته من أدباء وشعراء وفلاسفة، نذكر منهم:

الشاعر قلنيو: أول من عرف من شعراء المراثي عند اليونانيين. ولقبه يدل عليه. إن «قلنيو» في القاموس السرياني تعني: الكدر، المحزون. والشاعر هيبوناك: الشهير بهجائه اللاذع، «ألّف 550 قصيدة قبيحة في موضوعها، غامضة في ألفاظها، لاذعة في فكاهتها، دقيقة في وزنها الشعري جعلت بلاد اليونان كلها تتحدث عنه، وأفسوس كلها تحقد عليه... قال في المرأة: إن المرأة تسبب السعادة للرجل في يومين، أحدهما يوم يتزوجها، والثاني يوم يدفنها. وكان هجّاءً قاسياً، هجا كل عظيم في أفسوس ولم يسلم أحد من أذاه من أحقر المجرمين إلى أعظم كهنة الهيكل[1].

أما لقبه فهو سوري سرياني ويعني فارس الهجاء. إذ أن «هيبو» هي في القاموس السرياني «حيفو» وتعني: فارس، نخوة، حدّة... و«ناكو» أذى، خصومة، ضرر.

وكان أعظم أبناء أفسوس هيروقليط المفكر والفيلسوف الذي ترك بصمات أفكاره على فلاسفة أوروبا إبان النهضة وبعدها أمثال برجسون، ودارون، وسبنسر، ونيتشه، وغيرهم.

قلعوفون (كولوفون)

«تقوم كولوفون على مسيرة بضعة أميال من أفسوس، ولعل اسمها مأخوذ من اسم التل الذي تقوم على جانبه. وقد ولد فيها الشاعر «زينوفاني». «وقد وصف مواطنيه بأنهم يلبسون الثياب الأرجوانية الفاخرة، ويعجبون بشعورهم المصففة المضمخة بالزيوت العطرة الغالية»[2] ومنها الشاعر «محوريو» الذي شغف حباً بالفتاة «نانّو» التي كانت توقع أغانيه على نغمات الناي الحزينة، ولم تستجب لحبه، وقد علّلت ذلك بالقول: إن الشاعر إذا تزوج مات وانتهى.

(1) المرجع نفسه، ص262.
(2) المرجع نفسه، ص270.

إن «كولوفون» هي في الأصل السرياني «قلعوفون» وتعني القلعة العالية، المطلة. إذ «قلعو» و«قلعتو» تعني قلعة *كما تعني: مقلاع، منجنيق. و«فون» تعني هنا: العالي، المطل، المشرف.*

وإن «زينوفاني» تعني الشاعر العائد. إذ «زينو» من الفعل زين: نمّق، صنف، نسق، نظم القول. و«فون» تعني: العائد، الراجع، ، الارتداد، الصدى، المطل، المشرف، العالي.

وإن «محوريو» Memeorium تعني الشاعر. وهي في القاموس السرياني من الفعل «محر» ويعني: شعر، ألف أشعاراً، هندس، مسح الأرض، حدس، خمن. محورو: شاعر، وأحد الشعراء.

محرو: شعر، وأحد الأشعار.

ومن أبنائها النابغين الشاعر أنكريون الذي نعتبره بحق «أبا نواس» ذلك العصر.

واللقب «أنكريون» تعني: المغترب الكثير الأسفار. وهو في القاموس السرياني من الفعل «نكري» ويعني: غرّب، أبعد، نفى، تغرّب، ابتعد. نوكريو: غريب، مغترب، مخالف، بعيد، محروم، خال، بريء. نوكريوت: غربة، مغترب، نزاهة...

يقول ديورانت: «كان هذا الشاعر كثير الأسفار... وقد دعاه كثير من الملوك ليعيش في بلاطهم، لأنه لم يكن ينافسه في بعد الصيت أحد من معاصريه إلا سمنيدس وحده. ونراه منضماً إلى جماعة من المهاجرين إلى أبديرا في طراقيا... ثم يقضي بضع سنين في بلاط بولي قرات في صاموس. وجيء به من هناك في موكب رسمي فخم ليزدان به قصر هيباركس في أثينا. ثم عاد آخر الأمر إلى تثوس بعد الحرب الفارسية ليخفف عن نفسه عناء الشيخوخة والعنف بالغناء والشراب...». كانت موضوعات شعره هي الخمر والنساء والغلمان... وقد كتب على قبريته بعد موته: «الشجرة الساحرة، يا أم الخمر، يا كرمة، أينعي وامتدي فوق قبر أنكريون حتى يستطيع الصاحب الثمل صديق الشراب الصافي، الذي كان يقضي الليل الطويل يقصف ويطرب وينشد على نغمات العود أغاني حب الغلمان، حتى يستطيع ذلك الصاحب الثمل أن يعبث بما فوق رأسه المدفون من عناقيد غصن مليء مثقل، وحتى لا ينفك يبتل برضاب الندى الذي لم يكن شذاه الذكي إلا أنفاساً تخرج من فمه الرقيق حين كبر»[1].

---

(1) المرجع نفسه، ص270 - 272.

جزيرة خيوس Chios:

هي في الأصل السرياني «حيو» وتعني: الحي، الخمرة الصرفة، غير الممزوجة، الصافي، الجاري كالماء، الغزير...

«تمتد أرض إيونيا الأصلية من تئوس نحو الغرب في خلجان ونتوءات أرضية متتالية. حتى إذا قطع المسافر في البحر عشرة أميال وصل إلى «خيوس». وليس بعيداً أن يكون هومر قد قضى شبابه في هذه الجزيرة بين غياض التين والزيتون والكروم الأنكريونية (نسبة إلى الشاعر أنكريون). وكان عصر الخمر من الصناعات الكبرى فيها وكان يشتغل به عدد كبير من الرقيق»[1].

مرة أخرى، وكما عودنا السوريون، إنه اسم على مسمّى.

لنتابع رحلتنا على تعرجات ذلك الساحل، ولنتمتع باكتشاف سحر اللغز الذي خلفه السوريون من خلال التسميات التي أطلقوها على كل موقع ومنعرج بما يعبّر عنه وبصورة تأخذ باللب!.

يقول ديورانت:

«وإذا عاد المسافر بعدئذ (من جزيرة خيوس) إلى أرض اليونان الأصلية مرّ بمواقع إريتريا Erythra وكلوزوميناي Clozomenae مسقط رأس انكسوجورا معلم بركليس وصديقه. وبعدها من جهة الشرق على خليج صغير أمين تقع مدينة أزمير التي استقر فيها الإيوليون من زمان بعيد... وكانت مدينة واسعة الشهرة في أيام أخيل، وتنافس أزمير دمشق في قدم عهدها وطول حياتها... وقد كشف في أرضها عن ملعب رياضي، وقلعة، ومضمار للسباق، ودار للتمثيل. وكانت طرقاتها واسعة جيدة الرصف تزينها الهياكل والقصور، وكان شارعها الرئيسي المعروف بالذهبي، مشهوراً ذائع الصيت في بلاد اليونان بأجمعها»[2].

يلاحظ القارئ كيف أن ديورانت هنا يتخلّى عن مثل تلك المزاعم حول قدوم جماعات من بلاد المورة لتؤسس هذه «المستعمرات» بعد أن دحض قدمها الموغل مثل تلك الترّهات.

---

(1) المرجع نفسه، ص 273 .

(2) المرجع نفسه.

إن من ينظر إلى الخارطة يرى قطعة كبيرة من البر تمتد من الجنوب إلى الشمال شرق جزيرة «خيوس»، ولتحجز من خلفها في الشرق خليجاً متطاولاً يمتد من الشمال إلى الجنوب، وقد صار محمياً من الأمواج بحاجزين متتاليين هما ذاك النتوء البري وجزيرة حيوس. وقد عودنا قدامى السوريين على أن يطلقوا على مثل هذه الخلجان المتطاولة اسم «أرتريا» والتي هي في القاموس السرياني «أرطريا» وتعني: المريء، مريء البلعوم والحنجرة. هكذا كان اسم الخليج العربي كما ذكر هيرودوت، وهكذا دعوا خليج «عوبيا» في المورة. وهكذا دعوا مدخل هذا الخليج.

أما «كلوزوميني» فهي في الأصل السوري السرياني «قلوزو مينا» وتعني قفل الميناء، مفتاح الميناء. إن «قلوزو» في القاموس السرياني تعني: مغلاق، وقيل مفتاح أو حلقة الباب. وما تزال كلمة «قلاووز» تستخدم في سوريا بهذا المعنى إلى اليوم. أما «مينا» و«منعا» فتعني الميناء. وقد استخدمت هنا بالجمع «قلوزوميناي» لتعني السكان، أي المتحكمين بمدخل الميناء الذي هو أزمير.

«صميرنا»:

أما «أزمير» فهو التحريف عن الأصل السوري «صميرنا» الذي ذكرها به هيرودوت. يقول الدكتور فوزي مكاوي نقلاً عن غيره: «سميرنا Smyrne هي مدينة إزمير الحالية في تركيا. استقر فيها الإيوليون أولاً، لكن الإيونيين نجحوا في ضمها إليهم بعد ذلك. كانت واسعة الشهرة أيام حصار طروادة... وتعرضت للتخريب عدة مرات خلال تاريخها الطويل»[1].

أما اسمها السوري الأصيل فهو «صميرنا». وهو في القاموس السرياني من الفعل «صمر» ويعني: سكن، وقف دون حركة، صمر، حرَّ النهار، سكنت ريحه، اجتمع، سكن، ركد، احتبس الماء، دار. صميرو: صامر، ساكن دون حركة، حارّ، راكد الريح، مجتمع، محتبس، غرقان، غائص.

إن هذه الكلمة لا يوجد لها مثيل في أية لغة أخرى للتعبير عن الموقع على المياه الساكنة، المحبوسة، المحمية من الأمواج والرياح البحرية، مما يزيد في حرارة المكان أيضاً. ومن هذه الكلمة السريانية جاءت كلمة Summer الإنكليزية للتعبير عن الصيف بسكون رياحه وشدة حرّه.

(1) فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته، ص58.

فوقيا Fokia:

«وكانت أبعد المدن اليونانية شمالاً مدينة فوقية Phocaea، ولا تزال قائمة إلى اليوم، يطلق عليها اسم فوقية Fokia، وكان نهر هرمس يكاد يصلها بسرديس نفسها، فأكسبها هذا الاتصال مزية عظيمة في تجارة اليونان مع ليديا. وكان التجار الفوقيون يسافرون أسفاراً بعيدة بحثاً عن الأسواق، وهم الذين حملوا الثقافة اليونانية إلى كورسيكا وأسسوا مرسيليا»[1].

ويقول الدكتور فوزي مكاوي نقلاً عن غيره:

«حاول أهل فوقايا الدخول إلى مناطق غرب البحر الأبيض المتوسط... وقد نجحوا في إنشاء مرسيليا عند مصب نهر الرون... وألاليا في سردينيا»[2].

إن اسم «فوقايا» أو «فوقية» لا تحتاج إلى شرح وهي تعني العالية، التي فوق. والطريف أنهم حين إنشائهم في سردينيا في غرب المتوسط مستوطنتهم الجديدة دعوها «العالية» ألاليا Alalia. وحين أسسوا المرفأ في جنوب فرنسا عند مصب نهر الرون دعوه «مرسى العالية»، مرسيليا.

تلك هي مدن إيونيا، وقد تكشفت حقيقتها العربية بعيداً عن ركام التزوير التعصبي الذي نجح إلى اليوم في فصمها عن الوشائج السكانية والثقافية والحضارية التي ظلت تربطها برحمها الأم سوريا طيلة العصور القديمة والعصر الوسيط..

إيوليــا

نسبة إلى إيولو حفيد حيلان بن يافث بن نوح. فهم إذن يافثيون، وسوريون، لغتهم السريانية. و«إيولو» تعني: المعين، المغيث.

استقروا في أعلى مدن إيونيا الاثنتي عشرة في اثنتي عشر مدينة أيضاً. فهم واليونان (الايونيون) أبناء عمومة. ونلاحظ أن التوزع إلى 12 عشيرة أو سبط تقليد عربي قديم، فأبناء اسماعيل بن ابراهيم توزعوا إلى اثني عشر سبطاً، وأبناء يعقوب كذلك، وأبناء مازن (الغسّانيون) إثنا عشر سبطاً... وسنرى هذا التوزع نفسه في أثينا فيما بعد.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص274.

(2) مكاوي، المرجع السابق، ص10.1 و: تاريخ هيرودوت الشهير، المرجع السابق، الكتاب الأول، ص86.

لسبوس

كانت جزيرة «لسبوس» أهم موقع في إيوليا. وهي تأتي بعد كريت مباشرة من حيث الاتساع وتوفر الشروط الملائمة للاستقرار الدائم. فقد «كانت تربة أرضها البركانية قد جعلتها جنة حقيقية من البساتين والكروم»[1]. ومن هنا جاءت تسميتها السريانية التي تعني الخصيبة. وهي في القاموس السرياني من الفعل «سْبِس» Sbes ويعني: وفَر، أخصب، كثّر، ملأ، أترع. سبيسوت: خصب، غزارة، وفرة... لهذا فإن لقب «الكاهن» الذي يعني بالسريانية المخصب، كثيراً ما كانت تحل محلها صيغة «سباسيان»، وهو اسم كبير الكهنة في معبد الشمس في حمص، أبي الإمبراطورة السورية جوليا دومنا. وهكذا فإن «لسبوس» يعني الخصيبة، واللام أداة التعريف العربية الشهيرة. ومن الكلمة جاء اسم ملكة وادي النيل «حت سبست» وتُقرأ: «حيتو سبسوت» أي راهبة الخصب بالسريانية.

كان في جزيرة لسبوس خمس مدن للإيوليين، أكبرها وأهمها «مطلونا» وتعني المظلّلة، الندية، الرطبة، كثيرة الفيء والشجر، الفيحاء. وهي في القاموس السرياني من الفعل «طل» أي: ظلّل، ستر، أورف، ندّى، رطبّ... وكانت تجارة مطلوني Metelone سبباً رئيسياً في ثرائها العظيم الذي لا يكاد يقل عن ثراء ميليثا، وصاموس، وإفصوس.

وإلى جانب ما تمتعت به «لسبوس» من شهرة واسعة بخصوبة أرضها وثراء تجارتها، فقد منحتها إحدى بناتها شهرة أعظم. إنها **الشاعرة «أف سفّو»** أعظم شاعرة عرفها التاريخ القديم للبشرية كلها.

ولدت **«فسافّو» Psapho**، كما كانت تسمى نفسها بلهجتها الإيولية الرقيقة، في «عريسوس» من أعمال لسبوس حوالي 612 ق.م. ولكن أسرتها انتقلت إلى «مطوليني» وهي لا تزال في المهد. وكانت في عام 593 بين الأشراف الذين ائتمروا بـ «فيطاحوش»* ونفاهم إلى مدينة «فورتا» ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن في الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة وبقول الشعر... ثم نفاها مرة ثانية إلى صقلية... وهي في سن يكاد الإنسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع أن تؤذي إنساناً. تزوجت من تاجر ثري اسمه أندروس وأنجبت بنتاً دعتها «كليث» Cleis...

---

(1) المرجع نفسه، ص.276.

* فيطاحوش كلمة سريانية تعني الأمير.

كانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن تموت... وحدث مرة في مجلس شراب أن أخذ ابن أخي صولون يغني أغنية من أغاني «سفّو»، أعجب بها عمه (صولون) إعجاباً لم يسعه معه إلا أن يأمر الغلام أن يعلمه إياها. ولما سأله أحد الحاضرين لمَ يطلب هذا الطلب؟ أجاب: إني أريد أن أتعلمها ثم أموت. وكان سقراط يسميها «الجميلة»، وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها:

يقولون إن ربات الشعر تسع، ألاما أكثر غباءهم

فليعلموا أن سفّو اللسبوسية هي العاشرة!

«ويقول سترابون: «كانت سفّو امرأة فذة عجيبة، لأني لا أعرف أن قد وُجدت في جميع العصور التي وصل إلينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سفّو من النبوغ في قرض الشعر». وكما أن الأقدمين إذا ذكروا لفظ «الشاعر» فإنما يعنون به هومر، كذلك كان العالم اليوناني كله إذا نطق أمامهم أحد بلفظ «الشاعرة» فهموا من فورهم المقصود بهذا الاسم.

«لم تشتهر سفّو بجمالها، فقد كانت صغيرة الجسم، ضعيفة البنية، وكان شعرها وعيناها وبشرتها أكثر سواداً مما يحبه اليونان. ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها، ورقتها، ودماثة أخلاقها، وحصافة عقلها... وكانت ذات عواطف جياشة، وألفاظها، كما يقول بلوطارخ: كانت تمتزج باللهب»[1].

إن ما تقدم من وصف للشاعرة هو الذي كشف لنا سبب اشتهارها بهذا اللقب «أف سفّوو» الذي كانت تصرّ عليه، ويعني بلغتها السريانية: الوجه المشتعل. إن «أف» تعني في القاموس السرياني أنف، وجه، صورة. و«سفّو» من الفعل «سِف» ويعني: التهب، اتقد، اضطرم، اشتعل، فني...

أما اسم ابنتها «كليث» فتعني في القاموس السرياني: الزهرة، زهرة شقائق النعمان، ومثلها «كليثا» و«كلثا» و«كلثوم». وقد كتبت عن ابنتها شعراً تقول:

---

(1) المرجع نفسه، ص277 – 279.

«لي ابنة صغيرة شبيهة بالزهرة الذهبية هي كليث قرة عيني. إنني لا أفرط فيها ولو أعطيت ليديا كلها أولسبوس الحبيبة»[1].

أنشأت مدرسة للفتيات تعلمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص، كانت أولى مدارس صقل الفتيات في التاريخ كله[2]. ولم تكن تسمّي الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسميهن «حتيراي» Hertirai وتعني الراغدات*. وهي في القاموس السرياني من الفعل «حتر» ويعني: خطر، تكبر، زها، تدلّل، تنعّم، ترفّه، رغد. «حيترا»: متكبر، متدلل، متنعم، مرفّه...

تنــدو :

وإذا ما صعدنا من جزيرة لسبوس بمحاذاة الشاطئ شمالاً بلغنا جزيرة صغيرة قيل إنها كثيراً ما تصاب بهزات هي جزيرة تندوس. وقد لحقت بها هذه التسمية نتيجة لما أصابها من هزات قبل استقرارها مثل جزيرة ديلوس. إن «تندو» تسمية سريانية وتعني: المهتزة، المتحركة، الميّادة. وهي من الفعل «ند» أي: اهتز، ماد، تحرك، والتاء للتعريف.

أبيـدوس:

وإذا ما انعطفنا في مدخل مضيق الدردنيل وإلى الشمال من مدينة طروادة التقينا بمدينة أبيدو التي أسسها الميليثيون للإشراف على المضيق من شاطئه الجنوبي[3]، ولا تزال قائمة إلى اليوم. وإلى شرق هذه البلدة أسس الفوقيون بلدة «لامفاقوس» Lampacus مسقط رأس أبيقور. وإذا ما علمنا أن «أبيدو» تعني الصنم، التمثال، وهي المدينة المقدسة في حضارة سومر ووادي النيل أيضاً، علمنا ما يعنيه تكرار هذه التسمية في مواقع انتشار السوريين.

أما «لامفاقو» فهي في القاموس السرياني «مفاقو» وتعني: مخرج، منفذ، مطلع، باب، خلاص، مهرب، نجاة، واللام للتعريف. وعند فتحة المضيق «فرعو فونط» (فرو فونطوس) نلتقي بمجموعتين من الجزر، أولاهما المجموعة الفوقانية Phoconne الغنية بالرخام والتي أكسبت المكان اسمه «بحر مرمرة» أي بحر المرمر أو الرخام، وثانيتهما مجموعة «حرقطوني»، والتسمية تعني بالسريانية: الخرّاطة، المزّاحة، المضحكة، و«محرقطونو»: مزّاح، مضحك، وقد وصفها بّحارة الـ «أرجو» بأنها تقترب من بعضها عند اقتراب السفينة لتحاصرها في «مزح ثقيل»!.

---

(1) المرجع نفسه، ص279.

(2) المرجع نفسه، ص280.

* يترجم ديورانت هذه الكلمة السريانية خطأ بالرفيقات.

(3) المرجع نفسه، ص284.

وفي أقصى طرفها الجنوبي أنشأ السوريون ثغر قوزيقو العظيم. والكلمة في السريانية تعني: القدح، الكأس. ومنه، وعلى طول الشاطئ الجنوبي أنشأوا مدينة في إثر مدينة، منحوا بعضاً منها أسماء مدنهم الأم في سوريا مثل حمص، وأفاميا، واللاذقية (أوديسا) ونسخوا أسماء بعضها الآخر إلى المدن التي أنشأوها فيما بعد في صقلية وجنوب إيطاليا.

فبعد ثغر قوزيقو أنشأوا «فانورمو» Panormo وتعني بالسريانية المِطَلّ العالي، ودسكيليوم Dascylium وتعني المعلّم، والدال للتعريف. وقد نقلت التسمية إلى جزيرة صقلية، كما نقلت معها تسمية «بانورمو» إلى المدينة الصقلية والتي تحولت مع الزمن إلى «بالرمو» وتعج بالآثار السورية إلى اليوم. وبعدها تأتي مدينة أفاميا Apamia على اسم أفاميا السورية الشهيرة. وهي في الأصل «أفحاميا» أي المثيلة، النظيرة، الربة، وهي من أسماء عشتار... ثم تأتي مدينة «حلقيدوني» Chalcedone وتعني: فأل أو حصة الرب أدونيس. ثم تقدموا مجتازين مضيق البوسفور، وأنشأوا «حروصوبولي» أي ذهب الأمراء (أشقودار الحالية)، و«نيقوبولي» (تضحية الأمراء)، إذ أن «نوقي» تعني: أضحية، ذبيحة، نعجة، خمر، تقدمة. و«بولي» جمع «بول» أي أمير، وليس مدينة كما افترضوا. وهناك كانوا يجتمعون ويقدمون الأضحيات قبل اقتحام البحر الأسود. ثم شقوا طريقهم على طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود، وأقاموا وأنشأوا مدن: هرقليا، وفنتيقا (أي الفندق، النزل)، وتونوم (أي مخزن المؤونة، ومثلها تونس). وصينوفي Sinope وتعني بالسريانية: حاشية الثوب، زينته، طرفه، كما تعني التاج والعمامة، ويصفها استرابون بأنها مدينة مزدانة بأفخم زينة. بها ملعب رياضي عظيم، وساحة كبرى، وأروقة مظللة ذات عمد، على طراز المدن السورية العريقة، وقد ولد فيها الفيلسوف السوري ديوجين الكلبي. ثم تليها مدينة «حمص» Amisus وطرابلس Tripoli وتعني نبيذ الأمراء، خمر الأمراء، وليس «المدينة المثلثة» ثم مدينة طرابيزا Trapezus (وتعني المائدة)، والتي صاح فيها رجال اكسينوفون (أكسينو = الغريب، البعيد، وفون = العائد) العشرة آلاف «تلاسا، تلاسا!» من فرط فرحهم حين شاهدوا البحر بعد هروبهم من جيش داريوس الذي كان قد جندهم قسراً لقتال إخوتهم السوريين.

و«تلاسا» بالسريانية تعني البحر. وبعد ذلك اتجه السوريون شمالاً بإزاء الساحل الشرقي لبحر اليوكسين[1]. هكذا دعا السوريون البحر الأسود. والتسمية في الأصل السرياني هي «أكسنيو» وتعني: غربة، عزلة، منفى، ضيافة، والفعل «أكسنْ»: نفى، طرد، عزل، أبعد. و«كسينو»: سرّي، خفي، داخلي.

ووصلوا إلى «كلحي» Calchis حيث وصل بحارة سفينة الـ «أرجو» وحيث اختطف جاسون ميديا ابنة ملكها.و التسمية «كلحي» تعني الكالحين، العابسين، السود. وتل كلخ في سورية يعني تل، الكالح، الأسود لسواد حجارته البركانية. أما «ميديا» فتعني بالسريانية: المعينة، المنقذة، المخلصة. وهي من الفعل «إيد»: أي أعان، مدّ يد العون، أنقذ، خلّص، هرّب. وهذا ما فعلته «ميديا» بالفعل. وتخليداً للحادثة أنشأ السوريون هناك مدينة ودعوها «فاصي» Phasis أي الناجين، السالمين. ومدينة «ديو سكوريس»، وتعني تسميتها السريانية جنيّ الرصد. إذ أن «ديو» في القاموس السرياني تعني: جنّي، شيطان. و«سكورا»: رصد، منع، إغلاق. وبعدها تأتي مدينة «تيودوسيا» Theodosia، وقد نقل ديورانت تسميتها باللاتينية هكذا، وهذا دليل على أن صوت S فيها أصيل، ولو كان صوتاً حلقياً لتحول إلى C قبل i. والسين اللاتينية إما هو سين سريانية أو صاد أو ثاء. لأن السريان، ككل العرب، كثيراً ما يلفظون الثاء سيناً مثل «سعلب» و«ثعلب». وهكذا فإن الأصل السرياني للكلمة هو «تودوثيو» وتعني في القاموس السرياني: الحمد، الشكر. وكأن أولئك السوريين الروّاد قد اطمأنوا أخيراً إلى سلامة مساعيهم، فتوقفوا في تلك المحطة ليقدموا الشكر للآلهة وليجعلوا منها محطة استراحة. والدليل المتمّم لهذه الحقيقة أنهم سمّوا المدينة التالية التي أنشأوها في تلك المنطقة، وهي منطقة شبه جزيرة القرم، «فنتيقا فايوم» Pantica paium وتعني بالسريانية: الفندق أو النزل الجميل. وكانوا قد أسسوا على الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود مدينة دعوها «فنتيقا»، فهي السفلى وهذه «فنتيقا» أخرى على الشاطئ الشمالي. وكنا قد شرحنا معنى «فنتيقا» أي فندق، و«فايو» تعني الجميل.

(1) المرجع نفسه، ص285.

أما شبه جزيرة القرم فهي تمتد من سقف البحر الأسود في شاطئه الشمالي، وتتدلى كما تتدلى اللهاة عند قرمة اللسان، وتغطي وتحجب ما وراءها من شواطئ بحر أزوف. وهي في القاموس السرياني «قريم» وتعني: قرام، غطاء، حجاب، قرمية، عقدة أصل اللسان. وهي التسمية التي حوفظ عليها حتى في اللغة الروسية الحديثة إلى اليوم Krim. ثم تقدموا على طول الشاطئ الشمالي المتعرج نحو الغرب، وأنشأوا عند مصب نهر البوج والدونيستر مدينة «حلبيا» Olbia استنساخاً لمدينة حلب السورية (وهي نيقولايف الحالية)، ومدينة «تورا» Tura عند مصب نهر الدنيستر، وتعني «الباب». إذ أن «تورا» و«تيورا» في القاموس السرياني تعني الباب. ومنها جاءت كلمة Door الإنكليزية بمعنى الباب.

والطريف هو أنه كما تقع مدينة «الباب» قرب حلب السورية وملاصقة لها، هكذا جعلت «تورا» (الباب) ملاصقة لمدينة «حلبيا» أي الحلبية هنا. وتجدر الإشارة إلى أن السوريين كانوا أول من أطلق على تلك الأنهار أسماءها الباقية إلى هذا اليوم. إن «دون» و«ديون» بالسريانية هو الرب الحاكم، الدّيان. ومؤنثه دونيتا. وهكذا فإن نهر الـ «دون» والـ«دونيتز» دعيا باسم الرب والربة. وإن «دونيستر» تعني: ربي استر، أو الرب الستّار أو الربة عشتار. وإن الـ «دنيبر» Deneper تعني ربي أكثر، أو رب الوفرة والكثرة والخصب إذ هي من الفعل «فري» أي: أخصب، وفّر، كثّر.

ومن هناك ينحدر الشاطئ الغربي نحو الجنوب وعند مصب نهر عشتار (الدانوب فيما بعد) أنشأوا مدينة «تروي اصمي» Troesmist ومدينة عشتار Istras. أما التسمية الأولى فهي في الأصل السرياني «ترعي أصمي» وتعني بوابة الحراسة، أو الحارسة. وربما يقصد بها الربة الحارسة للمدن التي هي عشتار. ويؤكد ذلك تسمية المدينة والنهر باسمها. فقد دعي النهر أولاً نهر عشتار، ثم أطلقوا عليه نهر «طيطا» أي الحية، ثم نهر الدانوب. والدانوب في القاموس السرياني يعني الحية أيضاً، ومجموعة كواكب في السماء تشبه الحية. ومدينة عشتار هي مدينة قنسطنطا الرومانية الحالية. ثم أنشأوا مدينة «تومي» وتعني في القاموس السرياني: التوائم، التوأمين، والتوأمان هما أبولو وأرتميس. وهي المدينة التي نفي إليها الكاتب السوري ـ الروماني، أوويد (أوفيد) بعد كتابه «التحولات» وفضحه أنساب «الألهة» بأنهم أبناء سوريون... ومات فيها. ثم أنشأوا مدينة

«الأوديسا» وهي في الأصل السرياني «ألادقيا» والقاف تحولت قبل الياء باللاتينية إلى C، وتعني: الربة الحارسة، المقدامة، وهي مدينة «فارنا» الحالية في بلغاريا. ثم مدينة «أبولونيا» على اسم أبولون (وهي برجاس الحالية). يقول ديورانت: «وإن الرحالة الذي يدرك طول الأعصر التاريخية ليذهله قدم هذه المدائن التي لا تزال باقية إلى الآن»[1].

وأخيراً أغلقوا حوض البحر الأسود على مضيق البوسفور من حيث دخلوه، وأنشأوا على شاطئه الأوروبي مدينة «بزانتيوم» Bizantium، وهي في القاموس السرياني مؤلفة من كلمتين «بزا» Beza وتعني: بزّ، ثدي، حلمة، رأس الثدي. وأنتيو Antio وتعني: الناتئ، البارز، الناهد، الكبير... فيكون معنى المدينة حلمة الثدي الكبيرة، أو الثدي الناهد. وإن من ينظر إلى قطعة البر الممتدة من بيزنطة إلى شرق جبال البلقان، والمحاطة ببحر مرمرة ومضيق الدردنيل من الجنوب والبحر الأسود من الشرق والشمال والبوسفور من الشرق لأدهشه شكلها المكوّر كالثدي تماماً، والذي تمتد «حلمته» بشكل بارز، وعند رأس الحلمة أقيمت بيزانتيوم. وهي التي دعيت فيما بعد في القرن الرابع الميلادي القسطنطينية نسبة إلى قسطنطين الذي اتخذها مقراً، بعد تدمير قبائل الجرمان لإيطاليا، ثم صارت استانبول منذ القرن الخامس عشر. وقد كان هذا الثغر ذو الموقع المنيع حتى قبل أيام بركليس مفتاح أوروبا. وقد ازدادت ثروة المدينة بما كانت تفرض من المكوس على السفن المارة عبر المضيق، كما جعلت السوريين يتحكمون بتجارة البحر الأسود، و علّموا السكان هناك زراعة الحبوب لأول مرة في التاريخ.

وعلى الشاطئ الشمالي لبحر إيجه تقع «طراقيا» ، وهي البلاد التي اكتشفوا خصوبتها، فاستصلحوها، وأنشأوا فيها المدن. وتسمية «طراقيا» هي في القاموس السرياني من الفعل «طرقْ» ويعني: طرق، اختار، انتقى، جمع، حشد، جوّد، جعله جيداً صالحاً. «طراقوا»: جيد، فاضل، شريف، حسيب، شجاع، بطل، رئيس قوم، ماهر، حاذق، أرض مخصبة.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص1285.

ومن المدن التي أنشأها السوريون على الساحل الطراقي: «صلم بريا» وتعني في القاموس السرياني صنم الطاهرة. إذ أن «صلم» تعني الصنم، التمثال، و«بريا» تعني: البريئة، المنزهة، الطاهرة، الخالقة... ومدينة «فيرنتو» أي الخصيبة من «فري»: أخصب (وهي مدينة إرجلي الحديثة) و«جالي بولي» أي مهجر الأمراء، دار المهجر. و«أفروديثيا» على اسم الربة أفروديت التي يؤكد الجميع، ومنهم هيرودوت، أنها من أصول سورية، نقل عبادتها السوريون إلى قبرص ثم إلى الجزر والغرب[1]. ثم مدينة «عوينو» Oeno وتعني المعين، المساعدة، ومدينة «أبديرا» وتعني في القاموس السرياني: الفواحة، الفيحاء، العطرة. حيث عاش الفيلسوف ديموقريط. ومدينة «بيزانتي» Bisanthe وتعني البز الناهد. وهي في منطقة من البر تتكور فعلاً مثل الثدي، وعند الحلمة أنشأوا المدينة مقابل جزيرة «طاسو» Tasus. وهذه الجزيرة صغيرة تافهة تبرز «على حد وصف أركلوكوس جرداء قبيحة المنظر كأنها ظهر حمار في البحر»[2]. لكن السوريين سمّوها «طاسة الذهب» لأن «طاسو» تعني الطاسة، الطاسة الذهبية. وكانت فعلاً غنية بمناجم الذهب حتى جعل منتجاتها منه تغطي نفقات الدولة. ولم يكن بين الشعوب آنذاك من يتقن حفر المناجم واستثمار معادنها وخاماتها غير السوريين.

ثم إذا ما واصلنا التقدم غرباً على الساحل التراقي جبهتنا شبه جزيرة كبيرة تتدلى منها في البحر ثلاث استطالات طويلة كالأذرع أطلق عليها السوريون اسم «سلاسيدي» Thlacidice وتعني الثلاث أيدي. واجتهد ول ديورانت وقال: «شبه جزيرة سلاسيديس ذات الأصابع الثلاث وسمّوها بهذا الاسم»[3]. وما وافى عام 700 ق.م، وهو عام عز وازدهار الدولة السورية في زمن الملك آشور بانيبال، حتى كانوا قد أنشأوا في شبه الجزيرة ذات «الثلاث أيدي» ثلاثين بلدة، قدّر للكثير منها أن تكون ذات شأن عظيم في تاريخ اليونان[4]، نذكر منها: استاجيراس Stagerus وتعني في السريانية مشتى الغرباء، إن أن «ستو» تعني مشتى. وهي من الفعل «أستي» ويعني: شتّى، قضّى الشتاء في موضع،

(1) المرجع نفسه، ص235.
(2) المرجع نفسه، ص287.
(3) المرجع نفسه.
(4) المرجع نفسه.

وجيري، وجوري تعني الأغراب جمع «جور». وهي مسقط رأس أرسطو. ومدينة سكيوني Scione وهي «سقعيوني» في السريانية وتعني: الفتّانة، وقد سقطت العين، وتحولت القاف إلى C في اللاتينية. ومدينة «مندي» Mende وتعني: النتنة، المنفّرة. وهي من الفعل «ندي»: طفر، تفجر الماء، تصاعد البخار ونحوه، أرعب، أفزع. وأند: اشمأز، نفر، أبغض، هز، حرك، صعّد، أفزع. ودعيت بهذا الاسم لأن المنطقة كانت مليئة بالفوارات التي تقذف الطين والدخان الكبريتي. ومنها أيضاً: أكنتوس، وأولنتوس، وكليوني وغيرها.



شكل رقم (8): مصوّر يظهر سقف بحر إيجه حيث شبه جزيرة سلاسيديس (الثلاث أيدي) تبدو في غاية الوضوح.

ومن الطريف أيضاً أن نشير إلى أن الـ «ثلاث أيدي» الممتدة بشكل طويل ومتواز في البحر تحصر فيما بينها خلجاناً متطاولة أطلق عليا السوريون اسم الخلجان العوبية، كما أطلقوا على كل من «الأيدي» الثلاث اسم شبه الجزيرة العوبية. والكلمة في القاموس السرياني «عوب» و«عوبو» وتعين: عُبّ، حضن، رحم، فرج، غار، غور، غُبّ، خليج، كيس، جيب، وعاء، مخزن، إبزن، جرن... وللسبب نفسه فقد أطلقوا على الخليج المتطاول شرقي شبه جزيرة المورة والذي تصنعه جزيرة «عوبيا» اسم خليج «عوبيا».

يقول ديورانت: «وآخر ما نذكره عن انتشار اليونان أن المهاجرين الإيونيين استقروا في الجزائر العوبية الواقعة بين سلاسيديس وجزيرة عوبيا الكبيرة، وهي جيرونتيا Gerontia وفولياجوس، وإيكوس، وفيارطوس، واسكانديل، واسكيروس. وهكذا انطبق محيط الإمبراطورية في الشرق والشمال انطباقاً تاماً، والتقى طرفاه. وبفضل نشاط اليونان ومغامراتهم استحالت جزر إيجه، وسواحل آسيا الصغرى، وشواطئ الهيلسبونت، والبحر الأسود، وسواحل مكدونيا وطراقيا معششاً من المدائن المصطبغة بالصبغة اليونانية، تفيض بالأعمال الزراعية والصناعية والتجارية، وبالنشاط السياسي، والأدبي، والديني، والفلسفي، والعلمي، والفني، والبلاغي، وبالسفسطة والمماحكة. ولم يبقَ أمام اليونان في ذلك الوقت إلا أن يفتحوا بلاداً يونانية أخرى في غرب بلادهم، ويقيموا قنطرة بين هيلاس القديمة والعالم الجديد»[1].

والحقيقة إن قبيلة يونان بن حيلان بن يافث بن نوح السورية أرضاً وجنساً، لغة وثقافة وحضارة، لم تكن إلا جزءاً صغيراً من طيف الانتشار السوري الكبير الذي ظل يكبر ويتسع مع تعاظم وازدهار مجد الدولة المركزية حتى بلغ الذروة في عهد الملك آشور بانيبال عام 700ق.م. وليس يصح على الإطلاق أن يعزى كل ذلك الانتشار المدني لجزء، هو اليونان، من كل، هو السوريون عامة. وكنا قد أوضحنا كيف أن الشاطئ اليوناني (أو الايوني) والإيولي في آسيا الصغرى كان أنسب المواقع لانطلاقة السوريين البديعة في فضاء البحار الرحبة، وكانت تلك المواقع بمثابة العتبة أو المنصّة التي قفزوا منها إلى كل الشواطئ.

(1) المرجع نفسه، ص287 - 288

بعد أن أوضحنا أهم معالم خارطة الانتشار السوري على الرقعة الممتدة من جزيرة كريت جنوباً، وعبر جزر إيجه، صعوداً إلى شواطئ البحر الأسود الشمالية والجنوبية، الشرقية والغربية، وامتداداً في غربه إلى سواحل طراقيا ومكدونيا، في أقصى الشمال، وقبل أن نشرع بالتوجّه غرباً لإتمام معالم الصورة التي انتشر بها السوريون، نتوقف قليلاً لنسجل بعض النقاط المهمة التي من شأنها أن تعين القارئ على فرز كل الأمور والحقائق عن مجمل الإرباكات والفوضى والتناقضات والتزوير التي امتلأت بها كتب تاريخ سوريا والإغريق.

من هذه النقاط:

1. إن حركة الانتشار السكاني الحضاري، وكما صار واضحاً وثابتاً الآن، وأقر بصحته كل الباحثين والمؤرخين في الغرب دونما استثناء، إنما كانت من شرق المتوسط إلى شماله وغربه وجنوبه طيلة العصور التاريخية القديمة والوسطى.

2. إن كل ذلك الانتشار الإعماري الحضاري الذي تحدثنا عنه إلى الآن إنما كان خاصاً بالسوريين وحدهم الذين كانوا ينطلقون من أرضية دولة مركزية عظمى عمرها ثلاثة آلاف عام، «لم تكن قوة على الأرض تجرؤ على مناوأتها» على حد تعبير بريستد، وليس نتيجة لجهود هذا الفرع السكاني أو ذاك كاليونان أو غيرهم.

3. إن الفينيقيين الحاميين الذين قدموا من شواطئ البحر الأرتيري (الخليج العربي) واستقروا في بعض مواقع الساحل السوري لم يجعلوا من الدولة السورية «فينيقية» بل صاروا جزءاً من السوريين. وإن عملهم الذي كان مقتصراً بالدرجة الأولى على صيد البحر وتجارته، نمّى لديهم روح الانعزالية، والفردية، والأنانية، وجعلهم، فيما بعد، بعيدين عن الانخراط في نظام الدولة المركزية الواحدة، يعملون من أجل ازدهار مدنهم ومقراتهم ومحطاتهم التجارية، ويغتنمون كل الفرص من أجل تفكيك وحدة الدولة، ولو تم ذلك عن طريق التحالف مع الغزاة الخارجيين تحقيقاً لأغراض أنانية ضيقة. وهذا ما سوف يتجلّى لاحقاً في أبحاث هذا الكتاب.

4. ولقد أقام الفينيقيون الجوالون محطاتهم التجارية في كثير من مواقع الانتشار السوري من شرق المتوسط إلى غربه، وجنباً إلى جنب مع المدن والمواقع السورية الكثيرة، دون أن يحدث ذلك تناقضاً أيام عز الدولة السورية ورخائها. بل على العكس من ذلك، فقد كان التجار الفينيقيون الجوالون في أرجاء البحار قناة جد مهمة لتصريف السلع السورية في كل البلدان المشاطئة.

بعد هذا، ننتقل مباشرةً إلى متابعة الانتشار السوري غرباً.

قبرص:

إن جزيرة قبرص أقرب الجزر إلى الساحل السوري القديم، بمدنه ومرافئه التي يزيد عمر بعضها على ستة آلاف عام قبل الميلاد مثل أوغاريت وعمريت وطرطوس وغيرها. وتعتبر قبرص من الناحية الجيولوجية والجغرافية امتداداً لجبال إنطاكية قبل أن ترتفع مناسيب مياه البحار بعد انتهاء آخر عصر جليدي. ولما كان السوريون أول من أنزل سفينة في البحر منذ العهد الأموري، حتى سمي البحر الأبيض المتوسط باسمهم «بحر أمورو» فقد كان من الطبيعي أن يكونوا أول من استوطن قبرص وعمرها.

ولقد منحها السوريون اسمها الذي يدل على هيئتها منذ الزمن الموغل في القدم. لقد أطلقوا عليها اسم «جيفرو» Gypro وتعني في القاموس السرياني: الظفر، المخلب. فهي تمتد في هيئة مخلب فعلاً باتجاه إنطاكية. ولما كانت الفاء تلفظ P في أغلب الأحيان فقد صارت تلفظ Gypro، والدليل على ذلك القصيدة المسمّاة «القبرصية» Gypria التي تتحدث عن قصة خطف هيلين إلى طروادة والحرب ضد الطرواديين، والتي لا يعرف بالتحديد ناظمها[1]. وقد استخدم هيرودوت في تاريخه لفظة «الجفريين» للدلالة على سكان قبرص[2]. وقد أضيف السين اعتباطاً إلى نهاية الاسم فيما بعد كالعادة فصارت Gypros، ثم تحولت الـ G قبل حرف العلة y في اللاتينية كالعادة إلى C فصارت Cypros، وأخذ اللغويون في الغرب يخترعون للاسم معنى يمدّ خيطاً ولو واهياً صوب الغرب، فقالوا: إن الاسم يعني النحاس لقربه من لفظة Cupper التي تعني بالإنكليزية النحاس!

(1) عبد اللطيف أحمد علي، المكتبة التاريخية، مصادر التاريخ اليوناني، بيروت 1991، ص94.

(2) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الخامس 58، ص358 و63، ص359.

وقد أنشأ السوريون في المدينة عدة مدن ما تزال في معظمها باقية إلى اليوم. من هذه المدن: صلامين Salamine ويعني تمثال الربة، حيث أقاموا هيكلاً لأفروديت. يقول ديورانت:

«وما من شك في أن أفروديتي كانت في مواطنها الأولى في الشرق الأدنى، ثم في قبرص موطنها نصف الشرقي. كانت في هذه المواطن أول الأمر إلهة أماً. ولقد ظلت طوال عهدها ذات صلة وثيقة بالتوالد والإخصاب في الممالك النباتية والحيوانية والبشرية بأجمعها. فلما أن تقدمت الحضارة وازداد الأمن، ولم تعد للناس حاجة بكثرة المواليد، تركت حاسة الجمال حرة طليقة تجد في النساء قيماً غير قيم التناسل الكثير، ومن ثم لا تقتصر أفروديت على أن تكون المثل الأعلى للجمال بل تصبح إلهة اللذائذ الجنسية بجميع أنواعها»[1].

وحري بنا أن نوضح أن اسم «أفروديت» سوري، وهو في الأصل السرياني «عفي روديت» ويعني كثرة النسل. إن «عفي» من الفعل «عفا» في القاموس السرياني، ويعني: أزهر، أخصب، وفر، زاد، كثّر. وإلى هذا اليوم يستخدم السوريون هذا التعبير للدعاء والاستحسان فيقولون «عفي» و«عفاك» أي زادك الله وكثر أمثالك. أما «روديت» فهي من الفعل «ردى» ويعني: سافر، ركب البحر، هذب، ثقف، أدّب، علّم، روّض، جرى، سال، أمنى، ألقح، أحبل، نسل. و«روديت» تعني: التهذيب، الترويض، الخصب، النسل، التعليم، السفر، ركوب البحر... وقد انتقلت الكلمة من اليونانية إلى الروسية وصارت rodit بمعنى وَلَد. كما اشتقت من الكلمة كلمة rodeo الإنكليزية بمعنى ترويض، و«روداج» أيضاً.

إن اسم «أفروديت» السرياني يعكس رسالة السوريين التعليمية والتهذيبية، وليس كما يدل عليه المضمون الآخر الذي اكتسبه فيما بعد عند الأغراب من الهمج. و«أفروديت» أحد أسماء الأم السورية عشتار. والمدينة الأخرى التي أنشأها السوريون «لارنكا» وهو الميناء الذي كانوا قد خصصوه لتصريف الخمور. والاسم مؤلف من «عار» ويعني في القاموس السرياني: الغار، الأثل، قوة، منعة، زق الخمر، ظرف. و«نكا» هي في الأصل «نوقيا» وتعني الخمر. واللام أداة التعريف.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص335.

والمدينة الثالثة «ليماصول». وكان اسمها قديماً «ليما» وتعني: الأمة، الجارية، وهي «إيما» بالإضافة إلى لام التعريف. وعندما زارها صولون (صولون و«صولو» بالسريانية تعني المصلح، المشرّع) ووضع القوانين لتلك المدينة غيرت اسمها من «ليما» إلى «ليماصول» أي أمَة صولون تكريماً له[1]. أما رأس الجزيرة الطويل الممتد باتجاه إنطاكية كالخرطوم فقد دعاه السوريون باسم «قلودا»[2] قبرص. وكلمة «قلودا» في القاموس السرياني تعني: شنف، قرط، قلادة، خطام، خرطوم، مقود البعير. وإلى الشمال من لارنكا، وفي كنف جذر الخرطوم الجنوبي الشرقي يختبئ الميناء الآخر، بعد أن حجبه الخرطوم من الشمال، ولا يظهر إلا للقادم من سوريا، فجعله ملجأً أميناً، وسمّوه «فاماجوستا» ويعني بالسريانية ثغر الملجأ. إذ أن «فاما» تعني فم، و«جوسا» و«جوستا» تعني: ملجأ، ملاذ، حمى. اجَوسْ: التجأ، احتمى. بيت جوسا: ملجأ.

والمدينة المهمة السورية الأخرى كانت «لافيتي» وتعني الخصيبة، المخصبة، وهو من أسماء عشتار، واللام أداة التعريف. وقد اكتشف فيها تمثال للربة عشتار[3].

ثم أنشأ الفينيقيون محطة صغيرة فيها لتجارتهم، استقر فيها مجموعة من التجار الذين يؤمنون نقل البضائع والشحن، ودعوها «أماتونتا» وهي تعني القبيلة الصغيرة، الجماعة الصغيرة، وهي تصغير «أماتونا» التي تعني: الجمع، القبيلة.

شبه جزيرة المورة:

لن نستغرب حقيقة أن السوريين انتشروا في شتى بقاع حوض المتوسط منذ القدم، ومن الساحل الإفريقي، مروراً بكريت وجزر إيجه، وصولاً إلى أعالي شواطئ البحر الأسود، وأنشأوا فيها المدن الزاهرة، ونقلوا إليها كل مظاهر ثقافتهم وحضارتهم، دون أن يشمل انتشارهم الاستيطاني الدائم شبه جزيرة المورة. لقد أدركوا أن شبه جزيرة المورة لم تكن تتوفر فيها أية شروط حقيقية لقيام تجمعات سكانية كبيرة مستقرة ومزدهرة. فلا تربتها تصلح لزراعة متطورة، ولا مياهها، ولا ثرواتها، ولا شواطئها الصخرية العجفاء كانت تصلح لإنشاء المرافئ التجارية النشيطة. وإن جغرافيتها بشكل عام لم تكن صالحة إلا للجوء بعض الجماعات الفارة من الملاحقة وللاختباء عن الأنظار.

---

(1) المرجع نفسه، ص219.

(2) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الخامس 108. ص380.

(3) يولي تسيركين، الحضارة الفينيقية في إسبانية، ترجمة يوسف أبي فاضل، الطبعة الأولى، 1988، بيروت، ص 161

لذلك فسوف نرى كيف أنهم داروا حول سواحل الجزيرة متفحصين دون أن يشدهم ذلك إلى التوقف إلا في بعض الجزر عند ساحلها الغربي، ليندفعوا بعدها منها إلى صقلية وجنوب إيطاليا. وقد أطلقوا على الجزء الشرقي من سواحلها اسم «عتيقا» Atica أي العتيقة، الهرمة، العجفاء، وهي ذات صخور عالية مشققة جرداء لا تصلح للزراعة ولا لإنشاء موانئ تأوي إليها السفن.

ففي جنوب شبه الجزيرة الممتدة مثل الكف بأربع أصابع، أو مثل ورقة التوت التي جاء منها اسمها «مورا» (بالسريانية تعني ورقة التوت) تبرز جزيرة صغيرة دعاها السوريون باسم أحد أسماء عشتار، وهو «قترا» Kathra أو «قيتارا» Kithara، وكلاهما في القاموس السرياني صحيح، ويعني: القترة، المتكبرة، العالية، المتهيئة للقتال، المصباح، القنديل. وفيها أقاموا أول هيكل في بلاد المورة لعشتار ـ أفروديت، وقد كشف عام 1887م. عن أنقاض هذا الهيكل. وتقع جزيرة «قترا» عند فم الخليج المحصور بين «إصبعين» أطلقوا عليه اسم خليج «لاكونيا» أو «لاقونيا» ويعني: المخفي، المتحجب. والكلمة من الفعل السرياني «أقن» ويعني: جعله يعشش ويكن. وكذلك من الفعل «كن» ويعني: ستر، حجب، ومنها «وكن» واللام أداة التعريف العربية. أما الإصبع أو الذراع الذي يحدّه من الغرب ويحجبه فدعي رأس «معطفان» ويعني في القاموس السرياني: الملتحف، المستور، المغطّى، اللحاف، الستر. وقد حافظ على اسمه إلى اليوم «موطابان» Mutapan.

وفي محاذاة الساحل الغربي لشبه جزيرة المورة مجموعة من الجزر، لم تكن في حد ذاتها مهمة بالنسبة للسوريين إلا من حيث كونها منصات للقفز إلى جنوب إيطاليا.

هذه الجزر هي من الجنوب إلى الشمال: «زكينتا» Zecyntha، وهي في الأصل السرياني «زق حنطا» وتعني كيس القمح، وهي فعلاً تبدو منفوخة ومربوطة عند الفوهة. و«قفالينيا» Cephalenia وتعني في القاموس السرياني: هري الحنطة، مخزن قمح، بيدر، و«قفالا» وتعني أيضاً: كنز، مطمورة.

وجزيرة «عتاقا» Itaca وتعني بالسريانية: الخصلة، الضفيرة. ثم نلتقي بجزيرة شبه مدوّرة مثل العلبة أو الطبقة دعوها «لحوقا» Leuca وتعني: الحُق، العلبة، الطبقة، واللام

أداة التعريف العربية. وهي جزيرة صخرية تلوح للقادم مثل علبة كبيرة عائمة. وإلى الشمال منها جزيرة صخرية صغيرة دعوها «بكسا» وتعني بالسريانية: البحصة، الحصاة، الصخرة. ثم «قرقورا» Carcura وتعني بالسريانية: السفينة الصغيرة، الزورق. وهي متطاولة ومرتفعة من الأمام مثل السفينة أو الزورق. غير أنهم، وخلال صعودهم إلى يمين جزيرة كفالونيا، لفت نظرهم الخليج الذي يتجه من الغرب إلى الشرق حتى يكاد يقطع شبه جزيرة المورة من منتصفها إلى قسمين شمالي وجنوبي، آخذاً شكل الجرّة أو البوق، فلم يترددوا في إنشاء مدينة في أقصى طرفه الجنوبي الشرقي دعوها «قورنتا» وتعني بالسريانية: الجرة، القارورة، القرنة، الزاوية، البوق، وأنشأوا فيها معملاً لصناعة الخزف منذ العصر الحجري الحديث. وسرعان «ما علا شأنها في إنتاج الخزف الذي عرف باسمها فضلاً عن أنها أصبحت مدينة تجارية وصناعية كبيرة»[1].

وقد عرفت عند هوميروس باسم «إيفورا» وهي تحوير «فاحورا» فقد سقطت الحاء، وتعني: الفاخورة، معمل الفخار، معمل الخزف، قارورة، جرة. و«أم» أداة التعريف قبل الحرف الشفوي الذي هو الفاء.

ولقد تابع السوريون تقدمهم من «قرقورا» نحو الشمال الغربي، فوصلوا إلى الموضع الذي أسسوا فيه مدينة «فينيقيا» Phonicia في أقصى شمال شرق إيطاليا على الشاطئ الشمالي للبحر الأدرياتي (وقد سماها العرب المسلمون البندقية). واستقر بعضهم في مستعمرات صغيرة في ساحل دلماسيا، وفي وادي نهر «الفوح» Poe ويعني: النسيم العطر وقد سقطت الحاء. وعبر بعضهم الآخر مياه البحر الكثيرة الأمواج في الغرب، وقطعوا خمسين ميلاً ليستقروا في كعب إيطاليا. فكافأتهم الربة «عشتار ـ قترا» المتأهبة للقتال أخيراً، وأنستهم سواحل شبه جزيرة المورة الصخرية الهرمة العجفاء، واستقبلتهم مناطق جميلة وخصيبة لم يعرف سكانها الأصليون حياة الاستقرار والزراعة بعد. فألقوا مراسيهم وشباكهم هناك، وأنشأوا مدينة كبيرة دعوها «تارا» أو «تارنتوم». وكعادتهم نقلوا إلى هناك، كما إلى كل مكان صالح للاستقرار والزراعة، زراعة أشجار الزيتون والكرمة، وربوا الخيول، وأنشأوا المصانع لصناعة الفخار، والسفن،

(1) مكاوي، المرجع السابق، ص46.

ومارسوا صيد السمك بالشباك، واكتشفوا وجود القواقع البحرية التي يستخرجون منها صباغ الأرجوان كما في وطنهم الأم. وأصبح خليج تارنتوم الذي يفصل كعب إيطاليا عن مشط القدم من المواقع النشيطة تجارياً والمزدهرة اقتصادياً. وقد أنشأ آخرون على الطرف الغربي من الخليج المقابل لتارنتوم مدينتي «كيفاريس Ciparisz» و«كروتونا Crotona». وتعني الأولى في السريانية: الطافحة، الملأى بالخير، وهي من الفعل «كفِرس» ويعني: أجرى، أفاض. أما «كروتونا» فتعني: الخضراء، إذ «كروتو» و«كروتون» تعني الأخضر. «كروتوت»: خضرة، لون الكرّاث.

يقول ديورانت: «وكانت «كيفاريس» ذات موقع حسن على هذا الطريق التجاري، فأثرت، وعمّها الرخاء حتى بلغ عامرها (إذا جاز لنا أن نصدق ديودور الصقلي) ثلاثمائة ألف نسمة. وأثرت ثراء لا يضارعها فيه إلا القليل من مدن اليونان، حتى أضحت كلمة «كيفاري» مرادفة لكلمة أبيقوري. وكان العمل الجسماني كله يقوم به العبيد ورقيق الأرض. أما المواطنون الأحرار فكانوا يرتدون الثياب الغالية، ويسكنون بيوتاً مترفة مريحة، ويطعمون الأطعمة الشهية الواردة من خارج البلاد. وكان يحرّم على من يشتغلون بأعمال ذات جلبة أن يمارسوا صناعتهم في داخل حدود المدينة. وكانت بعض الطرقات في الأحياء الغنية من المدينة تغطيها خيام ومظلات لتقي الناس شر الحر والمطر. ويقول أرسطو إنه كان لـ «ألستيني» الكيفاري ثوب من نسيج بلغ من عظيم قيمته أن باعه أدونيس الأول الصيراكوزي فيما بعد بمائة وعشرين وزنة»[1].

وقد قيل إن هذه المدن تم إنشاؤها إبّان مجد الدولة السورية التي بلغت أقصى حالات توسعها وازدهارها في عهد ملكها آشور بانيبال. وقد اشتهرت «كروتونا» (الخضراء) بجمال طبيعتها ومناسبة مناخها حتى اعتبرت من المواقع الصحية النادرة. وقد جذبت إليها الكثير من المشاهير السوريين فيما بعد، ومن بينهم «فيتاجوراس» الذي يعني لقبه بالسريانية: الفتى المغترب، الكثير الأسفار[2]، وقد أختارها بعد أسفاره الاغترابية الكثيرة لتكون مقره الأخير.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص 291 - 292.

(2) كنا قد شرحنا معنى لقب «فيتاجورا» ويعني بالسريانية: الكثير الأسفار والاغتراب. إذ «فيتا» من الفعل: «فتي» ويعني: كثُر، زاد، أخصب. و«جورا» من «جور» ويعني: جار، تغرّب.

يقول ديورانت: «ولعل اشتهار كروتونا بأنها ملجأ صحي هو الذي حبب إلى فيثاجورس المجيء إليها... وتقول الروايات المتواترة إنه ولد في صاموس حوالي عام 580 ق.م... وتُعزى إليه أنه صرف ثلاثين عاماً في الأسفار. ويقول عنه هيروقليط، وهو الرجل الشديد الاقتصاد في مدحه، إن فيثاجورس كان أكثر الباحثين مثابرة... وقد زار بلاد العرب، وسوريا، وفينيقيا، وكلديا، والهند... وعاد يلقي على الرجال حكمة عالية جديرة بالإعجاب هي قوله: إذا كنت مسافراً خارج بلادك فلا تلتفت وراءك إلى حدودها»[1].

أما عن فكره، وعلمه، وفلسفته التي نقلها من سوريا إلى إيطاليا عبر المدرسة التي أنشأها هنا للذكور والإناث معاً فليس الآن مجال التوسع فيه. وكل ما يهمنا الآن هو تحديد معالم الخطوط العريضة للانتشار السوري الطوعي الطبيعي في أرجاء المتوسط.

صقلية:

من البقاع الصالحة للاستيطان المبكر، والتي توفرت فيها شروط خصب التربة والمناخ، واكتشفها السوريون وعمرّوها لأول مرة في التاريخ، كانت صقلية. «فلقد وهبتها الطبيعة ما حرمت منه بلاد اليونان في القارة الأوروبية، ونعني بذلك تربتها التي لا يكاد ينفذ خصبها بفضل أمطارها وحمم بركانها. ولذلك كانت تنتج من القمح والحبوب الأخرى ما جعل أهلها يعتقدون أنها إن لم تكن مسقط رأس دمترا نفسها فلا أقل من أن تكون ملجأها المفضل المحبوب. لقد كان فيها بساتين وكروم، وأجام من أشجار الزيتون مثقلة كلها بالثمار، وكان فيها شهد شديد الحلاوة... وأزهار تتفتح طائفة بعد طائفة من بداية العام إلى نهايته. كان فيها سهول كلئة ترعى فيها الماشية والضأن، وتنمو على منحدرات تلالها أشجار لا يحصيها عدّ، وسمك البحار المحيطة بها يتوالد وينمو أسرع مما يستطيع أهل صقلية أن يأكلوه»[2].

إن هذه الصورة التي ينقلها لنا ديورانت وغيره لم تأتِ فجأة، وإنما هي نتيجة للاستيطان السوري البعيد المدى، في وقت كانت فيه بلدان أوروبا كلها، ومنها إيطاليا، ما تزال في طور الهمجية. «إن الكرمة وشجرة الزيتون كانتا من نباتات حوض البحر المتوسط، وقد زرعتا بصورة حثيثة، ودجنتا في أول الأمر في طرفه الشرقي. ومن هناك انتشرتا فيما بعد باتجاه الغرب

(1) المرجع نفسه، ص293 – 294.

(2) المرجع نفسه، ص308.

بطريق التجارة والتوسع. ويصدق هذا الأمر أيضاً على شجرة التين. ولا يزال الزيتون، وزيت الزيتون، والعنب، والتين، والقمح، والشعير حتى اليوم المواد الغذائية الأساسية في سوريا»[1].

إن هذه الحقيقة معروفة وثابتة لدى المؤرخين والباحثين في الغرب. ولن يغيّر منها شيئاً عدم ذكر السوريين، وإرجاع كل شيء إلى عشيرة اليونان السوريين في منطقة إيونيا من الشمال السوري. فكيف إذا ما أضفنا إلى هذا كون الاستيطان الزراعي السوري في صقلية حدث قبل أن يولد يونا بن حيلان بن يافث بن نوح نفسه! وهذا ما يعترف به ديورانت دون أن يعلق عليه:

«وازدهرت في هذه الجزيرة ثقافة من ثقافات العصر الحجري الجديد في الألف الثالث من السنين قبل ميلاد المسيح، وأخرى من ثقافات العصر البرونزي في الألف الثاني منها»[2]. وأكثر من هذا نقول: لقد استمر التواجد السوري في صقلية وإيطاليا نفسها طيلة العصور القديمة، وكان وجوداً مسيطراً دون منافس. وحتى في زمن الإمبراطورية الرومانية كانت كل مفاصل الاقتصاد في كل أنحاء الإمبراطورية في أيدي السوريين. وهذا ما توصل إليه كثير من الباحثين والمؤرخين اليوم بعيداً عن التعصب لروما «التي لم تكن إلا إحدى بنات سوريا في الغرب». يقول آرثر بوك: «لقد تجلى التوسع الاقتصادي السوري في الولايات اللاتينية بعدد الجاليات التي يمكن تتبع تاريخها منذ بدء الإمبراطورية حتى نهايتها. وحصل استعمار حقيقي لبلاد البحر المتوسط، وخاصة في القرنين الثاني والثالث من قبل السوريين «Syri »، وهو لفظ أطلق على السكان الذين أصلهم من شرقي المتوسط. وملأت السفن السورية البحر كما في الأزمان السالفة»[3].

لقد توافد السوريون إلى صقلية منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد عن طريقين: من الشمال السوري، عبر جزر إيجه، وسواحل بلاد المورة، فجنوب إيطاليا، ومن كريت، وفي هجرات متوالية لم تنقطع. بعضها كان يندرج في إطار التوسع والانتشار الطوعي الطبيعي، وبعضها الآخر لأسباب قسرية طارئة، سيكون لنا معها وقفة مطولة أخرى عند التطرق إلى موضوع «الإغريق».

(1) Carl. W. Bishob, The Beginning of Civilization in Eastern Asia , Journal of the American Oriental Society, vol. Lix, (Dec. 1939).

(2) ديورانت، المرجع السابق نفسه، ص.308

(3) Arthur E.R.Boak, A History of Rome to 565 A.D. rev. ed. (New York, 1930), P. 319.

لقد كان يطلق على السوريين في كل مواقع انتشارهم في كثير من الأحيان ألقاب: السادة، الأرباب (بمعنى السادة والمعلمين)، الحاذقين، أبناء الآلهة. وإن «صقلية» هي في الأصل السرياني مشتقة من السكيليين الذين قدموها من الشمال السوري. واللفظة في القاموس السرياني من الفعل سْكِلْ: جهلَ، علّم، هذّب، فقّه. اسكيلو: معلم. سكولا: مدرسة. (وكنا قد شرحناها قبلاً). ومثله الفعل «سقِلْ». وقيل أيضاً: إن الاسم اشتق من «سقالا» Skala ويعني ركاب السرج. على أية حال إن التسميتين سوريتان، إذ أن «سقالا» في القاموس السرياني تعني: الركاب، الخفّ، المداس. في مقدمة «الحذاء» الإيطالي.

لقد أنشأ السوريون أكثر من مائة مدينة في غرب المتوسط. ومن المدن التي أنشأوها في صقلية مدينة صيراكوزا وتعني صانعي الجرار. إن «صيرا» من الفعل «صر» و«صير» ويعني في القاموس السرياني: صيّر، عمل، صنع، كوّن، صوّر، نقش، مثّل، صاغ، كوّن، نقش، زخرف. وهذه المعاني تشمل كل صناعة الخزف. و«كوزا» تعني: الكوز، الجرة. وهي تقع على الساحل الشرقي الجنوبي من الجزيرة. وإلى الشمال منها أنشأوا مدينة «قطانيا» أو «قطنا» Catana وهي في القاموس السرياني تعني: حذاقة، لباقة، مهارة، كما تعني: قوم، شعب. ومدينة موكيني Mocine وتعني: صانعي الأحذية، وهي من «موق» ويعني بالسريانية حذاء. وتحولت القاف قبل I باللاتينية إلى C كالعادة. والطريف أن المدينة كان اسمها القديم «زنقلي»[1]، وتعني صانعي الأحذية أيضاً. ففي القاموس السرياني «زنقا» تعني: خف، مداس، حذاء. زنقوي: إسكاف، صانع الأحذية. زنقويوت: سكافة، حرفة الإسكافي. ومدينة «جيلا» Gela وتعني: الوحي، التجلي، العرافة. وجيليني Celini وتعني: المتنبئة، العرّافة. وأكروكا Acrocas وتعني بالسريانية: الحصن، القلعة، مدينة مسورة خاصة. «وقد كانت في القرن السادس أكبر مدن صقلية وأعظمها ثروة. وفي وسعنا أن نتخيلها ممتدة من أرصفتها الشديدة الحركة إلى سوقها الصاخبة وإلى بيوتها القائمة على جانب التل، ثم إلى قلعتها الحصينة الفخمة التي تكاد أضرحتها لعلوها الشاهق أن ترفع المتعبدين فيها إلى السماء»[2]. وفي

(1) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص90.
(2) ديورانت، المرجع السابق، ص312.

الشمال الغربي أنشأوا مدينة بانرمو وتعني المطلّة العالية، وتحولت فيما بعد إلى باليرمو. وكنا قد لحظنا كيف أن السوريين أنشأوا مدينتين على شواطئ البحر الأسود، إحداهما سيكيليا، والأخرى بانرمو. وفي الطرف الغربي من الجزيرة أنشأوا موقعاً دعوه «طرفاني» Tarapani ويعني: الطرف، المتطرف، الواقع في طرف الشيء. وما تزال هذه الأسماء السريانية باقية منذ القدم إلى اليوم.

أما الجبل البركاني الذي يقع في الجانب الشمالي الشرقي من الجزيرة والذي ما زال يقذف بحممه وبالدخان من فترة لأخرى إلى اليوم فقد أطلقوا عليه اسم جبل «أتنا» ويعني في القاموس السرياني: جبل الدخان. إن كلمة «أتنا» السريانية هي التنّ في الفصحى وتعني الدخان. وفي أقصى الطرف الجنوبي الشرقي يبرز راس من الجزيرة في البحر دعوه رأس «فسارو» Psaro، والكلمة في القاموس السرياني تعني: مقود الدابة، رسن. وهذا يذكرنا بالتسمية التي أطلقوها على الرأس الطويل في قبرص.

لم يعد خافياً على الباحث والقارئ معاً أن تلك المدن والحضارة التي تعود آثارها إلى الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، والتي تعرفنا عليها في بعض مدن «آسيا الصغرى» مثل صميرنا (إزمير الحالية)، وفي جزيرتي كريت وصقلية، لا يمكن إرجاعها إلى عشائر اليونانيين أو إلى الفينيقيين الذين لم يبرز لهم أي دور على الساحة قبل النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد. هذا من الناحية الكرونولوجية، ونقصد بها الأسبقية في الزمن. أما من الناحية السكانية الصرفة فقد كان «اليونان» و«الفينيقيون» وكلاهما سوري، أشدّ ضآلة من أن تعزى إليهم عملية إنشاء مئات المدن التي غطت شطآن المتوسط والبحر الأسود. إن هذه الحقيقة نفسها تنطبق على الانتشار السوري في بقية الأجزاء الغربية من المتوسط.

في فرنسا وإسبانيا:

ذكرنا فيما سلف كيف أن مصادر التاريخ العربي سواء عند الطبري، أو المسعودي أو غيرهما، وعلم الأنساب عند العرب أكد أن «الأشبان» من أبناء يافث بن نوح. وكان موطنهم الأول «أرض الروم» أي بيزنطة، أي الشمال السوري قديماً.

أما تسمية «أشفان» أو «أسفان» فهي، كالعادة، لقب وصفي، ألصق بهم بعد هجرتهم إلى شبه جزيرة إيبيريا واستيطانهم هناك. وهي في الأصل السرياني «أشفان» ولفظت الفاء P كالعادة، وتعني سكان الحافة، النهاية، طرف العالم. وهي في القاموس السرياني من «سَفا» و«سفتا» وتعني: شفة، حافة، طرف، شاطئ، ساحل، لغة، لهجة، كلام. والإبدال شائع بين الشين والسين ما بين الفصحى والسريانية. وقد جاءت هذه التسمية نتيجة لقناعة السوريين بعد بلوغهم في الانتشار شواطئ الأطلسي بأنهم بلغوا حافة العالم أو نهايته. «ويتبين هذا بوضوح من خلال قصيدة بيندار الذي تحدث فيها أربع مرات عن أعمدة هرقل كحدود للعالم. ويتسم بأهمية خاصة مقطع القصيدة النيّمية الثالثة الذي يقول فيه بندار بأنه يستحيل بعد الآن التوجه وراء معالم هرقل في البحر الصعب المنال»[1].

إن السوريين الذين كانوا سادة العالم القديم دون منازع لم يتوقفوا عند حدود صقلية وجنوب إيطاليا، بل «يرجح أن تكون سفنهم المتينة كما كانت تعرف، وهي على ما يبدو سفن أوغاريت قد طافت مناطق غربية أبعد. ويؤكد ذلك تمثال من البرونز عثر عليه في البحر عند شواطئ صقلية يشبه طرازه التماثيل التي وجدت في أوغاريت»[2].

فقد أسس الفوقيون مرسيليا، ونقلوا غلات (الشمال السوري) في نهر الرون وروافده حتى أرليس ونيمي. واتخذوا من الأهلين أصدقاء وأزواجاً، وأدخلوا زراعة الزيتون والكروم هدية منهم إلى فرنسا... وأسس الفوقيون في اتجاه الشرق على طول الساحل مدن «عين طاب» Antiape ونيقايا (الغالبة، القاهرة) وهي نيس الحديثة. و«منويكو» (موناكو الحالية) وتعني مكان البياضة، التبييض بالقصدير الذي هو «أنك»[3]. أما في الغرب فقد وصل السوريون إلى إسبانيا، وأسسوا مدينة «رحوتاي»

(1) تسيركين، المرجع السابق، ص56.
(2) المرجع نفسه، ص25.
(3) ديورانت، المرجع السابق، ص307.

Rhodae أي الطحانين، بيت الطحان. و«روزا» أي الوردة، وهي بالسريانية من الفعل «رْوِزْ» ويعني: أورد، أزهر، ومدينة «أمفوريا» وتعني بالسريانية الفاخورة، لأن «أمفورا» تعني القدر من الفخار. ومدينة «ميناكا» مكان التبييض بالقصدير بالقرب من «مالاجا» Malaga أي مدينة صناعة السمك. وهي في القاموس السرياني من الفعل «ملج» Malag ويعني: نزع، نتش، أخرج، قطع الرأس، قشر، سلخ، فرك... أليست هذه كلها عملية صناعة السمك بدءاً من إخراجه من الشبكة إلى تجهيزه للتعليب وحفظه وتصديره! «وتتيح لنا أخبار الكتّاب القدامى والحفريات تصوّر تحضير مثل تلك المعلّبات. كان السمك ينظف، ويقطّع الكبير منه على بلاطة حجرية عريضة عند جدار خزان كبير بني عند شاطئ البحر. وكانت النفايات منه ترمى بعدئذ على أرض الخزان المنحنية لتغور في البحر. وكان القسم المفيد منه يلقى في أحواض مجاورة أصغر قياساً (حوالي 3م ×2م) مليئة بالماء المالح. بعد ذلك يوضع السمك النصف المصنّع في قدور فخارية مفتوحة لمدة شهرين، ويرشّح بعدئذ ليرسل في أوعية صغيرة خاصة أو جرار أو خوابٍ إلى اليونان وإيطاليا»[1]. وقد أنشأوا مدينة طرطيسوس أو طرطوسوس على اسم «طرطوس» السورية، واستغلوا فيها مناجم الفضة[2].

ومرة أخرى يخلط المؤرخون في الغرب بين السوريين وفينيقيي صور، الذين لم يبرز لهم أي دور تنافسي في حوض البحر الأبيض المتوسط إلا بعد قيام قرطاجة ونموها واتساعها، وتحديداً بعد الغزو الفارسي الأخميني لسوريا في القرن السادس قبل الميلاد. والدليل أن هوميروس لم يذكر «صور» والصوريين مرة واحدة في إلياذته. كما أنشأوا مدينة أخرى اشتهرت بصنع الفخار والخزف والتماثيل الخزفية ودعوها صيرو صلمون «وجدت فيها خوابٍ مشابهة لتلك التي وجدت في أمفورا، وأباريق عليها رسوم ونقوش، ويمثل أحد هذه النقوش فارساً لاجماً حصانه»[3].

(1) تسيركين، المرجع السابق، ص81.

(2) ديورانت، المرجع السابق، ص307.

(3) تسيركين، المرجع السابق، ص32.

ومدينة سيكسي، وقرطبة، وتوسكانوا وأبديرا. وأهم هذه المدن جميعاً كانت «قادس». وقد أنشئت على جزيرة متطاولة، وكأنما أقلعت لتوها من الساحل الإسباني الجنوبي الغربي ماخرة عباب الأطلسي. وكلمة «قادس» بالسريانية والعربية الفصحى تعني: السفينة الطويلة. لن نتحدث الآن عن الزراعة، وخاصة زراعة الكرمة والزيتون، التي نقلها السوريون إلى إسبانيا، ولا عن الصناعة بمختلف أنواعها، التي كانت جميعها نسخة عن الطرز المتبعة في سوريا. فتفصيل هذا ليس جزءاً من موضوعنا الآن. لكننا نشير إلى أن «قادس» دفعت مجموعة من خيرة أبنائها السوريين ليتسنّموا سدة الحكم في روما الإمبراطورية. نذكر منهم الأنطونيين: أنطونيو الأول والثاني والثالث، ومارك أوريل، قبل تسلم الأباطرة السوريين من سوريا الأم نفسها، مثل الإمبراطورة جوليا دومنا، وابنها كركلا، وحفيدي أختها: هيلا جبال، واسكندر سفيرو، وأخيراً فيليب العربي.

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن السوريين أقاموا عدة مستوطنات في «مالطا» التي تعني الملجأ، وعلى الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط كان أهمها «عتيقا» في وسط سهول شمال تونس التي يعتبر موقعها من أجود الأراضي الصالحة للزراعة. فنقلوا إليها زراعة الكرمة والزيتون بشكل خاص، حتى اشتهرت بخمورها في كل أرجاء المتوسط. ومن معاني«عتيقا» في القاموس السرياني: المعتقة، الخمر المعتقة. وقد أوردت الكتابات التاريخية بأن إنشاء «أتيكا» في تونس يسبق نشأة قرطاجة بـ 782 عاماً[1]. ومدينة «ميلا» وتعني المنارة، وهي الإسكندرية. كما أنشأوا في قلب الدلتا مستوطنة عند الفرع الكنوفي Cenope ودعوها «نوكراتي» وتعني بالسريانية المغترّب، دار الهجرة، المهجر. وهي من الفعل «نكر»وقد سبق شرحها.

* * *

كنا قد بدأنا هذا البحث بالتأكيد على أن الحدث التاريخي هو فعل عقلي، وبالتالي هو حدث منطقي. وإن أي تفسير للتاريخ بعيد عن المنطق يفضي به حتماً إلى وهدة السقوط.

(1) S Gsell, Hist. Ancienne, Tome 1, PP. 360J361.

إن مثل هذا الانتشار الواسع لم تكن لتقوم به عشيرة كاليونان، أو مجموعة عشائر، أو مدينة مثل صور أو مجموعة من المدن. إنه انتشار مدعّم من الخلف بشعب كبير عظيم، وبدولة عظمى. ولم تكن مواقع إيونيا وإيوليا في الشمال السوري إلا منصة الانطلاق لذلك الانتشار. وإن هذا لا ينفي أبداً كون بعض اليونان والإيوليين جزءاً من الانتشار، لكونهم جزءاً من ذلك الشعب العظيم.

بعد هذا صار في الإمكان الآن الانتقال إلى النمط الآخر من الانتشار، وهو الانتشار القسري، أو الفراري، الذي هو «الإغريقي».

الفصل الثاني

الانتشار الفراري أو الإغريقي

قد يصدم هذا العنوان الكثير من أساتذة التاريخ العرب، الذين دأبوا إلى اليوم على نقل ما تم تلقينهم إياه في جامعات الغرب، معتقدين أنه «علم». ولن يصدم عدداً كبيراً من الباحثين والمؤرخين في الغرب الذين في معظمهم، يعرفون أن تاريخ العصور القديمة، الذي تمت «فبركته» منذ بدء عصر النهضة إلى اليوم، لا يمت إلى البحث العلمي النزيه بأية صلة.

إن إصرارهم على الخلط بين العشائر والشعوب، وعلى اختراع أعراق وأجناس لا أساس لها، وعلى تجنّب اللغة السريانية التي هي لغة الحضارة كلها في كل الرقعة الممتدة من ضفة وادي السند شرقاً إلى ضفاف الأطلسي غرباً طيلة عصور ما قبل المسيح، وبالتالي، على اختراع شروحات وتفاسير للأسماء والألقاب قائمة على الظن والتخمين فقط، أنتج مثل هذا المخلوق الشائه العجيب الذي لا يعرف له رأس من قدم، والذي دعوه «تاريخ الإغريق».

إن كلمة «إغريق» سورية سريانية، وهي في القاموس السرياني «عريقو» وتعني: نازح، هارب، فار. وهي من الفعل «عْرِق» ويعني: غرق، هرب، فرّ، نجا، أفلت، تجنب، ابتعد، عبر، زال. ولما كانت الأبجدية السريانية هي من «أبجد» إلى «قرشت» فإن صوت «العين» فيها ـ وكما سبق أن شرحنا في بحث اللغة ـ كان يحلّ محل «الغين»، وهو ما أظهرته العربية الفصحى وصار «إغريق».

وفي القاموس السرياني أيضاً نجد صيغة أخرى لهذه التسمية، وهي «قريقوي» وتعني أيضاً: الهارب، الفارّ، المنهزم. و«قرقو»: نعل، خفّ، مداس. و«قرقوي»: إسكاف، صانع النعال.

وكنا قد بيّنّا كيف أن السوريين خبأوا لنا مفتاح الكنز لتاريخهم في لغتهم. وأن كل تلك الأسماء التي أطلقوها على أبطالهم وأشيائهم إنما هي ألقاب تحكي قصة كل منهم أو تجلو لنا صورته.

ومن ناحية أخرى، كنا قد ذكرنا كيف أن الانتشار السوري تميز من حيث السبب والغرض إلى نوعين: انتشار طوعي توسعي تكون نتيجته الاستيطان الدائم في المواقع التي تتوفر فيها الشروط الملائمة لمثل ذلك الاستيطان، وانتشار قسري فراري طارئ، يكون، في أغلب الأحيان، إلى مواقع بمثابة ملاجئ موقتة، وهذا ما دعاه السوريون بالنزوح «الإغريقي».

وأول مثال لهذا النزوح الفراري «الإغريقي» نزوح الفالجيين.

1ـ الفالجيون الفارون

أول الإغريق

نعود للتذكير بما سبق أن استعرضناه من سلسلة النسب المنتهية إلى سام بن نوح.

1. يعرض لنا المؤرخون العرب جميعاً وبلا استثناء سلسلة نسب «فالج» على النحو التالي:

«ولد لسام بن نوح عابر وعيلام وآشور وأرفخشاد ولاوذ وآرام. وكان مقامه بمكة... وولد لشالح عابر، وولد لعابر ابنان أحدهما فالج ومعناه بالعربية قاسم، وإنما سمّي بذلك لأن الأرض قسمت والألسن تبلبلت في أيامه، وسمي الآخر قحطان. فولد لقحطان يعرب ويقطان، فنزلا أرض اليمن... وولد لفالج بن عابر أرقو، وولد لأرقو سارج»[1] لن نتابع هنا التفرعات الأخرى لكل من هؤلاء الآباء العرب السريان. بل جلّ ما يهمنا هو الوصول إلى «فالج» الذي ينتهي نسبه إلى سام بن نوح، بينما كنا قد رأينا أن «يونا» أبا اليونان ينتهي نسبه إلى يافث بن نوح.

2. إن كلاً من أولئك الآباء يمثل في التاريخ العربي أباً لقبيلة كبيرة امتدت تفرعاتها إلى بقاع شتى من الوطن العربي القديم. وهذا يعني أن هناك آباء كثيرين في خط سلسلة النسب تم إسقاطهم لعدم تميزهم، لأن من تقاليد العربي أن ينتسب إلى المتميز فقط من الآباء في خط السلسلة وليس إلى الجميع.

---

(1) تاريخ الطبري، الجزء الأول، ص141 – 142.

3. إن زمن «فالج» في تقدير المؤرخين العرب يعود إلى بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد. وفي تلك الفترة بالذات تضافرت مجموعة من العوامل أدت إلى انهيار الدولة المركزية التي كانت عاصمتها بابل. فمن تتابع ملوك ضعفاء، إلى حدوث ضربات شديدة من الزلازل، إلى هجوم قبائل الكاشيين من الشرق على العاصمة ومحيطها، وتدميرها وذلك في 1595 ق.م. كل ذلك أدّى إلى إشاعة الفوضى في أنحاء الدولة ككل، واختلال الأمن، وبخاصة أمن طرق القوافل التجارية، وحدوث الانقسامات الداخلية التي استمرت قرابة قرنين من الزمن.

إنها الفترة التي يحدّدها المؤرخ العربي المسعودي بزمن ناحور بن سارج بن أرقو بن فالج حيث يقول: «فلما قبض الله ساروج قام بعده ناحور بن ساروج مقتدياً بمن سلفه من أبائه. وحدث في أيامه رجف، وزلازل لم تعهدها فيما سلف من الأيام قبله... وكانت في أيامه حروب، وتحزيب الأحزاب»[1].

4. والأمر المهم الآخر هو أنه في زمن «فالج» قسمت الأرض وتبلبلت الألسن. وهذا تعبير عن توزع عشائر الفالجيين إلى بقاع شتى ليتكلموا لهجات شتى. فمنهم من بقي من البدو الرحل يتنقل بمواشيه في براري شبه جزيرة العرب مثل عشيرة ساروج التي جاء منها ابراهيم. ومنهم من استقر في المدن وصاروا ملوكاً مثل أبناء قحطان في اليمن. ومنهم من كان يعمل في حماية القوافل ومرافقتها على خط القوافل الصاعد من جنوب اليمن إلى الشمال السوري وطروادة، مثل عشيرة أرقو بن فالج. وهم الذين دعوا فيما بعد في التاريخ اليوناني بـ «الفالجيين» و«الأرقوسيين».

5. إن تلك الفروع الفالجية من أبناء فالج الذين فرّوا من موطن آبائهم الأصلي، أي من قلب شبه جزيرة العرب موطن الساميين، إلى أقصى الشمال السوري القديم، وتحديداً إلى سقف بحر إيجه دونما عودة، وفي مثل تلك الفترة التي عمّت فيها الفوضى نتيجة للزلازل وللحروب الداخلية والخارجية يمكن أن توحي لأي باحث بأن العملية لم تكن إلا جزءاً من ظاهرة النزوح القسري.

---

(1) المسعودي، المرجع السابق نفسه.

ولما كان بعض قبيلة فالج ـ كما سبق أن أسلفنا ـ قد اختاروا مرافقة القوافل وتأمين سلامتها من سطوات البدو الأعراب في برية شبه جزيرة العرب، ومن اللصوص وقطاع الطرق عموماً، فإن هذا، في حد ذاته، قد أكسبهم خبرة بالطرق الممتدة إلى منافذ البحر الأسود شمالاً، وبالملاجئ التي يمكن الاختباء بها بعيداً عن الملاحقة، وبالبضائع الثمينة والخفيفة الحمل التي تجوز تلك الخطوط من محطة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى، وبالمفارق التي يمكن الكمون عندها لاستلاب مثل تلك البضائع، وبقوة جماعات الحماية المرافقة للقافلة وتسلّحها. كل تلك الشروط كانت بالفعل متوافرة لبعض قبائل «فالج». وإن لغة أولئك التي هي العربية السريانية تلقي لنا المزيد من الضوء على العملية بالكامل.

كنا قد ذكرنا كيف أن كلمة «فالج» تعني بالعربية الفصحى القاسم، وهذا ما أورده الطبري. أما السريانية فإنها تضيف إلى هذا المعنى معاني أخرى تحيط بأولئك الفالجيين من جميع الجوانب، وتظهرهم كفئة، أو عصبة انشقت عن عملها الأصلي أو عن جماعتها الأصلية، لتقعد في مفارق الطرق، وتعزل وتفرز ما تريد سلبه من بضاعة، ثم تقتسمه مناصفةً أو محاصصة فيما بينها. فالكلمة في القاموس السرياني من الفعل «فلجْ» ويعني: انشق، ضادّ، خالف، شك، ارتاب، فلج، فرز، فصل، عزل، جزّأ، شطر، قسم، قاسم، ناصف. «فالج»: فالج (وهو داء معروف)، قاسم، رجل يجلس في مفرق الطرق. «فلجوت»: قسم، جزء، حصة، نصيب، قسمة. «فالاجا»: كتيبة، عصبة، فوج، جماعة قعود في مفرق الطرق. إنهم، إذن، عصبة، كمنت في مفارق طريق القوافل، فنهبت البضاعة، وفرّت.

إن الكلمة في أصلها السرياني، وكالعادة، وفَرت علينا كل الجهود، وأضاءت لنا كل الجوانب. وإن كل ما حدثتنا عنه المصادر يبقى دليلاً شاهداً على صحة ما حدثتنا به اللغة:

أولاً - إن أول «ملجأ» فرّت إليه تلك الجماعة هو آخر نقطة كان قد وصل إليه نفوذ الدولة السورية. إنه سقف بحر إيجه المتمثل في ساحل طراقيا المجاور للهمج. فقد لجأوا أولاً إلى جزيرتي «المنوس» (الحمانوثي)، وقد سبق التفصيل في سبب تسميتها بهذا الاسم، و«صاموطراقا». فكانوا أول من أطلق على المنطقة اسم «طراقيا» وعلى الجزيرة اسم «صاموطراقا»، وقد سبق شرحها أيضاً، لكننا نرى ضرورة هنا لإعادة التذكير به مرة أخرى. إن «طراقا» تعني في القاموس السرياني: رئيس قوم، بطل، شجاع، حسيب، شريف، فاخر، فاضل، أرض مخصبة. وإن «صاموطراقا» تعني: الحارس البطل، الحارس الشجاع، الحامي رئيس القوم أو القبيلة، البطل... لأن «صامو» تعني: الحارس، الحامي، الرقيب، الراصد، وهي من الفعل «صمى» حرس، حمى، رصد، رقب. وحتى زمن قريب في جبال الساحل السوري كان إذا أضاع فلاح بقرته ولم تعد إلى الليل وخاف عليها من الوحوش ربما يأتي إلى شيخ القرية ليقرأ بعض الآيات و«يصميها» أي ليحرسها. وما زال اسم «صميلا» (سميلا) يطلق على الفتاة وعلى البقرة، ويعني: الحارسة هي الربة. وهو الاسم الذي أطلقه قدموس على ابنته.

وفي التاريخ الذي كتبه المؤرخ السوري سانخونياتن في حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ورد اسم «صاموطراقا» كما يلي: «ومن «صديق» وُلدَ الديوسكوري، أو كبيري Cabires أو صاموطراقي Samothraces، وابتكروا أولاً السفن. ومن هؤلاء الـ «كبيري» وُلد رجال آخرون وجدوا عقاقير طبية لشفاء العضات السامة، واخترعوا كلمات السحر. وفي عصر هؤلاء ولد واحد يدعى عليون Elioun وزوجته تدعى بيروت Pirot وهي في إقليم جبيل»[1].

وكنا قد أوضحنا كيف أن مصدر هذه العقيدة، والموطن الأصلي لهؤلاء الآباء جميعاً إنما هو في جنوب شبه جزيرة العرب. إن الـ «صاموطراقي» إذن في التراث السوري السرياني هم الـ «كبيري» التي هي جمع «كبيرو» بالسريانية وتعني: كبير، عظيم، كثير، وافر، خصيب. إنهم أرباب الخصب الكبار، من جهة، وهم الآباء رؤساء السلالة أو الذرية من جهة أخرى. فهل من تأكيد لهذا في المصادر الأخرى؟

(1) يوسف الحوراني، نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الإغريق، ص64 - 65.

يقول هيرودوت:

«وكل من تداخل بأسرار «الكابيري» التي يعظمها الصاموطراقيون يفهم معنى كلامي. لأن الفالاجيين المذكورين كانوا ساكنين في صاموطراقا قبل أن يأتوا إلى مواطن الأثينيين، ومنهم اتخذ أهل هذه الجزيرة تلك الأسرار»[1]. إن الفالجيين، إذن، هم الذين منحوا سقف بحر إيجه اسمه.

ويقول في مكان آخر:

«والفالاجيون طردوا ذرية الأرجونوتي* من جزيرة لمنوس فعادوا إلى لقدمونيا»[2].

ثانياً – إنه ما أن استتبّتْ أوضاع الدولة من جديد في العهد الأشوري حتى عادت أقوى سطوة ونفوذاً وأطول ذراعاً مما كانت عليه في السابق. إن هذا يعني أن سقف بحر إيجه، وحتى سقف البحر الأسود، لم يعد في منأى عن سطوة هذا النفوذ الجديد. فكان لا بدّ من الفرار إلى أمكنة أخرى لا تصل إليها يد الدولة، لا بالبر ولا بالبحر، وتشكل تضاريسها في حد ذاتها ملاجئ للفارين، ليس فيها موانئ للسفن، ولا تجتازها خطوط التجارة، وليس فيها طرق لتعبرها الجيوش، كما أنها لا تغري أحداً بالغزو... إنها شبه جزيرة المورة، التي أطلق عليها السوريون منذ ذلك الزمن «أعريقيا» أي أرض الفارّين.

لهذا فهم لم يدخروا جهداً في التحرك جنوباً، حاملين معهم أمتعتهم وكل كنوزهم المسروقة مّما خف حمله وغلا ثمنه، فاجتازوا مكدونيا، ثم طسّاليا وصولاً إلى أتيكا. فكانوا أول من بنى القلعة في الموقع الذي أطلق عليه فيما بعد اسم «أثيناي». لقد جاء في تاريخ هيرودوت ما يشير إلى هذا: «وحاصر كليوميني الطغاة الذين كانوا قد دخلوا أثينا وقلعتها التي كان قد بناها الفالاجيون»[3]. واستقر قسم منهم أيضاً في المنطقة التي اشتهرت بعرافتها «دلفي» و«دودونا»، فكانوا أول من استقر هناك قبل أن تأتي دفعة أخرى من النازحين الأكثر رقياً وتقدماً، ودعوا بالـ «تسفروتي» أي: الحاذقين، المهرة، البلغاء، الخبراء، المشرعين. وهي في السريانية من «سفروت» وتعني: خبرة، حذاقة، بلاغة... والتاء للتعريف.

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الثاني: 51, ص134.

* أي ذرية من تبقى هناك من البحارة الذين اشتركوا في رحلة سفينة «الأرجو» لاستطلاع مناطق الفرو الذهبي في شمال البحر الأسود.

(2) المرجع نفسه، الكتاب الرابع: ١٤١, ص ١٣١ .

(3) المرجع نفسه، الكتاب الخامس: 64, ص360.

يقول هيرودوت:

«أظن أن المرأة الثانية (العرّافة) بيعت لتُنقل إلى بلاد التسبروتيين، وهي قسم من أغريقيا الحالية، وكانت تدعى أولاً فالاجيا»[1].

وتوزعوا في بلاد المورة الوسطى والجنوبية، شمال خليج قورنتا وجنوبه، وأسسوا هناك عدة مواقع استيطانية كانت مخابئ وملاجئ للأسر أكثر منها مدناً، ما لبثت أن تنامت بعد قرنين، كان من أهمها «موكيني» (صارت باللاتينية موسيني) في الجانب الغربي من المنطقة التي دعيت بـ «لْقديمونيا»، و«أرقوس» في جانبها الشرقي. وكلمة «لْقديمونيا» هي سورية سريانية مؤلفة من «قديموني» جمع «قديمو» وتعني في القاموس السرياني: القادم أولاً، الأول، السابق، القديم، المقدّم، رئيس القوم، واللام للتعريف. و«قديميوت» و«قديموت»: أولية، أسبقية، قدمية، صدارة كل شيء. فكان الفالجيون بالفعل أول من فرّ لاجئاً إلى شبه جزيرة المورة، وبالتالي أول «الإغريق».

يقول كيتون:

«وقد كان الإغريق المتأخرون أنفسهم يعتقدون بوجود سكان أصليين غير هيلانيين يسمونهم الفالاجيين Palagians، وقد ظلت بقاياهم نقية في العصور الكلاسية، وكانوا يتكلمون لغتهم الخاصة»[2] وهذا الكلام نقله كيتو عن هيرودوت، والمقصود باللغة هنا ما ندعوه الآن باللهجة.

ويقول فوزي مكاوي نقلاً عن غيره: «عرفت بلاد الإغريق عديداً من التحركات البشرية كونت في النهاية الشعب الإغريقي كما نعرفه في عصوره التاريخية. ويمكننا تتبع هذه التحركات كما يلي:

1. السكان الأصليون الذين سكنوا بلاد الإغريق خلال العصر الحجري الحديث (!) ولا نعرف عنهم سوى ما تركوه من أدوات لا تدل على أصولهم الأولى، وهم الذين عرفوا في الأساطير بالفلاجيين Pelasges »[3].

(1) المرجع نفسه، الكتاب الثاني: 56، ص135.

(2) كيتو، الإغريق، ص12.

(3) مكاوي، المرجع السابق، ص56.

وبالطبع تم هنا الخلط بين زمن نزوح الفالجيين وبين العصر الحجري الحديث (!).

ثالثاً ـ والدليل على أن أولئك الفالجيين قاموا بنهب أغلى بضاعة كانت في حمولة القوافل وفرّوا بها إلى ملاجئهم في شبه جزيرة المورة بعيداً عن الأنظار هو أنهم اختاروا مواقعهم «في داخل البلاد ليدفعوا عن أنفسهم شرّ غيرهم... بعيدة عن البحر بعداً يمكنهم من أن يتقوا الغارات المفاجئة»[1]. «أما قصورهم، فهي حصون قبل أي شيء آخر، شيدت في موقع تسهّل طبيعته الدفاع عنها. وغالباً ما يكون هذا الموقع مرتفعاً، مشرفاً على السهل المحيط به، يصعد إلى هذه الحصون بسلالم خارجية تتخللها العراقيل والأبواب، وبسلالم محفورة في الصخر، وبأبواب خفية. وقد أتى بالصخر من كل مكان لتشييد تلك الجدران التي ستوصف بـ «السيكلوبيت» أي الضخمة، لأن حجارتها هائلة... ففي تورنتا أنشئت سراديب معقدة في الجدران التي تبلغ سماكتها ستة أمتار»[2].

وهكذا يتضح أن تلك المواقع لم تنشأ كمراكز للزراعة أو الصناعة أو التجارة البرية أو البحرية، حتى ولا من أجل صيد البحر. إنها ملاجئ للإغريق أو الفارين بالفعل ليس غير.

رابعاً – والدليل الرابع على أن الفالجيين نهبوا أثمن ما تحمله القوافل على خطوط التجارة السورية وفرّوا هوا أنهم خلفوا لنا كنوزاً على غاية من كمال الذوق والإتقان في الصناعة والصياغة، في الوقت «الذي كانت فيه حياتهم أقرب إلى مرحلة الصيد»[3]. فقد عثر شليمان في موكيني «على حلي كثيرة الأنواع، وبكميات تدل على الإسراف الشديد(!)، وعلى أزرار ذات رؤوس خليقة بأن تكون في ملابس الملوك، وعلى حجارة كريمة حفرت عليها مناظر صيد أو حرب... وعلى رأس بقرة من الفضة البراقة لها قرنان، وجبهة من الفضة نقشت عليها ورود، يتوقع الناظر إليها في أية لحظة من اللحظات أن تخور خواراً محزناً... وأجمل ما وجد في تيرنتا وميسيني من آثار معدنية خنجران من البرونز مرصعان بمزيج من الذهب والفضة، ومصفحان

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص61.

(2) إيمار، المرجع السابق، ص248 – 249.

(3) ديورانت، المرجع السابق، ص61.

بالذهب المجلو المصقول، وعليهما نقوش تمثل قططاً برية تطارد بطاً، وآساداً تطارد فهوداً أو تجابه رجالاً. وأغرب من هذا كله الأقنعة الذهبية التي كانت على ما يظهر تغطي بها وجوه الموتى من الملوك. ويشبه أحد هذه الأقنعة وجه قطة... وقد عثر في قبر في فافيو بين كنز آخر من الحلي على قدحين من الذهب المطروق بسيطين في شكلهما، ولكنهما بذل في صنعهما كل ما يستطيع الفنان المحب لفنه العظيم أن يبذله فيه من الصبر والإتقان. وتشبه صناعة هذين القدحين أحسن الصناعة المينوية في كريت... وقد نقش على أحد القدحين منظر ثور وقد صيد في شبكة من الحبال السميكة، وفتح فاه ومنخريه وهو لا يكاد يستطيع التنفس من شدة الغضب وفرط التعب... وعلى الجانب الآخر ثور ثان يقفز قفزة الرعب والهلع، وثالث يهاجم غلاماً من الرعاة أمسكه بشجاعة نادرة من قرنيه... وقد مضت قرون كثيرة بعد ذلك العهد قبل أن يظهر مثل هذا الصنع البديع في بلاد اليونان»[1].

إن العبارة الأخيرة التي اختتم بها ديورانت كلامه فيها تلخيص للحقيقة، ولو لم يصرِّح بها: إنها البضاعة المنهوبة من حمولة القوافل، قام بها أناس خبراء وعارفون بحمولة تلك القوافل... ومن أخبر من عشيرة الفالجيين المرافقين لها!

ويقول أندريه إيمار: «أما ثروة ميسيني الذهبية الطائلة فقد يكون الفضل فيها لمجرد الصدفة في اكتشافها»[2]... «فلم يعط أي موقع آخر في العالم اليوناني كمية الذهب التي أعطتها ميسيني (14 كيلو غراماً قبل اكتشافها عام 1952)»[3]، «وأعمال النهب هي مصدر ذهبهم. وأغلب الظن أن هؤلاء (الهندو أوروبيين!) الذين بلغوا جنوبي اليونان بعد ألف مغامرة ومغامرة نجهلها، وبشقّ طريقهم بين شعوب طال عهد إقامتها في هذه المناطق يحتفظون بميولهم الحربية التي اقترنت بميل إلى الجمال الشرقي»[4]. أية شعوذة! لقد تجنب إيمار ذكر اسم الفالجيين ليتمكن أخيراً من أن يلصق بهم هذا الثوب المختلق الذي دعوه «هندو أوروبي».

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص65.
(2) إيمار، المرجع السابق، ص248.
(3) المرجع نفسه، ص52.
(4) المرجع نفسه، ص249.

لكننا، في الحقيقة، لا يمكن أن ننكر عليه «ذكاءه»، إذ اكتشف في أولئك «الهندو أوروبيين» «ميلهم إلى الجمال الشرقي»! كما اكتشف أن ما دعاه قبل قليل بـ «منهوباتهم» والذي سيصبح بعد صفحتين من كتابه نفسه «مصنوعاتهم» ولا سيما خزفياتهم «ذات الرسوم المبسطة تشبه الرسوم الهندسية في مواقع كثيرة جداً: في صقلية، وجنوب إيطاليا، وجزر إيجه، وسواحل آسيا الصغرى، وفينيقيا، ومينة البيضا مرفأ أوغاريت ـ رأس شمرا المستودع العارم بالنشاط و(المستعمرة!) التي انطلق منها القصدير إلى كل مكان»[1].

خامساً – أما الدليل الخامس على أن أولئك الفالجيين هم بعض عشائر فالج التي توزعت ما بين البداوة الرعوية المتنقلة مثل فرع ساروج بن أرقو بن فالج التي جاء منها ابراهيم، وبين التنقل مع القوافل مثل بعض عشائر أرقو بن فالج، هو أن أهم مركز تأسس لأولئك الفارين (الإغريق) في شبه جزيرة المورة دعي باسم أب العشيرة الأكبر الذي هو أرقو بن فالج، وهو «أرقو». ولما كانت اللهجة البدوية العربية منذ الزمن الموغل في القدم إلى اليوم تلفظ القاف كالجيم المصرية g أو الجيم السريانية فقد لفظت «أرجو» Argo ثم أضيفت لها لاحقة السين تلك الإضافة الاعتباطية لكل الأسماء في المورة والتي سبق الحديث عنها، فصارت «أرجوس»Argos .

وكلمة «أرقو» Argo في الأصل السرياني هي «رْقو» Rgo، وتعني في القاموس السرياني: رقّ، عظيم السلاحف، كما تعني: الحقير، الدنيء. ولما كانت الكلمة مؤلفة من مقطع واحد يبدأ بصوت ساكن فقد أضيف لها همزة التعريف لتصبح «أرْقو». وفي العربية الفصحى نجد في قاموس «محيط المحيط» أن «الرِّق: العظيم من السلاحف، أو دويبة مائية جمع رقوق». وحتى لا يبقى هذا الشاهد اللغوي مجرداً من الدعم نقول: لقد أضحت «السلحفاة» رمزاً لأرقوس ولشبه الجزيرة كلها في ذلك الزمن.

---

(1) المرجع نفسه، ص251.

يقول ديورانت:

«ويعزو أهل أرجوس منشأ مدينتهم إلى أرجو الفالاجي، البطل ذي المائة عين... وفي حوالي 680 ق.م أصبح الطاغية المسمّى فيدون حاكماً عليها... استخدم فيها طريقة المكاييل والموازين البابلية... وأنشأ داراً لضرب النقود في جزيرة إيجينا في خليج أرجوس، وأضحت «السلاحف» وهي قطع النقد المنقوش عليها رمز الجزيرة أول عملة رسمية في بلاد اليونان القارية كلها»[1].

أما تعبير «أرقو الفالاجي، البطل ذي المائة عين» فتعبير لا يفهمه إلا العرب، لأن من معاني «العين» في السريانية والفصحى الجاسوس وهذا يعني أنه كان ينشر «عيونه» أي جواسيسه من حواليه كيلا يؤخذ بغتة من أي عدو.

إن هؤلاء الفالاجيين من أبناء أرقو بن فالج كانوا ـ لا شك ـ يعرفون لغتهم السريانية جيداً، وبالتالي يعرفون معنى لقب أبي قبيلتهم وهو عظيم السلاحف، فجعلوا منه رمزاً للمدينة ولكل توابعها بعد عدة قرون من رحيل الزعيم أبي القبيلة.

سادساً ـ ولما كانت قبيلة أرقو بن فالج عربية نصف بدوية فإنه لم يكن لديهم ما يشتغلونه غير الانغماس في عمليات الغزو والقرصنة والنهب، وفي حياة الصيد البري تحديداً. تشهد على ذلك «بقايا الآثار الميسينية من عظام الظباء، والخنازير البرية، والمعز، والضأن، والأرانب، والثيران، والخنازير، بل وعظام السمك والأصداف»[2]. ولم يكن من صناعات أو حرف غير صناعة السيور والجلود والنعال التي اختصت بها موكيني.

إن اسم «موكيني» هو في الأصل السرياني «موقيني» وتعني صانعي السيور والنعال. وهي في القاموس السرياني من «موق» أي جذاء. وقد تحولت في اللاتينية القاف كالعادة إلى C قبل حرف العلة.

وكنا قد شرحنا معنى كلمة «قريقو» بالسريانية وقلنا إنها تعني: الفار، الهارب، صانع السروج والنعال. و«قرقو» تعني: خف، نعل، مداس، سيور... إن هذا يؤكد أن أولئك الإغريق الفارين لم يكونوا يتقنون أية حرفة أخرى غير هذه.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص137 – 138.

(2) المرجع نفسه، ص61.

ومع هذا فإن ما اكتشف من كنوز فيها يؤكد مرة أخرى على البضاعة المنهوبة. فقد عثر في مقابرها على«جماجم رجال عليها تيجان من الذهب، وعلى هياكل عظام وجوهها أقنعة ذهبية. وكان من بينها هياكل عظمية لسيدات لهن تيجان من الذهب كن يلبسنها على رؤوسهن التي لم يبقَ لها وجود. ومن بين ما وجد في هذه المقابر آنية عليها رسوم جميلة. وجفان من البرونز، وكؤوس من الفضة، ورؤوس من الكهرمان ومن الجمست، وأدوات من المرمر والعاج والخزف، وخناجر، وسيوف مزخرفة، ولوحة لعب شبيهة بالتي وجدت في كنوسس، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان من الأدوات مصنوعة من الذهب الخالص: أختام، وخواتم، ودبابيس، ومشابك، وأقداح، وخرز، وأساور، ودروع، وآنية للزينة، وأثواب مزركشة بصفائح رقيقة من الذهب. وليس من شك في أن هذه الجواهر جواهر ملوك»[1].

وبالرغم من أن كل هذه اللقى الكنوز ليست نتاج صناعة محلية، وإنما هي «سلّة مسروقات» من البضاعة التي كانت تنتجها المدن السورية، وأن أولئك الفاتحين، كما ظهر جلياً إلى الآن، مجموعة من الأسر البدوية العربية، كان الغزو والصيد والسلب مصدر رزقها الوحيد في ملاجئها «الإغريقية» قبل أن تقرر تربية المواشي وزراعة بعض القطع من الأرض مما يحيط بقراتها على مرّ العقود من السنين، وكل ما كانت تتقنه من الحرف متمركز في موقيني حيث الضرورة أملت عليهم حرفة السكافة، وبشغل السروج والسيور والنعال...

نعود فنقول: بالرغم من وضوح معالم الصورة كلها فإن الحقيقة انقلبت في التزوير الغربي للتاريخ لتصبح هكذا: «الفن الموقيني استولى على أسواق بحر إيجه، ووصلت تجارة أمراء البلاد شرقاً إلى قبرص وسوريا، وجنوباً إلى مصر مارة بجزر الكيكلاتي، وغرباً إلى إسبانيا مارة بإيطاليا، وشمالاً إلى نهر الدانوب مخترقة بويوثيا وطساليا، ولم يقف في سبيلها إلا طروادة. وكما أن روما قد استحوذت على حضارة اليونان ونثرتها في أنحاء العالم، كذلك فعلت موقيني (ميسيني) فاستحوذت على ثقافة كريت المحتضرة ونشرت الطور الميسيني من أطوار تلك الحضارة في عالم البحر المتوسط كله»[2].

---

(1) المرجع نفسه، ص 5 .

(2) المرجع نفسه، ص66.

أي علم هذا! بل أية شعوذة تنبثّ من مسام مثل هذه الكتابة للتاريخ!

6. ولما كان الفالاجيون يمثلون القبيلة العربية خير تمثيل، ذات الأعراف والعادات والتقاليد المعروفة والمشهورة منذ الزمن الموغل في القدم إلى اليوم، فإن أولئك الفالاجيين لم يتجاوزوا مرحلة نمط العيش القبلي، بما فيه تمجيد آباء القبيلة وأبطالها. وإن عادة إقامة الذكرى السنوية والاحتفالات المأتمية للأبطال نقلها الفالجيون الفارون معهم إلى المورة، ويؤكد هيرودوت: «أن أهل أثينا كانوا أول من اتخذ هذه العادة من الفالاجة، وبهم اقتدت بقية إغريقيا»[1].

7. وإن تمجيد الفالاجة لآبائهم، الذين كانوا يطلقون عليهم تسمية «أرباب» بمعنى السادة، المعلمين، هو ما أسيء فهمه في الغرب بعد أن ترجموا كلمة «أرباب» إلى آلهة. وإن كلمة «أولمب» لم يفهمها باحث في الغرب إلى اليوم. إنها لفظة سريانية تعني رب العرش. إذ أن «أل» و«إيل» تعني: السيد، الرب، المعين، و«أمبو» و«أمبون» تعني: كرسي، عرش. إن أرقو بن فالج كان هو رب العرش. وإن «زيو» وامرأته «حيرا» كانا كذلك في مرحلة أخرى. إن «زيو» في القاموس السرياني تعني: البهي، السني، كما تعني الشعاع. وهي تسمية يمكن أن يسمّى بها أي شخص. وإن لقب «حيرا» في القاموس السرياني يعني: السيدة، الحرة، الشريفة، النبيلة، بنت الحسب، البطلة... والمذكر منها «حيرو» وهي التي صارت hero بالإنكليزية و her بالألمانية. ومرة أخرى يؤكد هيرودوت أن «الآلهة الأولمبية من أصل فالاجي»[2]. «وكان الفالاجة في الزمان الماضي يضحّون للآلهة كل الأشياء التي يستطيعون أن يقدموها. ولكن ما كانوا يسمّون ولا يلقبون أياً منهم. وكانوا يدعونهم آلهة إطلاقاً لسبب الترتيب الكائن في الأقسام المختلفة المؤلف منها العالم والطريقة التي فرقوه بها»[3]. لهذا فإن زيوس وحيرا كانا نبيلين سوريين، وحاكمين على القبيلة هناك لا أكثر. وهذا لا يعني أن «زيو» ليس من أسماء الشمس، كما أن «إيلا» تعني الشمس، والغزالة، والسيدة. وتطلق على الشمس كما يمكن أن تطلق اسماً لكل فتاة في سوريا إلى اليوم.

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الثاني: 51, ص134.
(2) المرجع نفسه، ص59.
(3) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول: 52, ص132.

8. ويؤكد هيرودوت أيضاً أن ما دعي بـ «الألعاب الأولمبية» كان «الفالاجيون أول من جاء بها، وهي مختصة بهم فقط». ويورد قصة الإسكندر المكدوني الذي أراد المشاركة في تلك الألعاب فرفض طلبه حتى أثبت أنّ نسبه يتحدر من أصل أرقو بن فالج. «وفضلاً عن ذلك إن قضاة الألعاب الذين يناظرون على الألعاب الأولمبية هكذا قضوا: فإذ عزم اسكندر أن يحارب في تلك الألعاب وتقدم إلى الميدان أراد الذين عليهم أن يتنازعوا جائزة السباق أن يخرجوه محتجين بأن الأغارقة فقط يقبلون في هذه الألعاب. لكن لما أثبت أنه أرقوسي حكموا أنه إغريقي»[1]. وكنا قد فصلنا الحديث عن «الألعاب الأولمبية» وأصلها السوري في كتابنا الثالث[2].

9. ولما كان قد التحق بالفالجيين الإغريق (الفارّين) بعض العشائر الفارة الأخرى من القبائل العربية، فقد وجدت أن قبيلة أرقو بن فالج كانت هي الـ «قديموني» أي السباقة، والمهيمنة على المواقع، فاختارت أن تنضوي معها أو تحت حكمها في حلف أو «أخوة» دعي «أحيني». والكلمة سورية سريانية وهي جمع «أحو» و«أحينو» وتعني في القاموس السرياني: الأخ، القريب، النسيب، ابن العشيرة، الحليف، المشايع، المحازب، التابع، الراهب. وهي التي ترجمت إلى العربية الفصحى بـ«الأخيين». ومن الكلمة كان لقب ملك وادي النيل «أخناتون»، وهو في الأصل السرياني «أحينو أتون» أي تابع أتون، راهب أتون، الذي هورب الخصب، الشمس، الخصب، ومؤنثه «أتينا».

ولما كان الفالجيون و«الأحيني» (الإخائيون) من جنس واحد، يعيشون نمط حياة واحد، ولهم عادات وتقاليد واحدة، فقد أرجأنا الحديث المفصل في هذه المواضيع لنجعله حديثاً واحداً شاملاً لهم جميعاً.

10. أما كيف تعامل المؤرخون في الغرب مع الفالجيين، فثمة أنماط، يختلف الواحد فيها عن الآخر باختلاف درجة تعصبه للغرب ضد الشرق. وأول هذه الأنماط من كانت صدمته شديدة، فقرر أن يكتب تاريخ الإغريق دون أن يمرّ على ذكر الفالجيين بكلمة واحدة. ويقف على رأس هذه المجموعة أندريه إيمار في المؤلف الضخم الذي شارك في تأليف أقسامه مع غيره تحت اسم «تاريخ الحضارات العام».

(1) المرجع نفسه، الكتاب الخامس: 22. ص343 - 344.

(2) راجع كتابنا الثالث «تاريخ سورية الحضاري القديم 1ـ المركز».

والفئة الثانية ذكرت الفالجيين، ونقلت بعض ما أورده هيرودوت عنهم، لكنهم جعلوا نقطة البداية لتاريخهم جزيرة «صاموطراقا» في سقف بحر إيجه عند مكدونيا، ليسهل أمر تسويقهم كـ «هندو أوروبيين» باعتبارهم قادمين من الشمال. ويقف في طليعة هؤلاء المؤرخين ول ديورانت. وفئة ثالثة تعرفت على الحقائق وجهرت بها. ويقف على رأس هؤلاء بيير روسي.

2- «الأحيني» (الإخائيون) الفارون:

ثاني موجة من الإغريق

في كتابنا الثالث، حين تناولنا موضوع «مصادر التاريخ» ذكرنا أن الأسطورة مصدر للتاريخ، بل هي أول كتاب في التاريخ. فالكلمة عربية قديمة صميمة وتعني الكتاب المسطور، المدوّن في سطور. وهي على وزن أنشودة، أرنومة، أغرودة، أهزوجة، أطروحة... وكانت تنظم شعراً وتغنّى. ومع السوريين ذهبت إلى بلاد المورة، وإيطاليا، ثم إلى اللغات الأوروبية الحديثة. فهي عند اليونان Istora، وفي الإنكليزية History، وفي الفرنسية L'histoire، وفي الروسية Istoria، وهي جميعاً تعني في الأصل كتاب التاريخ. ولقد ميزنا بينها وبين الخرافة[1]. إذ أن الأولى تبنى أساساً على حدث تاريخي سواء كان من فعل البشر، أو من فعل الطبيعة ترك آثاره على البشر. وقد يحوّله وعي العامة من جيل إلى جيل كلاً أو جزءاً إلى ما يشبه الخرافة.

يقول كيتو: «وقد تأيدت الأساطير أحياناً إلى درجة لا يكاد يصدقها العقل»[2].

وما دمنا الآن بصدد الـ «أحيني» أي الإخوة، الحلف، المتحالفين، فإننا، واعتماداً على الأساطير، وعلى ما وصلنا من خلالها عن أنساب أولئك الإغريق (الفارين) نكاد نجزم بأنه ليس هناك مجموعة بشرية أطلقت عليها هذه التسمية قبل فرارها إلى بلاد المورة. وإنما جاءت التسمية توصيفاً لحالة بعض الأسر بعد فرارها واستقرارها هناك.

---

(1) من أجل مزيد من التفاصيل راجع كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم ا ـ المركز» من خلال بحث «الأسطورة كمصدر للتاريخ»، ص87 وما يليها.

(2) كيتو، المرجع السابق، ص15.

تقول الأساطير اليونانية، وهي في مجملها أساطير سورية في الأصل، طرأ عليها الكثير من التشويه والتحوير، إن «تانتالو» ملك فريجيا في شمال سوريا أعقب ذرية كان من بينها «بيلوب» Pelops. وقد اضطر هذا لأفعاله المخزية إلى الفرار إلى بلاد المورة، أو أنه طرد من بلاده طرداً. فجاء إلى منطقة اللصوص الهاربين في غرب شبه الجزيرة والمدعوة «إليسا» «حليصا» Elisa. وصمّم هناك على أن يتزوج هيبوداميا Hippodamia ابنة «أونوماؤو» Onomaus ملك إليسا.

وكان هذا الزعيم قد أدمن على العبث بمصائر الناس. وأخذ يختبر كل من يتقدم لخطبة ابنته بأن يخضعه للتباري معه في سباق المركبات. فإذا سبقه الخطيب أو الطالب يد ابنته زوّجه هيبوداميا، أما إذا لم يسبقه فإنه يُقتل.

وجرب كثير من الخاطبين حظوظهم، ولكنهم خسروا السباق وخسروا معه حياتهم جميعاً. فعمد «بيلوب» إلى تدبير حيلة في الخفاء تمكنه من الفوز في السباق، وذلك بأن عمد إلى رشوة «مرتيلوس» سائق عربة الملك ليزيل المسامير أو الأوتاد التي تثبت عجلات العربة بمحورها، ووعده بأن يقتسم معه «المملكة» إذا ما نجحت الحيلة. وحدث في المباراة ما خطط له بيلوب. فقد انكسرت عربة الملك، وسقط منها الملك قتيلاً، وتزوج بيلوب من هيبوداميا، وحكم إيليسا، ولكنه لم يفِ بوعده مع مرتيلوس، بل ألقاه من على شاهق في البحر. وصبّ مرتيلوس وهو ينازع لعنته على بيلوب وعلى جميع نسله من بعده.

وأنجب بيلوب من هيبوداميا بنتاً، ما أن كبرت حتى زوجها من سطينيلوس Sthenelus بن فرسيوس Parseos ملك أرقوس. وورث الملك من بعده ابنهما حرستيوس Eurysteus. ولما مات هذا لم يعقب أحداً. فخلفه عمه «أثيريوس» Athereos. وهذا أنجب ولديه أجاممنون ومينيلاوس. فزوجهما من ابنتي «تون داريوس» Tyn dareos ملك «لقاديمون». ولما مات أتيريوس وتون داريوس اقتسم أجاممنون ومينيلاوس فيما بينهما بلاد البيلوبونيز بأجمعها، وحكماها من موكيني وإسبارطة. وسميت تلك البلاد بيلوبونيز نسبة إلى جدهما بيلوب الذي تلقى هو وذريته لعنة مرطيلوس[1].

(1) راجع: ديورانت، المرجع نفسه، ص77 - 78.

وقبل أن نتناول ما تتضمنه هذه القصة من حدث تاريخي وثيق الصلة بتسمية الـ «أحيني» نرى أن لا بد من التوقف قليلاً لشرح هذه التسميات التي هي جميعها سورية سريانية.

إن بيلوب Pelop ليس لها أي معنى بهذه الصيغة بأية لغة في العالم. وهي في الأصل السرياني مكونة من كلمتين «فعيلو» Paelo وقد سقطت العين كالعادة ولفظت الفاء P وتعني: فاعل، صانع، عامل. و«حوف» و«حوفي» وتعني: الخزي، العار، الخفي، المستور، السري... وهي من الفعل «حفى» وتعني: أخفى، حجب، أخزى، أخجل... وقد سقطت الحاء ولفظت الفاء P وصارت «أوبي» ومجمل التسمية «بيلوبي». وهو قد فعل ما يخزي في موطنه فريجيا، فهرب أو طرد، ثم فعل ما يخزي في «حليصا» بأن رشا السائق ثم غدر به، وكل ذلك كان في السر والخفاء كما توحي التسمية نفسها. وما تزال الكلمة مستخدمة في اللهجة العامية الدارجة في جبال الساحل السوري إلى اليوم. فيقولون «حوف عليك» أي عيب عليك.

وإن منطقة إيليسا في غرب المورة دُعيت بهذا الاسم لأنها كانت ملجأ اللّصوص الفارين. وهي في الأصل السرياني «حِليصا»، وفي القاموس السرياني من الفعل «حلِصْ» ويعني: خلس، سرق، سلب، نهب، قوّى، شدّد، حارب، قاتل، تشجع، كان شجاعاً. حولاصا: نهبة، مال منهوب مسروق.

وإن الملك «أونو ماؤو» المدمن على البطش بالناس كعادة يتسلى بها، هو في الأصل السرياني «عونو ماحو» وقد تحولت كل من العين والحاء إلى همزة. والتسمية تعني: المدمن على البطش. إن «عونو» هي اسم الفاعل من «عنى» ويعني: عني بـ اشتغل بـ، أدمن على. أما «ماحو» فهي اسم الفاعل من «محا» ويعني: غلب، انتصر، قتل، فتك، بطش. وفي هذا الفعل تحديداً يكمن سر التسمية كلها أو اللقب كله. فهو كان قد اعتاد، أو أدمن على الانتصار في السباق والقتل لمن خسر معه.

أما «مورتيلوس» الذي نزع المسامير من عجلات عربة سيده، فهو في الأصل السرياني «مورطي عيليو» وقد تحولت العين إلى همزة أو سقطت، ويعني نازع الأوتاد أو المسامير. إن «مورطي» اسم الفاعل من «مرط» وتعني في القاموس السرياني: نزع، قلع، استأصل، أزال، و«عيلو» تعني: السهم، الوتد، المسمار.

أما الصبية «هيبو داميا» فهو اسم كان منتشراً انتشاراً واسعاً بين النساء السوريات، ويعني: نخوة الدم، عز القبيلة أو العشيرة. إن هيبو Hippo هي في القاموس السرياني «حيفو» والفاء تلفظ P وتعني: قوة، حمية، نخوة، هجمة. و«داميا» من «دمو» وتعني هنا: الدم، رابطة الدم والرحم، الأصل، العشيرة، القبيلة.

وإن سيتنيلوس الذي تزوجته ابنة بيلوب فهو في الأصل السرياني «سطين حيلو» ويعني الخبيث الظالم. إذ «سطين» في القاموس السرياني تعني: الرديء، الخبيث، الظالم، الشيطان. و«حيلو» تعني: ظالم، قاهر. وأبوه «فرسيوس» تعني: الفاضح، هاتك الأعراض، وهو في السريانية من الفعل «فْرِسْ»: فضح، هتك، عرّى، شلّح... وقد دعي اسكندر بن فريام ملك طروادة بهذا اللقب فاريس Paris لما فعله بعرض مينيلاوس وخطف زوجته هيلين.

وهكذا انتهت تلك الذرية الفاسدة الظالمة وانتقل الملك إلى الفرع الآخر، وهو فرع «أتيريوس» ويعني الأثير، المفضّل، الصالح. وأتيريو هذا هو والد مينيلاو زوج الجميلة هيلين، وأجاممنون زوج أختها كليت مينسترا (الزهرة المخدّرة، أو العروس المخدّرة) وفي زمنها حدثت حرب طروادة.

أما يوريستيوس ابن فارسيوس ملك أرقوس فيعني لقبه: الخشن، الفظ، الغليظ، الأجرب، وهو في الأصل السرياني «حروستيو» من الفعل «حرش» ويعني: حرش، خرس، خشن، عتا، غلظ، جرب. ولما انتهى نسل بيلوب انتقلت الزعامة إلى أبناء تنداريو في لقديمونيا، وهم فالجيون، وأول القادمين، وبالتالي أبناء عم مع حكام أرقوس. ولما تزوج أجاممنون ومينيلاو، (ابنا تندريو) ابنتي أتيريو في أرقوس تحولت تلك الرابطة من جديد إلى «أخوة» و«تحالف» أي إلى «أحيني»، ولا يستحق الأمر إطلاق الغرائز التعصبية واختراع شعوب هندو أوروبية من خلال ذلك الالتقاء والتحالف!

لننتقل الآن إلى دراسة تلك العشائر من الناحية الأنتروبولوجية ومن خلال ما وصل إلينا عنها، والتي تؤكد جميعاً أنها عشائر عربية سورية بدوية نصف مستقرة، يشهد على ذلك نمط الحياة، والملامح، والعادات، والتقاليد، واللغة.

آ ـ النمط المعيشي:

تجمع كل المصادر التي نقلت لنا أخبار أولئك الإغريق الأوائل (أي الفارين) سواء أكانوا من عشيرة أرقو بن فالج أو ممن لحق بهم من أبناء فعيلو حوفي (بيلوبي) Pelope وشكلوا معهم حلف أخوّة «أحيني» على أنهم من العشائر العربية السورية البدوية شبه المستقرة. ذلك لأنهم:

- كانوا يعتمدون على الصيد وتربية الماشية بالدرجة الأولى، وعلى القليل من الزراعة. «وكان الأغنياء يعنون بتربية قطعان كبيرة من الماشية، والضأن، والمعز، والخيل»[1]، «وكانت الأرض ملكاً للأسرة أو العشيرة لا للفرد. وكان الأب هو الذي يشرف عليها ويصرف شؤونها، ولكنه لم يكن من حقه أن يبيعها»[2].
- «ولم يكن الإغريق تجاراً في تلك العهود القديمة. وأدوات الترف التي كانت توجد بوفرة في بيوت الأغنياء كانت تأتي من الشرق في سفن فينيقية»[3]. «وكانوا يحتقرون التجارة ويؤثرون القرصنة»[4].
- «وكان صناع السروج، والبناؤون، والنجارون، وصناع الأثاث يعملون في منازل من يكلفونهم بالعمل لهم. ولم يكونوا يعملون للأسواق، أو للبيع، أو للكسب... كانوا يعملون على مهل وليس وراءهم دافع من المنافسة الظاهرة. وكانت الأسرة نفسها تقوم بصنع أكثر حاجياتها. وكان رب الأسرة... يصنع ما يحتاجه بيته من سرر وكراسي، وما يلزمه من أحذية وسروج»[5].
- «ولم يكن عندهم نقود... وكان الثور والبقرة يتخذان واسطة للتبادل ... وكانت المقايضة كثيرة... وكانت ثروة الشخص تقدر بما عنده من بضائع، وخاصة بما عنده من ماشية لا بما يملك من قطع المعدن»[6].

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص88.

(2) المرجع نفسه، ص88 - 89.

(3) كيتو، المرجع السابق، ص48.

(4) ديورانت، المرجع السابق، ص89ـ90.

(5) المرجع نفسه، ص90.

(6) المرجع نفسه، ص90.

ـ وكان الغزو في صلب حياتهم اليومية، حتى ولو كان غزو بعضهم لبعض. فيقتلون الرجال ويسبون النساء، فكان الغزو، بهذا، أساس كل المفاخر والمناقبيات. يقول توكيديديس: «والحق أن هذا العمل أصبح أهم مورد من موارد الرزق للإغريق الأولين. ولم تكن هذه المهنة مما يجلّل صاحبها بالعار، بل كانت تكسبه المجد»[1].

ـ وكان العرف والعادات والتقاليد القبلية هي المسيطرة، ولم يكن هناك محاكمات، «بل كان على كل أسرة أن تدفع الأذى عن نفسها وتثأر. وكانت أعمال العنف كثيرة تسود المجتمع»[2].

ـ «والآخيون ينظرون إلى الأدب والكتابة على أنه تخنث وتدهور كما ينظر الرومان الذين عاشوا بعدهم بألف عام. وهم لا يستخدمون الكتابة إلا مضطرين، ولا يعرفون من الأدب إلا الأغاني الحربية (أناشيد الغزو وأبطال الملاحم) وأناشيد الشعراء الجوالين غير المكتوبة»[3]. «ولسنا نجد في أشعار هومر كلها إلا إشارة واحدة للكتابة... وكان الملك أو الأمير يجمع أتباعه حوله، يولم لهم وليمة، ويدعو شاعراً أو منشداً جوالاً ينشدهم على قيثارته شعراً ساذجاً يقص أعمال الأبطال من أسلافهم الأولين»[4].

ومن الثابت أن قبيلة ما، أو شعباً ما، لم يعرف الشعر أو الملاحم الشعرية في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد غير العرب أو السوريين تحديداً.

ـ ولما كانت العشائر العربية أو السورية، أو التي هي من أصل عربي أو سوري، هي الوحيدة بين قبائل الأرض التي تعرف الزواج والأسرة، فهي، بالتالي، الوحيدة أيضاً التي كان الأبناء فيها يعرفون آباءهم، وينتسبون إليهم، ويحافظون على شجرة النسب. «فأغلب أبطال هومر كانوا يستطيعون تتبع أ نسابهم حتى ثلاثة أجيال»[5]. وكان نظام تقسيم القبيلة هو نظام تفرع القبيلة العربية وحدها. وحتى الأثينيون فيما بعد «الذين كانوا مزيجاً من الفالاجيين الميسينيين والآخيين الفارين... فقد كان

---

(1) المرجع نفسه، ص94.
(2) المرجع نفسه، ص104.
(3) المرجع نفسه، ص87.
(4) المرجع نفسه، ص100.
(5) كيتو، المرجع السابق، ص16.

نظامهم الاجتماعي مستمداً من صلة الدم. فكانت كل أسرة تنتمي إلى قبيلة من القبائل يدّعي أفرادها أنهم من نسل بطل مقدس واحد، ويعبدون إلهاً واحداً، ولهم أركون (زعيم) واحد... ويقبلون ما تفرضه عليهم واجبات التعاون، والثأر، والدفاع. ويوارون التراب أخيراً في مدافن القبيلة. وكانت كل قبيلة من قبائل أتيكا الأربع تتألف من ثلاثة بطون، وكل بطن من ثلاثة أفخاذ، وكل فخذ من ثلاثين من أبناء الأسر أو نحوهم... ويغلب الظن أن كل بلدة أو قرية كانت في الأصل موطن بطن من البطون. وكانت تسمى أحياناً باسم هذا البطن، أو باسم الإله، أو البطل الذي تعبده. كانت هذه هي الحال في أثينا نفسها»[1].

إن في هذا كله، وهو غيض من فيض، تأكيداً على أننا أمام وصف لقبائل عربية نزحت إلى تلك البقاع. ويجدر أن نشير هنا إلى أن المؤرخين في الغرب لم يفهموا لفظة «رب» في الفصحى أو السريانية، وتعبير «رب الأسرة» أو العشيرة الذي هو سيدها وأبوها الذي تتحدّر منه في النسب، فدأبوا على ترجمتها إلى كلمة «إله»، وهم لم يكونوا «يعبدون» آباءهم كآلهة، بل يمجدونهم ويقدسونهم كأبطال مؤسسين.

أما إيمار فيضيف إلى ذلك التقسيم «الجنس» الذي يدعوه «الجينوس». يقول إيمار: «وأخيراً «الجينوس» الذي يأتي مباشرة فوق الأسرة، وهو القبيلة المحددة أو الأسرة الكبيرة. ويبدو أن القبيلة والأخوية قد انتظمتا في كل مكان تقريباً، في حين أن الجينوس لم يتأكد وجوده سوى في مدن معدودة. ويضم كل من هذه الجماعات مبدئياً... أولئك الذين ينحدرون من جد واحد»[2]. إن «الجنس» كلمة سريانية في الأصل، وهي أعم وأشمل من العشيرة والقبيلة، بعكس ما تصور إيمار.

ب ـ الملامح الفيزيائية:

مررنا على وصف ملامح هذا الإنسان نفسها في كريت، ونقلنا ذلك عن ديورانت، الذي أسهم مع غيره في تغييب الحقيقة حينما وافق على «اختراع» العرق الجديد الذي دعوه بـ «العرق المتوسطي».

(1) المرجع نفسه، ص201 – 202.

(2) إيمار، المرجع السابق، ص282.

وإلى تلك الأوصاف التي سبق أن مررنا عليها يضيف كيتو، هذه المرة مشكوراً، واحدة من الأوصاف المميزة لأولئك الإغريق، نقلها عن هوميروس كما هي بحرفيتها، وهي «أن الأخيين كانوا من ذوي اللون الـ Henthoi»[1]. إن كلمة «حنطوي» بالسريانية هي «حنطي» بالفصحى، وتعني بلون الحنطة، أي الأبيض الذي لوحته الشمس. لكن كيتو لا يتردد في أن يترجمها إلى «ذوي الشعر الأشقر»! إن تعبير «حنطوي» السرياني، و«حنطي» الفصيح لازمت وصف لون بشرة السوريين منذ الزمن الموغل في القدم إلى اليوم. وإن حوالي سبعين في المائة من السوريين اليوم مكتوب في بطاقاتهم الشخصية في بند «العلامات الفارقة» اللون: حنطي. وربما هم الوحيدون في هذا العالم الذي يستخدم هذه الكلمة للتعبير عن لون بشرتهم.

ج ـ العادات والتقاليد:

إنها عادات وتقاليد الأسرة في البيئة البدوية العربية أو شبه المستقرة منذ أن وجدت إلى هذا اليوم. فبالإضافة إلى ما ذكرناه من الالتزام بالنظام الأبوي، بدءاً من أب الأسرة أو ربّها، إلى أب العشيرة أو القبيلة، أو ربّها، بكل ما يستتبع ذلك من الحفاظ على وحدتها وتضامنها، وممارسة الغزو، والثأر، والحفاظ على نقاء السلالة، والحفاظ على النسب، والترفع عن الأعمال الجسدية الأخرى كالزراعة، والحرفة وغيرها، فإن هناك تفاصيل أخرى في غاية الأهمية من حيث قوة دلالتها وصمودها في البيئة البدوية العربية أو السورية منذ الزمن الموغل في القدم إلى اليوم. من هذه العادات:

- إن النساء عادة تحجب في البيوت، ولا يسمح لهن بالاختلاط بالأغراب، ولا يخرجن إلا برفقة أحد «المحارم» يستثنى من هذا من عرف منهن بأنها امرأة «حرة». إن لقب «الحر» للرجل، وبالسريانية «حيرو»، و«الحرة» للمرأة، وبالسريانية «حيرا» كان ـ وما يزال ـ أعلى الخصال التي يمكن أن يوصف بها كل من الرجل والمرأة. إن هذا الوصف للرجل أو للمرأة يعني أن الموصوف يتمتع بكل المناقب: الشجاعة، الصدق، الإيثار، الوفاء، العدل، التضحية... ويترفع عن كل الخصال السلبية وعن

(1) كيتو، المرجع السابق، ص.22

كل الصغائر، والمثل العربي الشهير «تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها» خير دليل. إن لقب «حيرا» هو الذي امتازت به امرأة زيوس دون غيرها. ولما كان الواقع البدوي يتميز عن المدني في المجتمع العربي أو السوري، فإن من فرّ من العشائر إلى شبه جزيرة المورة يسهل تمييزهم عن السوريين الآخرين في مواقع أخرى مثل الجزر وكريت الذين يمثلون التوسع الحضاري السوري. لهذا فإن «المبدأ الذي جرت عليه العمائر في أغريقيا يختلف عما كان متبعاً في كريت»[1].

وحتى المرأة الأثينية في القرن الخامس «كانت تعيش في عزلة شبه شخصية... فالأدب الإغريقي يرينا مجتمعاً كله من الذكور»[2]. وحينما كان الرجل يشتري حاجات الأسرة «فبدلاً من تسليمها لعبده لكي يحملها إلى البيت كان يحملها هو بنفسه في إحدى طيات جلبابه... وعندما كانت المرأة تخرج كان يستأجر فتاة صغيرة من سوق النساء لترافقها»[3].

أما المرأة «الحرة» فلها شأن آخر. وكلمة «الحرية» بهذا المعنى بقيت عصية على فهم كيتو الذي كتب يقول: «أما «أريتا» فإنها تستخدم دون اكتراث في كل النواحي وتعني مجرد «الامتياز». ويمكن أن يتحدد معناها بطبيعة الحال من سياق الكلام. فالـ «أريتا» بالنسبة لحصان السباق هي السرعة، وبالنسبة لحصان جر العربات هي القوة. فإذا ما استعملت في سياق الكلام عامة عن رجل فإنها تشير إلى الامتياز في الأساليب التي يستطيع الإنسان أن يكون ممتازاً فيها، سواء منها الأخلاقية أو الفكرية أو الطبيعية أو العملية... ويخبرنا هومر في بيت مشهور من الشعر كيف تلقى أخيل العلم. فقد عهد أبوه بتربيته إلى الفينيقي العجوز وطلب إليه أن يدربه ليكون «مؤلفاً للخطب، وقائماً بروائع الأعمال» وقد حاول البطل الإغريقي أن يجمع في ذاته الفضائل التي قسمها عصر البطولة التي نعيش نحن فيه بين الفرسان ورجال الدين»[4]. فالحرّ هو أيضاً الأصيل والكريم.

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص56.

(2) كيتو، المرجع السابق، ص288.

(3) المرجع نفسه، ص302.

(4) المرجع نفسه، ص224ـ225.

- الحب الأبوي وعادة التعبير عنه بالقبلات على الرأس والكتف التي ما تزال تشاهد في سوريا وغيرها إلى هذا اليوم. يقول ديورانت: «ولسنا ننكر أننا نشهد في هذه الثقافة كثيراً من الصفات والمناظر الرقيقة الرحيمة. وإنك لترى المحاربين أنفسهم كراماً، يعطف بعضهم على بعض، كما ترى بين الأب والابن حباً به من العمق قدر ما به من السكون والصمت. فها هو ذا أوديسيوس يقبل رؤوس أفراد أسرته وأكتافهم حينما يعرفونه بعد غيابه الطويل. وها هم أولاء يقبلونه كما يقبلهم»[1]. إن هذه العادة لم يعرفها المجتمع في الغرب منذ بدايته إلى اليوم، خاصة وأن المرأة كانت مشاعة، وحتى في أثينا نفسها تؤكد الرواية الأثينية «أن الأطفال قبل مجيء قيق رحوف (كيكروف = الطائر الرؤوف) لم يكونوا يعرفون آباءهم»[2].

وكان الحب بين الرجل والمرأة ـ بوجه عام ـ يتم بعد الزواج. والزواج كان شبه صفقة تؤدى بعدد من الثيران أو الأبقار أو غيرها من الماشية من قبل الخطيب لوالد الفتاة. «فكان الحب ـ عادة ـ ثمرة الاشتراك الطويل في العناية بالبيت وشؤونه. وفي الزوجة الهومرية من الوفاء بقدر ما في زوجها من عدمه»[3]. «وكان على كل أنثى منذ ولادتها إلى أن تموت أن تكون تحت وصاية زوجها أو أقرب أقاربها الذكور... وكان أقاربها من الذكور له الأحقية في طلب الزواج منها»[4]. إن حكاية أولوية «ابن العم» بالزواج من ابنة عمه ما تزال تثير الكثير من المشاكل عند القبائل العربية إلى اليوم.

ولم يكن من فرصة للشاب أن يرى فتاة إلا في احتفال عام. «ويفهم من هذا ضمناً أن فرصة الاستهداف لهذا العناء لم تكن تواليه إلا قليلاً في الحياة الاجتماعية العادية... كما أننا نسمع من ثيوفراتس أن الشاب قد يناجي محبوبته بأغنية بالليل»[5].

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص92.
(2) المرجع نفسه، ص97.
(3) المرجع نفسه، ص98.
(4) كيتو، المرجع السابق، ص291.
(5) المرجع نفسه، ص289.

- احترام كبار السن: إن من تقاليد العربي أن يقف لكبار السن عند قدومهم أو إلقائهم التحية، سواء كانوا من الأسرة أم من خارجها. فقد روى بلوطارخ كيف أن رجلاً مسناً أخذ يبحث لنفسه عن مقعد أثناء الألعاب، «فلما انتهى إلى حيث يجلس الاسبارطيون وقف كل شاب فيهم، وكثيرون ممن تخطّوا مرحلة الشباب وعرضوا عليه مكاناً للجلوس»[1].

- الأكل بالأيدي والأصابع: من المعروف أن البدوي العربي ما يزال إلى اليوم يستخدم صفّاً من «مناسف» الأرز واللحم، أو البرغل واللحم، في المضافة، ويستخدمون اليد والأصابع بدلاً من الملاعق. وهذه العادة انتقلت معهم إلى أغريقيا كما هي. «كانوا يجلسون على كراسي ممتدة على طول الجدار لا مصفوفة حول مائدة وسطى. ولم يكونوا يستخدمون الشوك أو الملاعق أو الفوط إلا ما عسى أن يكون مع الضيوف. وكانوا يأكلون بأيديهم وأصابعهم»[2]. «وكانت وجبة الغذاء الرئيسية في أثيكا تتكون من لونين من الطعام أولهما نوع من الثريد وثانيهما نوع من الثريد»[3]. وهو بالسريانية «أتريدا» أي الخبز باللحم ومرق اللحم.

- إكرام الضيف، هذه الخلّة التي تلازم العربي كجزء كبير من هويته، لم تفارق أولئك الفارين «الإغريق» في مغتربهم. فكما أن العربي اشتهر بالقِرى حتى صار «الميقارون» (أي المضافة) الجزء الأهم من بيته في الداخل والخارج. وعلى أساس «الميقارون» أقام بيوت العبادة، وصار الداخل إلى البيت كالداخل إلى بيت الرب، له كل الحرمة، ويلقى كل إكرام، وكما يكرم العربي ضيْفه فإنه يجير المستجير ويؤوي الغريب والعابر وابن السبيل، والكل ضيوف السيد، وضيوف الرحمن.

ينقل ديورانت صورة أولئك الإغريق الفارين: «وهم شديدو السخاء على الأضياف «لأن الغرباء وأبناء السبيل أبناء زيوس» والعذارى يغسلن قدمي الضيف... وربما قدّمن له ثياباً غير ثيابه. وهو يجد الطعام والمأوى إذا كان في حاجة إليهما»[4].

---

(1) المرجع السابق، ص.
(2) المرجع السابق، ص.
(3) المرجع السابق، ص.
(4) ديورانت، المرجع السابق، ص93.

ومن عادة العربي أن يقوم بكل واجبات الضيافة إزاء ضيفه لمدة ثلاثة أيام دون أن يسأله عن نفسه أو عن حاجته إن كان له حاجة. فالمثل العربي الشائع «ضيف العرب ثلاثة أيام» يعبر عن هذه العادة. إن هذا هو ما لمسناه في قصة أدرستوس التي نقلناها من قبل عن هيرودوت.

وينقل لنا يوروبيدو في مسرحيته الشهيرة «إلقترا» صورة حية عن لقاء فلاح فقير لضيفه:

«يقول الفلاح: ادخلا إذن. إن بيتي متواضع، ولكني أضع كل ما فيه تحت تصرفكما».

- والدليل التفصيلي الآخر على أن أولئك الإغريق (أي الفارّين) هم شراذم ضئيلة من قبائل عربية أو سورية بدوية تحديداً أو شبه مستقرة، هو أنهم «لم يأتوا معهم بفن، وإنما الذي جاؤوا به كان لغةً بالفعل»[1].

د ـ اللغة:

من المعروف أن العربية بلهجتيها السريانية والفصحى هي أقدم لغة على وجه الأرض، لأنه صار من الثابت أنها اللغة التي تكلمت بها التجمعات الأولى للإنسان العاقل وفي المشرق العربي أو سوريا القديمة تحديداً. لهذا فقد حملت مع هذا الإنسان كل خبراته، وإبداعاته، وتغيراته، وتفاعلاته عبر العصور الطويلة، فأضحت أغنى لغة، وأكثرها قدرة على التعبير ودقة وإحكام بنيان. إن في العربية الفصحى وحدها ما ينوف على ستة عشر ألف جذر، أي فعل. بينما في اللغات الأنكلو ساكسونية قرابة ألف جذر إلى اليوم، وفي اللاتينية قرابة ستمائة جذر فقط. إن هذا مما أدهش الكثير من الباحثين في الغرب حين تطرقهم للغة أولئك الإغريق، ومنهم كيتو.

يقول كيتو: «ونحن نجد في اللغة الإغريقية ـ في تركيبها نفسه ـ ذلك الوضوح والتحكم في التركيب الذي نشاهده قبل كل شيء في فن الإغريق الكلاسي ولا نجده في الفن الذي سبقه. فاللغة الإغريقية... تتغير نهايات كلماتها تبعاً للإفراد والجمع والتذكير والتأنيث، كما أن ترتيب الكلمات في الجمل عظيم الإتقان والدقة. وكلما استطاع الإنسان أن يرجع إلى عهود أقدم في تاريخ اللغة وجد التغييرات التي تطرأ على أواخر الكلمات أكثر إتقاناً، ووجد ترتيب الكلمات في الجمل أدق بطرق شتى. فترتيب الكلمات في الجمل أكثر تغيراً وأقل جموداً في

(١) كيتو، المرجع السابق، ص28.

اللغة الإغريقية منه في اللاتينية... أما الأسلوب البلاغي فقد فطر عليه الإغريق ولم يكتسبوه اكتساباً. فمثلاً يوجد للفعل الإغريقي العادي عشرة من أسماء الفاعل والمفعول»[1]. إن هذه المظاهر البلاغية التي يتحدث عنها كيتو ويضمها إلى أسماء الفاعل والمفعول والتي يدعوها العرب صيغ المبالغة من الفعل، تتفرّد بها اللغة العربية وحدها بين لغات العالم قاطبةً. فمنها ما هو على وزن «فاعل» مثل كاتب، وعلى وزن «فعيل» مثل عظيم، وعلى وزن «فعِل» مثل شره، نهِم، وعلى وزن «فعول» مثل أكول، وعلى وزن «فعّال» مثل بَتّار، وعلى وزن «مِفعل» و«مفعال» مثل مِفتح ومفتاح، وعلى وزن «مستفعل» مثل مستبّد. وعلى وزن «مُفعِل» مثل مُقبل. وعلى وزن «مفعّل» مثل مقبّل. أعود فأقول: إنها عشر صيغ تدل على الفاعل وحده دون المفعول. وإلى جانب هذا الغنى تميز العربي بالإيجاز المدهش في تعبيره البلاغي. وهذا أيضاً ما لفت أنظار الباحثين في الغرب عند أولئك الإغريق. يقول كيتو: «إن عقل أي شعب قد يفصح عنه تركيب لغته بطريقة مباشرة أكثر من أي شيء آخر من صنع يده، ولكننا نجد في كل عمل إغريقي هذا الفهم الراسخ للفكرة والتعبير عنها بشكل واضح موجز، كما نجد مع هذا الوضوح ومتانة البناء والجد والرصانة حساسية مرهفة ورشاقة لا تنفد»[2].

ومن المعروف أن العربي كان الوحيد الفصيح بالفطرة، والذي ينظم الشعر فصيحاً على السليقة، مما شكّل ظاهرة عرف بها. وهذه الظاهرة استمرت معه ملازمة له، بعكس ظاهرة البلاغة في بلاد المورة التي ظهرت مع وفود الإغريق الفارين اللاجئين إليها في أوج دقتها، ثم انحدرت إلى أن تلاشت واختفت نهائياً بعد عودة النازحين (الإغريق) في القرن الرابع قبل الميلاد إلى الوطن. ومن مظاهر ذلك الفن البلاغي ما اشتهر به العرب من فن الجناس والطباق والسجع، ولا سيما في الخطابة، هذه الظاهرة التي استمرت عند عرب ما قبل الإسلام، وفي العصر العباسي الأخير، أو ما دعي بـ «عصر الانحطاط». يقول كيتو: «إن الطباق الذي يبرزه التشابه في الأساليب والأفكار بأنواعه المختلفة، وكذلك السجع متعب بصورة لا يمكن التعبير عنها. فلم يكن العيب في الأسلوب الإغريقي هو انعدام الترتيب والشكل مما يدل على العجز، ولكن العيب هو مراعاتهما بطريقة متكلفة»[3].

---

(1) المرجع نفسه.
(2) المرجع نفسه، 30.
(3) المرجع نفسه، ص244.

إن الفصاحة في الخطاب جزء من الزعامة عند العرب، وإن ثمة تعابير نموذجية في كلام العرب. يقول ديورانت: «وكان أعظم أعضاء البولي bole (مجلس الأمراء بالسريانية وهي جمع بول أي أمير) فائدة أفصحهم لساناً وأقدرهم على التأثير في عامة الناس. وإنّا لنشهد منذ ذلك الوقت البعيد في الشيخ نسطور الذي «يسيل كلامه من لسانه أحلى من الشهد» وفي أوديسيوس المخاتل الذي تقع كلماته «على الناس وقع هشائش الثلج» بداية ذلك السيل من الفصاحة»[1]. إن تعبيراً كهذا «الكلام الذي يثلج الصدر» نموذجي tipical في كلام العرب وحدهم، وليس له علاقة بسكّان المناطق الباردة.

أما حول الحديث المفصل عن هذه اللغة فإننا سوف نرجئه إلى حين إتمام حديثنا حول الموجات الفرارية (الإغريقية) المتتابعة في مراحل متقطعة، وحسبنا هنا أن نبين للقارئ معاني تلك الألقاب «الإغريقية» التي خبأ سرها السوريون في كلامهم السرياني، كما دأبنا إلى الآن. كما أنه من الواجب أيضاً هنا أن نلفت الانتباه إلى حيرة وضيق كيتو وأمثاله ممن يصرّون على إلباس الإغريق ذلك الثوب الوهمي والذي دعوه «الآري» أو «الهندو أوروبي»، ثم تفجأهم حقيقة الأسماء ومن بينها أسماء المدن «الإغريقية» ذاتها التي لا يعرفون كيف يخيطون لها رقعاً «آرية»! ويذكر لنا كيتو جملة من تلك الأسماء مثل: تلاسا، هاليكونو (مسقط رأس هيرودوت في كيليكيا)، قورنتا، لابيرنت... ويقول: «وكلها مألوفة لنا. فهل هي آتية من الخارج؟ وهل كانت قورنتا في أصلها مستعمرة أجنبية؟ من الجائز ذلك. غير أن الذي يثير العجب أكثر من قورنتا هو أن «أثينا» ليست اسماً إغريقياً، وكذلك الإلهة أثينا. إن العاطفة على الأقل، فضلاً عن تقاليدنا الموروثة، لتثور على الفكرة القائلة إن أثينا مدينة باسمها لأجانب أقحموا أنفسهم على الإغريق»[2].

وكنا قد شرحنا معاني هذه الأسماء السريانية. أما «تلاسا» فتعني البحر.

ويكفي هنا أن نشير إلى مثل واحد من قلب بلاد الإغريق، ألا وهو مدينة قورنتا. كنا قد ذكرنا من قبل كيف أن قورنتا الواقعة على الخليج الذي يقطع أرض المورة من منتصفها ومن الغرب إلى الشرق وسمّي باسمها والذي يعني الجرة، كانت ـ من وجهة نظر قدامى السوريين

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص102 - 103.
(2) مكاوي، المرجع السابق، ص46.

ـ الموقع الوحيد الصالح لإقامة مستوطنة في شبه الجزيرة كلها. لهذا فقد تم استيطانها منذ العصر الحجري الحديث، وقبل أية ظاهرة إغريقية، وقد عرفت عند هومر باسم إيفيرا Ephera، والكلمة سريانية وتعني الجرة أيضاً. «وقد عرفت بعلوّ شأنها في إنتاج الخزف الذي عرف باسمها فضلاً عن أنها أصبحت عاصمة تجارية وصناعية كبيرة»[1]. ولقد ظل سكانها سوريين منذ أول إنشائها وحتى ما بعد المسيح، يتكلمون لغتهم السريانية. وأكبر دليل على ذلك الرسالة التي وجهها بولس الرسول إلى أهل قورنتا تحديداً والتي كانت بالسريانية[2].

هـ ـ البيت أو المسكن:

إن من يعرف بيوت الفلاحين الفقراء في قرى جبال الساحل السوري حتى الستينات من القرن الماضي (العشرين)، أي إلى أن أنشئت فيها شبكة الطرق ووصلتها الكهرباء، ويقرأ وصف ديورانت لمساكن أولئك الإغريق الفارّين، لن يتردد لحظة في الحكم أنه إنما يقف أمام أي مسكن من مساكن السوريين في هذه المنطقة من سوريا على الأقل. لنقرأ ما ينقله لنا ديورانت، ثم لنحكم:

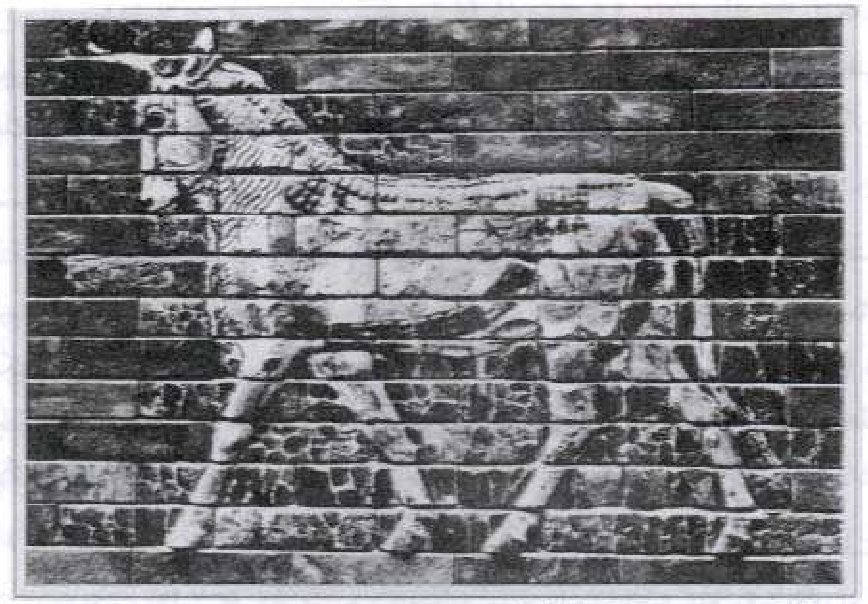
«وفي وسعنا أن نستدل من حديث أوديسيوس على أن المساكن العادية في عصره كانت تشاد من اللبن على أساس من الحجارة. وأرضها من الطين المطروق بالأقدام... وكان السقف يتخذ من الخشب تعلوه طبقة من الطين لا تميل إلا بالقدر الذي يمكّن الأمطار من الانحدار. وكانت الأبواب مفردة أو مزدوجة. وقد تكون لها مزالج أو مفاتيح. أما المساكن التي هي أعلى من هذه درجة فكانت جدرانها تطلى بالجبس الملون، وتزيّن حافاتها أو تنقش، وتعلق عليها الأسلحة والتروس والنسيج المنقوش. ولم يكن في الدار مطبخ، ولا مدخنة، ولا نوافذ. وكان في وسط بهوها الوسط فتحة يخرج منها بعض الدخان المنبعث من الموقد، وتخرج بقيته من باب الدار، أو تستقر صناجاً على الجدران. وكانت الحمامات من المرافق التي تحتويها بيوت الأغنياء، أما غيرهم فكانوا يقنعون بوعاء من الخشب بدل الحمّام. وكانوا يتخذون أثاثهم من الخشب الثقيل، وكثيراً ما كان يصقل وتحفر فيه أشكال فنية جميلة»[3].

(1) عياد، المرجع السابق، ص205.

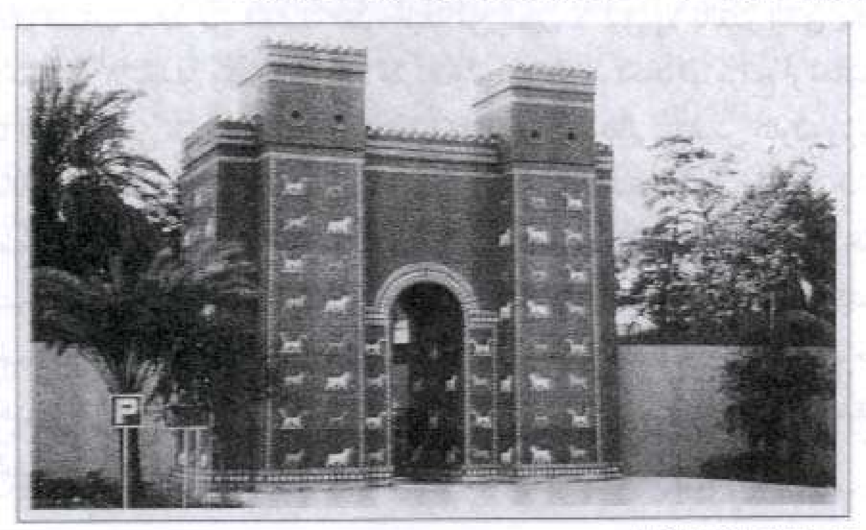
(2) المرجع السابق، ص.

(3) ديورانت، المرجع السابق، ص100 – 101.

«وكانت مجامر نحاسية مستقرة على قواعد عالية تضيء البيت إضاءة مضطربة غير مستقرة. وكان في وسط البهو مدفأة الدار تجتمع الأسرة حول نارها المقدسة أثناء الليل للدفء، والطرب، وللتحدث عن أخبار الجيران، وعناد الأطفال، وتقلبات الأيام»[1].



صورة رقم (31) : بوابة عشتار – تمثال ثائر على ألواح آجرية مزججة – بابل – 480 قبل الميلاد.



صورة رقم (32) : بوابة عشتار في بابل.

---

(1) المرجع نفسه، ص102.

إن هذا، باختصار شديد، وصف كامل ودقيق لمساكن كل الأسر في ساحلنا السوري منذ القديم وحتى منتصف الستينات من القرن الماضي.

لكن هذا لا يعني أن المساكن في المدن ومساكن الأغنياء لم تكن مختلفة تماماً ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد. وأكبر مثال على ذلك منازل الأغنياء في مدينة ماري السورية التي تعود إلى ما يقرب من خمسة آلاف عام، والمنازل في بابل وأنطاكية ودمشق واللاذقية وغيرها في كل العهود وعلى مر كل العصور المعروفة من التاريخ.

«عكرو بولي» (الأكروبوليس) والـ«بولي» (بوليس):

وبديهي أن مجتمعاً صغيراً مكوناً من بضع أسر فارّة مع مسروقاتها إلى بلاد جبلية معزولة، سكانها الأصليون لم يتجاوزوا مرحلة سكنى الكهوف وأكل لحوم البشر، كان سوف يخضع في مغتربه إلى حكم رؤساء الأسر أو العشائر الذين أطلق عليهم بلغته السريانية اسم «بولي» bole التي هي جمع «بول» وتعني الأمراء.

وكان من الطبيعي أيضاً أن يقيم أولئك الأمراء في حصن حصين يقام على تل أو ربوة بحيث يظل مشرفاً على ما حوله ولا يفاجأ بغزوة أو بغارة من قبل السكان الهمج في تلك البلاد. هذا الحصن أطلقوا عليه بالسريانية اسم «عكرو بولي» akro bole ويعني حصن الأمراء، أو سلالة الأمراء. إذ أن كلمة «عكرو» هي في القاموس السرياني من الفعل «عكِرْ» ويعني: حجر، منع، صدّ، عاق. «عكرو»: ذرية، سلالة، قبيلة، صادّ، مانع، حصن. وقد تحولت العين كالعادة إلى همزة، وأضيف إلى نهايتها السين اعتباطاً ككل الأسماء الأخرى.

لقد احتار المؤرخون في الغرب في فهم معنى كلمة «بولي» bole التي أضيف لها السين وصارت «بوليس»، فأخذوا يفسرونها تفسيرات غريبة كل بما تمليه عليه «قريحته» حتى صارت تعني: الدولة، والمدينة، والشرطة (البوليس)، والجماعة، والشعب، والحصن، والسياسة... دون أن يحاول أحد الاقتراب من حقيقتها اللغوية والسكانية وبالتالي التاريخية الصحيحة.

إن كلمة «بولي»، كما أسلفنا، تعني الأمراء. واجتماعهم يعني اجتماع رؤساء الأسر أو العشائر للبحث في الشأن العام واتخاذ ما هو مناسب سلماً أو حرباً. وهذا جانب آخر من التقليد القبلي العربي. فقد كان الزعماء أو الرؤساء أو الأمراء يعقدون هذه الاجتماعات في مكان دعوه «الندوة». وندوة رؤساء قريش مشهورة في التاريخ، واستمرت حتى ظهور الإسلام. وقصة إشهار حمزة عم الرسول لإسلامه في دار الندوة وهم مجتمعون أشهر من أن تحكى. ودار الندوة هذه هي بالسريانية «بيت بولي» أي مقر الأمراء، ندوتهم، دار الندوة.

نلتفت الآن إلى كيتو، ولنراقب كيف أنه «جيّش» كل إمكاناته وإبداعاته الفكرية واللغوية في محاصرة هذه التسمية السريانية من أجل التوصل إلى «حقيقة تاريخية» أوروبية لأولئك الإغريق!

يقول كيتو:

«غير أننا لن نفهم تاريخ الإغريق إلا إذا أدركنا ما كانت تعنيه «البوليس» للإغريق. وعندما ندرك ذلك سنفهم أيضاً لماذا أنشأها الإغريق وتوسعوا فيها وحاولوا بمثل ذلك العناد أن يحافظوا عليها. دعنا إذن نفحص الكلمة وهي في دور العمل»[1].

ويضيف: «بوليس» هي اللفظة الإغريقية التي نترجمها بعبارة «دولة المدينة»، وهي ترجمة رديئة، لأن الـ «بوليس» العادية لم تكن كثيرة الشبه بالمدينة، كما أنها كانت أكثر من الدول بكثير. ولكن الترجمة كالسياسة هي فن الشيء الممكن، وطالما ليس لدينا هذا الذي سماه الإغريق الـ «بوليس» فلن يكون لدينا كلمة تقابلها. ونحن من الآن فصاعداً سوف نتجنب عبارة «دولة المدينة» لأنها مضلّلة، وسنستعمل الكلمة الإغريقية بدلاً منها... وأول سؤال لنا إذن هو: ماذا كانت البوليس؟ إننا نرى في الإلياذة نظاماً سياسياً يبدو مألوفاً لنا، ومن الممكن أن ندعوه طبقاً لأذواقنا إمّا نوعاً راقياً أو نوعاً منحطاً من القبلية. وفي هذا النظام نرى ملوكاً مثل أخيل... وأجاممنون ملك الناس وهو أشبه بأمير من أمراء الإقطاع... وهو يستشير الملوك أو الرؤساء الآخرين في الأمور التي تتعلق بالصالح العام، فهناك مجلس يعقدونه بانتظام... وهذا المجلس يمكن التعرف على أنه من الخصائص الأوروبية لا الشرقية»[2].

(1) كيتو، المرجع السابق، ص88ـ89.

(2) المرجع نفسه، ص.88

إن كيتو في هذا القول يعبر عن شيئين هامين: عن مجلس شيوخ العشائر أو أمراء العشائر في القبيلة العربية المعروفة به منذ أن وجدت، والأمر الثاني عن جهل كيتو بتاريخ الشعوب وبتاريخ الشعوب الأوروبية تحديداً التي - بشهادة كل المؤرخين الموضوعيين - لم تكن قد تجاوزت مرحلة سكنى الكهوف وأكل لحوم البشر بعد. ويضيف:

«كان معناها أولاً ما أصبح يسمى فيما بعد «الأكروبوليس» أي حصن المجتمع ومركز حياته الاجتماعية. أما المدينة التي كانت تنشأ حوله دائماً فقد كان يطلق عليها اسم آخر هو «أستو asto». غير أن كلمة «بوليس» سرعان ما صارت تعني إمّا الحصن وإمّا القوم الذين استخدموا هذا الحصن إن جاز لنا أن نقول ذلك. ولهذا فنحن نقرأ في توكيد يديس «أن أفيدامنوس هي بوليس على يمين المسافر بحراً في خليج اليونان»... وهذا معناه أن هناك مدينة اسمها أفيدامنوس، وإن كان من الجائز أن تكون صغيرة جداً، وهي المركز السياسي للأفيدامنيين... وإن أتيكا هي رقعة الأرض التي يقطنها الأثينيون، وهي تشمل أثينا أي «البوليس» بالمعنى الضيق وبيريه وقرى أخرى... بهذا المعنى تكون «البوليس» هي الدولة عندنا...»[1].

لنتوقف قليلاً من أجل شرح بعض هذه الكلمات السريانية المحاصرة من قبل كيتو وغيره:

إن «أستو asto» تعني بالسريانية المشتى، كما أن «أسطو» تعني القصر، الرواق. وهذا يعني أن الأمراء يلجأون إلى الحصن الذي على ظهر التل إما عند الحالات الطارئة أو صيفاً، وفي الشتاء يسكنون القصر في الأسفل. وإن «أفيدامنوس» التي ترجمها إلى «مدينة» هي في السريانية «أفي» aphi وتعني: وجوه، أعيان، و«دامنو» وتعني: الناس، القرابة، أبناء الدم الواحد. وبالتالي فهي مرادفة لكلمة «بولي» إذ أن البولي أي الأمراء هم وجوه الناس وأعيانهم.

يتابع كيتو: «وفي مسرحية أنتيجونا لسوفوكليس نجد تعابير كهذه: يتقدم كريون ليعلن أول تصريح له بصفته ملكاً فيقول: سادتي، أما بالنسبة للبوليس فقد أخرجتها الآلهة سالمة من العاصفة... ثم يتشاجر الملك مع ابنه شجاراً عنيفاً ويقول: ماذا؟ هل هناك أحد سواي يحكم في هذه الأرض؟ فيجيبه هايمون: هذه ليست بوليس يحكمها رجل واحد فقط... فيوضح الجواب جانباً آخر هاماً من فكرة البوليس، وهو أنها مجتمع، وأن شؤونها تخص الجميع...»[2].

(1) المرجع نفسه، ص 88.

(2) المرجع نفسه، ص89.

ويضيف كيتو: «لنستمر في إيضاح معنى الكلمة. إن الجوقة (المجموعة) في مسرحية أرستوفان المسماة «أهل أخارنيا» حين أعجبت بسلوك البطل توجهت برجاء هاك ترجمته الحرفية: «هل ترون أيها «البوليس» بأجمعه؟» إن الطرف الذي وقع عليه الظلم يتأكد من قبوله العدالة إذا أمكنه أن يصرح بمظلمته للبوليس بأكمله. والكلمة هنا على ذلك تعني «الناس» وهو ما يميزها تمييزاً فعلياً عن «الدولة»[1].

مرة أخرى يثبت كيتو فشله وخيبته. فالبولي هنا لم تخرج عن معناها السرياني الأصلي: رؤساء العشائر، الأمراء، مجلس الأمراء، دار الندوة. ويتابع كيتو ركضه خلف تعبير هنا وتعبير هناك وردت فيه كلمة الـ «بولي» ليثبت لنا كم هو مجتهد وحريص على استنباط كل المعاني وهو ما زال قابضاً على عنق الكلمة في حصار خانق لها.

يقول كيتو: «وترينا يوكاستا الملكة المحزونة في مسرحية «أوديب» شيئاً آخر عن مدى ما تعنيه هذه الكلمة. فقد تساءل الناس عمّا إذا كان زوجها أوديب هو الرجل الملعون الذي قتل الملك السابق لايوس، فصاحت يوكستا: لا، لا! هذا غير ممكن. لقد قال العبد إن لصوصاً هم الذين هاجموهم لا لصاً واحداً، وهو لا يمكن أن يتراجع في كلمته الآن، فقد سمعته «البوليس» لا أنا وحدي. فالكلمة مستعملة هنا دون أن تقترن بالسياسة بتاتاً، فهي، إن جاز لنا القول، بعيدة عن محيط العمل الرسمي، ومعناها «جميع الناس». وهذا المعنى ليس بارز الاستعمال على الدوام وإن يكن موجوداً»[2].

مرة أخرى يطيش سهم كيتو! إن كلمة «بولي» حتى الآن لم تخرج عن معناها السرياني الأصيل «مجلس الأمراء».

ثم يتابع كيتو حديثه ليقول نافخاً صدره في شعور واهم بالانتصار: «قد عرفنا الآن ما يكفي عن كلمة «بوليس» لكي نتحقق من عدم إمكان ترجمة مثل الجملة العادية الآتية: »إن واجب كل إنسان أن يعاون البوليس»، إذ لا يجب أن نقول: أن يعاون الدولة!»[3].

---

(1) المرجع نفسه، ص90.
(2) المرجع نفسه.
(3) المرجع نفسه، ص91.

ثم يخلص كيتو إلى النتيجة التي ربما يعتقد من خلالها أنه «جلب الذئب من ذيله» فيقول: «فالبوليس إذن التي كان معناها «القلعة» في الأصل قد يبلغ بها الأمر أن تعني حياة مجتمع من الناس بأكمله بما في ذلك حياته السياسية والثقافية والخلقية بل والاقتصادية كذلك»[1].

إن كل ما فعله كيتو هو أنه كوّم الكثير من الركام حول المعنى الأصلي السرياني للكلمة، بحيث جعل الوصول إليه أمام أي إنسان آخر في الغرب أمراً أكثر تعقيداً. ولقد كانت «دار الندوة» أو الـ «بولي» مقتصرة على أبناء الأسر السورية المهاجرة، أو الفارّة (الإغريقية) وحدها دون غيرها. وهذا ما سوف نفصل فيه أكثر في موقع لاحق من هذا الكتاب.

«وكان إذا تطلب الأمر أن تعمل العشائر مجتمعة فإن رؤساءها يطيعون أوامر أقواهم سلطاناً، ويتخذونه ملكاً عليهم، ويدينون له بالطاعة هم وجيوشهم من الأحرار وأتباعهم العبيد. وكان أقرب الرؤساء إلى الملك مسكناً، وأكبرهم مقاماً عنده يسمون «الصحابة»، وهذا هو الاسم الذي أطلق عليهم أيضاً في مكدونيا أيام فيليب وفي معسكر الاسكندر»[2]. و«الصحابة» جزء من التقاليد العربية الراسخة. وليس من عربي أو مسلم على وجه الأرض لا يعرف هذا التعبير «صحابة النبي محمد».

وعن حجم الـ «بوليس» التي كان قد اعتبرها كيتو مرة أنها «أكبر من الدولة بكثير» يقول:

«إن حجم الـ «بوليس» من المهم أن ندركه. فحين يتناول القارئ الحديث ترجمة لـ «جمهورية» أفلاطون أو لسياسة أرسطو يلاحظ أن أفلاطون يقرر أن مدينته المثالية تضم خمسة آلاف مواطن، كما أن أرسطو يقرر أن على كل مواطن أن يكون في إمكانه معرفة جميع المواطنين الآخرين بمجرد النظر... وأن أفلاطون يتصور الـ «بوليس» طبقاً للمقياس الهيليني العادي، بل إنه يعني في الحقيقة أن كثيراً منها كان بها أقل من خمسة آلاف مواطن»[3].

---

(1) المرجع نفسه، ص94.

(2) ديورانت، المرجع السابق، ص102.

(3) المرجع السابق، ص81

أخيراً يقرر كيتو أن يقترب من الحقيقة:

«لقد كان البوليس مجتمعاً حياً مؤسساً على صلة الرحم الحقيقية أو المفروضة. بمعنى أنه كان عائلة كبيرة يتحول فيها أكبر قدر ممكن من الحياة إلى حياة عائلية، وفيه بالطبع منازعاته العائلية التي كانت مرارتها أشد لأنها كانت منازعات عائلية»[1].

إنه فعلاً مجتمع العشيرة، والـ «بولي» ليس إلا مجلس شيوخها أو أمرائها.

و ـ الدين والآلهة:

ذكرنا من ذي قبل كيف أن أولئك الإغريق الفارّين كانوا يمثلون القبيلة العربية شبه البدوية. ولهذا فإن رابطة الدم والنسب كانت أقوى رابطة فيما بينهم، وبالتالي فإن تمجيد الجد الأكبر للعشيرة أو القبيلة، الذي هو البطل المؤسس عادةً، كان هو الظاهرة التي تطغى على غيرها من المظاهر الدينية الأخرى. أما الآلهة الخالقة فكانوا يطلقون عليها لفظة الـ «كبيري» (أي الكبار، العظام) دون أن يسمحوا لأنفسهم بتسميتها. وفوق هذا فقد قدّسوا القوى المتحكمة بنظام الكون الضرورية لاستمراره ودعوها «أنوناقي». والكلمة في القاموس السرياني تعني: الضرورات. وقد ذكرها هومر. يقول كيتو: «إن الإغريقي لم يكن يشك لحظة في أن العالم ليس متقلب الأهواء، بل هو خاضع لقانون ثابت. ولهذا فإنه قابل للتفسير. وإننا لنجد هذه الفكرة حتى عند هومر الذي جاء قبل عهد الفلاسفة. فوراء الآلهة توجد قوة غامضة (وإن كانت هي والآلهة تعتبر شيئاً واحداً) يسميها هومر «أنانكي» أي الضرورة أو نظام الأشياء الذي لا تستطيع حتى الآلهة نقضه»[2]. وجدير بنا أن نلاحظ أن قدامى السوريين قدّسوا هذه القوى منذ ما دعي بالعهد السومري ودعوها باسمها نفسه «أنونقي»[3]. حيث جاء في قصة الخلق السومرية ما يلي: «ولد الإله «آن» (إله السماء) آلهة الـ «أنوناقي»[4]. والكلمة في القاموس السرياني تعني: الضرورات، الحتميات.

---

(1) المرجع نفسه، ص98.

(2) كيتو، المرجع السابق، ص231.

(3) صموئيل كريمر، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، بغداد.

(4) صموئيل كريمر، من ألواح سومر، ص 161 .

أما الخلط فيما بعد بين رب الشمس «زيو» مع الحاكم في أرقوس فهذا نتيجة لتخلف السكان الأصليين الذين دجنهم أولئك الإغريق، واستخدموهم في مزارعهم الصغيرة، وفي أعمالهم الأخرى. وقد استثمرها زيوس الحاكم أي استثمار في مضاجعة «الحوريات» من ساكنات الكهوف، اللاتي أنجب منهن، هو وغيره، أنسالاً كثيرة لم يعترف لها بالشرعية ولا بالمواطنية. وهذا سيكون لنا معه وقفة أخرى في مكان آخر. أما الآلهة السورية الأخرى مثل: أفروديت وأدونيس، وأرتميس وأتيس، واثينا وبوسيدون... وغيرهم فسوف يأتي عنها الحديث مفصلاً في فصول لاحقة.

3 - النزوح الإغريقي الفينيقي

قدموس وجماعته

تحدثنا مفصلاً من ذي قبل كيف أن الفينيقيين حاميون، من أبناء كنعان بن حام بن نوح، قدموا إلى الساحل السوري في حوالي 2750 ق.م، من شواطئ البحر الأريتري (الخليج العربي فيما بعد)، نتيجة لضربات زلزالية أصابت تلك المنطقة، وعمّروا صور على اسم المدينة الأم (في عمان الحالية) وسكنوا صيدا، وانتشروا على بعض سواحل أرواد وجبيل وغزة، واشتغلوا في صيد البحر وتجارته بالدرجة الأولى. لقد اغتنموا الازدهار الاقتصادي الذي عاشته الدولة السورية، وانتشار خطوط تجارتها الواسعة الآمنة في البر والبحر، خاصة منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد، وتحديداً منذ العهد البابلي، كما اغتنموا فرصة التوسع السوري في جزر إيجه وكريت وصقلية، وصولاً إلى قادس في الأطلسي، وأخذت سفنهم النشطة تجوب كل الموانئ في هذه البقاع محمّلة بأنفس سلع ذلك الزمان في رواحها، وبأنفس المعادن الضرورية لاستمرار ازدهار الحرف وتطورها في المدن السورية كلها، في إيابها. فتراكمت لديهم الثروات دون أن يحدث ذلك أي تناقض مع بقية السوريين الذين كانوا مهيمنين سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً على المنطقة، وعلى الاقتصاد الدولي في ذلك الزمن دونما منازع. وصار الفينيقيون، كأي فرع عربي آخر، جزءاً من العرب السوريين (أو السريان).

غير أن الفينيقيين كانوا بوجه عام، منفلتين من الشعور بالانتماء إلى الدولة السورية المركزية الواحدة، قبل نزوحهم من الشواطئ الجنوبية لشبه جزيرة العرب وبعده. وكان

همهم ينحصر في ارتياد الموانئ، والاتجار بالسلع، وتحقيق أكبر الأرباح دون أن يرتب ذلك أية التزامات أخرى خارج نطاق المدينة الأم. ويذكر المؤرخون «الإغريق»، ومنهم هيرودوت، أن الفينيقيين مارسوا، إلى جانب التجارة والصيد، كثيراً من أعمال الخطف والقرصنة، والاتجار بالنساء والخدم و«العبيد» في حالات فردية، دون أن يشكل ذلك ظاهرة كبيرة واضحة وبارزة، كما ظهرت وبرزت فيما بعد على أيدي التجار الأوروبيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بعد الميلاد.

لكن حادثة اختطاف الملك الأرقوسي زيوس للأميرة الفينيقية أوروبا كانت مختلفة من حيث أنها لم تكن بقصد الاتجار، ورتبت نتائج جد مهمة على ظاهرة الانتشار الإغريقي (أو الفراري) كانت عناصره هذه المرة من الفينيقيين. لا نجد داعياً هنا لإعادة سرد قصة اختطاف زيوس لأوروبا، فقد سردناها بالتفصيل في كتابنا الأول[1]، وهي مدونة ومنشورة ضمن ما دعي بـ«الأساطير الإغريقية» وبكل اللغات، وحسبنا هنا أن نبرز بعض خطوطها الرئيسية ممثلة بما يلي:

1 - إن «زيو» أو «زيوس» (مع إضافة السين العشوائية) هو أحد ملوك أرقو Argos، وزوجته هي «حيرا»، وبالتالي فإنه من حيث النسب ينتمي إلى أرقو بن فالج أحد فروع سام بن نوح العربي السوري. وكنا قد شرحنا معنى «زيو» بالسريانية، وقلنا إنه يعني: *المنير، البهي، السنيّ، النور، الشعاع*، وبالتالي *إنه أحد أسماء الشمس أو رب الشمس*، كما أنه يمكن أن يكون اسماً لأي واحد من البشر. لهذا فقد جرى معه الاختلاط لدى الباحثين في الغرب مثلما جرى عند سكان المورة الأصليين. يقول كيتو: «فهناك نوع من الثنائية في الشعائر الدينية لبلاد الإغريق الكلاسية. وهذا مما يدعو إلى العجب بالنسبة لمثل هذا الشعب الفلسفي، وإن يكن من الممكن فهمها بسهولة عظيمة جداً متى افترضنا أن الثقافة الإغريقية وليدة ثقافتين مختلفتين. فالبانيثيون* الأولمبي بآلهته الاثني عشر، وعلى رأسهم زيوس، يبدو من بعيد راسخاً

(1) راجع كتابنا «تاريخ سوريا القديم، تصحيح وتحرير».

* إن كلمة «بانيثيون» Panetheon هي في الأصل سريانية وتعني الكعبة، أو بيت الآلهة، أو مجمع الأصنام. وهي في الفصحى «بَنيّة» والبنية هي الكعبة، حيث كان مجمع أصنام الآلهة حتى فجر الإسلام.

بشكل بالغ التأثير. ولكن هذا الرسوخ يتلاشى إذا أمعنّا النظر فيه، إذ يتكشف الأمر عن أن الإلهات لم تكن لهن أسماء إغريقية كما رأينا. ويلوح جداً أن حجر الزاوية في البناء بأكمله، وهو زواج زيوس بهيرا كان زواجاً في الأسرة الحاكمة»[1].

2 - إن «أوروبا» أميرة فينيقية، وهي بنت أجينور ملك صور وكاهنها، وأخت قدموس، وفنيق، وكيليك، وجاليان... واسمها سوري سرياني، وهو في القاموس السرياني من الفعل «يربْ» ويعني: كبُر، نما، زاد، عظم، خصب، ارتفع، تعظم، تكبر. و«أورب» (الفعل المتعدي منه) ويعني: كبّر، أنمى، أخصب، رفع، مجّد، عظّم، شرّف. وقد استخدم الغرب الاسم «يوروبا» من الأول، والعرب «أوروبا» من الثاني المتعدي.

3 - إن زمن اختطاف أوروبا هو نفسه زمن الجيل الثالث أو الرابع من ملوك «أرقو»، أي في حوالي منتصف وأواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

4 - إن هروب زيوس بها إلى جزيرة كريت كان ذا دلالة قاطعة على الوجود السوري المهيمن في الجزيرة، بالإضافة إلى القصد الشخصي الآخر، وهو جعل زواجه منها بالسر عن زوجته الحسيبة السيدة «حيرا» وبعيداً عن انتقامها لو عرفت.

5 - لقد أنجبت أوروبا منه هناك ثلاثة أبناء هم: مينو، ورادامنتو، وساربيدون. ولم يهجرها زيوس عائداً إلى زوجته حيرا في أرقوس حتى عهد بها وبأولادها إلى الملك السوري العاقر أسطوريو ملك كنوسوس، الذي لم يمت حتى كان قد أعدّ مينو ابن أوروبا إلى خلافته من بعده ملكاً على كنوسوس.

6 - إن هذا بالذات كان لا بدّ من أن يترك آثاره على مجرى الأحداث فيما بعد. فهو، من جهة، أسهم في إدخال العنصر الفينيقي ذي الطابع التجاري الانعزالي الضيق في عرش كريت الذي كان يتبوأه السوريون كجزء من إطار دولة مركزية كبرى، وهو، من جهة ثانية، وطد عناصر القربى، ومن ثمَّ التحالف لاحقاً، ما بين الإغريق في المورة وملك كنوسوس الفينيقي في كريت.

---

(1) كيتو، المرجع نفسه، ص17- 18.

7 - ثم إن غضب أجينور من اختفاء أوروبا أفضى به إلى إرسال أولاده، كل مع عصبته من الرجال للعثور على أوروبا. وأنذر كلاً منهم بالنفي عن صور إذا لم يفلح في العصور عليها وإعادتها إلى بيت أبيها. ولما كان قدموس قد يمّم شطر بلاد المورة ولم يعثر عليها، قرّر، بعد استشارة العرافة «ديلفي»*، أن يبقى هناك مع جماعته وينشئ مدينة دعاها «طيبة» وقلعة دعاها «قدميا» باسمه.

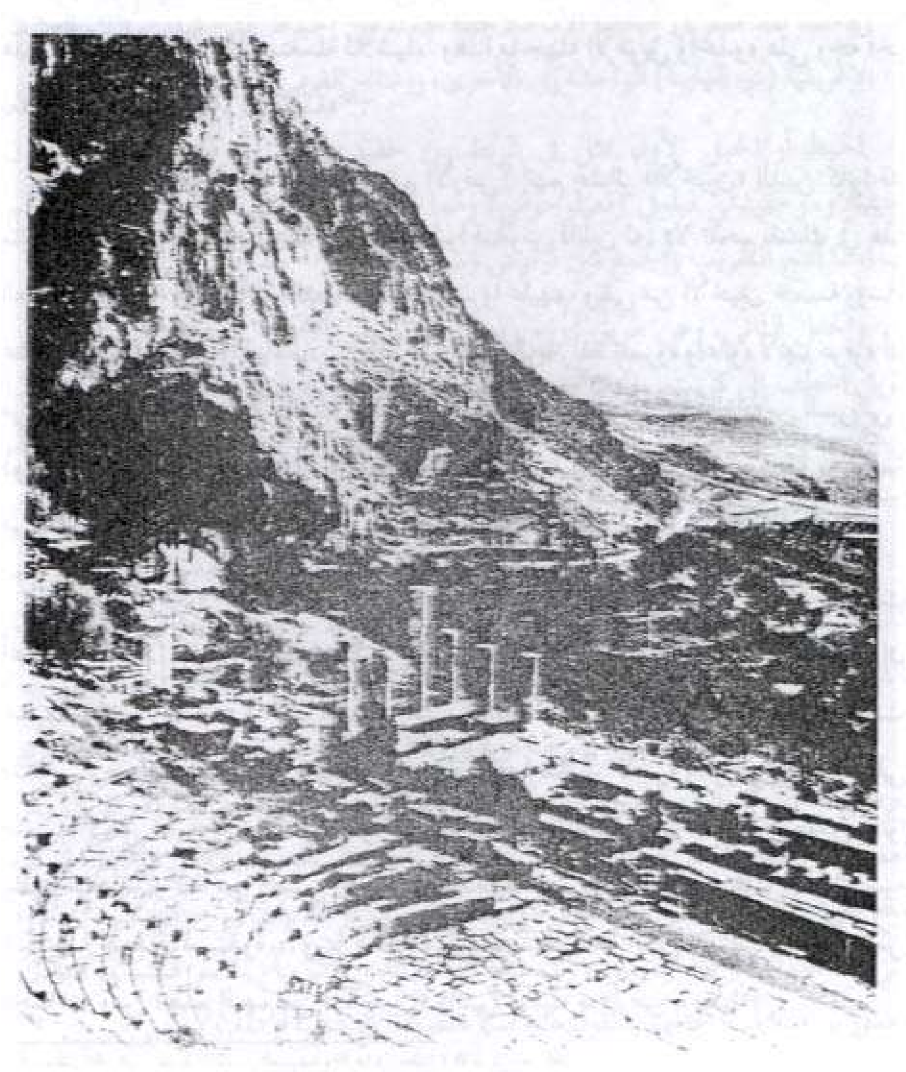
وبالتأكيد إن قدموس وجماعته لم يبنوا المدينة والقلعة بين يوم وليلة، بل إن ذلك استغرق زمناً لا بأس به برزت خلاله الأحداث ذات الدلالة الكبيرة التالية، وذلك بالاعتماد على رواية الكاتب السوري ـ الروماني أوفيد[1]:

- لقد اصطدم رجال قدموس بسكان الكهوف، السكان الأصليين في شبه جزيرة المورة، حينما كانوا يحضرون الماء من النبع في الكهف. وهذا شاهد آخر على أن السوريين الإغريق (أي النازحين الفارين) كانوا أول جماعة متمدنة تسكن المورة وتعمّرها. وكان السوريون يطلقون على الهمج من ساكني الكهوف لقب «أبناء الثعبان» أو «أبناء التنّين» لأنهم يسكنون الجحور والشقوق بين الصخور، ويدمّرون الحضارة.
- لما نشب القتال بين أولئك الهمج من ساكني الكهوف وجماعة قدموس كاد الهلاك يتهدد قدموس وجماعته، وكادوا يذهبون فريسة في أشداقهم لولا أن «نبتت الأرض خوذاً ورماحاً» على حد تعبير القصة الأسطورية، وهؤلاء هم الـ«مارميثي» (والتي صارت باللاتينية مارميدي، وأخذوا يترجمونها جماعة من النمل!) وتعني في القاموس السرياني: الرماة، الرمّاحين، أو الرامين بالسهام. و«رميتا»: رمية، قذيفة، سهم صغير، أو «رمحتا» و«رومحا» و«رومحتا» أيضاً تعني الرمح. «رماح»: رمّاح، صانع الرماح. فإن كان الأصل من الأولى «رميتا»، وهو الأرجح، فالكلام يقصد الرماة بالسهام والنبال، النبالين. وإن كان من الكلمة الثانية التي تسقط فيها الحاء حتماً فيكون المقصود الرمّاحين. أما «جماعة من النمل» فهي مأخوذة خطأً من الكلمة السريانية «رمتا» وبالتالي هي من كلام السوريين الإغريق أيضاً، وتعني: الرمّة، النملة المجنّحة وغير المجنحة. ولربّما أراد الراوي

* إن «ديلفي» كلمة سريانية تعني: العرّافة، المتنبئة. إن الدال أداة التعريف السريانية، و«يلفي» من الفعل «يلفْ» في القاموس السرياني ويعني: علّم، عرّف، وكذلك الفعل «إلفْ».

(1) انظر: أوفيد، التحولات، ترجمة ثروت عكاشة، «قدموس وأوروبا».

استخدام الجناس الناقص الشائع، كما سبق أن مر معنا، في الآداب السورية والعربية، وكان المقصود أن الأرض «أنبتت خوذاً وجنوداً، وكان الرماة كالنمل من كثرتهم». لكن الناس في الغرب، الذين قصّروا دائماً عن فهم تلك الأساطير، وأساؤوا في تفسير معاني كلماتها، حوّلوها بذلك من قصص وأساطير واقعية إلى خرافات. إن هذا تحديداً ما لفت أنظار فيلون الجبيلي الذي عاش في القرن الأول الميلادي ونقل تاريخ سانخونياتن الذي عاش بعيد فترة قدموس وأوروبا تحديداً حينما كتب يقول:



صورة رقم (33) ديلفي، وتعني بالسريانية: العرّافة، بيت العرّافة، (واجهة المعبد).

«لقد ألفت آذاننا منذ سنواتنا الباكرة سماع مروياتهم الكاذبة. ونفوسنا التي تشربت هذه الأباطيل منذ قرون تحفظ هذه الخرافات المصطنعة كأنها كنز ثمين... لقد جاء الزمن فقوّى تأليفهم، وجعل هذا التزوير قوي الركائز تقريباً إلى درجة تظهر معها الحقيقة وكأنها هذيان، وتظهر المرويات الصبيانية مكان الحقيقة»[1].

وفي مكان آخر يقول موضحاً:

«ولا نقوم بهذا التمييز بدون أساس، بل إقامة المبدأ الحقيقي الذي عليه يتم احتقار هذه الأسماء المستعارة المستعملة للأشياء. وهذا ما جهله الإغريق وأخذوه على وجه آخر بعد أن ضللتهم أخطاء الترجمة»[2].

فمن هم أولئك الرماة الذين أنبتتهم الأرض؟ إنهم عشائر «الأخيين» الذين كانوا قد سبقوا قدموس وجماعته إلى هناك. لقد خاطبوا قدموس قائلين له: «لا تقحم نفسك في هذا الصراع القبلي». وقاتلوا أبناء الثعبان حتى انتصروا عليهم، وبقي من الأخيين خمسة رؤساء عشائر، أعانوا قدموس في بناء مدينته بناءً على طلب الربة. لقد نصروه وأعانوه لأنهم عرفوه أنه من بني جنسهم. لهذا فقد دعيت المنطقة باسم أرض «بيوثيا» وتعني في القاموس السرياني: ذو قرابة، نسيب، لائذ، موافق، مشابه، مشاكل، أليف، نقيض غريب. وهي مشتقة من كلمة «بيت» و«بيتا» و«بوتا» وكلها تعني: بيت، عائلة، قبيلة، قرابة دم... إلخ.

ويخطئ «أوفيد» حين يقرر: «وتزوج قدموس من النبيلة هرمونيا وولد منها بنين وبنات أنجبوا له أحفاداً أعزاء، وضعوا تقاليد الأسرة وأرسوا روابط التعاطف بين أفرادها». إن عشيرة أرقو بن فالج، وكذلك العشائر التي تحالفت معها (الأحيني)، كانت قد سبقت قدموس وجماعته إلى هناك، وهي كانت تعرف أيضاً تقاليد الأسرة والزواج والحفاظ على النسب ككل السوريين الأخرين أو العرب، بصرف النظر عن أن جماعة قدموس كانوا يمثلون مرحلة، أو نمطاً من العيش آخر، أكثر تقدماً بمراحل من نمط عيش تلك العشائر شبه البدوية نصف المستقرة... وربما كان أوفيد يقصد البقعة التي استقر فيها قدموس وجماعته ومن انضم إليهم من «الأخيين» والتي عرفت بـ «أرض بويوثيا».

(1) يوسف الحوراني، نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الإغريق، ص100.
(2) المرجع نفسه، ص52.

- إن هذا لم يحل دون تحوّل قدموس وجماعته هناك إلى «إغريق»، أي إلى نازحين فارين ممنوعين من العودة إلى الوطن. لقد أنجب قدموس من زوجته النبيلة هرمونيا ابنه البكر بولودورو (أي أمير الذرية)، ثم تسلسل النسل إلى لبداكو، ثم لايو، ثم أوديب وإيتوكلي الذي طرد أخاه بولوني، فذهب هذا إلى أدراستو ليساعده على أخيه، وفي عام 1213 قامت حرب الأبناء السبعة من سلالة قدموس ضد طيبة، فقتل الإخوة بعضهم بعضاً ودمّرت المدينة لأول مرة[1].

- وهكذا، فقد صار في إمكاننا الآن ملاحظة جملة من الخيوط التي شدت تلك العشائر الإغريقية (أي الهاربة) الواحدة إلى الأخرى، ووشائج القربى في مقدمتها، نجملها بما يلي:

الخيط أو الحبل الأول تمثل في الربط بين حفيدي أرقو بن فالج، وهما أجاممنون ومينيلاو، وحفيدتي فيلوفي (فعيلوحوفي) وهما هيلين وكليت مينسترا عن طريق الزواج بهما، مما أنتج التقريب والجمع بين أرقوس وسبارطة.

والحبل الثاني، وعن طريق زواج زيوس ملك أرقو بالأميرة أوروبا، ولو تم ذلك عن طريق الخطف إلى كريت، وإنجابه منها «مينو» الذي صار ملكاً في كنوسوس، فقد خلق هذا رابطة جديدة هي رابطة الدم بين الأرقوسيين والكريتيين في عهد «مينو» من جهة، وبينهما وبين ذرية قدموس في بويوثيا ومركزها طيبة مدينة قدموس، من جهة أخرى.

ولما كان الـ «أحيني» أو الإخائيون قد ارتبطوا بحلف «الأخوّة» مع الأرقوسيين، فقد كان لا بد أن ينعكس هذا بدوره إلى تقارب مع تلك الأطراف جميعاً في تلك المرحلة بالذات. خاصة وأن رابطة الدم كانت ما تزال هي الأقوى إمساكاً بزمام أي حدث.

ولما كان الفينيقيون، وأعني بهم هنا ذرية أوروبا في كريت وذرية قدموس في طيبة، قد ورثوا مع دمائهم حب التجارة وركوب البحار عبر آلاف السنين، ومنذ زمن أجدادهم الأوائل في صور العمانية الأم، فقد كان من غير المعقول ألاّ نتوقع منهم استغلال هذه الشبكة من الروابط الجديدة لدفع إغريق المورة خارج بلادهم الفقيرة واستكشاف مصادر الثروات في حوض البحر الأسود التي كان قد استأثر بها السوريون، ولا سيما الفراء، الذي كان يباع للأسر الغنية ولأصحاب القصور بوزنه ذهباً، مما جعلهم يطلقون عليه اسم «الصوف الذهبي» أو «الفرو الذهبي».

(1) ديورانت، المرجع السابق، حياة اليونان، ص78 – 80.

ولما كان الفينيقيون، وأعني بهم هنا ذرية أوروبا في كريت وذرية قدموس في طيبة، قد ورثوا مع دمائهم حب التجارة وركوب البحار عبر آلاف السنين، ومنذ زمن أجدادهم الأوائل في صور العمانية الأم، فقد كان من غير المعقول ألاّ نتوقع منهم استغلال هذه الشبكة من الروابط الجديدة لدفع إغريق المورة خارج بلادهم الفقيرة واستكشاف مصادر الثروات في حوض البحر الأسود التي كان قد استأثر بها السوريون، ولا سيما الفراء، الذي كان يباع للأسر الغنية ولأصحاب القصور بوزنه ذهباً، مّا جعلهم يطلقون عليه اسم «الصوف الذهبي» أو «الفرو الذهبي».

ومن أجل هذا كان لا بد من توفر شرطين أساسيين: الأول، هو القيام برحلة استكشافية إلى عمق الشواطئ في البحر الأسود، والوقوف على حقيقة ما يمكن جنيه فيها من مكاسب التجارة، من جهة، وعلى المصاعب التي يمكن أن تقف عائقاً دون ذلك من جهة أخرى.

أما الشرط الثاني الذي كان لا بد من توفره فهو تراخي القبضة السورية عن خطوط التجارة ومغاليقها عند مداخل البحار، والمتمثلة في دولتها المركزية، بفعل ضعف أو تفكك أو قصور ملك، أو انقسامات في الداخل، أو انهيار وتشرذم بسبب الزلازل التي كثيراً ما ضربت المنطقة ودمرت الكثير من مدنها الرئيسية.

ولما كان الشرط الأول إرادياً والثاني خارجاً عن الإرادة فإن الأمر تطلب الشروع بتحقيق الأول، ثم التربّص إلى أن يأتي الظرف الذي يتحقق فيه الآخر.

وبدأ التحضير للرحلة الاستكشافية التي دعيت واشتهرت بـ «رحلة الأرجو».

رحلة الـ «أرجو»

إن كلمة «أرجو» (بالجيم) هي في القاموس السرياني تعني الحصان الكميت، الحصان الأحمر القانئ. ومنها جاءت كلمة «أرجوانو» أي أرجوان الذي اشتهر به السوريون، ومنهم الفينيقيون، صيداً، واستخراجاً، وصناعة، وصباغة، وملابس ملوك. لهذا ينبغي التمييز بين هذه الكلمة وكلمة «أرقو» (بالقاف) التي سبق شرحها وتعني عظيم السلاحف. إن الحصان الكُمَيْت أو الأرجواني هو حصان بوسيدون رب البحارة الفينيقيين الشهير. وقد كانوا يصورونه ممتطياً سفينته ذات المقدمة المرتفعة بهيئة رقبة جواد قانئ ورأسه. وحين كانت السفن الفينيقية تتجمع في أحد الموانئ كان يمكن تمييزها بهذا اللون من بعيد.

ينقل لنا ول ديورانت هذا المشهد للسفن الفينيقية التي تجمعت في ميناء جزيرة صاموس بعد سقوط بابل في يد الفرس وانهيار الدولة السورية المركزية كما يلي: «وكانت حاضرة جزيرة صاموس تقوم على ساحلها الجنوبي الشرقي. وكان الإنسان إذا ما دخل مرفأها الأمين، ماراً بالسفن الحمراء الذائعة الصيت التي يتألف منها أسطول الجزيرة، شاهد المدينة تقوم أمامه كأنها مشيدة من القرميد على سفح التل»[1].

إن اختيار هذا الاسم الرمز للرحلة إلى شواطئ البحر الأسود كان وحده دليلاً كافياً على أن الأمر كله من تدبير الفينيقيين.

أما الدليل الثاني فهو الشخصيات الرئيسية في الرحلة. إن نظرة واحدة متأملة إلى أبطال الرحلة الرئيسيين وهم: ياسون، وهرقل، وفيليو والد أخيل تكشف لنا الدور الفينيقي البارز المتمثل في جماعة قدموس في طيبة، المدعومين من «مينوس» الحفيد الثالث لأوروبا على عرش كنوسوس في كريت.

الدليل الثالث هو أن طروادة كانت منذ أن بناها السوريون إلى ذلك الوقت تتقاضى المكوس عند التقاء خط التجارة البري بالبحري، وتمثل نقطة رصد ومراقبة للتجارة السورية المهيمنة آنذاك. فكان أي عدوان عليها إبان قوة الدولة يعتبر من المستحيلات. إذ كان الجيش المركزي ـ كما يؤكد هنري فرانكفورت وذكرنا من قبل ـ يقوم بجولة سنوية اعتباراً من جبال أرمينيا إلى منطقة المضائق لحماية الثغور وخطوط التجارة منذ عهد سرجون الأكادي، ثم صار هذا العمل تقليداً اتبعه كل الملوك الذين خلفوه من بعده. وإن الصدام من قبل بحارة «الأرجو» مع ملك المدينة في ذلك الوقت كان يعني أمرين اثنين: الأول هو تحقيق النزعة الفينيقية الدائمة إلى الانفلات من سطوة الدولة المركزية والتفرد بمغانم التجارة لصالح الفئات الأنانية الضيقة التي لا تتجاوز إطار المدينة، أو بعض المدن؛ والثاني هو أن الدولة المركزية السورية كانت في تلك الفترة تعاني مرحلة من الضعف والتفكك. وذاك كان هو الواقع فعلاً.

لنتعرف الآن إلى الشخصيات الرئيسية في الرحلة:

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص259.

ياسون:

ينقل لنا ديورانت عن المؤرخين اليونان أنه في حوالي عام 1245 ق.م. اغتصب فيلياس بن بوسيدون عرش آسيون ملك يولكو من أعمال طسّاليا. وأخفى أصدقاء الملك المخلوع ابنه الطفل ياسون. وشبّ هذا الطفل في الغابات حتى أصبح شاباً قوياً شجاعاً. وظهر في يوم من الأيام في السوق يرتدي جلد فهد ويحمل من السلاح رمحين، وطالب بملك أبيه. ولكنه كان يبلغ من السذاجة مبلغه من القوة. وأقنعه فلياس أن يقوم بعمل شاق يكون ثمناً لعرشه، وكان هذا العمل الشاق الحصول على جزة الصوف الذهبي. فصنع ياسون السفينة العظيمة «أرجو» ودعا إلى صحبته في مغامرته أشجع الشجعان. فلبى الدعوة هرقل ومعه حيلاس رفيقه المحبوب، وجاء معهما فيليوس والد أخيل، وملاجر وآخرون[1]...

إن اللقب «ياسون» يعني: المخبّأ، المخفي، كما تعني: الحاشد، الجامع، الحاقد. وهو من الفعل «أسن» في القاموس السرياني، ويعني: خبأ، أخفى، ستر، حشد، جمع، عبّأ، أعدّ، كتم حقده. وهذا اللقب يحكي قصته وحالته كالعادة في كل الألقاب السورية السريانية الأخرى.

وقد توفرت فيه الشروط المطلوبة للقيام بهذا الدور: فهو ساذج يسهل إقناعه، وهو قوي شجاع، وقد تربّى في الغابات، وبالتالي هو وحيد وكأنما «مقطوع من شجرة».

هرقل:

بداية يجب التمييز بين هرقل هذا وهرقل أحد الأجداد الفينيقيين في صور العمانية، والذي أقاموا له معبداً في صور على الساحل السوري حين قدومهم إليه في حوالي 2750 ق.م.

وحول هرقل هذا بطل قصتنا ينقل لنا ديورانت عن المؤرخين اليونان أنه كان بين أشراف طيبة رجل يسمى أمفتريون*، متزوج من امرأة فاتنة تدعى ألكامينا**. زارها زيوس مغتنماً غياب زوجها، فولدت منه ولداً. وما أن علمت حيرا بالأمر حتى دسّت حيّتين لقتل الطفل في مهده. لكن الطفل أمسك كلاً من الحيتين بيد وخنقهما. وقد

(1) المرجع نفسه، ص84.

* أمفتريون هي في القاموس السرياني «فتريو» وتعني: الكاهن، مقدم القرابين. والميم للتعريف قبل الصوت الشفهي الذي هو الفاء.

** ألكامينا، هي في الأصل السرياني حلقا مينا وتعني: بخت العشيرة، فأل العشيرة الحسن، إذ أن «حلقا» تعني: بخت، حظ، سعد، فأل حسن. و«مينا» تعني من جملة ما تعني: النسل، الزرع، الذرية.

دعي هيراقوليس Herakules لأن حيرا أبغضته وأرادت هلاكه*... ولما كبر تزوج ميجارا ابنة قريبون الطيبي، وأراد أن يحيا حياة هادئة مستقرة، لكن حيرا سلطت عليه نوبة من الجنون فقتل كل أبنائه على غير علم منه... وانضم إلى ركاب السفينة «أرجو»[1].

واضح أن هرقل من أصل طيبي، أي من فينيقيي طيبة مدينة قدموس. وقد جمع الدماء الأرقوسية الفالاجية الساميّة عن طريق أبيه زيوس مع الدماء الفينيقية الحاميّة عن طريق أمه حلقامينا. وتزوج ميجارا بنت قريبون الطيبي. إنه، في المحصلة، فينيقي.

فيليوس:

هو والد أخيل. واسمه في الأصل السرياني «فحليو» ويعني: الفحل، القوي، الشديد. ولقب ابنه «أخيل» يعني الشيء نفسه أيضاً. وقد مرّ معنا من ذي قبل كيف أن الأب فينيقي، وأوكل أمر تربية ابنه وتدريبه إلى الفينيقي العجوز.

وهكذا يتضح لنا كيف أن الأمر كله من تدبير الفينيقيين، الذين اغتنموا ضعف الدولة المركزية السورية في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد لأسباب داخلية بالإضافة إلى الضربات الزلزالية الكثيرة المدمرة في تلك الفترة، والتي ضربت كريت وشرق المتوسط كله ومنه أوغاريت وطروادة[2].

«ولما دخلت السفينة الهلسبنت (مضيق الدردنيل) اضطرت إلى الوقوف. ولعلها قد وقفت في وجهها قوة من طروادة، لأن هرقل ترك الحملة لينهب المدينة ويقتل ملكها الأوميدون وأبناءه كلهم عدا فريام»[3].

«وقامت طروادة الحصينة مرة أخرى (بعد الزلازل)، وبعد أن انتهبها هرقل لتعترض سبيل من يخاطرون باجتياز المضيق. لكن (الإغريق) لم ينسوا ما فعلوه من قبل، وعادوا من جديد يحاولون اجتيازه بمائة سفينة بدلاً من سفينة واحدة. وأهلك الأخيون أنفسهم في سهل إليون لانتزاع الهلسبونت»[4].

* الاسم هنا مكون من «حيرا قولي» وكلمة «قولي» في القاموس السرياني اسم الفاعل من «قلا» أي أبغض، آذى، أهلك، وليس معناها كما يفترض ديورانت ويقول: «أي وارث المجد عن حيرا».

(1) المرجع نفسه، ص 8.
(2) المرجع نفسه، ص 70 .
(3) المرجع نفسه، ص.48.
(4) المرجع نفسه، ص85.

إنها سفن الفينيقيين، إذ لا أرقوس ولا إسبارطة أو طيبة كانت تملك مثل هذا العدد من السفن، بل هي لم تكن تملك السفن أصلاً.

وكانت حرب طروادة التي خلدها الشاعر (هومرو) المجهول في الملحمتين الشعريتين الإلياثا (إليادا) والأوديسا.

ولما كانت القصة معروفة فإن جلّ ما يهمنا منها هنا تحديداً هو ما يؤكده لنا هيرودوت[1] لوجهة نظرنا حول التدبير الفينيقي ما بين كريت المينوية الفينيقية آنذاك وطيبة القدموسية الفينيقية، واستثمار تلك الروابط التي مررنا عليها، واستغلال ضعف الدولة المركزية السورية من أجل الاستئثار بتجارة البحر الأسود. هذه النزعة الأنانية الانفصالية المناوئة للدولة المركزية سوف تبلغ ذروة التعبير عن الذات إبان الغزو الفارسي فيما بعد. وقبل أن نغادر المحطة الطروادية إلى غيرها لا بد من التوقف عند اللقب «هوميروس» الذي احتار فيه كل الباحثين والمؤرخين إلى هذا اليوم.

«هوميروس» الشاعر السوري:

لم يعد جديداً إذا ما قلنا إن السوريين أو العرب بوجه عام كانوا أول من نظم الشعر أغاني وأناشيد وتراتيل ومزامير وأساطير وملاحم، وأول شعب أقام نظاماً اجتماعياً، كان فيه أول قصر في تاريخ البشرية، وأول ملك، وأول مجالس للغناء والشراب، وأول شعب اخترع الآلات الموسيقية كالقيثارة مثل قيثارة أور الشهيرة التي تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد، والعود (منذ الزمن البابلي)، وآلات النفخ والقرع جميعاً، وأول شعب وضع نوتة موسيقية وأوجد السلم السباعي (النوتة المكتشفة في أوغاريت تعود للألف الثالث قبل الميلاد)، فكان، بالتالي، أول شعب عرف مجالس الإنشاد، يحييها الشعراء أو الرواة الذين يروون قصص البطولة والملاحم عن طريق الإنشاد المرافق بالعزف إما على القيثارة أو الربابة أو العود، حتى صار هذا، في حد ذاته، تقليداً سورياً وعربياً عاماً منذ ملحمة جلجامش إلى يومنا هذا. وليست قصة عنترة، أو الزير، أو تغريبة بني هلال... أو غيرها من قصص البطولة التي يحفل بها التاريخ العربي، كما ما تزال تحفل بها بعض مقاهي دمشق وبغداد

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، ص496.

والقاهرة إلى يومنا هذا ممثلة في «الحكواتي» أو الراوي وجمهوره، سوى استمرار لهذه الظاهرة الخاصة بالعرب وحدهم والتي لم تغب يوماً من أيام تاريخهم الطويل العريق. وما من سوري أو عربي إلا ويحفظ بعض العبارات الملازمة لهذه المجالس مثل «قال الراوي يا سادة يا كرام» أو «قال الشاعر يا سادة يا كرام» أو «هذا على ذمة الراوي»... وكثيراً ما ينقسم جمهور المستمعين إلى فريقين في تأييد هذا البطل أو ذاك، ويتسببون في نشوب عراك حقيقي، مما كان يفرض على «الراوي» أو «الشاعر» إحداث تعديل في مجريات بعض الأمور التفصيلية حسب ما يتطلبه الظرف أو الموقف، ومن عصر إلى عصر، ومن زمن إلى آخر، حتى تخرج الرواية في نهاية الأمر محصلة لنتائج جملة من الشعراء الرواة المنشدين، وليست من نتاج شاعر واحد.

إن هذا تحديداً هو ما حدث لإلياذة هوميروس التي لم تكن سوى حلقة في هذا التقليد السوري التاريخي.

إن إنساناً ما في هذا العالم لم يعرف شاعراً محدّداً بعينه، عاش في مكان ما وزمان ما ونظم ملحمتي «إلياذا» و«أوديسّا». وفي الوقت نفسه، لم تبخل المصادر التاريخية عن إخبارنا عن أسرة فريام ملك طروادة، وعن أبطال الإغريق: أوديسيو، وأجاممنون، وأخيل، وعن الزوجات والأولاد... فمن هو «هوميروس» وماذا تعني الكلمة؟

إن «هوميروس» كلمة سورية سريانية. وهي في القاموس السرياني من الفعل «إمِرْ» emer ويعني: قال، حكى، روى، أخبر، قصّ، أنشد، غنّى، وصف، مدح، حكم، ارتأى، وعظ. واسم الفاعل منها «أوميرو» Omero أي: الراوي، المنشد، الشاعر... وأضيفت في أولها الهاء للتعريف، وفي آخرها السين الاعتباطية الزائدة دونما أساس. ولما كانت السريانية تستخدم صيغة «فاعول» كثيراً بخلاف الفصحى مثل: قاتول، ناحور، عامود، شاقول... فإن «آمور» أيضاً في القاموس السرياني تعني: قوّال، شاعر، مرنّم، مغنٍّ، منشد، معلّم، واعظ. ولما كان الشاعر المغنّي يؤجج نار العواطف، فقد استخدمت الكلمة لتعني في الغرب فيما بعد ربّ الحب. و«أموروت»: قول، رواية، شعر، إنشاد، غناء، موعظة. «ميمار»: كلام، حديث، رواية، مقالة، قصيدة... وجمعها «ميموري» وهي التي صارت تستخدم بمعنى مذكّرات وذكريات. «متأمرونو»: قابل لأن يقال ويوصف ويُنشد.

وهكذا، فإن «هوميرو» هو الراوي والشاعر والمنشد لقصة الـ «إلياذا». وإن تسمية «إلياذا» هي من النسبة إلى مدينة «إيليون» التي دعيت على اسم إيلون بن ترأو، أول حاكم للمدينة، وهي في الأصل السرياني «إيلياثا» Ileatha، وكل ثاء تحولت في اللاتينية فيما بعد إلى ذ. وهي ليست من نظم شاعر محدّد ومعروف، تشهد على ذلك حيرة الباحثين في الغرب أمام تحليل متون نصوصها ذاتها.

يقول كيتو ملخصاً لنا ظاهرة الشاعر والملحمة:

«فهل كتب القصيدتين (الإلياذا والأوديسا) شاعر واحد؟ وهل ألف كلاً منهما شاعر واحد فقط؟ ومتى عاش هذا الشاعر أو هؤلاء الشعراء؟ هذه هي المسألة الهوميرية التي ظل العلماء قرناً ونصف قرن يناقشونها. ولا ينتظر مني القارئ أن أفصل فيها هنا. وقد كان للإغريق الذين عاشوا في العصور التالية طائفة من الملاحم عن حرب طروادة، منها اثنتان كانت لهما روعة فائقة كما كانتا تنسبان إلى هومر. وقد ظل الناس يتقبلون هذه النسبة دون أن يأخذهم فيها ريب حتى العصور الحديثة حين أظهر البحث الدقيق كل أنواع التضارب في الحقائق والأسلوب واللغة، سواء فيما بين الملحمتين بعضهما وبعض، أو فيما بين بعض أجزاء كل منهما والبعض الآخر. وكانت نتيجة ذلك المباشرة هي الاطمئنان إلى تقسيم القصيدتين تقسيماً دقيقاً، لا سيما الإلياذا، إلى أناشيد تمتّ إلى فترات مختلفة سمّاها النقاد تسمية مناسبة هي «الطبقات»... أما معرفة ما إذا كان نفس الشاعر هو الذي نظم القصيدتين فهذه نقطة تختلف بشأنها الآراء، ومن المحتمل أن تظل دائماً كذلك. فالفرق عظيم في روح كل منهما، وفي الطريقة التي تناول المؤلف بها كلاً منهما»[1].

إن هذا الملخص كان من شأنه أن يكشف للمؤلف الحقيقة التي ثبتناها منذ البداية لو توفرت لديه الرغبة أو الإرادة. لكنه التعصب عند معظم المؤرخين في الغرب هو الذي ينصب لهم «حواجز مسلّحة» على الطريق إلى الحقيقة من وضعهم هم أنفسهم لا بفعل من غيرهم. وبالرغم من أن أحداً لم يسجّل أو يلحظ أن حدث مرة إنشاد هاتين الملحمتين في غير قصور السوريين، ولم ينقش أحداثها أحد إلا مرة واحدة من قبل إليسار على

(1) المرجع السابق، ص77 - 78.

أسوار مدينتها الجديدة قرطاجة[1]، وفي الداخل السوري، فإن كيتو يبدأ حديثه عن هومر بمثل هذا القول الحاجز المسلّح: «إن أول الشعراء الأوروبيين وأعظمهم يستحق أن نكرس له فصلاً بالتأكيد»[2]! لقد صار الشاعر «أوروبياً» قبل أن يعرف كيتو من هو!

وما يهمنا من حرب طروادة في هذا المجال هو:

1ـ إنها حرب دبّرها الفينيقيون، نزولاً عند نزعتهم الانعزالية التجارية الضيقة، من أجل انتهاز فرصة غياب سطوة الدولة المركزية السورية، وانتزاع الهيمنة على مفاتيح تجارة البحر الأسود من السوريين. وليست قضية اختطاف هيلين الجميلة زوجة مينيلاو ملك إسبارطة من قبل اسكندر بن فريام ملك طروادة إلا ذريعة، إذ عرفت المنطقة كثيراً من عمليات الاختطاف دون أن تشعل حرباً كما أكد هيرودوث، ومنها قصة اختطاف زيوس لأوروبا. لهذا فليس يستبعد على الإطلاق أن يكون بعض الفينيقيين الدهاة هم وراء زيارة اسكندر (فاريس) للملك مينيلاو، ثم تدبير اللقاء بين الشاب الجميل والزوجة الجميلة، ثم إثارة حمية ونخوة تلك العشائر الإغريقية العربية شبه البدوية بعد أن زودوهم بالسفن الفينيقية اللازمة وبالمقاتلين أيضاً. لأن تزويدهم فجأة بمائة سفينة لم يكن يقدر عليه إلا الفينيقيون.

يقول ول ديورانت: «ومهما تكن أسباب الحرب الظاهرة فإن الذي لا شك فيه أن حقيقة أمرها وجوهرها لم تكن إلا نزاعاً بين طائفتين تتنازعان السيطرة على مضائق الهلسبونت والأراضي الغنية المحيطة بالبحر الأسود»[3]. لكنه، كغيره، يجعل ذلك النزاع، كما تمليه عليه النزعة لا الحقيقة، نزاعاً بين أوروبا وآسيا.

2ـ إن مّما يؤكد صحة ما نذهب إليه حقائق الوقائع والناس على الأرض، من جهة، والنتائج التي تمخضت عنها الحرب من جهة ثانية. لقد قضت تلك الحرب على طروادة وعلى حلف عشائر الإغريق في آن معاً، وأبقت على التجار الفينيقيين وحدهم الذين زادوا من نشاطهم في تلك الفترة. إذن إن الحرب كانت في مصلحة التجار الفينيقيين وحدهم دون سواهم.

---

(1) انظر: فرجيل، «الإنيادا».

(2) المرجع نفسه، ص52.

(3) ول ديورانت، المرجع السابق.

3 – ومما يؤكد وضوح الرؤية للحقيقة كما هي لدى بقية الطرواديين ما حدث مع «عنيا» (إينياس) الكاهن الطروادي وجماعته مع إليسار في قرطاجة، إبان نزوحهم بعد دمار طروادة.

إن الكاتب والشاعر السوري ـ الروماني فرجيل (بالسريانية: فرج إيل = فرج الله) نقل لنا الصورة بأمانة في ملحمته الخالدة الـ «إنيادا» نسبة إلى «عنيا» (إينياس) كاهن طروادة، وكرّسها لقصة نزوحه ومعاناته من طروادة، إلى قرطاجة، إلى جنوب إيطاليا:

- إن زمن بناء «قرت حدثت» (المدينة الجديدة) التي صارت قرطاجة، لا يبتعد عن زمن تدمير طروادة، وضمن الجيل الواحد. يشهد على ذلك ما رآه «عنيا» (إنياس) وجماعته، بعد أن هامت سفينتهم مع الأمواج من شاطئ إلى شاطئ إلى أن حطت مراسيها في الساحل الليبي (الأفريقي فيما بعد)، من انهماك إليسار ومن معها في تشييد مدينتها الجديدة، وليس كما يفترض المؤرخون حول أن بناء قرطاجة كان في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد.

- وإن البحث العلمي والمنطقي في التاريخ يتجاوز ما حفظته لنا الذاكرة الشعبية من قصص وأساطير حول الأسباب الصغيرة المباشرة لهذا الحدث التاريخي أو ذاك. إن رحيل إليسار من مدينتها صور إلى الشاطئ الليبي من أجل إنشاء مدينة جديدة تابعة لمدينة صور الفينيقية وبعد تدمير طروادة بالذات لم يكن بأية حال نتيجة لخلاف مع أخيها بجماليون الذي قتل زوجها وأراد الاستيلاء على ثروته. إن الأحداث التاريخية لا تبنى على مثل هذه الأسباب البسيطة والساذجة. وبناء قرطاجة كان من الأحداث التاريخية البارزة في تلك المرحلة من التاريخ، إذ كانت له نتائج جد كبيرة ليس أقلها منافسة السوريين على تجارة وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط وقد فتحت أمام الفينيقيين الطريق إلى تجارة البحر الأسود بعد تدمير طروادة مباشرة. إن مطامح «صور» المدينة إلى أن تحلّ محل سوريا الدولة والإمبراطورية كان وراء كلا الحدثين: تدمير طروادة وإنشاء قرطاجة في الزمن نفسه. وإن مما يؤكد وجهة نظرنا هذه ذلك الجيش الذي اصطحبته إليسار معها من البنائين والفنانين والسباكين والصاغة والنحاتين وقوات

الدفاع. لنستمع إلى ما ينقله لنا فرجيل: «وتابع الرجال مسيرهم مسرعين، فصعدوا هضبة تطل على المدينة التي أدهشتهم رؤيتها. فقد كانت بلدة عظيمة حقاً، ذات أبوابٍ جبارة، وشوارع تسير فيها الجموع وتحتشد. وكان منهم القائمون على بناء الأسوار والقلعة، يدحرجون لذلك الحجارة الضخمة بأيديهم، بينما عهد غيرهم إلى تخطيط أمكنة المنازل. وكانوا إلى ذلك يختارون من يرجع إليهم القول الفصل في المدينة ومن يعهد إليهم بحكمها. كما كان منهم من يحفر الموانئ، ومن يبني أسس دار التمثيل، ومن يقطع الأعمدة الحجرية الضخمة. فكانوا أشبه بالنحل الدائب الذي تحتشد جموعه عند اقتراب الصيف منتشرة هنا وهناك، أو كالعمال منه تكدّ بالعمل لملء الخلايا بالعسل؛ فيلقي بعضها أحمال الراجعين من الحقول، ويقف بعضها لحراسة القفير من اليعاسيب. أجل لقد كان شأن رجال صور شأن النحل الدائب المجدّ».

إن مثل هذه الجموع الضخمة التي رحلت مع إليسار لتشييد مدينة جديدة ما كانت لتمرّ في السرّ عن أخيها. إنها خطة مدبرة ومتفق عليها. وإن المؤرخ الساذج هو وحده من يأخذ بالسبب الذي حفظته الذاكرة الشعبية فقط.

- لقد برز جلياً اهتمام الفينيقيين بحرب طروادة، حتى أن «ديدون» (إليسار) أمرت بتصوير أحداثها على أسوار قرطاجة، بما يحمله ذلك من تعبير عن الشعور الضمني بالانتصار. «وكانت ديدون تبني هناك (للربة) هيكلاً رائعاً، له عتبة من البرونز ودرجات ترتقي للدخول. كما كانت قوائم الأبواب والبوابات من البرونز أيضاً. وهنا حدث ما ملأ (إيناس) شجاعة... لقد رأى أن معارك طروادة قد أدرجت رسومها بنظام على الأسوار».

- النقطة المهمة الثانية التي أبرزها فرجيل هي خوف ديدون من أن تلتحق بقية الطرواديين بالمستوطنات السورية في صقلية أو جنوب إيطاليا. فيشتد بذلك أزرهم، ويسعون إلى الانتقام مما سببه لهم الفينيقيون من أذى في وقت انهيار دولتهم المركزية. وكان بناء قرطاجة في الأساس يهدف إلى جعلها محطة للقفز إلى صقلية وجنوب إيطاليا من أجل إحكام السيطرة على تجارة غرب المتوسط وانتزاعها من سوريا لصالح صور وحدها.

لهذا فقد بذلت ديدون (إليسار) جهوداً مضنية من أجل إقناع عنيا (إنياس) وجماعته من أجل البقاء في قرطاجة وجعلهم تحت المراقبة دون أن ينتقل غضبهم ورغبتهم في الثأر إلى المواقع السورية الأخرى في صقلية القريبة من قرطاجة. قالت ديدون:

«لا تخشوا يا رجال طروادة أمراً. وإذا خيل إليكم أن في معاملتنا لكم شيئاً من الخشونة فاصفحوا عنا، لأننا لم نقم بهذه الأرض إلا حديثاً. ولذا وجب علينا الحراسة ومراقبة شواطئنا. أما أعمال رجال طروادة في فنون القتال فمن الذي يجهلها؟ ولا يذهبن بك الظن إلى أننا هنا في ليبيا* فاترو القلوب، أو أن بعدنا القصيّ جعلنا على جهل بهذه الأمور. وسواء أرغبت في الإبحار إلى إيطاليا، أم فضلت الذهاب إلى صقلية عند الملك حستيو (أي الطاهر بالسريانية) فاعلم أنني مقدمة لك كل عون، ومانحتك كل حماية. أما إذا شئت الإقامة في أرضنا هذه فإن هذه المدينة التي أبنيها هي مدينتكم، ولن أفرّق بين طروادي وصوري».

ولقد أبدع فرجيل في لمحة عبقرية ذات دلالة كبيرة وعميقة لا ينتبه إليها إلا الأذكياء العارفون بحقائق الأمور. فقد أخبرنا كيف أن الأم السورية الكبرى عشتار أرادت أن تختبر مدى صمود عنيا (إنياس)، ومدى صلابته أمام إغراءات ديدون، «فتجلت له بداية في هيئة عذراء من صور وقالت له: لتكن من تكون أيها الغريب... فإن قدومك إلى هذه الأرض الصورية لا يدع مجالاً للريب في أنك محبوب من الآلهة. فاذهب الآن وقدّم نفسك للملكة...».

كان في هذا القول شيء من العتاب والتوبيخ الضمنيين، وتذكير له بأنه قدم إلى «أرض صورية»، إلى من كان لهم اليد الطولى في تدمير مدينته، وقتل أهله وعشيرته. والدليل أنها «قالت هذا، وألوت راجعة. فشعّ من عنقها نور وردي، وعبق من شعرها أريج العنبر اللطيف، وطالت ثيابها إلى قدميها. فعرف فيها عنيا (إنياس) أمّه (أي الأم السورية الكبرى عشتار)،

* «ليبيا» تعني الملهوفة، المشتاقة، الملتاعة، وهي في القاموس السرياني من الفعل «ليبْ»: اشتاق، التاع، رغب، و«ليابا»: مشتاق، ملهوف، واللام للتعريف. وهذا هو لقب أم أوروبا بعد اختطافها. فأطلق زيوس اسمها على جنوب المتوسط، كما أطلق اسم أوروبا على شمال المتوسط.

فناداها قائلاً: أي أماه! لمَ تسخرين مني، وتظهرين لي غالباً بمظاهر زائفة، ولا تدعينني أضع يدي في يدك؟... ومضت إلى هيكلها حيث المحاريب الكثيرة تصعّد البخور». إن هذه الإشارة فهمها «عنيا» ولم يفهمها المؤرخون العباقرة في الغرب. فما كان منه إلا أن أمر جماعته بإعداد مراكبهم في السر، وانطلقوا جميعاً تحت جنح الظلام مخلفين وراءهم ديدون والساحل القرطاجي ميمّمين شطر المستوطنات السورية في جنوب إيطاليا.

- إن هذا أشعر ديدون بالإحباط وبإخفاقها في مساعيها، وبأن صدور بقية الطرواديين العامرة بالغضب سوف تحوّل جنوب إيطاليا وصقلية، حيث السوريون، إلى بؤرة جديدة للصراع، لمحته ديدون دونما عناء، وعبّرت عنه للتوّ حين قالت: «لتكن بين نسلي ونسلك حرب لا تنتهي». وكان من نسل «عنيا» الراهبة إيليا، أم التوأمين ريمو وروملو مؤسسي روما التي ستخوض الصراع ضد قرطاجة بتمويل من السوريين إلى أن تم تدمير قرطاجة، وتتحول روما و«الإمبراطورية الرومانية» (بعيداً عن التاريخ الخطابي الإنشائي الذي دبّجه لها الغرب منذ عصر النهضة إلى اليوم) حارسة مأجورة لمصالح التجارة السورية التي ظلت مهيمنة حتى سقوط آخر إمبراطور سوري على ضفاف الراين (فيليب العربي) وهو يقوم بحملة تأديبية ضد «برابرة أوروبا» على حد تعبير بريستد.

- النقطة الأخيرة التي لا بد من الإشارة إليها، من شأنها أن تحسم في عملية الفصل والتمييز بين السكان الأصليين لأوروبا ذلك الزمن وبين السوريين الحضاريين المعمّرين. هذه النقطة التي لم يتركها «فرجيل» تمرّ دونما إضاءة.

يروي لنا فرجيل كيف أن تحالف الإغريق الآخيين قضي عليه في حرب طروادة. لقد قتل من قتل، أما الباقون فقد تحولوا إلى شراذم ضائعة بين السواحل والشطآن.

فحينما مرّ عنيا (إينياس) الكاهن الطروادي بجماعته عند سفح جبل «إتنا»* في صقلية بحثاً عن مواطن السوريين التقى بأحد السوريين الآخيين الذين نبذته جماعته التائهة عند تلك السواحل بعد عودتهم من حرب طروادة، فروى لهم مشاهداته ـ كما نقلها فرجيل ـ على النحو التالي:

* «إتنا» كلمة سريانية تعني الدخان، وهي في الفصحى التنّ أي الدخان. وقد أطلق السوريون على الجبل البركاني في صقلية هذا الاسم لأنه كان ما ينفك يقذف بالدخان، ويقذف بحممه البركانية من وقت لآخر إلى هذا اليوم.

«أتوسل إليكم يا رجال طروادة بالنجوم والأرباب، وبهذا الهواء الذي نتنفسه، بأن تأخذوني من هذه الأرض إلى حيث تشاؤون. ولن أسألكم إلى أين المصير، ولا أنكر أنني من الإغريق، وأعترف بأنني حملت السلاح ضد طروادة. أغرقوني في البحر إذا شئتم، وإذا لم يكن من الموت بد فلأمت بيد البشر».

«وتشبث بركبهم. فطلب إليه عنيا أن يخبرهم عن نفسه، وعن سبب وجوده في هذا المأزق. فأجابه الرجل قائلاً: إنني رجل من أتيكا. وأنا أحد رفاق التعس أوديسيوس... ولما هرب رفاقي من هذا الشاطئ اللعين تركوني في كهف السيكلوب (الصقلاب* = إنسان أوروبا المتوحش). وهو مخيف الهيئة، وحشي المنظر، قد جاوز الحدّ من ضخامة الجسم، ويتغذى بلحم البشر. وقد رأيت بهاتين العينين كيف مدّ يده، وقبض على اثنين من رفاقي، وسحقهما على الحجارة سحقاً. اجل، وقد رأيت أطرافهما ترتجف بين أسنانه». ذاك هو إنسان أوروبا زمن هوميروس. ومن هذه الصفة الملازمة له «سحق عظام البشر على الحجارة وأكلهم» أطلق السوريون على برابرة شمال أوروبا ذلك الزمن اسم «جرماني» وهي من الفعل السرياني «جرمْ» ويعني: جرم، قطع، سحق، حطم، نزع العظم. تجرومتا: جيفة، قفص عظام الجسد. «جرمانو»: عظمي، غضروفي، ساحق العظام. وجمعها «جرماني».

إن ما تحدثت به الأساطير السورية القديمة التي صارت تدعى «إغريقية» حول إنسان أوروبا زمن هوميروس وبعده، أكدته المكتشفات الآثارية حديثاً.

«لقد كشفت الأبحاث الأثرية التي أجريت مؤخراً أن الألمان وسائر الشعوب الأوروبية كانوا يأكلون لحم البشر. وذكرت «أنباء الشرق الأوسط» أن الأبحاث التي أجريت في جنوب ألمانيا كشفت أن الشعوب الأوروبية كانت منذ ألفين وأربعمائة عام (أي في القرن الرابع قبل الميلاد) تعيش في العصر الحجري وتأكل بعضها بعضاً. وقالت هذه الأبحاث إنه في الوقت الذي كان فيه السوريون والمصريون قد بلغوا درجة عالية من الثقافة والتقدم والتحضر فإنه كان من عادة القبائل التي سكنت جنوب ألمانيا تعليق قلائد حول أعناقهم من الجماجم البشرية وعظام الأعداء الذين كانوا يأكلونهم»[1].

* السيقلوب تسمية سريانية، وهي في الفصحى «الصقلاب» وفي «محيط المحيط» جيل من البشر، ضخم، واسع الفم، متوحش، شره، نهم، أكول. أما كلمة «إسكيلوبو» أو «إسكيلابو» فهي مكونة من كلمتين سريانيتين هما «إسكيلو» وتعني المعلم و«آبو» وتعني الرئيس، وهو اللقب الذي كان يطلقه السوريون على الحكيم الطبيب المتميز. وقد أطلق في العهد العباسي على ابن سينا وحده. فمن أجل التمييز بين اللفظتين كان يجدر التنويه.

(1) صحيفة «تشرين» السورية، العدد 5555، تاريخ 1993/11/26.

ويؤكد ول ديورانت: «أن سكان إيرلندا وإيبيريا وبريطانيا والدانمارك ظلوا من أكلة لحوم البشر حتى القرن الحادي عشر بعد الميلاد»[1].

في المقابل لهذه الصورة المتوحشة لإنسان أوروبا ذلك الزمن لنلتفت إلى صورة أخرى من الشمال السوري ينقلها لنا هوميروس على لسان فتاة التقاها أوديسيوس الضائع الجائع في طريق عودته من طروادة. تقول الفتاة الأميرة لأوديسيوس:

«إنك ترى قرب الممشى غابة جميلة من أشجار الحور مقدسة للربة أثينا. وفي وسطها ينبوع يفيض ماؤه، وتحيطها المراعي من جميع الجهات. هناك متنزّه أبي الملكي. كما أنه يمتلك حديقة الخضار على مرمى البصر من المدينة. اجلس هناك وانتظر قليلاً حتى تدخل المدينة وتصل إلى بيت أبي. وعندما تدخل المدينة اسأل عن قصر أبي الملك «ألكينوس» Alcinos، فمن السهل التعرف عليه، فأي غلام صغير يستطيع أن يريك إياه... فإذا مررت من الفناء إلى داخل المباني فامش بسرعة في البهو الكبير حتى تصل إلى أمي التي تجلس بصفة عامة في النور إلى جانب نار المدفأة وتنسج الخيوط المصبوغة باللون الأرجواني. فترى لها صورة بهيجة وهي متكئة في مقعدها إلى أحد الأعمدة، وصيفاتها جالسات خلفها، وعرش أبي قريب منها وهو يجلس هناك يحتسي الخمر كأنه إله»[2].

إن هذه الصورة التي ينقلها لنا هوميروس عن أسرة سورية ليست إلا عيّنة لمجمل الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأسر السورية في وطنه السوري الكبير. وإن لقب أبي الفتاة «ألكينوس» شاهد لغوي على هوية الأسرة. إن «كينو» Kino في القاموس السرياني تعني «عادل» و«أل» أداة التعريف العربية الشهيرة. وإنه لقب مؤسس الدولة السورية قبل ألفي عام من عهد الشاعر (هوميروس). إنه «ساروكينو» سرجون وتعني الملك العادل.

وإن الأم التي تنسج الخيوط وتصبغها الأرجوان هي أم سورية فقط.

فهل، بعد هذا، يمكن الحديث عن «هوميروس» أوروبي؟

* * *

(1) ديورانت، قصة الحضارة، الجزء1 ص 19 - 20.

(2) كيتو، المرجع السابق، ص44 - 45.

تألم السوريون كثيراً لدمار طروادة ومقتل أسرة فريام. وكان الشعراء الجوالون ما ينفكون ينشدون ملحمة الإلياذا في الدور والقصور على السواء جيلاً بعد جيل على أنغام القيثارة أو العود أو الربابة، تاركين لمشاعر الحزن والغضب فرصة التأجج الدائم. لكن الواقع الذي كانوا قد تعودوه منذ آلاف السنين هو تجاوز عمليات الثأر الفئوية أو القبلية معتمدين على جيش الدولة المركزية التي ما كانت لتنهار مرة حتى تجد السبيل إلى النهوض مرة أخرى، وتقبض بقوة على زمام الأمور، وتحفظ أمن الثغور وتعاقب الأشرار والمعتدين. لكن أمر انتظار مجيء حاكم قوي يعيد إلى الدولة هيبتها بدأ يطول هذه المرة. فما كان إلا أن أخذ ذلك الغضب يفتش عن مخرج آخر كما هي الحال في كل الظروف المشابهة عبر التاريخ. لقد أخذ زمام المبادرة مجموعات من الرجال المتحمسين، كانوا أخلاطاً من الفقراء، والطامحين إلى الكسب أو إلى السلطة، أو الباحثين عن مجال لاستخدام طاقاتهم في القتال. وأطلق على تلك الجماعات اسم «الدوريين» في التاريخ.

المقاتلون «الدوريون» والانتقام لطروادة

إن تسمية «الدوريين» سورية سريانية. وتعني: المقاتلين، المحاربين. وهي في القاموس السرياني من الفعل «دَرْ» ويعني: صارع، قاتل، حارب. ومبالغته «دْرَرْ». و«دورو»: مصارع، مقاتل، محارب، صراع، قتال، حرب، هيجاء. «بيت دورو»: ميدان الحرب، ساحة الوغى.

فالدوريون ليسوا شعباً، وليسوا قبيلة تنتمي إلى جد واحد، وليسوا سكان مدينة أو عدة مدن وحدّت جهودها وقررت القيام بحرب انتقامية لمصير الطرواديين، وليسوا عيّنة من الشعب السوري الحضاري. إنهم خليط من الطبقات الدنيا بالدرجة الأولى، جمعت فيما بينهم حماستهم الحقيقية أو الزائفة من جهة، وطموحاتهم إلى تحسين أوضاعهم عن طريق الغزو من جهة أخرى.

أما كيف تعامل المؤرخون في الغرب مع هؤلاء الدوريين فكل بما تملي عليه درجة تعصبه. بعضهم اعتبرهم قبيلة تنتمي إلى «دورو» من أبناء حيلا بن يافث بن نوح. وهذا الزعم لا أساس له. لقد فصل المؤرخون العرب في فروع يافث وذكروا يونان ولم يأتوا على ذكر «دورو». كما أن مصادر التاريخ اليوناني نفسها تنفي صحة هذا الادعاء. وبعضهم اعتبرهم هندو أوروبيين (آريين)، وهذا الزعم بدعة أخرى لا يقل تفاهة عن

بدعة «الآرية» نفسها. وهذا الفريق رأى أنه ما دام أولئك الدوريون مقاتلين أشداء فينبغي أن يلحقوا بـ «العرق الآري» المتفوق في القتال!

المهم في الأمر أن تلك العصبة من المقاتلين انطلقوا من الساحل السوري إلى الجزر. ومن جزيرة رودس اتجهوا إلى البلوبونيز حث يتمركز الحلف الأرقوسي الإسبارطي الإخائي حجر الزاوية في الحرب ضد طروادة. وسرعان ما اجتاحوا موقيني وإسبارطة واستعبدوا السكان هناك وصاروا ملوكاً، وفرضوا على أهل موقيني جزية سنوية تعادل نصف محصولاتهم، وجعلوا إسبارطة مقراً لهم. وقد قسموا السكان إلى ثلاث فئات أو طبقات: الأولى طبقة السادة المعمّمين «عيفوري»* iphore وهم من الفرسان الدوريين الذين يعرفون بالمغفر أو العمامة على رؤوسهم. «والثانية طبقة «الفيروقي» peroci وهم قوم أحرار يسكنون في القرى المجاورة أو على التخوم، أو يشتغلون بالتجارة أو الصناعة في المدن، يؤدون الضرائب ويخدمون في الجيش، ولكن لا نصيب لهم في حكم البلاد، وليس لهم حق الزواج من الحكام الدوريين»[1]. وكلمة «الفروقي» هي في القاموس السرياني من الفعل «فْرِق» ويعني: حرر، فصل، أبعد، افترق، انفصل، ابتعد، قبل، التزم، عمل مقاطعة. و«فروقو»: قبالة، التزام، الشغل مقاطعة. وهذا هو المقصود فعلاً.

أما الثالثة فهي طبقة الـ «حيلوط» Helot وتعني في القاموس السرياني: الخليط، الأخلاط، لفيف الناس، العامة. «وكانت أحط الطبقات وأكثرها عدداً... كانوا أقناناً يعملون في زراعة الأرض لصالح سادتهم الدوريين... وكان يُطلب من الواحد منهم أن يؤدي خدمات منزلية لسيده في المدينة، وأن يقوم على خدمة سيده في الحرب، وأن يحارب دفاعاً عن المدينة إذا ما طلب إليه... فإذا أبلى في الحرب بلاءً حسناً فقد ينال حريته... وكان معرضاً على الدوام أن تطبق عليه القوانين العسكرية، وأن تفرض عليه رقابة الشرطة السرية وتقتله في أية لحظة من غير سبب أو محاكمة»[2]. «أما العناصر الحاكمة فكانت تجتمع في مجلس الشيوخ أو الـ «جروسيا». وكانت الجروسيا بمعناها الحرفي وحقيقة أمرها جماعة من الرجال كبار السن. وكان الذين تقل أعمارهم عن ستين عاماً يعدّون في العادة غير ناضجين لمناقشة شؤون الدولة في هذا المجلس»[3]. إن كلمة «جيروسيا» في القاموس السرياني تعني: الحرب، الشدة، الخطر، مجلس الحرب...

* الكلمة في القاموس السرياني «عيفارا» أي غفارة، عمامة، ومثلها «عيفورا». «معفارو»: مغفر، خمار، عمامة، عباءة، جبة، «عفيرو»: موشح، معمّم، متأزر بعباءة.

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص140.

(2) المرجع نفسه، ص141.

(3) المرجع نفسه، ص150 – 151.

وقد استخدم أولئك الدوريون في الانتقام وإذلال السكان أساليب مختلفة، كان من أبرزها «أنهم كانوا يسلّحون بعض الشباب الإسبارطيين، ويتخذونهم شرطة سرية «قْرِفْتيا» Kryptea يتجسسون على الناس. وكان لهم حق قتل الحيلوطيين بمحض إرادتهم. وكانت هذه الهيئة تستخدم في أوقات لم يكن ينتظر أن تستخدم فيها. بل إنها كانت تستخدم للتخلص من الحيلوطيين إذا كان سادتهم يرونهم رجالاً قادرين يخشى بأسهم ولو كانوا قد دافعوا عن الدولة دفاع الأبطال.

ويقول عنهم توكيديديس بعد ثماني سنين من حرب البلوبونيز:

«صدر إعلان يدعو الحيلوطيين لأن يختاروا من بينهم من يقولون إنهم قد أظهروا تفوقهم في قتال الأعداء لكي ينالوا حريتهم. وكان الغرض الحقيقي من هذه الدعوة هو اختبارهم. لأن أول من يتقدمون للمطالبة بحريتهم كانوا في رأي الداعين أعزهم نفساً وأكثرهم استعداداً للعصيان. واختير بهذه الطريقة ألفان منهم، وضعت على رؤوسهم التيجان، وطافوا بالهياكل مغتبطين بحريتهم الجديدة. ولكن الحكام الإسبارطيين ما لبثوا أن تخلصوا منهم جميعاً، ولم يعرف أحد قط كيف هلك كل فرد من أفرادهم»[1].

أما ما يقال حول غزو الدوريين لكريت واستعمارهم لـ «آسيا الصغرى» فليس إلا واحدة من شطحات العقل الذي اخترع البدعة «الآرية» ثم أعجب بها، ثم أخذ يبسط لها «من الرزق» بمقدار ما تمليه عليه رغائبه الدفينة. إن غزو الدوريين لشبه جزيرة البلوبونيز لم يكن أكثر من غزو عصبة من الرعاع، وربما من البطالين الذين اغتنموا غضب السوريين وحزنهم على مصير طروادة، من جهة، وخُلّو أرض الحلف الإغريقي الآخي من المقاتلين بعد أن عادوا فلولاً وأشلاءً مبعثرة من حرب طروادة من جهة أخرى. ولولا ذلك لما تمكنت مثل تلك العصبة من المغامرين من السيطرة على إسبارطة وموقيني وأرقوس.

إن انتصار أجاممنون زعيم أرقوس في حرب طروادة «كان بمثابة الضربة القاضية عليه، لأن من كان معه من الزعماء لم يعد منهم إلا القليل، وشقت كثير من الممالك عصا الطاعة، وخرجت على كثيرين ممن لم يصحبوه من الزعماء. ولم يكد ينتهي العهد الذي بدأ بحصار

(1) المرجع نفسه، ص152 – 153.

طروادة حتى كانت قوة الأخيين قد أنهكت ونضب معين الحياة من جسم أبناء بيلوبس»[1].
«وكان النصر الذي أحرزه المنتصرون سبباً في هزيمتهم، فعادوا منهكين محزونين إلى أوطانهم بعد حنين إليها طويل. وتحطم كثير من السفن التي أقلّتهم، وارتطم بعضها بشواطئ البلاد الأجنبية»[2]. وهكذا خمد ذكر تلك القبائل العربية السريانية الإغريقية الهاربة بعد أن استغلها الفينيقيون ودفعوا بها إلى تلك المغامرة، وكانوا هم المستفيدين الوحيدين من تدمير طروادة. لكن الانتظار الذي استمر زهاء قرنين من الزمان تمخض أخيراً عن نهوض جديد للدولة السورية المركزية، بعد أن دفعت إلى العرش بكوكبة من الملوك الأكفاء كان لهم دوي مجيد في تاريخ المنطقة والعالم نذكر منهم: سرجون الثاني، سنحاريب، الملكة سمير أميس، نبوخذ نصر، وآشور بانيبال. لقد أعادوا للدولة السورية عزها ومجدها، وفاقت بسطوتها وقوة نفوذها أي عهد لها سابق، استمرت زهاء ثلاثة قرون.

أمّا «أغريقيا»، أي أرض الفارّين، فقد ظلت، كما هو متوقع منها، كئيبة، معزولة، لم تكن تلك العشائر والأسر الهاربة إليها تتخذ منها ملاجئ بعيدة عن عيون الدولة لتنتج شيئاً من مظاهر الحضارة. «وبدخول الدوريين إلى شبه جزيرة بلاد الإغريق ينسدل ستار كثيف على معلوماتنا»(3) و«استمرت هذه الفترة الغامضة حتى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد»(4). «ومنذ أوائل القرن الثامن حتى أواخر القرن السادس ليس هنالك سوى مقدّمات فقط جهلها القسم الأكبر من العالم الإغريقي أو لم يأبه لها»(5). «وكان المجتمع القديم ريفياً قبل كل شيء من حيث أنه وليد مجازفات الغزو ومعارك الفتح وتسويات الاستيطان... وكان ذوو الأملاك إما أبطال حروب وإمّا أنسال هؤلاء الأبطال، وقد نعموا في الوقت نفسه بثروة وفيرة... وكان هناك أصحاب حرف لا شأن لهم، وتجار لم يصل إلينا عنهم شيء يذكر... وكان فلاحون صغار... يعيشون عيشة قاسية في أرض قليلة الخصب... أما فئة (الأثرياء) فقد حرصت على أن تتميز في استعمال الأسلحة... لأجل القنص، وأحيت الولائم الفاخرة، وقد سخرت لخدمتها في مساكنها الرحبة الكثير من

---

(1) المرجع نفسه، ص17.1
(2) المرجع نفسه، ص12.1
(3) مكاوي، المرجع السابق، ص57.
(4) المرجع نفسه، ص55.
(5) إيمار، المرجع السابق، ص280.

الأرقاء... وكانت تجلّ الأقمشة والحلي النادرة، والموسيقى وإنشاد المغنين... فالقيمة الشخصية تتجلى في الحرب. وكان لذوي الأملاك الواسعة وحدهم متسع من الوقت لإتقان التمرن، واقتناء سلاح كامل ثقيل وغالي الثمن، وإمكانية لتربية الأحصنة... أما المواطنون الآخرون فكانوا ينخرطون في الحرب مشاة، ويقتنون الأسلحة التي تسمح بها مواردهم، وقد لا تتعدى المقاليع... لكن الحرب كانت تتيح لهم الانتفاع بالغنائم»[1].

تلك هي الصورة التي تلخص حياة أولئك الإغريق الفارين في شبه جزيرة المورة، والتي امتدت قرابة خمسمائة عام، منذ أواخر القرن الثاني عشر وحتى بداية القرن السادس قبل الميلاد، والتي دعاها المؤرخون في الغرب بـ «الفترة الغامضة». والحقيقة إن هذه التسمية فيها من الخبث وسوء النية أكثر ما فيها من الدقة. إن واقع بلاد الإغريق الجغرافي والمناخي، وواقع سكانها الأصليين الهمج من سكان الكهوف، وسكانها النازحين الهاربين المتخذين منها مهارب وملاجئ، وعدم صلاحية الموقع وأهلية الوافدين وحجمهم لإقامة أي تجمع حضاري على الصعيد الزراعي، أو الصناعي، أو التجاري، أو الفنّي، أو الفكري... كان هذا كله يقدّم لنا الصورة في غاية الوضوح. أما تسمية خمسمائة عام بـ «الفترة الغامضة» فليس إلا خلق نقطة ارتكاز للتفسير المزور والزائف لما سيظهر فجأة في القرن السادس مما دعوه بـ «معجزة اليونان الحضارية» ومن أجل تغييب أصولها وأسبابها الحقيقية، تمهيداً للزعم فيما بعد بأنها حضارة أصيلة نابعة من أرض المورة وحدها حيث جذورها التاريخية، وليست حضارة وافدة طارئة مؤقتة، جاءت مع أناسها من الشمال السوري بفعل الاجتياح الفارسي، ثم اختفت نهائياً من أرض المورة بعد اندحار الفرس وعودة السوريين إلى الوطن.

وخلال تلك القرون الخمسة لم تظهر أية بادرة إبداعية في أي مجال من مجالات الثقافة أو الحضارة، حتى أن بعض تلك المظاهر من العيش القبلي شبه المستقر التي أتت مع تلك العشائر العربية من فالاجيين وغيرهم، أخذت في التفتت والاضمحلال والتلاشي. وعبثاً بذل المؤرخون في الغرب جهوداً مضنية من أجل العثور على أي مَعْلَم حضاري أو إبداعي يصلح لأن يكون مرتكزاً تاريخياً لحضارة القرنين السادس والخامس المفاجئة. وحين أخفقت كل تلك الجهود تشبثوا بـ «إلياذة» هوميروس، وحمّلوها مهمة «التغطية الحضارية» لكل تلك القرون الخمسة، ونقل عنهم النقلة «أساتذة التاريخ» العرب كالعادة!

---

(1) إيمار، المرجع السابق، ص280 – 282

يقول الدكتور فوزي مكاوي (نقلاً عن غيره بالتأكيد):

«وغموض معلوماتنا عن هذه الفترة لا يعني أبداً أن بلاد الإغريق انعدمت فيها الحضارة أو أنها عادت بدائية... ويكفي هذه الفترة أنها أنتجت أعظم الآثار الأدبية وأخلدها في تاريخ الإغريق، وهي ملحمتي هوميروس الإلياذة والأوديسا»[1].

على أية حال إن علم النفس الفردي والمجتمعي يؤكد لنا أن الشعور بالنقص إذا ما تفاقم إلى درجة المرض قد ينفجر إلى حالة مرضية من الكذب، خالقاً بذلك واقعاً وهمياً حول التفوق التاريخي لفرد، أو سلالة، أو فئة، أو عرق، أو جنس. وهذا بالضبط هو ما حصل للأوروبيين إبان عصر النهضة، كما حصل لليهود حديثاً انطلاقاً من الواقع المتخلف لعشيرة بني إسرائيل في مدونات التوراة.

(1) مكاوي، المرجع السابق، ص55.



الفصل الثالث

انهيار الدولة السورية وظهور الفرس:

إن القانون المندرج في إطار «جدل الخارج مع الداخل»، هو الذي حكم تاريخ الدولة السورية منذ بدء إنشائها على يد «ساروكينو» (سرجون الأكادي) إلى اليوم. لقد كان يتلخص دائماً في التضادّ بين الداخل السوري الحضاري والخارج الهمجي، من حيث المضمون. أما من حيث الشكل فيتجلى دائماً في الصراع الذي تحكمه القوة بين الداخل والخارج. ولقد لخّص لنا هذا الوضع منذ البداية المؤرخ هنري فرانكفورت، نعيده هنا لشدة ما يلقيه من الضوء، ولقوة تعبيره عن الأوضاع التي أوشكنا على الحديث عنها:

«إن البلاد كانت في كل الأوقات معرضة لأخطار جسيمة. لقد كانت بلاداً متحضرة ومزدهرة، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية. لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانيات النهب الهيّن. كانت المدن تستطيع أن تردّ غائلة الغزوات. أما الهجمات الكبيرة التي كانت تتكرر كل بضعة قرون فقد كانت تحتاج إلى حكومة مركزية قوية تردها. كذلك كان تأمين سلامة الطرق التجارية أيضاً فوق إمكانية المدن المنفردة. وقد يتوقع المرء أن يرى هذه المدن تتعاون معاً في جهد وطني مشترك. إننا بالفعل نجد ملحمة عن «ملك المعارك» تصف كيف أن سرجون الأكادي، حينما توسل إليه تجار ما بين النهرين الذين كانوا يتاجرون في الأناضول، ذهب إلى هناك على رأس جيش للدفاع عن قضيتهم. ... وهكذا تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد، حتى أنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا ثم اتجاهه نحو الغرب محاولة منظمة مركزة لصد الجبليين، لأن إخضاعهم بصورة دائمة، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة، كان مستحيلاً. ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية. لقد كان لا بد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك»[1].

---

(1) فرانكفورت، المرجع السابق، ص94.

إن في هذا القول الرائع للمؤرخ فرانكفورت تلخيصاً لتاريخ سوريا كله، وعلى مدى خمسة آلاف عام على الأقل. إنه صراع بين الداخل الحضاري المزدهر والخارج الهمجي. والعامل الحاسم في تقرير نتائج الصراع كان دائماً متوقفاً على قوة الداخل، المتمثلة في الدولة المركزية. فكلما أصيبت الدولة المركزية الكبرى بالضعف أو التفكك تعرضت لغزو القبائل والشعوب الهمجية، أو ما أطلق عليها المؤرخون في الغرب «برابرة آسيا» و«برابرة أوروبا».

وليس تاريخ سوريا الحديث بكل تلاوينه ومنعطفاته إلاّ أحد وجوه ذلك الصراع نفسه الذي ارتسمت ظلاله على مدى كل العصور. وإذا كان الخارج اليوم أدرك هذه الحقيقة، وبذل كل جهوده من أجل «تشظية» سوريا القديمة التي كانت تشمل كل عرب آسيا عند هيرودوت وجزءاً من أوروبا، حيث انتشر السوريون، وعمل على تثبيت وتكريس هذه «الشظايا»، وحال دون وحدتها مستخدماً في ذلك كل الوسائل والأدوات، فإننا نجد، في المقابل، بعض هذه الشظايا تستميت في الدفاع عن هذا الواقع المقزم والمكرّس من الخارج، وتضع في صلب دساتيرها أن هذا الكيان الشظية أو ذاك «وطن نهائي لأبنائه» تحت ستار زائف من «الديموقراطية» التي تصادر حرية وإرادة كل الأجيال المقبلة!

ومرة أخرى نذكّر بأهم ملامح الصورة في حوالي 700 ق.م، وتحديداً في عهد آخر ملوك الدولة في العهد الآشوري:

«وفي سنة 700 ق.م كانت آشور قد ضمّت إلى أملاكها جميع أراضي الهلال الخصيب، فأحاطت بجون الصحراء من جميع جهاته. ولم تكتف بذلك بل وسعت نطاق سلطانها حتى شمل البلاد الجبلية الشمالية وما وراءها إلى مدى بعيد. وبفتحها لمصر بسطت حمايتها على الجهة الغربية من وادي النيل الأسفل... وظلت حملات آشور وغزواتها جارية في مجرى الشدة والقوة حتى صارت أعظم مملكة رآها العالم منذ وجد. ولم تكن دولة في الأرض تجرؤ على مناوأتها[1]... وكانت جيوشها أول جيوش تسلّحت بأدوات مصنوعة من الحديد. وقد

(1) بريستد، المرجع السابق، ص165 – 166.

وجد في مخزن السلاح بقصر سرجون مائتا طن من الأدوات الحديدية[1]... وقد بلغت قصورهم درجة سامية من الفخامة والأناقة مما يدل على ما كان عليه أصحابها من العظمة والسؤدد. وأخذ الآشوريون عن البابليين فن بناء القناطر فصارت من مميزات مبانيهم الفخمة المهمة في ذلك الزمان كما هي من مميزات مباني الشرق في وقتنا الراهن. وزادوا على مرور الأيام في إتقانها وإحكام بناء الأبراج. وكانت القناطر الثلاثية التي شيدوها عند مداخل قصورهم بالآجر الملّون المرصع بالمينا هو ما احتذاه الرومان فيما بعد حينما بنوا أقواس نصرهم. وكان على جانبي المداخل تماثيل هائلة ذات رؤوس بشرية منحوتة من الرخام الأبيض الشفاف، وجدران قامت عليها أبراج سامقة تشاهد من جميع جهات المدينة... وقد بلغوا بصناعة تلوين الأجر درجة من الإتقان بأسلوب ممتاز خاص بهم. وبذلك وضعوا أساس صناعة اشتهرت بها آسيا الغربية وبلاد الفرس في خوالي العصور. ولا تزال الألوان المستعملة حتى في الأزمنة المتأخرة بيّنة ناصعة على تأثير الآشوريين الخالد»[2]...

«وقد امتازت شرائع الآشوريين عن غيرها من الشرائع القديمة بأمرين أولهما أنه لم يجئ فيها أن عقاب المجرم يجب أن يكون من نوع الجرم الذي ارتكبه كالعين بالعين مثلاً والسن بالسن. والثاني أنهم لم يميزوا بين الأمراء والسوقة في عقاب المجرمين منهم، مما يظهر أن الآشوريين جميعهم كانوا في نظر القانون سواء. وكان عقاب من ينتهك الأعراض وحرمة الأسرة شديداً وبلا رأفة. وعقاب الفاجر كعقاب الفاجرة بلا فرق. أما الزواج فكان منوطاً بالعروسين وحدهما، لا دخل لأحد فيه سواهما»[3].

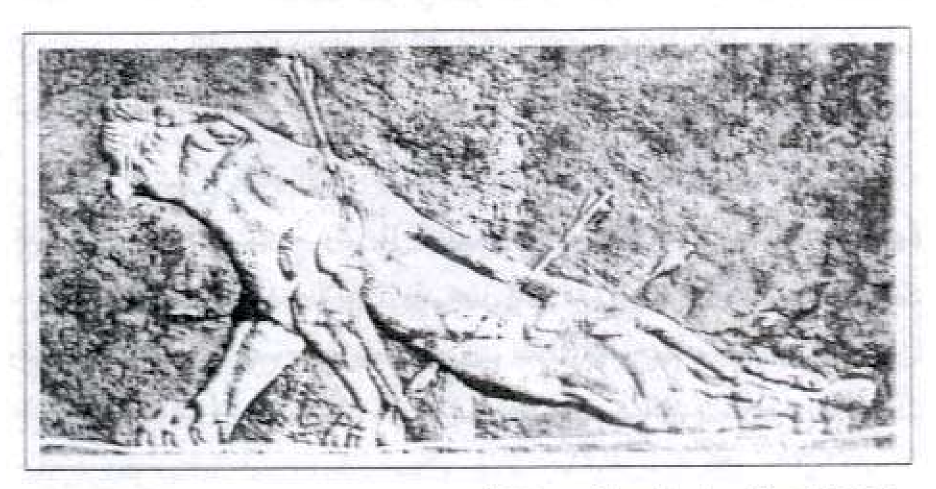
«وكان للآشوريين ولع بالأمور العالية كالآداب التي ازدهرت بينهم وكان لها شأن خطير في هيئتهم الاجتماعية. ولم يقلّ كلفهم بكتابة تواريخهم، ولا سيما ما تعلق منها بحروب ملوكهم، عن كلفهم بالآداب. وقد تصل إلينا كثير من أخبارهم التاريخية مفصلة ومنسقة سنة فسنة، وخصوصاً ما يتعلق بحروب الملوك، وفتوحهم، ومبانيهم... وكان من عادة مؤرخي ملوك آشور أن يدونوا كل سنة ملخص حوادث السنين الغابرة...»[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص167.
(2) المرجع نفسه، ص171 - 172.
(3) المرجع نفسه، ص173.
(4) المرجع نفسه.

«ولم يكن أحد يترفع عن الكتابة وتعلم صناعة الخط حتى ولو كان من أفراد الأسرة المالكة، بدليل أن آشور بانيبال حفيد سنحاريب وآخر ملوك الآشوريين كان يباهي بأن أباه الملك لم يقتصر في تهذيبه على الفراسة، وإتقان الرماية عن القوس، بل علّمه أيضاً الكتابة على الآجر، وخرّجه في علوم زمانه. وقد وجد الأثاريون في مكتبة هذا الإمبراطور في نينوى اثنين وعشرين ألف آجرة بقيت مطروحة على أرض المكتبة مدة ألفين وخمس مائة سنة، حتى نقلت إلى المتحف البريطاني حيث لا تزال محفوظة. وهي في مواضيع مختلفة ما بين دينية، وعلمية، وأدبية، جمعت ونسقت بأمر الإمبراطور، وهي أول مكتبة منظمة وجدت في آسيا. وقد فاق الآشوريون البابليين في مضمار العلوم والآداب، فلم يكونوا فقط مجرد نقلة عنهم».

«وفاق الآشوريون أسلافهم البابليين حتى والمصريين أيضاً في تنظيم البلاد إدارياً... وكان من واجب كل عامل من عمال الملك في مملكته الواسعة أن يبلغ الحكومة المركزية بوجه السرعة جميع ما يقع من الحوادث ذات الشأن في ولايته. وكان يقوم، بعد حفظ النظام وضبط الأحكام، بجباية الضرائب... فيحسم من مجموعها النفقات المحلية ويبعث بالرصيد»[1].



صورة رقم (34) نحت آشوري بارز على جدران معبد - 710 ق.م.

(1) المرجع نفسه، ص174 - 175.

«وكانت دولة آشور، ولا سيما في أيام مجدها العسكري، أول دولة خطر لها أن تشمل سيطرتها العالم بأسره، وخطت في هذا السبيل خطوة مهمة... ومع ما كان عليه الآشوريون من الخشونة والشراسة، نرى أن المدنيّة في زمانهم قد ترقت كثيراً عما كانت عليه قبلاً. فهم بناة الصروح الجميلة والقصور الفخمة في نينوى وضواحيها، وهم أول من عزز فن البناء في آسيا وشيد المباني العظيمة، وفوق ذلك كله لقد كان في حيازة نينوى أولى المكتبات المعروفة»[1].

«ولقد توالى على عرش بابل كثير من الملوك... وهم الذين أحاطوا المدينة بالأسوار وجمّلوها بالهياكل التي شادوها بها، ومنهم قام ملكتان إحداهما قبل الأخرى. عدة أجيال، وكان اسم الأولى سمير أميس، وهي التي بنت السد العظيم الذي يمنع فيضان نهر الفرات من جانبيه حتى لا يطغى كالسابق. أما الملكة الثانية فكان اسمها نيتو قريث، وكانت أوفر حكمة من الأولى»[2].

تلك كانت بعض ملامح الصورة للدولة السورية في بداية القرن السابع قبل الميلاد كما بيّنتها الوثائق والآثار المكتشفة وكما ينقلها المؤرخون. وكان على تلك الدولة ألا تضعف أبداً، لأن ركونها مرة واحدة إلى السلام الخادع وإهمال تعاظم قوتها مرة واحدة كان كفيلاً بتحفيز كل تلك القوى المتخلفة المتربصة بالانقضاض عليها مع ما يتوفر فيها من أسباب مغرية بالغزو والنهب. حتى صار ينعكس ذلك في طباع السوريين عامة بحيث صار السوري يتميز، إلى جانب دماثته ورقة طباعه وتهذيبه، بالريبة، والحذر، والدهاء، والشراسة، والترقب. إنه لين كجلد النمر، مستوفز ومتوثب وشجاع كالنمر ذاته، وقد انعكس ذلك في فنّه أيضاً في العهد الآشوري بخاصة. يقول بريستد: «وكان خُلُق النمر يجري في عروق الآشوري، حتى أنه كيفما أعمل إزميله في حجر برزت أمامه صورة نمر»[3].

---

(1) المرجع نفسه، ص180.

(2) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول: 184، 185، ص95.

(3) بريستد، المرجع السابق، ص 171.

ومن بين أهم تلك القوى المتربصة في تلك الفترة، أي بداية القرن السابع قبل الميلاد، القبائل السقودية (نسبة إلى جبال سقودا أي القفقاز) الهمجية في الشمال، والقبائل العربية البدوية في أطراف بادية شبه جزيرة العرب الشمالية والشمالية الشرقية، وعلى الأخص قبائل الأراميين والقبائل الفارسية. يضاف إلى هؤلاء وأولئك التجار الفينيقيون الذين لم يتمكنوا يوماً من الارتقاء بولائهم عن مستوى حدود المدينة، ولم يتجاوزوا أخلاقية الصياد والتاجر في مفهومهما البدائي الضيق، بحيث بقي ذلك يشكل حاجزاً حقيقياً بينهم وبين الشعور بالانتماء إلى الدولة المركزية، مما جعلهم يدفعون في النهاية أثماناً فادحة. وفي ذلك كانوا يلتقون مع القبائل البدوية الأرامية التي كانت ترى في قوة الدولة المركزية كابحاً لنزعاتها في الغزو والنهب والإثراء الذي يشكل سقفاً لطموحات البدو في كل زمان ومكان.

نهاية دولة آشور:

لا شك في أن اختيار موقع قرية «بابل» كمركز للدولة من قبل الملك العظيم حمورابي كان يعبر عن حسّ استراتيجي كبير. فهو حينما تقدم بقواته من الغرب السوري ليحسم أمر الانقسامات الداخلية والتحديات الخارجية، وسبق كل القوى المتنافسة الأخرى كان قد حسم نصف المعركة لصالحه، وذلك نظراً لموقع بابل الستراتيجي في منتصف الدولة وعند نقطة اقتراب نهري الدجلة والفرات من بعضهما بحيث يسهل قطع خطوط المواصلات أمام الطامعين في المناطق، مما مكنه من الدفاع عن وجوده في بابل ببراعة فائقة لفترة طويلة درس خلالها كل أمور الدولة وتناقضاتها عن كثب، ومن اتخاذ قرارات سريعة وحاسمة وصحيحة إزاء كل المسائل.

يقول ول ديورانت:

«تطلّ علينا شخصية قوية هي شخصية حمورابي (2123 - 2081 ق.م) الفاتح المشترع الذي دام حكمه ثلاثاً وأربعين سنة. وتصوره الأختام والنقوش بعض التصوير، فنستطيع في ضوئها أن نتخيله شاباً يفيض حماسة وعبقرية، عاصفة هوجاء في الحرب، يقلّم أظافر الفتن، ويقطع أوصال الأعداء، ويسير في شعاب الجبال الوعرة، ولا يخسر في حياته موقعة. وحدّ الدويلات المتحاربة المنتشرة في الوادي الأدنى، ونشر لواء السلام على ربوعها، وأقام فيها منار الأمن والنظام بفضل سفر قوانينه التاريخي العظيم»[1].

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص189 - 190.

لقد أقام حمورابي دولته السورية الكبرى على أسس حضارية حتى بمقاييس القرن العشرين بعد المسيح، وتحولت بابل من قرية صغيرة إلى أعظم مدينة عرفها التاريخ القديم والوسيط حكمتها سلالة حمورابي زهاء ثلاثة قرون، وصار مجرد ذكر اسم بابل يعني المجد والحضارة والرخاء والازدهار. وصار الانتماء إليها مبعث فخر لكل السوريين حتى طغى اسمها على اسم سوريا. وما تزال أصداء هذا المجد تدوي في ذاكرة حتى المؤرخين من عصرنا الراهن كرمز للمدنيّة الحقّة وللسلام. لقد اختتم الباحث الفرنسي الشهير بييروسّي أحد كتبه بهذه العبارات: «فأمام فكرنا المستبدل والمغلوط، وأمام الأفكار الآلية التي تسكننا، وأمام إحساسنا المحتضر... أمام ذلك كله كان يبدو من المؤكد أن الشرق هو الذي يقدم لنا الارتقاء الصعب نحو البعث. نعم، إن الحياة تنتظرنا في بابل»[1].

ثم إن نقل مركز الدولة من بابل إلى آشور في الشمال ثم إلى نينوى في العهد الآشوري لم يكن خطأً استراتيجياً بقدر ما كان ضرورة ملّحة فرضها حجم التحديات الكبيرة القادمة، في معظمها، في تلك الفترة من التهديد المتعاظم والمستمر المتمثل في برابرة الشمال. لكن هذا، ورغم كل النجاحات الباهرة التي تحققت في عهد الدولة الآشورية، لم يكن ليزيل الامتعاض من نفوس البابليين وغيرهم من السوريين عشاق بابل، وهم يرون مدينتهم الخالدة تنزل في نشاطها الداخلي والخارجي إلى المرتبة الثانية.

لقد ثار البابليون عدة مرات مستخدمين أعداداً كبيرة من البدو الآراميين الذين كانوا يملأون جوف شبه جزيرة العرب وأطرافها الشمالية والشرقية، مما اضطر الملك سنحاريب إلى أن يدمّر بابل «ويأخذ منها مائتي ألف أسير معظمهم من الآراميين»[2].

في ذلك الوقت كان همج الشمال ممثلين في القبائل السقودية (القفقازية) قد جمعوا جموعهم للانقضاض على المدن السورية، فأعملوا فيها النهب والقتل، «ونهبوا هيكل الزهرة الملقبة بالسماوية، وغاية ما أعلم من هذا الهيكل أنه أقدم الهياكل المشادة لهذه الربة»[3]. «واستمر ملوك السقودا في آسيا ثمانية وعشرين عاماً، أكثروا

(1) روسي، المرجع السابق، ص 268 .

(2) بريستد، المرجع السابق، ص177.

(3) هيرودوت، المرجع السابق، الكتاب الأول: 105، ص62 – 63.

من العبث والتخريب اكتساحاً وإهمالاً، وفضلاً عن أموال الجزية المرتبة كانوا يغرمون أفراد الناس ويسلبونهم أموالهم، وكانوا يسطون في البلاد ناهبين سالبين أموال الأهالي. وما زالوا كذلك حتى قام كيازارش والماديون وصنعوا وليمة دعوا إليها أكثر السقودة، وأسكروهم، وقتلوهم عن آخرهم»[1].

هذا ما يقوله هيرودوت في تاريخه. وبالطبع إن هيرودوت وغيره لم يسمع بشيء اسمه «الجنس الآري» أو «الهندو أوروبي»، فلنسمع إذن ما يقوله المؤرخون في الغرب المأخوذون بهذه البدعة. يقول بريستد: «وكانت جيوش جرارة من الشعوب الهندية الأوروبية تزحف من الشمال على بلاد آشور تتقدمها قبائل مادية وفارسية، فكان هذا الزحف مدعاة لزعزعة مملكة آشور من أسسها، وباعثاً على الخوف والقلق ومجلبة للرعب لسكان آسيا الغربية، لأنه كان بين تلك الجيوش الجرارة عدد كبير من السقوديين الذين قدموا من سهول أوروبا الجنوبية، وانتشروا في أرض سوريا وما بين النهرين يعيثون فساداً ويلقون الرعب في قلوب الناس جيلاً كاملاً كما فعل المغول بعد ذلك بألفي سنة بقيادة تيمور لنك المعروف»[2].

إن المؤرخين الغربيين المعاصرين، في معظمهم، لا يقدرون إلا أن يستمروا في تكرار الكذبة الآرية حتى ترسخ في الأذهان كحقيقة ثابتة. لقد نقل بريستد وغيره عن هيرودوت، لكن هيرودوت لم يذكر جيوشاً هندو أوروبية، بل قبائل السقودة (ينقلونها أحياناً السكيثة) وكان قد فصّل في همجيتها، وهي القبائل التي تسكن جبال القفقاز لأن السوريين أطلقوا عليها أولاً جبال سقودا، ثم جبال «قوي قاز» أي موطن الفراء، وهو لم يشر إلى أن تلك القبائل جاءت من «السهول الجنوبية لأوروبا». وهيرودوت ذكر صراحة أن الماديين هم الذين سقوا السقودا خمراً حتى أسكروهم ثم قتلوهم عن بكرة أبيهم، ولم يقل «إن قبائل مادية وفارسية كانت تتقدم تلك الجيوش الهندو أوروبية الجرارة»! فالفرس والماديون ـ سوف يقحمون رغم أنوفهم ورغم كل حقائق التاريخ ـ في جوف الكذبة الآرية حتى تتسع ويتسع بالتالي أنصارها، وتكون ذريعة للقوى الاستعمارية الأوروبية الحديثة لبسط سيطرتها على المنطقة الممتدة شرقاً إلى الهند.

(1) المرجع نفسه: 106، ص63

(2) بريستد، المرجع السابق، ص177 - 179.

إن هذه الأخطار الهمجية التي تدفقت على المدن السورية من الشمال جعلت بقية البابليين والسوريين المحيطين ببابل يتناسون ظلم الأشوريين لمدينتهم الرمز، ووحدوا صفوفهم من أجل إنقاذ الدولة. «وربما كان عنف أولئك (الهمج) وظلمهم لسكان آسيا الغربية الباعث الذي حدا بالذين كانوا قبلاً قد سيموا خسفاً وضربت عليهم الذلة من قبل الأشوريين على أن يهبّوا هبّة واحدة لنصرة آشور قبل سقوطها النهائي لاعتقادهم أنها هي الحامي الطبيعي لهم من أولئك البرابرة الطغاة، حتى الملوك الذين كانوا منذ عهد قريب قد قلبوا لآشور ظهر المجن وخلعوا عنهم نيرها الثقيل، قاموا الآن وانضموا إلى الآشوريين يحاربون معهم غزاة الشمال»[1].

السوريون الكلدان ينقذون الدولة إلى حين:

زحفت جموع السوريين بقيادة نبوبلاصر الكلداني والي الملك الأشوري على بابل والجنوب، وفرض سيطرته على آشور عاصمة الدولة لتخليصها من أيدي الغزاة الشماليين وإرجاع بابل عاصمة للدولة. «وأنشأ الكلدانيون أسياد بابل الجدد إمبراطورية يشغل تاريخها ـ على قِصره ـ الفصل الثالث من تاريخ الدولة... فأعادوا بنيان المدينة بابل التي كان سنحاريب قد دمّرها وجعلوها عاصمة مملكتهم، ودعوا البلاد كلها باسمهم، فصار اسمها كلديا. وكانت تشتمل على جميع أراضي الهلال الخصيب. أما الماديون فظلوا محتفظين بالبلاد الجبلية الواقعة في الشمال. وكان نبوخذ نصر أعظم ملوك الكلدانيين. ملك في بابل من 604 - 561 ق.م. وكان ملكه موصوفاً بمجالي الأبهة ومظاهر القوة، فحُسب من أفراد الرجال في تاريخ الشرق... ومع كل ما قام به هذا الملك العظيم من الحروب وجد لنفسه متسعاً من الوقت ومالاً لتوسيع نطاق عاصمة ملكه بابل وتحسينها. فشيد فيها المباني العظيمة التي فاقت بفخامتها وأناقة مظهرها الخارجي والداخلي ما شاده أسلافه الآشوريون، وإن كان قد أخذ عنهم كثيراً من هندسة مبانيهم الجميلة. وجدّد في القسم الجنوبي من المدينة في رحاب الهيكل العظيم هياكل آلهة البابليين القديمة. ولكي يصل بين هذه الهياكل والقصر الملكي فتح شارعاً عظيماً يخترق باباً فخماً دعي باب عشتار لأنه كان مكرساً لهذه الإلهة. وكان القصر الملكي العظيم مبنياً

(1) المرجع نفسه، ص179.

وراء هذا الشارع الذي كانت تمر فيه المواكب في الأعياد. وكانت في جواره دوائر الحكومة. وكان التل الذي بني عليه برج بابل الحقيقي بالقرب من هيكل مردوخ، وكان سامقاً فوق كل الأبنية التي حواليه. وكانت الجنات المعلقة التي عدّها اليونان من عجائب الدنيا السبع، تتوج القصر الملكي فتزيده جمالاً وبهاءً وتطل على باب عشتار فتكسب ألوانه رونقاً ورواء... لقد وسع نبوخذ نصر نطاق مدينة بابل وحصّنها بالأسوار الضخمة المنيعة تأميناً لها من مهاجمة الأعداء. ومن جملة تلك الأسوار سور عند أعلى المدينة كان يمتد من نهر إلى نهر. هذه هي المدينة التي أعادها نبوخذ نصر. هذه هي المدينة التي بهرت بجمالها وبهائها هيرودوت حين زارها بعد هذا الوقت بأكثر من قرن من الزمان كما يتضح من وصفه لها حين كتب عنها... ولكن لم يبق لنا إلا القليل من بقايا مجدها وعزها الغابرين اللذين جعلا شهرتها ملء الخافقين»[1].

ولقد نجح الكلدانيون في علم الفلك نجاحاً باهراً حتى قيل إنهم هم مؤسسوه. «فكان نتيجة مثابرتهم عليه أنه ولد على أيديهم. فقسموا خط الاستواء إلى 360 درجة، ورتبوا الكواكب مجاميع اثني عشر، دعوا كل مجموع منها برجاً، وسموها كلها منطقة البروج. وهذه كانت أول مرة صنعت فيها خريطة للأجرام السماوية... وتقدم المنجمون في أرصادهم تقدماً محسوساً، وبلغوا في الرصد درجة عظيمة من التدقيق حتى توصلوا إلى معرفة التنبؤ بالخسوف والكسوف... ويستطيع الناظر إلى المباني الجديدة في بابل أن يرى كيف رفع هذا العصر الكلداني بلاد بابل إلى مستوى جديد من التمدن أعلى من المستوى الذي وصلت إليه آشور في زمانها. ومع ذلك خيل للكلدانيين أنفسهم أنهم ليسوا إلا مجدّدين للتمدن البابلي الذي ازدهر في عصر حمورابي»[2].

إن ظاهرة التقدم الدائم صعداً في مضمار التطور الحضاري الذي عاشته سوريا ـ رغم كل التحديات ـ عبر العصور الأكادية والبابلية والآشورية والكلدانية لم يكن ليحصل لولا تلك الحقيقة التاريخية الثابتة، ألا وهي وحدة التراث، ووحدة الشعب الذي يبني على ما ورثه، ليرتقي به إلى مرحلة أكثر نبوغاً وتقدماً. إنه «التواصل التاريخي».

---

(1) المرجع نفسه، ص180 – 183.

(2) المرجع نفسه، ص184 – 185.

ظهور الفرس والماديين على الساحة:

في التراث العربي، الذي هو أقدم تراث على وجه الأرض، وفي سلسلة أنساب القبائل العربية، التي كانت وما تزال سلسلة الأنساب الوحيدة المحفوظة على وجه الأرض، نجد أن الفرس والماديين أبناء عم، إذ الفرس من أبناء سام بن نوح والماديون من أبناء يافث بن نوح. أما الفرس من أبناء لاوذ بن سام فقد وقعوا في ضيق شديد، فلجأوا إلى جومر (أو جيومرت) بن يافث بن نوح فأدخلهم في نعمته مع أبناء أخيه «مادي» وصار الفرس (أبناء فارس) ينتسبون إلى جومر بن يافث كولّي لنعمتهم، فأورثهم هذا انحطاطاً في المنزلة عند أبناء عمومتهم. لقد جاء في تاريخ الطبري: «فنكح لاوذ بن سام بن نوح شبكة ابنة يافث بن نوح فولدت له فارس وجرجان وأجناس فارس، وولد للاوذ مع الفرس طسم وعمليق، ولا أدري أهو لأمّ الفرس أم لا»[1].

فالفرس إذن ساميون في النسب. «وأما يافث بن نوح فولد له جامر وموعع وموداي (مادي) ويوان (يونا أبو اليونان) وتوبال وماشج وتيرش. ومن ولد جامر ملوك فارس، ومن ولد تيرش الترك والخزر، ومن ولد ماشج الأشبان ومن ولد موع ماجوج وياجوج. ومن ولد يونا الصقالبة وبرجان والأشبان كانوا قديماً في أرض الروم»[2].

ثم: «ويقال إن قوماً من ولد لاوذ بن سام بن نوح وغيره من إخوته نزعوا إلى جامر هذا (جيومرت) فأدخلهم جامر في نعمته وملكه، وأن منهم مادي بن يافث، وهو الذي تنسب إليه السيوف المادية، قال: وهو الذي يقال إن كورش المادي قاتل بلشصّر بن أل مردوخ بن بختنصر من ولده»[3]. وهذا يعني أنهم التحقوا بجومر بن يافث وبمادي بن يافث انتماء وليس بالنسب.

وفي أنساب التوراة التي هي جزء من شجرة الأنساب العربية وركزت على خط نسب الأنبياء نقرأ: «وهؤلاء مواليد بني نوح سام وحام ويافث ومن ولد لهم من البنين بعد الطوفان. بنو يافث جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبال وماشك وتيراس» (تكوين 10: 1-2).

(1) تاريخ الطبري، الجزء الأول، ص140.

(2) المرجع نفسه، ص142.

(3) المرجع نفسه، ص141.

إن ما أورده الطبري حول انضواء بعض ولد فارس الساميين تحت عباءة أبناء عمهم اليافثيين أورثهم ذلك الاستعلاء من أبناء العم الذي لازمهم حتى عهد كورش. وهذا ما أكده هيرودوت في تاريخه. يروي لنا هيرودوت كيف أن كريسوس ملك سرديس استشار نبوءة أبولو إن كان سينتصر إن شن حرباً على الفرس فأجابه الوحي بأن ما معناه «البغل هو المنتصر». «وقد التبس عليه معنى نبوءة أبولون لجهة البغل، فإن قورش هو ذاك البغل المرموز به، لأن أبويه كانا مختلفين في أصلهما، فأبوه آتٍ من أصلٍ أدنى من أصل أمه، لأنها ابنة أستياجس ملك المادين وأبوه من الفرس أتباع المادين، وعلى كل حال هو أحقر منها وإن تزوج بها»[1].

وهكذا يتأكد لنا عند هيرودوت ما أورده الطبري من أن إدخال جومر بن يافث لأبناء عمه الفرس في نعمته مع أخيه مادي رتبّ فضلاً ومنّة، ومن ثم استعلاء من جانب وتبعية من الجانب الآخر لحقت ذرية الفرعين إلى زمن كورش.

يروي لنا هيرودوت بالتفصيل قصة ميلاد قورش، بدءاً من الرؤيا التي رآها جده لأمه ملك المادين، وأمره بإلقاء الطفل لوحوش البرية لأنه سيأخذ العرش منه حسب تعبير الرؤيا. إنها القصة التقليدية في التراث العربي بدءاً من سرجون الأكادي، ومروراً بموسى، وأوديب حفيد قدموس، وصولاً إلى قورش... ودائماً يتيسر للطفل من ينقذه وتتم إرادة الأقدار. فما أن كبر قورش وعرف حقيقة الأمر حتى جمع إليه وجوه الفرس وخاطبهم قائلاً: «أيها الفرس،... هلّموا إلي بطواعية مظهرين لي الاستكانة والخضوع، لأني على ما يبين قد ولدت خاصة بعناية الإله كي أمتعكم بهذه المواهب والمنح، وإني لست أحسبكم أحط قدراً من المادين سواء في مباشرة الحروب أو بغيرها، فانبذوا عنكم بلا بطء ثقل النير الذي أبهظكم بحمله أستياجس (ملك المادين). وكان الفرس منذ زمن طويل قد تضجروا من عبودية المادين ورأوا من يترأس عليهم، فانتهزوا الفرصة للاستبداد بالأمر... وهكذا خسر أستياجوس التاج بعد أن تكلل به خمساً وثلاثين سنة، وقد دخل المادين في رق وعبودية الفرس»[2].

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول: 91، ص56.

(2) المرجع نفسه: 126، 127، 130، ص71 – 73.

وهكذا نرى كيف أن المؤرخين في الغرب أخذوا من هيرودوت ومن مدونات التوراة ما يتلاءم مع مخططاتهم في كتابة التاريخ، وطرحوا جانباً كل ما من شأنه أن يدحض البدعة «الآرية» أو «الهندو أوروبية» لأن في إسقاطها خروجاً للإنسان الأوروبي من التاريخ القديم كله.

وليس هذا فحسب، بل إن هيرودوت يضيف تفصيلات أخرى في مواضع كثيرة من تاريخه يؤكد فيها على لسان ملك الفرس نفسه أن نسبه يلتقي مع الأرقوسيين، أي مع أبناء أرقو بن فالج أحد فروع سام بن نوح، وأنه ينتسب إلى دنحو أي الصباح (داناؤو) أخو أقيفتانو*: «أيها الأرقوسيون هذا ما يقوله لكم الملك زارا. نحن نظن أن فارساس أحد أسلافنا كان أبوه فرساوس بن داناؤو، وأمه أندروميدا بنت قيفاوس، فيكون أصلنا واحد، فليس إذن من الطبع أن نحارب أياً منّا، ولا بإعطائكم نجدة للأغارقة»[1]. وفي مكان آخر يربط هيرودوت نسب الدوريين بـ «فرسيوس بن داناؤو» فيقول: «فهؤلاء يعدّدون بضبط تام أسلاف هؤلاء الملوك الدوريين إلى أن ينتهوا إلى فرسيوس بن داناؤو ويبرهنون أنهم إغريقيون (أي هاربون فارون)»[2]. ويضيف: «وأما بحسب تقليدات الفرس فكان فرسيوس نفسه آشورياً وصار إغريقياً وإن لم يكن أبواه كذلك»[3]. أي أنه هرب مع الهاربين.

إن كل هذا الذي يسرده هيرودوت الذي اعتبر في الغرب «أباً للتاريخ» يسقطه المؤرخون في الغرب من الحسبان لأنه يتناقض مع النزعة إلى تزوير التاريخ.

لنمعن النظر فيما يقوله بريستد، وكأنما تحول إلى جندي يتقدم صفوف جيش أوروبي على أنغام طبول الحرب:

«وكان نبوخذ نصر وأعوانه من الكلدانيين ينظرون إلى مملكة مادي المخيفة نظر الحذر والوجل لأنهم كانوا لا يزالون قابضين على زمام الزعامة في هذه البقعة من الأرض التي جاؤوا إليها قبلاً من مراعي الجنوب، والدم السامي يجري في عروقهم. والآن جاءهم قوم من مراعي الشمال من الجنس الهندي الأوروبي ينازعونهم تلك الزعامة ويحاولون نزعها

* تكتب أيضاً أغبطانا، ويخطئون في ترجمتها إلى مصر، وهي تقع في شمال سوريا عند مضيق الهلسبونت (الدردنيل) وقد ذكرها هيرودوت كثيراً ودعاها أغبطانا التي في سوريا تمييزاً لها عن أغبطانا التي في فارس. (انظر هيرودوت، ص64, 60, 33).

(1) المرجع نفسه، الكتاب السابع: 150, ص488.

(2) المرجع نفسه، الكتاب السادس: 53, ص402.

(3) المرجع نفسه، الكتاب السادس: 54, ص402.

منهم. ويجب ألا ننسى ونحن نراقب انهزام الكلدانيين أمام الماديين أن انقلاب الزعامة وانتقالها من يد إلى يد هو انقلاب جنسي عظيم»[1].

هكذا، وبجرّة قلم، يتحول نبوخذ نصر والبابليون وكل حضارتهم المتفوقة إلى رعاة ساميين من الجنوب، وأن ظهور الماديين على الساحة عبارة عن ظهور الجنس «الهندو أوروبي» وهو «انقلاب جنسي عظيم»، علماً أن الفرس هم الذين ظهروا على الساحة وليس أبناء عمومتهم الماديون. وهذا ما يؤكده بريستد نفسه: «كان سكان فارس يعترفون بأنهم أتباع لذوي قرباهم الماديين الذين كانوا متسلطين على البلاد الواقعة إلى الشمال والشمال الغربي منهم. ولكن قامت إحدى قبائلهم المسماة أنشان التي كانت محتلة جبال عيلام، وألفت مملكة صغيرة تولى زمام السلطة فيها، بعد سقوط نينوى بخمسين سنة، رجل فارسي اسمه كورش والاه الحظ، فضم تحت لوائه أشتات القبائل التي كانت تجمعها وإياه لحمة النسب وجعل منها أمة كباقي الأمم»[2].

أما تلك القبائل فهي كما يعدّدها هيرودوت: «وكان أكثرهم نفوذاً بين عشائر الفرس الباسر غادة والمارافية والمسبانة. فطائفة الباسر غادة أعظم وجاهة من سواها ومنها خرجت الدولة الكيانية وهي الطبقة الثانية من ملوك الفرس. وأما البنطيالية والدروسية فهؤلاء جميعهم حراثون، وأما الباقون مثل الدائية والماردية والدروبيكية والساجرتية فهم من البدو الرحّل الذين لا يعرفون غير رعاية المواشي»[3].

الفرس يدخلون بابل:

لنستعرض «المارش العسكري» الذي يخترعه بريستد وهو يصف دخول الفرس بابل، ثم عرض هيرودوت للأمر، ولنقارن.

يقول بريستد:

«وكان كورش ورجال جيشه الفلاحون على جانب عظيم من البسالة والبطش حتى قام في عقول العموم أن لا قوة تستطيع مناوأتهم. وقد كانوا أشهر أهل زمانهم بالرماية... فكانت

(1) بريستد، المرجع السابق، ص 192.
(2) المرجع نفسه، ص197 - 198.
(3) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول: 125، ص 71.

سهامهم تنهال على الأعداء من مدى بعيد وتفتك بهم الفتك الذريع قبل أن يلتحموا بهم ويقاتلوهم بالأيدي عن كثب حين كان فرسانهم يجولون جولاتهم المشهورة على ميمنة الأعداء وميسرتهم ويُردون البقية الباقية... هكذا... وبعد سقوط نينوى بثلاث وسبعين سنة ابتدأ النزاع بين من كانوا قبلاً أهل المراعي الشمالية وبين أهل المراعي الجنوبية، فكانت عاقبته انكسار الشرق أمام القوات الهندية الأوروبية انكساراً لم تقم له بعد قائمة»[1].

هكذا، وبكل بساطة، تحول البابليون أساتذة الحضارة إلى «أهالي المراعي الجنوبية» وتحول الفرس إلى «من كانوا رعاة» وإلى «أوروبيين» ولا علاقة لهم بالشرق! وتحول دخول بابل إلى فرحة انتصار وشماتة بالشرق المهزوم من الغرب! على أيدي أمثال بريستد تخرّج أساتذة التاريخ في الجامعات العربية لينقلوا للأجيال العربية هذا التاريخ السخيف المشبع بالحقد والتعصب! وماذا يقول هيرودوت عن كيفية دخول الفرس بابل للمرة الأولى؟

يقول هيرودوت:

«عنّ لكورش برأيه الخصوصي أو بمشورة غيره أن يتخذ واسطة أخرى، وهي أنه أقام جانباً من جيشه على مدخل النهر إلى بابل وقسماً آخر على مخرجه منها، وأمرهم بأنهم متى رأوا النهر قد جف (وكان قد قطعه إلى 360 ترعة) وأمكن العبور فيه يدخلون البلد منه. ثم ذهب بأضعف عساكره إلى جهة البحيرة، وحوّل النهر كما فعلت ملكة بابل بالأقنية الموصلة إلى البحيرة حتى قلّ الماء في مجرى النهر وسهل فيه المرور. فدخل به الفرس الذين كانوا ينتظرون عند مدخله ولم يغمرهم الماء إلى ركبهم. فلو درى البابليون بمقاصد كورش لأهلكوا العساكر عند دخولها عن آخرهم ولم يدعوهم يدخلون، ولم يكن يلزمهم لذلك إلا أن يقفلوا جميع الأبواب الصغيرة التي يوصل بها من البلد إلى النهر ويصعدوا فوق أسوار الشواطئ فيصطادونهم جميعهم كالسمك بالشبكة. ولكن الفرس دخلوا في وقت لم يكن لأعدائهم بحساب هذا إذا وثقنا بقول البابليين. فإن أطراف المدينة كانت قد أمسك بها الأعداء، والذين كانوا في أواسطها لم يشعروا بشيء لكونها كبيرة جداً بعيدة الأطراف، وخصوصاً أن الأهالي يومئذ كانوا متلاهين بالرقص والطرب بمناسبة عيد عندهم، واستمروا على هذه الحالة حتى حلّت بهم البلية. وهكذا كان أخذ بابل أول مرة»[2].

---

(1) بريستد، المرجع السابق، ص198 - 199.

(2) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول: 191، ص97 - 98.

بإمكاننا الآن أن نرصد التجاعيد التي أحدثها دخول كورش إلى بابل على السطح، والتعرف على كل القوى والتحركات ضمن النقاط الموجزة التالية:

1ـ فيما يتعلق بالداخل السوري بإمكاننا أن نتصور ماذا يعني انفراط عقد الدولة المركزية، وغياب القيادة المركزية، وسقوط العاصمة بيد الغزاة أو الانقلابيين سواء أكانوا من الأجانب أم ممّن ينتمون إلى الأرومة نفسها. فالمدن السورية المزدهرة كان يمكن أن تقاوم كل منها منفردة إلى حين، أي إلى أن يتولى الجيش المركزي المهمة، أما والحال المستجدة هذه فقد صارت جميعاً ترقب وصول الفرس وتتردد في القرار الواجب اتخاذه إزاء الوضع الجديد، خاصة وأن الفرس كانوا في نظر الجميع من البدو الساميين، ومن رعاة المواشي والإبل في معظمهم، وسيكون همهم القتل والنهب. وإن سقوط بابل المفاجئ في أيديهم ـ كما روى هيرودوت ـ سوف يصيب بقية المدن الكبرى فريسة للذهول والدهشة إلى حين. وفي الشمال الغربي السوري لم تكن المدن قد ركنت إلى الهدوء والاستقرار تماماً بعد اجتياح قبائل الشمال الهمجية السقودية (القفقازية). صحيح إن تلك القبائل انسحبت بعد أن فتك بها مرض جنسي غريب قيل إن الربة عشتار سلطته عليهم بعد أن نهبوا معبدها حسبما روى هيرودوت. لكن آثار الفوضى لم تكن قد زالت تماماً. وكان كثير من الهاربين الذين صمموا على المقاومة قد تجمعوا في «سرديس»*، حتى صارت سرديس وميليثا أهم مدينتين في الشمال يمكن أن يركن إليهما لمقاومة محاولات الفرس للتقدم صوب المضائق والسيطرة على مفاتيح التجارة مع الجزر والبحر الأسود.

أما سكان الجزر من السوريين فلم يكونوا قلقين كغيرهم، لعلمهم بأنه ليس لدى الفرس أسطول، كما أن الفينيقيين لم يكونوا قد جاهروا بعد بالوقوف إلى جانب الجيش الفارسي.

---

* سرديس هي «سردي» وتعني بالسريانية الشاردين، الهاربين من العسكر، الخائفين، البقية.

2 - أما الفينيقيون الذين ـ كما سبق وأسلفنا ـ كانوا قد أنشأوا مدينتهم الجديدة (قرطاجة) على الساحل الليبي في أقرب نقطة اتصال بين شاطئي المتوسط جنوبه وشماله، وطمعوا في الاستئثار بتجارة شواطئ المتوسط والجزر، فلم يكن يقف حائلاً دون ذلك غير السوريين الذين يملأون حوض المتوسط بتجارتهم ومستوطناتهم ومن خلفهم تقف دولتهم المركزية القوية عبر عدّة آلاف من السنين. فرأوا في سقوط بابل في أيدي الفرس، الذين لم يكن لهم أسطول، وليس لهم علم بالتجارة، وكانوا «أمة برية سكانها رعاة وفلاحون تفصلهم عن البحر سواحل رملية... فاضطروا أن يستخدموا بحارة أجانب»[1]، فرصة سانحة للتحالف معهم من أجل تقويض أسس الدولة السورية، وتحقيق الأطماع التجارية الأنانية المنفلتة من أي ضابط مركزي. وهذا ما حدث. فقد أرسل ملك مدينة صيدا وملك صور رسلهم إلى قورش يعرضان عليه التحالف، ووضع السفن الفينيقية تحت تصرفه. وسنرى فيما بعد كيف أن كل المعارك البحرية التي خاضها الجيش الفارسي ضد السوريين كانت بالسفن الفينيقية. يقول بريستد: «وسلك داريوس في معاملة المدن الفينيقية خطة غير خطّة الأشوريين، فعامل سكانها باللين والرفق، فمالوا إليه ومكّنوه من امتلاك أسطول حربي عظيم جميع سفنه فينيقية»[2].

والحقيقة لم يكن السبب كما يرغب بريستد «قسوة الأشوريين ولطف الفرس» وهذا ما سنبينه من خلال تسلسل الأحداث.

وإن البلاد التي تستخدم سفناً فينيقية وبحارة فينيقيين في معاركها الحربية لا يصح أن يقال فيها كما جزم بريستد: «فكانت بلاد فارس أقدم دولة بحرية عظيمة في قارة آسيا»[3]!

3 - أمّا أصحاب السلطة الجدد في بابل فلن تكتمل الصورة السياسية والديموغرافية وكل التجاعيد المَوْجيّة التي اندفعت غرباً من دون الوقوف على أوضاع الفرس التاريخية آنذاك من الناحيتين السكانية والحضارية.

(1) بريستد، المرجع السابق، ص206.
(2) المرجع نفسه، ص208.
(3) المرجع نفسه، ص208.

يقول ديورانت:

«لم تكن بلاد الفرس في تلك الأيام، وهي البلاد التي قدّر لها أن تحكم هذه الأربعين مليوناً من الأنفس مدى مائتي عام، هي بعينها البلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد فارس، والتي يسميها أهلها بلاد إيران، بل كانت هي الإقليم الأصغر المصاقب للخليج (الفارسي) مباشرة من جهة الشرق، والمعروفة لدى الفرس الأقدمين باسم بارش، ذُفُمَّو والفرس المحدثين باسم فارس. وهذا الإقليم يكاد يكون كله صحراوات وجبالاً، أنهاره قليلة، معرّض للبرد القارس والحر اللافح. لذلك فلم يكن فيه من الخيرات ما يكفي سكانه البالغ عددهم مليونين من الأنفس، إلا ما يأتيهم عن طريق التجارة أو الفتح[1]... وكانت الكتابة تبدو للفرس لهواً خليقاً بالنساء... ولم ينزلوا من عليائهم فينشئوا أدباً. وكان الرجل العادي أمياً راضياً عن أميته[2]... ولم يكن للصناعة شأن في فارس. فقد رضيت أن تترك لأمم الشرق الأدنى ممارسة الحرف والصناعات اليدوية، واكتفت بأن تحمل إليها هذه الأمم منتجاتها مع ما يأتيها من الخراج[3]... ولم يكن للفرس أسطول خاص بهم، بل كانوا يكتفون باستئجار سفن الفينيقيين أو الاستيلاء عليها لاستخدامها في الأغراض الحربية[4]... وكانت الأعمال التجارية تترك في الغالب للبابليين والفينيقيين... ذلك أن الفرس كانوا يحتقرون التجارة ويرون أن الأسواق بؤرة للكذب والخداع. وكانت الطبقات الموسرة تفخر باستطاعتها الحصول على معظم حاجاتها من حقولها وحوانيتها بغير واسطة دون أن تدنس أصابعها بأعمال البيع والشراء. وكانت الأجور والقروض وفوائد الأموال تؤدى في بادئ الأمر سلعاً، وأكثر ما كانت تؤدى به الماشية والحبوب[5]... فكانت حياة فارس حياة سياسية وحربية أكثر منها اقتصادية، عماد ثروته القوة لا الصناعة. ومن أجل هذا كانت مزعزعة الكيان أشبه ما تكون بجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها خضوعاً غير قائم على أساس طبيعي»[6].

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص409.
(2) المرجع نفسه، ص412.
(3) المرجع نفسه، ص413.
(4) المرجع نفسه، ص414.
(5) المرجع نفسه، ص415.
(6) المرجع نفسه.

إن هذا كله يضعنا مباشرةً أمام حقيقة القبائل الفارسية عند احتلالها بابل، وهي لم تتعدّ مرحلة البدو الرعاة.

ولو لم يتوفر لتلك القبائل إغراء التجار الفينيقيين وتقديم السفن والمال من أجل التقدم عبر الشمال السوري إلى المضائق وضمان السيطرة على خطوط التجارة البحرية هناك، فارسياً اسماً وفينيقياً فعلاً، لما حدث ما حدث فيما بعد، ولكان احتلال بابل بمثابة غزوة بدوية طارئة، وتجعيدة بسيطة على السطح دونما أثر يذكر. لقد كان استئجار الفينيقيين للقبائل الإغريقية البدوية الفارّة إلى بلاد المورة وتزويدها بالسفن لتدمير طروادة سابقة فينيقية في هذا الاتجاه. لكن الأمر هذه المرة كان مختلفاً من حيث النتائج.

الزحف الفارسي على شمال سوريا والنزوح السوري (الإغريقي):

كانت مدن الشمال السوري في الرقعة الممتدة من إنطاكية إلى البحر الأسود ما تزال في حالة تفكك وفوضى. وقد حاول قريسوس السيطرة على معظم مدن الشمال وتوحيدها بالقوة حول سرديس من أجل التصدي لزحف الفرس، لكن أصداء الأعمال الوحشية التي مارسها الجيش الفارسي الزاحف سبقت وصوله إلى تلك المناطق، ودفعت بالكثير من سكانها، وبالأخص الفئات الموسرة والمثقفة، إلى النزوح إلى جبال بلاد المورة وملاجئها هرباً مما قد يتعرضون له في مدنهم، وفي ظنهم أن ذلك النزوح لا بدّ مؤقت، وأن ذلك الغزو طارئ ولن يقوى على البقاء.

ومن أجل إجلاء سبب ذلك النزوح الذي ولّد فيما بعد ذلك الظهور المفاجئ لحضارة شابة ناضجة في بلاد المورة، والتي دعاها المؤرخون في الغرب بـ «معجزة اليونان الحضارية» لا بد لنا من تسليط الضوء على بعض ممارسات الجيش الفارسي الزاحف إلى المضائق كما نقلتها لنا الوثائق وكتب التاريخ.

يقول ديورانت:

«كان النظام الإمبراطوري يمسك هذا الكيان المصطنع... وعلى رأسه الملك أوخشترا أي المحارب، وهو لقب يدل على المنشأ العسكري للملكية وصبغتها العسكرية... وكان له من الوجهة النظرية سلطة مطلقة. فكانت كلمة تصدر من فمه تكفي لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب... وكان في بعض الأحيان يمنح أمه أو كبيرة زوجاته حق القتل القائم على النزعات والأهواء. وقلما كان أحد من الأهلين، ومن بينهم كبار الأعيان، يجرؤ على انتقاد الملك أو لومه، كما كان الرأي العام ضعيفاً عاجزاً عجزاً مصدره الخوف والحذر. فكان كل ما يفعله الذي يرى الملك يقتل ابنه البريء أمام عينيه رمياً بالسهام أن يُثني على مهارة الملك العظيمة في الرماية. وكان المذنبون الذي تلهب السياط أجسادهم بأمر الملك يشكرون له تفضله بأنه لم يغفل عن ذكرهم... وكان الملوك يعهدون بأكثر شؤون الحكم إلى خصيان قصورهم أو الأشراف الخاضعين لسلطانهم، أما هم فكانوا يقضون أوقاتهم في الحب أو لعب النرد أو الصيد. وكان القصر يموج بالخصيان يسرحون فيه ويمرحون، يحرسون النساء ويعلمون الأمراء، وقد استخدموا ما تخوّلهم هذه الأعمال من ميزة وسلطان في حبك الدسائس وتدبير المؤامرات في عهد كل ملك من الملوك. وكان من حق الملك أن يختار خلفه من بين أبنائه، ولكن وراثة العرش كانت تقرر في العادة بالاغتيال والثورة... وكان للأشراف في إقطاعاتهم سلطان لا يكاد يحدّه شيء... وكان الجيش العماد الحقيقي لسلطان الملك والحكومة الإمبراطورية، ذلك أن الإمبراطوريات إنما تدوم ما دامت محتفظة بقدرتها على التقتيل. وكان يفرض على كل رجل صحيح الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من العمر أن ينضم إلى القوات العسكرية... وكان الجنود يسيرون إلى الحرب وسط دوي الموسيقى العسكرية وهتاف الجماهير التي تجاوزت سن التجنيد»[1].

وإليكم هذه القصة التي يرويها هيرودوت كمثال على الوحشية التي عومل بها السوريون من قِبل ملك الفرس وأدت إلى نزوحهم الإغريقي (أي الفراري).

(1) المرجع نفسه، ص415 – 417.

يقول هيرودوت:

«بينما كان الملك يتمّ سيره مع جيشه (من سرديس إلى أبيدوس) كان فيتيو (أي المخصب بالسريانية) الليدي قد ارتاع من الأعجوبة التي ظهرت في السماء (يقصد ظاهرة الكسوف)، فأتى ومثل لدى الملك، وقد تشجع بما قدَّم له من الهدايا... فكلمه قائلاً: يا مولاي، إني ألتمس منك نعمة، فهل لك أن تمنحني إياها؟ هي يسيرة عليك وجليلة لي. فتوقع زارش طلبة مخالفة للّتي سأله إياها. فوعده أن يمنحه كل ما يطلب، وأمره أن يقول كل ما يتمنى. فوثق فيتيو كل الثقة، وأجابه قائلاً: أيها الملك العظيم، لي خمسة بنين، والظروف الحاضرة تضطرهم جميعهم إلى مرافقتك في غزوتك لأغريقيا. لكن، يا مولاي، ارحم شيخوختي، واعفِ بكر أولادي من الخدمة في هذه الحرب لكي يقوم باحتياجاتي وبتدبير أملاكي. وأما الأربعة الآخرون فخذهم معك، عسى أن تعود في وقت قريب فائزاً بالظفر كما تتمنى».

«فغضب زارا وقال له: أيها الرديء، إني أزحف بنفسي على أغريقيا، وآخذ معي في هذه الغزوة أولادي وإخوتي وأقاربي وأصحابي، وتتجاسر أن تكلمني في ابنك؟ أنت عبدي الذي كان يجب أن تتبعني أنت وامرأتك وسائر بيتك. فاعلم اليوم أن عقل الإنسان في أذنيه، إذا سمع شيئاً مقبولاً يسرّ به وينتشر في كل جسده، ولكن إذا سمع خلاف ذلك يغتاظ. فإذا كنت أولاً أحسنت السلوك... فلست مع ذلك تقدر أن تفتخر بأنك فقت الملك بكرم النفس. ولما كنت اليوم قد بلغت حد الوقاحة فإنك لا تنال الجزاء الذي يجب لك، وأعاملك بأقلّ عنفاً مما تستحق. فإنّ ما أظهرت لي من الكرم قد خلّص حياتك وحياة أولادك الأربعة. ولكني أعاقبك بإهلاك الذي تخصه بالمحبة فقط».

«وبعد أن أجاب هذا الجواب أمر في الحال الذين هم مكلفون بإجراء مثل هذه الأوامر أن يأتوا ببكر أولاد فيتيو، ويقطعوه نصفين من وسطه، ويضعوا شطراً على يمين الطريق التي يمر منها الجيش وشطراً إلى يسارها، فأجريت أوامر الملك، ومرّ الجيش بين شطري الجسد»[1].

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب السابع: 39، ص453 – 454.

لهذا فقد كنت تجد في الجيش الفارسي ظاهرة فريدة، ربما لم توجد في غيره لا من قبل ولا من بعد. وهي أن هذا الجيش بدلاً من أن يصغر ويتناقص كلما تقدم في الزحف في أراضي الأعداء فإنه كان، على العكس من ذلك، يبدأ كتلة صغيرة مؤلفة من الملك وصحبه وخدمه ومجموعة فرسانه ومقاتليه لينتهي إلى جيش عرمرم من كل صنف من البشر. ففي نواة ذلك الجيش فرقة الحرس الملكي المؤلفة من ألفين من الفرسان وألفين من المشاة فقط، كلهم من الأشراف، ومهمتهم حراسة الملك و«ترهيب كل من تحدثه نفسه بالخروج عن طاعته».

وبالتالي فكلما وصل الجيش إلى قرية أو مزرعة أو مدينة يؤخذ رجالها ممن فوق الخامسة عشرة جميعاً ليلتحقوا بالجيش، كما يؤخذ النساء في كثير من الأحيان للخبز والطبخ وخدمة الموائد، وتحشد دواب الجر والركوب، وتساق الماشية وتجمع الدواجن من الطيور، ثم كل ما يلزم أفراد الجيش ودوابه من مواد الأكل والشرب والعلف، وصارت القرى والمدن خالية من سكانها وأسباب عيشها تصفر فيها الرياح، وصار الجيش نفسه كأنما هو شعب مهاجر «يتألف من فرق مجندة من جميع الأمم الخاضعة لسلطان الفرس. وكانت كل فرقة تتكلم بلغتها وتقاتل بأسلحتها، وتتبع أساليبها الحربية الخاصة. ولم يكن عتادها وأتباعها أقل اختلافاً من أصولها: فهناك القسي والسهام، والسيوف والحراب، والخناجر والرماح، والمقاليع والعصي والمدى، والتروس والخوذ، والجنات المتخذة من الجلود ومن زرد الحديد. وكانوا يركبون الخيول، والفيلة، والإبل، والبغال، والحمير، ويصحبهم المنادون، والكتبة، والخصيان، والسراري، والعاهرات... وهذه الجحافل الجرارة التي بلغت عدّتها في حملة خشيارشاي مليوناً وثمانمائة ألف، لم تتألف منها قط وحدة كاملة. ومن أجل ذلك فإن أول بادرة من بوادر الهزيمة كانت تحيلها إلى جموع من الغوغاء المتدافعة العديمة النظام. وكانت تهزم أعداءها بقوة عددها لا غير وبمقدرتها على استيعاب قتلاها»[1].

«ولم يكن يوجد في هذه الدولة قانون غير إرادة الملك وقوة الجيش. ولم تكن فيها حقوق مقدسة تستطيع الوقوف أمام هاتين القوتين. كما أن التقاليد والسوابق لم تكن تجدي نفعاً إلا إذا كانت مستمدة من أمر ملكي»[2].

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص418.
(2) المرجع نفسه، ص419 – 420.

«وكانت عقوبة الإعدام تحلّ عقاباً على الخيانة، أو هتك العرض، أو اللواط، أو الاستمناء، أو القتل، أو حرق الموتى، أو دفنهم سراً، أو الاعتداء على حرمة القصر الملكي، أو الاتصال بإحدى سراريه، أو الجلوس مصادفة على كرسيه، أو الإساءة إلى أحد أفراد البيت المالك...».

«وكان المذنب في هذه الحالات يُعدم إما بإرغامه على تجرع السم، أو خزقه (على الخازوق)، أو صلبه، أو شنقه (وكان المجرم يشنق عادةً ورأسه إلى أسفل!)، أو رجمه بالحجارة، أو دفن الجسم إلى ما دون الرأس، أو تهشيم رأسه بين حجرين كبيرين، أو خنقه في رماد ساخن، أو بتوقيع ذلك العقاب الذي لا يصدقه عقل، والمعروف باسم «عقاب القاربين». وقد ورث الأتراك الذين أغاروا على البلاد فيما بعد هذه العقوبات الهمجية وأورثوها للعالم من بعدهم»[1].

وقد شرح لنا بلوطارك «عقوبة القاربين» فقال:

«إن الجندي متردانس قال مرة ساخراً وهو يحتسي الخمر أن ليس الفضل في قتل قورش الأصغر في موقعة كوناكسا للملك بل الفضل فضله هو. فأمر أرخشتر الثاني أن يعدم متردانس بطريقة القاربين على النمط الآتي: يؤخذ قاربان، صنعا بحيث ينطبق أحدهما فوق الآخر تمام الانطباق. ثم يوضع المذنب الذي يراد تعذيبه على ظهره في أحدهما، ويغطى بالقارب الثاني بحيث يترك مواضع لينفذ رأسه ويداه ورجلاه خارج القاربين. أما سائر جسمه فيكون بينهما. ثم يقدم له الطعام، فإذا أبى أن يطعمه أرغموه على ذلك بوخز عينيه، وبعد تناوله يسقونه مزيجاً من اللبن والعسل، يصبونه في فمه وعلى وجهه بأكمله. ويظل وجهه في هذه الأثناء موجهاً نحو الشمس على الدوام، فلا يلبث أن تغطيه عن آخره أسراب الذباب. ولما كان وهو في القارب يفعل ما لا بد أن يفعله كل من يأكلون ويشربون فإن الحشرات والديدان تتكاثر في البراز والأقذار، وتتسرب إلى أمعائه، فيتآكل جسمه. فإذا اتضح أن الرجل قد مات بلا ريب، ورفع أعلى القاربين، ظهر جسمه وقد تآكل لحمه، وشوهدت هذه الحشرات الكريهة تنهشه كأنها قد توالدت في أحشائه. وبهذه الطريقة قضى متردانس في آخر الأمر نحبه بعد عذاب دام سبعة عشر يوماً»[2].

(1) المرجع السابق، ص 419 - 420.
(2) المرجع نفسه، ص420.

إن هذا الواقع المرعب هو الذي دفع بالعشرة الآلاف من السوريين المجندين قسراً في جيش كورش إلى الهروب صعوداً نحو الشمال، متحملين أقسى أنواع العناء والشدائد، إلى أن بلغوا شاطئ البحر الأسود عند طرابزون التي كان قد أسسها السوريون. وقد خلّد لنا قصة عذاباتهم قائدهم الملقب بـ «أكسينوفون» في كتاب دعاه «أناباصي» فَفقفًى أي: الصاعدين، الطالعين. والكلمة في القاموس السرياني من الفعل «نبص» ويعني: نبض، نبت، طلع، نبع، برز، ظهر، صعد. «ولم تكدْ مقدمتهم تصل إلى قمة الجبل حتى علت في الجو صيحة شديدة سمعها أكسينوفون ومن في المؤخرة، فخيل إليهم أن أعداء آخرين يهاجمون المقدمة لأن الأعداء كانوا يقتفون آثارهم من خلفهم... فاستحثوا الخطى إلى الأمام لمساعدة رفاقهم، وسرعان ما سمعوا الجنود يصيحون «تْلاسا! تْلاسا!» والصيحة تنتقل من صف إلى صف، وحينئذ هرول جنود المؤخرة جميعهم، وأخذت دواب الحمل تتسابق إلى الأمام. ولما صعدوا جميعاً إلى قمة الجبل أخذ كل منهم يعانق زميله... والدموع تترقرق في أعينهم من فرط السرور»[1]. إن «تلاسا» في القاموس السرياني تعني البحر. وأما اللقب «أكسينوفونو» للقائد فيعني بالسريانية البعيد العائد، لأن أكسينو تعني: الغريب، المغترب، البعيد، المبعد، المنفي... وفونيو تعني: الراجع، العائد.

وقد مضى أكسينوفون بالعشرة آلاف «من بابل إلى البحر الأسود»[2] تحديداً وليس من أي مكان آخر، وهذا دليل قاطع على أنهم سوريون أقحاح، وليسوا من «الأغارقة» «الهندو أوروبيين» كما قرر كيتو، وكرّس في مدح تفوّق جنسهم الأوروبي وعلو همّته العديد من الصفحات[3].

إن مثل هذا التنين الزاحف على مدن سوريا الحضارية في غياب دولتها المركزية كان كفيلاً بأن يجعل الناس تهجر مواطنها وقراها ومزارعها ومدنها، قصورها وأكواخها، وتحمل ما تستطيع حمله من ثروة أو متاع لتقفز في البحر إلى الجزر، ثم إلى بلاد المورة. أليست هذه هي الصورة نفسها التي عبّر بها أفلاطون عن تلك الأوضاع حين قال: «لقد قفزنا كالضفادع إلى كل جوانب البركة»؟.

---

(1) المرجع نفسه، ص381.
(2) إيمار، المرجع السابق، ص.222
(3) كيتو، المرجع السابق، ص8 وما بعدها.

مجريات الصراع من كورش إلى دارا:

يمكننا أن نوجز التطورات زمن كورش كما نقلها لنا هيرودوت ضمن ما يلي:

1ـ تمكن قريسو (=القاسي، العدواني) من أن يدخل في طاعته قسماً كبيراً من الشمال السوري في المنطقة التي دعيت فيما بعد «لحيديا» أي منطقة الاتحاديين، الذين وحدّوا جهودهم لمقارعة الفرس، ثم صار اسمها «ليديا» بعد سقوط الحاء. ومن جملة من دخل في طاعة «قريسو» الفريجيون، والميسيون، وطراقيو آسيا، والبيثينيون، والكاريون، واليونان، والدوريون، والإيوليون... ولم يدخل فيها الكيليكيون والليكيون. «وصارت مملكة ليديا عظيمة الشأن، وصارت مدينة سرديس ذات رونق وفلاح عظيم، حتى أن جميع الحكماء الذين كانوا حينئذ ضمن الهاربين في أغريقيا جاؤوا إليها من تلقاء أنفسهم، وكان في جملتهم صولون الفيلسوف والمشرع»[1].

2ـ كان كورش قد زحف بجيشه إلى كبادوكيا وأخضع أهلها السوريين، «وكان الأغارقة يسمون أهل كباد وكيا سوريين»[2]، فقرر قريسو ألاّ ينتظر الفرس في سرديس، بل زحف بقواته لمنازلتهم في كبادوكيا، وأرسل الرسل إلى الإغريق الأوائل (لقديمونيين) في أرقوس وإسبارطة يطلب منهم عقد تحالف ونجدته في حربه ضد الفرس. ولم يسمع لنصيحة رجل من ليديا اسمه سندانيس اشتهر بالحكمة وذاعت شهرته بين الليديين بسداد الرأي الذي أبداه لقريسو إذ قال له: «أيها الملك، أنت تستعد للحرب مع أقوام كسوتهم الجلود، ويكتفون بما يتحصل لهم من قوت، فضلاً عن أن أراضيهم جدبة وشرابهم الماء دون الخمر، ولا يعرفون ما طعم التين ولا غيره من الثمار اللذيذة. فإن قيّض لك الظفر عليهم فلست بغانم من خاسر لا شيء عنده. وإن دارت عليك الدوائر تكون خسائرك جسيمة. وإذا قيّض لهم ذات يوم أن يذوقوا حلاوة أرضنا فلا يعودون يتخلون عنها»[3].

---

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول: 28، 29، ص 24.
(2) المرجع نفسه: 72 ، ص 46 .
(3) المرجع نفسه، ص 46 .

وبعد قتال غير حاسم عاد بقواته إلى سرديس، وفرق جيشه المتطوع بعد أن أنهكه القتال إلى أن يذهب الشتاء وتأتي نجدة الإغريق. لكن كورش باغت بجيشه سرديس واستخدم الإبل لتنفير خيول فرسانها المشهورين «وأخيراً سقطت سرديس وأسر قريسو بأيدي الفرس دون أن تصل إليه أية نجدات من أغريقيا لأن حرباً كانت قد نشبت بين الأرقوسيين والأسبارطيين كادت تُفني الطرفين».

3- «لما دخل الليديون في تبعة الفرس أرسل اليونان والإيوليون سفراء إلى كورش يرجونه بأن يقبلهم في تبعته بحسب الشروط نفسها التي كانت عقدت بينهم وبين قريسو، أما هو فأجابهم بمَثَلٍ قائلاً: إن زمّاراً نظر في البحر سمكاً، فجعل يزمّر له طمعاً بخروجه إلى البر، وإذ رأى أنه طامع منه بالمحال تناول شبكته ونشرها على قسمٍ كبير من السمك وعالج جرّها إلى البر، فانجرّت، والسمك يتقلب فيها، فقال مهلاً، لا ترقص، فإنك لم ترقص على صوت المزمار. وأورد هذا المثل لليونان والإيوليين لأنه كان قد سبق أن طلب منهم ألاّ يتحزبوا لقريسو فلم يجيبوه حينئذ... عندئذٍ أخذ كل من اليونان يحصّن بلدته، واجتمعوا في «بانيونيوم»* واستقر رأيهم في ذلك الاجتماع على أن يطلبوا إمداداً من أهل إسبارطة»[1].

ومن بين أهم تلك المدن: ميليثيا، وإفسوس، وقولوفون، وليبيدو، وكلازوميني، وفوقية. أما أهل الجزر «فلم يكن عندهم ما يخوفهم لأن الفينيقيين لم يكونوا إذ ذاك قد أظهروا خضوعهم للفرس، ولم يكن للفرس حينئذ أسطول»[2].

4- لم تأتِ أية نجدة من إسبارطة. ثم ما لبث كورش أن فوّض ولاية سرديس إلى عهدة رجل فارسي يدعى طبالوس، وعهد إلى بكتياس الليدي أن ينقل إلى أرض فارس خزائن قريسو وجميع الغنائم المأخوذة من الليديين، ورجع إلى مدينة أغبطانا وبمعيته قريسو، ولم يعبأ بشأن اليونان، فغادرهم وقصد بابل.

* بانيونيوم، كلمتان سريانيتان هما بَني Bani وتعني العيد، المهرجان. ويونيوم أي اليوناني، فيكون: عيد اليونان، مهرجانهم، ومثله «بانيأثينايا» أي عيد الأثينيين، فهمت في الغرب بمعنى «كل» وصاروا يستخدمونها بهذا المعنى مثل «بان أميركان».

(1) المرجع نفسه: ,141 ص.77

(2) المرجع نفسه.

5- أراد كورش أن يقلد الدولة الآشورية في تقليم أظافر القبائل من همج آسيا المحيطة به من الشمال بعد أن حسب أن الأمور استتبت له في سوريا، فقرر غزو قبائل المساجيتة في بواديها شرق بحر الخزر. وهذه القبائل ـ كما وصفها هيرودوت وذكرنا ذلك قبلاً ـ كانت من آكلة لحوم البشر، وكانت تقودهم امرأة تدعى طوميري، «فهلك أكثر عساكر الفرس في ذاك الموقع، وتجندل كورش قتيلاً». وكان قد أوصى بالعهد من بعده إلى ابنه قنبيس (قمبيز). و«قنبْي» في السريانية تعني: الناهب، السالب، المصروع، الذي في عقله مسّ وقد ألحقت به السين كالعادة، وجرى الإبدال الشائع بين النون والميم كما في أنبوبو وأمبوبو بمعنى أنبوب، وهكذا صار اللقب المتداول على شفاه الناس «قمبيس» ثم «قمبيز». وقد لحق به هذا اللقب بعد أن تولى العرش، وأظهر أفعاله التي تدل على أنه كان مصروعاً. «لقد بدأ قمبيز حكمه بأن قتل أخاه سمرديس منافسه في الملك. ثم أغوته ثروة مصر الطائلة فزحف عليها... وأفلح فيما كان يبتغيه، لكنه، على ما يظهر، أضاع رشده في سبيل ذلك. ولم يكلفه الاستيلاء على مصر كبير مشقة، ولكن الجيش الذي أرسله للاستيلاء على واحة آمون هلك في الصحراء»[1]. ومما برهن على كونه مصروعاً أنه لم يعِ تحالف أبيه مع الفينيقيين، فأراد مهاجمة قرطاجة «وأخفق في هذا المسعى، لأن بحارة الأسطول الفارسي الفينيقيين أبوا أن يهاجموا مستعمرة فينيقية وجُن جنون قمبيز، فذهبت عنه حكمة أبيه... فأخذ يسخر من دين المصريين، وطعن بخنجره العجل أبيس موضع إجلالهم وتقديسهم وهو يستهزئ به. ولم يكفه هذا، بل أخرج الجثث المحنطة من مدافنها، ونبش قبور الملوك، ولم يبال في ذلك بما كان عليها من لعنات قديمة، ودنّس الهياكل وأمر بإحراق ما فيها من أصنام... فلما انتابه المرض ـ ويظهر أن مرضه كان نوبات صرع تشنجية ـ لم يبقَ لدى المصريين شك في أن مرضه إنما هو عقاب حل به من آلهتهم... ثم أعدم ركسانا أخته وزوجته، وقتل ابنه بركسبيس بسهم من قوسه، ودفن اثني عشر من أعيان الفرس أحياء، وقضى بإعدام قريسو، ثم ندم على ما فعل، وسُرّحين علم أن حكمه لم ينفذ، ثم عاقب الموظفين الذين تأخروا عن تنفيذه. وعلم

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص405.

وهو عائد إلى بلاده أن مغتصباً قد استولى على عرش فارس، وأن ثورة صماء اندلع لهيبها لتأييده، وفي هذه اللحظة يختفي قمبيز من التاريخ، وفي بعض الروايات أنه انتحر»[1]. «وكان المغتصب قد ادعى أنه سمرديس، وأنه نجا بإحدى المعجزات من حسد أخيه قمبيز واعتزامه قتله. أما الحقيقة فإنه كان أحد رجال الدين المتعصبين للمذهب المجوسي القديم... ثم شبت ثورة أخرى أطاحت به. وكان الذين نظموها سبعة من أشراف الفرس اختاروا بعدئذ واحداً منهم هو دارا بن هشتسبس ورفعوه على العرش»[2].

وقامت الثورات في كل أنحاء الدولة السورية القديمة من سوسا وعيلام إلى المضائق. «لكن دارا أخضعها جميعاً، واستخدم في إخضاعها منتهى القسوة. من ذلك أنه لمّا استولى على مدينة بابل بعد حصار طويل أمر بصلب ثلاثة آلاف من أعيانها ليرهب بذلك بقية الأهلين ويرغمهم على طاعته»[3]. ثم أتبع ذلك بسلسلة من الوقائع الحربية السريعة، وتحرك ضد السقوديين في شمال البلاد قبل أن يتوجه إلى شمال الغرب السوري للقضاء على ثورة السوريين المتّحدين هناك.

4- النزوح السوري الإغريقي (الفراري) الأخير وظهور «المعجزة الحضارية» في بلاد المورة:

إن القسوة والوحشية التي عومل بها سكان المدن السورية إبّان انهيار دولتها المركزية وانعدام توفر قوة كافية للتصدي لزحف ذلك الجيش الغول لم يترك لهم مجالاً غير الفرار غرباً إلى ملاجئ جبال المورة والتي أضحت المكان التقليدي للهرب إبّان المحن. وهذا ما حدث. لقد اندفع سكان مدن الشمال الحضاريون إلى أتيكا، وفيهم المثقفون من كل لون: الكتاب، والمسرحيون، والفلاسفة، والأطباء، والفنانون، والنحاتون، والمصورون، كما لجأ إلى تلك البقعة، وإلى أثينا تحديداً، الموسرون من أصحاب الثروات، والحرفيون، والتجار وغيرهم كثير من الرجال والنساء، والأسر من أشراف وفلاحين وغيرهم.

---

(1) المرجع نفسه.
(2) المرجع نفسه.
(3) المرجع نفسه، ص406.

«عندما شاعت الأخبار عن تأهب الفرس للهجوم على إيونيا (في الشمال السوري) أدرك الناس مدى تقصيرهم في تهيئة وسائل الدفاع (إذ كانوا من ذي قبل يعتمدون على جيش الدولة المركزية) وعرفوا أي خطر عظيم كان يهدد استقلالهم. لكنهم حتى في هذه الظروف الحرجة لم يستطيعوا الاتفاق على القيام بعمل مشترك. وعبثاً حاول الفيلسوف طاليس الميليثي أن يقنع مواطنيه بضرورة تأسيس اتحاد إيوني. فإنه بينما أخذ أهالي بعض هذه المدن يهربون إلى مختلف الجهات كانت المدن الأخرى تعلن كل واحدة منها عن عزمها على الدفاع عن نفسها مستقلة، وفي الوقت ذاته ذهبت عدة وفود إلى أسبارطة تطلب مساعدتها. ولكن الأسبارطيين اقتصروا على إرسال بعض المندوبين لدراسة الموقف دون أن يقوموا في النتيجة بأي عمل»[1].

وقبل أن نتطرق إلى تلك الطفرة الحضارية المفاجئة في أتيكا ومن ضمنها أثينا، لنتوقف قليلاً عند واقعها الممانع لظهور أية حضارة كما وصفه بعض السوريين الهاربين:

الكاتب السوري «هيسوود» حول واقع أغريقيا:

إن اللقب «هيسوود» يعني في القاموس السرياني: العامي، المتعلق بعامة الناس، بالسواد، بالجماهير. ذلك لأنه وضع كتاباً شرح فيه أوضاع الفلاحين والحرفيين الظالم، وقدم فيه النصح والمشورة لهم. وإن لقبه هو من الفعل السرياني «سْوِد» ويعني: حدّث، حكى، أخبر. سوود: جماعة، لغة سواد. أما كتابه فدعاه «حرجاي كاي هيميراي» Hargae Kai Hemerae وقد اعتادوا على ترجمته إلى كل اللغات تحت اسم «الأعمال والأيام»[2]، بينما هو عنوان سرياني ويعني «هل الأعمال رهونات»، ذلك أن «حرجاي» Hargae هي من الفعل السرياني «حرج» ويعني: حك، فرك، دلك، سحل، برد، خرط، صقل، جلى، غسل، نقّى، نظف...

أما «هيميرا» فتعني في القاموس السرياني: رهينة، عربون. وقد خلطوا بينها وبين همارا وفْفْ التي تعني في السريانية: يوم، نهار قائظ، ومنها في الفصحى حمّارة القيظ. أما «كَيْ» فهي في القاموس السرياني: حرف استفهام، هل، يا ترى، وتأتي غالباً بعد أول كلمة.

---

(1) عياد، المرجع السابق، ص.256.

(2) عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ اليوناني، بيروت، ,1972 ص.108



صورة رقم (35): نحت يمثل الشاعر السوري هيسود

أما «هيميرا» فتعني في القاموس السرياني: رهينة، عربون. وقد خلطوا بينها وبين همارا hmara التي تعني في السريانية: يوم، نهار قائظ، ومنها في الفصحى حمّارة القيظ. أما «كَيْ» فهي في القاموس السرياني: حرف استفهام، هل، يا ترى، وتأتي غالباً بعد أول كلمة.

لنقرأ وصفه للبلدة «سقارة» (وتعني في السريانية الحقيرة، المقيتة) في أرض بويوتيا التي تعتبر أكثر خصباً من أتيكا:

«إن هذا المكان الكئيب بالقرب من جبل هيليكون كريه في الشتاء صعب في الصيف ولم يكن حسناً يوماً ما... وإن شهر «أليانون» بأيامه المشؤومة التي تهرئ جلد الماشية حين يغطي الصقيع سطح الأرض، وهو الذي يظهر فيحزن الناس كلما هبت من الشمال الشرقي في طراقيا أنفاس الرياح على البحر الواسع، وأثارت ثائرته، وأخذت الأرض والغابة تهدران بصوت مرتفع. وكم من شجرة من أشجار البلوط ذات الورق الأخضر الكثيف العالي أو من أشجار الصنوبر العاتية في أودية الجبل اقتلعها هبوب الريح وجعلها تهوي إلى الأرض... كما ترتعد الحيوانات البرية وتضع أذيالها بين أرجلها، حتى الحيوانات وهي التي يكسو الشعر جلودها، أجل إن الرياح بأنفاسها الباردة تنفذ حتى في هؤلاء رغم أن الشعر الأشعث يغطي صدورها... إن صولة «بوريا» لا تستطيع أن تنفذ في الخراف بسبب صوفها الغزير، لكنها تحني ظهر الرجل»[1].

(1) كينو، المرجع السابق، ص40 – 41.

وجدير أن ننبه إلى أن اسم الشهر «أليانون» واسم الريح «بوريا» كلمتان سريانيتان. فالأولى من الفعل «إلي» ويعني في القاموس السرياني: ولول، ناح، أناح، أحزن، أبكى. «آليا» و«آليوت»: بكاء، حزن، نواح. «وهو الذي يظهر فيحزن الناس». أما اسم الريح «بوريا» فهو في الأصل السرياني «بعوريا» وقد سقطت العين، والكلمة من الفعل «بعِرْ» ويعني في القاموس السرياني: قلع، استأصل، كشف، عرّى، هاج، توحّش، حفر، نكث، غضب، حنق، استعر، تأجج. بعوريو: هائج، متوحش، مقتلِع، غاضب... وقد ذهبت هذه الكلمة من السريانية إلى بلاد الإغريق، ومنها إلى اللغات السلافية بعد أن سقطت العين، وصارت في الروسية الحديثة بوريا buria تعني العاصفة الشديدة، الثلجية، الشمالية الشرقية تحديداً.

أفلاطون يصف أتيكا:

أما أتيكا حيث أثينا فيصفها لنا أفلاطون سإنها مجرد هيكل لما كانت عليه في الماضي، لأنها تبرز من الجزء الرئيسي من البلاد إلى البحر مسافة كبيرة مثل الصخرة العالية، والبحر من حولها عميق كله. وأثناء هذه التسعة آلاف السنة هبت كثير من العواصف العنيفة، غير أن التربة التي جرفتها من الأقاليم العالية لم تكوّن أي سهل رسوبي يستحق الذكر كما حدث لجهات أخرى، ولكنها تلاشت في كل مكان وضاعت في أعماق البحر. ولو أننا قارنا ما بقي منها الآن... لرأيناها أشبه بعظام الجسد الذي أنهكه السقم فقد زالت التربة الخصبة تاركةً هيكل الأرض فقط»[1].

أثينا في المصادر التاريخية حتّى القرن الخامس:

إن الاسم «أتينا» سوري سرياني، وهو من الجذر «يتي» ويعني: كوّن، أبدع، أخصب. «يتيت»: خصب. «أتو» و«أتون»: المخصب، الخصيب، رب الخصب في عقيدة الخصب السورية الذي هو الشمس، ومؤنثه «أتينا». ويقابلها في الفصحى الفعل «أث» بمعنى: كثر، غزر، خصب و«أثيث»: كثير، وافر، غزير، خصيب...

وقد أوردنا استغراب المؤرخين في الغرب، ومنهم كيتو، كون اسم «أثينا» ليس إغريقياً ولا هندو أوروبياً.

---

(1) المرجع نفسه، ص38.

ولما كانت التربة في الموقع الذي قامت فيه أثينا فقيرة لا تصلح إلا لزراعة أشجار الزيتون التي تعيش في التربة الرقيقة الفقيرة، فقد ذكرت المصادر اليونانية نفسها أن الربة أثينا انتصرت على أخيها بوصيدون وجعلت شعار البقعة شجرة الزيتون بدلاً من جواد البحر الخاص ببوصيدون كرمز للموانئ وللتجارة البحرية،لأن شواطئها الصخرية العالية لا تصلح لإقامة المرافئ.

وأوردنا سابقاً كيف أن هيرودوت يؤكد أن الفالاجيين كانوا أول من سكن البقعة التي قامت فيها أثينا فيما بعد.

وتقول الأساطير اليونانية إن «كيكروفس» أحد أحفاد «يونا» جد اليونان قد أسس بمساعدة الربة أثينا عند هضبة «عكروبولي» (حصن الأمراء) حيث كان يسكن الفالجيون مدينة جديدة أطلق عليها اسم الربة، وقد تولى الحكم فيها ملوك من ذريته كان الرابع منهم «أرحتيو» الذي يرجع إليه الفضل في تشييد المعابد. ثم قام حفيده «تيزيحو» Theseu حوالي 1250 ق.م. بدمج عشائر أتيكا الاثنتي عشرة، وأطلق المؤرخون اليونان على هذا التجمع اسم «صنعوي قصمو» Synoi Kismos[1].

وقد تكونت مثل إسبارطة من تجمع عدة قرى صغيرة. فقد كانت هناك على عهد الفلاجيين خمس أو ست قرى صغيرة عند هضبة «عكروبولي» وعلى المرتفعات المحيطة بها. ولما جاء المهاجرون اليونان (جماعة كيكروف) أدركوا أهمية هذه البقعة التي لا تبعد عن البحر سوى خمسة كيلو مترات كملجأ. فهي قريبة من الشاطئ، وبعيدة إلى حد يمكن معه مشاهدة القرصان قبل وصولهم والاستعداد لمقاومتهم. وكان السكان القدماء قد حصنوا تلة «عكروبولي» بإقامة سور يحيط بالذروة دعاه الأثينيون فيلاجيكون نسبة إلى الفلاجيين. وقد شيدوا هناك معبداً للربة أثينا إلى جانب بعض المزارات المقدسة لآبائهم الأبطال أمثال كيكروف وأرحتيو. وبانتشار عبادة أثينا دعي الأهلون جميعاً بالـ «أثينيين» Athenae، بصيغة الجمع السريانية، وليس أثينا، وذلك حسب التقليد العربي الذي يطلق اسم العشائر على المكان[2].

ولا بد من شرح تلك التسميات السريانية قبل الانتقال إلى بند آخر من الموضوع:

(1) عياد، المرجع السابق، ص212.

(2) المرجع نفسه.

إن «كيكروفس» هو في الأصل السرياني «قيق رحوف» ويعين الطائر الرؤوف بفراخه. إن «قيق» في القاموس السرياني هو طائر مائي أبيض في صدره حمرة يحب فراخه حباً شديداً. فإذا مات أحدها يشق صدره ويرش عليه من دمه فيعيده حياً، ولذا فقد شبّه به السيد المسيح. أما «روف» فأصلها «رحوف» في السريانية ويعني: رؤوف، رحيم، شفوق، مرفرف، حاضن، وهي من الفعل «رحف»: رأف، رحم، أشفق، سكن، حل، نزل، رفرف، حضن، أرخم الطائر بيضه. وقد سقطت الحاء من الكلمة أو تحولت إلى همزة.

وأما «أرحتيو» الذي شيد المعابد وأنشأ طريقة العبادة فيعني صاحب الطريقة. إذ أن «أورحتو» تعني: طريقة، ديانة، مذهب، عادة، سنّة. وإن «تيزوحو» تعني صاحب الأبهة أو القداسة. إذ «زوحو» تعني: جلال، أبهة، قداسة، والتاء للتعريف.

أما «صنعوي قصمو» التي صارت «سينوي كسمو» فتعني: صنّاع العرافة، والوحي الإلهي. إذ أن «صنعوي» جمع صونعو وتعني: صانع، حكيم، لبق، مدبّر. و«قصمو» تعني في القاموس السرياني: هاتف الغيب، عرافة، وحي إلهي. وكان يرأس تلك الجماعة شخص يدعونه «أركون». والكلمة سريانية، فهي في القاموس السرياني «أركو» و«أركون» وتعني: قائد، زعيم، رئيس. و«أورك»: فضل، شرف، سمو. والفعل «أرك»: طال النسب، سبغ الشرف، مدّ. وقد دعيت مدينة الملك جلجامش في سومر بجنوب العراق بهذا الاسم «أوروك» لشرفها وسموّها.

يقول ديورانت:

«وظل (الحاكمون الشريفو المحتد) يحكمون أتيكا زمناً يكاد يبلغ خمسة قرون. وكان الناس مقسمين إلى خمس طبقات: طبقة الفرسان Hippes الذين يملكون الخيل، والذين يكوّنون فرقة الفرسان في الجيش. وذوي الثيران زوجوتاي Zeugotai الذين يملك كل منهم ثورين، والذين يستطيعون أن يسلّحوا أنفسهم ليكونوا من فرقة المشاة الثقيلة، وطبقة المأجورين تحيتي Thetes الذين كانوا يؤلفون المشاة الخفيفة. وكانت الطائفتان الأوليان هما اللتان تحسبان في عداد المواطنين، والفرسان وحدهم هم الذين يمكن اختيارهم أركونين أو قضاة أو كهنة. وكان الأركونون بعد أن يتموا مدة توليهم منصبهم يصبحون، إذا لم يرتكبوا فضائح تلوث سمعتهم، بحكم منصبهم القديم أعضاء في البولي boule أو المجلس الذي كان يجتمع في الـ أوريوفاقوس Areo fagos »[1].

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص205.

إن تسميات ما دعاه المؤرخون بـ «الطبقات» الأثينية سورية سريانية. فالـ «هيبي» هي بالسريانية «حيفي» وتعني أصحاب النخوة والحمية والغيرة، وهي جمع «حيفو»، ويقابلها بلغة البدو اليوم «النشامى». وهم فرسان القبيلة.

والـ «زوجوتاي» هي من «زوجو» وتعني في القاموس السرياني: زوج من الثيران، نير. أما الـ «تحيتي» فهم الطبقة التحتانية، السفلى، عامة الناس، ويقابلها الـ «حلطو» في إسبارطة أي الخليط، اللفيف، عامة الناس.

أما مجلس الـ «أريوفاقوس» فهو في الأصل السرياني «أرحو فوقحو» ويعني مجلس الشورى. إن «أرحو» تعني: عادة، طريقة، مذهب، و«فوقحو»: شورى، مشورة، وقد سقطت الحاء في الكلمتين.

«وكان بعض هؤلاء الفلاحين (أصحاب زوج الثيران أو النير) يملكون في أيامهم الخوالي أراضي واسعة، ولكن زوجاتهم كن أكثر خصوبة من أرضهم، فتقسمت هذه الأرض، ثم تقسمت بين أبنائهم وأحفادهم على مر الأجيال. وكان امتلاك العشائر أو الأسر الأبوية للأرض يزول زوالاً سريعاً... فنزحوا إلى أثينا أو غيرها من المدن الصغرى ليشتغلوا فيها تجاراً أو صناعاً أو فعلة... وظل غيرهم في أرضهم يكافحون، يقترضون المال بربا فاحش، ويرهنون أرضهم ضماناً لما اقترضوه، لكنهم عجزوا عن الوفاء بديونهم، وألفوا أنفسهم لاصقين بالأرض، يلزمهم بذلك دائنوهم، ويعملون فيها عمل الرقيق للإقطاعيين. وكان الدائن المرهونة إليه الأرض يعد مالك الأرض الحقيقي حتى يسترد ماله من دين، وكان يضع عليها لوحاً من حجر يعلن فيه هذه الملكية. وتضاءلت الملكيات الصغيرة على توالي الأيام، وقلّ عدد الملاّك، واتسعت الأملاك الكبيرة»، يقول أرسطو في هذا: «وأصبحت كل الأراضي ملكاً لعدد قليل من الناس، وتعرض الزراع هم وأبناؤهم وزوجاتهم لأن يباعوا بيع الرقيق إذا عجزوا عن أداء إيجار الأرض أو الوفاء بما عليهم من ديون»[1].

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص206.

إن هذا الواقع الظالم تحديداً هو الذي صوّره هيسوود في كتابه «هل الأعمال رهونات» والتي ترجموها خطأً إلى «الأعمال والأيام». إذ أنه ينصح الفلاح «باقتناء بيت وزوجة وثورين للحراثة، والاكتفاء بإنجاب ولد واحد... ويشير على الفلاح بصنع الأدوات الزراعية الضرورية، وعدم اقتراضها من الغير»[1] حتى لا يقع فريسة للدين.

«ولم يقدر أحد أن يحصل على حق الحماية إلا بالاستناد إلى «الضيافة» عادة البادية القديمة، بشرط أن يثبت الغريب أنه ضيف على أحد سكان البلدة أو المدينة... وكانت المعيشة اليونانية في عصر الأشراف لا تزال خشنة ساذجة... ولم تكن البيوت اليونانية إلا مجموعات بيوت قذرة مبنية باللبن العادي، وشوارع ضيقة يضلّ فيها الساري وبيده مصباح. وقامت على الرابية التي كان مشيداً عليها قصر الملك أو القلعة بناية من اللّبن شبيهة ببيوت المدينة التي تحتها، وكان في مقدم البناية سدّة أو سقيفة من الأعمدة الخشبية وسقف يستدق من أعلاه فيكوّن شكل مثلث. فهذه البناية غير المتقنة كانت أول هيكل يوناني. أما النحت... فكانوا يصنعون تمثال أحد آلهتهم من قطعة خشب ينحت رأسه في أعلاها نحتاً خشناً ساذجاً، ثم يلبس حلّة إخفاء للخشونة»[2].

«ويكفي أن نتذكر الصورة الهزلية المؤلمة التي رسم بها أرسطوفانوس سقراط في مدينة (هي أثينا) استطاع جميع سكانها أن يروا سقراط ويسمعوه حتى تتراءى لنا ضآلتها»[3].

ذاك، باختصار، هو واقع أثينا حتى القرن الخامس قبل الميلاد، قرن النزوح السوري الاضطراري أمام زحف الجيش الفارسي، والظهور المفاجئ لـ«المعجزة الحضارية» في أغريقيا.

أثينا القرن الخامس و«المعجزة الحضارية»:

يصرّ المؤرخون في الغرب على الحديث عن «معجزة حضارية» يونانية ظهرت في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد بشكل مفاجئ دون أن يتعرضوا لأسباب ذلك الظهور المفاجئ، لا جهلاً به، وإنما إمعاناً في التعصب للغرب ضد الشرق، مستخفّين بالعقل البشري، وبالمنطق، وبالعلم، وبكتابة تاريخ الشعوب إلى درجة تبعث على العجب. ولم يكن تغييب

---

(1) عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 110 .

(2) بريستد، المرجع السابق، ص312 - 313.

(3) إيمار، المرجع السابق، ص359.

اسم سوريا والسوريين واللغة السريانية والهروب في أغلب الأحيان إلى لفظة «الشرق» الغائمة الفضفاضة إلا أحد مظاهر الانحطاط الخلقي من أجل تغييب الحقيقة الموضوعية، هذه النزعة التي كثيرا ما تنبتُ في قاع الهمجية، وفي مستنقع الشعور التاريخي بالنقص لدى شعب من الشعوب، حتى إذا ما وجد نفسه مقتدراً معافى وقد مدّ أغصانه شامخة في كل اتجاه لم يعد قادراً على أن يتخلّص من النسغ الذي تمدّه به تلك الجذور الضاربة عميقاً في قاع مستنقع الهمجية وتمدّه بالدماء. كل شيء مبرّر من أجل امتلاك كل شيء. فبعد أن زوروا التاريخ العربي كله، وشرعوا يكتبون تاريخ الغرب بدءاً من «الإغريق» كان لا بد أن تقطّع جذور الإغريق العربية والسورية، اللغوية والحضارية. ولا سبيل إلى ذلك إلا الإيمان بالمعجزات، فليس للعقل الإنساني أية قيمة إذا كان هذا العقل يقف عثرة في سبيل أن يمتلك الغرب الاستعماري كل شيء حتى التاريخ!

يقول كيتو:

«إن الازدهار (المفاجئ) للثقافة الأثينية في القرن الخامس كثيراً ما يسمّى «معجزة». وقد كان يطلق على أمراض معينة كذلك في التعبير الدارج عند الإغريق كلمة «معجزة» أو «آتية من الرب». غير أن أحد أصحاب المؤلفات الطبية من الإغريق عبّر عن حكمة عظيمة بقوله إنه لا يوجد مرض يشذ عن القاعدة. بل كل الأمراض طبيعية، وكلها آتية من الرب»[1].

هكذا! إن الحضارة تأتي «كالمرض» و«من الرب»، وهذا «يعبّر عن حكمة عظيمة»!.

ويقول برتراند راسل: «ليس في تاريخ البشر ما يثير الدهشة ويتعذر تعليله كالظهور المفاجئ للمدينة اليونانية»[2].

فهل حقاً تحوّل المفكر و«الفيلسوف» البريطاني هو الآخر «فجأة» و«بمعجزة» إلى الإيمان بالمعجزات، وأسقط دفعة واحدة كل الأسس العقلية التي بنى عليها عمارته الفكرية! أم أنه، كغيره، آثر أن يكون واحداً من الجياد المؤطرة عيونها من الجانبين لتجرّ من خلفها عربة السياسة البريطانية الاستعمارية على أن يقول الحقيقة!

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص.123

(2) برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، 1954؛
و: حنا فاخوري، وخليل الجسر، تاريخ الفلسفة العربية، مؤسسة بدران، بيروت، ص.26

لنستمع الآن إلى كل هؤلاء الذين يتحدثون عن «المعجزة الإغريقية» التي لا يعرفون لها سراً، وهم يقرّون بأنها حضارة وافدة، وليست نابعة من أرض أغريقيا، بل إنها وافدة مع الوافدين الأجانب، الأغراب عن بلاد المورة، القادمين من «آسيا»، من «الشرق» بكل مظاهرها من فنون، وآداب، ولغة، وفلسفة، وفكر، ودين، و...«ديمقراطية»!.

وكما أن النزوح الإغريقي-الفراري في مراحله الأولى حمل إلى أرض المورة نمط عيش النازحين الأولين، وهم أشتات من الأسر والعشائر العربية والسورية نصف البدوية شبه المستقرة، فحملوا معهم تقاليد القبيلة العربية، وتقليد بناء البيوت والأسرة، والزواج، والمحافظة على النسب، وتقديس الأبطال المؤسسين آباء القبيلة أو العشيرة لأول مرة على الأرض الأوروبية، دون أن ينتجوا شيئاً اسمه حضارة، فإن ما سيظهر الآن من فارق نوعي كبير في مظاهر الحضارة هناك ليس مردّه إلى تطور تلك العشائر أو غيرها المفاجئ، وإنما مردّه إلى الفارق النوعي الكبير في السكان الهاربين الجدد، الذين هم جزء لا يتجزأ من الحضارة السورية الرفيعة آنذاك، والتي كانت الأولى على الأرض، وذلك بفعل زحف الجيش الفارسي وممارساته الرهيبة.

إن هذه الحقيقة كاد يلتقطها كيتو بـ «ذكائه الوقاد» حين كتب: «لقد كان هومر إغريقياً من الإيونيين، فهل من السخف أن نفترض أن إحدى المدن الإيونية التي سبقت غيرها في الجرأة قد سبقت غيرها بمراحل في فن بناء السفن والملاحة وتركتها مندهشة؟ إن الأوديسا تزخر بذكر البحر إذ كان العهد العظيم للاستعمار الإغريقي (!) قد اقترب. ولكن ما زال علينا أن ننتظر مجيئ هيسيود الفلاح العنيد وتقويمه عن أعمال السنة ونصيحته «اذهب إلى البحر إن كنت مضطراً على أن يكون ذلك من منتصف يونيو إلى سبتمبر» وهي تذكرنا بأن هناك أكثر من نوع واحد من الإغريق، وأن التعميم بالنسبة إليهم أمر خطير»[1].

إن الأمر جد واضح لو كان المؤرخون في الغرب يرومون الحقيقة ويؤرخون لها. فمنذ سقوط بابل في أيدي الفرس عام 539 ق.م. بدأ النزوح السوري الفراري (الإغريقي) الجديد، وظهرت معه الحضارة فجأة في «أغريقيا»، وكما استمر الاحتلال الفارسي قرنين من الزمان فقد عاشت تلك الحضارة مع أهلها النازحين قرنين أيضاً. وكما تمت عملية التحرير النهائي في الثلاثينات من القرن الرابع فقد عاد النازحون إلى موطنهم، وأقفرت بلاد المورة فجأة من كل مظاهر الحضارة، كما امتلأت فجأة بها. لقد أقفرت فجأة مرة واحدة، وإلى يومنا هذا.

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص51.

لنستمع الآن إلى بعض أقوال أولئك المؤرخين قبل الدخول مفصلاً عبر كل باب من أبواب تلك الحضارة الوافدة:

التباين في أوضاع المدن في أغريقيا:

1- كنا قد شرحنا كيف أن السوريين إبان انتشارهم التوسعي الطبيعي في حوض المتوسط، داروا حول سواحل شبه جزيرة المورة ولم يلفت انتباههم فيها شيء سوى الخليج الضيق الذي يخترقها من الغرب إلى الشرق مثل كوز أو جرة ضيقة، فدخلوا فيه إلى نهايته، وأنشأوا هناك مدينتي «كيرنا» أي القرنة، و**«قورنتا»** وتعني القرنة كما تعني الجرّة، وأقاموا فيها معملاً للجرار ما لبث أن صارت منتوجاته تنافس خزفيات صيراكوزا في صقلية والتي يعني اسمها أيضاً معمل الجرار.

إن كون «قورنتا» مدينة صناعية بنيت للاستيطان الدائم ولنقل صناعة الخزف السورية إلى مراكز قريبة من السوق الخارجية جعلها متميزة عن باقي مدن الإغريق الذين فروا إلى هناك لاجئين. وبقيت قورنتا مثابرة على نموها وتطورها كواحدة من المدن السورية المزدهرة في بلاد الانتشار حتى لما جاء القرن السابع، أي قبيل النزوح السوري بسبب الغزو الفارسي، كانت قورنثا «بسبب الروابط التي شدتها إلى الشرق متميزة بصناعتها الخزفية، وبمعبدها المكرس لأفروديت»[1]... «وبرهن الخزافون القورنثيون بنوع خاص عن مهارة كبيرة بإبرازهم لصور الحيوانات والناس بهذا الفيض الزخرُفي، وبإظهارهم في أوضاع متنوعة، وبجمعهم في مشاهد مستوحاة من الميثولوجيا، وبحفر شق حول رسومهم التي يضفون عليها بعض النتوء بواسطة بقع وخطوط حمراء أو بيضاء. وهكذا سيطرت الخزفيات القورنثية منذ أواسط القرن السابع حتى أواسط القرن السادس على أسواق حوض البحر المتوسط ولا سيّما الأسواق الإيطالية»[2]. حتى أنها اشتهرت «بقوارير الرائحة الدقيقة الصنع، والأباريق ذات الرسوم المتقنة الأنيقة الشبيهة بزهريات «شيجي» في روما»[3].

(1) إيمار، المرجع السابق، ص310.
(2) المرجع نفسه، ص307.
(3) ديورانت، المرجع السابق، ص399.

«وخيّل لأبناء قورنتا في القرن السابع أنها فازت على كل منافساتها في هذه الحرب الخزفية. فقد كانت مصنوعاتها في كل مكان وفي يد كل إنسان. وكان صنّاع الفخار فيها قد كشفوا طرقاً جديدة للحفر والتلوين، وابتكروا كثيراً من الأشكال الجديدة. لكن سادة حي الخزافين في ظاهر أثينا برزوا إلى الأمام في حوالي 550 ق.م. وألقوا عن كاهلهم عبء النفوذ الشرقي»[1].

إن ديورانت هنا يقرّ بأن حضارة قورنتا حضارة شرقية وتشدّها روابط شرقية، لكنه يصمت عن سبب اندفاع صناعة الخزف في ظاهر أثينا في النصف الثاني من القرن السادس، الذي هو بداية وصول السوريين النازحين الفارين من جيش الفرس!

لقد حافظ القورنتيون على طابعهم السوري سكاناً، وفناً، وصناعةً، وتقاليد، وديناً، ولغةً حتى ما بعد المسيح. ولم تكن رسائل بولس إلى أهالي قورنتا بلغتهم السريانية إلا أحد الشواهد على ذلك.

وإن فن البناء السوري فيها والذي تجلّى خاصة في معبد أفروديت، هو الذي جعل المؤرخين في الغرب يطلقون تسمية «الأعمدة والتيجان القورنتية» حتى على مثيلاتها في سوريا نفسها التي هي الوطن الأم للقورنتيين. وبالطبع لم يكن تعميم هذه التسمية إلا نوعاً من القلب المتعمد للحقائق، وكي يجعلوا من أرض أغريقيا مهداً للحضارة بدلاً من أمها سوريا، علماً أن ديورانت يؤكد أن تلك «الأعمدة ظهرت بتأثير الطرز الأسيوية»[2].

إن تميز قورنتا عن باقي مدن الإغريق الأخرى التي لم تكن حتى القرن السادس، أي حتى النزوح السوري الأخير، سوى نقاط تجمع هزيلة لبعض الأسر والعشائر العربية الهاربة إلى هناك، كان أمراً طبيعياً ومفهوماً. «فاليونان أنفسهم لا يتساوون حذقاً وبراعة... والفلاح الذي يتغذى من محاصيل أرضه لا يهتم للاهوت هليوبوليس أو العلوم البابلية»[3]. لكن السبب هو فيما ذكرناه وليس لأن اليونان منقسمون إلى فلاحين ومهرة، حيث أن مثل هذا التقسيم يشمل كل مجتمعات الأرض. فالانقسام هنا يفرز مدينة واحدة متطورة حتى

(1) المرجع نفسه، ص400.
(2) ديورانت، المرجع السابق، ص410.
(3) إيمار، المرجع السابق، ص359.

القرن السادس هي قورنتا عن باقي المدن التي لا تكاد تذكر إلا بأسماء أسرها. «فلم تأتِ الكتابات الرسمية في يوم من الأيام على ذكر «أثينا» أو «لأقديمون» أو «الجمهورية الأثينية»... بل اقتصرت أبداً على «الأثينيين» و«الأقاديمونيين»[1] سكان إسبارطة. «ففي بعض المناطق الجبلية والنائية من اليونان الوسطى والغربية يعيش الرجال مبعثرين في مساكن منعزلة أو في قرى صغيرة، وليس لهم سوى معابد ريفية يجتمعون حولها في ظروف الأعياد التي هي أسواق دورية في الوقت نفسه. ولذلك فإنهم يعتبرون متخلفين، ولا تجنّي عليهم بهذا الاعتبار. فلن يتوصل بعضهم، قبل أواخر العهد الكلاسيكي، إلى لعب دور سياسي أو عسكري، عاجزين، على كل حال، عن ترك أي أثر اقتصادي أو أدبي حينذاك»[2]. ومعلوم أن المقصود بتعبير «العهد الكلاسيكي» هو عهد إقامة النازحين السوريين في أغريقيا، منذ سقوط بابل عام 539 ق.م. إلى عام تحريرها 339 ق.م.

ولو تتبعنا تلك التجمعات السكانية العشائرية الضيقة في «أغريقيا» لوقفنا على الوضع المزري والبائس، وحتى التافه، حتى القرن الخامس قبل الميلاد. «إن موكيني قد انكمشت في العصور التاريخية حتى صارت بقية من (عاصمة) أجاممنون وإن ظلت مستقلة. وقد أرسلت جيشاً ليساعد قضية الإغريق ضد الفرس في حرب فلاطايا، وكان هذا الجيش يتكون من ثمانين رجلاً»[3].

فتأملوا، إذن، هذه «العاصمة» لزعيم أسرة عربية فارّة من قبضة العدالة!

وإن إسبارطة «التي طالما تباهت... بأن أسوارها الوحيدة هي صدور أبنائها اضطرت لأن ترضخ صاغرة بعد هزيمتها في لوقترا لأن يجتاح الطيبيون أريافها الخصيبة حيث يحرث الصعاليك أراضي مواطنيها»[4]. هذه الـ «إسبارطة» التي تهزمها طيبة «كانت متفوقة في البيلوبونيز من سنة 900 –600 ق.م. وكانت أثينا «بولي» من الدرجة الثانية بل حتى من الدرجة الثالثة»[5].

(1) المرجع نفسه، ص323.
(2) إيمار، المرجع السابق، ص324.
(3) كيتو، المرجع السابق، ص83.
(4) إيمار، المرجع السابق، ص318.
(5) كيتو، المرجع السابق، ص124.

وفي بداية القرن الخامس استولى بيزستراتوس على الحكم في أثينا بالطريقة التالية: «أصاب نفسه وبغاله بجراح، وقاد عربته إلى الميدان كما لو كان يحاول الهرب من أعداء خارج الميدان، وطالب بحرس شخصي. ولما كان مواطناً ممتازاً... فقد سمح له الأثينيون بأن يختار لنفسه بعض المواطنين على ألاّ يتسلحوا بالحراب بل بالعصي، فاستولى بواسطتهم على الأكروبول كما استولى على الحكم»[1]. و«لقد كانت بداية أثينا في عهد بيزستراتوس»[2].

2- بالإضافة إلى هذا الواقع البائس الذي لا يكاد يلحظه التاريخ الحقيقي للشعوب والذي عاشته «مدن» الإغريق في المورة حتى القرن السادس، والذي لا يمكن أن ينتج «معجزة حضارية» مدهشة في القرن الخامس، نلتفت إلى جانب آخر من هذا الواقع ربما كان أكثر أهمية في الحسم بموضوع «المعجزة» وهو أن تلك «المدن» أمضت القرن الخامس كله وشطراً من القرن الرابع في حروب بينية قضت على البقية الباقية منها جميعاً.

ففي القرن الخامس، وبعيد وصول النازحين السوريين الجدد إلى أتيكا وظهور صناعة الخزف الراقي في ظاهر أثينا مما قد ينافس تجارة قورنتا، أثارت هذه الأخيرة حمية إسبارطة ضد أثينا، ووجدت طيبة الفينيقية فرصة تستغلها ضد السوريين الجدد، فتعاطفت مع إسبارطة أيضاً، واشتعلت الحرب ما بين أثينا وإسبارطة التي «استمرت على وجه التقريب من سنة 134 إلى سنة ،404 أي سبعاً وعشرين سنة من القتال، الذي، فيما عدا فترات توقف قصيرة، ما لبث أن امتد ليشمل كل جزء من العالم الإغريقي تقريباً... تركت أتيكا كلها فيما عدا المدينة وبيريه مكشوفة للإسبارطيين وعرضة للنهب والتخريب بطريقة منظمة. وفي العام الثاني من الحرب حينما اضطر سكان الريف في أتيكا إلى ترك بيوتهم للأعداء والاحتماء داخل الأسوار، والسكنى حيثما استطاعوا، انتشر الوباء واستشرى عدة أشهر. ويعطينا توكيديديس (الذي أصيب به ولكنه شفي منه) بطريقته التي تبدو هادئة في الظاهر وصفاً عنه تقشعر منه الأبدان.... إلى أن فقدت أثينا آخر سفينة لها بطريقة تدعو للذل بعد الوباء بخمس وعشرين عاماً، واضطرت إلى الاستسلام تحت رحمة إسبارطة»[3]. ثم ضرب الوباء المنطقة مرة أخرى «فقتل ربع السكان بمن فيهم بركليس»[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص131-132.

(2) ديورانت، المرجع السابق، ص.224.

(3) المرجع نفسه، ص177-178.

(4) المرجع نفسه، ص178.

وبعد هذا «يمزقها الخلاف ويستلمها الضيوف اللاجئون (القفياتي)» [1]. ثم نشبت حرب أخرى بين إسبارطة وفلاطايا المتحالفة مع أثينا، كانت النتيجة «نهاية فلاطايا في السنة الثالثة والتسعين من تحالفها مع أثينا... إذ قتل رجالها وبيعت نساؤها سبايا»[2]. ثم «وبعد ذلك بعشر سنين استسلم الأثينيون إلى فلسفة القوة المجردة إلى حد أنهم ارتكبوا جريمة أفظع من جريمة الإسبرطيين بمهاجمة جزيرة ميلوس المحايدة التي لم يقع منها أي اعتداء، وبقتل سكانها أو استعبادهم»[3]. ثم كان «الحمق الجنوني - في نظر توكيديديس - المتمثل بالهجوم الأثيني المشؤوم على صقلية» حيث المدن السورية الزاهرة هناك، وحيث كان عدد سكان صيراكوزا وحدها نصف مليون نسمة[4]، فكانت نتيجة تلك الحملة أنه لم يعد أحد من الأثينيين[5]. أما إسبارطة «فقد عاشت في هذه الفترة في أسوأ حالاتها»[6]. «لقد كانت المدن الرئيسية إذ ذاك هي أثينا وإسبرطة وطيبة. وكانت كل اثنتين منها على استعداد للتجمع لمنع الثالثة من أن تصبح أقوى مما ينبغي... وفي عام 371 ق.م. وقع حادث هز بلاد الإغريق هزاً عنيفاً. فقد هزمت طيبة جيش إسبرطة في قتال مباشر في لوقترا»[7].

«وكانت النتيجة المحتومة حروباً متعددة دائمة. فمنذ مستهل القرن الخامس حتى السنة 338 ق.م. قضت أثينا أكثر من 120 سنة في الحرب من أصل مائة وأربع وستين، أي أكثر من سنتين من كل ثلاث. ولم تعرف خلال هذه المدة فترة سلم تعدّت العشر سنوات»[8].

ذلك هو الواقع السياسي والسكاني والاقتصادي والاجتماعي الذي يصرون في الغرب على جعله أساساً لـ «المعجزة الحضارية»!.

(1) المرجع نفسه، ص179.
(2) المرجع نفسه، ص196.
(3) المرجع نفسه، ص197.
(4) ديورانت، المرجع السابق، ص313.
(5) كيتو، المرجع السابق، ص177- 178.
(6) المرجع نفسه، ص198.
(7) المرجع نفسه، ص200.
(8) إيمار، المرجع السابق، ص314.

وفي هذه الفترة يطل فيليب المكدوني على الساحة. «ولم تكن مكدونيا جزءاً من الإغريق، وكانت بلاداً بدائية غير متحضرة لا تكاد تكون متحدة تحت حكم أسرة. تدعي أنها من أصل هيليني»[1]. فتوحدت جهود أثينا وطيبة ضده، لكنه هزمهما، ووضعهما في قبضته.

وذلك هو الجانب الآخر من واقع مدن «أغريقيا» طيلة القرن الخامس وشطر من الرابع، وهو زمن ظهور «المعجزة الحضارية»!

3- لننتقل الآن إلى الضفة الأخرى، ولنتابع وقع أقدام الحضارة السورية المهاجرة الفارّة في إثر أقدام السوريين الفارّين. كنا قد أثبتنا بما لا يقبل الشك أن سكان ما دعي بـ «آسيا الصغرى» من يونان، وإيوليين، وكبادوكيين، وكيليكيين وغيرهم جميعاً سوريون شعباً، ولغة، وثقافة، وحضارة، وديانة، وعادات، وتقاليد. وأن «آسيا الصغرى» كانت دائماً جزءاً من الدولة السورية المركزية، كما كانت العتبة التي انطلق منها قدامى السوريين عبر الجزر ليعمروا مدنهم وينشروا حضارتهم في شتى سواحل البحر الأبيض المتوسط وفي حوض البحر الأسود.

يصف لنا ول ديورانت بعض أساليب ذلك الانتشار مستخدماً كلمة «اليونان» بدلاً من السوريين، وكأن «عشيرة يونان» كان بإمكانها أن تغطي كل تلك الرقعة، علماً أن صيراكوزا السورية وحدها في صقلية كانت تعد خمسين ضعفاً من مجموع أولئك «اليونان».

يقول ديورانت:

«وكانوا يختارون مواضع هذه المدن على شاطئ البحر أو قريبة منه، حيث يمكن أن تكون السفن ـ وهي الموطن الثاني لنصف اليونان ـ ملجأ يعصمهم من هجمات الأعداء براً. وكان خيراً من هذا الوضع عندهم أن تقام فوق سهل ساحلي تحميها الجبال التي تصد المغيرين من ورائها، أو على تل يكون حصناً منيعاً في داخل المدينة ذاتها، أو أن تكون ذات ميناء في البحر يحميه لسان بارز منه، وخير من هذا وذاك أن يكون هذا الميناء الأمين على طريق تجاري، أو قريباً من مصب نهر تصل إليه السفن حاملة الغلات من داخل البلاد لتصدر أو يستبدل بها غيرها من الغلاّت، فتنتعش ويعمها الرخاء إن عاجلاً أو آجلاً. وكانوا لا يكادون يجدون موقعاً صالحاً إلا احتلوه واستولوا عليه بالحيلة إن

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص200.

أفلحت، فإن لم تفلح سلكوا إليه سبيل القوة... وكان أكثر من هذا حدوثاً أن يتودد المهاجرون الجدد إلى السكان الأولين بما يحملونه إليهم من الهدايا ويخلبوا لبهم بثقافتهم الرفيعة، ومغازلة نسائهم... وأهم من هذا كله أن المستعمرين كانوا يعرضون ما صنعته أيديهم من سلع (يونانية) على السكان الأصليين، ويستبدلون بها الماشية أو المعادن، ويصدرون هذه الغلات إلى بلاد البحر المتوسط، ويفضلون من هذه البلاد أمّهم التي هاجروا منها، والتي لا تنفك قلوبهم تنطوي مدى القرون على حب لها وولاء يبلغ حدّ التقديس. وأخذت هذه المستعمرات واحدة بعد أخرى تتشكل وتتخذ أشكالها... وتنتشر من أفريقيا إلى طراقيا، ومن جبل طارق إلى الطرف الشرقي من البحر الأسود»[1].

وعودة بنا الآن إلى الشمال السوري، منصة النزوح الفراري الأخير. يقول إيمار:

«وقد حدث الانطلاق... من مناطق تكاد تكون خارجة عن العالم اليوناني، أي من آسيا الصغرى والغرب الآسيوي حيث كان الازدهار قد بلغ شأواً بعيداً»[2]. و«إن الحضارة الأثينية في القرنين الخامس والرابع، شأن الحضارة الميلية في القرنين السابع والسادس، لا تنفصل عن التيارات المختلفة التي تغذيها من تلك المناطق التي نشأت فيها أوسع مراكز الحياة المادية نشاطاً وازدهاراً في شرق المتوسط»[3].

«ولقد احتفظت الحضارة الليدية بمظاهر جد شرقية[4]... وأخذ اليونان من ليديا العدد الكثير من الكنوز، إذ غدت هذه البلاد، وهي قريبة من مدنهم الآسيوية، إحدى الطرق، لا بل الطريق الرئيسية التي سمحت لهم بالاحتكاك مع الشرق الذي اقتبسوا عنه الطرق التقنية الصناعية والفنية، والعقائد، والعبادات الدينية، والأمثال الميثولوجية، والمعلومات العلمية. وهكذا غدت اقتباسات اليونان من الشرق، كثيرة العدد وثقيلة الوزن، إذ تعجز المصادفة أن تفسر التقدم الذي أحرزته إيونيا على سائر المقاطعات اليونانية. ولقد خضعت عملياً لسرديس. ولم تلاقِ أي من هذه المقاطعات سهولة مثلما لاقته إيونيا للاستفادة من خبرات الغير»[5].

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص236 – 237.

(2) إيمار، المرجع السابق، ص371.

(3) المرجع نفسه، ص360 – 361.

(4) إيمار، المرجع السابق، ص212.

(5) المرجع نفسه، ص213.

لننتبهْ إلى هذه الصياغات!

الحقيقة إن «ليديا»، كما سبق أن برهنّا، ليست مقاطعة مستقلة عن سوريا، ولا حتى عن اليونان. وهي في الأصل السرياني «لْحيدي» أي المتحدين، وكانوا يعنون بها مجموعة المدن والجزر التي شكلت اتحاداً في الشمال السوري للتصدي لغزو الفرس. فهم سوريون، وهم يونان، وليسوا شعباً جديداً! ولكنّ «ليديا» سمحت لهم بالاحتكاك مع الشرق الذي اقتبسوا عنه كل شيء... فأي شرق هذا؟ إن ما يحدّ المتحدين (ليديا) شرقاً مقاطعة كبادوكيا التي أكد هيرودوت ـ وذكرنا ذلك ـ أن سكانها سوريون! المهم أن يكون «اليونان» جنساً مستقلاً! هذا إذا افترضنا غياب سوريا كلها عن الخارطة وأبقينا على كبادوكيا وحدها.

ثم إنه يقرّ بأن «إيونيا» خضعت لمدينة صغيرة واحدة من الشمال السوري هي «سرديس»، فكيف تغطي إذن هذه الـ «إيونيا» من جبل طارق إلى الطرف الشرقي للبحر الأسود بالمستعمرات؟ في الوقت الذي لا تستطيع فيه أن تغلب مدينة؟

ويقول إيمار في موقع آخر:

«وكانت الحضارات الشرقية السابقة قد جمعت المواد الأولية للحضارة. ولا ريب في أن الإغريق استعاروها منها. فإن إيونيا، حيث ظهرت هذه الأنظمة العقلية، كانت على اتصال بكافة الشرق، وقد أهّلها موقعها الجغرافي لأن تطلّع على جميع تحقيقاته. ففي طريق ليديا التي خدم سيدَها طاليس الميليثي، لا عن طريق رحلته إلى مصر التي ينسبها إليه التقليد، تمكن من معرفة علم الفلك وعلم الحساب اللذين اشتهر بهما كهان بلاد ما بين النهرين»[1].

«ولقد دخلت إيونيا في سبات عميق بعد الفتح الفارسي بعيد منتصف القرن السادس أولاً، وبعد قمع ثورتها ثانياً في أوائل القرن الخامس... وهاجر كثيرون في الوقت نفسه من إيونيا إلى أمكنة أخرى... **وإن أثينا لم يدفعها إلى الأمام دفعاً حاسماً سوى... هجرة الإيونيين إليها في أعقاب استتباب الأمر للسيطرة الفارسية على آسيا الصغرى**»[2].

(1) المرجع نفسه، ص300 - 301.

(2) المرجع نفسه، ص309 - 310

إذن لم يكن سراً عند إيمار ظهور المعجزة الحضارية المفاجئ في أثينا. أما ديورانت فيحاول اللعب على العبارات أكثر إذ يقول:

«ولما أن أقبل الفرس غازين فاتحين (546 - 545) واتحدت تلك المدائن اتحاداً مرتجلاً للدفاع عن نفسها، كان هذا الاتحاد ضعيفاً واهي الأساس، فلم تلبث المدن الإيونية أن دانت لسلطان الملك العظيم... ولما أن سقطت إيونيا خلفت وراءها ثقافتها، فورثتها أثينا»[1].

أما كيف «ورثتها أثينا» فأمر لا يهم المؤرخ العظيم، لأن في إجلاء الحقيقة فضحاً لكل التاريخ «المفبرك» لصالح أثينا وروما! والغريب في الأمر أن ديورانت نفسه نبّه قراءه إلى مثل هذا الزيف الظالم في كتابة التاريخ وذلك في مقدمة مؤلفه الضخم «قصة الحضارة» التي خطها بيده، والتي جاء فيها حرفياً ما يلي:

«إن قصتنا تبدأ بالشرق، لا لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنيّة معروفة لنا فحسب، بل كذلك لأن تلك المدنيّة كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التي ظن «سير هنري مين» خطأً أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث. فسيدهشنا أن نعلم كم مخترعاً من ألزم مخترعاتنا لحياتنا، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي، ومما لدينا من علوم وآداب، ومالنا من فلسفة ودين يرتد إلى مصر والشرق... وفي هذه اللحظة التاريخية نرى أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع، ونقصاً فاضحاً في ذكائنا»[2]. فهل كتب ديورانت هذه المقدمة بعد أن أنجز تلك العشرات من الأجزاء من مؤلفه الضخم فانجلت له الحقيقة التي غيّبها التعصب المتعمد، ثم لم يعد قادراً على إعادة النظر في كل ما كتب؟ نعتقد ذلك ونقدّر له ـ على أية حال ـ هذه اللحظة من صحوة الضمير.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص274 - 275 .

(2) ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الأول، الجزء الأول، المقدمة، صفحة /ط/.

4- والآن لنستعرض بعض ما انتقل مع المهاجرين السوريين من جوانب حضارتهم ومظاهرها إلى «أغريقيا» كما يعدّدها أولئك المؤرخون أنفسهم، والتي يعتبرونها «نقلاً» وليست «انتقالا»، خاصة وأننا تعرّفنا الآن على واقع المدن الإغريقية قبيل هذه الهجرة وأثناءها. فإذا ما أخذنا ذلك الواقع البائس، المشرذم، المفكك، المتناحر، المتخلف، المتلاشي إلى حد حافة الانقراض، كان علينا سلفاً أن نتوقع حدوث «الصدمة الحضارية» مع وصول أفواج السوريين المهاجرين الحضاريين، ومدى معاناة هؤلاء الأخيرين على مدى قرابة قرنين من الزمان، لم يكن الحكم على سقراط بالإعدام سوى واحد من مظاهر تلك المعاناة. إن وصول أفواج المهاجرين التي تضم رجال الفكر، والأدب، والفن، والمال، والتشريع، والزراعة، والصناعة، وأرباب الحرف والمال والتجارة وغيرهم، كان لا بد من أن يحدث تناقضاً منذ البداية بينهم وبين النظام الأسري العشائري شبه البدوي الذي كان ما زال قائماً في أغريقيا ومنها أثينا. وكان طبيعياً أن أولئك الوافدين الجدد الذين أيقنوا، بعد إخفاق ثورتهم في الوطن ضد الاحتلال الفارسي، أن إقامتهم لا بد ستكون طويلة في أرض مهجرهم، وأن عليهم أن يباشروا بإعادة بناء الواقع القائم بدءاً من النظام القبلي السائد فصاعداً، مروراً بالاقتصاد والسياسة وانتهاءً بالفكر والعقيدة والدين، بناء يوفر الحد الأدنى من الحوامل لمظاهر حضارتهم المنتقلة معهم إلى هناك. نقول «المنتقلة» وليست «المنقولة» أو «المقتبسة» لأن **الحضارة سورية، والسكان المهاجرين سوريون، وليسوا شعباً آخر اقتبسها عن السوريين.**

أ ـ البنية الاقتصادية والتناقض بين القديم والجديد:

يقول ديورانت:

«تبدو أثينا أيام مجدها شرقية أكثر منها أوروبية في أخلاق أهلها، كما تبدو كذلك في حروفها الهجائية، وفي مقاييسها، وموازينها، ونقودها، وسكنها، وملابسها، وموسيقاها، وفلكها، وطقوسها الصوفية»[1]. فما الذي بقي منها إذن؟

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 7، ص103.

«أمّا قبل هذا فقد كان أهل المدينة ينظرون بعين الاحتقار إلى العمل اليدوي، ولا يؤدون منه إلا القليل الذي لا بد لهم من أدائه، لأن العمل لكسب العيش كان في اعتقادهم يحط من قدر صاحبه، بل إن الأعمال المهنية، وتعليم الموسيقى، والنحت، والتصوير كان في نظر الكثيرين من الإغريق مهنة دنيئة... وكان ينظر إلى التجارة هذه النظرة نفسها... ولهذا فما من مواطن جدير بالاحترام يرضى أن يعمل فيها»[1]... أليس هذا هو الواقع البدوي القبلي لتلك الأسر الهاربة (الإغريقية) حتى هجرة السوريين الحضاريين في القرن السادس، وهو الواقع الملازم للقبيلة العربية إلى اليوم؟

لهذا، يقول ديورانت: «فقد كان الغرباء الأحرار الذين ولدوا في بلاد أجنبية واتخذوا أثينا موطناً لهم... كان هؤلاء الغرباء هم الذين يؤدون في أثينا معظم الأعمال ذات الصلة التاريخية بالطبقة الوسطى. فكان منهم رجال المهن، والتجار، والمقاولون، والصناع، والمديرون للأعمال التجارية والصناعية، وأصحاب الحوانيت، وأرباب الحرف، والفنانون»[2]. فماذا بعد هذا يبقى لندعوه أوروبياً؟

«وكانت حول ساحة السوق (الأجورا = السوق بالسريانية) تنتشر الأسواق: سوق مواد التغذية بفروعها المختلفة لكل فئة من هذه المواد بما فيها لحم الحمار والسمك المجفف؛ سوق الخيل والعبيد؛ أسواق الخزفيات، والألبسة، والأحذية، حيث يتعاطى الصناعي عمله في حانوته أمام أعين الزبائن كما هي الحال في الأسواق الشرقية... لكن المساكن فيها وضيعة على العموم، ليس فيها سوى جدران من الطين المجفف يسهل على اللصوص أن يفتحوا فيها ثغرة... أما الغرف فضيقة جداً وأرضها ترابية، وأسباب الراحة مفقودة تماماً، ولم تشكل المراحيض معضلة قط لأنه كان قد صرف عنها النظر في كل مكان»[3].

(1) المرجع نفسه، ص62 – 63.
(2) المرجع نفسه، ص63.
(3) إيمار، المرجع السابق، ص356.

ولما كانت أثينا تبعد عن البحر بضعة كيلو مترات (سبعة كيلو مترات فقط)، فهي لم تكن مرفأً بحرياً، وكانت منعزلة، وسخة، أقرب إلى الملجأ للفارّين منها إلى المدينة أو البلدة، فقد كان يستحيل على أولئك المهاجرين الجدد القبول بهذا الواقع. لهذا فقد شرعوا يستطلعون الساحل جنوب أثينا، وعثروا على لسان من البر يمتد عميقاً في البحر ثم ينعطف إلى الغرب مخبئاً جوناً يصلح لأن يكون ثغراً بحرياً للمنطقة. فأطلقوا على ذلك اللسان البري المنعطف اسم **رأس أكتي**، وهو بالسريانية «عقتي» ويعني: الطوق، المنحني، الأعوج، الأحدب. وباشروا على الفور بإنشاء الثغر. والثغر بالسريانية «فرعا» و«فرعتا»، ولما كانت الفاء تلفظ ذ والعين تسقط، فقد صار فيما بعد **«بيريا»** Perea الذي هو ثغر بيريه. ومن «فرعتا» جاءت الكلمة Port بمعنى ميناء، مرفأ، ثغر.

لقد بنيت المدينة في بداية القرن الخامس وفقاً لمخطط هندسي شأن المدن السورية، وأعدت لتكون مرفأً تجارياً وحربياً في الوقت نفسه، وتم تجهيزها على الفور «بملاجئ للمراكب، وبدور للصناعة البحرية. وتجاور الأرصفة، حيث تفرغ المراكب الآتية من كافة المرافئ المتوسطية البضائع على أنواعها، السقائف والمستودعات، ومكاتب الجمرك، والصرافين، والبورصة. وتمتد إلى الوراء المدينة نفسها التي يتألف الشطر الأكبر من سكانها من الأجانب... ويجد البحارة فيها كل أسباب اللهو التي طالما حلموا بها في عزلتهم وفي أسفارهم المحفوفة بالأخطار»[1].

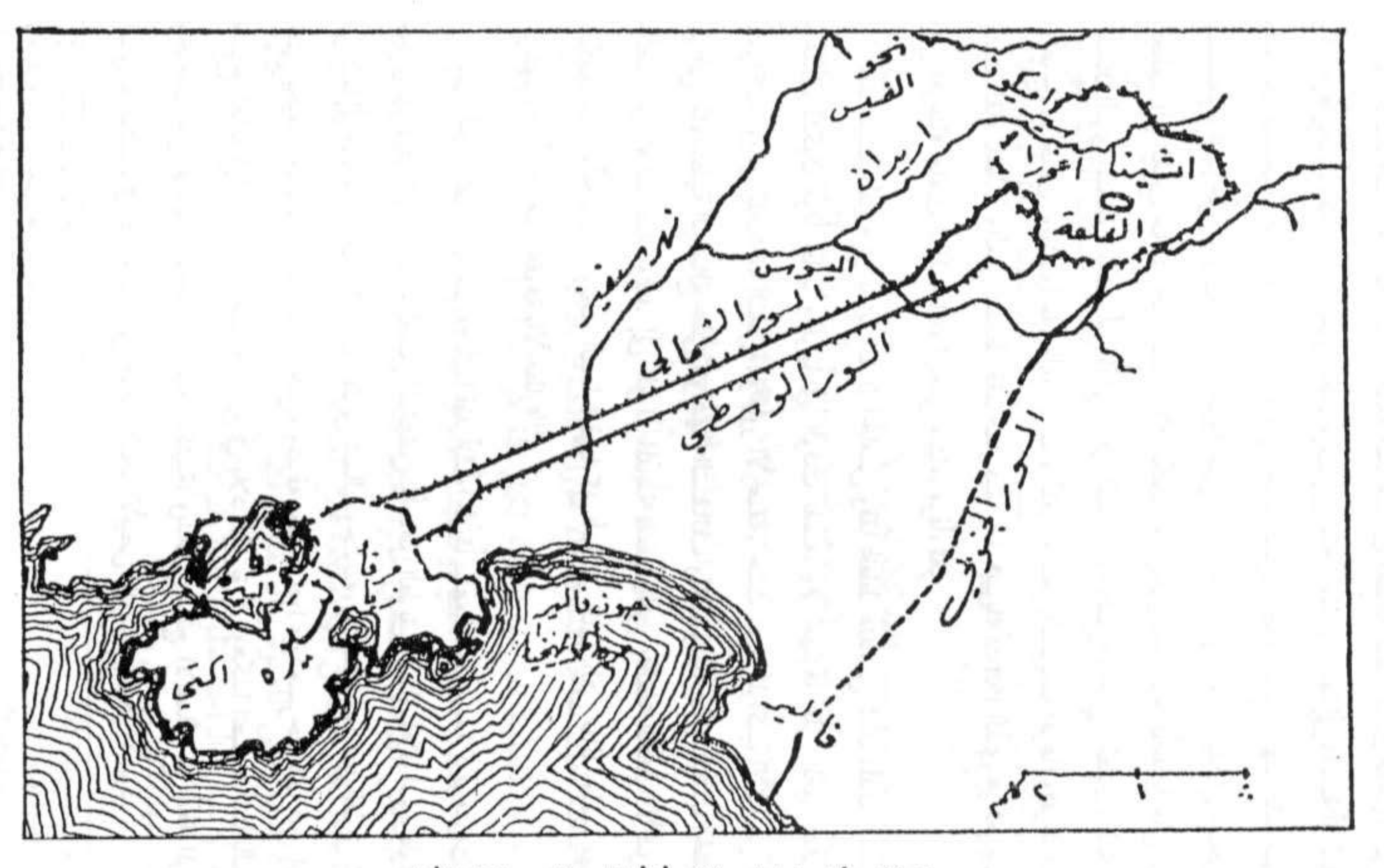
ومن أجل ربط الثغر «بيريه» بأثينا فقد أنشأوا طريقاً بينهما بطول سبعة كيلو مترات عبر مجرى نهر كيفي* (سيفيس) الضيق المنخفض. وأحاطوا الطريق والميناء بثلاثة أسوار طولانية من أثينا إلى «بيريه»، اثنان ملاصقان للطريق شماليه وجنوبيه، والثالث يبتعد عن الطريق شرقاً حتى يحيط بجون فالير الكبير في جنوبه وشرقه. وقد شادوا فيها مسرحاً، كان قبل إنشاء مسرح القلعة في أثينا، وأول مسرح أنشئ في بلاد الإغريق[2]. وهكذا اتصلت أثينا بالبحر، وخرجت من عزلتها الداخلية الريفية الكئيبة، وبدأت وشائج الاتصال مع كافة المرافئ السورية المنتشرة في كل مكان من أصقاع البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود.

---

(1) إيمار، المرجع السابق، ص355.

* «كيفي» بالسريانية تعني الضيق، المنخفض.

(2) المرجع نفسه، ص369.



مصور رقم (9): مزفأ ثغر «فرعا» (بيريه) الذي أنشأه النازحون السوريون «ثغرا» لأثينا.

«ولهذا ازدهرت التجارة من عام 480 إلى 430 كما لم تزدهر في المستقبل... وكانت أرصفة «بيريه» ومخازنها، وأسواقها، ومصارفها تقدم للتجارة كل ما تستطيعه من أسباب التيسير. وسرعان ما أضحى هذا الثغر العامل النشيط أهم مراكز الاستيراد والتصدير وإعادة الشحن المتبادلة بين شرق المتوسط وغربه».

وفي هذا يقول إيزوقراط:

«لقد كان من اليسير أن يبتاع الإنسان في أثينا جميع ما يصعب عليه أن يجده إلا في أماكن متفرقة، سلعة منه في هذه المدينة وسلعة في تلك». ويقول توكيديديس: «إن عظمة مدينتنا تجذب غلات العالم كله إلى مرفإنا، حتى أصبحت ثمار البلاد الأخرى من مواد الترف مألوفة للأثيني في بلده نفسه».

وكان التجار يحملون إلى بيريه الخمور، والزيت، والصوف، والمعادن، والرخام، والخزف، والأسلحة، ومواد الترف، والكتب، والتحف الفنية، والحبوب، والفاكهة، والجبن، واللحوم، والسمك، والنحاس، والقصدير، والحديد، والذهب، والخشب، والأقمشة المطرزة، والصوف، والكتان، والأصباغ، والأرجوان، والأحذية، والأسرّة، والعاج، والعطور، والأدهان... ثم تتولى وكالات شحن وتصريف تسويقها في الداخل والبلدان المجاورة، وكان ذلك يقابل بضريبة شحن وتسويق ومرور حققت فيها بيريه وأثينا ثروة هائلة، لم تعرفها من قبل»[1].

«وفي القرن الخامس بدأ مبدل النقود الجالس أمام منضدته يقبل المال وديعة لديه، ويقرضه للتجار بفوائد يتراوح سعرها بين 12 و30 في المائة حسب ما تتعرض له من الأخطار. وبهذه الطريقة تطور ذلك الصراف إلى مصرفي، وقد أخذ أساليبه عن بلاد الشرق الأدنى. ومنه انتقلت إلى روما، وأسلمتها هذه إلى أوروبا الحديثة. وما كادت الحرب الفارسية تضع أوزارها حتى أودع تمستكلي سبعين وزنة (ما يعادل 420 ألف دولار أمريكي) عند فيلو ستفانو المصرفي... وعن طريق هؤلاء الصيارفة كانت الأموال تتداول بحرية وسرعة... وبفضل هذا التيسير راجت التجارة الأثينية واتسعت أسواقها... وهكذا انتقلت أثينا في قرن واحد من الاقتصاد المنزلي الذي يصنع فيه كل منزل حاجياته، إلى الاقتصاد المدني ثم إلى الاقتصاد الدولي»[2].

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 6، ص59 – 60.

(2) المرجع نفسه، ص58 – 59.

إن قيام المصارف الذي اقتضته الأعمال التجارية الواسعة «كان له من الآثار التي لا تقل في خطورتها واتساعها عن استخدام الحروف الهجائية»[1]، وكانت كلها في أيدي المهاجرين السوريين الجدد الذين صار يطلق عليهم المؤرخون تسمية «الأجانب المقيمين». «إن كل عابر يرتبط بأثينا ويبدو كأنه جزء منها ليس بالضرورة أثينياً بنوع خاص، فالأجانب المقيمون وغير المقيمين يلعبون فيها الدور الكبير... فكانوا أجانب مقيمين بأكثريتهم... أولئك الذين مارسوا المهن الصغيرة، والتجارة التفصيلية (المفرّق)، وأولئك الذين أداروا مشاريع عظيمة بحرية وحتى تجارية». «وأخذت بلاد اليونان عن بابل نظام موازينها ومكاييلها، وساعتها المائية، ومزولتها، ووحدات العملة المتداولة فيها، وهي الأبول، والمينا، والتالنت، والدركما (الدرخما، الدرهم)، وقواعد علم الفلك، وآلاته، وسجلاته، وحسابه، ونظامه الستيني»[2].

وليس في هذا القول كله ما يستوقف القارئ الأريب إلا العبارة التي صارت لازمة لا بد من تكرارها من أجل جعل أولئك «الأجانب المقيمين» أو «اليونان» شعباً خاصاً، وهي عبارة «أخذوا عن بابل»! إنهم سوريون، و«بابليون» إن شئت، أخذوا معهم ثقافتهم التي هي سورية أو بابلية لا فرق، ولا يغيّر من الأمر شيئاً.

ب ـ البنية الاجتماعية والتناقض بين القديم والجديد:

مررنا آنفاً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لتلك الأسر أو العشائر الإغريقية (الفارّة) التي كادت تصل إلى حد التلاشي على عتبة القرن السادس قبل الميلاد، نعرضها بما يلي:

أولاً – النظام هو نظام الأسرة والعشيرة العربية الذي يعتمد على سيادة الأب في الأسرة، المنضوية في فصيلة، أو عشيرة، أو قبيلة، تربطها جميعاً رابطة النسب إلى جد واحد، هو جد العشيرة المؤسس، الذي هو الرابط، والجامع، والشاهد

(1) المرجع نفسه، ص132.

(2) المرجع السابق،

الدائم على وحدة الدم بين أفرادها. لهذا فقد كان يحظى بالإجلال والتمجيد، ليبقى رمز عز العشيرة ووحدتها. وهذا الإجلال لم يكن يجعل منه «إلها» كما فهمه الغربيون. إنه رب العشيرة وسيدها، الذي تقيم عند ضريحه الولائم، وتقدم القرابين في ذكرى وفاته السنوية، أو في ذكرى تأسيسه لهذا التجمع الأسري أو ذاك. ولما لم يكن السكان الأصليون في أوروبا قد عرفوا بعد نظام الأسرة وتقاليد الزواج، فإن هذا التقليد كان شاهداً في أي مكان وجد فيه على وجود العرب أو السوريين. «وكان من الطبيعي أن يتسمى أعضاء الفصيلة الواحدة بنفس الاسم. وهو فعلاً ما حدث... فكانت كل فصيلة تتداول اسم السلف من جيل إلى جيل وتبقي عليه بنفس العناية التي تبقي بها على (عبادته!)... لقد كان لكل إغريقي، على الأقل إذا انتمى إلى أسرة قديمة وذات نشأة منتظمة، ثلاثة أسماء، مثله في هذا مثل البطرك في روما، كان أحد هذه الأسماء خاصاً به، والآخر اسم أبيه... وأخيراً الاسم الثالث وهو اسم الفصيلة بأكملها. وبذلك كانوا يقولون: كيمون بن مليتيادوس الأقيادي Kimon Militiados Alakiadi »[1] إنه التقليد العربي نفسه الذي نزح معهم، كأن نقول: محمد بن نزار الشمّري، أو محمد بن علي الهاشمي. والطريف أن المثال الذي أتى به المؤلف عن قدامى الإغريق يؤكد الصيغة العربية للكنية المعرّفة بأل التعريف والمنتهية بياء النسبة «الأقيادي»! وكنا قد رأينا كيف أن هيرودوت أكد أن النسب عند الإغريق بدأ مع قدوم الفالجيين، وديورانت يقول إنه بدأ مع «قيق رحوف» (كيكروفس)، وأوفيد يقول إن قدموس شقيق أوروبا، بعد أن بنى مدينة «طيبة» وتزوج من النبيلة هرمونيا «أرسى هناك تقاليد الأسرة»... على أية حال، المهم أنهم جميعاً سوريون، وأن السوريين وحدهم كانوا يعرفون آباءهم في تلك الأصقاع ذلك الزمن. وهم وحدهم الذين منحوا العالم أسماءه في بداياته.

(1) فاستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة عباس بيومي بك، مكتبة النهضة المصرية، ص141 - 142.



صورة رقم (36): آنية سورية في بلاد المورة (أفريقيا) وقد كتبت عليها أسماء الأشخاص بالفينيقية - القرن الخامس ق.م.

وكانت تطلق على الجد المؤسس التسمية اللقب «فاطر» ذفْرْ وتعني البادئ، المؤسس. وفي القاموس: فطر الشيء أي بدأ خلقه. وعن ابن عباس أنه قال: ما كنت أعلم ما الفاطر حتى جاءني أعرابيان يختصمان في بئر احتفراها، فقال أحدهما أنا فطرتها، أي بدأت خلقها. إن هذه الكلمة التي رحلت مع السوريين كغيرها من مفردات لغتهم إلى كل مواقع انتشارهم من وادي السند شرقاً إلى الأطلسي غرباً، ومن شمال البحر الأسود شمالاً إلى العمق الأفريقي جنوباً، حيّرت «علماء» اللغات في الغرب. لكن حيرتهم لم تمنعهم من اعتمادها كركيزة لبناء البدعة «الهندو أوروبية» ما دامت هذه الكلمة وحدت من روما إلى الهند!

يقول دي كولانج:

«ونفس الاسم الذي يطلق عليه «فاطر» ذفُّمْ يحمل في ذاته معلومات غريبة. واللفظ هو بذاته في اللغات الإغريقية واللاتينية والسنسكريتية. ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن هذا اللفظ يرجع إلى عصر كان أسلاف الإغريق والإيطاليين والهنود لا زالوا يعيشون فيه معاً في آسيا الوسطى. فماذا كان معناه؟ وأية فكرة كان يمثلها في أذهان الناس؟ من الممكن أن نعرف ذلك إذ أنه احتفظ بهذا المعنى الأول في صيغ اللغة الدينية وفي صيغ اللغة القضائية... إن هذا اللقب كان يطلق على جوبيتر ولم يكونوا يريدون أن يقولوا إنه والد الآلهة. والناس لم يكونوا يعتبرونه كذلك أبداً... وكان يطلق نفس اللقب على نبتون، وباخوس، وفولكان، وأبولون،... ومن المؤكد أن الناس لم يكونوا يعتبرونهم آباء لهم»[1].

إن الجد المؤسس بالنسبة للعشيرة هو بمثابة الجذع في شجرة النسب الذي يحمل كل الفروع، وتعتبر ألاّ وجود لها من دونه. فالنسغ واحد والأصل واحد والدم واحد، والمصير واحد. لذلك، ولما كان الأصل غير قابل للقسمة، فإن «العادة، بل والضرورة، تقضي بأن تكفل الفصيلة بأكملها دَيْن الواحد من أعضائها، وأن تدفع فدية الأسير، ودية القتيل من غيرها، وغرامة المحكوم عليه من أبنائها»[2].

ولما كان قبر الجد المؤسس ومجموعته، أو موقده حيث يوقد له البخور في مناسبات معينة لا يصحّ أن ينقل، بل ينبغي أن يبقى ثابتاً لا يتزحزح فقد تملكت الأسرة الأرض عن طريق الموقد والمدفن. ولم تكن القوانين هي التي ضمنت حق الملكية في البداية، بل الأعراف والتقاليد. «وكان يجب أن يحاط كل حقل بخط يفصله فصلاً واضحاً عن أملاك الأسرات الأخرى. وهذا لم يكن حائطاً من الحجر بل شريطاً من الأرض يجب أن يبقى دون زرع وألا يمسّه محراث... وكانوا يضعون عليه، وعلى مسافات، بعضاً من الأحجار الكبيرة أو من جذوع الأشجار يسمونها تخوماً...»[3].

(1) المرجع نفسه، ص151

(2) المرجع نفسه، ص141

(3) المرجع نفسه، ص86 - 87.

يقول دي كولانج:

«ويبدو أن استعمال التخوم أو الحدود المقدسة للحقول كان عاماً في الجنس الهندو أوروبي. فقد كان موجوداً عند الهنود في زمن سحيق في القدم... وقبل روما نجد التخوم عند السابينيين ونجده أيضاً عند الأتروسك، وكانت للإغريق أيضاً تخوم مقدسة يسمونها تروي troi وتيروي teroi»[1].

ولسنا الآن في صدد السابينيين والأتروسك الذين أثبتت كل الأبحاث أصولهم السورية. لكن لا بد من أن نتكأ مرة أخرى هذه الكذبة «الهندو أوروبية» من خلال شرح معنى الكلمة نفسها التي نقلها لنا دي كولانج مشكوراً كما هي بكتابتها اليونانية، وبصيغتها teroi troi.

إن «تروي» هي في الأصل السرياني «ترعوي» وهي جمع «ترعو» troo وتعني في القاموس السرياني: شق، خرق، تلم، خط الفدان، خط المحراث. أما «تيروي» فهي في القاموس السرياني جمع «تيرو» tero وتعني: تلم، خط الفدان أيضاً.

ونحن نعلم من قصة بناء روما كيف أن «روملو» حدّد بالمحراث حدود المدينة. ولن نقول جديداً إذا ما ذكرنا أن ريمو وروملو بقية ذرية الكاهن عنيا (إنياس) الطروادي السوري في إيطاليا.

ثم إن كل من كان خارج رابطة الدم لهذه العشيرة أو تلك كان يعتبر غريباً وأجنبياً، يحرم من كافة الحقوق التي يتمتع بها أبناء العشيرة. يستثنى من أولئك كل من ينضوي تحت كنفها ويقسم يمين الإخلاص لمنزل السيد. وقد نقل لنا دي كولانج صيغة هذا القسم عن الأصل اليوناني، فيصبح بعده «منضماً لمنزل السيد أو بيته» وتلك الصيغة هي metenai ton heron «ميتيناي تون حيرون»[2] وهي كلمات سريانية، إذ أن«ميتيناي» تعني المتآوي، وهي من الفعل «تأوى» أي: انضم، صار أخاً، أوى. و«تون» تعني: بيت، مخدع، منزل. و«حيرون» تعني السيد، الحر، البطل، الشريف...

---

(1) المرجع نفسه، ص87 - 88

(2) دي كولانج، المرجع السابق، ص .264

إن هذا الواقع العشائري شبه البدائي سوف يتناقض مع الواقع الجديد الذي خلقته موجة السوريين المهاجرين الجدد الممثلين للحضارة السورية المزدهرة، والذين تجاوزوا الانتماء إلى جد العشيرة، وصار انتماؤهم للمدينة مثل (الميليتياثي) نسبة إلى مدينة ميليثا، أو إلى سوريا ككل، كما أخبرنا هيرودوت عن الكبادوكيين. وإن هذا بدوره سوف ينعكس تناقضاً آخر مع صفة التمثيل في «مجلس الأمراء» (البولي) الذين يختارون على أساس شرف النسب إلى آباء العشائر الأول، وبما يتصفون به من خصال كالشجاعة، والكرم، والفصاحة في الكلام وغيرها.

ثانياً ـ وإن الملكية الثابتة للأسرة أخذت، مع توالي الأجيال، تتوزع إلى قطع لتقسم على الأولاد، ثم على الأحفاد، وأحفاد الأحفاد، إلى أن انتهت أخيراً رهونات في أيدي الدائنين، ثم تمركزت في أيدي أقلية لا تعمل، وهجرها أصحابها الحقيقيون ليحولوا عملهم إلى رهونات أخرى في هذه البلدة أو تلك. وهذا ما وصفه وأدانه هيسوود في كتابه «هل الأعمال رهونات؟». ولما كانت عشائر الإغريق تترفع عن العمل بالتجارة والحرفة فقد انعدمت فيها النقود بمعناها السيولي، وحركتها، والأسواق، وجفت الدماء في عروق أصحاب الحرف الصغيرة. وظل التقسيم الفئوي القائم على شرف المحتد هو الأساس ما بين المقاتلين الفرسان أمراء العشائر، والفلاحين من أصحاب النير الواحد أو زوج من الثيران، وعامة الناس أو الفئة السفلى التي لا تكاد تملك شيئاً. وبكلمة موجزة: إن الاقتصاد في «أغريقيا» شبه معدوم، وهذا ما سوف يحدث فجوة مخيفة بين أفواج المهاجرين الجدد التي تضم الكثير من أرباب المال والحرف والصناعات وبين الواقع القائم آنذاك.

ثالثاً ـ كان المجتمع الإغريقي العشائري مجتمعاً ذكورياً بكل معنى الكلمة. «فالمرأة الأثينية كانت تعيش في عزلة شبه شرقية، كما كان ينظر إليها بقليل من الاعتبار... والأدب الإغريقي يرينا مجتمعاً كله من الذكور... وكانت شهادة الشهود في قضية «نعاهيرا» Naira (العاهرة) بأن إحدى الزوجات تناولت العشاء مع ضيوف زوجها وشربت معهم خمراً دليلاً على أنها عاهرة. وكان البيت الأثيني مقسماً إلى غرف للرجال وغرف للنساء... ولم تكن النساء تخرج إلا تحت الرقابة الشديدة إلا إذا ذهبن لحضور إحدى حفلات

النساء. وفي مأساتي إلقترا وأنيتجونا لسوفوكليس أمرت الفتيات مرتين بفظاظة أن يدخلن البيوت فهي المكان المناسب لهن... وكان الشاب يناجي محبوبته بأغنية بالليل... وكان والدا الفتاة هما اللذان يدبران أمر زواجها... وكان الأثينيّ يقول إنه يفضل أن تكون زوجته الصغيرة جاهلة تماماً حتى يعلمها بنفسه ما يريد منها أن تعرفه»[1].

إن هذه الصورة للمرأة في العشيرة هي ربما أكثر تخلفاً منها في عشيرتها العربية البدوية الأم نفسها. لكنها تتناقض تناقضاً صارخاً مع المجتمع الحضاري السوري المزدهر الذي كان الوحيد بين مجتمعات الأرض قاطبة الذي أنجب سيدات جميلات، مثقفات، محنكات، أثبتن قدرات مذهلة ليس في إدارة الأسرة بل في إدارة أعظم دول التاريخ القديم، أمثال: سمير أميس، نيتوقريث، جوليا دومنا، زنوبيا، والكليوبترات الثلاث الملكات على سوريا في زمن أنطاكية العاصمة. وليس أدل على ذلك من الجميلات المثقفات السوريات اللاتي هاجرن مع المهاجرين أمثال سباسيا، وفريني، ولعسا (لئيس).

إن «سباسيا» على سبيل المثال، «هاجرت من ميليتا إلى ميجارا، ثم إلى أثينا، «ولما وصلت إلى أثينا في عام 450 ق.م. افتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة خروج النساء من عزلتهن، واختلاطهن بالرجال، وتربيتهن تربية عالية. والتحقت بمدرستها كثيرات من فتيات الطبقات العليا. وأرسل كثيرون من الأزواج زوجاتهن ليدرسن معها. وكان الرجال أيضاً يستمعون إلى محاضراتها، ومن بينهم بركليس وسقراط. وأكبر الظن أن انكساجوراس نفسه... والنحّات فدياس وغيره كانوا يستمعون إليها. ويقول سقراط إنه تعلّم منها فن البلاغة... وقد تزوج منها بركليس بعد أن سرّح زوجته... فجعلت سباسيا من بيته أشبه بالندوات الفرنسية في عهد الاستنارة، تناقش فيه الفنون، والعلوم، والآداب، والفلسفة، وشؤون الحكم والسياسة في أثينا، مناقشة تجمع بين هذه النواحي المختلفة، وتؤثر كل منها في الأخرى. وكان سقراط يعجب بفصاحتها ويدهش منها... وما لبثت «سباسيا» أن أصبحت ملكة أثينا غير المتوجة، تُشيع فيها آخر أنماط الحياة الاجتماعية، وعنها تأخذ نساء المدينة مُثل الحرية العقلية والأخلاقية التي يتطلعن إليها والتي تثير حماستهن...»[2].

---

(1) إيمار، المرجع السابق، ص288 - 289.

(2) ديورانت، المرجع السابق ص 18 - 19.



صورة رقم (37) لتمثال لسباسيا السورية – سوريا.

كان هذا لا بدّ من أن يحدث صدمة قوية، ويهز بركة ذلك المجتمع العشائري إلى الأعماق. فقد وجهوا التهم إلى كل تلك الشخصيات، «ووجهوا تهمة دينية إلى سباسيا مضمونها أنها لا تخضع لأوامر الدين، وأنها جهرت بعدم تعظيمها آلهة الإغريق، وهجاها الشعراء الهزليون هجاءً قاسياً... وأطلقوا عليها بلغة يونانية صريحة اسم العاهرة. واتهمها أحدهم بأنها تعمل لكسب المال بطريق غير شريف، وذلك بأنها قوادة لبركليس، تأتي إليه بالحرائر ليستمتع بهن. وقدمت للمحاكمة. ودافع عنها بركليس دفاعاً مجيداً استخدم فيه كل ما وهب من بلاغة، بل إنه استخدم دموعه نفسها. ورفضت الدعوى»[1]. وكنا قد شرحنا معنى «سباسيا» وقلنا يعني: الخصيبة. وهو من الفعل السرياني «سبسْ» أي أخصب.

وكان السوريون يطلقون على أمثال تلك السيدات المتميزات مثل سباسيا لقب «حيتيراي» Heterai، وهي في القاموس السرياني جمع «حيتيرا» وتعني: الأبية، المتكبرة، العظيمة، المرفهة، المنعّمة. ويترجمها كيتو بكل جرأته المعهودة في «الفبركة» إلى «الخليلات» ويقول: «هن في الغالب من الإيونيات اللائي كنّ يعرفن باسم «الخليلات» heterai، وقد كنّ يشغلن مركزاً وسطاً بين السيدة الأثينية والعاهرة»[2]...! ثم ما يلبث أن يترجم لنا معنى «سباسيا» إلى «مرحبا»[3]!.

رابعاً – إن نظام الأسرة والعشيرة الضيق حصر فكر أبنائها في تمجيد الآباء، وتقديم الواجبات لها عند مدافنها حتى صارت في أذهان الخلف في مرتبة فوق البشر. لكنهم لم يعتبروا يوماً أكثر من «أرباب» بمعنى سادة، معلمين. وهذا ما فهمه المؤرخون في الغرب على وجه الخطأ.

يقول فاستيل دي كولانج:

«وكان يطيب للإغريق أن يطلقوا على الموتى اسم الآلهة... ويقول يوروبيدو عند الكلام على ألكسيتي: «بالقرب من قبرها يقف المارّ ويقول: هذه هي الآن معبودة سعيدة» وكان الرومان يطلقون على الموتى اسم الإلهة مانيس Mane»[4].

(1) دي كولانج، المرجع السابق، ص22.
(2) كيتو، المرجع السابق، ص290.
(3) المرجع نفسه.
(4) المرجع نفسه.



صورة رقم (38) بركليس – نسخة مرمرية.

المصيبة أنهم يتعاملون مع الكلمات السورية السريانية بعد أن طرأت عليها كل التحويرات جرّاء غربتها في بلاد أغريقيا، ثم في غربتها في إيطاليا حيث تكونت اللاتينية الفقيرة بجذورها وأصواتها، فتركت الكلام السرياني خالياً من كل أصواته الحلقية الكثيرة.

إن الكلمة manes التي ينقلونها عن اللاتينية بصورتها الشائهة لا تعني الآلهة، ولا المعبودة السعيدة. إنها، ببساطة، كلمة سريانية تعني: الميت، المستريح، المستقر، المقيم، المرتاح، المتوفى، المرحوم، السعيد. وهي في القاموس السرياني «منيح» وقد سقطت الحاء وأضيف لها الذيل (السين) كالعادة. وما تزال كلمة «منيح» على لسان كل السوريين إلى هذا اليوم. فأنت ما تكاد تسأل أحدهم عن حاله حتى يجيبك «منيح» أي مرتاح، سعيد. والكلمة من الفعل «أنيح» ويعني: أراح، سكّن، أنجز، أكمل، سرّ، تمتع، تلذذ، سعد، ارتاح. «نيحو»، و«نيح» و«نيحا»: مستريح، ساكن، مستقر، متوفى، مرحوم، سعيد. ومثلها «منيح».

أما الآلهة الكبار الخالقة فكانوا ـ كما سبق أن أسلفنا ـ يتحاشون ذكرها والحديث عنها، ويطلقون عليها اسم الـ «كبيري»، وهي في السريانية جمع كبير. كان هذا أيضاً لا بدّ من أن يحدث فجوة شاسعة بين الدين المنحصر في إطار تقديس الأجداد الخاصين بالأسرة أو العشيرة، والدين الكلي الشمولي لقوى الخصب في الطبيعة ككل، وصولاً إلى القوة الخالقة.

إن هذه التناقضات بين أشلاء أسر شبه بدوية قديمة، جامدة، في ملاجئها الإغريقية وأفواج مهاجرة هاربة جديدة على أعلى مرتبة من التطور الفكري، والاقتصادي والاجتماعي، والفني، والسياسي، والديني، لا يجمع بين القديم منها والجديد سوى التحدر من جذور سكانية واحدة، واللغة الواحدة التي يتكلمونها بلهجاتها المختلفة، كان لا بد من أن تجابه بعمليات الإصلاح الفورية والسريعة قبل أن تحدث قطيعة مدمّرة بين القديم والجديد.

صولون «المصلح» والإصلاحات الصولونية

إن اسم «صولون» هو، كالعادة، لقب، ويعني المصلح. وهو في القاموس السرياني من الفعل «صلي» ويعني: أصلح، حث على الصلح، ردّ أحداً إلى منصبه، رد حقوقاً إلى أصحابها، صلّى، تضرع، بارك، صَلَى، نصب شركاً، وجّه قوّم. و«صولويو» و«صولو» و«صولون»: المصلح، المقوّم، المستقيم، الصالح، المبارك...

هاجرت أسرة صولون مع من هاجر من الشمال السوري هرباً من وحشية جيش كورش. كان والده من الأشراف الكرام، ومن أرفعهم بيتاً، وأنقاهم دماً، ينتهي نسبه إلى الملك كودروس (كودرو تعني بالسريانية طائر العقاب). وكانت أمه ابنة عم بستراتس الطاغية الذي خرق دستور صولون في بادئ الأمر، ثم عاد بعدئذ فثبت دعائمه. وقد انغمس صولون في شبابه فيما كان ينغمس فيه أهل زمانه. فكان يلهو، ويقرض الشعر، ويسافر كثيراً بين المدن السورية وقبرص والجزر، بعد أن أغراه العمل بالتجارة ككل السوريين الموسرين. وفي سنّ الكهولة صلحت أخلاقه صلاحاً يتناسب عكسياً مع شعره، ثم أصبحت أشعاره هادئة، ونصائحه جيدة تنم عن خبرة كبيرة وعقل رصين. فصار في هذه الفترة تعبيراً حقيقياً عن مضمون اللقب الذي ألصق به: الصالح، المصلح. فمن أشعاره في هذه الفترة مثلاً:

«إن الكثيرين من الناس أغنياء،
لكنهم لا يستحقون هذا الغنى،
في حين أن من هم خير منهم يقاسون آلام الفقر».

واشتهر بين جميع طبقات الناس بالاستقامة. «وكان والده ـ حسبما ذكر بلوطارخ ـ قد بدّد ثروته في التصدق على الناس والإحسان إليهم»[1]. لهذا فإن أبناء الطبقة الوسطى من مفكرين، وأدباء، وفنانين، ونحاتين، ومصورين، وحرفيين، وتجار... ممن نزحوا إلى أغريقيا، وضعوا ثقتهم به من أجل إيجاد الأساس لاستمرار هذه الطبقة في المهجر وضمان نموها بعد أن كانت قد تقلصت الطبقات القديمة هناك إلى معدمين مرهونين أشباه أقنان وحفنة صغيرة من الملاكين، والكل يحتقر المهنة والحرفة والعمل...

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 6، ص210.

«وكان صولون لا يزال صغير السن نسبياً، في الرابعة والأربعين او الخامسة والأربعين ـ حين أقبل عليه في صيف 495 ممثلو الطبقات الوسطى يدعونه إلى قبول ترشيحهم إياه ليكون أركوناً، على أن يمنح سلطة مطلقة لإخماد نار حرب الطبقات، ووضع دستور جديد للبلاد، وإعادة الاستقرار. ووافقت الطبقات المالكة على هذا الاختيار وهي كارهة. وكان الباعث لها على الموافقة ثقتها بأن رجلاً مثله من أصحاب المال لا بد أن يكون رجلاً محافظاً»[1].

وسلك صولون ـ كأعظم رجال السياسة ـ مسلكاً جنّب فيه المجتمع الأتيكي الصدام الداخلي. ففي البداية شنّ حملة على الأخطاء الاجتماعية التي أشاعت الفقر وتهددت بانفجار الفوضى، ودعاها بلغته السريانية «صيصا حطايا» سمى ّفكوّوفىف وتعني حرفياً بالسريانية «دمّل الأخطاء». إذ أن «صيصا» في القاموس السرياني تعني: مسمار، دمّل، ثؤلول، داحس، ورم حار. و«حطايا» تعني: الخطايا، الأخطاء، الأثام... لكن المؤرخين «العلماء» في «الفبركة» فهموها بطريقتهم الخاصة. يقول ديورانت: «لكن صولون استطاع بفضل قانونه الشهير، قانون الـ Seisa chthaia[2] أو «رفع الأعباء» أن يلغي ـ كما يقول أرسطو ـ جميع الديون القائمة سواء أكانت للأفراد أم للدولة»[3]. ثم باشر عملياً بإصلاحاته التي شملت جميع نواحي الحياة الاجتماعية، وأفضت إلى اندماج المهاجرين الجدد في صلب دورتها، نجملها بما يلي:

1ـ لقد حرر أراضي أتيكا من جميع الرهون. وأطلق سراح جميع من استرقّوا أو التصقوا بالأرض، وكل من بيعوا رقيقاً في خارج البلاد، وطلب إليهم أن يعودوا إلى مواطنهم، وحرم هذا الاسترقاق في المستقبل. فضمن بهذه الخطوة توفير الأيدي العاملة لأفواج الصناعيين والحرفيين من المهاجرة الجديدة.

«لقد احتج الأغنياء بأن هذا التشريع كان في حقيقة الأمر مصادرة لأموالهم، لكنه أصمّ أذنيه عن سماع احتجاجهم. ولم تمضِ عشرة أعوام على صدوره حتى أجمع الناس، أو كادوا يجمعون، على أنه أنجى أتيكا من الثورة»[4]. وبالطبع كان الاحتجاج من قبل الأغنياء أصحاب الأملاك المحليين لا من القادمين الجدد.

(1) المرجع نفسه.
(2) المرجع نفسه، ص 211
(3) المرجع نفسه.
(4) المرجع نفسه.

2ـ رفع قيمة المينا من سبعين درهماً (دراخما) إلى مائة، فسهل بذلك على الناس تسديد ديونهم.

3ـ أدخل تنظيماً جديداً للطبقات أدخل فيه وعلى قمته رجال المال.

وبذلك نقل المجتمع برمته من الأوليغارشية (الأقلية) الإقطاعية إلى الرأسمالية. وصارت مظاهر الشرف والتكريم مرتبطة بما يقدم من ضرائب، التي نظمت على أصحاب المال بصورة تصاعدية، وأعفيت منها الطبقات الفقيرة نهائياً. فوجه بذلك صفعة أخرى للتركيبة العشائرية القائمة على شرف المحتد والفروسية. وبناء على هذا فقد امتد الإصلاح ليشمل مجلس الأمراء (البولي)، الذي لم يعد مقصوراً على أمراء الأسر أو العشائر، وإنما قضى بأن تنتخب كل طبقة من الطبقات الأربع، وفي طليعتها طبقة رجال المال، مائة عضو تبتّ في شؤون المجتمع. وأبقى ـ مع هذا ـ على هيئة «القليسيا» Leklesia، وهي بمثابة جمعية عمومية من الوجهاء، من حقها أن تراقب الموظفين، وتتهمهم وتعاقبهم. والكلمة سريانية، وهي في القاموس السرياني «قليسا» وتعني حميد، ممدوح السيرة، واللام أداة التعريف العربية الشهيرة.

وألغى العادة القبلية العربية القديمة «الأخذ بالثأر» «فلم يعد قضية خاصة أو تصفية حساب بين النبلاء، وبدلاً من ثأر الدم المحصور في حلقة ضيّقة ولكنه إلزامي بالنسبة لأهل القتيل والذي يمكن أن تتولد عنه حلقة مشؤومة من القتل والقتل المضاد، حلّ العقاب المنظم في إطار المدينة تحت رقابة المجموع... وبات القاتل موضوعاً للعار بالنسبة للجماعة بكاملها وليس بالنسبة لأقرباء القتيل فقط... بالإضافة إلى ارتباط ذلك بالديانة الأدونيسية التي أخذت تزدهر في الأرياف بتعليمها المعين حول مصير النفوس وقصاصها في الجحيم، ووراثة الخطيئة، ودورة التقمص، ووحدة جميع الكائنات الحية[1]... وصار اسم القتلة «الخاطيانتي» Hateante[2]. والكلمة سريانية، جمع «خطيان» وتعني الخاطئ الآثم.

---

(1) جان بيار فرنان، المرجع السابق، ص 65.

(2) المرجع نفسه، ص 68.

4- ثم ألغى سلطة «مجلس الأمراء» في البت بأمور القضاء. وبدلاً عن ذلك دعا الجميع إلى ممارسة حق الاختيار لهيئة دعاها »هيئة المحلفين ومُىفمف (الهيليائيا) وهي هيئة مؤلفة من خمسة آلاف من المحلَّفين تتألف منهم أنواع المحاكم التي تنظر في جميع القضايا عدا قضايا القتل والخيانة، والتي يصح أن ترفع إليها الشكاوى من أعمال الحكام على اختلاف أنواعها»[1]. والكلمة سريانية، وهي من الفعل «آلى» ويعني: حلف، أقسم. ومثلها في العربية الفصحى.

5- وتعزيزاً للمهاجرين الجدد، المتميزين نوعياً في المجتمع الأتيكي، ولدور رجال الأعمال فقد أصدر قانوناً »يمنح حق المواطنية لجميع الأجانب عن العشيرة الذين يتقنون حرفة ما، والذين يأتون مع أسرهم ليقيموا بصفة دائمة في أثينا. وحرم تصدير الغلات الزراعية الزائدة عدا الزيتون. وكان يرجو بهذا أن يحوّل الناس من الزراعة إلى الاشتغال بالصناعة. وسن قانوناً يقضي بعدم إلزام الولد بمساعدة أبيه إذا كان هذا الأب لم يعلمه حرفة خاصة»[2].

«وتبيّن أن تأثير الشرق لا يظهر فقط في الفسيفساء وفي الترجمات المصورة وفي زخارف الحياة، ذلك أن الأرستقراطية اليونانية منذ نهاية القرن السابع افتتنت بالترف والتأنف وتستوحي في أذواقها وآدابها هذا المثال المترف والأنيق للبذخ الذي يميز العالم الشرقي»[3]... «بل إن مما لا ريب فيه أن مجموعة سكانية من الحرفيين قد تطورت».

6 - ونقل من وطنه سوريا المعايير الأخلاقية المتطورة إلى هناك، مما زاد في التضييق على المعايير العشائرية التي كانت سائدة من قبل. فشاد هيكلاً لأفروديت، وجعل البغاء قانونياً، وفرض على البغايا ضريبة، وأنشأ مواخير عامة مرخصة من قبل الدولة وخاضعة لرقابتها. وفرض بعد ذلك غرامة قدرها مائة دراخما على من يعتدي على عرض امرأة حرة. وأباح القتل للزاني المتلبس بجريمته. وجعل الغيبة للأحياء والأموات جريمة. كما أنه اعتبر الإصرار على البطالة، والبقاء على الحياد في أوقات الفتن جريمة. وحرّم الاحتفالات الفخمة،

(1) المرجع نفسه، ص214 - 215.
(2) المرجع نفسه، ص215.
(3) Cf. Santo Mazzarino, Fra Oriente e Occidente. Ricerche di Storia Grecia Arcaica, Firenze, 1947.
و: جان بيير فرنان، المرجع السابق، ص62 - 63.

والقرابين الكثيرة النفقة، والندب الطويل في الجنائز، وحدّد مقدار ما يدفن مع الأموات من متاع. وفوق هذا كله، ومن أجل تخليص العشيرة آخر نفوذها على أبنائها فقد سنّ قانوناً يفرض على الحكومة تربية أبناء من يقتلون في الحرب وتعليمهم على نفقتها.

إن صولون، ذلك المصلح العظيم، ما كان ليكون من غير سوريا أم الشرائع في العالم. لقد ورث ثلاثة آلاف عام من تطور الشرائع في بلاده، ومنذ عهد «لفت عشتار» (الخصيبة عشتار) ومروراً بحمورابي العظيم الذي وصف ديورانت شريعته بأنها لا تقل شمولاً ورقياً عن شريعة أية دولة أوروبية حديثة.

وجرياً على التقليد الذي بدأه حمورابي قبل ألف وخمسمائة عام من زمن صولون، فقد «جعل من حق كل مواطن أن يقاضي أي شخص يرى أنه ارتكب جريمة ما. وأراد أن يعرف الناس قوانينه حق المعرفة، وان يطيعوها ويلتزموا العمل بها، فكتبها في ساحة الأركون الديني على ملفات أو منشورات خشبية تدار وتقرا»[1]. أليس هذا ما فعله حمورابي حين أمر بكتابة شريعته في كل ساحات مدن دولته «فليأتِ أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي، أنا ملك العدالة، وليقرأ النقش الذي على أثري، وليلقِ باله إلى كلماتي الخطيرة. ولعل أثري هذا يكون هادياً له في قضيته، ولعله يفهم منه حالته، ولعله يريح قلبه فيهتف: حقاً أن حمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه... لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله، وأقام في الأرض حكومة طاهرة عادلة»[2].

ولما بلغ صولون في عام 275 سنّ السادسة والستين آثر أن يفرغ لحياته الخاصة. فاعتزل منصبه بعد أن ظل أركوناً لمدة خمسة وعشرين عاماً. وبعد أن أخذ العهد على أثينا بأيمان أقسمها موظفوها أن تطيع قوانينه بلا تغيير فيها ولا تبديل مدة عشر سنين، سافر إلى سوريا. «ويلوح أن ذلك الوقت هو الذي قال فيه قالته المشهورة الذائعة الصيت «إني لتكبر سني وما فتئت أتعلم»[3]... ثم سافر إلى قبرص ووضع القوانين لمدينتها «ليما» التي تعني بالسريانية: الأمَة، الجارية. فغيرت اسمها تكريماً له إلى «ليماصولو»[4] أي «أمَة صولون».

(1) المرجع نفسه، ص217.
(2) المرجع نفسه، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص191 - 192.
(3) المرجع نفسه، الجزء السادس، ص219.
(4) المرجع نفسه.

الديمقراطية

الديمقراطية في التاريخ

ليس خروجاً على موضوع الإغريق تم اختيار هذا العنوان الواسع الكبير، وإنما للأسباب التالية:

أولاً ـ لِما لحق بهذا المصطلح «الديموقراطية» من تزوير شمل تفسيرها اللغوي، ونشأتها التاريخية، والفهم السائد والمتداول لها اليوم.

ثانياً ـ لكثرة ما أسيء إليها، وما لحق بها من مضامين كاذبة لا تمت إلى مضمونها الجوهري الحقيقي بصلة.

ثالثاً ـ لكثرة الحديث بها وعنها في زمننا الحاضر، حتى تحولت إلى مجرد يافطة ترفعها كل دولة، وكل جهة معارضة في أية دولة، وكل مثقف يزعم التميز.

رابعاً ـ ولأن مضمون مصطلح «الديموقراطية» ارتبط في أذهان الناس بمفاهيم أخرى كالحرية، والعدالة، والمساواة، كما ارتبط، بالتالي، بأشكال وأدوات تحقيق تلك المفاهيم والشعارات كالانتخاب، وحرية التعبير وغيرهما، فقد انسحب الفهم الشائه للديموقراطية على هذه المفاهيم، وصار أي منها ـ كحق الانتخاب مثلاً ـ تحقيقاً للديموقراطية، بصرف النظر عن الأدوات الأخرى المكملة وعن «تاريخيتها» جميعاً و«تاريخية» كل منها على حدة.

١ـ معنى كلمة «ديموقراطية»:

لو سألت أي مثقف في هذا العالم عن معنى كلمة «ديموقراطية» لأجاب بثقة عالية ودون أي تردد: كلمة، أو كلمتان، يونانية، أو إغريقية، تعني: سلطة الشعب، حكم الشعب لنفسه. كيف؟ لماذا؟ لا أحد يدري سوى أن جهابذة اللغات والتاريخ في الغرب هكذا افترضوها وهكذا عمّموها. أما الحقيقة فهي أنها مؤلفة من كلمتين فعلاً لكن سريانيتين، هما «دِمو» demo وتعني: الدم، الأصل، الشبيه، المثيل، الشخص. وكنا قد شرحنا في بداية هذا الكتاب، في موضوع اللغة، أن التراث العربي الذي هو أقدم تراث

على وجه الأرض أكد أن الخالق خلق الإنسان على شاكلته فسمّي «آدمو» (آدم) أي: الشبيه، المثيل، الشخص، الإنسان. والكلمة الثانية هي «قراطيو» وهي في القاموس السرياني من الفعل «قْرطْ» ويعني: سجّل، دوّن، قيد، كتب، حفر، نقش... فيكون معنى الكلمتين: الشخص المسجّل. وجمعهما «ديمي قراطي» أي الأشخاص المسجلين. وفي الفصحى: القرطاس هو الصحيفة المكتوبة.

فما هي الشروط الاجتماعية ـ التاريخية لنشوء هذه التسمية؟

ليس عسيراً على من يعمل العقل أن يدرك حقيقة ولادة هذه التسمية حينما يبسط أمامه الخارطة السكانية لشبه جزيرة المورة ذلك الزمن. فالسكان الأصليون همج، متوحشون، لم يتجاوزوا مرحلة سكنى الكهوف وأكل لحوم البشر، ولم يكونوا قد عرفوا تقليد الزواج وبناء الأسرة والاستقرار في بيت، وبالتالي فلا نسب لديهم، بل كانت النساء مشاعاً. وهم الذين أطلق عليهم السوريون اسم «الصقلاب» Syclob. والمهاجرون الفارون (الإغريق) أشتات من عشائر عربية أو سورية شبه بدوية يوحد فيما بينها النسب ورابطة الدم التي انبثقت عنها كل عقائدها وتقاليدها وعاداتها. وبالتالي فإن نقاء الدم يعني نقاء السلالة، واختلاط الدم يعني فسادها.

يقول دي كولانج: «يتبين من كل هذا أن الفصيلة لم تكن تجمّع أسرات، بل كانت هي الأسرة ذاتها. وكان في استطاعتها على السواء ألا تحوي غير سلسلة تنسب واحدة حتى لو أنتجت عدة فروع فما هي إلا أسرة واحدة على الدوام... فالموقد وقبر (الجد) والميراث، كل ذلك غير قابل للقسمة في الأصل، وكذلك كانت الأسرة بالتبعية غير قابلة للقسمة في الأصل، ولم يكن الزمن ليمزقها، فكانت تمتد على مدى العصور مخلّدة عبادتها واسمها من قرن إلى قرن. تلك هي الفصيلة العتيقة. كانت الفصيلة هي الأسرة... ولن يكون في ذلك التضامن الوثيق الذي لاحظناه بين أعضائها ما يدعو إلى العجب، فهم أقرباء من حيث المولد، والعبادة التي يشتركون في القيام بها (تقديس الجد المؤسس) ليست خيالاً، بل أتت إليهم من أسلافهم. وبما أنهم من أسرة واحدة فإن لهم مدفناً مشتركاً»[1].

(1) دي كولانج، المرجع السابق، ص138 – 141.

«ومن هنا جاءت سلسلة بأسرها من الحقوق: حق الاعتراف بالطفل عند مولده أو إنكاره...؛ حق طلاق الزوجة، سواء في حالة العقم، إذ يجب ألا تنقرض الأسرة، أو في حالة الزنا، إذ لا بد أن تكون الأسرة والذرية نقية من دون فساد...»[1].

ولمّا كانت النساء من السكان الأصليين سارحات ما بين الكهوف في الجبال والوديان والغابات وعند ينابيع المياه وضفاف الأنهار، فلم يكن من العسير على رجال القبائل الفارّة واللاجئة هناك أن «يقنصوا» الكثير من النساء، ويغروهن بالملابس والدهون والعطور، بل وأن يستخدموهن للإمتاع في مجالس الشراب الخاصة بالرجال، وبالتالي، أن ينسلوا منهن أولاداً كثيرين. وإن مغامرات زيوس زوج حيرا أكبر شاهد.

من هنا، وحرصاً على نقاء دم الأسرة أو الفصيلة من الاختلاط أو الفساد، فقد كان لا بد من اتخاذ كل الاحتياطات الصارمة للحؤول دون دخول دم غريب في جسم الفصيلة، وصار الإنسان الحر في الفصيلة أو العشيرة هو المولود من زواج شرعي من ضمن العشيرة، أما الآخرون فهم «الأنغال». وصارت كل الحقوق مقصورة على الأحرار، بينما الأنغال خارج تلك الدائرة. ومن أجل التحقق من هذه الواقعة كانت تجري ضمن عدة طقوس وإجراءات نذكر منها:

يأتي الأب الأثيني أو الإسبارطي أو الأرقوسي بابنه الصغير إلى اجتماع العشيرة أو الأخوية، ويقسم أمام مذبح الجد المؤسس على مشهد ومسمع الجميع أنه ابنه الشرعي من زوجته «فلانة» الشرعية. وينقل لنا فوستيل دي كولانج صيغة ذلك القسم بالإغريقية القديمة التي هي السورية السريانية كما يلي: amuno upper ton heron[2] وتُقرأ هكذا: «أمونو أوفر تون حيرون» وهي عبارة سريانية بالحرف الفينيقي الغربي. وتعني بالفصحى: «أقسم أن أبارك بيت السيد».

إن «أمينو» هي في القاموس السرياني من الفعل «يما» ـ «يمي» ويعني: حلف، أقسم. و«أومي»: حلّف، استحلف. و«أمونو»: أُقسم، أحلف. و«يمينو»: يمين، قسَم. وإن «أوفر» من الفعل «فرا» وتعني: كثّر، بارك، زاد، وفر، أثمر، أخصب. وإن «تون» تعني: منزل، مخدع، كما تعني مؤونة. وإن «حيرون» و«حيرو» تعني: الحر، السيد، البطل، الشريف، ابن الحسب، النبيل، ومؤنثه «حيرا» الذي هو لقب زوجة زيوس.

(1) المرجع نفسه ص 117.

(2) فوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة عباس بيومي بك، مكتبة النهضة المصرية، ص272.

و«أومي»: حلّف، استحلف. و«أمونو»: أُقسم، أحلف. و«يمينو»: يمين، قسَم. وإن «أوفر» من الفعل «فرا» وتعني: كثّر، بارك، زاد، وفر، أثمر، أخصب. وإن «تون» تعني: منزل، مخدع، كما تعني مؤونة. وإن «حيرون» و«حيرو» تعني: الحر، السيد، البطل، الشريف، ابن الحسب، النبيل، ومؤنثه «حيرا» الذي هو لقب زوجة زيوس.

ويقول دي كولانج:

«لهذا أقسم هذا الرجل يوم قيّد في سجلّ المواطنين أن يمارس عبادة رب المدينة وأن يحارب من أجله... وقبوله بين المواطنين يعبّر عنه في اللغة الإغريقية بالألفاظ mete-nai ton heron[1] وتُقرأ: ميتيناي تون حيرون» وتعني بالسورية السريانية: المنضم إلى بيت السيد. إذ أن «ميتينايو» هي في القاموس السرياني من الفعل «أوي» ويعني: أولى، ضمّ، آلف، قرن، آخى. «اتأوي»: ضُمَّ، صار أخاً. متأوينو: مضموم، جرى ضمّه وإلحاقه. متأونيوت: ضمّ، إلحاق، اتفاق، تحالف، أخوّة. يتم القبول بشكل ديني، وتذبح أضحية، ويطهى لحمها على المذبح. ثم يقتسمون لحمها، ويطعمون منها الصغير، تأكيداً على انضمامه إلى العشيرة واتحاد رابطة الدم المقدسة فيما بينها.

يتولى الكاهن الذي هو كبير الأسرة أو العشيرة أمر تسجيل المولود في شجرة نسب أسرته التي يحرصون على الحفاظ عليها. وهذا التقليد لم تعرفه قبائل في الأرض غير القبائل العربية التي ما تزال تحفظ شجرات أنسابها منذ عدة آلاف من السنين إلى اليوم سواء في الوطن أم في بلاد المهجر. وبعد أن يتم تسجيل العضو الجديد يصبح «شخصاً مسجلاً» (أي دمو قراطيو)، أي عضواً في العشيرة أو الأخوية، له ما لها من حقوق، وعليه ما على كل فرد منها من واجبات. ويصبح «حرّاً».

يقول دي كولانج:

«هنالك عادات دامت حتى الأزمنة المتأخرة من التاريخ الإغريقي، وتلقي شعاعاً على طبيعة الأخوية العتيقة. ومنها نرى أنه لكي يكون الإنسان عضواً في أخوية، في عصر ديموستين، كان لا بد أن يكون مولوداً من زواج شرعي في إحدى الأسرات التي تتكون منها الأخوية. إذ

(2) المرجع نفسه، ص264.

أن ديانة الأخوية كديانة الأسرة لم تكن تنتقل إلا عن طريق الدم. فكان الأثينيّ الصغير يقدمه والده للأخوية ويحلف أنه ابنه. وكان يتم القبول بشكل ديني. فكانت الأخوية تذبح أضحية وتطهو لحمها على المذبح. وكان يحضر جميع الأعضاء... فإذا اقتسموا لحم الضحية بعد الطهو مع الصغير فإن الشاب يعدّ مقبولاً، ويصبح عضواً في الجماعة لا رجوع في ذلك»[1].

«وإذا وغل رجل مولود من زواج غير شرعي في أخوية فإن كل أثيني يستطيع أن يقاضيه»[2]. فالانتماء فيها هو انتماء للجد المؤسس (فاطر) Pater برابطة الدم والنسب، فأطلقوا على الوليمة المشتركة «التي تشترك فيها القبيلة بأكملها»[3] اسم «فاطريا» Patrea، وصار كل عضو في العشيرة منتمياً بالضرورة إلى الجد المؤسس نسباً، ودعي «فاطريوتو» Patreoto التي جاءت منها كلمة Patreot في اللغات الأوروبية ليستخدموها بمعنى وطني ومواطن.

لهذا فإن «الفاطريوتو» العضو في الأخوية «هو الرجل الذي يمجد آلهتها والذي باسمه يقدم الكاهن القربان كل يوم، والذي له حق الاقتراب من المذبح، وأن ينفذ إلى داخل السور المقدس حيث الجامع، والذي يشهد الأعياد، ويتبع المواكب، ويختلط في مجامع الأعياد، ويجلس إلى الولائم المقدسة، ويتلقى نصيبه من الأضحية. لهذا أقسم هذا الرجل يوم قيّد في سجل المواطنين أن يمارس عبادة آلهتها وأن يحارب من أجلهم»[4].

إن هذا «القيد في سجل المواطنين» الذي يقوم به رئيس بيت الأب للعشيرة هو بيت القصيد، وهو الـ «ديموقراطيو».

مرة أخرى نذكّر بأن رب الأسرة لم يكن «إلها». وإذا ما ترجمت هذه الكلمة في الغرب إلى «إله» فهذا بعض من نتائج جهلهم بلغة تلك الجماعات. وحتى في العربية الفصحى إن كلمة «رب» تعني السيّد المعلّم. وفي القرآن الكريم في سورة «يوسف» حين خاطب يوسف صاحبيه في السجن قائلاً: **﴿إن أحدكما سيسقي ربه خمراً﴾** لم يكن يعني بها غير سيده ومعلمه. فكلمة «رب» في الفصحى والسريانية لا تعني «الإله» إلاّ إذا أضيفت، مثل «رب العالمين» و«رب الكون» و«ربي، وربكم ورب الناس أجمعين... إلخ» أو كانت مقصودة مثل «يا رب».

(1) المرجع نفسه، ص156.
(2) المرجع نفسه.
(3) المرجع نفسه، ص157.
(4) المرجع نفسه، ص263 – 264.

أما كلمة «باتر Pater» فهي الكلمة العربية «فاطر» وتعني: الجد المؤسس، البادئ لهذا التجمع العشائري أو ذاك، الخالق، الموجد.

ويقول دي كولانج:

«ونفس الاسم الذي يطلقون عليه Pater يحمل في ذاته معلومات غريبة... وكان لكلمة ذفُّهْ معنى آخر يطبق في اللغة الدينية على جميع الآلهة، وفي لغة القانون على كل رجل لا يتبع أي شخص آخر وله سلطة على أسرة وعلى ملِك، ويرينا الشعراء أنهم كانوا يستعملونه لجميع من كانوا يريدون تكريمهم. فكان العبد والمولى يطلقه على سيده... ولم يكن يتضمن معنى الأبوة بل يتضمن معنى السيادة والقوة والرتبة الرفيعة»[1].

وهناك، في بلاد اليونان القارية، حيث يهيم سكان الكهوف في البراري من كهف إلى كهف، ومن وادٍ إلى آخر، ومن جبل إلى جبل، رجالاً ونساءً، كثيراً ما كان أولئك «الأرباب» (السادة) يلتقون بنساء الكهوف اللاتي يتمتع بعضهن بجمال بكر، فيطاردونهن، ويضاجعونهن بالسرّ عن زوجاتهم النبيلات، وينجبون منهن أبناء وبنات يطلقون عليهم أسماء سريانية. ولقد أطلقوا على تلك النساء من ساكنات الكهوف اسم «حوراي» بالسريانية التي هي جمع «حورايا» وتعني ساكنة «حورا» أي المغارة. وهي التي صارت بالعربية الفصحى «حورية». لقد أنجبوا من تلك «الحوريات» خلقاً كثيراً كانت الأمهات تنسبهم إلى «الآلهة».

وإن تلك السلالة الجديدة الناجمة عن اتصال أولئك الآباء السوريين بالحوريات ساكنات الكهوف هي التي دعوها بـ«الأنغال»، لأن الأنغال جيل مهجن من تزاوج الأفراس والحمير. وهؤلاء لم يكن يعترف بهم أعضاء في العشيرة، وبالتالي لم يكن لهم أية حقوق.

يقول دي كولانج:

«والأطفال المولودون من قران مواطن بأجنبية كانوا يعتبرون أنغالاً»[2] وكانوا محرومين من كل الحقوق ومنها حق الإرث... «إن الابن يصبح غريباً عن الوالد ولا يستطيع أن يرث منه. فإن الفاصل بين المواطن والأجنبي كان أقوى من الرابطة الطبيعية بين الأب والابن»[3].

---

(1) دي كولانج، المرجع السابق، ص 115 - 116

(2) المرجع نفسه، ص267.

(3) المرجع نفسه، ص268.

وحتى لا يساء فهم كلمة «الأجنبي» كما تعمدوا إساءة فهمها في الغرب بعد أن اعتبروا أولئك الإغريق «أوروبيين» والأجنبي بناء على ذلك قد يكون السوري أو غيره، نقول: إن المقصود بكلمة الأجنبي عند تلك العشائر هو كل من كان خارج رابطة القرابة، أي قرابة الدم والنسب. وفي زمن النزوح السوري الأخير، وزمن بركليس، صارت تعني كل من كان خارج ذلك التجمع الذي يؤلف السوريون الحضاريون معظمه. يشهد على ذلك القانون الذي سنّه بركليس نفسه وحيّر المؤرخين في الغرب بنتائجه. فقد ظلوا مصرّين على اعتبار الأثينيين هم المواطنين، وكل من يفد من الخارج، ومن سوريا بالتحديد، هو الأجنبي. لكن الأمر كان يحدث على العكس من هذا، وهذا ما لم يبتغوا فهمه.

يقول كيتو: «إن القانون الصادر في السنة 451 – 450 ق.م. والذي اقترحه بركليس نفسه يقصر المواطنية على الأولاد الشرعيين... أما الأولاد الأخرون فلا يستطيعون الحصول عليها إلا بقرار فردي، لأن القانون يجعل منهم أنغالاً أو أجانب. وليس استصدار هذا القرار الفردي بالأمر السهل، لكنه أوجب، بصورة خاصة، أن يفقد بركليس أولاده الذين أنجبتهم له أمهم الأثينية، ويصدر مرسوم بمنح صفة المواطنية للولد الذي أنجبته له سباسيا الميليثية»[1]، أي السورية من ميليثا. وهذه الواقعة تكشف لنا حقيقة ما كانوا يقصدونه بـ «الأجانب» أو «الأغراب» بعيداً عن الروح التزويرية التعصبية التي سادت كتابة التاريخ في الغرب.

وبإمكان أي منا أن يتصور أنه كان في الإمكان استخدام أفراد تلك السلالة المهجنة الجديدة في البيت أو الحقل أو القتال مع ما دعي بالطبقة التحتية theti أو الدونية دون أن يكون لهم أية حقوق. كما بإمكاننا أن نتصور طموح أفراد هذه السلالة إلى أن تتمتع بالمساواة في عضوية «الفاطريا»، وبالتالي بالحقوق مع بقية أفراد العشيرة. «إن «المتدنّين» (التحتيين) في سبارطة نفسها، أي المواطنين المنحطّين والأنغال... وغيرهم كثيرين ممن يتوقون إلى مثل أعلى هو الانضمام إلى طبقة المتساوين»[2]. وإن في إمكان أي منا أن يتصور أيضاً ما كان يمكن أن تسببه كثرة هذه السلالة من طغيان على أفراد العشيرة الأصليين وتذويبها، وما قد يُفضي بها ذلك إلى الانحطاط والسقوط في درك الهمجية. من هنا كان التشبث بتلك القيود الصارمة حين تسجيل المواليد الجدد والتي دعيت «ديموقراطيا».

(1) إيمار، المرجع السابق، ص338.

(2) إيمار، المرجع السابق، ص347.

ولما كان صاحب السجلّ، الذي فيه «قيد النفوس» لأبناء العشيرة أو الأخوية، هو الوحيد ربما، أو واحداً من قلة، ممن يعرف الكتابة فإنه كان معرّضاً في أية لحظة لأن يقع تحت ضغط هذا السيد أو ذاك، أو أن يتلاعب في السجل لقاء رشوة أو هدية.

إن هذا الاعتبار القائم على ممارسات واقعية حدثت فعلاً أدى إلى إحداث وظيفة أخرى تقوم بالفحص الدائم لقيود السجل دعوها «بحوروقراطيا» bhorokratia وتعني بالسريانية: فاحص السجل، فاحص القيود. إذ أن «بحورو» هي في القاموس السرياني من الفعل «بَحِرْ» ويعني: فحص، بحث، امتحن، اختبر، علم، رأى، فحص الفضة أو الذهب. «بحورو»: فاحص، باحث، ممتحِن... إلخ. بحيرو: اسم مفعول، محقّق، مضبوط، محكَم؛ عالم، خبير، جهبذ، شهير (وهو لقب بحيرا الراهب في بصرا). وقد فهموها في الغرب تخميناً ـ كما فهموا «ديموقراطيا» ـ على أن الكلمتين إغريقيتان تعنيان سلطة المكتب، إذ فهموا «قراطيا» بمعنى سلطة و«بورو» (بعد أن سقطت الحاء من أصل الكلمة) قالوا ربما تعني مكتب، وهكذا صاروا يستخدمونها. لكن إحداث مثل هذه الآلية البسيطة لم يكن من شأنها إصلاح النفوس الفاسدة، بل أضافت «ضغثاً على إبّالة». فسلطة فاحص السجل قد تشجعه هو الآخر على ارتكاب الخطأ نفسه، وقبول الرشاوى أيضاً.

يروي لنا كيتو نقلاً عن المصادر الإغريقية القديمة «أن يوكسيتيوس كان قد أساء إلى سياسي عنيف عديم الذمة يدعى يوبوليديس، إذ كان قد شهد ضده في قضية خسرها يوبوليديس بأغلبية أصوات كبيرة. فكان انتقام يوبوليديس هو أن يدبر شطب يوكسيتيوس من السجل، لأنه إذا أمكن إثبات أنه قد تسلل إلى السجل بطريقة غير قانونية فإنه كان معرضاً لأن يباع بيع الرقيق وتصادر ممتلكاته. ويلوح بصورة غامضة أن طريقة يوبوليديس كانت مألوفة. فقد تصادف أنه كان عضواً في الـ «بولي»، وبهذه الصفة طلب اجتماع أهل الناحية لفحص السجل. وأضاع أكثر اليوم في إلقاء الخطب وصياغة القرارات بحيث أن التصويت الفعلي لم يبدأ إلا في وقت متأخر جداً. وكان الظلام قد حلّ قبل أن ينادى على المدعى عليه، وهو الذي

فاجأه الموضوع كله في الظاهر. وكان أكثر رجال الناحية قد ذهبوا إلى بيوتهم لأن أكثرهم كانوا يقيمون في ناحية تبعد عن المدينة بأربعة أميال. ولم يبقَ إلا الذين كان يوبوليديس قد أغراهم على البقاء بالرشوة. ورغم احتجاجات المدعى عليه فقد أصر يوبوليديس على أخذ الأصوات، ولم يكن الذين أعطوا أصواتهم أكثر من ثلاثين، ولكنه عند إحصاء الأصوات بلغت أكثر من ستين حتى أننا دهشنا جميعاً، ولا عجب في ذلك»[1].

لقد أوردنا هذا المثال لدلالته البالغة على أن ما صار يعرف بـ «ديموقراطية التصويت» ليس وسيلة للإصلاح في مجتمع تملكه الفساد. (وهذا ما سوف نتطرق إليه في موضع آخر من هذا البحث).

ذاك هو الأصل الحقيقي لكلمتي «دموقراطيا»، وتلك هي الشروط التاريخية الموضوعية التي ولدتها.

2 - «الديموقراطية» بين مفهوميها: الصحيح والأجوف:

يكثر الحديث في أيامنا هذه عن «الديموقراطية» حتى صارت كالكرة، تتقاذفها فيما بينها الدول، والأحزاب، والفئات الحاكمة، وقوى المعارضة، والمثقفون، والأفراد، وكل وسائل الإعلام، ولا سيما منها الفضائيات التلفزيونية العربية، دون أن تتمكن جهة واحدة إلى اليوم من تحديد فهم صحيح واضح للديموقراطية، بل أسهمت كل هذه الجهات، مجتمعة ومنفردة، في تشويش فهمها، وخلطها مع بعض المفاهيم الأخرى كالحرية والمساواة، دون أي تحديد للعلاقة مع كل منها، ومع بعض مظاهر ووسائل التعبير عنها، كالانتخاب، حتى صارت أية وسيلة تعبير، كالانتخابات مثلاً، هي الديموقراطية كلها، تتباهى بها الدول، والأحزاب، والحكام، وكل الجهات الأخرى، بصرف النظر عن مواصفات، وطبيعة تلك الانتخابات، وبغض النظر عن الشروط الداخلية والخارجية التي تحكم قوانين التطور التاريخي لهذا البلد أو ذاك في هذه المرحلة التاريخية أو تلك من الزمن.

(1) كينو، المرجع السابق، ص286 - 287

تحدثنا في بداية هذا الكتاب وقلنا إن الفعل الإنساني هو فعل عقلي. وكل فعل عقلي هو فعل واع أولاً وهادف ثانياً، أي أنه ينطلق من واقع راهن، الذي هو في حد ذاته محصلة تاريخية، من أجل البناء عليه والانطلاق إلى تغييره بما هو أفضل منه. ومن هنا كان كل فعل عقلي هو فعل استراتيجي بالضرورة ما دام يسعى إلى تحقيق هدف معين، وبالتالي فهو فعل تاريخي، لأن الفعل التاريخي هو ما ينطلق أيضاً من واقع تاريخي معين في الراهن ليمتد بآثاره على المقبل.

وتتحدد قيمة هذا الفعل بين الفعل التاريخي الحضاري والفعل التاريخي الهمجي بنبل الهدف أو بقبحه. فكل ما يخدم تقدم الحياة الإنسانية، وازدهارها، وسلامها، هو فعل حضاري نبيل، والعكس منه يفضي إلى النتيجة المعاكسة.

فالديموقراطية ليست مخلوقاً أبدعه الإله الخالق أو الطبيعة. إنها فعل إنساني، وبالتالي فهي فعل عقلي، استراتيجي، تاريخي، لا يمكن فصلها عن الواقع التاريخي الذي يعيشه هذا المجتمع أو ذاك، وعن الشروط المحددة لهذا الواقع، والتي، بالتالي، تفرض، أو تحدد، أو تشير إلى متطلبات تطوره أو تقدمه الذي هو بمثابة الهدف لأية صيغة يبدعها العقل ديموقراطية كانت أو غير ديموقراطية.

إن تطور المجتمع، أي مجتمع، محكوم بقوانين تطوره الداخلي، وبفعل القوانين العامة الناظمة لعملية التطور التاريخي الداخلي لكل مجتمع على حدة ولكل المجتمعات، مثل قانون جدل الجديد والقديم، والجدل بين التراكم الكمي والتحول النوعي، وجدل الخارج مع الداخل بكل حالاته، التي تتراوح بين منتهى قوة أحدهما وهيمنته، ومنتهى ضعفه وخضوعه، دون أن نسقط من الحساب مضمون تلك القوة الذي يتراوح، هو بدوره، ما بين القوة المشفوعة بالقيم الحضارية الرفيعة، والقوة المادية الصرفة الاستيلائية والاستلابية، التي تتساوى مرتبة مع الهمجية الصرفة.

فإذا افترضنا أن «الديموقراطية» في مفهومها المعاصر هي الصيغة التي أبدعها العقل الإنساني في مجتمع ما وفي مرحلة تاريخية معينة لتوفر أعلى نسبة من العدالة في مشاركة فئات هذا المجتمع أو ذاك في تحديد خطوط تطوره أو تقدمه، وفي العمل على تحقيقها، وفي

توزيع الخيرات المحققة، فإن هذا في حد ذاته سوف يفرض على العقل ابتكار الوسائل والأساليب والصيغ التي من شأنها توفير تلك النسبة من العدالة في المشاركة، والتي تختلف من مجتمع إلى آخر وفقاً لدرجة تطوره، من جهة، وللشروط التي تحكم تطوره الداخلية منها والخارجية من جهة أخرى.

ومن أبرز تلك الوسائل والأساليب الصيغ، التي من شأنها أن توفر أعلى نسبة من العدالة في المشاركة، والتي تتردد اليوم على كل شفة، الحرية، بشقيها: حرية التمثيل، وحربية التعبير، والتي كثيراً ما تستدرج إلى صفها مفهوماً آخر هو المساواة. والتي اعتادت جميعها اليوم أن تسكن في شقة واحدة اسمها «المجتمع المدني».

وما دامت «الديموقراطية» فعلاً تاريخياً، فإن صفة «التاريخية» تنسحب حتماً على كل الوسائل والمفاهيم الأخرى التابعة لها والمرتبطة بها ارتباطاً عضوياً لا ينفصم. ولما كانت الحركية، أو التطورية، في صلب كل ما هو تاريخي، فإن هذا يعني أن «الديموقراطية» وكل توابعها تتناقض مع الجمود. وهنا يبرز المفهوم الجديد الآخر بكل ثقله وتركيز طيفه، إنه الضرورة. ويطل هنا مع «الضرورة» على ساحة الفعل في الواقع التاريخي القانون الآخر، إلى جانب القوانين السابقة التي أشرنا إليها، وهو قانون «الضرورة والحريّة وجدلية الارتقاء».

الحرية والضرورة وجدلية الارتقاء:

بات ثابتاً اليوم أن المشرق العربي القديم هو مهد الإنسان العاقل الأول، ومهد تجمعاته الأولى. لقد تضافرت في إثبات ذلك كل علوم الانتروبولوجيا والعلوم المساعدة لعلم التاريخ بما فيها الجغرافيا، والمناخ، والآثار، واللغة، والمنطق، والوثائق المدونة... بالإضافة إلى توفر ظاهرة أخرى لا تقل أهمية عمّا أكدته العلوم مجتمعة، وهي ظاهرة الوجود المستمر في تواصله عبر الزمن دون أي انقطاع، والتي انفرد بها وجود الإنسان العاقل في المشرق العربي منذ بدايات وجوده إلى اليوم.

ولقد حملت اللغة العربية، التي هي لغة ذلك الإنسان، بلهجتيها السريانية والفصحى مضامين كل نقلة تطورية عاشها من مرحلة تاريخية إلى أخرى.

إن كلمات مثل: بيت، ومدينة، وقرية، وحاضرة، وبلدة، تعني جميعاً شيئاً واحداً، وتحمل مضموناً واحداً هو الانتقال من مرحلة الانفلات المكاني والغرائزي إلى حالة من الالتزام فرضته الضرورة من أجل تحقيق هدف أسمى في مسيرة التطور المجتمعي للبشر.

إنه الانتقال من الحياة العفوية إلى العقلية، أي الحياة التي يتجسد فيها مضمون الإنسان بكونه عاقلاً، من التلقي والاستجابة إلى التلقي والفعل، من السلبية إلى الإيجابية، من القناعة بما هو موجود، إلى خلق موجودات جديدة، وفي ذلك كله ينبثق شكل جديد من أشكال العلاقة الجدلية بين الحرية والضرورة والهدف. إن الحرية تغير شكلها في كل مرحلة جديدة. فهي تضيق في جانب إلى حدود الأسْر، وتتسع في جانب آخر في دائرة الاختيار المرتبط بالهدف.

فإن كان الحفاظ على بقاء النوع أحد الأهداف الأساسية في كل المراحل فإن شكل الحرية ومضمونها يتغيران تبعاً لما تفرضه الضرورة في علاقتها الجدلية بالهدف. إن الإنسان العاقل في مراحله البدائية الأولى كان عليه من أجل فرض وجوده وضمان بقاء نوعه أن يشجع على التكاثر دونما قيود أو حدود، وهذا ما كفلته عقيدة الخصب العشتارية الأولى، وجعلت منه ضرورة. ولقد كان لهذا انعكاسه على الحرية التي كثيراً ما كانت تتماهى مع الرغبة والغريزة. ثم ما أن تحقق التكاثر، وصارت الكثرة واقعاً موضوعياً، حتى برز على الساحة واقع جديد تمثل في نقص القوت الذي كانت توفره الطبيعة تلقائياً دون كدح، مما عرّض هدف بقاء النوع إلى الخطر، مّما ولد، بدوره، ضرورة جديدة، هي ضرورة إنتاج القوت وتكثيره وتخزينه، فابتكرت الزراعة وفن تدجين الحبوب والحيوان. إن هذا، بدوره، كان لا بدّ من أن ينعكس على الحرية في الشكل والمضمون معاً. فبالنسبة للمكان، وفي مقابل ما كان يتمتع به الإنسان من التنقل بحرية إلى حيث يتوفر له التقاط قوته صار الالتزام بحيّز ما من الأرض ضرورة.

وبالنسبة للمضمون، حيث كانت الحرية تتماهى مع الرغبة والغريزة مما يجعل الرجل، في مجال الحرية الجنسية مثلاً، ينتقل من امرأة إلى أخرى، والمرأة من رجل إلى آخر دونما قيود، صار الالتزام بالشريك في المكان، وخلق أسرة متضامنة في الجهد ومتقاسمة في الثمار والنتائج ضرورة جديدة أيضاً فرضت شكلاً جديداً من الحرية يتناسب معها في علاقتها الجدلية مع تحقيق الهدف الذي ما زال ضمان بقاء النوع. وهكذا نلاحظ على الفور كيف أن دائرة الحرية ضاقت في مجالها الغرائزي لتتسع في مجالها الإبداعي العقلي لترقى إلى درجة أعلى في التطور.

إن عشتار، الأم السورية الكبرى، التي كانت تشجع على التكاثر العشوائي في المرحلة الأولى تحولت إلى «عشيرة» أي الزوجة، القرينة الملازمة والمعاشرة والصاحبة، وإلى «حنات» وبالإبدال «أنات وعنات» وتعني الزوجة الحنون، وحنّة الرجل زوجته، وإلى «رهيا» وتعني بالسريانية: المفكرة، المدبّرة، المشتغلة، المهتمة، المعتنية، الراعية، الحارسة. وإن كلمة «الأسرة» ليست إلا إحدى صيغ «العشرة» و«الأسْر». وإن «البيت» مشتق من الفعل بات بمعنى تزوج، وبات فلاناً زوّجه، لازم ومتعد. والبيت اسم لكل سقف، وهو الشرف أيضاً، وهو العائلة والأسرة والأولاد والعشيرة.

وإن كلمة «العقل» تفيد معنى الربط والإمساك، لكنها تعني أيضاً: الفهم والتدبير والارتقاء. وعقل الوعل عقلاً وعقولاً صعد وامتنع في الجبل. أما المدينة، والقرية، والحاضرة، والبلدة فهي جميعاً تعني الانتقال من حياة التنقل إلى الاستقرار. إن كلمة «مدينة»، على سبيل المثال، هي من الفعل »مدن«، ومدن بالمكان أقام، وتمدن الرجل انتقل من حالة الخشونة والجهل إلى حالة الأنس والمعرفة، وبلد بالمكان أقام به ولزمه. والبلدة هي كل مكان اتخذ قراراً وجمع الناس.

إن المشترك في كل هذه المفردات هو التضييق في دائرة الحرية الغرائزية الأولى وتفعيل حرية العقل الخَلْقية الإبداعية. إنها حرية أرقى فرضتها الضرورة الجديدة. وليس هذا فحسب. إن مصلحة الجماعة الجديدة أو الهيئة الاجتماعية الجديدة سواء أكانت مصلحة

اقتصادية متعلقة بضمان عيشها، أو دفاعية متعلقة بضمان حمايتها، جعلت حرية الفرد مرتبطة عضوياً بمصلحة وحرية الجماعة ككل. وإن مضمون إبداع الفرد المادي والفكري صار هنا ذا مضمون اجتماعي لأن الحاجة إليه اجتماعية. وهكذا فقد تحوّل العمل بشقيه الإبداعي الفكري والعضلي الفيزيائي إلى شكله الاجتماعي مما كان له انعكاسه على الحرية. لم تعد حرية الفرد موجودة إلا في نطاق وجودها المرتبط بحرية المجموع التي تنظمها مجموعة من الضوابط الضامنة لمصلحة وجوده وتطوره في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية وحتى العسكرية.

هكذا كانت ولادة «المجتمع المدني» لأول مرة في التاريخ.

وطبيعي أن استقرار الجماعات الكبيرة لفترة طويلة من الزمن أنتج تنوعاً كبيراً في الإنتاج ووفرة كبيرة في السلع المنتَجة من جانب، وإلى تراكم الثروات لدى أفراد وفئات دون أخرى من جانب آخر. إن هذا بدوره أدى إلى نشوء الطبقات في المجتمع، وبالتالي إلى نشوء الدولة التي جاءت تعبيراً عن مصالح الفئات المالكة للثروات ولوسائل الإنتاج لتتولى قيادة المجتمع ككل. إن هذا خلق ضرورة جديدة تمثلت في إنتاج مؤسسات يكون من شأنها أن تضبط العلاقات بين طرفي الإنتاج من جانب، كما بين الفرد والجماعة، وبين المواطن والدولة من جانب آخر. وكانت المؤسسة الحقوقية التشريعية في مركز تلك المؤسسات من حيث الأهمية وكانت تلك هي المرحلة الثانية في تطور «المجتمع المدني»، مرحلة الدولة التي أفرزت مؤسساتها. وقد أنجزت على أرض سوريا لأول مرة في التاريخ.

وينبغي هنا ألا تغيب عن البال حقيقة تواجد وتعايش عدة أنماط من العيش أو مراحل من التطور في المجتمع الواحد والزمن الواحد، لكن هذا لا يعني أيضاً أن واحداً منها لا يمسك بزمام التطور. إن وجود الدولة زمن سرجون أو حمورابي بكل مؤسساتها لم يكن يعني عدم وجود مجتمع الأسرة والعشيرة والقبيلة البدوية بمفهومها المؤسساتي في بعض أكناف الدولة ذاتها.

إن نمط العيش البدوي القبائلي كان موجوداً، وما زال، وسيبقى ربما إلى أمدية غير منظورة. وهو يفرز مؤسساته العشائرية مثل الـ «بولي» أو مجلس الأمراء، أو مجلس الشيوخ، كما يكرّس أعرافاً وعادات وتقاليد بمثابة قوانين يخضع لها جميع أفراد القبيلة في الوقت الذي تكون فيه مؤسسات الدولة الكبرى قد بلغت درجة عالية من التطور في بنائها المؤسساتي الذي تنظمه وتضبط إيقاعه منظومة التشريعات الحقوقية والقانونية. إن الدولة القومية كمؤسسة هي الأرقى في سلّم التطور، وبالتالي إن ضرورتها هي أعلى وأخطر من الضرورات الأخرى المرتبطة بالعشيرة أو القبيلة أو الطائفة الدينية أو المذهب. وإن هذه المؤسسات مفردة أو مجتمعة كثيراً ما يضحّى بها إذا ما تناقضت مع مؤسسة الدولة في مرحلتها القومية. وإن كل الحريات التي تتخذ من المؤسسات الدنيا سقوفاً لها بما يتناقض مع هيمنة المؤسسة العليا التي هي الدولة القومية، وربما بما يهدّد وحدتها ويعيق تقدمها، تكون من وجهة نظر التطور التاريخي معادية للتقدم، وبالتالي ذات مضمون رجعي. إن الحرية إذا ما تجردت من مضمونها النسبي تصبح بلا مضمون. وهي إذا ما لبست صفة الإطلاق سرعان ما تسحب هذه الصفة على المؤسسات الدنيا المرتبطة بها أيضاً لتجعل منها مؤسسات مقدسة، خالدة، عصية على التغيير أو التطوير.

ولما كانت الدولة القومية أعلى مرتبة في سلّم التطور التاريخي من دولة القبيلة أو القبائل، أو الطائفة أو الطوائف، فإن المهمات والأهداف المنوط بها تحقيقها هي أعلى وأهم وأرقى من كل الأهداف الأخرى التي يمكن أن تضطلع بها دولة القبائل أو الطوائف سواء أكانت أهدافاً دفاعية أم تحريرية أم تطويرية نهضوية. لهذا فكما أنه لا يمكن النظر إلى الحرية في معزل عن علاقتها الجدلية بالضرورة وبالهدف فإن أية نظرة تقييمية لدور المؤسسات الما قبل الدولة القومية حين وجودها، أو مشروع الدولة القومية المزمع إيجادها، لا يمكن أن تتم إلا من خلال تقييم دورها في دفع المشروع القومي أو في إعاقته. إن الأسرة، والعشيرة، والقبيلة، والدين، والطائفة، والمذهب هي منتوجات تاريخية، ولها وجودها الموضوعي في حياة الشعوب، وبالتالي فهي لا تلغى بقرار مؤسساتي، وليس مطلوباً إلغاؤها من وجهة نظر المنطق التاريخي نفسه. إن كل ما هو مطلوب هو إلغاء دورها التعويقي المناقض لدور الدولة القومية الذي هو أرقى

وأسمى في درجات التطور. إن المطلوب إزالة سقوفها الدنيا التي يمكن أن تحجز النظرة التطورية، وتحول دون انفتاحها على السقوف العليا والتماهي معها دونما تناقض. إنها، مرة أخرى، الظاهرة التي تنعكس فيها العلاقات الجدلية ما بين الحرية والضرورة والهدف. إن الدولة القومية منذ أول وجودها في التاريخ إلى اليوم تقوم على توحيد كل فئات الشعب، وبالتالي فهي عدو لكل نزعة تجزيئية. إن هذا، لا شك، من شأنه أن ينعكس على الحرية. فالحرية الداعية إلى التجزئة وإلى الانقسام تتناقض مع حرية الدولة القومية في الاضطلاع بدورها النهضوي الشامل أو التحريري الشامل. إن الدولة القومية تكفل حرية ممارسة العبادات والطقوس لكل الديانات والطوائف والمذاهب على سبيل المثال، لكنها لا تتردد لحظة في القضاء على أية نزعة تجزيئية تحت أية يافطة للحرية كانت.

3. «الديموقراطية» وجدلية التطور الداخلي:
جدل القديم والجديد، جدل الأكثرية والأقلية:

من المعروف والثابت أن الجماهير، في معظمها، ترتبط بما تألفه وتعتاد عليه، وتتشبث به، وتتهيب كل جديد وكثيراً ما تناصبه العداء. وإن القلة القليلة من المبدعين في كل مجتمع هم وحدهم الذين يرودون دروب التطور أمام مجتمعاتهم بشغف وحماسة. وإن قانون التطور يعلمنا أن كل جديد متقدم ينبثق من رحم القديم، وأن كل مولود يبدأ صغيراً ثم يكبر وتتسع دائرته. وفي مرحلة انبثاق الجديد لو يترك أمر الحسم في الجدل للانتخاب أو للأكثرية لما حصل تقدم أصلاً. لهذا كثيراً ما كان يتخذ الجدل بين القديم والجديد طابع الصراع بحيث ينفي أحدهما الآخر نفياً كلياً مرة، أو نفيه كدور في عملية التطور مرة أخرى. إن سقراط كان لا شك ممثلاً للجديد المتقدم، لكن «المحكمة الشعبية المؤلفة من حوالي خمسمائة من المواطنين الذين لم ينل معظمهم أي حظّ من التعليم»[1] أدانته وحكمت عليه بالموت. وإن السيد المسيح كان ممثلاً للجديد المتقدم، لكن بيلاطوس حينما استفتى جماهير اليهود أصرّوا أن يحكموا عليه بالصلب. لكن القديم لم يكن في كل الأحوال هو المنتصر.

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 7، ص367.

ولإيضاح هذا وإبرازه تاريخياً سوف نتوقف هنا عند مثالين من تاريخنا القديم: مرحلة الدولة القومية زمن حمورابي، والثانية في فجر الإسلام.

ما كاد ينفرط عقد الدولة القومية الواحدة التي أسسها سرجون بعد تدمير العاصمة «أكادا» على أيدي الهمج حتى هب حمورابي من الغرب السوري شرقاً إلى مركز الأحداث لإعادة وحدة الدولة من جديد. ولم يكد حمورابي يفرغ من توحيد كافة أجزاء الوطن، ومن طرد الغزاة من قبائل همج الشمال بعيداً خلف أوديتها العميقة حتى عكف على تثبيت أركان دولته من الداخل، مستفيداً من كل التجارب السابقة التي مر بها أسلافه من ملوك الدولة المركزية الكبرى.

فعلى الصعيد الديني تنبّه حمورابي إلى الخطأ الذي وقع فيه سلفه سرجون مؤسس الدولة المركزية الأولى حينما أبقى على سلطة ونفوذ المؤسسة الدينية في نيبور بكامل سطوتها المؤسساتية وتحالفاتها مع إمارات المدن الإقطاعية ذات النزعات الانفصالية. لقد تعاظم دور كهنة الرب إنليل في نيبور حتى كاد يطغى على دور الملك المركزي، وتركزت الشرعية في أيدي كهنة إنليل يمنحونها لمن شاؤوا من أمراء منطقة سومر، ويلوّحون بها في وجه الملك، مما قوّى النزعات الانفصالية وعزّز دور الكهنة السياسي والاقتصادي معاً.

وبالرغم من أن جيوش الملك المركزي كان يمكنها أن تخضع كل تمرد بالقوة، فقد كان على كل ملك أن يحصل على بركة كهنة إنليل كي يكتسب شرعيته. وهكذا تحولت «نيبور» إلى مدينة مقدسة، وصارت إرادة كبير الكهنة مقدسة، دون أن تخرج المؤسسة الدينية من دائرة أطماعها الضيقة، لترقى إلى مرتبة الالتحاق بمهام ومتطلبات الواقع الجديد.

إن سقف تلك المؤسسة الدينية في «نيبور» كان يقف عند المصالح الفئوية الأنانية الضيقة. وكانت ترى في الدولة المركزية الكبرى التي تحمل مشروعاً وحدوياً، اقتصادياً ثقافياً نهضوياً كبيراً، تهديداً لهذه المصالح. ولم يكن أمامها سوى أحد طريقين: إما الانخراط في المشروع الجديد الكبير، وإما التصدي له بكل الوسائل حتى لو اضطرها ذلك إلى التحالف مع الأعداء الخارجيين المتربصين بالدولة. وهذا ما حدث.

وهذا ما سوف يكلف الملك نارام سين قبل حمورابي تلك الجهود الحربية الكبيرة لحماية وحدة الدولة من أعدائها الخارجيين والداخليين، وجعله يقرر تدمير نيبور بما فيها الإيقور معبد إنليل. ثم لما اجتاح الغوتيون الهمج «أكادا» وأعملوا فيها الحرق والتدمير وجدت الرجعية الدينية في ذلك فرصة لاستعادة نفوذها القديم، وأظهرت شماتة بالدولة وبالعاصمة والشعب، وصار كهنة إنليل يوزعون البركات والألقاب على ملوك المدن الانفصالية وخاصة في منطقة سومر.

أمام هذا كله لم يتردد الملك حمورابي في ضم تلك الإمارات الانفصالية إلى جسم الدولة بالقوة، وألغى نيبور نهائياً كمركز ديني مقدس، وألغى معها وجود إنليل كله، وجعل من «مردوك» (مار + دوق = الرب الرئيس الحارس) سيداً للجميع، وأصبحت بابل عاصمة الدولة الجديدة قبلة الناس جميعاً.

أما الإنجاز التاريخي العظيم للملك حمورابي فقد تجسد في الشريعة الحقوقية والقانونية الخالدة التي أبدعها وقدمها لشعبه وللبشرية لتكون بمثابة المؤسسة الحقوقية المدنيّة الأولى في التاريخ، والتي عممّت على كل أصقاع الدولة لتكون الناظم الوحيد لعمل الأفراد والمؤسسات بعيداً عن أي نفوذ آخر، فكرّس بذلك وحدة الأرض والشعب في ظل منظومة حقوقية وقانونية لا تزال مثار إعجاب العالم إلى اليوم.

وهكذا يقدم لنا التاريخ العربي القديم مثالاً رائعاً على الجدلية القائمة بين الحرية والضرورة والهدف الذي تفرضه ضرورات التطور، وعلى جدلية القديم والجديد. إن حرية كهنة «نيبور» المقدسة كان يمكن أن تثير شهية لجان الدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان ولجان «المجتمع المدني» الأمريكية المعاصرة ما دامت تتناقض مع مشروع الدولة القومي التحرري والنهضوي الكبير وتهدد وجود الدولة ذاتها بالاندثار.

أما المثال الثاني فهو ما دعي بـ «حرب الردة» في فجر الإسلام.

من المعروف أنه بعد وفاة الرسول (ص) ومبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة امتنعت معظم قبائل شبه جزيرة العرب عن دفع أموال الزكاة للخليفة الجديد. إن هذا في حد ذاته لم يكن رجوعاً عن الإسلام. لكن الخليفة أبا بكر، وكل صحابة الرسول من حوله، أدركوا فوراً أن الأمر أبعد غوراً مما قد يبدو لأول وهلة. فالإسلام لم يأتِ تصحيحاً لعقيدة التوحيد فحسب، بل جاء يحمل إلى العرب بصورة خاصة مشروعاً توحيدياً تحريرياً نهضوياً أيضاً. إن الامتناع عن دفع الزكاة لمْ يكن كفراً بالدين الجديد، وإنما، وهنا تكمن الخطورة، كان يعني تقويضاً لأسس المشروع الجديد منذ بدايته، هذا المشروع الذي لن يتردد حملة لوائه من السير به حتى نجاحه. وهذا ما حدث فعلاً. لقد أرسلت الجيوش لمحاربة القبائل الممتنعة، والتي كانت من الكثرة بحيث كادت تغطّي معظم رقعة شبه جزيرة العرب، ومن اليمن جنوباً إلى جوار مكة شمالاً. إن إخضاع القبائل للمشروع الجديد هو الذي فتح الطريق أمام تحقيق الأهداف الكبرى المنوطة به والمعوّلة عليه، وفي مقدمتها تحرير الوطن العربي القديم وتوحيده والتأسيس لنهضة حضارية عربية جديدة استمرت قروناً عدة، كانت وما تزال مثار دهشة وإعجاب العالم كله.

إن نظرة ساذجة جامدة لمفهوم كل من «الحرية» و«الديموقراطية» في معزل عن المرحلة التاريخية ومتطلبات التطور يجعل أصحابها يبررون سلوك القبائل في الامتناع عن دفع أموال الزكاة. وإن توجيه الخليفة أبي بكر للجيوش ضدها كان يمكن أن يعتبر عند أصحاب هذه النظرة استبداداً وقمعاً للحرية.

إن الحرية، مثلها مثل أي مفهوم آخر، يمكن أن تكتسب مضموناً إمّا تقدمياً وإمّا رجعياً. إن أية نظرة إلى الحرية في معزل عن الضرورة التي يفرضها التطور إلى درجة أرقى يفقدها أي مضمون تقدمي، ويجعلها تتطابق مع دائرة الغريزة. إن حرية من هذا النوع كانت وتبقى ذات طابع هدام، معيق، ومناقض لطبيعة الحياة الإنسانية ذاتها. فالحياة الإنسانية تأبى إلا أن تكون حركة تصاعدية تقدمية. إن حرية القبائل في شبه جزيرة العرب كما أرادتها هي كان يمكن أن تودي بها هي نفسها إلى جانب المشروع النهضوي الجديد في ظرف العدو المتربص من كل جانب. إن دولة حمورابي بكل مؤسساتها هي الأرقى في مضمار التطور بكل المعايير من دويلات المدن والكيانات الانعزالية. وكذا الأمر بالنسبة للدولة العربية الإسلامية مقارنة بواقع القبائل في شبه جزيرة العرب.

إن تاريخ الشعوب هو تاريخ نضالها من أجل انتصار قضاياها العادلة في طريق تطورها الصاعد. وإن مفهوم الحرية لا يمكن أن يعيش في معزل عن قضايا الشعوب. وهذا ما أضاف إليها مضموناً آخر هو الالتزام.

مما تقدم نخلص إلى:

أن الديموقراطية ككلمة لا تعني سلطة الشعب كما هو سائد ومتداول. فالكلمة سريانية كان أول من استخدمها القبائل السورية (أو العربية) الإغريقية (أي الفارة) إلى بلاد المورة ليعنوا بها الأشخاص المسجّلين.

وأن الديموقراطية بمفهومها المتداول اليوم ليست صيغة جاهزة مطلقة، وإنما هي صيغة عقلية تهدف، من خلال تأسيس ما لآلية ما، إلى تحقيق هدف ما، يختلف من مجتمع إلى آخر، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى.

إن الديموقراطية ليست صيغة إيجابية في كل الأحوال والظروف. فهي قد تكون ذات مضمون إيجابي تقدمي إذا ما ارتبطت بحركة التطور التاريخي من الأدنى إلى الأعلى، كما قد تكون ذات مضمون محافظ أو رجعي إذا ما تشبثت بالواقع القائم، وبالصيغ والأطر الاجتماعية الدنيا كالعشيرة أو القبيلة أو الطائفة، أو بالجزء من الكل في الأمة، أو حينما تقف عثرة في طريق الجديد الأرقى.

4. الديموقراطية ومفهوم الشرعية:

اعتاد الناس جميعاً على قرن الديموقراطية بالشرعية القائمة على التمثيل الصحيح لفئات الناس الاجتماعية. فمنذ أن تشكلت القبيلة المؤلفة من عدة عشائر أو بطون، ثم حين تشكلت «الأخويات» أو الأحلاف المكونة من عدة قبائل انبثقت الحاجة الموضوعية إلى أن تمثّل جميعاً في مجلس يضم أمراء أو شيوخاً يمثلونها ودعي مجلس الندوة، أو مجلس الأمراء، أو مجلس الشيوخ. وهذا ما كانت تمارسه القبيلة العربية في الوطن وفي المهجر (في بلاد المورة). ثم ما أن حدث الانقلاب الزراعي، والحرفي، والصناعي حتى انقسم المجتمع إلى طبقات.

فإذا كان مجتمع المدينة ـ العشيرة أو القبيلة ـ صغيراً ضيقاً يمكن أن يجتمع في ساحة ليستمع إلى طرح مسألة ما ويشارك في مناقشتها وإبداء الرأي فيها كما كان الأمر مع أثينا زمن سقراط[1]، فإن مثل هذا التجمع لم يكن بحاجة إلى اختيار ممثليه. لكن اتساع رقعة المدن والمجتمع أفقياً وعمودياً (مجسداً في نشوء الطبقات) فقد خلف ذلك ضرورة جديدة هي الحاجة إلى انتخاب ممثلين لكل فئاته أو طبقاته يفترض أن تعبر عن همومه ومطامحه.

وهكذا نشأت الأحزاب، كما نشأ ما دعي بـ «التصويت» و«الانتخاب». وصارت «الشرعية» مرتبطة بالتمثيل الصحيح القائم على انتخابات صحيحة، أي معبّرة عن أوسع شريحة من الجماهير. وهكذا فقد ارتبطت «الشرعية» بالانتخابات حتى تطابقتا، ثم ما لبث هذا التطابق أن انسحب على الديموقراطية نفسها، فصارت الديموقراطية هي الشرعية أو هي الانتخابات، بصرف النظر عن الشروط والظروف التاريخية التي يمرّ بها هذا المجتمع أو ذاك، وبصرف النظر عن المهمات الملحّة التي تفرضها عليه قوانين التطور من الأدنى إلى الأعلى. وهكذا فقد صارت الشرعية أيضاً معرضة للسقوط في الشكلية مما أفقد الديموقراطية مضمونها التطوري الصحيح. فنحن نرى اليوم كيف أن دولة ما، أو مملكة ما، أو كياناً مصطنعاً ما لم يتجاوز سقف القبيلة في بنيته وعلاقاته الداخلية، ما أن تُجرى فيه انتخابات قائمة أصلاً حتى على العلاقات العشائرية حتى يُصنّف نفسه «دولة ديموقراطية».

وينطبق هذا على الكيانات المؤسسة أصلاً على دوائر الطائفية والمذاهب، والتي كثيراً ما يكثر فيها الحديث حول الديموقراطية والحرية لا لشيء إلا لتحمي قواقعها الطائفية التي لا تسمح «ديموقراطيتها» بتجاوز سقوفها إلى سقف الأمة الأعلى. بل حدث أن مثل هذه «الحرية» وهذه «الديموقراطية» لم تتردد في أن تصادر حرية وديموقراطية الأجيال المقبلة من شعبها حين تصرّ على أن تضمّن دستورها مادة أساسية يجعل هذا الكيان «وطناً نهائياً لجميع أبنائه». وفي المقابل نرى دولة بلغت ذروة التطور الرأسمالي والصناعي وبالتالي الطبقي. وإن التمثيل لشعبها كله، ولطبقاته كلها يتناوبه حزبان يتميزان بالاسم فقط، ويعبران عن مصالح الاحتكارات الرأسمالية والصناعية الضخمة التي تموّل انتخابات

(1) إيمار، المرجع السابق، ص359.

ممثلي كل منهما، وتدفع بهم إلى سدة صنع القرار. وإن كلاً من الحزبين لا يتردد لحظة في دفع جيش الدولة إلى أية منطقة من العالم من أجل حماية نهب ثروات هذا الشعب أو ذاك لصالح تلك الاحتكارات. إن مجرد إجراء تلك الانتخابات بتمويل من تلك الشركات يلغي عن تلك الدولة صفة الديموقراطية. وهكذا فإن الديموقراطية في كلتا الحالتين مجردة من مضمونها الذي تشكل العدالة الجزء الأهم منه. حيث أن شكلية الانتخابات صارت هي الشرعية، وهي الديموقراطية، ثم وهي العدالة...

وحينما اختزلت هذه المفاهيم والصيغ جميعاً (العدالة، والضرورة، والديموقراطية، والحرية، والشرعية) بعملية شكلية واحدة خالية من أي مضمون هي عملية الانتخابات، فقد فقدت جميعها، وكل منها على حدة، مضمونها، وتحولت إلى قشرة فارغة.

ولنضرب على ذلك مثالاً في الشرعية: إن مجموعة، أو عصبة من اللصوص، إذا ما قررت أن تسطو على قرية أو مزرعة، فتذبح رجالها، وتستبيح نساءها، وتستولي على ممتلكاتها، ثم تقرر أن تولّي عليها زعيماً بالانتخاب، ويشرف على اقتسام ما اغتصبته بالتساوي على جميع أفراد العصابة متوخياً العدل فيما بينهم، إن هذا قد يسمّى، عند أهل العرف السائد اليوم حول الديموقراطية، عدالة، وشرعية، وحرية، وديموقراطية، ومساواة، متناسين القاعدة الشرعية التي هي في أساس كل شرع «إن ما يُبنى على باطل فهو باطل». وهذا بالضبط ما ينطبق على «ديموقراطية» الكيان الصهيوني الذي لا يتردد اليوم بعض المثقفين العرب في وصفه بـ«الديموقراطي» لمجرد أنه يجري انتخابات لممثليه في الأحزاب أو البرلمان (الكنيست).

تاريخ «التصويت» و«الانتخاب»:

إن العالم في الغرب لم يعرف هاتين الكلمتين إلا من خلال تلك العشائر العربية الإغريقية (الفارّة) إلى شبه جزيرة المورة.

ينقل لنا كيتو ظاهرة «التصويت» في المدن الإغريقية دون أن يميز بين كلمتي التصويت والانتخاب فيقول:

«كان هناك مجلس للأعيان كما كان هناك مجلس للإسبارطيين جميعاً، ولكنه لم يكن يستطيع المناقشة. فكان يعبّر عن قراراته لا بالتصويت بل بالصياح. وهو ما كان يبعث على تسلية غيرهم من الإغريق. وكان الذي يكتب له الفوز هو من يفوز بأعلى صياح»[1].

«ويحدّد فلوطارخ عدد أعضاء المجلس بثمانية وعشرين عضواً، ويروي عن طريقة انتخابهم رواية لا يصدقها العقل فيقول إنه إذا خلا مكان في المجلس كان يطلب إلى من يتقدمون لملئه أن يمرّوا صامتين واحداً بعد واحد أمام الجمعية، فمن حيّته منهم بأعلى الأصوات وأطولها أعلن انتخابه... ولسنا نعرف أي المواطنين كانوا هم الصالحين لهذا الانتخاب. وأكبر الظن أن الذين يصلحون هم «الهمويْوي» الذين يمتلكون أرض ليكونيا... وجاؤوا بنصيبهم من الطعام إلى المائدة العامة»[2].

أما كلمة الـ «همويوي» فهي جمع «همويو» وتعني في السريانية: المتساهل، المتسامح، المتغافل، الذي يأذن ويسمح ويصفح ويتغافل. وهي من الفعل »أهمي« ويعني في القاموس السرياني: أذن، سمح، تهاون، تسامح، تغافل.

أما كلمة «تصويت» نفسها، أو «أعلى صياح» فهي ترجمة للكلمة السريانية «قول» و«قولو» kolo أو golo وتعني في القاموس السرياني: صوت، ضجيج، غوغاء، صياح، قول، كلام، رأي، انتخاب، لحن، ترتيلة. برت قولو: قول، كلمة، صوت، رأي، انتخاب، هتاف، صياح. وقد أضيفت إلى نهايتها السين الاعتباطية كالعادة وصارت golos بمعنى: صوت، انتخاب، تصويت. وهي التي ذهبت من المورة إلى السلافية فالروسية الحديثة كما هي قولوس golos بمعنى صوت، وصاغوا منها الفعل golosovat بمعنى صوّت، انتخب. أما صيغة لفظها الأخرى kol فهي التي استخدمت في إيطاليا، ومنها انتقلت إلى اللغات الأوروبية الحديثة بصيغة cole، وcall بمعنى: هتاف، نداء، صوت... إلخ. وإن كلمة «تصويت» ما تزال هي المستعملة في الريف السوري إلى اليوم.

(1) كيتو، المرجع السابق، ص181

(2) ديورانت، المرجع السابق، الجزء السادس، ص151

أما كلمة «انتخاب» فقد جاءت من الفعل السرياني «إلقطْ» elekt ويعني في القاموس السرياني: انتخب، اختار، التقط، جمع، جنى، قطف. وهي الكلمة التي عايشت الإنسان العاقل الأول منذ أول وجوده في مهده (المشرق العربي)، حين كان يسرح بين أشجار الغابات، وينتخب من ثمارها الأصلح لغذائه دونما كدح، وهي مرحلة ما دعي بـ «التقاط القوت» أو «جمع القوت» قبل الاهتداء إلى الزراعة وتدجين النبات والحيوان. وقد ذهبت الكلمة كما هي إلى اللغات الأوروبية لتصبح elect ينتخب، وelection انتخاب.

الديموقراطية في ضوء قانون «جدل الخارج مع الداخل»:

تختلف حالات فعل هذا القانون باختلاف شكل العلاقة بين الداخل والخارج التي تتراوح ما بين منتهى الضعف في أحدهما والقوة في الآخر، مروراً بحالة من التقارب أو التوازن. فيكون شكل العلاقة مرتبطاً بمضمون تلك القوة التي تتراوح ما بين قمة الحضارة وحضيض الهمجية. فتكون في الجانب الأقوى إما إخضاعاً وقهراً واستلاباً، إن كان مضمون القوة همجياً، أو تأثيراً، وتعليماً، وعطاء في حال كون مضمون القوة حضارياً. وفي حالة التقارب أو التوازن تتراوح ما بين التربص واغتنام الفرص، أو تبادل العطاء الثقافي والحضاري بين الجانبين. وبكلمة أخرى: إما أن يكون شكل العلاقة عدائياً وعدوانياً، أو ودياً وتبادل مصالح. وفي حالة العلاقة العدائية بين الداخل والخارج لن يوفر العدو فرصة لإضعاف خصمه أو للحؤول دون بناء قوته أو استكمال بنائها. ولما كانت وحدة أجزاء الأمة أو الدولة، على سبيل المثال، أحد المظاهر الرئيسية لهذه القوة فإن العدو سوف يبذل كل جهده للحؤول دون تحقيق مثل هذه الوحدة إن كانت ما تزال مشروعاً، ومن أجل تفكيكها إن كانت قائمة. و«الديموقراطية» في حالة الضعف من شأنها أن تترك كل الأبواب مشرعة أمام تدخل الأقوى وإرباك داخل الضعيف.

ففي ضوء قانون جدل الخارج مع الداخل يعجّ التاريخ البشري بالأمثلة التي تكشف بكل وضوح كيف أن الخارج إذا ما وجد الفرصة لا يتردد في تمزيق وشرذمة الداخل وتجريده من كل أسباب قوته من أجل سلب إرادته ونهب ثرواته واستعباده إذا أمكن، وتكريس حالة ضعفه وتفككه إلى أطول مدى زمني ممكن. وهذه هي حال الوطن العربي منذ عدة قرون إلى اليوم. فخلال هذه القرون عمل الخارج الاستعماري على سد كل الطرق أمام الأمة العربية إلى الوحدة، وكبح كل التطلعات، وإجهاض كل الخطوات الجادة نحوها بدءاً من الثورة العربية الكبرى إلى هذا اليوم، ثم عمد إلى تفتيت الوطن العربي إلى كيانات هزيلة شائهة مصطنعة يعجز أي منها بمفرده عن إقامة أية نهضة صناعية أو اقتصادية، وبالتالي عن بناء أية قوة عسكرية قادرة دونما الاستعانة بالخارج، مّما حوّل معظم هذه الكيانات وكلاً منها على حدة إلى محميات حقيقية، لأنها في حقيقة الأمر والواقع، مسلوبة الإرادة والقرار، وتجسيد للعجز الفعلي أمام كل التحديات التي يفرضها العصر: من تحدّي الدفاع عن النفس إلى تحدّي التنمية الصناعية واللحاق بركب الأمم المتقدمة. وإن إجراء تلك الانتخابات البرلمانية في بعضها سواء أكان النظام فيها قائماً على أساس القبائل أو الطوائف لا يُكسب صورتها ملامح ديموقراطية، لأن الديموقراطية، وكما سبق أن بينّا، لا تنفصل عن الضرورة وعن المصالح العليا للأمة. وبالتالي يبقى المسخ مسخاً أياً كان ثوبه. وفي حقيقة الأمر فكما أن مثل هذا الواقع ينفي صفة «الديموقراطي» عن الطرف المسلوب فإنه وفي آنٍ معاً ينفي هذه الصفة عن الطرف السالب أياً كانت تسميات أحزابه وبرلماناته وانتخاباته. إن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لا يمكن أن تكونا دولتين ديموقراطيتين رغم كل ادعاءاتهما في هذا المجال. إن الدوائر الحاكمة فيهما ليست إلا نماذج عملاقة من عصابات النهب والابتزاز لخيرات ومقدرات الشعوب الأخرى. وهي نفسها التي تدير عمليات الانتخابات في الداخل وتحدّد النتائج. كما أنها هي نفسها التي تدعّم كياناً ظالماً مغتصباً مثل الكيان الصهيوني وتحقنه بكل أسباب القوة وتدافع عنه وتحميه في كل موقع ومحفل، وتتفرج في الوقت نفسه على تشريد شعب وإبادته واغتصاب أرضه وممتلكاته وكل أسباب حياته ووجوده دون أن يحرّك ذلك

لسانها «الديموقراطي» أو حسّها الإنساني. وإن مثال السيدة البريطانية جيني تانغ عضو البرلمان الإنكليزي والعضو في حزب الديموقراطيين الأحرار لأكبر شاهد. إنها في زيارتها للأرض المحتلة ورأت على أرض الواقع بأم العين حجم ووحشية الممارسات الصهيونية بالعرب الفلسطينيين أصحاب الأرض والوطن والتاريخ صرحت بلسان صادق أنها لو كانت واحدة من أولئك الفلسطينيين لما ترددت في اختيار الطريق الذي يختارونه، وهو تفجير الذات لقتل بعض أفراد العدو. لكن «الديموقراطية البريطانية» وحزبها نفسه «حزب الديموقراطيين الأحرار» لم يشفعا لها بحرية الرأي والقول والتعبير... فطردت من البرلمان ومن حزبها، حزب «الديموقراطيين الأحرار» الذي ما كانت هذه التسمية «ديموقراطيين» و«أحرار» إلا انعكاساً حقيقياً لواقع كل من الديموقراطية والحرية وإمعاناً في السخرية والاستهتار بمشاعر وبعقل الشعب البريطاني نفسه كما بمشاعر وعقول الآخرين.

لقد أدرك العرب الأقدمون من خلال تجاربهم وخبراتهم الغنية والطويلة أن تحقيق وحدة أجزاء الدولة لم يكن في يوم من الأيام مسألة ديموقراطية، حيث ينفتح المجال واسعاً لصراع المصالح الأنانية الضيقة تحت سقوف دنيا من حرية أصحاب تلك المصالح. ولقد أثبت التاريخ البشري كله صحة وجهة نظرهم. إن التاريخ ربما لم يسجل مرة واحدة حدوث وحدة قومية عن طريق الديموقراطية. أما فيما عدا ذلك، وفي فترات مجد الدولة السورية القديمة أو العصر الذهبي للدولة العربية الإسلامية فقد كانت سيادة حرية الفكر والتعبير إحدى الظواهر التي ما تزال تدهش العالم إلى اليوم، حتى أن بعضهم اعتبر الإفراط في تلك الحرية عيباً. وما انطبق على الدولة العربية أو السورية قديماً ينطبق على الدولة الأوروبية حديثاً.

وسنورد هنا دليلاً وشاهداً على هذه الظاهرة من مرحلتين متباعدتين في الزمن العربي، يفصل بينهما ما يقرب من ثلاثة آلاف عام: الأولى مجلس الشيوخ في إحدى المدن زمن الملك حمورابي، والثانية أحد مجالس الخليفة المأمون زمن عز الدولة العربية الإسلامية.

المثال الأول يورده هنري فرانكفورت في كتابه «فجر الحضارة في الشرق الأدنى» فيقول: «كان للمجلس القائم على أساس المساواة سيئة هي الحرية التي تبلغ درجة غير مألوفة. فقد كان الخضوع لإرادة الأكثرية كما يعبّر عنها في الاقتراع غير معروف. بل كان المجلس يستمر في المناقشة تحت إرشاد الكبار حتى يتوصل إلى الإجماع العملي. وفي حالة الطوارئ عندما تدعو الحاجة إلى قرار سريع أو عمل له خطورته كان يضع نفسه في يدي الحاكم المركزي»[1].

إن ظاهرة إيقاف العمل بالديموقراطية إبّان حالات الطوارئ وفي ظروف الأخطار أو الحروب صارت سنّة لدى كل شعوب العالم إلى اليوم. وكان قدامى السوريين أول من تنبّه إلى هذا الأمر وأول من مارسه. إن ظروف الخطر أو الحرب تتطلب السرعة في اتخاذ القرار المناسب دون أي هدر في الزمن. ولقد دفعت قرطاجة ثمناً باهظاً عندما تنكرت لهذه الحقيقة، وأطلقت العنان للمناقشات المطولة في «مجلس الشعب» بين الحزبين حزب التجار برئاسة حنون القرطاجي وحزب البرقيين الجمهوري الذي تترأسه أسرة هانيبعل. فبينما كان هانيبعل يحقق الانتصارات على أرض إيطاليا كان جيشه، في الوقت نفسه، يتناقص عدداً وعدة وعزيمة أمام جيش روما المتعاظم. وكلما طالب هانيبعل بإرسال النجدات كان حزب التجار يقف بالمرصاد ويطالب بإرسال الغنائم التي غنمها جيش هانيبعل أولاً، إلى أن أوصلت المناقشات «الديموقراطية» قرطاجة إلى المصير المعروف.

أما الشاهد الثاني على سيادة العقل وحرية التعبير إبّان مجد الدولة العربية الإسلامية في زمنها العباسي فينقله لنا غوستاف لوبون في مؤلفة الضخم «حضارة العرب» فيقول: «لقد نقل مسيودوزي وصفاً لمجلس أحد علماء الكلام العرب الذي كان يحضر ببغداد دروساً كثيرة في الفلسفة يشترك فيها أناس من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى... إلخ، فيستمع إلى كل واحد منهم باحترام عظيم، ولا يطلب منه إلا أن يستند إلى الأدلة الصادرة عن العقل، لا إلى الأدلة المأخوذة من أي كتاب ديني كان. فتسامح مثل هذا هو ممّا لم تصل إليه أوروبا بعد كل ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة، وما عانته من الأحقاد المتأصلة، وما منيت به من المذابح الدامية»[2].

---

(1) هنري فرانكفورت، «فجر الحضارة في الشرق الأدنى»، ص85

(2) غوستاف لوبون، «حضارة العرب»، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة البابي الحلبي وشركاه، ص570.

الديموقراطية وأول مجلس تمثيلي (البرلمان) في التاريخ:

لقد نقل السوريون الفارون (الإغريق) معهم إلى بلاد المورة المجالس التمثيلية التي تتناسب ومستوى العشائر التي نزحت أولاً. فإلى جانب مجلس الأمراء (البولي) الذي سبق الحديث عنه، أحدثوا مجلساً للشورى دعوه «أرحو فوقحو». وبعد سقوط الحاء في الكلمتين وإضافة السين إلى النهاية صار «أريو فاقوس» Areo fagos فضاع بذلك الأصل، ولم يعد لهذه الصيغة معنى بأية لغة في العالم. إن «أرحو» arho في القاموس السرياني تعني: سنّة، طريقة، مذهب، تقليد، مجلس. و«فوقحو» fogho تعني: رأي، مشورة، شورى.

إن هذا المستوى من التمثيل عرفته، وما تزال، كل قبائل شبه جزيرة العرب. أما التمثيل الآخر بالمعنى (البرلماني) فقد عرفته الدولة السورية المركزية منذ عهد ملكها المؤسس «ساروكينو» (سرجون) في المدينة المركز، وفي كل المدن الكبيرة الأخرى، حيث كان في كل مدينة مجلسها ودستورها المستمد من التشريع المعمول به في المركز، ولا سيما منذ عهد الملك حمورابي وحتى ما بعد المسيح. ومعلوم أن تلك الظاهرة كانت تنتقل مع السورين عموماً ومن ضمنهم الفينيقيون، إلى كل المدن الأخرى التي شادوها في مناطق الانتشار، وإن مجلس الشعب في قرطاجة ودستورها شاهدان على ذلك. وإن هذا هو ما أثبتته المكتشفات الأثارية الوثائقية في كل مواقع سوريا القديمة تقريباً. وما من مكان آخر، أو شعب آخر، خلّف لنا وثائق حقوقية وقانونية.

يقول صموئيل كرير بهذا الصدد:

«قد تكون الشجرة المتكاملة النمو منفصلة، بعيدة عن بذرتها الأصلية بألوف الأميال والسنين. خذ مثلاً أسلوب الحياة المعروف باسم الديموقراطية ومؤسساتها أو نظامها الأساسي وهو المجلس السياسي. ففي ظاهر الحال يبدو هذا النظام وكأنه قاصر على حضارتنا الغربية، أو احتكار لها. وأنه ثمرة من ثمرات القرون الحديثة. إذ من ذا الذي يتصور أن برلمانات سياسية كانت موجودة قبل ألوف كثيرة من السنين. إنه بفضل جهود

«الرفش والمعول» أصبح في وسعنا الآن أن نقرأ سجلّ مجلس سياسي انعقد قبل خمسة آلاف عام في الشرق الأدنى قبل أي مكان آخر. أجل، إن أول برلمان سياسي معروف في تاريخ الإنسان المدون قد التأم في جلسة خطيرة في حدود 3000 ق.م. ولقد كان مثل برلماننا مؤلفاً من مجلسين: من مجلس الأعيان أي مجلس الشيوخ، ومن مجلس العموم «النواب» المؤلف من المواطنين الذكور القادرين على حمل السلاح»[1].

أما الحديث المزور حول تاريخ الديموقراطية بمفهومها المعاصر، الذي عمّمه الغرب في القرون الثلاثة الأخيرة والذي جعل (إمبراطورية!) أثينا أم الديموقراطية ومرضعتها فقد سقط أخيراً إلا من الجامعات والمعاهد، وكأن الجامعات لا علاقة لها بما يستجدّ أو يكتشف من حقائق.

لقد كانت أثينا قبل المصلح السوري (صولون)، أي قبيل النزوح الحضاري السوري الأخير، «تضم أربع قبائل، وكل قبيلة تضم ثلاث عشائر، وكل عشيرة تضم ثلاثين أسرة. ومعنى ذلك أن الجميع كانوا 360 أسرة بعدد أيام السنة، و12 عشيرة بعدد أشهرها، وأربع قبائل بعدد فصولها. وكانت الأسرة تضم جميع المواطنين الأثينيين بحكم المولد من أب واحد وأم واحدة، وبصفة عامة كانوا سلالة أصل واحد. ارتبط هؤلاء جميعاً برابطة قوية كانت أساس نظام اجتماعي تكاد تنعدم فيه شخصية الفرد وتكون السيادة فيه لرئيس الأسرة. ويبدو أن هذا النظام وجد قبل قيام (الدولة!) التي عملت على تقويض نفوذ الأسرة وأبرزت شخصية الفرد. أدى ذلك إلى نضال عنيف بين طبقات المجتمع، وظهرت أطواره في أيام المشرعين الذين عرفهم التاريخ الأثيني وهم دراكون وصولون وكليستينس. ونتج عن هذه التطورات ظهور الديموقراطية الأثينية... شهدت الديموقراطية الأثينية أعظم أيامها خلال القرن الخامس، ولكنها انقلبت خلال القرن الرابع إلى نوع من الفوضى اهتم فيها الفرد بحقوقه فقط ولم يهتم بواجباته، فاختلّ التوازن بين الفرد والدولة وانهارت الدولة الأثينية»[2].

---

(1) صموئيل كريمر، «من ألواح سومر»، ص81، 83.

(2) مكاوي، المرجع السابق، ص3.94

تلك كانت الصورة الحقيقية لديموقراطية أثينا في ملامحها الأساسية. لقد ظهرت مع ظهور اللاجئين السوريين الفارين أمام تقدم جيش كورش ثم داريوس، واختفت مع عودتهم إلى بلادهم في القرن الرابع. لقد وجدت، أو أوجدت، نتيجة لإملاء الضرورة الجديدة المتمثلة في وصول كثير من المثقفين والمفكرين والحرفيين ورجال المال والصناعة السوريين إلى أتيكا. فكان لا بد من تعديل نظام القبيلة القائم على رابطة الدم ولجعل هؤلاء الوافدين جميعاً مواطنين فاعلين قادة للمجتمع بتركيبته الجديدة. لهذا فلم يتردد صولون في تقويض ذلك النظام القائم على رابطة الدم القبلي، ليكرس بدلاً منه نظاماً جديداً قائماً على التوزيع على أساس المناطق الجغرافية: سكان الشواطئ، ومعظمهم من التجار، وسكان السهل، ومعظمهم من الزراعيين، وسكان الجبل، ومعظمهم من الرعاة.

لكن يجدر أن نعرف أن التمثيل، وحتى عدالة التمثيل، لا يعني تحقق الديموقراطية. فعدالة التمثيل ليست سوى الخطوة الأداة أو الوسيلة في اتجاه تحقيق الهدف، وهو العدالة، التي تقف في مركزها العدالة في توزيع خيرات الوطن، والعدالة في تكافؤ الفرص لجميع المواطنين. إن ديموقراطيات اليوم، ربما في معظمها إن لم نقل كلها، اختزلت العملية الديموقراطية كلها في الانتخابات بعد أن جردتها من الهدف الأساسي المتمثل في العدالة، واختزلت عدالة الصيغة التي ينبغي أن تقوم عليها الانتخابات في أية صيغة شكلية مفرغة من أي مضمون. فصار حسب أي حاكم أو أية دولة أن يجري شكلاً ما من الانتخابات حتى يقال عنه، أو عنها، إنه ديموقراطي أو ديموقراطية، ولو كان الهدف تكريس الأسس العشائرية أو الطائفية التي تقوم عليها مثل تلك الانتخابات.

إن مجرد انفصال أية صيغة للتمثيل عن تحقيق الهدف الأسمى يفرغه من محتواه ويجعل «الديموقراطية» القائمة على أساسه مجرد قشرة جوفاء، ولعبة سخيفة يلهي بها أصحاب المصالح الكبيرة والصغيرة في الداخل والخارج جماهير الشعوب.

الديموقراطية والمنظومة الحقوقية والقانونية:

كان من الطبيعي جداً أن نتوقع أن تلك القبائل من الفارّين اللاجئين الأوائل، سواء أكانوا من جماعة أرقو بن فالج أم من جماعة قدموس أم من غيرهم، لم يكونوا ليسمحوا لأنفسهم بالاختلاط الجنسي الشرعي مع الهمج من السكان الأصليين البعيدين جداً عن الدرجة الأولى من السلّم، والذين لم يكونوا يفهمون لغة هؤلاء، فأطلقوا عليهم تسمية «البرابرة». واستمرت هذه الظاهرة بعد النزوح السوري الحضاري الأخير. كان كل ما يمكن توقعه هو أن يعمدوا إلى خطف بعض الصغار من الكهوف، ويقوموا على تنشئتهم وتدريبهم ليقوموا فيما بعد ببعض الخدمات سواء في البيوت كخدم، أو في الحقل، أو في رعي المواشي، أو في القتال. فكلمة «غريب» و«أجنبي» و«بربري» كانت تطلق على كل من كان خارج دائرة «الإغريق» أي النازحين الفارين. يضاف إلى أولئك «أبناء الحرام» أو «الأنغال». إن هؤلاء جميعاً كانوا خارج دائرة الـ «فاطريا»، أي الانتماء إلى الجد الفاطر المؤسس، وخارج دائرة المشاركة في الوليمة المسمّاة باسمه والمكرسة لذكراه السنوية. وبالتالي فهم خارج دائرة المواطنية.

«كانت المساهمة في العبادة تجرّ معها حيازة الحقوق. وما دام المواطن يستطيع أن يشهد القربان الذي يسبق المجمع فقد كان يستطيع أن يصوّت أيضاً. وما دام يستطيع أن يقدم القرابين باسم المدينة فقد كان يستطيع أن يكون سادناً لبيت النار أو أرخوناً. وما دام متديناً بديانة المدينة فإنه كان يستطيع أن يستنجد بقانونها، وأن يقوم بكل شعائر الإجراءات القانونية. وعلى عكس ذلك، ليس للأجنبي أي حق، إذ ليس له أي نصيب في الديانة. وإذا دخل نطاقا لمقدس الذي رسمه الكاهن للمجمع عوقب بالموت، إذ لا وجود لقوانين المدينة فيما يختص به. فإذا ما ارتكب جريمة عومل كما يعامل العبد وعوقب من غير إجراء قضية لأنه لا حق له في عدالة المدينة»[1].

«ولم يكن للأجنبي أن يكون مالكاً في أثينا أو في روما، ولم يكن في استطاعته أن يتزوج، أو على الأقل لم يكن معترفاً بزواجه. والأطفال المولودون من قران مواطن بأجنبية كانوا يعتبرون أنغالاً»[2].

---

(1) أرسطو، السياسة 3: 1. أفلاطون، القوانين 6.

(2) ديموستينس: ضد نيائيرا (العاهرة)، أرسطوفان: الطيور. أرسطو: السياسة.

«ولم يكن يستطيع أن يتعاقد مع مواطن، أو على الأقل لم يكن القانون يعترف بقيمة هذا العقد، وفي الأصل لم يكن له حق المتاجرة»[1]. «وكان العبد يعامل من بعض النواحي بأحسن مما كان يعامل به الأجنبي، إذ أن العبد باعتباره عضواً في أسرة يشارك في عبادتها كان مرتبطاً بالمدينة عن طريق سيده، فكان رب الأسرة يحميه»[2]. وكانت النساء والقاصرون خارج نطاق المواطنية.

«وكانت المدينة تعاقب على معظم الأغلاط التي ترتكب نحوها بتجريد المذنب من صفة المواطن (وبالتالي تحويله إلى عبد). ويسمّى هذا العقاب «حطيميا» atimia[3]. وينبغي هنا أن نشير إلى أن الكلمة «حطيميا» سريانية، وهي في القاموس السرياني من الفعل «حَطِمْ» ويعني: حطم، كسر، استخدم، استعبد. و«حْطامو» htamo: خَادم، عبد. و«حطما» و«حطمتا»: خادمة، جارية، عبدة. فكان »يفقد في نفس الوقت جميع الحقوق المدنيّة، فلا يظهر أمام المحاكم حتى كشاهد، وإذا ظلم لا يسمح له أن يشتكي، ويمكن ضربه من غير عقاب»[4].

وكانت هناك عقوبة النفي أيضاً. ومن يعاقب بالنفي «تصادر أرضه وأملاكه،... وحيث أنه لم تعد له عبادة مشتركة فإنه لم تبقَ له أسرة، وكفّ عن أن يكون زوجاً، وأباً، ولم يعد أبناؤه في سلطته، وزوجته لم تعد زوجته، ويحق له أن تتخذ لها زوجاً آخر على الفور»[5].

إن هذه القوانين التي فرضت على أغريقيا من قبل مهاجرين جدد متفوقين على القدامى في كل شيء لم تكن تعني أكثر من حل مؤقت لمشاكل طارئة ناجمة عن هجرة طارئة. ذلك لأن:

أولئك السوريين المهاجرين الجدد لم يكونوا موقنين أن إقامتهم في تلك البقاع العجفاء الفقيرة هي إقامة دائمة، خاصة وأن الثورات وحركات التوحيد بين مدن الشمال السوري والأسطول كانت تتحرك ثم تخبو بين الحين والآخر.

---

(1) دي كولانج، المرجع السابق، ص267.

(2) المرجع نفسه، ص268.

(3) المرجع نفسه، ص269. وهيرودوت 7, ص231.

(4) المرجع نفسه، ص270.

(5) المرجع نفسه، ص274.

الفارق الحضاري بين الإغريق الفارين القدامى والجدد كبير جداً، مما لم يخلق جواً من الانسجام والتفاهم إن لم يخلق الكثير من التناقض.

هذا الجو شجع الكثيرين من المهاجرين الجدد على أن يستثمروا مواهبهم المتفوقة في الخطابة والحقوق والمعارف الأخرى في الاحتيال على القدامى وابتزاز أموالهم وتقديمهم إلى المحاكم بأساليب شتى، مما ولّد في المجتمع ظاهرة ترجمها المؤرخون في الغرب خطأً كعادتهم إلى «ظاهرة الطفيلي الإغريقي».

يقول كيتو:

«وكان المواطنون الذين هم أهل للمهاجمة يعانون من صنف من الناس يفيد اسمهم الإغريقي (Syco phant الطفيلي) معنى أكثر بكثير مما يدل عليه اللفظ في اللغات الحديثة... ويسجل كسينوفون في كتابه (الذكريات، الفصل الثاني، الفقرة التاسعة) محاورة بين سقراط وصديق موسر يدعى كريتو أشار إلى أنه كان من الصعب جداً أن يعيش الإنسان بسلام «لأن الناس يقيمون الدعاوى ضدي في هذه اللحظة لا لأني أسأت إليهم، ولكن لأنهم يعتقدون أني أفضّل أن أدفع لهم مالاً على أن أتحمل مشاق الذهاب إلى المحكمة»... ولدينا صورة لمثل هذا الطفيلي، وهو ستيفانوس... الذي قيل عنه إنه لم يكن يحصل على دخل من الحياة السياسية لأنه لم يكن معدوداً من الخطباء المنظمين، بل كان «متطفلاً» يجلس بالقرب من المنصة، ويعلن الاتهامات، ويقدم المعلومات لمن يستأجرها، ويضيف اسمه إلى مقترحات الآخرين»[1].

والحقيقة إن تعبير «سيكوفِنت» Sycophent هو سوري سرياني محض ويعني «مسمار القدم». إن «سيكو» في القاموس السرياني تعني: بثرة، دمّلة، ثؤلول، مسمار في القدم، داحس في الإصبع، وجمعها «سيكي»: بثور، مسامير، دمامل... وكلمة «فِنْت» phent تعني: باطن القدم، قدم، ظاهر الكف، باطن الكف، كف، راحة. وهذا التعبير يستخدمه السوريون إلى اليوم مع الشخص الدائم الإزعاج، وليس معناها «الطفيلي» كما يخمّنون في الغرب.

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص284 – 285.

وقد نظم الخطباء أنفسهم لاستثمار مواهبهم مقابل المال في المحاكم. ذلك «لأن الكثيرين من القضاة لم يكونوا أكثر علماً بالقوانين من المتقاضين أنفسهم»[1]. «وكانت الشكوى من التآمر وشهادة الزور شائعة جداً... وكان من الصيغ العادية التي تتردد عادةً: لقد خدعكم تماماً هؤلاء الأوباش الذين لا مبدأ لهم إلى حد أن...» [2]. فقد كان الأثرياء يستأجرون الخطباء للدفاع ضد التهم الموجهة إليهم وإفحام الخصوم. ومن هنا جاء استخدام كلمة **«دبلوما» de bloma** السريانية التي تعني: المماحكة، الدفاع، الإفحام. وهي في القاموس السرياني من الفعل «بْلِمْ» ويعني: ماحك، ناقش، شاجر، أبكم، أفحم، دافع. والدال أداة التعريف السريانية. وهي الكلمة المستخدمة اليوم في الجامعة لتعبر عن المناقشة والدفاع والإفحام من أجل نيل شهادة تسمى «ديبلوما» ومنها جاءت كلمة «ديبلوماسية» **diplomacy** بعد إضافة السين العشوائية إليها، ومعناها الأصل: الإفحام في النقاش كبديل لاستخدام العنف أو الحرب.

«وتتكشف عيوب هذا النظام مع الأيام واضحة... وكان من أبرز هذه العيوب... أن قامت في أثينا جمعية لا تسأل عما تفعل... وتشجيع الزعماء المهرجين، ونفي القادرين من الرجال نفياً أفقد المدينة عدداً كبيراً من خيرة كبرائها، وملء المناصب العامة بالقرعة، والدور، وتغيير الموظفين في كل عام، وإشاعة الفوضى في الأداة الحكومية...»[3].

وهكذا يتضح كيف أن تلك المنظومة الحقيقية القانونية التي اعتمدت عليها ديموقراطية أثينا، كانت عرجاء مليئة بالثغرات، مما انعكس على الديموقراطية ذاتها، إذ ليس من ديموقراطية بالمعنى الصحيح لا تستند على أساس صحيح متين من التشريع. وكلّما كان التشريع راقياً، شاملاً، قليل الثغرات والعيوب كلما توفر الشرط اللازم لتحقيق المساواة بين المواطنين، والتي هي حصراً المساواة أمام القانون، لكنه القانون الحي، المتغير والمتطور، والمتحرك دائماً لتلبية متطلبات الضرورة والتقدم التي تفرضها كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع، وليس القانون الثابت، الجامد، المصنّم. وهذا الشرط أحد الأركان الرئيسية في أي بناء ديموقراطي.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 7، ص32.

(2) كيتو، المرجع السابق، ص285.

(3) ديورانت، المرجع السابق، ص42.

وإن هذا الواقع التشريعي في أثينا لا يمكن مقارنته بالتشريع الذي كان سائداً في الدولة السورية منذ ما قبل ألف وخمسمائة عام من ذلك الزمن، وتحديداً منذ عهد الملك حمورابي. إن شريعة حمورابي «بقوانينها البالغة عدتها 285 قانوناً، والتي رتبت ترتيباً يكاد يكون هو الترتيب العلمي الحديث، فقسمت إلى قوانين خاصة بالأملاك المنقولة، وبالأملاك العقارية، وبالتجارة، والصناعة، وبالأسرة، وبالأضرار الجسمية، وبالعمل... نقول إن هذه القوانين تكوّن في مجموعها شريعة... هي من وجوه عدة لا تقل رقياً عن شريعة أية دولة أوروبية حديثة»[1].

إن «الديموقراطية» التي عرفتها سوريا قبل أي مكان آخر في العالم بآلاف السنين، سواء بربطها مفهوم الديموقراطية، ذلك الربط الواعي، بالحرية وبالضرورة وبالهدف، أو بإحداث مجالس التمثيل الأولى في التاريخ، كانت ـ إلى جانب ذلك ـ الديموقراطية الوحيدة المستندة إلى منظومات حقوقية وقانونية رفيعة ومتقدمة ومتكاملة، منذ ثلاثة آلاف عام قبل المسيح، فكانت سوريا بذلك أم الشرائع البشرية بحق. فلم يكن يتقدم أي إنسان إلى المحاكم دون محامين للدفاع، عارفين بالقوانين[2]، وأثمر ذلك الوعي الحقوقي التراثي المتراكم إقامة المعاهد العليا لتعليم الحقوق في القرن الأول الميلادي. إن معهد الحقوق في بيروت ذلك الزمن كان المعهد الوحيد في العالم. وإن أساتذته وخريجيه السوريين أمثال بابنيان الحمصي ولابليان البيروتي هما اللذان استدعتهما الإمبراطورة السورية جوليا دومنا إلى بلاطها في روما، وكلفتهما بوضع أول تشريع لروما في نهاية القرن الثاني الميلادي. وقد استمد منه جوستنيان موجزه، ليصبح فيما بعد تشريعاً لكل الدول الأوروبية.

من كل ما تقدم نخلص إلى أن الديموقراطية لم تبدأ في أثينا. وليست شكلاً محدداً أو صيغة جامدة. إنها فعل عقلي تاريخي متحرك ومتغير، يأخذ بالاعتبار قوانين التطور التاريخي التي تحكم هذا المجتمع أو ذاك بشروطها الداخلية والخارجية، وهي ما تنفك مرتبطة بالهدف الذي يحقق الغاية من التغيير والانتقال من الأدنى إلى الأعلى، كما أنها مرتبطة بالضرورة. وهي تستند استناداً أساسياً على منظومة ملائمة متكاملة من الحقوق والقوانين لتحقق شرط المساواة بين المواطنين أمام القانون.

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثاني. وصموئيل كريمر، من ألواح سومر، ص123 – 126.
(2) ديورانت، المرجع نفسه، ص191.

إن الديموقراطية نسبية في الزمان والمكان، وهي ليست خيراً دائماً في كل الأحوال والظروف. وبقدر ما تتفاعل وتتناغم وتتكامل مع الوعي لشروط ومتطلبات التطور أولاً، وللمفاهيم الأخرى كالحرية، والعدالة، والضرورة، والمساواة ثانياً، وتضع الأهداف التطورية الحقيقية النبيلة غايات لها، وتعتمد شرعيات حقيقية مقوننة لا شكلية زائفة، وتكون جزءاً من الحيوية المتحركة مع إملاءات الضرورة ومتطلبات التطور لا تجسيداً للأشكال والصيغ المقولبة والجامدة،... بقدر ما تكون تعبيراً حقيقياً عن مضمونها العقلي الواعي الهادف الإنساني، وجزءاً من الاستراتيجيا الصحيحة في بناء أي مجتمع. وإلاّ فهي دائرة مقفلة على عدد لا حصر له من الآراء الضاجّة المتنافرة دونما طريق.

إن على الديموقراطية الصحيحة أن تعزز مؤسساتها الحقيقية المتميزة بوعيها لقانون جدل الجديد ضد القديم بالدرجة الأولى، والتي من شأنها أن تكون حاضنة للجديد المتقدم المتطور في كل المجالات. من المعلوم أن الإبداع يبدأ في كل مجال فردياً. فإن لم تستطع أية ديموقراطية أن تحتضن الإبداع الجديد المتقدم دائماً عن الراهن، والأقل دائماً في الكمية بالنسبة لمجموع الجماهير، فإنها بذلك تكون قد حكمت على مجتمعها بالركود والجمود، وبالتالي بالفساد والانحطاط ومن ثم السقوط.

وكمثال على ذلك نورد ما حدث لسقراط كنموذج للجديد المتقدم مقابل الجمهور الأثيني الديموقراطي المتخلف عنه.

يقول سقراط: «إنه إذا كانت المعرفة هي أسمى الفضائل... كانت الديموقراطية سخفاً وعبثاً» وفي ذلك يقول اكسانوفون على لسان سقراط «من السخف أن نختار الحكام بالقرعة، على حين أن أحداً لا يفكر قط في أن يختار بالقرعة مرشد السفن، أو المعمار، أو النافخ في الناي، أو أي صانع على الإطلاق، مع أن عيوب هؤلاء أقل ضرراً من عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا»[1] «وكان يعتقد أن لا شيء ينقذ أثينا إلا أصحاب المعرفة والكفاية. وليست السبيل إلى هذا الحكم في الاقتراع، كما أن الاقتراع لا يصلح سبيلاً لتقدير كفاءة مرشد السفن أو الموسيقي أو الطبيب أو البنّاء. كما يجب ألا يختار موظفو الدولة على أساس جاههم أو ثرائهم، ذلك أن الاستبداد وسلطان المال لا يقل شرهما عن شر الديموقراطية...»[2].

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص236.

(2) المرجع نفسه.

إن سقراط في موقفه ذاك لم يكن يقف ضد الديموقراطية من منطلق رجعي، أي إنه لم يكن ينتقد الديموقراطية من أجل العودة إلى حكم زعيم القبيلة وصحبه من الأمراء، بل من أجل تجاوزها إلى الأمام، معتبراً «أن الحضارة كنز ثمين لا يصح أن تتخلى عنه لتستبدل به السذاجة البدائية»[1]. لكن ماذا كانت نتيجة صدام جديد سقراط المتقدم مع غشامة الجمهور الأثيني «الديموقراطي» دونما مؤسسة تحمي الجديد، تتبناه، تستثمره وتوظفه في دفع عجلة التقدم إلى الأمام؟

لقد انهالت التّهم على سقراط من كل نوع، حتى اضطرت المحاكمة التابعة للمجتمع الديموقراطي أن تحكم عليه بالإعدام.

«وجاءه أحد تلاميذه المتحمسين وقال له «إنك لا تستحق هذه الميتة« فأجابه سقراط بقوله »وهل تريد إذن أن أستحقها؟».

لقد وقف سقراط الجديد المتفوق المتقدم في مواجهة جمهور «ديموقراطي» متخلف وهو يشعر ويعلّم أن الصعود والارتقاء رسالة لا يمكن التخلي عنها لمجرد أن الأكثرية لا تريدها، مثله مثل أي مبدع، مصلح، صاحب رسالة في التاريخ. لن يتخلّى عن إبلاغ رسالته أياً كان ما يهدّد به.

«ولو فعلت لكان مسلكي عجيباً بحق. أي رجال أثينا، إذا كنت وأنا تحت إمرة القواد الذين اخترتموهم أنتم رؤساء عليّ في بوتيديا ودفليوم قد ثبتّ حين أمروني بالثبات، وواجهت الموت كما واجهه أي رجل آخر، فكيف لي الآن، وأنا أعتقد وأتصور أن الله يأمرني بأن أؤدي رسالة الفيلسوف فأفحص عن نفسي وعن غيري من الناس، إذا كنت أنا أتخلّى عن مهمتي خشية الموت... وإذا ما قلتم لي ايا سقراط، إنّا سنعفو عنك الآن ولن نشترط عليك إلاّ أن تكفّ من هذه الساعة عن البحث والتفكير على هذا النحو... أجبتكم: أي رجال أثينا، إني أجلكم وأحبكم، ولكني سأطيع الله ولا أطيعكم، ولن أمتنع، ما دمت حياً وما دامت لدي قوة، عن ممارسة الفلسفة أو تعليمها للناس. أعظ كل من ألقاه على طريقتي الخاصة، وأقنعه، وأقول له، أي صديقي، لِمَ تُعنى كل هذه العناية

(1) المرجع نفسه.

بادخار أكبر قدر مستطاع من المال والشرف والسمعة الطيبة، ولا تدّخر إلا النزر اليسير من الحكمة والحقيقة... وأهيب بكم يا رجال أثينا أن تفعلوا بي ما يأمركم به أنيتوس (عنيتو = القاسي، الظالم، المتعنت). برّئوني أو لا تبرّئوني، ولكن أياً كان ما تفعلونه بي، فلتعلموا أني لن أبدل طرائقي ولو متّ مرات كثيرة...».

ويبدو أن القضاة قد قاطعوه عند هذه النقطة وأمروه ألاّ يسترسل فيما بدا لهم أنه وقاحة، ولكنه واصل دفاعه بكبرياء أشدّ من ذي قبل: «أحب أن تعرفوا أنكم إذا قتلتم رجلاً مثلي أسأتم إلى أنفسكم أكثر مما تسيئون إلي... لأنكم إن قتلتموني لن يسهل عليكم أن تجدوا رجلاً آخر مثلي، فأنا، إذا سمح لي أن ألجأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف، كذبابة بعثها الله إلى الدولة (البولي = مجلس الأمراء) والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم، بطيء الحركة لضخامة جسمه، في حاجة إلى ما يبث فيه الحياة... وإذا كنتم لن تجدوا غيري رجلاً مثلي، فإني أنصحكم أن تبقوا عليّ»[1].

وصدر الحكم بإدانته بأغلبية ضئيلة لا تزيد على ستين صوتاً بواسطة «الاقتراع الديموقراطي» من قبل مجلس المحلفين، وهو مجلس الأربعمائة. واقترح عليه أصدقاؤه، ومنهم قريتون وأفلاطون، أن يهربوه من السجن، لكنه رفض هذا الاقتراح. «وانتهى العصر الذهبي لأثينا بموت سقراط»[2].

ذلك كان مثالاً على ما يمكن أن تفعله «الديموقراطية» المتقوقعة في قوالب الشكليات التي تقف الانتخابات أو الاقتراع في مركزها، والمنفصلة عن الوعي بقوانين التطور التي يحتل المركز منها «قانون الصراع بين الجديد الأرقى والقديم الأدنى» ولا توفر المؤسسات الحاضنة للجديد الأرقى.

إن الديموقراطية ليست ثمرة جاهزة، بل هي، ككل فعل عقلي إنساني، غرسة، من أجل أن تؤتي أكلها لا بدّ من أن تتوفر لها التربة الملائمة، والزارع الجيد، والعناية اللازمة. وهي قد تحتاج من وقت إلى آخر إلى عملية «تصريم» وإلى «تطعيم» للارتقاء بالنوع، وهي

(1) المرجع نفسه، ص369 - 371.

(2) المرجع نفسه، ص371.

لا تؤتي أكلها في كل حين. ولما كانت الديموقراطية فعلاً عقلياً، وبالتالي استراتيجياً، فإن في صلب كل فعل استراتيجي الفرز الصحيح بين كل العوامل والقوى المساعدة وبين القوى المناهضة، بين العدو والصديق. وبدون هذا الفرز المرتكز أساساً على الوعي بالواقع الراهن وبالأهداف الاستراتيجية العليا المطلوب تحقيقها يفقد كل فعل عقلي، والديموقراطية في الطليعة، صفته الاستراتيجية، ثم ما يلبث أن يتقوقع على نفسه ليتحجر ويتم تجاوزه أو يموت. ولما كانت الديموقراطية جزءاً من منظومة متكاملة سياسية، اجتماعية، ثقافية، عسكرية، اقتصادية، تتصدى في وقت واحد لمجموعة من التحديات وتسعى لتحقيق جملة من الأهداف المتباينة، فإن الديموقراطية الصحيحة والواعية هي التي تتقن فرز أولوياتها سواء على صعيد التصدي للتحديات أم على صعيد تحقيق الأهداف، وإلا فقد سقطت ضمن منظومتها في متاهة الفوضى والغوغائية وبالتالي الفشل المحقق.

«المعجزة الحضارية» المهاجرة
من سوريا إلى «أغريقيا»
في بعض مظاهرها الأخرى

صار واضحاً الآن أن شبه جزيرة المورة لم توفر أي شرط من الشروط لقيام أية حضارة، وأن سكانها الأصليين لم يكونوا حتى القرن الخامس الميلادي قد تجاوزوا مرحلة سكنى الكهوف، وأن العشائر الإغريقية (أي الهاربة) من شبه جزيرة العرب أو سوريا في مراحل النزوح الأولى لم تكن مؤهلة لإقامة أي تجمع بشري حضاري، وأن الهجرة الوحيدة التي توفرت في أهلها عناصر حضارية متكاملة كانت هجرة سكان الشمال السوري هرباً من عسف الجيش الفارسي. فكان ذلك الظهور الحضاري المفاجئ والمدهش في القرن الخامس على أرض المورة، الذي نستعرض بعض أهم مظاهره فيما يلي:

1ـ اللغة والكتابة:

ونبدأ الحديث عن هذه المظاهر باللغة، لأن اللغة تضطلع بالدور المميز والأساسي وحدها في تحديد هوية السكان القومية والحضارية. فبالإضافة إلى كل ما مر معنا من شروحات للكلمات، والتعابير، والألقاب، وأسماء المواقع، والصيغ، التي تأكد لنا فيها جميعاً أصلها

السرياني، فإن جميع الدراسات الجادة لتاريخ الإغريق أثبتت أنهم جميعاً، ورغم بعد الفترات الزمنية بين نزوح وآخر، كانوا يتكلمون لغة واحدة هي السريانية وإن اختلفت لهجاتها. فالسريانية هي اللغة التي كانوا جميعاً يتكلمونها بالفطرة، وهي التي أُلّفت فيها كل الآثار التاريخية، والفكرية، والأدبية، وإن اختلفت كتابتها من عصر إلى عصر. إن أهالي أرقو، وموقيني، وسبارطة، وأقاديمون، وأتيكا، وطيبة، وقورنتا، والجزر، و المهاجرين أخيراً إلى أثينا لم يكونوا بحاجة إلى مترجمين للتفاهم فيما بينهم، رغم ما كان قد فرّق بين الأولين منهم والآخرين من بعد في المكان أولاً وفي الزمان ثانياً. فمثلما كان السوري يطوف العالم القديم، ومن حوض السند إلى الأطلسي، ومن شواطئ البحر الأسود إلى شواطئ بحر العرب وأفريقيا، فيجد أن لغته السريانية هي لغة التخاطب الحضاري في كل الأصقاع، كذلك الأمر بالنسبة لبلاد المورة. وكما كان يتكلمها اسكندر بن فريام في طروادة، وهيلين الجميلة في إسبارطة، فقد تكلمها أخيل، وأبناء قدموس في طيبة، وأرسطو وسقراط وأفلاطون في أثينا، وديموقريط في أبديرا، وفيثاغورث في صاموس وسوريا وصيراكوزا، وهيرودوت في كل البقاع التي طاف فيها من سوريا إلى شبه جزيرة العرب إلى وادي النيل وليبيا. وكما تكلمها كورش وداريوس تكلمها أدونيس القائد في صاموطراقا، واسكندر بن فيليب في مكدونيا... إنها اللغة التي تعلمها جميع أولئك بالفطرة نقلاً عن الآباء والأمهات، ونبغ فيها بعضهم، وكتب بها البعض الآخر. وبها رتلت التراتيل الدينية، وأنشدت الملاحم والأغاني في القصور، ودوّت أصوات الممثلين على منصات المسارح، ودبجت فيها الخطب الحماسية، ونظمت أشعار الغزل وأغاني الزفاف... وبها نطق العرافون في معبد دلفي، ونقشت على جدرانه الشعارات... وبكلمة موجزة واحدة: ما من عبارة واحدة نطق بها إنسان للتفاهم مع جماعة حضرية أو كتب بها كاتب، أو نظم بها شاعر غير السريانية التي كان يتكلمها الجميع بالسليقة، ويتعلم أصولها الآخرون.

يقول أندريه إيمار:

«إن اللغة الأتيكية لم تكن سوى أعظم لهجات الثقافة سحراً في العالم اليوناني، وهي الـ «كيني»، وهي الايونية أوسع اللهجات انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد»، ويضيف: «ولا بد من القول إن لغة التوراة السبعينية ولغة الأناجيل عملياً هي الـ «كيني» نفسها»[1].

---

(1) كيتو، المرجع السابق، ص513 – 514.

ولسنا بحاجة لنثبت أن لغة موسى وعيسى، التي هي لغة التوراة والإنجيل، هي السريانية، التي اعتاد التوراتيون في الغرب على تسميتها بـ «الأرامية». أما كلمة «كينـي» التي نقلها المؤرخون في الغرب عن المصادر الإغريقية القديمة، وأخذوا يستخدمونها دون أن يعرفوا لها معنى فهي كلمة سريانية وتعني: الكيان، الطبيعة، الطبع، الغريزة، السليقة، الماهية، الذات، الجوهر. و«بَرْكياني»: مثيل، مساوٍ في الطبع. و«كينوت» و«كيانوت»: طبع، طبيعة، غريزة، سليقة. «كيانوي»: كياني، أصلي، غريزي. «كيانيتي»: طبيعيات، علم الطبيعيات.

ويقول محمد كامل عياد:

«ويجب الاعتراف بأن «دارا» قد توصل إلى بسط سيطرته التامة على الإمبراطورية الشاسعة التي صارت خاضعة لسيد واحد تتبع إدارة مركزية واحدة... وتنشر لغة مشتركة هي الأرامية»[1].

ويقول بيير روسي:

«لنضع اسم نوح العربي مكان Noe، وأيوب مكان Job، ويونس بن متّى مكان Jonas، وسام بن نوح مكان Sem، وإبراهيم مكان أبراهام، وداود مكان ديفيد، وهارون مكان آرون، وسليمان مكان سلمون، وجالوت مكان غوليات، وعيسى مكان Jesus، ومريم مكان ماري، وعند ذاك سنجد أمامنا طراوة العهد البدائي وحضوره الحقيقي، وسنشعر كم دام، من ألف عام إلى ألف عام، كلام بقي يرن في عقل هذه الملايين من الناس الذين يسكنون الشرق هذا اليوم والذين هم بلا جدال ورثته. وسيكون له المعنى نفسه الذي لم تحمله اليهودية والنصرانية والإسلام فحسب، بل إن الديانات الزرادشتية، والشمسية، والأورفية، وديانات الأسرار والخلاص، ومعتقدات الإغريق والرومان تشتق كلها أيضاً كإخوة وأخوات من الكون الشرقي... محمولاً على أجنحة لغة عامة، هي الآرامية الحية دائماً، وفي هذه اللغة العربية المعاصرة»[2]...

(1) عياد، المرجع السابق، ص259.

(2) بيير روسي، المرجع السابق، ص24 - 25.

ويقول:

«والحق أنه ليس من أسطورة في عالمنا. فإذا كانت الحضارة العربية قد امتدت في طرفة عين من البيرينه إلى أرض السند، فلأنها لم تكن أبداً إقطاعة حفنة من أكلي اليرابيع الذين ارتقوا فجأة. وإذا كان الدين الإسلامي قد انتشر في قارات بكاملها، وإذا كانت اللغة العربية قد لقيت حظاً لم تعرفه أية لغة أخرى، وإذا كانت هي لغة اليهودية والمسيحية والإسلام فلأن حضارة مهيبة قد أعطتها سلطة تجاوزت أبعاد هضبة الحجاز.. ولقد خضع لهذه السلطة اليونان ثم الرومان ومعهم الأتروسكيون قبل أن تنضم إليهم ممالك فيزيقوط الغرب وأمراء الهند...

فإذا ما أنعمنا الفكر من أجل أن نرى بوضوح، وليس من أجل أن نكتفي بالأفكار المتوارثة، وإذا كنا عازمين على ألا نستعير شيئاً من أحلامنا، فيجب علينا عندئذٍ أن نعرّف العروبة كثقافة الشرق الوحيدة، وأن نشرع في إبراز أنوار هذه الثقافة بإعادة النظر فيما قد علمونا إياه تحت عنوان «الشرق واليونان». ولن نصل إلى ذلك إلا بشرط إبعاد النظرة غير المناسبة والجزئية للشرق التي تلقيناها عن أساتذتنا»[1].

ويضيف روسي المتخصص بتاريخ الإغريق:

«إن اللغة الإغريقية عربية بمقدار ما العربية إغريقية أيضاً. في هذا الفرق القريب الذي لا تكون فيه الإغريقية سوى كتابة. ذلك أن الإرث الثقافي، والعلمي، والديني الجوهري قد زودنا به العرب. ينبغي إذن ألا نعكس الأدوار، وألا نجعل من اليونان، الذين ليسوا إلا ورثة أبناء أسلافهم العرب، نحن... فسجلات علم اللغة مترعة بالنظريات السريعة أكثر مما هي مبنية على أساس قوي. فدراسة لغة الإغريق وتاريخ الإغريق ينبغي أن تُتناول مرة ثانية من الجذور»[2].

(1) المرجع نفسه، ص34 – 35.

(2) المرجع نفسه، ص62 – 63

الكتابة:

يقول ديورانت:

«تعزو الرواية اليونانية المتواترة إدخال الكتابة إلى بلاد اليونان إلى الفينيقيين في خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وليس لدينا ما ينقض هذه الرواية، بل إن بين الكتابات اليونانية التي ترجع إلى القرنين الثامن والسابع وبين الحروف المنقوشة على حجر مؤاب في القرن التاسع تشابهاً كبيراً. ومن ذلك أن النقوش اليونانية كتبت على الطريقة السامية من اليمين إلى اليسار. وفي القرن السادس كانت (كالنقش الذي وجد في جورتينا) تنقش من اليمين إلى اليسار في أحد السطور، ثم من اليسار إلى اليمين في السطر الذي يليه، وهكذا دواليك. ثم صارت بعد هذا من اليسار إلى اليمين على الدوام، واستلزم هذا قلب وضع الحروف... كذلك سميت الحروف بأسمائها السامية مع تعديلات طفيفة. ثم أدخل اليونان تعديلات طفيفة أهمها أنهم أضافوا حروفاً للحركات... وتغلبت الحروف الهجائية الإيونية في بلاد اليونان ثم انتقلت منها إلى أوروبا الشرقية وبقيت فيها إلى اليوم. أما روما فقد أخذت الحروف اليونانية في خلقيدونيا من كومي، وهي التي أصبحت الحروف اللاتينية والحروف الإنكليزية... وقد كان الخلقيدونيون والأثينيون يحتفظون بالـ «واوWaw» لكنه تحول إلى حرف ساكن هو V»[1].

«ثم انقسمت الكتابة نوعين مختلفين، أحدهما دقيق منتظم للنقوش وما إليها، والثاني هو الكتابة الدارجة التي تستخدم في الأغراض اليومية العادية... فإذا أرادوا النقش استخدموا الحجارة أو البرونز أو الرصاص، وكانوا يستخدمون للكتابة العادية ألواح الطين كما في بلاد ما بين النهرين. ثم استخدموا ألواحاً من الخشب تغطيها طبقة من الشمع... ثم استخدموا ورق البردي الذي يأتي به التجار الفينيقيون، والرق المصنوع من جلود الماعز والغزال أو أغشيتها الرقيقة. وكانوا يكتبون على ألواح الشمع بقلم معدني وعلى أوراق البردي والرق بقلم من الخشب مغموس بالحبر.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 6، ص372 - 373.

وكانت الكتابة على الشمع تمحى بنهاية القلم المعدني السميكة، أما الحبر فكان يمحى بقطعة من الإسفنج... وكلمة ورق الإنكليزية Paper مأخوذة من نبات البردي Papyrus... وكان السطر من الكتابة باليونانية يسمى أستيقو Sticho وكان اللاتين يسمونه Versus أي عودة إلى الوراء، ومنها اشتقت كلمة verse الإنكليزية، إذ كانوا يكتبون ما يريدون في صورة أعمدة على قطعة من ورق البردي أو الرق طولها من عشرين إلى ثلاثين قدماً تلف حول عصا. وكانوا يسمون هذا الملف من الرق «ببلوس» biblos، وقد أخذوا هذا الاسم من المدينة الفينيقية المعروفة بهذا الاسم والتي كانت تمد بلاد اليونان بالورق المصنوع من نبات البردي... وكان الكتاب المقدس bible يسمى في أول الأمر biblia أي الملفات... وان الملف يوضع أحياناً في غلاف أو غشاء يسميه اليونان دفتر، ويسميه اللاتين vellum»[1].

واضح مما ينقله لنا ديورانت أن الكتابة وكل ما يتعلق بها جاءت إلى بلاد المورة من سوريا تحديداً. لكن لا بد لنا من التوقف عند هذه التسميات الكثيرة التي فسروها في الغرب بالعشوائية المعتادة لجهلهم بأصلها السرياني.

إن تسمية ورق البردي «بابيرو» سريانية، وهي في القاموس السرياني «ففرون» Paperon لأن الفاء تلفظ P هنا وتعني: بردي، أصول البردي، قرطاس. و«ففرويو»: برديّ، قرطاسي، ورقي.

وإن العمود أو الخط من الكتابة الذي كان شقاً محفوراً في البداية الذي قال ديورانت إنه كان يسمى باليونانية Stichos هو«استوقو» estocho ويعني في القاموس السرياني: شق محفور، اشتقاق، نصاب، قائمة السيف. ولأن الكتابة بدأت حفراً فقد دعيت «جرافو» grapho وهي من الفعل «جرف» أي: جرف، حفر، غرف. جروفيتا: قلم، مرقم، منقش... إلخ.

وإن العمود من الكتابة الذي دعي باللاتينية Versus ويفسره ديورانت بـ «عودة إلى الوراء» خطأً كالعادة، هو تحوير عن الأصل السرياني للكلمة «حرصو» herso التي تعني في القاموس السرياني: دعامة، عمود، عماد. وذكرنا كيف تحولت الحاء في إيطاليا إلى W أولاً، ثم تحولت هذه إلى حرف V. وتجمع على «حرصاي» التي صارت «فيرساي» أي الأعمدة. فقصر فيرساي هو قصر الأعمدة.

---

(1) المرجع نفسه، ص374 - 375.

وإن الرق الذي هو جلد الغزال أو الماعز الذي استخدم في الكتابة دعاه اليونان «ببلو» biblos وفسره ديورانت وكل المؤرخين في الغرب على أنه يعني الملف «وقد أخذوه من اسم المدينة الفينيقية بيبلوس (أي جبيل) التي كانت تصدر لهم ورق البردي المصري»! وهذا تفسير غريب. لأن اسم ورق البردي Papyros كما مر معنا آنفاً وليس «بيبلوس» أولاً، ولأن أولئك اليونان السوريين لم يكونوا أغراباً، ولا جاهلين بأسماء مدنهم السورية، ثانياً، ولأن المدينة تشتهر بما تنتج لا بما تصدّر ثالثاً. ثم، وهذا هو الأمر الحاسم: إن كلمة «ببلو» في القاموس السرياني تعني تحديداً: الغزال، الوعل، تيس الجبل، والمقصود بالكلمة هنا الرقّ، أو جلد الغزال. أما كلمة «بابيلا» التي صارت bible الإنكليزية لتعني الكتاب المقدس فإنها مؤلفة من كلمتين هما «باب» أو «بابية» في الفصحى وتعني: آية، معجزة، سطور الكتاب. وإن «إيل» هو الله. و«بابيتا» في السريانية تجمع على «بابي» أي آيات، سطور الكتاب. فيكون معنى الكلمة آيات الله، كتابه، معجزته... إلخ.

وإن الغلاف الذي يسميه اليونان «دفتر» واللاتين vellum فهما كلمتان سريانيتان. فالدفتر جماعة الصحف المضمومة يستودع بها الحسابات ونحو ذلك من الأعمال يراد بها حفظها، ومنها قول الشاعر: أبداً حديثي ليس بالمنسوخ إلا في الدفاتر.

وقيل أصله الكتاب المكتوب، ثم استعير لما لا كتاب فيه، معربة عن الآرامية. وأما كلمة vellum فهي في الأصل السرياني «حيللّو» أو «حيلو» helo وتعني: حلّة، ثوب، غشاء. وبتنا نعرف تحول الحاء إلى V. ومن هذه الكلمة نحتت كلمة file الإنكليزية التي يقصد بها الملفّ.

أما كلمة الحبر أو الطلاء فهي في السريانية «إنك» ink وتعني: طلاء، قصدير، رصاص. ولما كان السوريون أول من اكتشف القصدير، وأول من بيّض به النحاس، وأول من خلطه بالنحاس ودخل عصر البرونز، فقد اقترنت عندهم كلمة «طلاء» بكلمة «قصدير». ثم انسحبت على أنواع الحبر والطلاءات الأخرى. والكلمة في القاموس السرياني من الفعل «أنكْ» ويعني: طلى، لطخ، بيّض بالأنك الذي هو القصدير. «أنيكو»: مطلي، ملطوخ، مبيض بالقصدير. ومن الكلمة جاءت كلمة ink الإنكليزية بمعنى حبر.

وهكذا يتضح لنا الآن كيف أن العربية السورية (السريانية) كانت لغة الحضارة الوحيدة في كل أرجاء العالم القديم الممتد من حوض السند شرقاً إلى الأطلسي غرباً، وقد تمّ تصويرها (كتابتها) بأشكال مختلفة. وإن النازحين (الإغريق) السوريين إلى بلاد المورة قاموا بتطوير كتابتهم التي نقلوها معهم خلال قرنين من زمن نزوحهم، فأضافوا بعض العلامات لتصوير الأحرف الصائتة. إنها اللغة نفسها التي يدعونها بـ «الأرامية» والتي لم يكن لدى الفرس واليونان لغة غيرها.

ولا يشذ عن هذا زمن «ماني» و«زرادشت». فبها دوّنت تعاليم «ماني»[1]، و«بدورها كانت التعاليم الزرادشتية مدوّنة باللغة الأرامية»[2]. وطبيعي أن تعيش هذه اللغة في لهجات، ومن بينها «لهجة الرها (الأوديسا) السريانية، ولهجات آرامية شرقية أخرى كتبت بها كتب الماندائيين المقدسة، ومؤلفات «ماني» الأصلية، وترجمات اليهود في الشرق، كما انعكست في الكتابات الرمزية في اللغة الفارسية الوسطى، وتليها الأثيوبية والأرمنية... ثم اللغة القبطية بشكل خاص»[3].

على أية حال، فقبل القرن السادس، أي قبل النزوح السوري الأخير، كان الذين يعرفون القراءة والكتابة معدودين على الأصابع، ومنحصرين في نطاق الكهنة والعرافين. «فلم تكن معرفة القراءة ميزة عامة عند الأقدمين، ولذلك كان معظم العلم يؤخذ بالتلقين من جيل إلى جيل، أو من حِرَفي إلى آخر. وكان معظم الأدب يتلوه بصوت جهوري قراء مدربون على أشخاص يتعلمونه بالسماع... ولم تكن في بلاد اليونان دار للكتب قبل أن يجمع بوليكراتس وبيزستراتوس مكتبتيهما في القرن السادس. فلما كان القرن الخامس بدأنا نسمع عن مكتبة خاصة ليوروبيدو وأخرى ليوكليدس، ثم سمعنا في القرن الرابع عن مكتبة أرسطو طاليس، ولم نسمع عن وجود مكتبة عامة»[4].

إن ذاك الذي كان يقرأ بصوت جهوري هو بالسريانية «قوري» Kori من الفعل «قرا» ويعني: الكاهن، القارئ، التالي، المرتل. وهي التي صارت فيما بعد «خوري».

(1) فرانتس ألتهايم، المرجع السابق، ص72.

(2) المرجع نفسه، ص79.

(3) المرجع نفسه، ص83.

(4) المرجع نفسه، ص375 – 376

أما كلمة «لغة» نفسها فهي من الفعل السرياني «لجا» وفي الفصحى «لغو»، ولغا الرجل يلغو لغواً تكلم. واللغو موضوع في الأصل للغط الطير، ثم استعمل لما لا يفهم من الكلام، ثم توسّع به فاستعمل لمطلق الكلام. وقيل أصلها لُغي أو لُغو، فحذفت لامها وعوّض عنها بالتاء، والنسبة إليها لغوي. وهي بالسريانية «لوجو» logo ثم أضيفت إليها السين كالعادة وصارت logos بمعنى الكلمة أو القول. ومنها «ملاجو» ويعني بالسريانية اللسان، آلة الكلام. وجدير هنا أن نشير أيضاً إلى أن كثيراً من الكلمات السريانية تبقى هي هي سواء أضيفت إليها النون في مقطعها الأول أم لا، مثل بت ـ بنت، حطة ـ حنطة، جازا ـ جنزا (كنز)، و«لوجو» و«لانجو» بمعنى لغة. ومن الكلمة جاءت لفظة لغة ولغوي في كل اللغات الأوروبية مثل lingvist و Lang uage وغيرها.

2ـ الألعاب:

سبق أن ذكرنا كيف أن هيرودوت أكد في تاريخه أن الفالجيين، أو عشيرة أرقو بن فالج، كانوا أول من أدخل الألعاب إلى بلاد الإغريق. ولم يكونوا يأذنون لأحد أن يشارك فيها إذا لم يتم التحقق من نسبه إليهم. وبيّن هيرودوت كيف أنهم لم يسمحوا لاسكندر بن فيليب المكدوني بالمشاركة فيها حتى أثبت بأن نسبه أرقوسي. ولقد كنا قد فصلنا في كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز»[1] في موضوع الألعاب، وحسبنا هنا أن نضيف إلى ما كنا قد فصلناه أن موسم الألعاب كان جزءاً من التقليد العربي القديم، إذ يكون موسماً شاملاً للحج إلى الديار المقدسة، وللمباراة في الشعر والخطابة، وسوقاً كبيراً للبيع والشراء، ويتم في شهر أطلقوا عليه اسم الشهر الحرام حيث لا حرب ولا ثأر ولا عدوان.

يقول ديورانت:

«وقبل أن يمر قرن على بدايتها كان يشترك فيها لاعبون من جميع بلاد اليونان، ولم يحلّ عام 476 حتى كان ثبت الظافرين فيها يشمل لاعبين من جميع البقاع الممتدة من سينوب (في شمال سوريا) إلى مرسيليا... وكان الشهر الذي يقع فيه هذا العيد شهراً حراماً يتهاون فيه المحاربون في جميع بلاد اليونان... وفي وسعنا أن نتصور الحجاج واللاعبين يبدأون رحلتهم من المدن النائية قبل بدء المباريات بشهر كامل... وكانت أيام المباريات سوقاً عاماً وعيداً في وقت واحد. وكانت الخيام تنصب في السهل لتقي الزائرين حرّ شمس يوليو (تموز) اللافح،

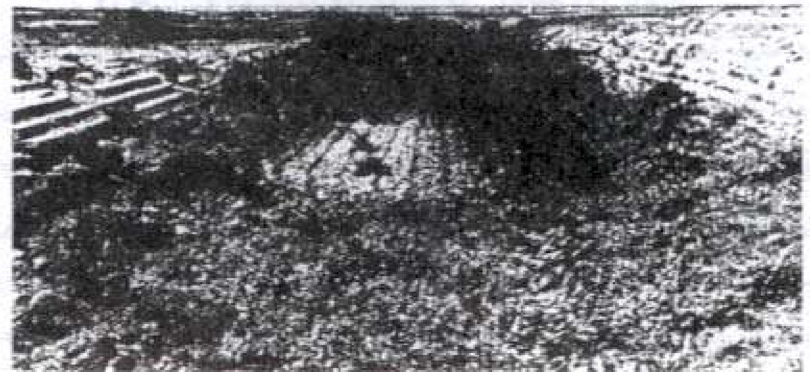
---

(1) من أجل التفاصيل راجع كتابنا «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز»، ص525 وما يليها.

وإلى جانبها المظلات يستظل بها البائعون ويعرضون تحتها بضاعتهم على اختلاف ألوانها من خمر وفاكهة وخيل وتماثيل. وترى اللاعبين على الحبال، والمشعوذين يعرضون ألاعيبهم على الجماهير، فمنهم من يقذف الكرة في الهواء، ومنهم من يقوم بألعاب تشهد على الخفة والمهارة، ومنهم من يأكل النار أو يبتلع السيوف... وكان أشهر الخطباء أمثال جورجياس، وأشهر السفسطائيين أمثال هبياس، وربما كان أشهر الكتاب أمثال هيرودوت، كان هؤلاء جميعاً يلقون بخطبهم أو يتلون أقوالهم من أروقة هيكل زيوس. وكانت هذه الأيام أعياداً مقدسة للرجال خاصة لأن النساء المتزوجات خاصة لم يكن يسمح لهن بالحضور في هذه الساحة... ولم يكن يسمح لغير اليونان الأحرار بالاشتراك في مباريات الألعاب الأولمبية. وكان المتبارون (Athletes المشتقة من athlas بمعنى مباراة) يُختارون بعد اختيارات محلية وبلدية يستبعد بها غير اللائقين، ثم يدربون بعدئذ عشرة أشهر كاملة تدريباً صارماً على أيدي مدربين محترفين يسمّون «فيدو دريباي Paido dribai» (ومعناها اللغوي مدلكو الشبان)، ورياضيين يدعون «قوم ناستاي» gymnastai (أي العراة).

فإذا جاؤوا إلى أولمبيا اختبرهم مدربون مخصصون وأقسموا أن يراعوا جميع قوانين الألعاب»[1].

إنها صورة حية ناطقة لما كانت تمارسه القبائل العربية في شبه جزيرة العرب، حيث يجتمعون في مكة عند الكعبة، في أحد الأشهر الحرم، ويمارسون فيها الحج، والتجارة، والألعاب، ومباريات الخطابة والشعر... إنها نسخة أخرى من «سوق عكاظ». وفوق هذا فإن بعض التعابير التي جشّم نفسه المؤرخ ديورانت وفسرها خطأ كالعادة هي تعابير سريانية خالصة.



صورة رقم (39) ملعب عمريت الأولمبي، أقدم ملعب أولمبي في العالم - جنوب طرطوس - سوريا - الألف الثاني قبل الميلاد.

(1) المرجع نفسه، ص388 - 389.

إن athlas التي فسرها بمعنى المباراة هي الكلمة العربية «الأثل» وبالسريانية athlo وتعني المجد والشرف. فالمتبارون لم يكونوا يبغون سوى الفوز بالشرف والمجد بين قبائلهم أو في بلداتهم. ودليل ذلك ما يورده ديورانت نفسه حيث يقول: «فإذا انتهت هذه المباريات المجهدة بعد خمسة أيام كاملة نالوا جوائزهم، ولفّ كل منهم عصابة من الصوف حول رأسه.ثم وضع المحكمون على هذه العصابة إكليلاً من أوراق الزيتون البري وأغصانه، ونادى منادٍ أسماء الفائزين وأسماء مدنهم. وكان هذا الإكليل النباتي هو الجائزة الوحيدة التي تعطى في الألعاب الأولمبية. ولكنه مع ذلك كان الشرف الذي يبذل المتبارون أقصى جهودهم ليظفروا به... وقد بلغ من أهمية هذه الألعاب وحرص اليونان عليها أن الغزو الفارسي لم يحل بينهم وبين إقامتها. فبينما كانت حفنة من اليونان تقف في وجه خشيارشاي كانت الآلاف منهم تشهد ـ في اليوم الذي دارت فيه المعركة ـ تياجيني يفوز بإكليل ألعاب القوى. وصاح جندي فارسي يقول: رباه! أي صنف من البشر أولئك الأقوام الذين أتيت بنا لنقاتلهم؟ إنهم رجال لا يقاتل بعضهم بعضاً من أجل المال بل من أجل الشرف»[1].

أما تعبير «فيدي تريباي» Paidi tribai فيعني ممارسي التدريب. إذ أن «فيدي» من الفعل السرياني «فِدْ» ويعني: أخطأ، ضل، عجز، كلّ، تعب، ضعف، لم يصب الهدف. و«تريباي» جمع تربيتا ويعني: تدريب، تربية، تلميذ، متعلم. بيت تربيتا: مدرسة يروّض فيها الصبيان.

أما «قومناستيا gymnastia» فهي «قوم» أي جماعة و«ناسيتا» وتعني الاختبار، الامتحان. وهي في القاموس السرياني من الفعل «نسا» ويعني: امتحن، اختبر، جرّب. ويدل على صحة هذا المعنى قوله: «فإذا جاؤوا إلى أولمبيا اختبرهم جماعة مخصوصون» وليس معناها «العراة» كما يخمن ديورانت. وقد صارت الكلمة تستخدم للدلالة على الرياضة، أو ما يدعى بالألعاب السويدية. وكان حرف y هو الواء الفينيقية قبل تحوله إلى (واي) فيما بعد في الغرب. لهذا فإن gym كانت تلفظ «قوم» بمعنى جماعة. ومن بين تلك الألعاب التي يعدّدها ديورانت واحدة طالما لعبناها في الصغر في قريتنا*، وكنا نسميها «تقرعا» وهي تسمية سريانية قديمة تعني القرع، أو الضرب بالعصا، إذ التاء أداة تعريف

(1) المرجع نفسه، ص393.

* قرية المؤلف «تل حويري» في جبال الساحل السوري.

سريانية. وهي تماماً كما يصفها ديورانت ويشبهها بلعبة اللاكروس الكندية فيقول: «يجتمع بعض الشبان، وينقسمون إلى جماعتين متساويتين في العدد، ويتركون في أرض منبسطة ـ أعدّوها من قبل وقاسوها ـ كرة مصنوعة من الجلد تقرب من حجم التفاحة، ثم يهجمون عليها كأنها جائزة وضعت بينهم من نقطة الابتداء المحددة لهم، وفي يمين كل منهم مضرب drabon ينتهي بانحناء مستو وسطه نسيج من خيوط مأخوذة من أمعاء الحيوان مجدولة كالشبكة. وتحاول كلتا الطائفتين أن تدفع الكرة من جزء الساحة المخصص لها إلى طرف الجزء المقابل»[1]. ومن ثم لتسقطها في حفرة مدورة.

إننا لم نعد نشك في أن الإنكليز إبّان استعمارهم للمنطقة نقلوا هذه الألعاب الشعبية، ثم طوروها، ومنها هذه اللعبة. ودعوا بعضها «الهوكي» وبعضها الآخر «بولينغ» وغير ذلك. وكنا قد شرحنا في كتابنا الثالث جميع مفردات الألعاب «الأولمبية» ونذكر بواحدة منها هي التسمية «أولمبية» النسبة إلى «أولمب» والتي هي في السريانية مكونة من «أل» أو «إيل» وتعني رب، و«أمبو» و«أمبون» تعني كرسي، عرش. أي ألعاب «رب العرش» التي كانت تقام عند هيكل الرب زيوس تكريماً له. كما نذكرّ بأن أقدم ملعب أولمبي وجد في العالم هو الذي ما زال باقياً إلى يومنا هذا في مدينة «أمريت» الأثرية جنوب مدينة طرطوس على الساحل السوري. وقد حافظ على وجوده لأنه بأجمعه مقدود في الصخر.

3 – الأرباب والديانة والأعياد:

إن جهل معظم المؤرخين في الغرب بحقيقة أولئك الإغريق السكانية واللغوية، وتعصب بعضهم للغرب ضد الشرق في كتابة التاريخ، أخرجهم عن سكّة الحقيقة، وأوقعهم في أخطاء وتناقضات فادحة، جعلت التاريخ المكتوب على أيديهم لا يمت إلى الحقيقة العلمية والموضوعية بأية صلة. ولقد انعكست تلك الأخطاء والتناقضات في شكل تزوير شمل كافة مجالات الحياة في بلاد الإغريق (النازحين)، ومن بينها ما يتعلق بالديانة والأرباب:

---

(1) المرجع نفسه، ص382 – 383.

أ - فنتيجة لإصرارهم على اعتبار «الإغريق» و«اليونان» هم السكان الأصليين لشبه جزيرة المورة، فقد حدثت عملية خلط كبيرة بين الإغريق من الفارين الأوائل من أشباه البدو مع الإغريق (النازحين) الحضاريين الجدد من الشمال السوري، وبالتالي بين معتقدات وديانة وأرباب الحضاريين الجدد ومعتقدات وديانة وطقوس أولئك الذين اكتفوا بتقديس وتمجيد آباء العشائر من الأبطال المؤسسين، وأطلقوا على الآلهة الخالقة اسم الـ «كبيري» (أي الآلهة الكبار) دون أن يقحموا أنفسهم في التعمق في عالمهم إلى أبعد من ذلك. كما اعتقدوا أن لأولئك الكبار قوى خفية تحكم بواسطتها هذا العالم وتدبّره دعوها «أنوناقي» وتعني في القاموس السرياني «الضرورات»، وهي التسمية نفسها التي أطلقها قدامى السوريين في سومر وأكاد[1]. إن تلك الـ «أنوناقي» أو الضرورات، التي بموجبها تنتظم أمور الطبيعة والكون، هي التي صرنا نطلق عليها نحن اسم «القوانين». وطبيعي أن يتركز جل اهتمام أولئك بأمهم «الأرض» التي منها خلقوا وإليها يعودون، وبالعالم الطبيعي المحيط بهم والذي يحسّون يومياً بتأثيره عليهم بالسلب والإيجاب. وقد أطلقوا على الأرض اسم «جيا» Gea ويعني: القيعة، الأرض السهلية والعظيمة، المعظمة، المجيدة، المزهرة، البهية، الجميلة... وهي تسمية سريانية نقلوها معهم من وطنهم الأم، وكانوا يعنون بها الأرض السهلية. كما أطلقوا على الجبل المرتفع (أو السماء، لأن كلمة «سماء» تعني أيضاً الجبل) اسم «عورانو» (صارت أورانوس) ويعني بالسريانية: المارد، القاسي، الصلب، العنيد، عديم الفطنة، وهي ما اتصف به «عورانو» في التراث السوري القديم.

يقول ديورانت:

«وكانت الأرض، لا السماء، موطن معظم الآلهة اليونانية. فكانت الأرض نفسها في بادئ الأمر هي الإلهة جيا Gea الأم الصّابرة السمحة الجزيلة العطاء، التي حملت من عورانو فنزل المطر»[2].

---

(1) صموئيل كريمر، المرجع السابق، ص161.

(2) راجع كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز».

إن عملية اجتزاء هذا القول الذي حمله معهم قدامى الإغريق من قصة الخلق الطويلة والمرتبة في التراث السوري القديم يحوّل الأمر إلى خرافة. وهذا ما كان قد ذكره الكاتب السوري فيلون الجبيلي، وأوردناه قبلاً، من أن الإغريق جهلوا مع مرور الأيام مبدأ «تلك الاستعارات»، فحلّت الخرافة محلّ الحقيقة. وكنا في كتابنا الثالث قد فصّلنا في قصة الخلق السورية تلك في كل مراحلها: من مرحلة الأرض البركانية والبحر المحمول في الجو، إلى هبوط ماء البحر وحدوث الغمر البدئي للأرض، إلى ارتفاع الجبال البركانية وسط الغمر، إلى تبرّد الجبال وتبخر الماء وسقوط المطر (المياه العذبة) وبدء الحياة النباتية والحيوانية.

ويضيف ديورانت:

«وكان يسكن الأرض نحو ألف إله آخر أقل من «جيا» شأناً، في مائها، وفي الهواء المحيط بها: منها أرواح الأشجار المقدسة وخاصة شجرة البلوط، ومنها النيريدات Neiredes، والنيادات Neides في الأنهار والبحيرات والبحار. وكانت الآلهة تتفجر من الأرض عيونا، أو تجري جداول عظيمة. وكان للريح آلهة مثل بورياس وزفير ونوتس... وكان من آلهة الأرض «فان»... ذو القرنين، المشقوق القدمين، الشبق، المغذي، إله الرعاة والقطعان والغابات والحياة البرية الكامن فيها، والذي تسمع صفارته في كل جدول وواد، والذي تبعث صيحته الفزع في كل قطيع، والذي يقوم على خدمته جنيّات الغاب والحراج وتلك الجنيات المعروفة بالـ «صولعيني Solini»، وهي مخلوقات نصف جسمها ماعز ونصفها بشر. وكان في كل مكان من الطبيعة آلهة... «لا تكاد تجد فيها شقاً فارغاً تستطيع أن تدفع فيه طرف ورقة نبات» كما قال شاعر غير معروف»[1].

إن ما ينقله ديورانت هو الصورة المعبّرة للقوى الخفية (الأنوناقي = الضرورات) التي آمن قدامى السوريين بوجودها وتدبر أمر كل شيء، والتي صرنا ندعوها بالقوانين. أما التسميات الواردة فهي جميعاً سريانية.

إن النيريدات Neredes هي في السريانية «نهيراثي» وتعني: النيرّات، البهيات، السنيات، الحاذقات، الذكيات... وهي جع «نهيرا» أي: منيرة، وضيئة، بهية، سنية، ذكية، كما تعني: نور، ضياء، مصباح، نجم... وكالعادة تحولت الثاء th في الجمع المؤنث إلى d باللاتينية. ومثلها كلمة «نهار» في الفصحى.

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص322.

وإن النيادي Neiades هي في الأصل السرياني «نيحاثي» وقد سقطت الحاء، وهي جمع «نيحاثا» وتعني: الساكنة، المستقرة، المتوفّاة، المرحومة، السعيدة، القديسة...

أما «فان» Pan فيعني: الخصيب، الأثيث، الكثير، الغزير. و«أفني» بالسريانية تعني: الخصب، و«دفني» أيضاً: الخصب، وشجرة الغار الدائمة الخضرة، وهي شجرة عشتار المقدسة أيضاً، والدال للتعريف. و«فينو» الخصيبة، و«فينوث» الخصب وهي «فينوس» فيما بعد. و«فان» هو رب الماعز، أي صاحب قطيع الماعز التي تعيش وتتغذى على أحراج الجبال وغاباتها. وإن ما دعاه ديورانت بالـ «صوليني» Solini التي تقوم على خدمته فتسميتها السريانية تدل عليها، وهي الـ «صولعيني» وقد سقطت العين، وتعني: ماخضات اللبن أو الحليب. وهي من الكلمة السريانية «صولعا» وتعني: زبدة، مخض اللبن، مخض الحليب، وهما الغذاء الرئيسي لرعاة الماعز في الجبال التي تغطيها أحراج السنديان والبلوط التي يتغذى عليها الماعز. فصار قطيع الماعز نصف حياتهم. فالماعز شغلهم الشاغل، ويتغذّون بلحمها، وبلبنها، وزبدتها الناجمة عن مخض اللبن، ويلبسون جلودها، وينسجون من شعرها خياماً وأكياساً وبسطاً وحبالاً وأشياء كثيرة أخرى. وليس في الصورة المنصّفة بين الماعز والبشر أي إله. إنه رب قطيع الماعز، أي صاحبه وراعيه، وليس في الأمر أية خرافة أخرى. وللمناسبة نقول أيضاً إن العربية الفصحى احتفظت بالصيغة من «أفني» أي الخصب والوفرة بصيغتها الخاصة بها. إن الأفنى هو الخصيب، الكثير، الأثيث، ومؤنثه فنواء. وشجرة فنواء كثيرة الأفنان واسعة الظل، وامرأة فنواء أثيثة الشعر... إلخ.

ب ـ أما عملية الخلط الثانية فمرتبطة بأرباب الخصب الزراعية بعد النزوح السوري الحضاري الأخير.

إن إصرار المؤرخين في الغرب على عدم الاعتراف بالهوية السورية لأولئك النازحين وجهلهم الحقيقي أو المقصود بلغتهم السريانية هو الذي أوقعهم في مثل هذا الخلط الذي صار تجنياً على الحقيقة التاريخية لأولئك النازحين.

إن الأسماء الكثيرة التي جعلوا كلاً منها إلهاً مستقلاً بنفسه، ليست في الحقيقة إلاّ أسماء وصفات لرب الخصب الواحد ولربة الخصب الواحدة. فكما أن المسلمين يعدون تسعاً وتسعين من أسماء الله الحسنى، فإن قدامى السوريين كانوا يطلقون تسميات وأوصافاً كثيرة على رب الخصب أو ربة الخصب ليعنوا بها واحداً وواحدة. فمن أسماء عشتار، مثلاً: اللات (مؤنث أل أي الربة)، وإيلات (مؤنث إيل وتعني الربة أيضاً)، وميليثا (المعينة) وعشيرة (أي الزوجة) وحنات، أنات، عنات (أي الزوجة) وأفروديت (أي خصب النسل والذرية: (عف = كثرة، خصب، روديت = نسل، ذرية). ونينورتا (أي ربة الزهر والربيع: نينا = ربة، سيدة، نورثا = زهرة، نورة) ونيروزا (ربة الزهر والربيع: نينا = ربة، روزا = وردة، زهرة). وديميترا (أي المكثرة، المخصبة: من الفعل يتر = أخصب، كثّر، وفرّ، ميترا: مكثرة، موفرة، والدال للتعريف)، وألادقيا (الربة الحارسة: ألا = ربة، دوقيا = حارسة، رقيبة، وهي التي تحولت إلى ألأوديسيا باللاتينية). وأثينا (أي الخصيبة، وهي مؤنث أثون = الخصب، والجذر «تي» وكلمة «يتيت» تعني الخصيب، الأثيث، الوافر، الغزير).

وإلى جانب ما قرره علم اللغات حول الأصول السورية للربة «أثينا» فقد عززت ذلك المكتشفات الأثارية أيضاً. يقول المؤرخ الألماني فرانتس ألتهايم حول النقوش السورية القديمة المكتشفة في قرطبة: «نقرأ، مثلاً، في أحد النقوش الذي عثر عليه في قرطبة إلى جانب «هليوس» (هيليو = الشمس بالسريانية) إله هيلا جبال الحمصي العظيم كلاً من الاسمين «أفروديت» و«أثينا». وترتسم وراء الأولى إلهة قمرية ذات أصل عربي، ويحتمل أن تكون ربة الزهرة «العزّى» بالذات التي تنتسب إلى الأصل نفسه. أما «أثينا» فقد ساوى هذا النقش بينها وبين «اللات» العربية التي انتشرت عبادتها بصفتها «أم الآلهة كلها» في المناطق التي كان سكانها يتكلمون باللغة العربية وصولاً إلى تدمر. وهنا وهناك كانت تعبد هي والعزّى معاً... ولنا من الشواهد ما يؤكد أنها كانت معروفة في حوران، ومدينة تدمر، والمناطق المجاورة لها. وفي حمص نفسها وجدت صورة لها عليها رداء طويل وبيدها الصولجان... وكانت الطائف القريبة من مكة منطقتها المقدسة التي لم يسمح فيها بقطع الأشجار والصيد، وهناك وجد الحجر المقدس الذي احتفظ في جوفه بكنز الآلهة»[1].

(1) فرانتس ألتهايم، إله الشمس الحمصي والديانات الشرقية في الإمبراطورية الرومانية، ترجمة إيرينا داوود، دار المنارة، دمشق، 1990، الطبعة الأولى، ص44 - 45

وبرث سفثوني (وتعني بنت زبد البحر، إذ برث مؤنث بَرْ وتعني بنت، و«سفثو»، و«سفهو» تعني زبد البحر، وهي التي تحكي قصة ولادتها) و«ماري» و«ماريا» و«مارتا»و«مريم» و«أمريت» وكلها تعني السيدة، الربة. وأرتميس (الربة المخلّصة، المنقذة، الشافية: حرتا = سيدة، ربة، و«مويسي» من الفعل السرياني «إيسي» أي: آسى، عالج، شفى، خلّص، أنقذ). و«سيبيل» (صيبي إيل = مشيئة الله) وهي مكونة من «صبو + إيل» أي أمر الله، إرادة الله. إذ أن «صبو» هي في القاموس السرياني من الفعل «صبا» ويعني: صبا، شاء، أراد، أمر.

ومن ألقابها أيضاً: »سارابنيتوم« أي ربة الكعبة، و«زرعث» (سيريس) أي الزرّاعة، و«فالاحث» أي: الفلاحة، والمحاربة، و«فعالت» أي الشغالة، ربة الحرفيين وقد صارت بالاش، ثم بالاس. وقد اقترنت بعض هذه الألقاب بأثينا، (أثينا بالاس). ومن أجل المزيد من التفاصيل يمكن مراجعة كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز».

يقول ديورانت:

«وكانت أرتميس المثل الأعلى للفتيات اليونانيات، كانت قوية الجسم، رياضية، رشيقة، عفيفة، ولهذا كانت راعية النساء في الولادة، وكن يدعونها لتخفف عنهن آلام الوضع. وكانت تحتفظ في إفسوس بطبيعتها الآسيوية، فكانت إلهة الأمومة والإخصاب»[1].

وموطنها فريجيا في آسيا الصغرى السورية. وقد اقترنت دائماً بـ «أتيّس» Attis ويعني التيس، الجدي، يروي لنا بيير شوفان قصته كما يلي: «كانت البداية في فريجيا على صخرة اسمها صخرة الجدي gadeos. فبينما كانت أم الإله مستسلمة للرقاد والراحة على قمة تلك الصخرة أراد زيوس مواقعتها، لكنها دفعته فكانت هزيمته، وفي الهزيمة نشر متعته على الصخرة، فحل إخصاب، ولد منه كائن قوي الجسد، عنيف الطباع، يتمتع بشهوانية فوارة، ذكرية وأنثوية على حد سواء. إنه «أجديو أسطيو»

(1) المرجع نفسه، ص332.

(يعني بالسريانية الجدي الشاذ، المنحرف، لأن أسطي = شذ، انحرف) الذي كلفت الآلهة أدونيس بجعله محايد الجنس. ولتحقيق ذلك أمر أدونيس بأن يسكبوا خمراً في العين التي يشرب منها، ثم قيده وهو نائم، وربط له بمهارة قدميه وخصيتيه. وحين استيقظ راح يخبط برجليه فاقتلع من جراء ذلك خصيتيه... ومن دم ذلك الجرح كانت شجرة الرمان. وها هي نانا ابنة ملك النهر تقطف رمانة وتضعها في صدرها فهي منها حامل. ويسجن الأب ابنته ويريد أن يميتها جوعاً، لكن أمها تقيم أودها بالفواكه (تين وبلوط) وبالنباتات. ولدى ولادة الطفل أهملوه، فالتقطه راع رباه وغذاه بحليب التيس، وسماه «أتيّس Attis» وهذا معناه باللغة الفريجية التيس، الجدي، وكان الطفل آية في الجمال، فأصبح موضع إعزاز أم الآلهة»[1]. إن هذا دليل آخر على أن الفريجيين سوريون سكاناً ولغة وثقافة وديانة وأساطير، ككل سكان «آسيا الصغرى» آنذاك. إن «أتّيس» هو اللفظ الصحيح لكلمة «التيس» حتى في العربية الفصحى، إذ أن اللام شمسية لا تلفظ، فيجري تشديد التاء.

ويقول عن أفروديت:

«وما من شك في أن أفروديتي كانت في مواطنها الأولى بالشرق الأدنى، ثم في قبرص موطنها نصف الشرقي، وكانت في هذه المواطن أول الأمر إلهة أماً، ولقد ظلت طوال عهدها وثيقة الصلة بالتوالد والإخصاب في الممالك النباتية والحيوانية والبشرية بأجمعها»[2]. ومن هنا جاء اسمها السوري السرياني المكون من «عف» و«روديت». إن «عف» aph تعني في القاموس السرياني: كثرة، خصب، زيادة، وفرة. وجمعها «عفي» aphi، وحتى اليوم يستخدم السوريون هذه الكلمة عند الدعاء والاستحسان فيقولون «عفي» بدلاً من «حياك الله»، و«عفاك» أي زادك الله. أما «روديت» فهي من الفعل «ردا» والذي من جملة معانيه الكثيرة في القاموس السرياني: ولد، أولد، أحبل نسل، أمنى، علّم، روّض.

(1) بيير شوفان، آخر الوثنيين، ترجمة سلمان حرفوش، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ص327 - 328.
(2) المرجع نفسه، ص335.



صورة رقم (40) أفروديت السورية خارجة من الماء.

يضيف ديورانت:

«فما أن تقدمت الحضارة وازداد الأمن، ولم تعد للناس حاجة بكثرة المواليد تركت حاسة الجمال حرة طليقة تجد في النساء قيماً غير قيم التناسل الكثير... وتصبح أفروديت إلهة المتع الجنسية بجميع أنواعها. وعبدها اليونان في صورها المختلفة فهي أفروديت أورانيا (أي أفروديت الجبلية مثل عشتار الجبل، وقد تعني السماوية كما ترجمها ديورانت)... وفي صورة أفروديت فان داموس (أي خصب الجنس أو النوع أو الفصيلة، وليس «الشعبية، وإلهة الحب الدنس» كما ترجمها ديورانت) وفي صورة أفروديت كلّي فيجو (أي سيدة الفرح، ربة النشوة، لأن «كللي» تعني بالسريانية: العروس، كما تعني التي تزين الشيئ وتجبّبه وتجملّه، و«فيجو» فرح، نشوة... وليس «ذات الردفين الجميلين» كما يترجمها ديورانت»[1].

(1) المرجع نفسه، ص335.

ومن الثابت أن أقدم وأعظم معبد للربة أفروديت كان في مدينة جبيل السورية التي يعود زمن إنشائها إلى الألف السادس قبل الميلاد. ولقد ظلّ هذا المعبد محافظاً على أبّهته حتى أواخر القرن الرابع الميلادي، حيث دمّره البيزنطيون مع كل المعابد السورية الأخرى بحجة أنه معبد وثني. (وسيكون لنا وقفة مع همجية المسيحية البيزنطية في تدمير وإحراق كل التراث السوري القديم).

يقول ديلابورت:

«إن الإلهة عشتار السورية هي التي غدت أفروديت الإغريقية بعد أن أخذ اليونان عبادتها عن طريق جزيرة قبرص التي أنشأ السوريون أولى حواضرها، وأسسوا فيها عبادة عشتار التي كان معبدها في مدينة بافوس يعتبر من المعابد الشهيرة في العالم القديم عندما كانت هذه المدينة مرتبطة مباشرةً بملك جبيل السورية»[1].

لقد حلّت عقيدة الخصب الزراعية السورية في بلاد الإغريق محلّ أرباب الأسر والعشائر، وملأت ذلك الفراغ الروحي بتعاليمها، وآدابها، ومسرحها، وفكرة الخلاص، وفكرة الموت والبعث بعد الموت، وبالرسالة التعليمية التهذيبية للسلوك والأخلاق، وبتشجيعها على العمل لأن الربة نفسها فعّالة (فالاث ـ بالاس) شغّالة، وتطوير الحرف والصناعة، والزراعة، لأن الربة نفسها زرّاعة «زريعيث» (أي زرّاعة = زيريث = سيريس). إنها عقيدة الخصب الزراعية السورية التي انتشرت مع انتشار السوريين بكامل تعاليمها، ورموزها، وطقوسها، وأفكارها حتى «زنرّت» الكرة الأرضية.

وإن «هذا التشابه بين نسب الآلهة اليونانية وأسطورة الخلق البابلية ليس مجرد صدفة. إن الفرضية التي صاغتها Cornford عن اقتباس ما، تأكدت، لا بل دُقّقت وأُكملت بالاكتشافات الأخيرة في أوجاريت التي تعود إلى بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وبالنصوص الأخرى في الشمال السوري المكتوبة بالخط المسماري. وإن الانبعاث المتزامن تقريباً لهاتين المجموعتين من القصائد كشف سلسلة من التوافقات الجديدة التي

(1) L. Delaport, Phoenician Mythology, p.18.



صورة رقم (41) أفروديت السورية في مواقع الانتشار

تفسّر التفاصيل في نسيج الحكاية الهيسيودية (نسب الآلهة) منقولة من أماكنها... وهكذا فإن فضية التأثيرات المشرقية على المعتقدات اليونانية حول التكوين ومداها وحدودها، وحول طرق وتواريخ تسربها تطرح الآن بطريقة محدّدة ومتينة»[1].

ولما كنا قد فصلنا في كتابنا الثالث في موضوع عقيدة الخصب وأرباب الخصب، وما اقترن بها من أساطير، ومسرح، وأعياد، ورموز، فإننا هنا سوف نتوقف بشيء من التفصيل فقط في أمرين اثنين هما: المسرح، لكثرة ما لحق بقصة نشوئه من التزوير، وموضوع الأعياد، لأن أولئك السوريين النازحين أضافوا في مغتربهم أعياداً أخرى من أجل تجميعهم هناك وتمتين اللحمة فيما بينهم علاوة على الأعياد التي نقلوها معهم من الوطن.

رب الخصب السوري «أدونيس» ونشوء المسرح:

أ ـ بداية لا بد من شرح معنى الاسم «أدونيس».

إن الاسم، أو اللقب، هو من الفعل السوري السرياني «عَدِنْ» aden ويعني: أخصب، نعّم، فنّق، متّع، لذّذ، دلّل، هنّأ. معدونا madona: متنعم، مخصب، متفنق، هانئ. «عدن» Eden: عدن، جنة عدن، محل النعيم، الفردوس. معدنوت: نعيم، خصب، تنعّم، تفنق، لذة... و«عادون» = مخصب. وقد حدث الإبدال الشائع بين الهمزة والعين في الفصحى والسريانية، ثم أضيف السين للقداسة.

ب ـ وقبل الحديث عن «أدونيس» الطفل الإلهي، وطقوس عقيدة الخصب السورية التي انبثق منها الفن المسرحي والتمثيل لا بد من التذكير بأن هذه العقيدة ارتبطت بأول ثورة زراعية في العالم التي حدثت في سوريا، والتي دلّت المكتشفات الآثارية حتى الآن على أن عمرها يناهز عشرة آلاف عام. فكانت عشتار الأم السورية الكبرى و«دومحوزي» (المعشوق، صارت دوموزي وتموز) الطفل الإلهي، أو أدونيس محور هذه العقيدة.

---

(1) جان بيار فرنان، المرجع السابق، ص98 – 99


صورة رقم (42) عشتار – ديميترا


صورة رقم (43) عشتار – سيدة أنطاكية.

ج ـ لقد أكدت كل الوثائق والمعلومات التي وصلت إلينا، والتي حفظتها ذاكرة السوريين في بلاد الانتشار، أن الموطن الأصلي لهؤلاء جميعاً إنما كان شبه جزيرة العرب حينما كانت جنة الله على الأرض، وعند بداية العصر الدافئ في حوالي 14000 ق.م. فبالرغم مما لحق بأسطورة عشتار وأدونيس من تحوير وإضافات وزخرفات في بلاد اليونان وإيطاليا فقد بقي أصلهما العربي طاغياً حتى في الشكل الذي اتخذته الأسطورة أيام الدولة الرومانية.

ففي الصياغة التي كتبها «أوفيد» للأسطورة نجد كيف أن أم أدونيس حينما هربت من أبيها «خلفت وراءها نخيل بلاد العرب... وظلت تركض هاربة حتى وصلت بلاد سبأ». «حيث شجر القرفة والمرّ والبخور»، و«يفوح من أشجارها عبق الصمغ العربي والبخور»، «وهناك تحولت إلى شجرة المرّ «مُرتا»[1].

أما جزيرتها التي ما تزال تحمل اسمها إلى هذا اليوم فهي جزيرة «سوقترا» المشهورة إلى يومنا هذا بأشجار البخور. ويتألف اسمها السرياني من «سوق» وتعني البخور، المرّ، و«قترا» وتعني المتكبرة، الأبية، المعظمة، المصباح، وهو أحد أسماء عشتار كما سبق وأسلفنا. ولما كانت عشتار الربة، المعلمة، هي ربة الحياكة والنسيج، وصاحبة المغزل، والتي علّمت كل النساء السوريات الغزل والحياكة والنسيج، وهي نفسها «أنانا» التي صنعت من جذع شجرة الحلفا «بكو» أي النول، ومن غصنها «مكو» أي المكوك في أسطورة «أنانا» السومرية فقد عرفت بالربة «حووكو» أو «حووك» Hook أي الحياكة، النساجة. ولقد اكتشف مؤخراً في جزيرتها «سوقترا» كهفها المسمّى باسمها كهف «حووك» الذي كان يحج إليه الناس من كافة الأنحاء.

كما عثر على تماثيلها وهي جالسة بين أسدين في المزرعة المسماة باسمها في الشمال السوري في «شتال حووك» وتعني مزرعة الربة النساجة، والتي تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد، وتقع في المنطقة المسمّاة «قونيا» ومعناها بالسريانية: ماء الرماد، رماد، خشبة يلفّ عليها النسيج، حياكة، حفّة الحياكة. وهذا يؤكد أن تلك المزرعة اشتهرت بالحياكة، لذلك أطلق عليها اسم الربة الحيّاكة حيث تماثيلها الكثيرة. أما أن تكون «قونيا» تعني أيضاً: الرماد وماء الرماد، فهذا هو السر في الكلمات السريانية التي يكمن في أعماقها التاريخ نفسه.

---

(1) أوفيد، مسخ الكائنات، ص290 – 295.

يقول هيرودوت:

«والغالب على الظن أن أصل القونيين من البلاد ذاتها... ومن عاداتهم التي يحسبونها حميدة أنهم يجتمعون على الشراب رجالاً ونساءً وأحداثاً بحسب ما تقتضيه رابطة الحب والعمر بينهم... وكان منهم الكاريون والليكيون... ولما غشي هرباغوس بجيوشه سهول زنتوس خرج الليكيون لمصادمته مع كونهم شرذمة صغيرة بالنظر إلى زمرة العدو، و قاتلوه قتالاً دل على عظيم بسالتهم. وعندما أيقنوا أن الدائرة تدور عليهم لم يبقَ لهم إلا أن يطلبوا الحصار ضمن الأسوار، فدخلوا القلعة بأموالهم ونسائهم وأولادهم وعبيدهم وأوقدوا بها النيران فصارت رماداً بكل ما فيها. ثم تواطأوا كافة وتحالفوا بأقسام عظيمة، وانسابوا خفية، واندفعوا يحاربون الفرس حتى انقرضوا عن آخرهم في حومة القتال. فو الحالة هذه يكون أكثر الليكيين اليوم الذين يدعون أنهم زنتوسيون إنما هم غرباء إلا ثمانين عائلة كانوا قد هربوا من أوطانهم وتخلصوا من نازلة الدمار العامة، وعلى هذا الأساس أخذت مدينة زنتوس واستولى هرباغوس على مدينة قونيا»[1].

واسم «الليكيين» هو محوّر من «الحويكيين» أي الحياكين، وقد سقطت الحاء كالعادة.

د ـ كان أدونيس في سوريا رباً للخصب، ورباً للخمر، إذ علّم الناس أسرار عصر العنب وتخميره، واستخدامه في القرابين كأحد الأسرار المقدسة الذي هو كناية عن دم رب الخصب المسفوح من أجل خير البشر وتخليصهم من الشقاء، فكان أحد أرباب الخلاص «ألفصِوي» Alpseis والكلمة من الفعل السرياني «فِصِي» وتعني: فصّى، خلّص، أنقذ، سلّم. ومنها جاءت كلمة Peace بمعنى: خلاص، سلام.

وكان شعاره الـ «تورصو» torsus ويعني في السريانية: الحق، العدل، الاستقامة، الصدق. والكلمة من الفعل السرياني «ترص» tres ويعني: ترص، استقام، اعتدل، صلح، قوّم، سوّى، عدّل، هوى، صنع، أتقن، أصلح، صحّح، هذب، ثقف، أدب، درّب، علّم.

---

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الأول ك 173، 176، ص90، 92.



صورة رقم (44) أدونيس يمتطي ظهر النمر – لوحة فسيفساء سورية في متحف ديلوس.

«تريصو»: مستقيم، تريص، عادل، عدل، صحيح. تريصوت: استقامة، صحة، صدق، صواب، صحة الإيمان، صدق العقيدة. ومنها جاءت الكلمة truth الإنكليزية، وقد ذكرنا أن الإبدال شائع في السريانية بين السين والشين والثاء والتاء.

وهكذا فقد كان أدونيس «رباً» بمعنى السيد، المعلم. وكان «تورصه» كما قلنا نشر التعليم والتهذيب على فضائل الصدق والاستقامة والعدل. ورمز له بقضيب مستقيم تحيط به أغصان الكرمة وعناقيد العنب، وتعلوه في أغلب الأحيان ثمرة صنوبر التي ترمز إلى الخصوبة الذكرية.

ومن أسمائه التي اشتهر بها «أدونيس زجريو» أي: الصغير، الطفل كما تعني الزاجر، الزآر كالنمر، وكان النمر حيوانه المفضل كرمز للقوة، والجدي الحولي رمز تضحيته بنفسه من أجل خلاص البشر من الهمجية المتوحشة.

هـ ـ وقد اقترنت به، كرب للخصب، فكرة الموت والقيامة من الموت تمثيلاً لروح الخصب في الطبيعة النباتية والحيوانية. وقد اختص السوريون وحدهم بفكر هذه العقيدة ونشروه في كل البقاع، حتى صار أدونيس وكل ما اشتق من طقوس في عبادته أنّى وجدت شاهداً على الوجود والنفوذ السوريين في آن معاً. لهذا فقد ظل الفينيقيون، بنزعتهم الأنانية التجارية الضيقة، ورغم كونهم جزءاً من السوريين، يبذلون كل الجهود لعدم الاندماج مع الرسالة التعليمية العامة للسوريين، مصرّين على عدم الانخراط فيها، وعلى الاحتفاظ برب المدينة «ملقارت» (ملك قرت، أي ملك المدينة أو القرية) والذين من حوله.

لهذا فعندما شبَّ «ديونيس»، ابن صميلا، ابنة قدموس في طيبة، استهوته عقيدة الرب أدونيس، وسرعان ما صار كاهناً له، داعياً لعبادته، وأخذ يتنقل من مكان إلى آخر في شبه جزيرة المورة، يعلّم الناس زراعة الكرمة، وصناعة الخمر، حاملاً شعار أدونيس حتى كثر أتباعه خاصة بين سكان المورة الأصليين الذين تم تدجينهم في الحقول والبيوت. لكن كلاً من مدينتي أرقوس (حيث عقيدة تمجيد جد العشيرة فقط) وطيبة (المنطوية على العقائد الفينيقية الضيقة) أوصدت في وجهه الأبواب. وتحولت عقيدة أدونيس التهذيبية بين الهمج هناك إلى مغالاة في السكر والعربدة والمجون والفحش، ثم ما لبث أن لحق بديونيس لقب «باحوش» أو «باحوس» وتعني: الفاحش، الهائج، المغتلم. وقد ظلت دور البغاء أو المواخير العامة في سوريا تسمّى «بحسيتا» إلى أن تم إلغاؤها في الستينات من القرن الماضي.

وكانت النتيجة أن تم الخلط بين «أدونيس» و«ديونيس» في بلاد المورة ذلك الزمن، ثم لم يتمكن، أو لم يرد، المؤرخون في الغرب من التمييز بين الاثنين، حتى صار الاثنان عندهم واحداً هو «ديونيسيوس»، وصارت العقيدة واحدة وأبرز مظاهرها الفحش.

ينقل لنا «أوفيد» بعضاً من الصورة التي تصدى بها الطيبيون لجماعة ديونيس - باحوس، على لسان «فنيتو» (يعني لقبه بالسريانية: الصاد، الممانع) الذي خاطب أهالي طيبة الخليط من جماعة قدموس ومن السكان الأصليين المدجنين، فقال:

«يا سلالة التنين (يقصد بهم الأصليين المتحدرين من سكان الكهوف أبناء الثعبان الذين تعرضوا لقدموس وجماعته في الكهف إبان بنائهم طيبة)، يا أبناء مارس (يعني الذي يسحق العظام ويأكل لحوم البشر، من «مرس»: سحق، دق، وليس أبناء المريخ كما يتصورون في الغرب).

ما هذا الخبل الذي ذهب بعقولكم؟ أويمكن أن يكون لقرع النحاس بالنحاس ولعزف المزمار المقوّس تقوس القرن، ولحيل السحرة مثل هذا الأثر؟ أويمكن أن يطغى ضجيج النسوة ونشوة السكر وجلبة أخدان العربدة والمجون وقرع الدفوف الجوفاء على الرجال الذين لا يهابون صليل السيوف في المعارك ونداء النفير الذي يدعو إلى القتال أو الكتائب التي تشرع في صفوفها الحراب؟... عن أي منكم يحقّ لي أن أدهش؟

أأنتم، أيها الشيوخ، الذين عبرتم المسافات الطويلة من البحار، وجئتم هنا، لتشيدوا مدينة «صور» الجديدة، ولتقيموا بها معابد آلهتكم، ثم تتركون غيركم يظفر بها دون قتال! أم أنتم، أيها الشباب، يا من تمتلئون حيوية وتقتربون مني سناً! إنه لأجدر برؤوسكم أن تحمل خوذاً بدلاً من أكاليل الزهور، وبأيديكم أن تحمل السيوف بدلاً من «ترصوس» باحوس. إني أضرع إليكم أن تتذكروا آباءكم. لقد ذبح «التنين» رجالاً شجعاناً، فاطردوا هذا العدو الجبان لتكونوا أمناء على مجد آبائكم. ولو كان مقدراً لطيبة أن تسقط سلمياً لتمنيت أن يهدم أسوارها أعداء شجعان يقذفون المجانيق ومقارعة السيوف وأزيز اللهب، فسنسلم ساعتها من اللوم مهما كان حظّنا شقياً، ولن نكون بحاجة إلى إخفاء دموعنا التي لن تغسل عنا العار.

«اليوم يستولي على طيبة صبي خامل، غير مفتون بالحرب وفرسانها وأسلحتها، ولا تستهويه غير جدائل الشعر التي يفوح منها عطر المرّ، وأكاليل الزهور، و الثياب الصارخة الألوان المطرزة بالذهب. دعوه لي، ولسوف أرغمه على الاعتراف بأنه هو نفسه الذي اخترع هذه الخرافة القائلة بأنه إله مقدس. فإن طقوسه الدينية تدعو إلى السخرية. فإذا كان أقريسيوس قد وجد الشجاعة الكافية لكي ينكر عليه ألوهيته، ويغلق في وجهه أبواب أرقوس، فهل يعقل أحد أن يصيب هذا الغريب مننتيوس وسكان طيبة بالذعر؟»[1].

و ـ وهكذا يتضح لنا أن عقيدة أدونيس الحقيقية، بتعليمها، وتهذيبها، وطقوسها السورية التي كانت وبقيت حلقة أساسية في التراث السوري، لم تدخل شبه جزيرة المورة على يد ديونيسيوس الفاحش (باخوس) حفيد قدموس، بل لم تعرفها تلك البلاد على حقيقتها إلا مع النزوح السوري الحضاري الأخير في القرن السادس قبل الميلاد. وكان من أهم المظاهر الثقافية والحضارية المرتبطة بها والتي انتقلت معها ظاهرة «مسرح أدونيس».

يقول الدكتور عبد اللطيف أحمد علي:

«ويكاد يكون من المتفق عليه أن نشأة المسرحية تتصل بديانة هذا الإله (أدونيس)، وهي ديانة كانت لها طقوس معينة تنشد فيها قصة الإله، وتؤدى بحركات أو إيماءات معيّنة... ولقد انفردت ديانة أدونيس ببعض خصائص جعلتها، دون غيرها من الديانات، حقلاً خصباً لنمو الدراما».

«فقد دخلت عبادة هذا الإله بلاد اليونان بعد غيرها من العبادات الهامة، أي بعد عبادة زيوس وحيرا وأثينا... ولم تأخذ طقوسها شكلاً محدداً وتستقر إلا بعد القرن السادس قبل الميلاد»[2]، أي بعد النزوح السوري الحضاري الأخير تحديداً.

---

(1) أوفيد، المرجع السابق، ص132.

(2) عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص161ـ162.

قصة عشتار وأدونيس
ونشوء المسرح

«وبلغت أنّات أدونيس المحتضر أسماع عشتار (في الترجمات اللاتينية صارت فينوس) التي لم تكن مركبتها الخفيفة ببجعاتها المجنحة قد بلغت بها قبرص. فأدارت طيورها البيضاء واتجهت إليه. ولمحته عن بعد يتمرغ في دمائه فاقد الوعي. وقفزت من مركبتها إليه، وشقت ثوبها عند صدرها، وشدت شعر رأسها، وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تخلقا لذلك. وأخذت تلوم الأقدار وصاحت فيها قائلة: «لا، لن يخضع لك كل شيء، وسوف يبقى أدونيس ذكرى حزن خالد إلى الأبد» والتفتت إليه وقالت: »سوف يمثّل كل عام مشهد موتك، يذكّر بما كان فيه من نواحي عليك. ولتنبثقن زهرة من دمائك»... وصبّت على دم أدونيس رحيق زهرة عطرة، لم يكد يمسّه حتى غلى الدم وتصاعدت منه فقاعات صافية... ولم تكن تمضي ساعة من زمان حتى انبثقت من بين الدماء زهرة بلون الدم شبيهة بزهرة الرمان التي تخفي بذورها خلف تويجاتها، غير أن المتعة التي تهبها هذه الزهرة قصيرة العمر، لأنها زهرة رقيقة واهنة الساق تعصف بها الريح، وهي زهرة شقائق النعمان»[1].

فمن عبارة عشتار الخالدة الموجهة إلى السوريين «سوف يمثّل كل عام مشهد موتك يذكّر بما كان فيه من نواحي عليك» انبثق فن التمثيل المسرحي لأول مرة في التاريخ، وصار المسرح جزءاً لا يتجزأ من المعبد في كل المدن السورية «وكان أهم ما يجب أن يعمله البابلي التقي المستمسك بدينه أن يشترك في المواكب الطويلة المهيبة كالمواكب التي كان فيها الكهنة ينقلون صورة مردوك من هيكل إلى هيكل، ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدّسة»[2].

وفي العهود السورية القديمة جميعاً الأكادية والبابلية والآشورية كان التمثيل والألعاب جزءاً لا يتجزأ من طقوس الاحتفال بأعياد الربيع وعيد رأس السنة الذي كان في الأول من نيسان من كل عام.

---

(1) أوفيد، المرجع السابق، أدونيس وفينوس (عشتار)، ص302ـ303.

(2) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص.223.

يقول أنطون مورتغات:

«فإذا كان الملك والكاهنة الكبرى قد أقاما العرس المقدس في احتفال رأس السنة الجديدة نيابة عن الإله والربة فإنه يكمن في ذلك أصلاً نوع من عمل تمثيلي للحدث الذي هو في الأصل حدث أسطوري. ويعلمنا نص آشوري بوضوح تام حول عمل تمثيلي حقيقي لكامل عيد رأس السنة الجديدة شبيه بالتمثيل الباطني في العصور الوسطى الأوروبية. ويشرح هذا النص تلك التوازنات بين حدث أسطوري وبين عمل تمثيلي رمزي... وبالإضافة إلى ذلك نعلم أن مباريات في المصارعة، والعدو، والركوب، وسباق العربات على الحيوانات مجتمعة تواكب عيد رأس السنة الجديدة عامة تماماً مثلما صار يحدث في دوائر حضارية أخرى فيما بعد كالدوائر الإغريقية والرومانية»[1]. وقد نقله السوريون المهاجرون في القرن السادس إلى «بيريه» أولاً قبل أي مكان آخر في بلاد الإغريق عدا «قورنتا» التي عمّرها وسكنها السوريون من ذي قبل.

وهكذا، فإن أول تمثيل مسرحي في التاريخ بدأ في سوريا كطقس ديني، انطلاقاً من تمثيل موت رب الخصب «تموز» أو «أدونيس» وقيامته. ولما كان الجدي هو رمز أدونيس الذي يتحمل عذاب الموت بدلاً من البشر، فقد صار مريدوه وعبّاده يتنكرون بجلود الماعز ليصبحوا جزءاً من «قطيعه». ومن هذا التنكر أو التستر نشأ فن الساتيرا (التستر، التقنع)، ومن كلمة «ماسكا» السريانية التي تعني الجلد، وهو «المَسْك» في الفصحى، جاءت كلمة Mask بمعنى قناع و«ماسكاراد» (التنكر، التقنع)، وصاروا يسمّون «تراحي جديا» بالسريانية وتعني تيوس الجدي، لأن «تراحي» جمع «ترْاح» وتعني في القاموس السرياني: التيس، ذكر الماعز، ثم سقطت الحاء كالعادة وصارت «تراجديا» وهي المأساة الممثلة لموت رب الخصب أدونيس، أما «قيامة» الرب من الموت فهي في السريانية «قوموث» و«قوموثا» التي صارت باللاتينية «كومودا» ثم «كوموديا» ثم «كوميديا».

(1) أنطون مورتفات، «تموز، عقيدة الخلود والتقمص في فن الشرق القديم»، ترجمة توفيق سليمان، دمشق، دار الجد، 1985، ص134.

يقول ديورانت:

«وأهم من هذا كله ما كان يحدث في البيلوبونيز وأتيكا من حزن ومرح لموت أدونيس وبعثه. وكان يطلق على هذه المحاكاة اسم «درومينا»... ويرى من هذا أن المسرحية الأثينية، مأساة كانت أم ملهاة، كانت تمثّل على أنها جزء من حفلات أدونيس بإشراف الكهنة في دار للتمثيل تسمّى باسمه، وعلى يد ممثلين يسمّون بـ«الفنانين الأدونيسيين». وكان يؤتى بتمثال أدونيس إلى مكان التمثيل، ويوضع أمام المسرح لكي يستمتع بمشاهدة التمثيل. وقبل البدء به كان يضحى بحيوان للإله. وكان لدار التمثيل ما للمعبد من قداسة... ثم أذن للشعراء على توالي الأيام أن يستبدلوا بعذاب الإله عذاب بطل من أبطال الأساطير»[1].

ويقول أندريه إيمار:

«ولدت الملهاة شأن المأساة من ظرف أعياد أدونيس نفسها. لقد أحيطت أعياد أدونيس، التي تميزت بالتمثيل المسرحي، ببهاء خاص لا يمكن تعليله... ثم هبطت المأساة (في القرن الرابع) هبوطاً لن ترتفع بعده»[2]. وهذا أمر مفهوم: لقد هاجر الفن المسرحي مع نزوح السوريين طيلة زمن الاحتلال الفارسي، ثم عاد معهم.

ويقول الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى:

«تكمن الأصول الأولى للمسرح اليوناني في الاحتفالات الدّينية التي كانت تقام في المناطق المختلفة في بلاد اليونان، والتي كانت تدور حول عقيدة الإله أدونيس. ولم تكن هذه الاحتفالات، في الحقيقة، بدعة اقتصرت على بلاد اليونان، وإنما عرفتها مجتمعات أخرى... ففي سوريا كانت تقام احتفالات مماثلة... مؤداها أن الإله بعل (أو أدونيس) قد قتله خنزير بري. ثم حاولت عشتار (أو عشتروت) إعادته للحياة حتى تعود الحياة إلى الطبيعة بعد أن ماتت في الشتاء... فمن قورنثا انتقلت فكرة هذه الاستعراضات إلى أثينا حيث أصبحت قبيل القرن الخامس قبل الميلاد مجالاً للمباراة في الاحتفالات المتصلة بأعياد الإله أدونيس»[3]. «وكان الممثلون يؤلفون لهم طائفة أو نقابة قوية تسمى «نقابة الفنانين الأدونيسيين»[4].

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص422ـ423.

(2) إيمار، المرجع السابق، ص396, 393, 397.

(3) لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان، دار النهضة العربية، بيروت، 1979, ص189 – 194.

(4) ديورانت، المرجع السابق، الجزء السابع، ص250.

«ولما كان التيس هو الحيوان المقدس في تلك العقيدة الأدونيسية... لذا كانوا إذا ما هموا بذبح التيس التفوا حوله راقصين مغنين منشدين الـ «ديثيرامب». فإذا ما انتهوا من ذلك ذبحوه، فأكلوا من لحمه، وتقربوا للآلهة بشيء منه. وكذلك كانوا يحوكون من جلود التيوس أثواباً لهم، ومآزر للساتير، وعباءاتٍ للـ (مانياديس) يطرحنها على أكتافهن. وبعد أن يأكلوا من لحمه، ويتخذوا من جلده لباساً لهم كانوا يحسّون أنهم قد غدوا «تيوسا»، تراحوي»[1].

أما كلمة (مانياديس) فهي في الأصل السرياني «معنياثي» أي: المغنيّات، المرتلات، المسوسات، المخلوطات. «عنويوتا»: عبادة، إيمان، خلطة، إدمان، أغنية، ترتيلة. «عناياتي»: غنم، ضان، نعاج، عنزات (إذ كانت العين تحلّ محل الضاد والغين). وقد سقطت العين وتحولت الثاء التي هي في نهاية الجمع المؤنث إلى d كالعادة باللاتينية. ويؤكد هذا المعنى عبد اللطيف أحمد علي إذ يقول:

«وكانت هؤلاء المتعبدات يرحن في غيبوبة، ويصرن مهووسات فعلاً أو مجنونات mainade، ويتصورن أنهن قد اتحدن بباخوس اتحاداً تاماً أو صرن حيوانات في قطيعه المقدس»[2].

أما مفردات الفن المسرحي بناء وأشخاصاً، نصوصاً وأنواعاً وألواناً وأدوات مساعدة فهي جميعاً سورية سريانية، وقد تمّ شرحها مفصلاً في كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز»[3]. نكتفي هنا بعرض بعضها ومعانيه بصورة موجزة فقط:

تياترو (ت + يثرو = خشبة المسرح وتاء التعريف)، الدراما drama (= الصراع)، ساتيرا Satira (= التستر، التقنع)، نشيد الـ «ديثرامب» (د + أثرا + أمبو: الدال للتعريف، وأثرا = مقام، مكان، وأمبو = عرش، فالمعنى نشيد مقام رب العرش الذي هو أدونيس صاحب التمثال) هيبوجريت (= التشخيص: الهاء للتعريف وفوجريت = تجسيد، وهي من الكلمة السريانية فيجورا = جسد، هيئة، شخص). تراجيديا (سبق شرحها: تيوس الجدي تراحي جديا)، كوميديا (سبق شرحها: قوموثا = القيامة من

(1) ثروت عكاشة، الإغريق بين الأسطورة والإبداع، ص246.
(2) عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص167.
(3) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا المذكور، ص477 – 521.

الموت)؛ أوركسترا (هي في الأصل السرياني حور رقصتا = ساحة الرقص)؛ كورس (هي في الأصل السرياني حورو = المشهد، المنظر، مرسح الغناء والرقص)؛ ستيمازون (الستة مشاهد: ست + محوزون). وهي من الفعل «حزى» أي شاهد، رأى.

إن المسرح إنجاز سوري، وهو، بكل ما يتضمنه من معتقد ديني، وطقوس، ورموز، وآداب، ومدرج، وتمثيل، ومفردات، ولغة،... إبداع سوري، ولم تعرفه بلاد الإغريق إلا بعد النزوح السوري الأخير، بينما كانت كل المدن السورية تضمّ إليها المسرح كجزء من المعبد. وقد رأينا كيف أن عَنْيا الكاهن الطروادي الذي قذفت به وبجماعته الريح على الشاطئ القرطاجي ـ كما يصفه لنا فرجيل في الإنيادا ـ فأعجب بأولئك الصوريين العاملين كخلية النحل «وكان بعضهم منهمكاً في بناء دار للتمثيل». وكانت «بيريه» التي أنشأها السوريون بعيد نزوحهم إلى منطقة أتيكا في بداية القرن الخامس قبل الميلاد قد شهدت أول دار للتمثيل، والاحتفال بأعياد أدونيس قبل أثينا بفترة لا بأس بها من الزمن[1].

«إنه من الجبال الأوسترية حتى أفواه الدانوب نشر السوريون عبادة أدونيس، وأتيس، والبعل، وسيبيل، حتى أن سويسرا نفسها تلقت آثاراً عديدة من هذا التأثير، وعرفت بلاد الغال وإسبانيا وهولندا وأفريقيا إيزيس، وعشتار، وإيل أولاد الله، وعقيدة البعث... إننا في كل يوم نكتشف قرابات بين الديانات السلتية والسورية، بين ديانات الكهنة الغاليين وديانات ومزارات العاصي. فالإله الغالي «باليم» ليس سوى البعل... إن الشبكة الدينية السورية القديمة تتجاوز ـ في الحقيقة ـ الخيال. إنه يتضاعف من ركام يتواكب فيه يونانيون وأناضوليون وأفريقيون وسكان ما بين النهرين، يتكلمون لغة مشتركة هي الآرامية، ثم هم يتابعون الحديث بلهجاتهم الإقليمية»[2].

ديانة الأسرار:

لم تكن عقيدة الخصب السورية مقتصرة على مظاهرها الطقسية، وإنما كانت تتضمن جملة من المعارف التي لا تعطى إلا لمستحقيها. وهذا ما دعي بـ «العورفية» (صارت «أورفية») وهي نسبة إلى اسم الفاعل بالسريانية «عورفيو» من «عرف». ولم يصلنا من تلك

---

(1) روسّي، المرجع السابق، ص82ـ83.

(2) إيمار، المرجع السابق، ص369.

«المعارف» إلا نبذ نذكر منها: الإيمان بالحياة بعد الموت، وبالتقمص وتناسخ الأرواح، هذا المعتقد الذي اطلع عليه فيثاغورس وعلّمه إلى تلاميذه بعد رحيله إلى جنوب إيطاليا، وأن «المعرفة» رأس كل الفضائل كما عبّر عنها سقراط...

ولما كانت ديانة الأسرار mysteres (المستورات، الأسرار) مقتصرة في الأصل على أناس معينين، ولها طقوسها ومراتبها المغرقة في السرية، وتعتبر هي و«العورفية = الأورفية» البناء العقائدي الداخلي المنظم لعقيدة الخصب السورية القديمة، فإن عامة الناس أخذت من العقيدة ظاهرها وما يتلاءم مع رغباتها الحسية. فانتشرت تقاليد الاحتفالات الماجنة في كل أنحاء اليونان وإيطاليا. وزاد الطين بلّة ظهور الكاهن الفينيقي «باخوس» (الفاحش، الداعر) وهو ديونيس أحد أحفاد قدموس في بلاد الإغريق، لينشر هناك طقوس الدعارة الصاخبة أثناء الأعياد. وهكذا، ومع نزوح السوريين الحضاريين، اصطدمت العقيدة السورية الأصيلة بما تحمله من نظرة شمولية، وأسرار، وتمجيد للمعرفة، وآداب تمثيلية مسرحية، بتلك المظاهر الغريبة الشاذة في أغريقيا. وكان الصدام دموياً في كثير من الأحيان. لقد غطت ديانة الأسرار السورية كل مواقع انتشار السوريين من وادي السند شرقاً إلى الأطلسي غرباً مروراً بالشاطئ الليبي (الأفريقي) والجزر، والإسكندرية، ووادي النيل.

ولما كانت إيزيس (حيزيث = المتنبئة، الكاهنة، النبية) إحدى كاهنات الخصب، وأحد «تجليات عشتار» فقد أحيطت ديانتها بالكتمان نفسه «ومهما يكن من شيء فقد كان عليهم أن يلتزموا الصمت المطبق عن كل ما كانوا يخبرونه أثناء الاحتفال بالأعياد الأوزيرية. وكان هيرودوت، الذي كان له حظ الحضور قد تحاشى عن رهبة سرد ما يتصل بأوزيريس من تفاصيل»[1].

وكان لوكيوس الروماني قد صرح بالشيء نفسه. ولقد كان المثقفون من أشياع إيزيس يردّون على من كانوا يهزأون بهم «إنكم لا ترون سوى المظهر الخارجي الغريب لمعتقداتنا، ولستم تعرفون ما يستتر وراءها»[2].

---

(1) أدولف إيرمان، ديانة مصر القديمة، المرجع السابق، ص424.

(2) المرجع نفسه، ص471.





صورة رقم (45) رقصة الدبكة السورية على آنية أتيكا، القرن الخامس ق.م.

وقال فلوطارخ:

«إن من يأخذ هذه الأشياء بحرفيتها، ولا يعبأ بمعناها السامي فإنما ينبغي عليه أن يتفل وأن يطهر فمه»[1]. وقد كنا قد أفردنا في كتابنا الثالث بحثاً خاصاً لموضوع التقمص والتناسخ الذي ظل جزءاً من المواضيع التراثية منذ العهد السوري وحتى بعض المذاهب في الإسلام في كتابنا الثالث[2].

وقد نقلها السوريون إلى كافة الأصقاع التي وجدت لهم فيها تجمعات، ومنها: وادي السند، ووادي النيل، وأغريقيا، وجنوب إيطاليا، ووصلت إلى طراقيا في سقف بحر إيجه. وكان أتباع «العورفية» (الأورفية) أكثر الناس نشاطاً في نشر هذه التعاليم. إذ أن «العورفي» (العارف، أورفيوس) كان ينبغي أن يكون متميزاً بثقافته، بمعارفه، وبأخلاقياته في آن معاً.

«فكانوا يصورنه في صورة الرجل الظريف، الشفيق، المفكر، العطوف، وهو تارة موسيقي، وتارة كاهن زاهد من كهنة أدونيس. وكان بارعاً في العزف على القيثارة وفي الغناء عليها براعة يفتتن بها سامعوه»[3].

وفي القرن السادس كانت الأغاني العورفية قد أصبحت ذات طابع مقدس... كما أضحت أساساً لطقوس دينية صوفية ذات صلة بطقوس أدونيس، ولكنها تعلو عليها كثيراً فيما تنطوي عليه من عقائد دينية وفي طقوسها وأثرها الخلقي.

فأما العقائد الدينية فقد كانت في جوهرها تأكيداً لعذاب أدونيس زجريوس (الصغير، الطفل) الابن المقدس وموته وبعثه، كما كانت تؤكد أن الناس جميعاً سوف يبعثون في حياة مستقبلة يثابون فيها على أعمالهم أو يعاقبون عليها... ويقول علم اللاهوت العورفي (الأورفي) إن الروح تذهب بعد الموت إلى الجحيم حيث يحاسبها آلهة العالم السفلي على أعمالها. وكانت الترانيم والطقوس الأورفية ترشد المؤمنين إلى ما يجب أن يتبعوه في هذا الحساب النهائي الشامل، شأنها في هذا شأن كتاب الموتى عند المصريين. فإذا حكم على الميت بأنه مذنب عوقب عقاباً شديداً.

---

(1) المرجع نفسه؛ و Plotarch, Isis et Osiris, P.P 33, 38, 39, 40, 35.

(2) راجع كتابنا: «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز» بحث: «التقمص وتناسخ الأرواح في التراث العربي القديم».

(3) ديورانت، المرجع السابق، الجزء السادس، ص345.

فمن قول إن هذا العقاب أبدي، وهو الذي أخذت منه فكرة النار فيما بعد، وهناك فكرة تقول بالتناسخ، أي أن الروح تولد مرة بعد مرة لتحيا حياة أسعد من حياتها الأولى أو أشقى منها حسب طهارتها الأولى أو عدم طهارتها. ويتكرر هذا المولد مرة بعد مرة حتى تتطهر الروح من ذنوبها تطهراً تاماً فيسمح لها بالدخول في جزائر المنعمين. وهناك قول ثالث يبعث الأمل في قلوب الموتى، وخلاصته أن العقاب الذي يلقاه الميت في الجحيم قد ينتهي إذا كفّر الإنسان عن ذنبه قبل موته أو كفّر عنه أصدقاؤه بعد موته.

«على أن الأورفية كانت فيها بالرغم من هذا اتجاهات مثالية هي التي أدت إلى الفلسفة الأخلاقية من جهة وإلى الرهبنة في المسيحية من جهة أخرى. ذلك أن ما كان يُعزى إلى آلهة الأولمب من انحلال خلقي واستهتار قد حلّ محلّه قانون صارم للسلوك، وثُلّ عرش زيوس الجبار شيئاً فشيئاً وحلّت محلّه شخصية أورفيوس الظريفة بنفس الطريقة التي ثُلّ بها عرش يهوه ليحلّ محلّه المسيح فيما بعد. ودخلت في التفكير الإغريقي فكرة الخطيئة والضمير والنظرة الثنائية إلى الجسم والروح... وصار إخضاع الجسم أهم أغراض الدين كما صار شرطاً لخلاص الروح. ولم يكن لطائفة الإخوان العورفيين نظام ديني أو حياة خاصة بمعزل عن حياة الناس، وكل ما كان يميزهم عن غيرهم ثيابهم البيضاء وامتناعهم عن أكل اللحوم، وتقشفهم إلى درجة لم تكن مما يتفق عادة مع الحياة الإغريقية... وكان لهذه الطائفة أثر بعيد طويل، ولعل الفيثاغوريين قد أخذوا منها طعامهم ولباسهم ونظريتهم في تقمص الأرواح، ومما هو جدير بالذكر أن أقدم ما لدينا من الوثائق الأورفية قد وجدت في جنوبي إيطاليا. وكان أفلاطون يعتقد بنظريتها... وقد كان في حوزة رجال الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية مجموعة كبيرة من الكتابات الأورفية اتخذوها أساساً للاهوتهم وطقوسهم وتصوفهم. كذلك أثرت فكرة النار، والمطهر (في كرّات الولادة) والجنة، وتعارض الجسم والروح، والابن المقدس الذي قتل ثم بعث من جديد، والعشاء الرباني، وهو أكل جسم الإله ودمه وقدسيته، أثرت هذه كلها من قريب أو بعيد في المسيحية التي كانت هي نفسها ديناً ذا طقوس ومراسم خفية، فيها الكفارة والأمل والوحدة التصوفية وتحرر الروح، ولا تزال الأفكار والمعتقدات التي اشتملت عليها الديانة الأورفية منتشرة بيننا في هذه الأيام»[1].

(1) المرجع نفسه، ص346 – 347.

الأعياد:

تحدثنا في كتابنا الثالث «تاريخ سوريا الحضاري القديم 1ـ المركز» عن الأعياد في عقيدة الخصب السورية القديمة التي تقف منها أعياد الربيع في المركز. وسنعرض لها هنا بإيجاز.

أ ـ أعياد الربيع:

إن كلمة «ربيع» في السريانية تعني: ربيع، خصب، كلأ، عشب. و«مَرْبَع» تعني الرحِم. وكلمة «ربيع» في الفصحى تعني الخصيب، والفعل ربع أي خصب، وربيع رابع أي مخصب وخصيب.

لقد اقترن اسم الفصل بالخصب منذ البداية. ومنذ أن دفعت عشتار بمحبوبها، أو معشوقها دوموزي (دمحوزي = المعشوق) إلى العالم الأسفل، فقد صار عليه أن يمثل روح الإخصاب في موته وفي قيامته (بعثه). وعند قيامته من الموت تتزين عشتار كما تزدان الأرض (لأن عشتار هي الأم وهي الأرض وهي الطبيعة) من أجل لقاء حبيبها روح الخصب. وتتجدد الخصوبة في الطبيعة وفي الحيوان مع بدء فصل الربيع. وكان «ثوبها» الذي ترتديه في هذه المناسبة يزدان بكل أنواع الزهر والثمر، ومن القمر إلى صدف البحر، وبكلمة: بكل رموز الخصب والوفرة والتكاثر. وكانت تدعى آنذاك، أي في يوم عيدها، عيد الأم الكبرى، وهو في الـ 21 من آذار، «أم الزّلُف». و«الزّلُف» كلمة سريانية تعني: الثوب الموشّى، الزينة، الجمال، الصدَف، الوذع، التيس، الغزال، السجّل، السفر، البراءة.

وما تزال أغنية «أم الزّلف» مستمرة في كل أنحاء سوريا إلى اليوم:

عالعين يامْ الزلف   زلفا يا موليا

وكلمة «موليّا» في القاموس السرياني تعني: الخصب، الوفرة، الامتلاء، الشبع.

وكانت تمثّل دور عشتار إمّا الكاهنة المقدسة، أو إحدى العذراوات، أو الملكة. ثم صارت شجرة الصنوبر (شجرة عشتار) تمثيلاً لها. فيجري تزيين الشجرة كما كانت تزدان عشتار من أجل اللقاء والاقتران. وكثيراً ما صوّرت عشتار في هيئة امرأة بارعة الجمال على قمة جبل مكلّل بأشجار الصنوبر يحيط بها أسدان من الجانبين متوجهان بالنظر إلى ثدييها العاريين، أي إلى خصبها. وكلمة «ثدا» بالسريانية، التي هي «ثدي» بالفصحى تعني: الربيع، الخصب أيضاً.

وفي الرابع والعشرين من آذار يتم الاتحاد، الاقتران، على الجبل الذي أخذ اسم «حيدا» (صار «إيدا» وانتقل اسمه مع السوريين إلى طروادة وإلى كريت حيث جبل «إيدا» المقدس) ويعني: الاتحاد، الاقتران، كما يعني العروس. «فوضع الرب بزرته الشريفة في رحمها المقدس، وحملته تسعة إيام وكل يوم بشهر، إلى أن وضعته في ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول». وكان الكهنة السوريون في تلك الليلة يرقبون السماء ويترنمون بالصلوات ويرددون: «اليوم يولد للعذراء ابن».

وكان قدامى السوريين ينظرون إلى ليلة الـ 24 - 25 من كانون الأول كعيد ميلاد النور متمثلاً بـ «الطفل الإلهي» وهو اليوم الذي ـ في اعتقادهم ـ يبدأ فيه النهار الشمسي بالنمو من جديد. وقد استمرت هذه العقيدة حتى العصر النبطي حيث كان الرب ذو الشرى (دوساريس) هو نفسه أدونيس، المرتبط بالنور، برب الشمس «إيل» أو «هيليو».

يقول فرانتس ألتهايم: «كان دوساريس الإله الرئيسي عند الأنباط، ويمكن العثور عليه حيثما وصلت إليه قوافلهم التجارية وامتدت منطقة نفوذهم. ومثل كل آلهة الشمس كان لـ «دوساريس» لقب «الذي لا يقهر»، وكانت هناك رابطة بينه وبين «ميترا»، واحتفل بعيد ميلاده في 25 كانون الأول، ومثل سيد حمص الإلهي كان يملك حجراً مقدساً»[1]... ولما كان ميلاد الطفل الإلهي مرتبطاً بالشمس فهو رب النور، وهو «شمش» و«إيا» الذي حذّر رجل الطوفان (نوح) وأمرْ بصناعة السفينة في قصة الطوفان السومرية والبابلية. و«يا» و«إيا» في السريانية والفصحى من أسماء الشمس، و«هلّلويا» تعني بالسريانية: سبّحوا رب النور، مجّدوا الشمس، وقد استمر هذا الهتاف منذ الزمن العربي الموغل في القدم ثم عبر الطقوس المسيحية إلى هذا اليوم.

وإنه مع بدء فصل الربيع في 21 آذار تبدأ أعياد الخصب السورية التي ارتبطت أيضاً بقيامة تموز، أو البعل، أو أدونيس من الموت، ثم تتصل بعيد رأس السنة في الأول من نيسان.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص191.

ولمّا كنا قد فصلنا في موضوع هذه الأعياد في كتابنا الثالث، فإننا الآن ننتقل مباشرةً إلى الأعياد التي مارسها النازحون السوريون في بلد الاغتراب «أغريقيا». إنها، إلى جانب الأعياد التي كانوا قد ألفوها ومارسوها في الوطن، تتضمن أعياداً أخرى لها ارتباط مباشر بالخصب، من جهة، وبالحياة في ديار الغربة التي تتطلب خلق مناسبات احتفالية خاصة من شأنها أن تجمع أبناء الجنس الواحد وتوحد فيما بينهم، من جهة أخرى.

إن فلسفة أعياد الخصب السورية تكمن في خلق ذلك التوحد الصميمي والحميمي في آن معاً بين الإنسان القديم وأمه الأرض أو الطبيعة، والقضاء على الإحساس بغربته عن الظواهر الطبيعية المحيطة به. ويتجلى ذلك كله بصورة خاصة في أعياد الربيع التي تستمر على مدى ثلاثة أسابيع، من 21 آذار إلى العاشر من نيسان، وتبلغ الاحتفالات العامة ذروتها في عيد رأس السنة السوري في الأول من نيسان الذي يأتي تتويجاً لكل الاحتفالات الدينية، ويبعث فيه الرب الابن، الأقنوم الثالث في عقيدة الخصب، ثانية من الموت.

عيد رأس السنة السوري مع المغتربين:

تقول إيفلين كلنيكل ـ براندت:

«كانت الأعياد من الأحداث المفرحة في حياة البابليين. وكانت المدينة تزخر بالناس، والحركة التجارية، والموسيقى، والضجيج... ومن أهم وأكبر الأحداث عند البابليين عيد رأس السنة الذي يتسم بأهمية أساسية لمجمل حياة الدولة...

«تبدأ احتفالات رأس السنة في مارت (آذار) وتبلغ القمة في الفترة من 1 إلى 11 نيسان، أي في وقت تكون فيه الطبيعة في ذروة جمالها، وبحيث الحياة الجديدة تدب في كل شيء بعد أن يزول برد الشتاء القارس. وكان مركز الاحتفالات هو معبد مردوخ ـ إيزاغيلا والبرج المدرج... وبعد بدء العيد كان رئيس الكهنة يتلو في اليوم الثاني صلاة طويلة وحده أمام الإله وبعد ذلك يسمح لبقية الكهنة بالدخول. وفي 3 نيسان كانت المراسم نفسها تعاد مع تمثالين خشبيين مصنوعين من قبل عدد من الحرفيين، ومغطيين بالملابس الحمراء والذهب والأحجار الكريمة. وفي 4 نيسان ترفع الصلوات لمردوخ وزوجته سارابنيتوم... وفي المساء تروى أمام تمثال مردوخ ملحمة تكوين الخليقة وتقدم بعض المشاهد التمثيلية... وكان المصلّى المعدّ لقدوم الرب الابن في معبد إيزاغيلا يزوّق بسماء ذهبية، ثم ينتظر قدوم الإله من معبده في «فورسبا».

«كان الملك يلعب في الاحتفالات الرسمية دوراً مهماً حيث يدور في أرجاء المعبد، ويلقي كافة شارات الملك أمام الإله، ثم يقدم تقريراً عن أعماله في السنة المنصرمة، ويعترف بذنوبه...

«كانت المواكب المحملة بتماثيل الإله تعود إلى بابل عبر الطرق البرية. ولهذا الغرض أمر نبوخذ نصر ببناء شارع الموكب العظيم الذي يمتدّ بين «دار قيتو» (دار السرور) إلى بوابة عشتار... وكانت عربات المواكب الكبيرة المزوقة تحمل التماثيل وتسير عبر الشارع ذي الـ 300 متر طولاً والذي زخرف جانباه على أرضية زرقاء بأسودٍ ضخمة وحيوانات مقدسة للربة عشتار، وكان عرض الشارع 16 متراً غطي في منتصفه ببلاطات من حجر الكلس، وأما الحواشي من الجانبين فببلاطات من أحجار عرّقت بالأبيض والأحمر، وكانت العربات تسير بهدوء تتبعها مجموعة كبيرة بالموسيقى والرقص، وتعلو الهتافات والتهاليل في كل مكان...

وفي خارج أسوار بابل يتواجد «بيت أقيتو» حيث تقام هناك مراسم دينية أخرى واستعراضات درامية لبعض الأساطير»[1].

«فقصيدة الخلق البابلية «الاينوما إيليش» (حينما في الأعالي) كانت تنشد كل سنة في اليوم الرابع من العيد الملكي للخلق، في رأس السنة الذي كان يقع في الأول من شهر نيسان في بابل. في هذا التاريخ كان مفترضاً أن الزمن أكمل دورته: وكان العالم يعود إلى نقطة البدء... وخلال العيد كان الملك يقوم بتمثيل معركة طقوسية ضد التنين، وبذلك كان يكرر كل سنة المأثرة التي أنجزها مردوك ضد «تهامت» عند نشوء العالم»[2].

تلك هي بعض ملامح صورة الاحتفال بعيد رأس السنة السوري، حيث يتجدد كل شيء في الطبيعة والمجتمع، وحيث تمثل قصة الخليقة وبعض الأساطير الدينية الأخرى تمثيلاً درامياً، وحيث يعود رب الخصب إلى مقرّه الربيعي بعد أن بعث من الموت الشتوي إلى الحياة من جديد مع بدء فصل الخصب ـ الربيع.

---

(1) كلنيكل ـ براندت، المرجع السابق، ص155 – 157.

(2) جان بيار فرنان، المرجع السابق، ص99.

وكنا قد شرحنا من ذي قبل معاني التسميات الواردة. أما «إيزانجيلا» فهي «حيزا أنجيلا» وتعني نبيّة الوحي. وما تزال آثار مدينة «إيزانجيلا» ماثلة إلى اليوم في محافظة إدلب في وسط سوريا، وهي «سارا نجيلا» أي ربة الوحي. وتضيف كلنيكل ـ براندت:

«ومن الأحداث الهامة التي تجري خلال أعياد رأس السنة «الزواج المقدس» بين مردوخ (مردوق، مردوك = الرب الرئيس) وزوجته سارابنيتوم (ربة الكعبة). ويحتمل أن ذلك يعرض من قبل الملك ورئيسة الكهنة حتى يتم ضمان الخصوبة والثروة في البلاد في السنة الجديدة. وترجع أصول هذا التقليد إلى العهد السومري أيضاً. وفي أعياد رأس السنة ينبغي أن تزول الفوارق الاجتماعية. فكان المالكون يخدمون عبيدهم، ويجلس في مكان الملك رجل آخر عليه أن يكفر عن ذنوب الملك وأخطائه في العام المنصرم من حكمه. ومع عودة الإلهة إلى معبدها وسفر «نبو» إلى مقر «فورسبا» كان العيد العظيم يبلغ نهايته»[1].

إن هذه الطقوس هي ما انتقل مع السوريين النازحين إلى بلاد المورة جزءاً أحياناً، أو كلاً في بعض الأحيان. «وقد دخلت إلى أثينا في عهد صولون وبستراتوس»[2].

يقول ديورانت:

«فكان الطلاب (طلاب الأسرار الصغرى) وغيرهم من الناس يحجّون سيراً على الأقدام في وقار وجزل مدى أربعة عشر ميلاً في الطريق المقدس إلى إيليثوس illisus، يحملون فوق رؤوسهم صورة الإله الأرضي ياحوس Iachus، حتى إذا ما وصل الموكب إلى إيليثوس في ضوء المشاعل، وتم وضع تمثال الإله في الهيكل وسط مراسم التعظيم والإجلال، قضوا ما بقي من اليوم في الرقص والغناء المقدسين. تلك هي الأسرار الصغرى. أما الأسرار الكبرى فكانت تدوم أربعة أيام أخرى. وتبدأ بإدخال من تطهروا في الأسرار الصغرى بالاستحمام والصوم. أما الذين مارسوا هذه الطقوس في مثل ذلك الموعد من العام الماضي فكانوا يؤخذون إلى بهو الاندماج في الجماعة السرية حيث يكون الاحتفال السري. وهناك يفطر المبتدئون الصائمون بأن يتناولوا عشاءً ربانياً مقدساً إحياءً لذكرى رب القمح (الذي هو أدونيس أو تموز، أو داجان مع عشتار أو ديميترا)، ثم يشربون مزيجاً مقدساً من دقيق الحنطة

(1) المرجع نفسه، ص157 - 158.

(2) ديورانت، المرجع السابق، ص342.

والماء، ويأكلون الخبز المقدس. ولسنا نعلم أي طقوس خفية كانت تحدث في ذلك المكان، فذلك سر ظل خافياً خلال التاريخ القديم كله، وكان محرماً على أي إنسان أن يبوح به وإلا تعرض للقتل. ولقد نجا إسكيلوس التّقي نفسه من حكم الإعدام بأعجوبة لأنه كتب بضعة أسطر ظُن أنها قد تكشف السر. وكل ما نستطيع أن نقوله أن الاحتفال كان عبارة عن مسرحية رمزية هي أحد مظاهر مسرحية إحياء أدونيس. وأكبر الظن أن موضوعها كان اختطاف فلوطو (الممثل للموت والعالم الأسفل) لبرث سفثوني (= بنت زبد البحر) وتجوال ديميترا الحزينة، وعودة الفتاة العذراء إلى الأرض، والكشف لأتيكا عن أسرار الزراعة. وكانت خلاصة الاحتفال هي زواج خفي بين كاهن يمثل زيوس وكاهنة تمثل ديميترا، وكان هذا الزواج الرمزي يثمر ثمرته بسرعة سحرية عجيبة. فقد كان يعقبه بعد قليل ـ على ما ينقله لنا المؤرخون ـ إعلان صريح بأن «السيدة العذراء قد ولدت ابناً مقدساً». ثم تعرض على الناس سنبلة من الحب ترمز إلى الثمرة التي تمخضت عنها ديميترا نتاج الحقول. ثم يؤخذ العابدون في ضوء المشاعل الشاحب إلى المغارات المظلمة التي تمثل العالم السفلي أو الجحيم، ثم يرفعون بعدها إلى علّية (حجرة عليا) تتلألأ فيها الأنوار وتمثل، على ما يظهر، مسكن الصالحين، وفيها تعرض عليهم وسط مظاهر التعظيم والتكريم الصور المقدسة التي ظلت إلى تلك الساعة مخفية عنهم، ويؤكد العارفون (عورفوي) أن هؤلاء المبتدئين كانوا وهم في نشوة هذا الإلهام المقدس يحسون بوحدتهم مع الإله ووحدة الإله مع الروح (القدس)، وأنهم قد انتشلوا من أوهام الفردية، وأدركوا طمأنينة الاندماج مع الألوهية»[1].

ومن خلال ما تقدم يمكننا أن نقرر:

1ـ أن التراث داخل الوطن السوري هو نفسه الذي انتقل مع النازحين السوريين إلى خارجه. وغايته التعليمية تتلخص في نقل التجمعات السكانية من إسار فردية البطل، والتقوقع في إطار العشيرة، وتمجيد الجد المؤسس، إلى دائرة الفضاء الأرحب المحيط بالوجود البشري بما فيه من نبات، وإنسان، وحيوان، وأفلاك، تنظمها جميعاً قوانين بمثابة «أنوناقي» (ضرورات) والاندماج، عن طريق فن الزراعة والتدجين والتطعيم، مع الطبيعة في دورتها الإخصابية اندماجاً حميماً لا اغترابياً.

(1) المرجع نفسه، ص342 - 343.

2ـ إن المؤرخين في الغرب ظلوا على جهلهم في فهم رموز تلك التمثيليات الأسطورية السورية المتعلقة بدورة الخصب. لقد كان السوريون يمثلون تلك الدورة في أربعة أيام بدءاً من موت الخصب في شهر تموز إلى بعثه وقيامته من الموت في بداية الربيع في الرابع والعشرين من آذار. فهم يختصرون الأوقات الأربعة، أو الفصول الأربعة في أربعة أيام. فإذا كان الخصب، أو ربّ الخصب، يموت في الصيف، ويستولي اليباس على الزروع وعلى حقول القمح خاصة، ويدفن في الخريف، كما تدفن البذور في رحم الأرض، فإنه يبعث في الوقت الثالث (اليوم الثالث رمزياً) في بداية الربيع، فتتجلى عشتار ساحبة من خلفها ثوبها المطرز بجميع أنواع الزهور على الطبيعة. وهذا الظهور، أو التجلّي، هو ما عبروا عنه بكلمة «فصحا» السريانية Pascha، وهو عيد الفصح، وتعني الكلمة: الجلاء، التجلي، الوضوح، الإشراق، النور، البهاء، الجمال، الفرح. وهي من الفعل «فصح»: فصح، سني، تلألأ، فرح... وقد انتقلت الكلمة إلى كل اللغات الأوروبية، وحافظت على شكلها السرياني في أوروبا الشرقية نقلاً عن اليونانية ـ السورية Pascha.

3ـ إن هذا التراث السوري القديم انتقل كما هو بطقوسه وشعائره وأعياده إلى المسيحية البيزنطية التي دمرت وجوده في سوريا بالكامل بحجة أنه تراث وثني[1]، وأبقت عليه في الغرب بعد أن جردته من طقوس الألعاب والمسرح والاغتسال والطهارة. فمن المعلوم أن التراث السوري، والعربي عموماً، كما كان ينظر إلى المعبد «بيتاً للإله» فإنه كان ينظر إلى الجسد «بيتاً للروح» أو «هيكل الروح»، وكما كان لا يسمح بالدخول إلى حرم المعبد إلا بعد التطهر فإنه كان يحرص على ألا يقرب الصلاة إلا بعد تطهير الجسد. لقد شرّع الوضوء بشكل موثق كتابياً منذ الألف السادس قبل الميلاد في كتاب آدم الرسول «كنزا رابا» (الكنز الكبير) خمس مرات في اليوم[2]. وقد نقل النازحون السوريون معهم هذا التقليد إلى بلاد المورة. «فصارت المنازل، والهياكل بل والمدن بأجمعها في بعض الأحيان تطهر بالماء أو بالدخان كما نطهرها نحن الآن. وكان وعاء به ماء نظيف يوضع عند مدخل كل هيكل حتى يطهر به نفسه كل قادم للتعبد، أو لعله كان رمزاً يوحي للناس بضرورة

---

(1) ألكسندر كرافتشوك، الوثنية والمسيحية، ترجمة كبر ولحود، دار الحصاد، دمشق، 1996.

و: بيير شوفان، أواخر الوثنيين، ترجمة سلمان حرفوش، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997.

(2) ناجية مرّاني، مفاهيم صابئية مندائية.

التطهر، وكان الكاهن نفسه خبيراً بأصول الاغتسال أو التطهر»[1]. ولقد سجل هيرودوت ملاحظة هامة جداً في هذا المجال مشيراً إلى استمرار العادات الآشورية: «عندما تصل بابلياً زوجته، يحرق بخوراً ويجلس بجانبها، وتفعل عروسه الشيء ذاته. إنهما يغتسلان من بعد هذا الواحد والآخر في مطلع الشمس، لأنه لن يسمح لهما بممارسة أي شيء إذا لم يغتسلا أولا» وهو يضيف: «إن العرب يفعلون الشيء نفسه»[2]. وكان السوريون أول من ألحق الحمامات والبانيو بالدور وبالقصور، تشهد على ذلك حمامات القصور المكتشفة في مدينة ماري والتي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ثم نقلوها معهم إلى بلدان انتشارهم، وبخاصة إلى روما، وذلك على أيدي الأباطرة السوريين كالإمبراطور كاراكلا، أو المتحدرين من سوريّي إسبانيا كالأباطرة الأنطونيين.

بينما جاء أباطرة بيزنطة بالقديسين المتحدرين من همج أوروبا ليُصدروا الفتاوى بتحريم الاغتسال، ونضرب مثالاً على ذلك ما فعله القديس هيرونيم المنحدر من المنطقة ما بين دلماشيا وبانونيا، واستقر في بيت لحم، والذي كتب في رسالة إلى سيدة تدعى «ليتا» طلبت إرشاداته في الطريقة التي تربي فيها ابنتها:

«لا تعجبني إطلاقاً استحمامات الفتاة الراشدة، إذ يجب أن تخجل من نفسها وألا تتقبل رؤية عريها. فإذا كانت تجعل جسمها يهزل بالسهر والصيام وترغب في إطفاء نار الشهوة وجمر نار الشباب بجليد الزهد، وتسعى لمسخ الجمال الفطري بالأوساخ المتعمدة، فلماذا إذن تعمل بفعل دوافع معاكسة؟ تهيّج اللهب الخامد بواسطة هذا الإضرام الذي يلعب فيه الحمّام دوره؟» ويتابع في رسالة ثانية: «أيصبح ملمس جلدك خشناً لأنك حرمته من الحمّام؟ ولكن من اغتسل مرة بيسوع ليس مضطراً لأن يغتسل مرة ثانية»[3].

«لقد استمرت ظاهرة الطهارة والاغتسال ملازمة للسوريين وحدهم منذ زمن عشتار وكانت إحدى السمات الدالة على وجودهم في تلك الأصقاع. تصف لنا الوثائق السورية القديمة المكتشفة كيف تتزين عشتار للقاء المعشوق دومحوزي (دوموزي، تموز) الذي صار سنّة لكل النساء السوريات عند الزواج فتقول على لسان عشتار:

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص355.
(2) روسّي، المرجع السابق، ص76ـ77.
(3) أ. كرافتشوك، المرجع السابق، ص35.

«عندما أكون من أجل الثور البري، من أجل الرب، قد استحممت،
عندما أكون بـ... عطفيّ قد زينت،
عندما أكون بالعنبر ثغري قد طليت،
عندما أكون بالكحل عينيّ قد كحلت»[1].

وفي مكان آخر:

«أختاه، لماذا أغلقت على نفسك في البيت؟
يا صغيرتي، لماذا أغلقت على نفسك في البيت؟
اغتسلت، تصوبنت،
اغتسلت في الحوض المقدس،
تصوبنت في الحوض الأبيض،
ارتديت طيالس الملك، ملك السماء،
لذلك أغلقت على نفسي في البيت،
كحلّت عينيّ بالكحل،
وثبتّ تسريحة شعري الـ...
وحللت ضفائري،
واخترت السلاح الذي يجعل أمره أكيداً
وسوّيت شفتيّ، وجمعت الجدائل المرتخية على حافة قذالي»[2].

«وللعناية بنظافة جسد وشعر المرأة والرجل كانت تستعمل زيوت تكسبها النعومة والطراوة، وكانت الزيوت المعطرة غالية الثمن... وكان يفضل عادة زيت السرو والآس والسدر لرائحته الجيدة. وللغسيل كان يستعمل الصابون الذي يتكون من أوكسيد الصوديوم أو البوتاسيوم الممزوج بزيت الزيتون الحر الجيد. وكان البابليون يتخذون من حين لآخر حمامات بخارية ساخنة»[3].

---

(1) صموئيل كريمر، طقوس الجنس المقدس، ترجمة نهاد خياطة، 1986، دار الغربال بدمشق، ص95.
(2) المرجع نفسه، ص155.
(3) إيفلين كلنيكل - براندت، المرجع السابق، ، ص56.

أما السكان الأصليون في المورة وأوروبا فلم يعرفوا الاستحمام بالماء الساخن والصابون (الذي هو كلمة سريانية: صافون = صابون، رغوة) إلا منذ مائتي عام أو أكثر بقليل. يقول ديورانت عن سكان لندن على سبيل المثال: «أما عن قذارة سكان لندن في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد بلغ حداً أن أحداً لم يكن يعرف الاستحمام خلال عام كامل»[1].

وأعياد أخرى:

ومن الأعياد الملحقة بأعياد الخصب عيد ما دعي بـ «حياكينتيا» Haia cinthia وتعني بالسريانية «إحياء الغريزة، بعث الطبيعة» إذ أن «حيا» تعني حياة، إحياء، بعث. و«كينتا» تعني: غريزة، طبيعة، شهوة... إلخ.

وعيد الأغنية «كيرينيا» Cerenia. والكلمة سريانية وفصحى، وهي في الفصحى الكرينة Carina وتعني الأغنية، وقد تحولت في اللاتينية إلى «سيرينا» لوقوع الكاف قبل حرف علة. والـ«سيرينات» اللاتي خلبن ألباب جماعة أوديسيوس في الأدويسا بأصواتهن العذبة هنّ «الكرينات» أي المغنيّات. «كانت الجماعات فيه تتبارى في إقامة حفلات الرقص والغناء الفخمة»[2].

وعيد الـ «تزموفوريا» Thezmophoria ويعني بالسريانية تهييج الإخصاب. وهي مؤلفة من «تيزو» وتعني: إثارة، تهييج، وهي من الفعل «تز» ويعني: أثار، هيّج، حرّك، و«تزيزوت»: هيجان، استعار، كثرة الحركة. «تزيزو»: ثائر، هائج، مغتلم. و«موفوريا» من الفعل «فري»: أخصب، أثمر، نسل. «كانت نساء أثينا في هذا العيد يقمن بطقوس أرضية عجيبة، يعرضن فيها رموزاً لقضيب الرجل، ويتبادلن فاحش القول... ويبدو أن هذه الحفلات كانت رمزاً للإخصاب في الأرض وفي الآدميين»[3].

وعيد «أنقيتو تريا» anechteteria ويعني «إراقة الخمر» وهي في القاموس السرياني من الفعل «نقي ـ نوقيا» أي: ضحّى، قرّب، رش، أراق، سكب. نوقوي: خمر، خمر التقديس، دم يرش على الذبائح، كاس، زجاجة.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 35، ص106.

(2) المرجع نفسه، الجزء السادس، ص143.

(3) المرجع نفسه، ص362.

أما «تريا» فتعني: الخمر، النبيذ. يقول ديورانت الذي ترجم التسمية خطأ إلى «عيد الزهور»: «والأنشتريا، أو عيد الزهور، وهو أهم الأعياد الثلاثة. وفي هذا العيد الربيعي الذي يقام تكريماً لأدونيس ويدوم ثلاثة أيام كاملة كانت الخمر تجري كالأنهار، ولم تكن ترى إلا سكارى على درجات متفاوتة من السكر. وكان الناس يتنافسون أيهم يفوق غيره في كثرة الشراب، والشوارع تعج بالحياة والمرح»[1].

وهناك أعياد خاصة بكل من الأرباب على حدة مثل: الأفروديسيا المخصص لأفروديت في الأول من نيسان، والـ «زيوسيا» المخصص لزيوس، والـ «أرتميسيا» المخصص لأرتميس... إلخ.

ب ـ مهرجانات المغتربين السوريين:

وعلاوة على هذه الأعياد فقد أحدث السوريون أعياداً هناك من شأنها أن تجمع كل الناس بعضهم إلى بعض في مغتربهم ودعوها أعياداً أو مهرجانات. والكلمة بالسريانية هي «باني» bani وتعني: عيد، مهرجان، وقد تحوّلت في الغرب إلى Pan وفهموها بمعنى كل، جميع! من هذه الأعياد مثلاً «باني أثينياي» أي مهرجان الأثينيين، وقد أسسه المصلح السوري المهاجر «صولون».

و«باني جوري» أي مهرجان الأغراب أو المغتربين، والكلمة في القاموس السرياني من الفعل «جَرْ ـ جورا» ويعني: تغرّب، جار، فسق. ويترجمها ديورانت بـ «الحفلات العامة الجامعة»[2] و«باني إيونيا»: مهرجان اليونان. ولم يكن يسمح بالمشاركة في تلك الأعياد لغير السوريين المهاجرين من القدامى والجدد فقط.

4ـ مظاهر المعجزة الحضارية الأخرى:

إن استعراضاً بسيطاً لمجمل المظاهر الحضارية المدهشة التي ظهرت فجأة على أرض الإغريق القارية يرينا كيف أنها لم تكن تتعدى الجزء المحمول مع النازحين السوريين اعتباراً من منتصف القرن السادس قبل الميلاد جرّاء زحف الجيش الفارسي باتجاه المضائق وجزر إيجه. والمؤرخون في الغرب لا ينكرون هذه الحقيقة، لكنهم يرفضون تسمية أولئك النازحين بالسوريين، علّهم في ذلك يتمكنون فيما بعد من «فبركة» جذور «هندو أوروبية» مزعومة لتلك الحضارة.

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص363.

ففي مجال الفلسفة جاء الفلاسفة من إيونيا «بعد أن دخلت في سبات عميق بعد الفتح الفارسي أولاً، بعيد منتصف القرن السادس، وبعد قمع ثورتها ثانياً في أوائل القرن الخامس»[1]. لقد جاء بعض الفلاسفة مع الموجة الأولى من النازحين، وأسسوا مدارسهم الفكرية في أثينا التي تربت عليها الأجيال اللاحقة على مدى قرنين هما زمن الاحتلال الفارسي لسوريا. وطبيعي أن يحدث هذا الفكر المهاجر صدمة لدى الإغريق القدامى في أتيكا وغيرها.

«إن أنا كساجورا مثلاً (ويعني لقبه بالسريانية الضيف المغترب، أو الوافد المغترب) الإيوني المنشأ والمقيم في أثينا قد أقيمت عليه الدعوى لأنه علّم أن الشمس كتلة متأججة نافياً عنها بذلك صفة الألوهية»[2].

«وحدثت في النصف الثاني من القرن الخامس ثورة السفسْطيين الفكرية والأخلاقية معاً... فهم قد تجاوزوا إطار الفلسفة تجاوزاً واسعاً متناولين جميع نواحي المعرفة ومعتمدين فيها طريقة واحدة، وهي طريقة ثورية في جوهرها لأنهم لم يهتموا للمواضيع المجردة بل أعلنوا، كما قال بروتوجورا أحد مشاهيرهم، أن الإنسان هو قياس كل شيء... ومهما يكن من أمر فإن ما نهضوا به فوز لروح النقد التي استسلموا لها، محتقرين التقاليد احتقاراً كلياً، وأخذوا بمبدأ الذاتية على أساس استحالة أية معرفة موضوعية. وكان من شأن هذا المبدأ أن يذهب بهم بعيداً: فلا سبيل إذن لنفي أو إثبات وجود الآلهة، ولا سبيل لاعتبار الشريعة (الناموس) الذي تأسست عليه الـ «بولي» كواقع غير بشري في مأمن من التقلبات البشرية، ولا سبيل لمعرفة حق مطلق وعدل مطلق يسموان على ما هو مفيد ويتميزان عنه. وهكذا فإن كل شيء قد أصيب بهزة عميقة»[3].

أما كلمة «سفسطة» فهي من الفعل السرياني «سفيس ـ سوفاسا» ويعني: أبلى، أفسد، غيّر، بدّل. وليست «كلمة يونانية» تعني «رجل المعرفة» كما يخمّن إيمار[4].

---

(1) إيمار، المرجع السابق، ص309.

(2) المرجع نفسه، ص382.

(3) المرجع نفسه، ص383.

(4) المرجع نفسه، ص382.

«ففي أثينا أسس الفلاسفة الأجانب مدارسهم التي أقبل عليها تلاميذهم... واحتلت أثينا منذ ذاك العهد مركزاً لم تعرفه من قبل... وبفضل أفلاطون وأرسطو اللذين سيستمر أثرهما طويلاً حافظت فلسفة القرن الرابع على مستواها في القرن الخامس»[1].

«لقد بدت هذه الثورة الفكرية مفاجئة وعميقة إلى حد أنه ساد الاعتقاد بأنها غير قابلة للتفسير بتعابير السببية التاريخية: فقالوا بأعجوبة يونانية»[2].

لكن هل يبقى الصمت عن قول الحقيقة أبدياً؟ وهل تبقى خشبة «المعجزة» أو «الأعجوبة» التي يتمسك بها بعض «مكيّفي» التاريخ في الغرب صالحة وآمنة للإبحار في كل العصور؟ بالتأكيد لا.

يقول الباحث الفرنسي بيير روسي:

«إنه ليس هناك فيلسوف إغريقي لم يكن يحدّث عن الشرق ويقول إنه تلميذه. ليس هناك واحد منهم لم يولد من الشرق أو يسافر إليه طلباً لاكتشاف الماضي... إن الفيلسوف الشهير سقراط في دفاعه عن نفسه الذي ألفه اكسينوفون يعدّد الأبطال الذين يرغب في لقائهم بعد موته ويذكر «عورفي» (مؤسس تعاليم العورفية (الأورفية) السرية) بين أوائلهم... إن فيثاغورس من صاموس، وهيراقليط من إفصوس، وبارمينيد من إيليا لا نعرف أياً من الثلاثة كان يتحمس لأجداده أكثر، ولكن من المؤكد أنهم رفعوا دفعة واحدة التفكير الإغريقي إلى أعلى مستوياته. ولقد تمّ لهم ذلك لأنهم كانوا الأوائل الذين متحوا بصورة مباشرة من المنابع الأصلية»[3].

«لقد كان أرسطو، المعاد النظر فيه و«المصحّح» من قبل الجامعة، قد جرّد من ثقافته الأسيوية، وعزل عن مجتمعه الخاص، ثم وضعت صورته كمادة زخرفية في مدخل معبد الأفكار التراثية. إنه لأرسطو مزيّف، وإن واحداً من المسؤولين «النابغين» عن هذا التزوير لم يكن سوى توماس الأكويني»[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص387.

(2) جان بيار فرنان، المرجع السابق، ص92.

(3) روسي، المرجع السابق، ص 119 - 120

(4) كيتو، المرجع السابق، ص38.

ولقد كنا قد استعرضنا ما ذكره ديورانت وغيره حول نقل كل مظاهر الحضارة من شرق المتوسط إلى بلاد الإغريق بما في ذلك علم الحساب، والهندسة، والمكاييل، والموازين، وعلم الفلك، والطب، والكتابة، والحروف، والنظام الستيني، والديانة، والمسرح، والأدب، والأساطير، وفن العمارة، والزخرفة، والتصوير، والألعاب، والموسيقى، والآلات الموسيقية، والرقص، والعادات، والتقاليد، والعرافة، وقراءة كبد الذبيحة، وتعشير إنتاج الأرض للمعابد، وزراعة الزيتون والكرمة، وصناعة الخمور، والمضافات، والمآدب، وحتى أكلة «الثريد» Tharide بلفظها ومحتواها... وبكلمة: إن كل ما ظهر على أرض المورة ما بين 550 و350 ق.م. من مظاهر حضارية كان سورياً خالصاً ناجماً عن النزوح المفاجئ من الشمال السوري، ثم اختفت ملامحه نهائياً بعد عملية التحرير من الاحتلال الفارسي وعودة النازحين إلى الوطن.

«إنه لمن المدهش أن كتبنا المدرسية تعاند في ذلك معتبرة المدينة الإغريقية مخلوقة من العدم، ومنبجسة بإعجاز من «العبقرية الهيلينية» دون أن تقيم أي اعتبار لأصولها القانونية الأكيدة. وإنه لأمر أكثر إدهاشاً كذلك أن مؤرخينا قد تكلموا عن سيطرة إغريقية على الشرق، بينما كانت قوة المدن اليونانية لدى مقارنتها بالإمبراطورية المصرية أو السورية (البابلية) لا تعدو كونها مشابهة لإمارة أندورا بالقياس للولايات المتحدة الأمريكية... فماذا يمكن أن تزن بلاد الإغريق الفقيرة أمام الاقتصاد الزراعي المصري أو السوري الرافدي الضخم، وأمام هذه التنظيمات الصناعية، والبحرية، والمالية الموطدة في الشرق وسط ملايين العمال، والمهندسين، والعلماء الذين تسوسهم وتدير أمورهم دول مركزية منذ عهود قديمة؟!»[1].

«إنه لمن المنطقي التفكير أن فلسفة ذات تعبير آرامي قد وجدت لدى «الهيلينيين» قبل أن تأخذ طريقها الإغريقي. فمن الأصح عوضاً عن الحديث عن «فلسفة إغريقية» أن يقال «فلسفة ذات تعبير إغريقي». إن ذلك ليجنبنا سذاجات مثل التأكيد على خلق شيء من العدم، فالفكر الإغريقي قد وجد في الفكر الشرقي مادته الواسعة الموجودة من

(1) روسّي، المرجع نفسه، ص158 - 159.

قبل... والشرق يعمل على مستوى أعلى من مستوى بلاد هيلياد الصغيرة. فلقد كان أفلاطون وبركليس والاسكندر فيها واعين ومدركين لحدودهم تماماً. ونحن، وليسوا هم، الذين جعلوا من اليونان مصدّرة المعرفة العالمية. فلقد كان أفلاطون يقدم نفسه ببساطة تلميذاً وديعاً، وهو بذلك يضع في فم تيماوس على فم كاهن مصري متوجهاً بحديثه إلى صولون هذه الكلمة الأبوية: «أنتم، أيها اليونان، لستم إلا أطفالاً»[1].

بعد أن أوضحنا الصورة السكانية والحضارية التي أحدثها الزلزال الفارسي المفاجئ على الأرض السورية وفي جوانب «البِرْكة» الممثلة ببجر إيجه، صار في إمكاننا الآن أن ننتقل مباشرةً إلى مجريات الصراع نفسه بين «المتحدين» السوريين في الوطن والمهجر، من جهة، والفرس والفينيقيين الذين تحالفوا معهم من جهة أخرى.

(1) روسّي، المرجع نفسه، ص120 - 121.

القسم الثالث

الفصل الأول

‹المتحدون› السوريون
والصراع ضد الاحتلال الفارسي والتحرير

من أجل أن تبقى صورة الأوضاع السياسية والعسكرية في سوريا وما يمتد منها غرباً في بلاد المهجر (الإغريق) واضحة في ذهن القارئ نذكّر بما يلي:

1ـ بعد أن سقطت بابل عاصمة الدولة السورية المركزية في أيدي القبائل الفارسية، نتيجة لظروف وصراعات داخلية وخارجية مررنا على ذكر بعضها، أصبح الطريق ممهداً أمام كورش للتقدم عبر الشمال السوري إلى المضائق والسواحل السورية الإيجية. وهذا الأمر تابعه ونفذه «قنبيس» (قمبيز) ودارا الأول.

2ـ إن المدن في الشمال السوري فشلت في ثوراتها الانفرادية الأولى، كما فشلت في العثور على حليف قوي يعضدها. «وقد أدى ذلك إلى خضوع أغلب تلك المدن للحكم الفارسي، ومن رفض الخضوع هاجر كما فعل أهل مدينة «فوقيا» التي قيل إن نصف سكانها قد هجروها»[1]. وسقطت منطقة «ليديا» (الحيديا = المتحدين) بالكامل في القبضة الفارسية عام 546 ق.م. بعد أن سقطت مدينة سرديس في قبضة الفرس.

3ـ نتيجة لهذه الهجرة شهدت بلاد المورة ازدهاراً حضارياً مفاجئاً، «امتدت فترته لتشمل كل القرن الخامس والنصف الأول من القرن الرابع، ويطلق المؤرخون الأوروبيون على هذا العصر اسم «العصر الكلاسيكي»»[2]. ولم يعد يخفى على القارئ بعد ما بيّنّاه كيف أن الغرب يلجأ إلى هذه التسميات الوصفية فقط حين يرمي إلى تغييب الهوية القومية للسكان وللحضارة.

(1) مكاوي، المرجع السابق، ص 132.

(2) المرجع نفسه، ص 135

4ـ كان الجيش الكبير الوحيد على الساحة في تلك الفترة هو الجيش الفارسي الذي ضم كل الذكور من أبناء المنطقة ممّن يتراوح سنهم ما بين سن الخامسة عشرة والخمسين، مستخدماً في سبيل ذلك أشدّ الأساليب قسوة ووحشية، فصار ذلك الجيش جمعاً غريباً متنافراً لا يجمعه شيء سوى الرعب من الإعدام بالطرق الهمجية التي أوردها هيرودوت واستعرضنا بعضاً منها.

5ـ قامت بابل بالثورة ضد الاحتلال الفارسي، فارتد إليها جيش كورش الثاني وأخمد ثورتها ودمّرها في عام 539 ق.م. إذ لم تقم لها بعد ذلك قائمة على مدى قرنين.

6ـ في عام 525 ق.م. تمكن قنبيس (قمبيز) المصروع من أن يضم مصر وادي النيل إلى نفوذه.

7ـ في عام 521 ق.م. اعتلى داريوس الأول عرش فارس. وفي عهده بدأت ثورات المدن السورية تأخذ طابعاً منظماً بعد أن انضمت إليها قطع الأسطول السوري المتواجدة قرب السواحل وفي الجزر، كما انضم إليها السوريون النازحون إلى بلاد المورة وبالأخص من كان منهم في أثينا وجوارها من أرض أتيكا. وفي عهده حدثت ثورة مدن إيونيا في الشمال السوري، كما حدثت معركة ماراتون الشهيرة. ثم مات عام 486 ق.م. وخلفه أكسيركسيس.

8ـ ولما كان هيرودوت قد كرّس الجزء الأكبر من تاريخه لرصد أحداث ذلك الصراع، وكان الأقرب إليها في المكان والزمان، وبالرغم من كل ما لحق بتاريخه من الاختزال والتحوير والتزوير من خلال عمليات النقل الكثيرة عن النص الأصلي الذي تم إخفاؤه بعناية، كما تمّ إخفاء كتابه الآخر الأهمّ وهو «تاريخ آشور»، فإننا سوف نتابع تلك الأحداث من خلال تاريخ هيرودوت بالمقام الأول.

9ـ لما كان الفرس ـ كما سبق أن أوضحنا ـ مجموعات من القبائل البدوية السامية، في معظمهم من رعاة الإبل، فلم يكونوا رجال بحر، ولم يكن لديهم سفن أو أسطول. وبالتالي فإن التوجه إلى منطقة المضائق والجزر لم يكن في حد ذاته مطمعاً فارسياً بقدر ما كان مطمعاً للتجار الفينيقيين الذين ـ كما سبق أن أوضحنا ـ لم يكن يشدّهم أي انتماء إلا لمصالحهم التجارية الخاصة الأنانية، البعيدة كل البعد عن الانخراط في دورة

الدولة المركزية الواحدة. فوجدوا في تفكك الدولة السورية فرصتهم السانحة للتحالف مع الجيش الفارسي من أجل تحقيق تلك المطامع الأنانية الضيقة على حساب مصالح الدولة السورية ككل.

ولما كان هيرودوت قد أوضح لنا هذه الحقيقة فمن غير الطبيعي أن نتجاهلها كما تجاهلها المؤرخون في الغرب الذين قصدوا في ذلك تزوير الحقائق، وتحويل ذلك الصراع من صراع بين السوريين المتحدين وأسطولهم من جانب، والفرس والأسطول الفينيقي من جانب آخر، إلى صراع بين أوروبا وآسيا، بين الغرب والشرق، بين «الآريين» و«الساميين»، متنكرين هذه المرة للبدعة التي اختلقوها هم أنفسهم، وجعلوا فيها الفرس من «الآريين»!

10. لما كان السوريون قد عمروا صقلية، وجنوب إيطاليا، وكريت، وجنوب فرنسا، وسردينيا، وجنوب إسبانيا، وقادس في المحيط الأطلسي، فقد كانوا يسيطرون سيطرة تامة على تجارة البحر الأبيض المتوسط. وإذا كان تدمير طروادة في الشمال قد استغل من قبل التجار الفينيقيين الذين كان لهم الباع الكبير في تدميرها من أجل تأسيس قرطاجة، فإن الاحتلال الفارسي لسوريا كان الفرصة الذهبية للقرطاجيين من أجل غزو المواقع السورية في صقلية وجنوب إيطاليا لقطع طريق تجارة المتوسط من منتصفها والاستئثار بها، لأن السوريين كانوا وحدهم سادة التجارة البحرية والبرية، أما الفرس فلم يكن لهم أية علاقة بالبحر حتى ذلك التاريخ. إن هذا تحديداً هو ما أكده المؤرخ السوري الإغريقي إيفورو Ephorus في السفر الذي وضعه عن تاريخ العالم وكان يضم ثلاثين كتاباً لم يبقَ منه إلا شذرات قليلة مرتبة حسب الموضوعات. وقد اقتبس منه المؤرخون القدماء وعلى وجه الخصوص ديودور الصقلي.

فقد ذكر «إيفورو»:

«أن وفداً مشتركاً من الفرس والفينيقيين توجه إلى قرطاج قبل الحرب مباشرة، وكان يحمل عرضاً بأن يبحر الأسطول القرطاجي القوي إلى صقلية أولاً، فيصفّي قوة السوريين الإغريق (النازحين) في الجزيرة، ثم يتجه بعد ذلك إلى شبه جزيرة البيلوبونيز (في بلاد المورة) ليساعد الفرس هناك»[1].

(1) تاريخ هيرودوتس الشهير، ص 486

«ويذكر ديودور الصقلي أن أكسيركسيس أرسل وفداً إلى قرطاجة بهدف توزيع الأدوار، فيهاجم الفرس بلاد الإغريق في نفس الوقت الذي يسير فيه القرطاجيون ضد إغريق صقلية وجنوب إيطاليا. وقد ذكر ديودور أن اتفاقاً بهذا المعنى قد تم توقيعه»[1].

11- لهذا فإن الصراع ضد الفرس ما لبث أن اتسع ليشمل كل مواقع انتشار السوريين في وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط بعد أن تكفل الفينيقيون بأخذ ذلك الجانب من الصراع على عاتقهم بدلاً من الفرس الذين لا يملكون أسطولاً. وكانت عبارات «ديدون» (أليسار) ما تزال ترن في ذاكرة القرطاجيين حينما غادر الكاهن الطروادي «عنيا» (إنياس) مع جماعته شواطئ قرطاجة سراً إلى مواقع السوريين في جنوب إيطاليا بناء على نصيحة أمه عشتار لتبقى نار الحقد مستعرة بين الطرفين على مرّ الأجيال كما صرحت بذلك ديدون: «ستبقى نار الحقد مستعرة، وستكون حرب بين نسلي ونسلك إلى الأبد»[2].

12- إن هذا تحديداً هو الذي دفع بالسوريين إلى خلق «روما» من شبه العدم، لتتولى مهمة القضاء على قرطاجة، ولتضطلع، فيما بعد، بالدور الكبير: حماية خطوط التجارة السورية الدولية في البحر الأبيض المتوسط أولاً، ثم في كل البقاع. (وهذا ما سوف يكون موضوع كتابنا الخامس).

«المتحدون» السوريون ومعركة ميليثا:

كانت مدن الشمال السوري قد قامت بعدة ثورات ضد الاحتلال الفارسي كان مصيرها الفشل جميعاً، وكان آخرها بزعامة «أرستاجورا» (سيد المغتربين) الميليثي.

بعدها تجهز الجيش الفارسي لاقتحام مدينة «ميليثا» أهم الحواضر السورية في الشمال من البر والبحر.

---

(1) المرجع نفسه، ص146.

(2) فرجيل، «الانيادا».

يقول هيرودوت:

«فجمع قواد الفرس قواتهم المتفرقة، وضموا شراذمهم جيشاً واحداً، ومضوا رأساً إلى عاصمة يونيا لا يلتهون بالمدن الصغيرة التي لا يحسبون لها حساباً. وبين الجيوش البحرية كان الفينيقيون يظهرون حماسة زائدة، وكان بصحبتهم أهل قبرص وهم مخضعون حديثاً، وأهل كيليكيا ومصر. ولما شاع الخبر بأن الجيوش آتية لتهاجم ميليثا وسائر يونيا اجتمع هؤلاء وقرروا ألاّ يقاوموا الفرس بجيش بري، وأن الميليثيين يدافعون عن مدينتهم بأنفسهم، وأن يتم تجهيز كل السفن بلا استثناء واحدة منها. فمتى تمت يجتمع الأسطول بأسرع ما يمكن في لاذا ليحارب انتصاراً لميليثا، ولاذا مرفأ صغير تجاه ميليثا»[1]. وهكذا اجتمعت أساطيل اليونان (أهل يونيا)، والإيوليين، وأهل جزيرة لسبوس، وصاموس، وفوقايا، «ومجموع الكل 353 سفينة»[2] هي كل ما أمكن جمعه من الأسطول السوري آنذاك.

«وكان أسطول البرابرة مؤلفاً من 600 سفينة»[3]. (فجأة يتحول الفرس إلى «برابرة» ولم يعودوا «آريين» لأنه يفترض أن «الآريين» لا يُهزمون!).

وخاف الفرس ألاّ يقووا على مقارعة الأسطول السوري، فجمعوا الوجهاء السوريين الذين لجأوا إليهم بعد أن طردهم أرستاجورا لرفضهم الانضمام إلى ثورته، وقالوا لهم: «هو ذا وقت إظهار غيرتكم في خدمة الملك. ليجتهد كل واحد منكم أن يفصل أهل بلده عن بقية «المتحدين». عِدوهم أنهم لا يعاقبون لأجل ثورتهم وأن منازلهم لا تحرق بالنار سواء أكانت مقدسة أو مدنسة... لكن إذا امتنعوا عن إجابتكم وأصروا على إثارة الحرب فتوعدوهم بكل الأضرار التي ستقع عليهم قطعاً... وأكدوا لهم أنهم سيستعبدون، وتُخصى أولادهم، وتحمل بناتهم إلى بقطرة، وتعطى بلادهم لشعوب أخرى». «لكن الذين خوطبوا بذلك رفضوا هذا القول باحتقار، ولم يشاؤوا أن يخونوا المصلحة العامة... واجتمع «المتحدون» في لاذا للمشورة، وأبدوا عدة آراء، وكان بينهم أدونيس قائد الفوقيين فأبدى رأيه بهذا الكلام: أيها المتحدون، مصالحنا قائمة على حد الموسى، ليس لنا حد أوسط بين الحرية والعبودية، لكن أية عبودية!»[4].

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب السادس: 6، 7، ص 386 – 387.
(2) المرجع نفسه، ص 387.
(3) كيتو، المرجع السابق، ص132.
(4) كل تفاصيل الصراع من الآن فصاعداً نقلاً عن هيرودوت.

وتسلّم أدونيس قيادة الأساطيل، وعكف على تدريب الرجال تدريباً طويلاً عنيفاً جعل الكثيرين يتخلون عنه قبل بدء القتال.

«ولما قدم الفينيقيون سفنهم لمحاربة اليونان تقدم هؤلاء أيضاً إليهم بسفنهم في صف ضيق، ولما تدانى الأسطولان قامت المعركة... وهرب الصاموسيون واللسبوسيون، ومن الذين ثبتوا في القتال أهل ساقوس... وكانوا قد أتوا بمائة سفينة، في كل واحدة أربعون بطلاً من نخبة أبطالهم. فلما شعروا بخيانة أكثر المتحدين لم يقتدوا بهم، بل اشتغلوا بالقتال... إلى أن فقدوا أكثر سفنهم ففرّوا حينئذ إلى جزيرتهم مع من بقي معهم».

«أما أدونيس الفوقي فلما رأى أمور المتحدين سقطت، أخذ ثلاث سفن من سفن الأعداء، ومضى عجلاً في الحالة التي كان فيها لا إلى فوقايا لعلمه أنها ستؤخذ ويستعبد أهلها مثل سائر مدن يونيا، بل مضى رأساً إلى فينيقيا، حيث غرّق بعض السفن التجارية، ثم أقلع إلى صقلية ومعه مال كثير ممّا سلبه من سفن الفينيقيين، وهناك أخذ ينهب مراكب القرطاجيين والتيرانيين ولا يمسّ مراكب الأغارقة السوريين».

«وبعد انهزام الأسطول اليوناني حاصر الفرس ميليثا براً وبحراً، وضربوها بكل أنواع الآلات الحربية، ثم حفروا لغوماً تحت أسوارها وأخذوها عنوة... واسترقّوا أهلها».

«لقد قتل الفرس أكثر أهل ميليثيا، واستعبدوا النساء والأولاد، وأحرقوا ونهبوا السور المقدس والهيكل ومهبط الوحي في ديدوما، وساقوا الأسرى وأرسلوهم إلى سوسة، وأرسلهم دارا ليقطنوا على بحر أريتريا (الخليج العجمي) حيث يصب دجلة في البحر».

ولقد أظهر المهاجرون السوريون في أثينا حزنهم العميق على ميليثا أم الفلاسفة والرياضيين والموسيقيين والصناعيين، «ولما مثلت رواية فريتيكو التي موضوعها «أخذ ميليثا» لم يبقَ أحد من الحاضرين إلا بكى، حتى أنهم غرّموا هذا الشاعر بألف دركما (درخما، درهم) لأنه ذكرهم بمصائبهم الأهلية، وفوق ذلك منعوا إعادة تمثيل هذه الرواية، وهكذا خلت ميليثا من سكانها الأولين».

توسع الاحتلال الفارسي:

يقول هيرودوت:

«كان أسطول الفرس قد قضى فصل الشتاء في جوار ميليتا، فأقلع ثاني سنة وأخذ بسهولة الجزائر المجاورة للبر، أي ساقوس ولسبوس، وتندوس،... وحالما صاروا أصحاب المدن اختاروا أجمل الأولاد ليخصوهم وسبوا أجمل البنات من بين أيدي الأمهات ليرسلوهن إلى الملك، ولم يكتفوا بذلك حتى أحرقوا المدن والهياكل». «واجتاز الأسطول من سواحل يونيا إلى الهيلسبونت، وأخضع كل الأماكن التي إلى اليسار، وكانت البلاد التي إلى اليمين قد أخضعت من قبل الفرس سابقاً... ولم ينتظر البيزنتيون والخالقيدونيون القاطنون على الشاطئ المقابل أسطول الفينيقيين، فتركوا مدنهم، وهربوا إلى سواحل بحر فونتس، وهناك أنشأوا مدينة ميصميريا. وطاف الفينيقيون تلك البلاد وبأيديهم المشاعل، وداروا من جهة بروكونيسا وأرتاكي وأحرقوهما أيضاً، ثم عادوا إلى خرصونيا لكي يخربوا كل المدن التي أبقوا عليها في أول دخولهم، لكن لم يذهبوا إلى كيزيكي... أما خرصونيا فأخضع الفينيقيون كل مدنها».

«وكان الملك دارا قد عزل العساكر السابقين من القيادة وجعل في مكانهم مردونيوس بن جوبياس، فرحل في أول الربيع إلى شطوط البحر بعسكر بري عديد وقوات عظيمة لركوب السفن... وبعد أن قطع ساحل آسيا تقدم بسرعة إلى الهلسبونت، وبعد أن جمع هناك عدداً كبيراً من السفن وجيشاً برياً كثيفاً أمرهم أن يجتازوا الهلسبونت، وسار معهم في طريق من جهة أوروبا ليصل إلى أرتريا وأثينا. وكان هذان الموضعان في الظاهر غاية غزوة الفرس، لكن مقصدهم الحقيقي كان أن يخضعوا أكثر مدن الأغارقة التي يقدمون عليها. فالأسطول أخضع من جهة أهل طاسوس ولم يقاوموه، والجيش البري، من جهة أخرى، جعل في ربقة العبودية من كان يستعبد بعد من المكدونيين. واجتاز الأسطول من طاسوس إلى البر المقابل لها، وسار على الساحل إلى أكانتوس ومن هناك مضى ليجتاز جبل «أتوس». وبينما هو مجتاز من هناك هبت ريح شمالية شديدة جداً، دفعت بالمراكب إلى جبل أتوس فقيل تلف منها ثلاثمائة ومن الناس أكثر من عشرين ألفاً، فاختطف بعضهم وحوش البحر في جوار ذلك الجبل، وهي كثيرة هناك، وبعضهم تحطموا بصدم الصخور، والبعض مات برداً، والبعض غرقاً لأنهم يجهلون السباحة. فهذا ما كان من نصيب الجيش البحري».

(ونرجّح هنا أن تكون تلك الأحداث هي السبب في تسمية الجبل بهذا الاسم «أتو» atho الذي يعني في السريانية: الآية، المعجزة، العبرة).

يتابع هيرودوت:

«وفيما كان مردونيوس معسكراً في مكدونيا مع الجيش البري كبسهم الطراقيون الفريجيون ليلاً وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وجرحوا مردونيوس نفسه، غير أنهم لم ينجوا من العبودية، فإن مردونيوس لم يخرج من تلك البلاد إلا بعد أن أخضعها. فلما صار هذا الشعب في طاعته عاد إلى بلاد الفرس مع بقايا جيشه الذي كان الفريجيون قد أتلفوا منه جانباً كبيراً وكانت الزوبعة قد أوقعت الويل بالأسطول عند جبل أتوس، لذلك اضطر مردونيوس أن يرجع بالعار مع بقية جيشه».

«ثم تجسس دارا أحوال الأغارقة (السوريين النازحين في المورة). فأرسل لأجل ذلك رسلاً إلى جهات مختلفة من أغريقيا، وقد أمرهم أن يطلبوا باسمه ماء وتراباً (كناية عن ممتلكاتهم في البر والبحر)، وأرسل غيرهم إلى المدن البحرية التي كانت تؤدي له الجزية لكي يأمروا أهلها ببناء سفن حربية ومراكب أخرى لنقل الخيل. ولما وصل الرسل إلى أغريقيا قدم كثير من شعوب البر تراباً وماء للملك، وكذلك أهل الجزائر ومن جملتهم أهل إيجينا الذين استاء منهم أهل أثينا وتحققوا أنهم لم يفعلوا ذلك إلا بغضاً بهم ومن أجل الانضمام إلى الفرس لمحاربتهم. فوشوا بهم إلى كليومينا ملك إسبارطة وأخبروه بأنهم خانوا الإغريق. فجاء كليومينا ليلقي القبض على زعمائهم، فقاوموه، وكان من أبرز المقاومين كريوس. فلما خاب كليومينا سأل كريوس عن اسمه فأجابه: «كريوس» (بالأصل السرياني «قرحو» ويعني الخروف الأقرع الذي لا قرون له، وقد سقطت الحاء). فقال كليومينا ساخراً: يا كريوس، أحسن شحذ قرنيك، فإنك ستناطح خصماً شديداً». وفي هذا أشد أنواع السخرية إذ أن اسمه يعني الخروف الأقرع الذي لا قرون له.

كان «ميليتيادي» أحد القادة السوريين البارزين في أثينا، ولقبه «ميليثياثي» أي الميليثي يدل على أصله. «وهو من بيت كانت تربّى فيه أربعة أفراس للألعاب الأولمبية، وعائلته مشهورة جداً ينتهي نسبها إلى أياكو وإيجينو». ومكافأة له على إكرامه لضيوف قدموا إليه من خرصونيا فقد استقدموه إليهم ليتملك عليهم.

يتابع هيرودوت:

«علم «ميليثياثي» أن الفينيقيين في تندوس، فشحن خمس سفن من أمتعته وأقلع قاصداً أثينا... وبينما هو سائر في ساحل خرصونيا انقض عليه الفينيقيون، فنجا بأربع سفن إلى أمفارو، غير أن ابنه البكر الذي كان رئيس الخامسة طارده الفينيقيون وقبضوا عليه وأخذوا سفينته... ثم أخذوه وسلموه إلى ملك الفرس».

كان الملك دارا قد اغتاظ مما جرى لجيوشه «وكان يشتهي أن يخضع كل شعوب أغريقيا الذين لم يعطوه تراباً وماءً. فعزل مردونيوس من قيادة الجيش لأنه لم ينجح بحراً، وجعل عليه داتيس الماديّ الأصل وابن أخيه أرتافرن بن أرتافرن، وأرسلهما إلى أثينا وأرتريا وأمرهما أن يستعبدوا كل سكانهما ويأتياه بهم. فحالما عيّن هذان الرجلان في قيادة الجيش استأذنا الملك ومشيا، فبلغا كيليكيا بجيش بري عديد معه كل أصناف الذخائر، وعسكرا في سهل أليا، وانضم إليهم هناك كل الجيش البحري مجتمعاً من كل أمة بحسب ما صدر إليها الأمر... ومن هناك لم يمخر الفرس رأساً إلى الهلسبونت وطراقيا تجاه البر، بل سافروا من صاموس، وساروا في البحر الإيكاري في خلال الجزائر حتى لا يقربوا ـ على ما أظن ـ جبل أتوس لأنهم خافوا الدنو منه لأجل ما أصابهم من الخسائر العظيمة في السنة الماضية حينما أرادوا اجتيازه. وفضلاً عن ذلك هو أنهم أرادوا الاستيلاء على جزيرة نكسوس لأنهم لم يقدروا أن يأخذوها سابقاً. ولما خرجوا من البحر الإيكاري وصلوا إلى نكسوس... ففر أهل نكسوس إلى الجبال ولم ينتظروا دخولهم، فأضرم الفرس النار في هياكل المدينة، وبعد أن استعبدوا كل من وقع في قبضتهم عادوا إلى البحر وتابعوا إلى الجزائر الأخرى». وفي تلك الأثناء هرب أهل ديلوس أيضاً من جزيرتهم ولجأوا إلى تينوس. لكن الفرس تجاوزوا ديلوس دون أن يحرقوها احتراماً لابنيها أبولون وديانا، وبعد ذلك تقدم داتيس أولاً بالجيش البحري إلى أرتريا... وجمعوا جنوداً من الجزر التي بلغوها ومن اليونان والإيوليين، واسترهنوا أولاد أهل الجزائر. ثم نزلوا في كرسنة (مدينة في جزيرة عوبيا) فأبى أهلها أن يقدموا لهم رهناً أو يقاتلوا الأرتريين والأثينيين جيرانهم، فحاصروهم وبقوا يعيثون في أرضهم حتى استسلموا لهم. ومكثوا في أرتيريا مدة بعد أن استولوا عليها».

معركة «ماراثون»:

إن كلمة «ماراثون» marathon التي هي إحدى المفردات الأساسية في الألعاب الأولمبية التي نقلها السوريون معهم إلى بلاد المورة، هي ـ ككل المفردات الأخرى ـ سريانية وتعني: مضمار الجري، ميدان السباق، مضمار إعداء الخيل خاصة. وهي في القاموس السرياني من الفعل «رْهِطْ ـ رهطون ـ مَرَهْطون marahthon» ويعني: ركض، عدا، جرى، أسرع، عبر، اجتاز، شاع صيته، ذاع. «راهوط»: راكض، جارٍ، مسرع... «مَرَهْطو»، و«مرهْطون»: مضمار الجري، ميدان السباق، مضمار إعداء الخيل خاصة. وقد سقطت منها الهاء لوقوعها بعد حرف صوتي لين مقارب لها في اللفظ هو الألف الساكنة التي تلفظ ولا تكتب. وقد دعي بهذا الاسم أحد السهول القليلة والنادرة في أتيكا والذي كان يستخدمه النازحون السوريون ميداناً لسباق الخيل. وفي هذا السهل الصغير الضيق عند ساحل أتيكا حدثت المعركة التي سميت باسمه بين الجيش الفارسي والسوريين اللاجئين (الإغريق).

يتابع هيرودوت:

«وحالما دخل الفرس مدينة أرتريا انتهبوا الهياكل وأحرقوها... واستعبدوا السكان حسب أمر دارا... ثم أقلعوا إلى أتيكا، وضيقوا على الأثينيين قاصدين أن يفعلوا بهم ما فعلوا بالأرتريين. فأنزلهم هيبياس بن بستراتس في سهل ماراثون، وهو أوفق موضع من أتيكا لجري الخيل وأقرب موضع إلى أرتريا. ولما بلغ الخبر الأثينيين توجهوا أيضاً إلى ماراثون، وكان قوادهم عشرة كان ميليثيادي عاشرهم».

«وقبل الخروج من المدينة أرسل القواد إلى إسبارطة رسولاً هو رجل أثيني المولد ومهنته السعي (أي هو ساعٍ نهاري)... وقد وصل إلى تلك المدينة ثاني يوم مسيره، وحضر لدى الحكام وقال لهم: أيها اللقدمونيون، يطلب إليكم الأثينيون أن تُنجدوهم وأن لا تسمحوا أن يستعبد البرابرة أهل أثينا، فقد استعبدت أرتريا وضعف الإغريق بخسارة هذه المدينة. عند ذلك عزم اللقدمونيون أن يرسلوا نجدة إلى الأثينيين لكن لم يكن ممكناً لهم في الحال، لأن الشريعة لا تجيز لهم أن يأخذوا في المسير قبل أن يصير القمر بدراً، وكان حينذاك اليوم التاسع من الشهر. وبينما هم منتظرون البدر كان هيبياس ينزل البرابرة من السفن إلى سهل ماراثون».

لهذا فقد بدأت المعركة دون أن تأتي نجدة اللقدمونيين في إسبارطة. فخاب سعي الساعي، ودعي منذئذ «فودي فدياس» وتعني بالسريانية: القدمين الخائبتين. إن «فودي» جمع «فود» وتعني قدم، رِجْل. و«فديا» من الفعل «فد» ويعني: خاب، تعب، كلّ، لم يصب الهدف.

«والقادة الأثينيون وقع بينهم خلاف. فالبعض منهم أبى المحاربة لأن عددهم قليل، والبعض، ولا سيما ميليثيادي، رأى أن يحاربوا». وأخيراً انتصر رأي ميليثيادي.

يتابع هيرودوت:

«اصطف الأثينيون للحرب، وانضم إليهم الفلاطيون. وكانت الفسحة بين الجيشين ثماني استادات. فبأول إشارة اجتاز الأثينيون هذه الفسحة راكضين. فلما رآهم الفرس يركضون عزموا على مقابلتهم. لكن إذ رأوا أنهم على ما هم عليه من قلة العدد وعدم وجود فرسان ورجال أصحاب هيئة يسرعون في مسيرهم حسبوهم مجانين... لكن لما وصل إليهم الأثينيون وصفوفهم متضامّة عملوا أعمالاً تذكر«. لقد ساعد الأثينيين ضيق السهل الذي لا يسمح للأعداد الكبيرة بالمشاركة في القتال من جهة، وتكوين الجيش الفارسي الذي كان مؤلفاً في معظمه من السوريين الذين سيقوا من قراهم ومدنهم قسراً لمحاربة إخوانهم الفارين واللاجئين إلى أتيكا... إنهم لم يقاتلوا بالتأكيد، بل هيأوا أنفسهم للفرار سلفاً لا للإقدام.

«وبعد حرب طويلة عنيفة خرق بعض الفرس صفوف الأثينيين... غير أن الأثينيين والفلاطيين نالوا الظفر في الجناحين. ولما هرب أمامهم البرابرة اجتمع الجناحان فرقة واحدة وفتكوا بالفرس والساقة الذين خرقوا قلب الجيش، وهزموهم، ثم لحقوهم وهم يقتلون كل من يصادفونه، حتى إذا وصلوا إلى شاطئ البحر طلبوا الثأر واستولوا على بعض السفن... وانصرف الفرس ببقية أسطولهم من غير أن يحاذوا الشاطئ، وأخذوا معهم العبيد الأرتريين، واجتازوا رأس سونيوم بقصد الوصول إلى أثينا... عندها ارتكض الأثينيون مسرعين إلى مدينتهم وأنذروهم بوصول البرابرة... وعسكروا في موضع مناسب... ألقى الفرس المراسي فوق فاليرا وهي فرضة للأثينيين، وبعد أن أقاموا فيها مدة عادوا في طريق آسيا... وهلك يوم ماراثون نحو ستة آلاف وأربعمائة رجل من الفرس ومائة واثنان وتسعون من الأثينيين».

أضواء على معركة «ماراثون» في كتب التاريخ:

إن الطريقة التي تعامل بها معظم المؤرخين في الغرب مع الصراع بين السوريين والفرس، والذي شمل سوريا القديمة وكل مواقع الانتشار السوري من جزر إيجه إلى صقلية وجنوب إيطاليا، حوّلت علم التاريخ على أيديهم إلى مجموعة هلوسات تعصبية مريضة، وأفقدتهم، في الوقت نفسه، كل اعتبار حين فقدوا العلمية والموضوعية في كتابة التاريخ.

إن أثينا التي كانت في أواخر القرن السادس، وباعتراف أولئك المؤرخين أنفسهم، قرية وضيعة لا تكاد تذكر، ليس فيها صناعة ولا حرفة، لا زراعة ولا تجارة بمعنى الكلمة، يتمكن شخص واحد هو بستراتوس مع بضعة مواطنين مسلّحين بالعصي أن يستولي عليها[1]، في المرة الأولى، وبواسطة امرأة جميلة تدعى «فايا» («فايا» بالسريانية تعني الجميلة) أركبها في عربة ودار بها بين الأثينيين مدعياً أنها الربة في المرة الثانية[2]، لم يكن لها مرفأ ولا أسطول، ولم تعرف تجارة البحر قبل النزوح السوري الأخير وتأسيس ثغر «فرعا» أي الثغر (بيريا)، تسيطر عليها إسبارطة مع كل منطقة البيلوبونيز، وهي من الضآلة بحيث «أن جميع سكانها استطاعوا أن يروا سقراط ويسمعوه» حين يعلّم فيها،... إن هذه الـ «أثينا» تقفز بقدرة التزوير الهائلة، ودون مقدمات، إلى «إمبراطورية» «أوروبية» تهزم آسيا كلها بفضل تفوق وعبقرية «جنسها الأوروبي» على «آسيا الساميّة»!

لكن الحقيقة التاريخية لا يمكن أن تُغيَّب بمثل هذه البساطة:

1- إن القضاء على ثورات المدن السورية في الشمال السوري لم يكن ليجعل السوريين المقيمين والنازحين إلى أتيكا يركنون إلى الخضوع والاستسلام للواقع الجديد. بل إن وعيهم للقدرات السورية المبعثرة بعد تفكك دولتهم المركزية كان كافياً لإقناعهم بأن توحيد بعضها يمكن أن يلحق الهزيمة بالجيش الفارسي.

2- إن الأسطول الذي حارب أسطول الفينيقيين المستخدم من قبل الفرس لم يأتِ من «بريطانيا العظمى» ولا من «الولايات المتحدة الأمريكية»، إنه بعض أسطول السوريين الذين كانوا وحدهم مسيطرين على تجارة البحار: البحر الأبيض المتوسط، بما فيه بحر إيجه، والبحر الأسود.

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 7، ص407.

(2) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 6، ص133.

3ـ إن تركيبة الجيش الفارسي المؤلف في معظمه من المواطنين السوريين الذين سيقوا قسراً لقتال أشقائهم، والحاقدين على تدمير قراهم ومدنهم ونهب ممتلكاتهم، لم تكن لتوفر لذلك الجيش أي شرط من شروط الانتصار. وإن قصة فرار أكسينوفون من بابل على رأس العشرة آلاف من السوريين، والتي خلدها في كتابه «أناباصي» (الصاعدون) لم يكن إلا أحد الأمثلة التي قيّض لها أن تدوّن على الورق لتصل إلى أسماعنا، بينما طوى النسيان كثيراً غيرها مما دار وكان يدور، لأن أحداً لم يدونها لتبقى محفوظة على مرّ العصور.

4ـ كنا قد كشفنا ـ وبناء على ما أثبته هيرودوت نفسه ـ أن ما دعي بـ «آسيا الصغرى» لم تكن جزيرة منفصلة، بل جزءاً من الدولة السورية المركزية الكبرى سكاناً، ولغة، وحضارة، وديانة، وعادات وتقاليد. وإن التعرض لتفصيلات أنساب بعضهم بين يونان وإيوليين، وفروع بعضهم الآخر، لم يكن ليلغي النسبة السورية العامة للجميع، مما دعا هيرودوت إلى استخدام كلمة «سوريا» بديلاً عن «آسيا» في كثير من المواضع.

5ـ وسوف نرى أن أولئك السوريين، بعد سقوط عاصمتهم بابل، لم يترددوا، في كل مراحل الصراع، في إرسال الرسل إلى كل مواقع انتشار السوريين، من أجل تجميع القوى، وحشدها في جولات الصراع واحدة بعد أخرى، والتي كان لها الحسم في النهاية.

فلنتابع الآن مجريات ذلك الصراع مع هيرودوت.

يقول هيرودوت:

«إن غزوة (الاتحاديين) لسرديس كانت قد هيّجت جداً غضب دارا... غير أن خبر معركة ماراثون زادت حنقه، وحركته الحماسة لأجل ذلك على محاربة أغريقيا. فبادر وأرسل بالأوامر إلى كل المدن التي في مملكته بأن تجمع جيشاً كثيفاً، وكمية وافرة من الخيل والزاد وسفن الحرب والشحن زيادة عما أمر به أول مرة، فبلغت الأوامر كل

الجهات... واستمر ذلك ثلاث سنوات. ولكن بينما كانوا يجمعون أشجع الرجال ويجهزون تلك اللوازم بلغهم في السنة الرابعة أن المصريين الذين أخضعهم قمبيز خرجوا على الفرس، فاشتد غضب دارا وعزم أن يغزو هذين الشعبين. ولما صار هذا الملك على أهبة الرحيل لمهاجمة المصريين والأثينيين حدث بين أولاده نزاع شديد بشأن تاج الملك، لأن شرائع الفرس تمنع الملك أن يباشر غزوة ما لم يعين خليفة له. وكان لدارا قبل أن تولّى الملك ثلاثة أولاد من زوجته الأولى، وبعد أن اعتلى سرير الملك ولد له أربعة من أتوسا بنت كورش. وكان أردبازان بكر الزوجة الأولى وزاريش بكر الثانية، وإذ لم يكونا ولدي أم واحدة تنازعا التاج... لكن ديماراتس اللقدموني الهارب من إسبارطة بعد أن فقد تاجه هناك أشار عليه بأن الولد الذي ولد بعد تولي أبيه الملك هو الأحق بالخلافة، وهكذا كان. ولما أعلن دارا خلافة زارش ورأى أن كل التجهيزات تمت عزم على المسير، لكنه مات في السنة التي تلت خروج المصريين... ولما مات دارا خلفه ابنه زارش... ثم ما لبث هذا أن توجه بالتجهيزات إلى مصر فأخضعها، واستعبد المصريين وأثقل قيودهم أكثر بكثير مما فعل أبوه وولى أخاه عليهم، ثم توجه لمحاربة الإغريق».

«وحينما بلغ الفرس جبل أتوس الذي كان قد أصابهم عنده في المرات السابقة ضرر عظيم قرر خرق ذلك الجبل عن طريق حفر ترعة في اللسان الممتد عليه تصل بين البحرين بحيث يسمح عرضها لمرور سفينتين. وكان زارا نفسه في سرديس».

«وإذ علم الأغارقة (الفارون) أن زارش في سرديس هو وعسكره ارتأوا أن يرسلوا إلى آسيا جواسيس يستعلمون مقاصده، وأن يرسلوا أيضاً رسلاً بعضهم إلى أرقوس لكي يتحدوا مع الأرقوسيين على الفرس، وبعضهم إلى صقلية لمقابلة جيلون بن ديومان، وبعضهم إلى كوركيرا لكي يرشدوا أهلها لإعطاء نجدة لإغريقيا، وبعضهم إلى كريت. وكان مقصدهم في ذلك أن يجمعوا شمل الأمة الإغريقية ويجتمع الجميع على بذل آخر جهدهم لإبعاد الأخطار المتوقع وقوعها على كل الأغارقة على السواء، وكانت قوة جيلون أعظم قوة، ولم تكن في أغريقيا مملكة تعادل قوتها قوة مملكته».

أما الأرقوسيون «فقد اشترطوا لإعطاء نجدة أن يعقدوا هدنة مع اللقدمونيين إلى ثلاثين سنة، وأن يكون لهم نصف قيادة كل جيش المتحدين، وأن القيادة كلها لهم بحق لكنّهم يكتفون بنصفها... ثم آثروا الإذعان للفرس على أن يسلّموا القيادة للقدمونيين (الإسبارطيين) وأمروا الرسل أن يخرجوا من أرضهم قبل غياب الشمس وإلا عوملوا معاملة أعداء. هكذا يروي الأرقوسيون. أما بقية الأغارقة فيقولون إن زارش قبل مباشرته الغزوة على الإغريق أرسل رسولاً إلى أرقوس وكلم الأرقوسيين بهذا الكلام: أيها الأرقوسيون، هذا ما يقول لكم الملك زارش. نحن نظن أن «فارسا» أحد أسلافنا كان أبوه فارسو بن دانائي وأمه أندروميدا بنت قيفاو، فيكون أصلنا منكم، فليس إذن من الطبع أن نحارب أباءنا ولا بإعطائكم نجدة للأغارقة تظهرون أنفسكم أعداءنا. فامكثوا في أماكنكم ساكنين، فإذا فزت في هذه الغزوة بالنجاح الذي أنتظره فأنا أعاملكم بكرم زائد عن أي شعب آخر... وهم يقولون إن هذا هو الذي جعلهم يطلبون سهماً في القيادة وهم يعلمون أن اللقدمونيين لن يشاطروهم القيادة».

«وورد صقلية أيضاً رسل من قبل المتحدين كان من جملتهم صاقروس رسول لقدمونيا لكي يكلم جيلون شفاهاً... وحالما وصل وفد الأغارقة إلى صيراكوزا عقد لهم جيلون مجلساً فقالوا له: إن اللقدمونيين والأثينيين والمتحدين قد أرسلونا لندعوك إلى ضم قواتك إلى قواتنا ضد البرابرة. ولا شك أنك علمت بتأهب ملك الفرس للهجوم على أغريقيا، وأنه بعد أن ألقى جسوراً على الهيلسبونت واستجلب من آسيا كل قوات المشرق قد صار على وشك منازلتها، وأنه بحجة زحفه على أثينا يقصد بالحقيقة أن يستعبد كل الإغريق، وأنت قدير، وصقلية التي أنت ملكها ليست من أصاغر أغريقيا. فأعط نجدة لحماية الحرية، وضمّ نفسك إليهم، لأننا باجتماع كل الإغريق نجمع قوة عظيمة ونصير قادرين على محاربة العدو الآتي لمنازلتنا. ولكن إذا كان البعض يخون الكل بمنع المساعدة يخشى أن تهلك كل أغريقيا، ولا ترجُ أن الملك بعدما ينتصر علينا ويستعبدنا لا يصل إليك. فخذ لنفسك الحذر مقدماً. وبإنجادك إيانا تكون قد عملت لأجل نفسك. وكل عمل يقوم باتحاد الآراء يؤول غالباً إلى النجاح.

فأجاب جيلون بحمية وقال: أيها الأغارقة، قد بلغت الجسارة حد الوقاحة بدعوتكم إياي إلى ضم قواتي إلى قواتكم ضد الفرس، ولما التمست إليكم أن تنجدوني على القرطاجيين حينما كنت أحاربهم... فلم تهمكم إذن أن تصير هذه البلاد فريسة للآخرين... فالآن لأن الحرب على أبوابكم بل في قلب بلادكم تذكرون جيلون. ومع أنكم سلكتم معي مسلك الاحتقار لن أعمل نظيركم، وأنا مستعد أن أرسل لكم نجدات مائتي سفينة مجذافية وعشرين ألف كميّ وألفي فارس وألفي رام بالقوس وألفي رام بالمقلاع وألفي رجل من خفاف الخيالة، وآخذاً على نفسي أيضاً أن أقدم لكم قمحاً لكل الجيش إلى انتهاء الحرب، لكن كل ذلك على شرط أن تكون القيادة لي، وإلا فلا أذهب بنفسي إلى هذه الغزوة ولا أرسل أحداً من أتباعي.

«فما قدر صاقروس (الصقر) أن يملك نفسه فقال: لا تذكر لنا بعد ذلك تسليم القيادة إليك. فإذا أردت أن تنجد أغريقيا فاعلم أنه يجب عليك أن تطيع اللقدمونيين، وإذا امتنعت أن تكون تحت إمرتهم فلسنا نحتاج إلى جيوشك.

«فقال جيلون: أيها الإسبارطيون، إن الإهانة التي توقع على رجل حساس تهيج غضبه عادة. لكن مهما أسأتم إليّ فلا تحوجونني أن أجيبكم جواباً غير لائق، فإذا كنتم مشغوفين بالقيادة إلى هذه الدرجة فإني أنا أيضاً مشغوف بها نظيركم طبعاً، لأني أقدم من الجيش والسفن أكثر مما عندكم، ولكن لأن طلبي هاج بلابلكم أتخلى عن بعضه، فإذا أردتم أن تكون لكم قيادة جيش البر فأنا أكون قائد الجيش البحري، وإن اخترتم القيادة بحراً تكون لي الإمرة براً، فيجب أن تكتفوا بأحد الأمرين، وإلا فارجعوا إلى أرضكم واستغنوا عن نصير مثلي.

«عندئذ تقدّم رسول أثينا في الجواب على رسول لقدمونيا وقال: يا ملك صيراكوزا إن أغريقيا لا تحتاج إلى قائد بل إلى جيش، وما أرسلتنا إليك إلا لنطلب جيشاً... ما هذا الأمر؟ هل يمكن أننا نحن الأثينيين نسلّم الإمرة إلى الصيراكوزيين؟... فأجاب جيلون وقال: أيها الأثيني، على ما يظهر أنتم لا تحتاجون إلى قواد بل إلى جنود، ومع ذلك، فإن شئتم أن تحتفظوا لأنفسكم بكل شيء ولا تتخلوا عن شيء فالأولى أن ترجعوا إلى أغريقيا وتخبروها أنها من الفصول الأربعة خسرت فصل الربيع».

«وبعد جواب جيلون هذا قام رسل الأغارقة وركبوا البحر... أما جيلون فحالما علم أن ملك الفرس اجتاز الهلسبونت سلّم ثلاث سفن في كل واحدة خمسة صفوف مجاذيف إلى قدموس بن سكيتا من جزيرة قوص، وأمره أن يراقب حوادث الحرب».

«ومع ذلك يقول أهل صقلية إنه لولا الظروف التي وجد فيها جيلون لكان أعطى الأغارقة نجدة حتى لو التزم أن يكون تحت أمرة اللقدمونيين... فقد كان تيريلوس ملك هيمارا المطرود قد استجلب في ذلك الوقت تحت قيادة صهره أملقارت بن حانون ملك القرطاجيين جيشاً عدده ثلاثمائة ألف رجل مؤلفاً من الفينيقيين والليبيين والليجيين والهليسيكة والسردونيين والقيرنيين... فيقول الصقليون إذن إن جيلون لم يقدر لهذا السبب أن ينجد الأغارقة».

أما العرّافة «ديلفي» فقد كان هواها دائماً مع الفينيقيين، وقد ثبتت رشوتها من قبل التجار الفينيقيين أكثر من مرة.

يؤكد هيرودوت:

«فحينما وصل وفد الأغارقة إلى كريت يلتمسون منهم نجدة، أرسلوا يسألون دلفي باسمهم جميعاً فأجابتهم الكاهنة: أيها الحمقى، تشتكون من الويلات التي وقعت بكم بسبب النجدة التي قدمتموها لمينيلاوس لأجل اختطاف امرأته، والآن تريدون أن تنجدوهم؟ وعلى هذا الجواب امتنع الكريتيون عن إعطاء النجدة... والكريتيون يقولون إنهم حين أنجدوا مينيلاوس في حربه مع طروادة، وبعد رجوعهم من تروادة أصيبوا لهذا السبب عينه بطاعون ومجاعة هم وبهائمهم. وأن كريت خلت ثانية من السكان بسبب ذلك... وقد حدثت حرب تروادة في الجيل الثالث من موت مينوس بن أوروبا»، أي في عهد مينوس الثالث، آخر عهد للسلالة الفينيقية على سوريي كريت.

وليس الأمر هنا بحاجة إلى مزيد من الذكاء للتعرف على هوى «دلفي» التي شجعت فينيقيي كريت على دعم العشائر البدوية الفارة في أرقوس على مهاجمة تروادة لقنص تجارة البحر الأسود من أيدي السوريين حين تفكك دولتهم، ثم عادت لتعتبرهم حمقى إن هم أنجدوا السوريين النازحين ضد الفرس المتحالفين مع الفينيقيين هذه المرة! وفي الوقت نفسه أعملت العرّافة (ديلفي) كل «عبقريتها» من

أجل إرهاب السوريين الأثينيين ودفعهم إلى الهزيمة. فحينما أتاها رسلهم يستشيرونها، «وبعد أن قاموا بالأعمال المستعملة وجلسوا في الهيكل بصفة متوسلين أجابتهم الكاهنة جواباً هذا نصه: ويلكم، لماذا أنتم جلوس؟ اتركوا بيوتكم وصخور قلعتكم، واهربوا إلى أقاصي الأرض، فإن أثينا ستخرب خراباً تاماً، وينقلب كل شيء، وكل شيء يصير طعاماً للنار. و الرب مارس المخيف يصعد على مركبة سورية ويخرّب ليس فقط أبراجكم وحصونكم بل أيضاً حصون عدة مدن أخر ويحرق الهياكل. والآلهة مرتاعون، والعرق يتحدر من معابدهم، والدم يجري أسود من أعالي هياكلهم نذيراً مؤكداً للمصائب المزمعة أن تقع عليكم. فاخرجوا أيها الأثينيون من معبدي»[1].

وهكذا إن العرّافة السوداء ـ كما يصفها هيرودوت ـ والتي أصلها من مصر، لم تتمكن من إخفاء ميلها إلى الفينيقيين والفرس ضد النازحين السوريين.

أما فينيقيو طيبة وهم أحفاد قدموس وجماعته «فقد كانوا يُتّهمون بأنهم يريدون مصلحة الماديين... فدعاهم ليونيد اللقدموني للمشاركة في هذه الحرب لكي يعلم هل يرسلون له جيشاً أو يرفضون جهاراً الاتحاد مع الأغارقة، فأرسلوا له جيشاً على ما بهم من سوء النية[2]... وقد شاركوا في الحرب على كره منهم، لكن حالما علموا أن النصر متوجه إلى الفرس وأن الأغارقة الذين تبعوا ليونيد كانوا يلحّون بالذهاب إلى الأكمة فارقوهم وتقربوا إلى البرابرة، ومدّوا لهم أيديهم وقالوا لهم إنهم كانوا يميلون إلى مصلحة الفرس وأنهم أول من قدّموا للملك تراباً وماءً، وأنهم أتوا رغماً عنهم»[3].

انضمت مدن كثيرة أهمها أثينا وإسبارطة وعقدت حلفاً بينها وجعلوا زعامته لإسبارطة. حصن النازحون الإغريق المضائق والممرات الجبلية التي تمتلئ بها بلادهم، من ذلك ممر وادي «تمفي» المقدس بين جبلي أولمب وأوسا، ومضيق ترمو بولاي Thermo pylae الذي عسكر عنده الملك الإسبارطي ليونيد ومعه 300 إسبارطياً و500 من القوات المساعدة، ووقف الأسطول الإغريقي الذي ضم مائتي سفينة عند رأس أرتميسيوم في شمال جزيرة عوبيا لحراسة الممر المائي بين القارة والجزيرة.

---

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب السابع: 95, ص769.

(2) المصدر نفسه، الكتاب الثامن: 44, ص536.

(3) المرجع نفسه، الكتاب الثامن: 137ـ138, ص569 –570.

معركة صلامين (سالامين، سالاميس):

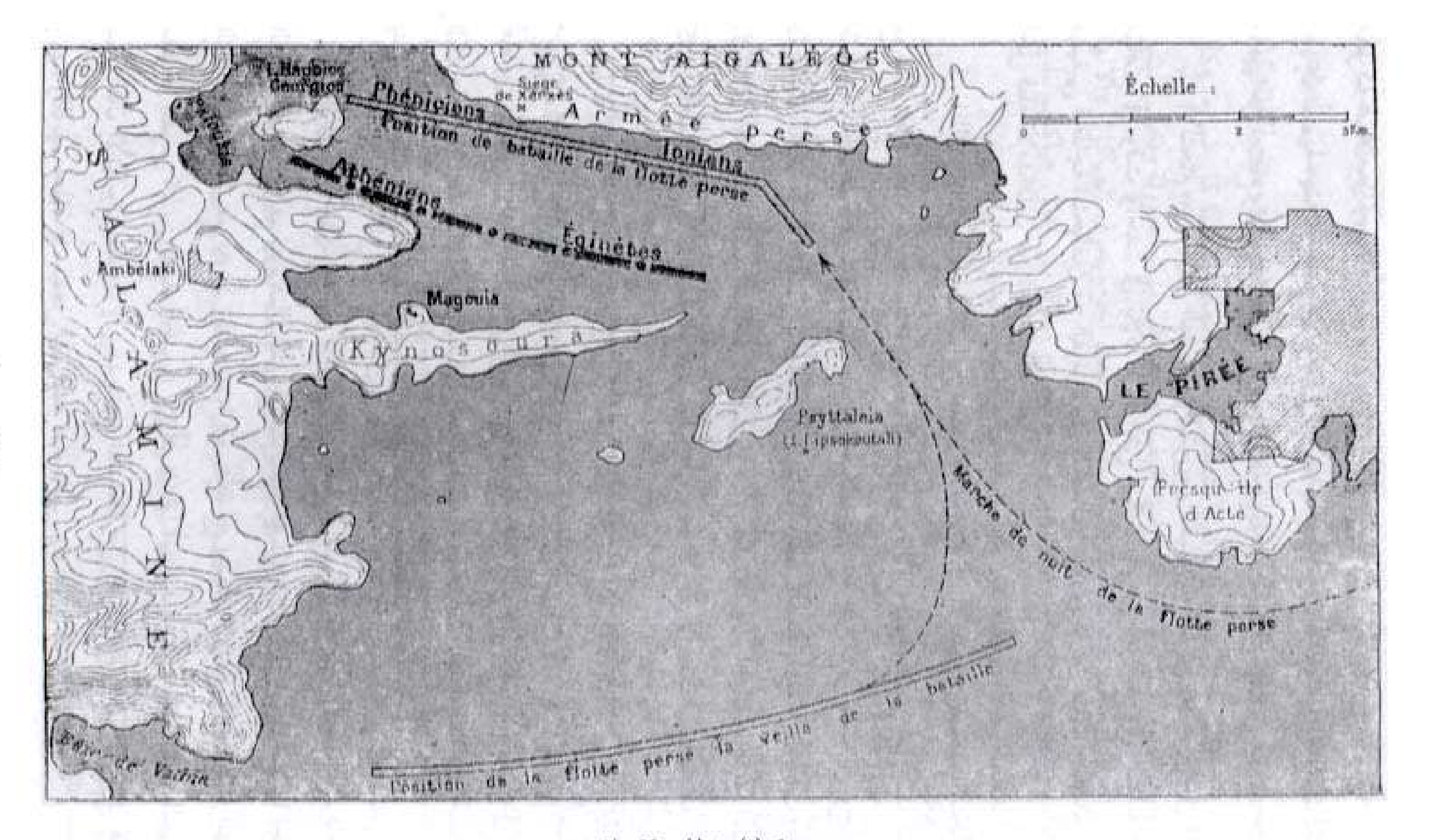
إن تسمية «صلامي» سريانية وتعني الأصنام، وقد دعيت الجزيرة بهذا الاسم لكثرة ما فيها من أصنام وتماثيل للأرباب. وأهمها تمثال الربة عشتار ـ أفروديت في معبدها هناك.

بدأ الالتحام بين الجيش الفارسي والسوريين المقيمين والفارّين (الإغريق) في ثلاثة مواضع في وقت واحد: في بلاد المورة التي صارت تدعى أغريقيا، وفي صقلية ضد فينيقيي قرطاجة المتحالفين مع الفرس، وفي الشمال السوري ما بين ميليثا والمضائق من أجل قطع الإمدادات عن الجيش الفارسي.

قرر الملك زارا إرسال اسكندر بن أمنتا (المكدوني) إلى الأثينيين ينصحهم بالتحالف مع ملك الفرس بدلاً من محاربته، وسمع الإسبارطيون بالأمر، فأتوا معاتبين أهل أثينا الذين طمأنوهم وأجابوهم قائلين: «إذا كان جمهور الحيلانيين (أبناء حيلان بن يافث بن نوح) من دم واحد وله لغة واحدة ونفس الآلهة ونفس الهياكل ونفس الضحايا ونفس العادات ونفس الأخلاق أفلا يكون أكبر العار على الأثينيين أن يسلكوا مسلك الخيانة. فاعلموا إذن إن كنتم جاهلين حتى الآن أنه ما دام أثيني باقياً على وجه الأرض لا نعقد عهد اتحاد مع زارا».

أما لماذا اختير اسكندر بن أمينتا فيقول هيرودوت لأن أخته جيجيا بنت أمينتا تزوّجت من رجل فارسي اسمه بوبارا وولدت منه ولداً سمّته أمينتا على اسم جده لأمه، وكان أيضاً قد أقام بين الأثينيين ولهم عليه حق الضيافة. فقالوا له: «أما أنت فلا تكلم الأثينيين بمثل هذا الكلام ولا تأتِ بعد الآن لكي ترشدنا إلى أعمال فظيعة محتجاً أنك تقصد إقامة مصالحنا، لأنه بداعي ارتباطك معنا بالضيافة والصداقة يسوؤنا جداً أن نعاملك معاملة لا ترضيك».

لجأ الفرس لاحتلال مضيق ترمو بولاي الجبلي بالتسلل عن طريق ممرّ آخر، ثم فاجأوا القوة الإسبارطية الصغيرة هناك التي قاتلت بشجاعة لمدة ثلاثة أيام سقط خلالها الجنود الثلاثمائة مع قائدهم ليونيد ملك إسبارطة. فأصبح وسط بلاد المورة بعد هذه الهزيمة مفتوحاً للفرس الذين تقدّموا جنوباً، إلى أن دخلوا أثينا، فنهبوها وأشعلوا فيها النيران، بينما كان الأثينيون ينظرون إلى مدينتهم المشتعلة من جزيرة «صلامي» بعد أن هربوا إليها، وقلوبهم معلقة بما سيفعل لهم تيمو ستوكليس وأسطوله هناك.



مصور رقم (٩) مخطط معركة صلامين

يقول هيرودوت:

«بعد أن شاهد جيش زارا البحري خسارة اللقدمونيين (الإسبارطيين) تقدم إلى فاليرا... ولم يكن جيشا الفرس البري والبحري أقل عدداً بعد أن هلك منهم بالزوبعة وفي معركة أرتميسيوم بسبب انضمام البيوثيين (فينيقيي طيبة) إليهم. فكل هذه الكتائب وصل بعضها إلى أثينا والآخرون إلى فاليرا... وزارا نفسه توجه إلى الأسطول لكي يتخاير مع خواص رؤساء جنده ويعلم ما هي آراؤهم. فعند وصوله جلس على كرسيه وقد استدعى ملوك الأمم المختلفة ورؤساء السفن، فجلس كل منهم في مكانه بحسب الرتب التي كانت لهم منه. فجلس ملك صيدا أولاً ثم ملك صور والباقون بعدهما. فلما جلسوا كلهم في مراتبهم أراد زارا أن يعرف أفكارهم فأمر مردونيوس أن يسألهم هل يحارب في البحر، فسألهم مردونيوس جميعاً مبتدئاً من ملك صيدا، فكان رأيهم أن يحارب بحراً».

«وكان الأسطول السوري الإغريقي المتحد يراقب المضيق المائي بين صلاميس وأتيكا في الوقت الذي كان الأسطول الفارسي يحمي جنب قواته البرية الموجودة في أتيكا. فلجأ تيموستكليس القائد الأثيني إلى حيلة ذكية إذ أرسل إلى الفرس من أوحى إليهم بأن الإغريق قد وقعوا في مصيدة يكادون يفلتون منها، وادعى لهم بأن الإغريق قد دخلوا بأسطولهم مياه المضيق الذي يفصل بين صلاميس وأتيكا، وأنهم على وشك الخروج منه. أسرع الفرس بأسطولهم لمهاجمة المضيق قبل أن يهرب الإغريق من المصيدة، فوقعوا هم في المصيدة وهاجمهم الأسطول الإغريقي من الخلف ودفع بهم إلى المنطقة الضيقة حيث أصبح كثرة عدد السفن الفارسية عبئاً عليهم، ونجحت السفن الإغريقية الخفيفة في تحقيق انتصار ساحق على الفرس في عام 480 ق.م. وكانت النتيجة انسحاب الجيش الفارسي من بلاد الإغريق كلها».

أما في سواحل سوريا الشمالية فقد شجع الانتصار في صلاميس المتحدين هناك لملاقاة الأسطول الفارسي المنسحب، وخاض الأسطول السوري معركة ضده هناك في موكالي بالقرب من ميليثا، فهزموا الأسطول الفارسي، ثم تمكنوا من تحرير غربي إيونيا. ثم اندفع المتحدون من المدن السورية شمالاً لملاحقة الجيش الفارسي عند مضيقي البوسفور والدردنيل وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة سيستو، ثم استعادوا السيطرة على خط تجارتهم عبر المضائق إلى شواطئ البحر الأسود.

جبهة صقلية:

أما على جبهة صقلية فقد كان فينيقيو قرطاجة قد أزعجهم التوسع السوري في غرب المتوسط، لا سيما بعد إنشاء مرفأ مرسيليا، ومرافئ أخرى في شواطئ كورسيكا وسردينيا. وقد تمكن القرطاجيون من ضرب مدينة العالية Alalia التي أسسها الفوقيون من فوقايا، لكنهم لم يقدروا على شيء إزاء صيراقوزا في صقلية ومرسيليا في جنوب فرنسا.

وقررت قرطاجة تنفيذ اتفاقها مع الفرس بمهاجمة صقلية وإنهاء الوجود السوري هناك لصالحها.

كانت صيراكوزا (معمل الجرار، وقيل سيراكوزا أي ربة الجرّة، أحد ألقاب عشتار) تحت حكم جيلون منذ عام 485 ق.م. وبذل جهداً كبيراً لكي يقيم وجوداً سورياً قوياً في شرق صقلية، فتحالف مع طيرون ملك أكراجانتوم الذي ضم إليه مدينة هيميرا بعد أن طرد حاكمها تيريلو، حما هملقارت ملك قرطاجة وحليفه. لهذا، ففي الوقت الذي انقض فيه الجيش الفارسي على السوريين اللاجئين في أتيكا، قاد هملقارت بن ماجون قوات قرطاجة، وأبحر على متن أسطول كبير باتجاه صقلية. لكن هذا الأسطول تعرض لمتاعب بسبب العواصف أدت إلى تدمير السفن التي كانت تحمل الخيول والعربات الحربية مما اضطر القرطاجيين إلى تغيير خططهم، ونزلت القوات القرطاجية في بانرمو (بالرمو) بدلاً من هيميرا، ثم سارت في اتجاه الأخيرة. لكنها ما أن وصلت إلى حدود هيميرا حتى نجح السوريون في إيقاع الهزيمة بالقرطاجيين وقتل هملقارت نفسه في المعركة، وهلك جنوده أو وقعوا في الأسر، وأشعل السوريون النار فيما بقي من الأسطول القرطاجي. واضطر القرطاجيون إلى توقيع هدنة ووافقوا على دفع غرامة حربية كبيرة. كان ذلك ـ حسب المصادر الإغريقية ـ في أيلول عام 480 ق.م.

مرة أخرى نتوقف عند الأسباب الحقيقية لهزيمة الفرس بعيداً عن «المارشات» العسكرية التي يدبجها المؤرخون في الغرب احتفالاً «بانتصار أوروبا المزعوم على آسيا»:

1- كنا قد شرحنا سابقاً كيف أن الجيش الفارسي عبارة عن مجموعات كبيرة من البشر الذين تم سوقهم رغماً عنهم إلى هذه الحرب. **وكان السوريون المرغمون الزين يشكلون الكتلة الكبيرة فيه يمشون مع ذلك الجيش ظاهراً ويعملون في السر على إفشاء روح الانهزام في صفوفه.** يروي هيرودوت كثيراً من القصص الشواهد على ذلك، منها هذه التي خلاصتها أن **القائد الطيبي أتاجينوس** أقام حفلة تكريم فخمة للقائد الفارسي ماردونيس، حضرها مائة من الضيوف. **كان يجلس فيها إلى جانب كل ضيف فارسي واحد طيبي.** وكان بين الضيوف الطيبين رجل اسمه **ترساندر، يقول هيرودوت إنه اجتمع به فيما بعد وسمعه يقول:** «إن الرجل (الفارسي) الذي إلى جانبي قد خاطبني باليونانية (أي السريانية) **قائلاً ما دمنا قد اشتركنا في الطعام والشراب** فإني أريد أن أصرح لك برأيي لعلك تستفيد منه وتذكرني في المستقبل. **انظر إلى هؤلاء الفرس الذين يحتفلون هنا وإلى الجيش الضخم الذي تركناه على ضفة النهر، إنك لن ترى واحداً منهم بعد قليل».** وقد كانت الدموع تنهمر من عيني (الفارسي) وهو يتكلم. **ولما سأله ترساندر «ألا يجب عليك أن تخبر مادرونيوس بالأمر؟» أجاب: «أيها الغريب، لا يستطيع الإنسان أن يبدل ما قدره الإله. إن الكثيرين من (الفرس) يعرفون ما أعرف، ولكنهم يرافقون الجيش دون إرادتهم... حقاً، ليس هناك شيء يؤلم الإنسان أكثر من العجز عند المعرفة...»**[1]. إن هذا الرجل الموصوف ب «الفارسي» ليس إلا واحداً من كتلة السوريين الكبيرة الذين يتكلمون مع سكان طيبة لغة واحدة هي السريانية، ويعملون في السر على إفشاء روح الهزيمة في الجيش الفارسي الذي سيقوا فيه عنوة.

2- يصرّ المؤرخون في الغرب على جعل إغريق أثينا هم أصحاب ذلك الانتصار الكبير المدوّخ على الفرس ليس في أتيكا وحدها بل ومن أبواب البحر الأسود إلى صقلية، وأصبح هؤلاء الإغريق (الأوروبيون) سادة التجارة من جديد! والمضحك في الأمر أنهم لا ينكرون واقع أثينا بعد هزيمة الفرس. فقد نشبت الحرب بينها وبين إسبارطة من أجل زعامة الإغريق في جنوب المورة استمرت سجالاً بينهما خمس عشرة سنة!

(1) المرجع نفسه، الكتاب الخامس: 22، ص 344.

علماً أن إسبارطة لم تكن قادرة على إشراك أكثر من ألفي مقاتل في الحرب! كما أنهم لم يترددوا في جعل المدن السورية الكثيرة والمنتشرة من شواطئ البحر الأسود إلى صقلية وجنوب إيطاليا مدناً إغريقية تابعة لـ «الإمبراطورية الأثينية!» لأن أثينا «هي التي قامت بحماية اليونان في آسيا، وجزر بحر إيجه، وهي التي ألّفت الاتحاد الجديد منهم هو الاتحاد الديلوسي فتولت زعامته واستخدمته في توسيع ممتلكاتها» متناسين ما حلّ بأثينا التي أحرقت مرتين وأقفرت من سكانها، حتى أنها «في خريف عام 479 ق.م. لم تكن بعد تهديمها مرتين من قبل الفرس سوى كتلة من الأنقاض، بينما انقلبت أريافها إلى صحراء لا يرى فيها سوى بعض جذوع الأشجار المقطوعة، وأنه لم يسلم من الدمار في كل بلاد أتيكا سوى عدد قليل من البيوت التي كان قد حجزها عظماء الفرس لسكناهم»[1].

3ـ إن معظم المثقفين ورجال المال السوريين الذين نزحوا عن ديارهم ومواطنهم في الشمال السوري هرباً من عسف الجيش الفارسي المتقدم قد لجأوا إلى أتيكا وإلى أثينا تحديداً، فأنشأوا لها ثغراً (فرعو: Perao = ثغر، باب، مدخل، مرفأ) الذي هو «بيرياو» فازدهرت أثينا لأول مرة في تاريخها. لكن أولئك المهاجرين لم يكونوا قادرين على التصدي للجيش الفارسي أو لأسطوله المؤلف من الفينيقيين والمصريين، وبالتالي لم يكونوا قادرين على تحرير بلاد الإغريق القارية أو مدن الشمال السوري كما يدعي المؤرخون في الغرب. فعندما طلبت مدن الشمال السوري ممثلة في «المتحدين» النجدة من الإغريق في بلاد اليونان القارية (المورة) «فإن النجدة التي تمكنت شبه جزيرة اليونان كلها من تقديمها للدفاع عن إيونيا لم تكد تبلغ الألفين من المحاربين»[2]. إن أية قرية في العالم القديم كان يمكن أن تقدم مثل هذا العدد من المقاتلين سواء من أبنائها أو من جيرانها الأقربين، فلماذا تعكس الحقائق إذن؟ إن السوريين في الوطن، وفي مواقع الانتشار هم الذي أنهكوا الجيش الفارسي داخل الوطن السوري بثوراتهم المتعاقبة، وهم الذين عزفوا عن القتال ضد أشقائهم النازحين

(1) عياد، المرجع السابق، ص 389 – 390.

(2) المرجع نفسه، ص 266.

داخل الجيش الفارسي نفسه، وهم الذين أمدّوا الأثينيين وغيرهم بالسفن، وأسطولهم المتحد هو الذي هزم الأسطول الفينيقي، ولم يكن في ذلك الزمن من أساطيل معتبرة غيرهما. ونحن لا نشك لحظة في أن السوريين الذين كانوا وحدهم يكتبون التاريخ في ذلك الزمن بين كل شعوب الأرض قد أرخوا لتلك الحرب. لكن كل المؤلفات التاريخية التي دونوها إما أنها (فقدت!) أو أتلفت، وأما ما بقي منها فقد أخضع لعمليات تزوير مبرمجة منذ العصر البيزنطي إلى اليوم. حتى تاريخ هيرودوت السوري الكيليكي نفسه، ليس في هذا العالم اليوم من يجهر بوجود النص الأصلي لتاريخه المدون بلغته السريانية (اليونانية القديمة)، وكل نسخه الموجودة اليوم ترجمات عن الإيطالية أو اليونانية الحديثة.

إن هذا الواقع كثيراً ما أثار غضب الباحثين الموضوعيين في الغرب الذين شعروا وكأن مثل ذلك التزوير إهانة موجهة إلى العقل في الغرب قبل أي شيء آخر. إن الباحث الفرنسي الكبير بيير روسّي المتخصص في حضارة الإغريق كتب بهذا الصدد عبارات ملؤها الألم والغضب إذ يقول:

«إن إسقاط «حب الوطن» هذا على الماضي والذي حصل حديثاً في أوروبا سيكون نوعاً من أنواع التشخيص... وإن شرح ذلك يمكن أن يوجد في مجموع المخطوطات الإغريقية أو اللاتينية التي هي منسوخات محدثة، لا أصيلة. إن هذه المنسوخات بأيدي القسس أو رجال الدين المسيحيين قد ظهرت إلى الوجود في الأديرة والمجامع العائدة للإمبراطورية البيزنطية، حيث كانت المسيحية فيها دين الدولة الرسمي، وحيث كانت الرومانية عقيدة معتمدة... ولقد استمر هذا الاحتكار ألفي سنة. إن الدولة المسلمة في الشرق، في تسامحها، لم تعتقد أن عليها أن تُخضع للنقد نتائج تحقيقات بيزنطة التاريخية المستفيدة بهذه الصورة من نشر الوثائق الإغريقية واللاتينية التي لا شيء فيها يضمن الصدق والأصالة، بحيث أننا اليوم لا نملك تحت أعيننا سوى نصوص شرحتها ونسقتها و«صححتها» سلطات علمانية أو دينية تهتم قبل كل شيء بتشويه الحقيقة لتتلاءم ومعتقدها الأرثوذكسي. إن كمية العمل الملفقة والمخطوطات التي أنتجتها الأديرة خلال

العصور ضخمة جداً، ولكنها كذلك مثيرة للقلق لأنها المصدر نفسه الذي نستمدّ منه وثائقياً. إن الإمبراطور جوليان الملقب بالمرتّد قد ألغى بحزم مصادرة المسيحية للوثائق القديمة، لكن غضبه كان دون نتيجة وحكمه سرعان ما زال»[1].

4- وفي الحقيقة إن أولئك السوريين النازحين إلى أتيكا لم يكونوا ينظرون إلى الحياة في هذه البقعة الفقيرة الضئيلة إلا كونها اضطرارية طارئة. ولم يكونوا يطمحون إلا إلى تحرير سوريا من الاحتلال الفارسي والعودة. لذلك نراهم بعد هزيمة الفرس في صلاميس قد انتقلوا في معظمهم إلى الجزر من أجل الانضمام إلى الأسطول السوري المتحد، وجعل مقر اتحاده جزيرة ديلوس المقدسة، ودعي بـ «الاتحاد الديلوسي». أما من تبقى منهم هناك في مهجره إلى جانب العشائر الإغريقية (الفارّة) القديمة الأخرى سواء في إسبارطة أو أرقوس أو أتيكا أو غيرها فقد عادت النزاعات القبلية القديمة وروح التحاسد والبغضاء لتطفو هناك على الساحة، وهذه الفترة هي التي دعاها المؤرخ «توكيد يثي» (ويعني لقبه الباحث الموثّق، المؤكد، صار توكيد يديديس) بفترة «فونتي قينتائيتا» وتعني بالسريانية «عودة الأحقاد».

يقول الدكتور عيّاد:

«تعتبر الفترة بين نهاية الحروب الفارسية وبداية الحروب البيلوبونيزية من العهود التي تمثل لنا مجرى التاريخ اليوناني أحسن تمثيل... ونرى طلاب الجامعات في المعتاد يخافون من أن يطلب إليهم أثناء الفحوص البحث أو الكتابة عنها، وذلك، أولاً، لمجرد صعوبة العنوان الذي أطلق عليها وهو «فونتي قينتائيتا» على أن هذه الكلمة لا تفيد سوى (الخمسينية). وقد نحتها المؤرخ الشهير توكيديديس الذي لاحظ عند تأليفه كتابه عن «الحروب البيلوبونيزية» بأن المؤرخين قبله قد اقتصروا على وصف الحروب الفارسية والعهود السابقة لها، ولم يعرضوا إلى الحوادث التي جرت خلال الخمسين سنة التالية، أي من عام 479 حتى عام 431، فاضطر إلى تلخيصها تحت هذا العنوان»[2].

---

(1) روسّي، المرجع السابق، ص 226 – 227 .

(2) عياد، المرجع السابق، ص 388 .

ونحن نسأل:

هل اقتنع طلاب الجامعات بتفسير أستاذهم لهذه الصيغة التي نحتها المؤرخ السوري «توكيديثي» من لغته السريانية؟

إن الصيغة مؤلفة من كلمتين سريانيتين هما «فونتا» وتعني: عودة، رجعة، رجوع، و«قينيتي» وتعني: حقد، بغضاء. وهي في القاموس السرياني من الفعل «قنا» ويعني: قنأ، احمرّ، ازرقّ، كمد، أبغض، حقد.

وإن الصيغة التي اختارها توكيديديس دقيقة للغاية. فأثينا لم تعرف سوى الحروب العشائرية قبل النزوح الحضاري السوري الأخير إليها، وبعد اندحار الفرس عادت تلك الحروب العشائرية مع إسبارطة وعادت الأحقاد القديمة نفسها بعد مباشرة الكثير من النازحين السوريين العودة إلى ديار الوطن. وهذه الحروب التي استعرت من جديد مع إسبارطة لم تستمر خمسين سنة كما «رتبّها» الأستاذ عياد لتنطبق مع تفسيره لصيغة توكيديديس. إن أندريه إيمار كان أكثر دقّة حين كتب يقول:

«كانت النتيجة المحتومة حروباً متعددة دائمة. فمنذ مستهلّ القرن الخامس حتى السنة 338 قضت أثينا أكثر من 120 سنة في الحرب من أصل مائة وأربع وستين... ولم تعرف خلال هذه المدة فترة سلم تعدت العشر سنوات»[1].

حروب البيلوبونيز الثانية والثالثة:

لقد تفاقمت عدة أسباب في بلاد الإغريق لإثارة نار الحسد والعداء لأثينا منذ بدء عودة النازحين السوريين الأخير:

الأول، هو أن ما اختص به المهاجرون الحضاريون أخيراً أثينا ومنطقة أتيكا من مظاهر العمران والازدهار جعلها تتزعم بلاد الإغريق في شتى المجالات وعلى كافة الصعد دونما منازع، وبرزت هذه الزعامة خاصة في أوقات التصدي للغزو الفارسي وتحقيق الانتصارات. لكنه ما أن بدأ أولئك السوريون هجرتهم المعاكسة إلى ربوع وطنهم الأم حتى برزت تلك الغيرة تتجسد في هيئة شماتة وعداء ضد من بقي، ما لبثت أن تحولت إلى حروب طاحنة لا تعرف الشفقة.

(1) إيمار، المرجع السابق، ص 314.

الثاني، هو أن الامتيازات العشائرية القديمة القائمة على شرف النسب والتي ألغاها مجيئ النازحين الحضاريين الجدد ليتصدر الواجهة أصحاب الحرف والصنائع والمال، عادت من جديد لتطل برأسها، ولتعيد مجدها الضيق القديم عن طريق النزاع والحرب.

الثالث، هو أن فينيقيي الإغريق في طيبة وبويوثيا عموماً الذين كانوا متحالفين مع الفرس، وجدوا الآن فرصتهم المناسبة لإقامة التحالفات في السر والعلن ضد أثينا التي تزعمت عملية الصراع ضد الفرس وأزلامهم.

وهكذا فقد «ظهر الآن أن إغريق أوروبا كلهم قد قاموا قومة واحدة، واتحدوا على أثينا لأن إسبارطة كانت متسلطة على البيلوبونيز كله ما خلا أرقوس. وكان سكان شمال أتيكا وبويوثيا وطيبة وما جاورها في الجهة الغربية جميعهم معادين لأثينا. وكان جل اعتماد أثينا في هذه الحرب على المدن الإيجية»[1]، لكن تلك المدن لم يعد يهمها ما يجري خلف ظهرها في بلاد الإغريق، بل كل همها تدعيم عرى الاتحاد لتحرير سوريا. «ولما رأى الأثينيون أن الضرورة تدعوهم لأن يكونوا دائماً تحت السلاح دون أن تسنح لهم فرصة يتمكنون فيها من ضرب عدوهم ولو مرة واحدة تولاهم الضجر وتطرق إلى قلوبهم اليأس لأنهم كانوا يرون جنود الأعداء يجتاحون بلادهم ويُعملون فيها أيدي التخريب... ولم تقع في غضون الحرب كارثة حربية تفتّ في ساعد أثينا أو إسبارطة أو تنهي قواهما. لكن الضربة العظمى على أثينا جاءتها من الطاعون الذي أضعفها وأنهك معها العالم الإغريقي بأسره، وأفقدهما قواهما المعنوية. وقد أبدى المتحاربون في تلك الحرب من ضروب التوحش والقساوة البربرية ما لم يعرف له مثيل من قبل»[2].

وفوق هذا كله إن هجرة السوريين المعاكسة شرقاً باتجاه الوطن الأم حرم الأثينيين والسفن التي خلفها لهم السوريون في الثغر الذي أنشأوه لهم (فرعا ـ برئا ـ بيريه) دون بحارة ماهرين. لذلك فقد «كانت الخسارة التي ألمّت به (بالأسطول) أكبر من كل خسارة وقعت به من قبل. ولم يكن تلافيها قبل وقوعها في حيز الإمكان. ولم يكن النجاح الطفيف الذي أحرزه ليذكر في جنب المصاب الكبير الذي حلّ به لعدم تسني قواد ماهرين يتولون قيادته»[3].

---

(1) بريستد، المرجع السابق، ص 382 .

(2) المرجع نفسه، ص 382 - 383 - 385 .

(3) المرجع نفسه، ص390 .

وكانت النتيجة أن اضطرت أثينا إلى «التسليم تحت الشروط الآتية: هدم أسوار بيريه وحصونها، وتسليم ما بقي من سفن الأسطول لإسبارطة، ودخول أثينا مكرهة في العصبة السبارطية. وكان قبول الشروط القاسية الوسيلة الوحيدة لنجاة أثينا من الانقراض التام... فالقرن الذي استهل بفوز أثينا فوزاً مجيداً على الفرس يوم ردتهم على أعقابهم، هذا القرن الذي بلغت فيه أثينا تحت زعامة وإرشاد تيمستوكليس وبركليس درجة سامية في كل ما هو حسن وشريف في الحياة اليونانية، انتهى بسقوط الإمبراطورية الأثينية عام 404 ق.م»[1].

لقد اعتدنا على هذه العبارات الجوفاء الهائمة «فوق السطوح» مثل «الإمبراطورية الأثينية» و«أثينا التي هزمت الفرس»! وكنا قد رأينا كيف أنهم جعلوا الفرس «آريين»، وترجموا اسم «إيران» إلى «آري» و«إيرانا فيقو» التي تعني بالسريانية إيران الأخرس صارت تترجم إلى «موطن الآريين» رغماً عن أنوف لغات الأرض طراً! نقول: لقد أحجموا الآن عن إلصاق هذه التهمة الأكذوبة «الآرية» بالفرس بعد هزيمتهم، وتحول أولئك الفرس فجأة إلى «ساميين» وإلى «آسيويين» وإلى «برابرة»، لأن «الآري» لا يهزم!

(1) المرجع نفسه.



الفصل الثاني
تحرير الوطن السوري
وحقيقة اسكندر بن فيليب

إن هزيمة الأسطول الفارسي المؤلف من سفن فينيقية ومصرية من قبل الأسطول السوري المتحد في بحر إيجه عززت روح التمرد لدى كافة المدن السورية في البر والبحر. فإذا كان الاتحاد قد بدأ في زمن تيموستينس عام 478 - 477ق.م. حسب أرسطو في كتابه «دستور أثينا»، «وإذا كانت المدن المنتمية إلى الاتحاد قد بلغ عددها في سنة 425 أكثر من 400 مدينة كما تبين من السجلات الرسمية القديمة، فمن المؤكد أنها لم تكن في بادئ الأمر تزيد على خمس هذا العدد. وفوق هذا فإن جميع الدلائل تشير إلى أن معظم الجزر الواقعة على شواطئ آسيا الصغرى من لسبوس إلى رودس، والقسم الأكبر من جزر الكيكلاثي مع مدن عوبيا، وكذلك في طراقيا والهلسبونت وربما جزيرتي طاسوس وصاموطراقا قد انضمت أيضاً إلى الاتحاد»[1].

وتشير جميع الدلائل والوقائع إلى أن الهدف من تأسيس ذلك الاتحاد لم يكن من أجل الدفاع عن أثينا ولقديمونيا (إسبارطة) أو تحريرهما، بل من أجل تحرير سوريا كلها، وهذه المهمة أكبر وأجل خطراً من أن تتصدى لها قرية مثل أثينا أو إسبارطة يتسع المسرح لعدد سكانها، وإنما هي مهمة السوريين وسوريا التي «كان عدد سكانها ثلاثين مليون نسمة»[2]، خاصة «وأن الأثينيين لم يكونوا رجال بحر»[3].

(1) عياد، المرجع السابق، ص407.

(2) روسي، المرجع السابق، ص193.

(3) تاريخ هيرودوتس الشهير، ص486.

ومن أجل تحقيق هذه المهمة كان لا بد من متابعة بناء الأسطول وتوحيد قطعه المبعثرة في أنحاء بحر إيجه والبحر الأسود، وبالتالي كان لا بدّ من إشراك كبار المموّلين من التجار والأثرياء السوريين، وليس الاعتماد على قرية مثل أثينا أو إسبارطة لا تقدر على تأمين قوتها من القمح وغيره إذا لم يتم تزويدها به من سوريا. وتمّ الاتفاق على أن تقدم كل مدينة عدداً معيناً من السفن التي ينبغي حشدها في المرحلة الأولى بعيداً عن أنظار الفرس والفينيقيين. فقرّ القرار على أن يكون مركز التجميع ثغر أثينا (فرعا، بيرئا) الذي شاده المهاجرون السوريون. ولما كانت بعض المدن المساهمة مدناً برية لا بحرية، أو ليس لديها صناعة للسفن، فقد تقرر أن تكون مساهماتها بالمال. وقد تعهدت الجزر الكبيرة مثل لسبوس وصاموس ونكسوس توفير أكبر عدد ممكن من السفن، بينما تعهدت باقي المدن بدفع ما يترتب عليها من المال، وبقيت أثينا الفقيرة عموماً خارج أي من التعهدين. ولما كانت جزيرة ديلوس المقدسة قد حظيت باحترام الجيش الفارسي كموطن لمولد أبولو وأخته ديانا، فقد قرر المتحدون أن تكون هياكلها مقراً لخزائن جمع الأموال.

ومن الجانب الآخر فقد دبّت روح التمرد دبيب النمل في أوساط مدن الشمال السوري، ولا سيما بعد استرجاع سيطرتها على مضائق الهلسبونت وتجارة إيجه والبحر الأسود من السيطرة الفارسية ـ الفينيقية. وإذا كان الجيش الفارسي حين بداية الغزو يكبر مثل كرة الثلج كلما أمعن في التقدم غرباً فقد انعكست الحال الآن، وصار الآن مع كل يوم جديد يذوب ويتلاشى مع اختفاء وانسحاب السوريين المتواصل من بين الصفوف.

أما في شبه جزيرة المورة ـ وكما سبق أن ألمحنا ـ فإن انسحاب المهاجرين السوريين شرقاً باتجاه ربوع الوطن الأم جعل تلك البلاد تكاد تقفر من ساكنيها ومن كل مظاهر الحضارة التي نزحت منها فجأة كما وفدت إليها فجأة مما أعاد الصراعات العشائرية القديمة إلى سابق عهدها وأدت إلى نشوب ما دعي بـ «الحروب البيلوبونيزية» التي لم تنته إلا مع تدمير طرفيها.

وعلى الصعيد السكاني، فإلى جانب ما تبقى من تلك السلالات الإغريقية (أي الفارّة) في أرقوس وبويوثيا وأتيكا ولقدمونيا، فقد برزت على الساحة السلالة الهجينة الأخرى الناجمة عن اتصال أولئك النازحين السوريين بالنساء من السكان الأصليين من ساكني الكهوف، الذين لم يدخلوا في عداد المسجلين «ديمي قراطي» ولم يعترف بهم كمواطنين أحرار، بل اعتبروا أنغالاً، ودعوا بالـ «جريقي». وهذه تسمية جديدة أخرى تميزت عندهم عن تسمية «عريقي» و«قريقي» التي تعني الفارّين والهاربين، وصانعي النعال...

إن تسمية **«جريقي»** هي من الفعل السرياني «جر» ويعني: جار، تغرب، فسق، فجر، زنى. و«أجر» هو المتعدي منه. و«جورا» يعني: فجور، فسوق، زنى. و«برجورا»: نغل، ولد الزنية. ومثلها «أجريقا». إن النهاية «قا» كانت تضاف للتوصيف العام، مثل «لوجو» لغة، نطق، «لوجيقا»: منطق... إن كل من ولد من زواج غير شرعي ولم يُقسم أبواه أمام هيئة المحلفين على ذلك، لم يتم تقييده في السجل، وبالتالي كان يصير «نغلاً» أي «أجريقا» بالسريانية.

لقد كانت طبقة التحتيين «تحيتي» theti أي (الأسافل، الدون)، في إسبارطة، على سبيل المثال، «تضم المواطنين المنحطين والأنغال»[1]. إن هذا الخليط المتبقي من السكان في أرض المورة أخذ يتأرجح بين العشيرة البدوية العربية وبين عيشة سكان الكهوف، وقد تذوق طعم كثير من مظاهر الحضارة الوافدة إلى حين دون أن يتمكن من استيعابها بعد... لهذا فإن التخلف والجوع كانا من أهم أسباب النزاعات التي استبدت بالحياة في تلك البقاع، وجعل حتى الأثينيين يفقدون رشدهم، ويقررون غزو مدينة سورية غنية وقوية مثل صيراكوزا في صقلية، كانت نتيجتها أن أحداً ممن شارك في تلك الغزوة الانتحارية لم ينج من الموت. وهكذا «وبعد المهاجرة إلى آسيا لم يبقَ في المدن اليونانية من الوطنيين الحقيقيين إلا بقية زهيدة تولاها اليأس ووهن العزيمة وأمست تلك البنايات العمومية في المدن اليونانية، بعد أن كانت تغص بالخلق، مسرحاً للماشية»[2].

(1) بريستد، المرجع السابق، ص.478

(2) المرجع نفسه.

عملية التحرير السوري والاسكندر المكدوني:

لقد دأب المؤرخون في الغرب، خلافاً للمنطق والعقل والعلم، على جعل الصراع الذي دار على أرض سوريا خلال قرنين من الزمان هو بين أثينا وآسيا مرة، ثم بين الاسكندر المكدوني وآسيا مرة أخرى، وكانت النتيجة دائماً أن حفنة من الأوروبيين، سواء أكانوا من «الإغريق» مرة، أم من المكدونيين مرة أخرى، يتمكنون من أن «يسحقوا»آسيا كلها بملايينها العديدة، وأن كل الحروب التي دارت هي حروب ما بين الأوروبيين والآسيويين!

ولما كنا قد تعرفنا مفصلاً على الحقيقة التاريخية للإغريق النازحين الفارّين قبل الحروب الفارسية وأثناءها، فإننا ننتقل الآن إلى مكدونيا واسكندر بن فيليب المكدوني.

إن كلمة «مكدونيا» تسمية سريانية وتعني: المقهورة، المغلوبة، المستعبدة. وهي من الفعل «كدن» ويعني في القاموس السرياني: كدن، شدّ، قرن، ربط تحت النير خاصة، أذل، أخضع، غلب، استعبد، استرقّ، ألزم، أجبر...

ولما كانت مجاورة لـ «طراقيا» في سقف بحر إيجه فإن سكانها الأصليين كانوا جزءاً من همج أوروبا ذلك الزمان، يسكنون الكهوف ويأكلون لحوم البشر... ولقد مررنا سابقاً على تأكيد هيرودوت أن الإغريق من الفالجيين (أبناء فالج بن عابر الساميين) استوطنوا أولاً طراقيا وصاموطراقا الجزيرة التي أمامها قبل أن يأتوا إلى مواطن الأثينيين، ومنهم أخذ سكان تلك الجزيرة عبادة الآلهة «الكبيري». (الكتاب الثاني، ص134).

ثم لما اكتشف السوريون حوض البحر الأسود وسقف بحر إيجه، وأنشأوا على تلك السواحل ما يربو على ثمانين مدينة ومستوطنة اكتشفوا معدن الذهب في مكدونيا وصلاحية تربتها لزراعة القمح، فعلّموا قسماً من السكان أساليب الزراعة واستثمروا قسماً من أرضها، كما استثمروا معدن الذهب والعقيق والزمرد الذي كانت غنية بها بحيرة براسياس بوجه خاص.

و«براسياس» هي في الأصل السرياني «براقيا» Brakia وقد تحول الصوت الحلقي (القاف) إلى C باللاتينية كالعادة لوقوعه قبل حرف علّة. وكلمة «براقيا» في السريانية تعني: المعدن اللامع، البرّاق، كما تعني: الزمرد، العقيق. يقول هيرودوت: «ومن بحيرة براسياس إلى مكدونيا ليست المسافة بعيدة، وفي الواقع إن المعدن الذي كان يُحصّل منه لاسكندر كل يوم وزنة متصل بهذه البحيرة»[1].

ويقول المؤرخ العربي ابن الأثير:

«كان فيليب أبو الاسكندر اليوناني... فمنع الخراج الذي كان يؤدّى إلى دارا فأرسل بطلبه وكان بيضاً من ذهب، فأجابه اسكندر: إني قد ذبحت تلك الدجاجة التي كانت تبيض ذلك البيض وأكلت لحمها»[2].

ونقلوا إلى تلك البقاع لغتهم السريانية (اليونانية نفسها). ومع هذا، وخلال ما ينوف على ألف عام «فقد كانت مكدونيا حين اعتلى فيليب العرش عام 359ق.م. لا تزال في الأغلب الأعم بلاداً همجية يسكنها أقوام أشداء جبليون... والحق أنها، وإن استخدمت اليونانية لغة رسمية لها لكنها لم تُفد الحياة اليونانية طوال تاريخها بمؤلف أو فنان أو فيلسوف واحد»[3].

«ومكدونيا بلاد جميلة المناظر الطبيعية، كانت أرضها في الزمن القديم غنية بالمعادن، وسهولها الخصبة تنتج الفاكهة والحب... وكان سكان الجبال والفلاحون من أهلها من عناصر مختلطة أهمهم الإلليريون والطراقيون... وكان حكامها الأشراف يدعون أنهم من نسل اليونان، وكانوا يتكلمون لهجة يونانية»[4].

وهكذا يتكشف كيف أن الحضريين المستقرين منهم يتحدّرون بالنسب من فالج أحد أحفاد سام بن نوح، ويتكلمون اليونانية ذلك الزمن أي السريانية.

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب الخامس: 17، ص.342.
(2) الكامل في التاريخ لابن الأثير، الجزء الأول، ص.159.
(3) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 7، ص.407.
(4) ديورانت، المرجع السابق، الجزء 6، ص.133.

من هو الاسكندر بن فيليب:

ولما كانت عملية التحرير الكبرى لسوريا من نير الاحتلال الفارسي قد تمت بقيادة اسكندر بن فيليب الآرامي السوري، فقد عمد المؤرخون في الغرب إلى تغييب نسب الاسكندر وسيرته الحقيقية من التاريخ ليجعلوا منه البطل الأوروبي الفاتح لآسيا، ثم اسكندر الإله! (إن ول ديورانت ـ على سبيل المثال ـ لم يتورع عن أن يضع هذا العنوان الكبير «موت إله» عند الحديث عن موت اسكندر بن فيليب المكدوني)، جاعلين منه القدوة والمثال لكل أوروبي طامح للاستيلاء على الشرق!

فما هي حقيقة نسب الاسكندر، وما هي قصته؟

نسب الاسكندر:

كنا قد استعرضنا مفصلاً أقوال هيرودوت بهذا الخصوص، والتي نعود لنلخصها بما يلي:

1- إن الفالجيين الذين ينتهي نسبهم إلى آرام بن سام بن نوح هم أصل كل الاغريق (الهاربين) الأوائل إلى الجزر وبلاد المورة وطراقيا. «فأهل الجزائر كانوا في الأصل فالجيين»[1]، «والفالجيون كانوا مالكين البلاد المعروفة الآن باسم هيلادا (هيلاثا)، ثم دعوا قرنائيين نسبة إلى قورنيا (القرنة في المورة، ثم ككروفيين (نسبة إلى قيق رحوف = الطائر الرؤوف) في أتيكا، ثم صاروا يدعون يونان (نسبة إلى يونا)»[2].

2- وإن أرقو بن فالج كان مؤسس مدينة أرقوس في المورة، وجعل رمزها السلحفاة، واسمه يعني بالسريانية عظيم السلاحف.

3- وأن آباء الاسكندر كانوا أرقوسيين، أي فالجيين وساميين، وبالتالي عرباً، ولغتهم كانت السريانية، لأن لغة نوح وأبنائه كانت السريانية. ثم خرجوا من أرقوس إلى إلليريا (الحويريا بالسريانية وتعني بلاد الفضة) ومن هناك اجتازوا إلى مكدونيا.

---

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب السابع: 95، ص769.

(2) المصدر نفسه، الكتاب الثامن: 44، ص536.

يقول هيرودوت:

«كان اسكندر في الدرجة السابعة من سلالة برديكاس (فردوقا بالسريانية: صاحب الخيمة، الراعي أو الصياد) الذي استولى على تاج مكدونيا على ما أذكر هنا. كان جافانس وأروبوس وبرديكاس ثلاثة إخوة من نسل تيمينوس فهربوا من أرقوس إلى إيليريا، ومن هناك اجتازوا إلى مكدونيا العليا، ووصلوا إلى مدينة ليبيا ودخلوا في خدمة الملك براتب معين. فكان أحدهم يرعى الخيل والآخر البقر وبرديكاس أصغرهم كان يرعى المواشي الصغيرة... وكانت (الملكة) نفسها تهيئ لهم الطعام. وكل مرة كان خادمها يخبز الخبز لبرديكاس الفتى كان الرغيف يزيد مقدار نصفه، وكان هذا الأمر يحدث دائماً، فأعلمت بذلك زوجها... فدعا بالإخوة الثلاثة، وأمرهم أن يخرجوا من بلاده، فأخبروا الملك أنه من العدل أن يأخذوا أولاً أجرتهم. فلما سمع بذكر الأجرة قال لهم كرجل ألقى الآلهة في عقله اضطراباً: إني أعطيكم هذه الشمس (وكان شعاع الشمس حينئذ داخلاً في البيت من المدخنة «الروزنة») فهذه الأجرة تليق بكم. فلما سمعوا ذلك بهت الأخوان الأكبران... ولكن الأصغر أجاب الملك قائلاً: يا مولاي، إننا نقبل بالفأل الذي سمحت لنا به. ثم أخذ سكّينه ورسم في أرض القاعة خطاً حول البقعة المنارة بالشمس، وبعدما وقع شعاعها على حضنه ثلاث مرات ذهب هو وأخواه... وذهبوا إلى قطر آخر من مكدونيا جعلوا مقامهم قرب بساتين... ينبت فيها من تلقاء نفسه ورد، للزهرة منه ستون ورقة، ورائحته أذكى من رائحة كل ورد ينبت في غير موضع... فلما استولوا على ذلك القطر خرجوا منه لكي يخضعوا كل مكدونيا... (ومن هنا جاءت تسمية مكدونيا بالسريانية أي المخضعة، التي أخضعت)... وأتى اسكندر من سلالة فرديكاس هذا على الكيفية الآتية: فإنه ابن أمينتاس وأمينتاس ابن ألكيتاس، وألكيتاس ابن أوربوس، وأوروبس ابن فيليبس، وفيليبوس ابن أرقوس، وأرقوس ابن فرديكاس الذي افتتح هذه المملكة. هذا هو نسب اسكندر ابن أمينتاس»[1].

وهكذا نرى كيف أن أجداد اسكندر أرقوسيون نسبة إلى أرقو بن فالج، وأنهم خرجوا من أرقوس، وتسمّى بعض آبائه بهذا الاسم أيضاً.

---

(1) المرجع نفسه، الكتاب الثامن: 137ـ138، ص569ـ570.

4 - وهذا ما أكده اسكندر نفسه. فأبناء أرقو بن فالج هم الذين أدخلوا الألعاب الأولمبية معهم إلى بلاد المورة واختصوا بها. ولم يكونوا يقبلون مشاركة أحد من غير الإغريق (الفارين اللاجئين). «فإذا عزم اسكندر أن يحارب في تلك الألعاب... أرادوا أن يخرجوه محتجّين بأن الأغارقة فقط يقبلون في هذه الألعاب، لكن لما أثبت أنه أرقوسي حكموا أنه إغريقي»[1].

تربية الاسكندر:

كان أبو الاسكندر يدعى «أمينتا» ويعني بالسريانية «غدير». واسم «غدير» درج السوريون أن يتسموا به منذ الزمن القديم إلى اليوم. وكان لقبه «فيليفو» ويعني بالسريانية جميل الوجه، وهو مؤلف من «فاي» بمعنى جميل و«أفو» وتعني وجه، واللام للتعريف. ويترجمها ديورانت «الوجه الأحمر»، وهي التي صارت «فيليبو» Philipo، لأن الفاء الثانية لفظت P.

«كان فيليب قد أقام ثلاث سنين مع أقاربه في طيبة، فاستقى منهم قدراً متوسطاً من الثقافة وقدراً عظيماً من الأفكار الحربية. وكان يتصف بجميع الفضائل عدا فضائل الحضارة. كان قوي الجسم والإرادة، مولعاً بالرياضة البدنية، وسيماً، وجملة القول إنه كان حيواناً عظيماً، يحاول بين الفينة والفينة أن يكون أثينياً مهذباً. وكان كابنه الشهير ذا مزاج حاد عنيف وكرم فائق، مولعاً بالحرب إلى حد كبير، وبالشراب إلى حد أكبر. وكان يختلف عن الاسكندر في مرحه وميله إلى الضحك... وكان يحب الغلمان كثيراً، ولكنه يحب النساء أكثر. تزوج أكبر عدد استطاعه منهن»[2].

وحين تزوج امرأته التي هي من أصل سوري حاولت أن تثنيه عن شهواته فلم تفلح، وعيّرها بأن لها بخراً أي رائحة فم كريهة. فتركته وسافرت ـ قيل ـ إلى بابل. ونصحتها النسوة هناك بأن تتبخر وتستحم بالكندر الذي هو البخور، وكانت قد حملت بولدها اسكندر. فلما ولدته سمّته «أس كندر» أي روح الكندر، روح البخور[3]. ولما عادت إلى زوجها وجدته كعادته قد مال إلى نساء غيرها، فادعت أن ولدها ليس ابنه، بل ابن أحد الأرباب، فدعيت «أولمبيا» نسبة إلى أولمب أي رب العرش. وأخذت تدبر الانتقام منه لنفسها.

(1) المرجع نفسه، الكتاب الخامس: 22. ص344.

(2) ديورانت، المرجع السابق، ص407.

(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير، الجزء الأول، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1983، ص159

كوّن لنفسه في مكدونيا «بطانة من ثمانمائة من كبار الملوك الذين يحتقرون حياة الحواضر والكبت، فإذا ما أعلن الملك الغزو برضاهم خرجوا معه من ضياعهم إلى الحرب»[1]. «وكان من حسن حظه أن المدن اليونانية كانت في خلال هذه السنين تنهك قواها في «حرب مقدسة» ثانية (356ـ346ق.م) سببها انتهاك الفوقيين كنوز ديلفي. وأيد الإسبارطيون والأثينيون الفوقيين ضد بويوثيا وطسّاليا وكادت الدائرة تدور عليهما فاستغاث مجلسهما بفيليب، ووجد الفرصة ملائمة له. فجاء مسرعاً مخترقاً الطرق الجبلية المفتوحة أمامه، وأخذ الفوقيين على غرة عام 346, وضُمّ إلى الحلف الديلفي، ونودي به حامياً للضريح المقدس»[2].

إن هذا يكشف لنا بقايا امتداد الصراع بين أنصار السوريين وأنصار الفرس من الفينيقيين، خاصة وأن فيليب كان قد أمضى ثلاثة أعوام بين فينيقيي طيبة في بويوثيا... ثم نودي به هناك لترؤس الألعاب البويوثية، وهنا امتد بصره إلى مدن البيلوبونيز المنقسمة على نفسها، لكن أثينا رفضته بناء على خطابات ديموستين، ولم ترَ فيه غير مقاتل شهواني أهوج لا هدف له سوى إشباع رغباته الخاصة. كما أن السوريين من «فوقيا» انقضوا على معبد «ديلفي» ونهبوا كنوزه لعلمهم بانحيازه أثناء الحرب ضدهم.

وهنا بدأ التوجه الآخر في العمل على زوجته السورية وابنها اسكندر.

فقد تم الاعتراف بابنها كابن شرعي وحيد، لأنه من أبويين معروفين في النسب.

ثم، وبالاتفاق مع أمه، جرى العمل على توفير تربية للاسكندر تختلف عن سلوكيات أبيه ومطامحه. وقرّ القرار على ثلاثة: ليونيد الملك الإسبارطي الشجاع الذي رأينا كيف أنه مع ثلاثمائة من رجاله سدّ ممر الترموبيلاي الجبلي أمام الجيش الفارسي الزاحف وظل يقاتل مع رجاله حتى قتلوا جميعاً وقتل هو معهم. ولقبه في الأصل السرياني «العونيد» وهي اسم الفاعل من «عند» وتعني: من قد عند وراح وتغرّب وأفنى غيره ومات وهذا اللقب يحكي قصته كاملة، وقد سقطت العين كالعادة. وكان ليونيد من أنصار التربية الإسبارطية، فشبّ الاسكندر على حب الألعاب الرياضية والشجاعة

---

(1) ديورانت، المرجع نفسه، ص410.

(2) محمود فهمي، تاريخ اليونان، ص236

الذاتية التي كانت تدفعه إلى اقتحام الوغى كأحد أفراد الفرسان. وقد ظهرت فروسيته وشجاعته حينما اعتلى صهوة الجواد فوكيفالس وحكم عنانه وقد عجز الأبطال عن كبح جماحه. حين ذاك ضمه أبوه إلى صدره وقال له: «أي بني ابحث لنفسك عن مُلك آخر فإن ملكي هذا ليقصر عن همتك»[1].

والمربّي الثاني كان «لِقاماحوس» ويعني لقبه السرياني بلطة الموت. إذ «لِقا leka» بالسريانية تعني: فأس، بلطة، مطرقة، مجذاف، و«ماحو»: الباطش، القاتل، المميت. وكان لقاماحو يلقنه الإلياذا ويجعله يمثل دور أخيل، فسرى ذلك في نفسه وتشبه به في جميع أطواره.

أما المربي الثالث فهو أرسطو طاليس، ذلك الفيلسوف الكبير والعالم الجليل والسياسي الخطير، الذي هذبه وعلّمه وثقفه. «غير أن ذكاء الاسكندر ونفسه العالية ومعلوماته الراقية كل ذلك كان مقروناً بحدة الطبع وقسوة القلب وحب سفك الدماء الذي تجلى بكل مظاهره في معاملته للطيبيين لما شقوا عليه عصا الطاعة في أول حكمه. وكانت قسوته تزداد حتى تصير ضرباً من الجنون إذا انتشى ولعبت برأسه الخمر. فقد قتل وهو سكران كليتوس صديق أبيه والشاعر الفيلسوف كلستينوس وفيلوتاس وغيرهما. ولم يكن موته وهو في عنفوان الشباب إلا نتيجة شرهٍ في الشراب ونهمٍ في الطعام وانغماس في اللذات أعقبته حمّى شديدة أودت بحياته في بضعة أيام وهو في أبهة الملك وعزة السلطان»[2].

ولما كان الاسكندر يعي أن نسبه يعود إلى أرقو بن فالج الذي ينتهي إلى سام بن نوح، فهو في نسبه القديم أرقوسي إغريقي (هارب، لاجئ)، وإذ كان قد زوج أخته جيجيا لأحد القادة الفرس، فقد استخدمه هؤلاء رسولاً إلى الأغارقة مما جعله يطلّع عن كثب على أحوال الطرفين. ومع تقدم عمر الحرب ما لبث أن صار يترجم مكنون هواه إلى جانب السوريين وضد الفرس والمتحالفين معهم من الفينيقيين الذين خرجوا على أهلهم تحقيقاً لأغراضهم الأنانية الضيقة، مع العلم أنه كان على رأس فرقته المكدونية مع الجيش الفارسي. وقد كنّا قد ألمحنا إلى تفكك هذا الجيش من الداخل الذي كان يتشكل في معظمه من السوريين المكرهين على قتال إخوانهم، والذين كانوا يفعلون في السر كل ما من شأنه أن يحقق الهزيمة للفرس الذين كانوا قد ابتلعوا الموسى ولم يعودوا يعلمون ما العمل، لأن الهزيمة والهلاك واقعة لا محالة في الحالتين.

(1) المرجع نفسه.

(2) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب التاسع: 43، 44، ص592-593.

وكشاهد على هذا الواقع الذي كان الاسكندر وجنوده جزءاً منه يروي لنا هيرودوت التالي:

«بعدما سأل مردونيوس رؤساء جيشه عن النبوءات وحرضهم على القيام بفروضهم دخل الليل وأقاموا الخفراء. ولما مضى قسم كبير من الليل ساد السكون التام في المعسكرين وكانت الجيوش مستغرقة في النوم، فحينئذ ركب اسكندر بن أمينتاس قائد المكدونيين وملكهم، وقصد حرس الأثينيين القريب وطلب أن يكلم القواد. فبقي أكثر الحراس في مراكزهم والآخرون أسرعوا وأخبروا القواد أنه أقبل من معسكر الفرس رجل على فرس، واكتفى بأن يقول لهم إنه يريد أن يكلم القواد وسمّاهم بأسمائهم. فحينئذ تبعهم القواد حالاً إلى الموضع المقيم فيه الحرس المتقدم. ولما وصلوا كلمهم اسكندر قائلاً: »أيها الأثينيون، إني أتيت لأسلم لكم سراً أطلب إليكم أن لا تطلعوا عليه أحداً إلا بوسانياس لئلاً يكون في ذلك هلاكي. ولولا شدة غيرتي على مصلحة كل أغريقيا لما أتيت أطلعكم عليه. فإني رجل إغريقي في نسبي وأصلي منذ الأزمنة القديمة، ويسوؤني أن أرى أغريقيا في ربقة العبودية. فاعلموا إذن أن الذبائح لم تبشر مردونيوس وجيشه بخير. ولولا ذلك لباشر الحرب منذ مدة طويلة. ولكنه لم يبالِ بالذبائح، فعزم الآن أن يهاجمكم غداً عند طلوع النهار لأنه يخاف على ما أظن أن يزداد عدد جيشكم أكثر فأكثر. فاستعدوا إذن. ولكن إذا أخرّ مردونيوس الحرب فابقوا هنا ثابتين لأنه ليس له من الزاد ما يكفي إلا أياماً قلائل. فإذا انتهت هذه الحرب كما تتمنون يكون من العدل أيضاً أن لا يفوتكم إطلاق سبيل رجل لشدة غيرته ومحبته للأغارقة، عرّض نفسه لخطر عظيم بمجيئه لإطلاعكم على مقاصد مردونيوس خوفاً من أن البرابرة قد يفاجئونكم بالهجوم، وأنا اسكندر المكدوني». ولما تكلم هكذا رجع إلى موضعه من المعسكر. فمضى القواد الأثينيون إلى الجناح الأيمن من الجيش وأخبروا بوسانياس بما قال لهم اسكندر. فلما سمع بوسانياس ذلك وكان يخاف سطوة الفرس قال لهم: حيث أن الحرب تنتشب غداً صباحاً يجب، أيها الأثينيون، أن تقوموا في وجوه الفرس لا في وجوه البويوثيين والأغارقة الذين بإزائكم»[1].

(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب التاسع، 43، 44، ص 592 – 593 .

إن هذه القصة تكشف حقائق كثيرة منها: أن جيش الفرس يخوض حرباً غير مؤمن بها، وهو في تركيبته تلك مزمع في معظمه على أن يجعل الهزيمة من نصيب الفرس. أما الأمر الثاني فإن السوريين الذين يشكلون القسم الأعظم من ذلك الجيش قد بدأوا يضعون ثقتهم في اسكندر بن فيليب للمهمات القادمة. والأمر الثالث هو أن أشد المقاتلين في صفوف السوريين الأغارقة كانوا متمثلين في اللقدمونيين (الإسبارطيين)، فقرروا أن يقفوا للحرب بإزاء الفرس وليس بإزاء إخوانهم من السوريين المحليين أو الأغارقة (الفارين) المكرهين على القتال. وهذا يعني أن اسكندر قد أسرّ لهم أموراً أخرى عن مختلف القوى ونواياها في داخل الجيش دون أن ينقلها أو يدركها هيرودوت. أما الفينيقيون المتحالفون مع الفرس ضد أبناء جلدتهم السوريين فقد كنز لهم اسكندر في قلبه الكثير من الحقد والغضب. وكان، على ما يظهر، من خلال فطنته هو، أو من خلال تعليم أستاذه أرسطو، قد فطن إلى أن فينيقيي طيبة وبيوثيا الذين كانوا قد استنجدوا بأبيه فيليب ضد الإسبارطيين والأثينيين لأنه عاش بين ظهرانيهم فترة، لم يملّكوه عليهم إلا لضربه بخصومهم. ولقد أكدت له الأحداث صحة ذلك.

فما أن بلغ أهل طيبة نعي فيليب المقتول حتى هبّوا لمحاصرة الحامية المكدونية في «قدميا» القلعة التي بناها جماعة قدموس الصوري وسميت باسمه. فما كان من اسكندر إلا أن انتقل عقب موت أبيه «إلى أواسط أغريقيا في مدينة قورنتا»[1]. إن اختياره لمدينة «قورنتا» التي كان قد أسسها السوريون كأول مدينة حضارية في بلاد المورة كلها دون أن يكون أهلها من الإغريق أي من الفارّين واللاجئين، كان له مغزى كبير. فقد وضعت الخطط المستقبلية كلها هناك مع السوريين في مدينتهم الزاهرة والتي حافظت على ازدهارها بعيداً عن العشائر الإغريقية الأخرى. وفي عام 355ق.م. اضطر إلى مغادرتها من أجل صدّ قبائل همج الشمال المتوطنة على نهر الدانوب التي أغارت على المواقع السورية في طراقيا ومكدونيا. وذاع في أغريقيا خبر موته، فثار الطيبيون وذبحوا ضباط الحرس المكدوني وقد فطنوا إلى أن اسكندر بن فيليب جنح بهواه إلى جانب السوريين في سوريا وفي مواقع الانتشار.

---

(1) محمود فهمي، المرجع السابق، ص 237 .

ولما بلغ الاسكندر هذا الخبر أسرع بالعودة إلى الجنوب على رأس قواته وسحق الثائرين في طيبة تحت أسوار مدينتهم، وأسر منهم ثلاثين ألفاً هم أهل طيبة، وباعهم في الأسواق، وقبض ثمنهم 440 وزنة، ثم هدم المدينة ومحا أثرها خلا القلعة وبيت بندارو الشاعر[1]، ثم تتبع المعارضين في أثينا، ونفى منها بعضهم، ولم يعد يفكر إلا بتنفيذ خططه المبيتة مع السوريين، وهي الانتقال بما يقدر على جمعه من الرجال إلى آسيا ليخوض مع السوريين الأهليين أو المجندين قسراً مع الجيش الفارسي حرب التحرير الحاسمة، وإرجاع بابل إلى سابق عهدها عاصمة للدولة السورية.

يقول الباحث الفرنسي بيير روسي المتخصص بحضارة الإغريق بهذا الصدد:

«فالاسكندر، كملك آرامي، يؤلف جزءاً من التقاليد العربية على الأقل، بقدر ما يعني ذلك التاريخ الإغريقي. ويظهر أن غالبية شراح التاريخ الإغريقي ينسون ذلك. وتلاميذنا يرتكبون الخطأ نفسه متجاهلين أن شارلمان، مثلاً، لم يكن حصراً «فرنسياً». وإن اسم الاسكندر، أو اسكندر... قد استمر يُعطَى اسماً للأطفال العرب. وإن هذا لمثير للاهتمام، ذلك أن مصير الاسكندر المكدوني، خلافاً لما كان يفكر به عادةً، لم يكن كذلك البتة. إن اسكندر اسم آرامي قديم خلق الإغريق انطلاقاً منه اسم الكسندروس الذي كان يومذاك اسماً طروادياً (اسم باريس بن فريام)، وعكس علماء الاشتقاق مرة أخرى ـ لأن غالبيتهم «هلنستيّون» في غربنا على الأقل ـ عكسوا الأدوار، وأعطوا مشتقاً آرامياً لجذر كان، حسبما يرون، إغريقياً. وهكذا وضعوا مرة أخرى العربة أمام الحصان. فإذا كان العرب قد سمّوا اسكندر فليسوا مدينين به لابن فيليب. إنه هو المدين لهم باسمه»[2].

إن روسّي الباحث الموضوعي يجهر بالحقيقة بعيداً عن روح التعصب المقيتة للغرب ضد الشرق التي سادت كتابة التاريخ. فالاسكندر ذو القرنين قبل الاسكندر المكدوني بعدة قرون، وهو يمني، وقد جرى الخلط بين الاثنين عند النقلة من العرب اليوم. وإن «أل» التعريف العربية الملازمة للاثنين حتى في كتاباته بكل اللغات منذ البداية دليل آخر على عروبة الاسم الذي كنا قد شرحنا معناه من ذي قبل.

---

(1) المرجع نفسه، ص 238.

(2) روسي، المرجع السابق، ص 188.

الاسكندر وحروبه التحريرية:

لقد توفرت للاسكندر عدة شروط لم تتوفر لغيره كي يقع عليه الاختيار في قيادة عملية التحرير الكبرى من الاحتلال الفارسي، وفي طليعة هذه الشروط تلك التي يسرت له الإحاطة بكل ما يجري من أحداث على الساحة السورية داخل الوطن وفي مواقع الانتشار أو النزوح، والتي نجملها بما يلي:

1- فعلى ساحة أغريقيا أو بلاد المورة «كانت الحروب البيلوبونيزية قد أثبتت عجز أثينا عن تنظيم الإغريق، وأثبتت الحوادث التي أعقبت هذه الحروب عجز إسبارطة عن هذا التنظيم، وعجزت طيبة عن بسط سيادتها على البلاد، وأنهكت حرب الجيوش والطبقات قوى دول المدائن، وتركتها ضعيفة عاجزة حتى عن الدفاع عن نفسها»[1]. ولماذا نشبت تلك الحروب البيلوبونيزية التي دمرت الجميع هناك وبعد الانسحاب الفارسي؟ إن الجواب ليس في تلك العروض السخيفة للمؤرخين في الغرب التي أرجعتها إلى الصراع بين الاستبداد الإسبارطي والديموقراطية الأثينية، وإنما في فهم ما كان يريده الملك المركزي (الفارسي آنذاك) في بابل من بلاد الإغريق. إن تلك البلاد لم تكن تعني شيئاً في نظر أي حاكم مركزي سواء أكان سورياً أو فارسياً. «فاقتصادها يعتمد كلية على الخارج... ولم يكن يوجد في بلاد اليونان أية إمكانية استثمار، فلم يكن البلد يساوي إلا ما يقدمه أبناؤه من خدمات... ولكي تستحق المال العربي مدينة مثل إسبارطة، المعزولة في جبالها المجدبة، كان يعوزها بالتأكيد أن تمتلك أنظمة الموانئ والمصارف في شبه جزيرة المورة»[2]. إن كل ما كان يهمّ الملك المركزي هو السكان السوريون النازحون إلى تلك البلاد الذين لا ينفكون يجرون الاتصالات مع أبناء الوطن، ويحرّضون على الثورة والتمرد في وجه الجيش الفارسي، ويثيرون المتاعب في أهم مواقع طرق التجارة من ميليتا إلى البحر الأسود. فبعد هزيمة الأسطول الفارسي (الفينيقي المصري) على يد الأسطول السوري والمتحدين، أخذ الملك الفارسي ينحو منحى آخر باتجاه إثارة الحروب والمنازعات بين المدن الإغريقية وذلك

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص415.

(2) روسي، المرجع السابق، ص172.

بناء على نصائح بعض الملوك أو الوجهاء من الإغريق المبعدين، والذين لجأوا إلى بلاط الملك الفارسي. لقد عمد هذا الأخير إلى شراء البعض، ورشوة آخرين، ودعم هذا مرة وذاك مرة أخرى. وكان ألقيفيادي مثلاً «يقول لتيسيا فيرنيس إن أحسن حل اقتصادي لديه إنما يكمن في ترك الإغريق يرهق بعضهم بعضاً بينما هو نفسه لا يتعرض لأي خطر»[1].

2- «ولقد كانت سياسة الملك الكبير القارية محدّدة في مجرى خمسة أنهار: الهندوس، ودجلة، والفرات، والنيل، والدانوب التي تعدّ بين أهم الطرق المائية في العالم. وما دام النظام المرافئي المتوسطي، والمراقبة مؤمّنة منذ مدة طويلة على الأنهار الأربعة الأفريقية ـ الآسيوية، فلم يبقَ سوى نهر الدانوب الأوروبي، الذي أظهر أنه يحمل أكثر من النيل مصيراً سياسياً... لذلك فإنه لا ينبغي التفتيش في شخصية فيليب أو الاسكندر عن أسباب التغيير السياسي الذي أثر في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي في القرن الرابع قبل الميلاد. إن الأبحاث العديدة النقدية النفسية التي تفرّغ لها، والحالة هذه، محترفو التعليم... إن تلك الأبحاث قد كشفت عن قصة خيالية لا عن تحليل علمي... ذلك أن هذه الأحداث كانت كبيرة آنئذ وأكبر من الرجال الذين يظنون أنهم يوجهونها. إن الأحداث كانت تقودها آنذاك السلطات الفارسية وبابل التي كان أصحابها يرون في فيليب حليفهم المختار والأكثر إخلاصاً في تغطية سياستهم الدانوبية، ويساعد مخططات توحيد الإغريق في قبضته. وهي عملية كانت لازمة لمصالح الملك الكبير الذي كان آنئذ أرتاسرخس الثالث الذي حكم من سنة 358 إلى سنة 338, ويتفق حكمه تقريباً مع حكم الملك المكدوني ما بين 357 - 336 ق.م... إن معاهدة حسب الأصول، الجيدة والمطلوبة، قد عقدت حوالي عام 350 بين... الملك الكبير الذي كان أرتاسرخس وتابعه فيليب، جدد فيه الولاء القديم لبابل»[2]. وهكذا صار فيليب المتعهد الذي سيضع أغريقيا كلها في قبضته لصالح ولي أمره الملك الفارسي.

---

(1) المرجع نفسه، ص171.

(2) روسي، المرجع السابق، ص175 - 176.



صورة رقم (46) الاسكندر فيليب المكدوني.

كانت طيبة بنت مدينة صور بكل معاني الكلمة. فهي على استعداد دائم لأن تتحالف مع أية قوة شرط ألا تكون جزءاً من دولة مركزية كبرى. لهذا فقد تحالفت مثل أمّها صور مع الفرس ضد الدولة السورية المركزية. وها هي الآن مع فيليب رجل الفرس ضد أثينا ذات الاتجاه الموالي للسوريين المتحدين ضد الاحتلال الفارسي.

وحين تقدم فيليب برجاله من مكدونيا إلى الجنوب تنفيذاً لرغبة الملك الفارسي كان الأثينيون، وفي مقدمتهم الخطيب ديموستين، قد فهموا اللعبة وقرروا مقاومة فيليب. «ففي عام 338ق.م. نظموا على عجل قوة زحفوا بها إلى الشمال لملاقاة فيليب عند قيرونيا البويوثية. وابت إسبارطة أن تقدم العون لأثينا. أما طيبة فحينما أحسّت بأن قبضة فيليب قد تطبق على عنقها أيضاً فقد تراجعت عن موقفها وأرسلت فرقتها المقدسة لتحارب إلى جانب الأثينيين. وقتل الثلاثمائة جندي الذين تتألف منهم هذه الفرقة في الميدان، وحارب الأثينيون بالشجاعة نفسها... فكانت النتيجة أن منوا بالهزيمة وتشتت شملهم»[1].

3- أما الاسكندر الذي كان في جيش أبيه وقد بلغ الثامنة عشرة من العمر، فكان على اطلاع بأوضاع الجيش الفارسي المهلهل والمتناقض من الداخل، وعلى تصميم المتحدين السوريين أن يجلوا الفرس، ويعيدوا وحدة الدولة المركزية إلى سابق عهدها، دولة الازدهار الصناعي والتجاري والزراعي، وسيادة الأمن، والقوانين، والقضاء، والتخلص من العسف القائم. وكان على دراية كاملة بالمواقف الفينيقية الانتهازية التي تمالئ الفرس من أجل ضمان مصالح الفينيقيين التجارية، وهي جاهزة لأن تنقلب في أية لحظة يمكن أن تهدد فيها تلك المصالح. لهذا نرى الاسكندر في الوقت الذي يشرف فيه على إعدام بعض زعماء طيبة المعادين للمكدونيين ويطلق سراح الألفي أثيني الذين وقعوا أسرى في يديه، ويتولى بنفسه مع الحكيم السوري الأصل أنتيباتر مهمة التفاوض مع الأثينيين[2] ليقنعهم في السر بأن وحدة الإغريق لن تكون في صالح الملك الفارسي بل في صالح المتحدين السوريين المناوئين له. وهكذا

(١) ديورانت، المرجع السابق، ص414.
(٢) المرجع نفسه.

اختيرت «قورنتا» المدينة السورية القديمة مركزاً لذلك الاتفاق، وتأسس فيها حلف على غرار الحلف البويوثي الذي كانت تتزعمه طيبة والذي كان مدعوماً من الفرس ومن الأسطول الفينيقي، وتعهدت كل مدينة دخلت فيه أن تمدّ الاسكندر بالرجال والسلاح، وألا يحارب يوناني من أي بلد كان في صفوف أعدائه[1].

إن هذا يضعنا مباشرةً عند مفترق الأحداث: فنحن من جهة أمام جيش فيليب رجل الفرس الذي سيطر على بلاد الإغريق لصالحهم، ومن جهة ثانية أمام بروز التيار الآخر المتمثل في إصرار السوريين في الوطن والمهجر على التحرير، كما بدأ ذلك يطلّ برأسه كتناقض بين توجه الأب فيليب وتوجه الابن اسكندر الذي كان ما يزال مخبأ غير ظاهر.

وهنا نتوقف لنسأل:

هل كان لأم اسكندر السورية دور في صياغة توجه الابن ضد أبيه الذي لم يكن يملك أي حسّ سياسي أو استراتيجي إلا تنفيذ ما يطلبه منه سيده الملك الفارسي؟ نقول: بالتأكيد نعم. «فإن الذي قرر مصير فيليب في آخر الأمر لم يكن انتصاره في ميدان القتال، بل كان عجزه عن الانتصار على زوجته»[2]. فمن المعلوم أن النساء السوريات كن الوحيدات المنغمسات في أمور السياسة. وكانت سوريا الوطن الوحيد الذي أنجب مثل تلك السيدات الحاكمات المتفوقات حتى على أقرانهن من الملوك الرجال. كانت أولمبيا على نقيض تام مع زوجها في كل شيء. وكانت تحافظ على إقامة الشعائر السرية في ديانة أدونيس، وترهب زوجها الهمجي بأشكال شتى. «وقد وجد ذات ليلة ثعباناً إلى جانبها في السرير فارتاع، ولم يذهب عنه روعه حتى بعد أن قيل له إن الثعبان إله من الألهة. وأسوأ من هذا أن أولمبيا أخبرته ذات مرة أنه لم يكن والد الاسكندر الحقيقي، بل إن صاعقة قد انقضت عليها ليلة زفافهما وأشعلت فيها النار، وأن الإله العظيم زيوس ـ أمون (أمون بالسريانية وآمين تعني الدائم، الباقي، الخالد) هو الذي حملت منه بالأمير المقدام. ونفّرت هذه المنافسات فيليب منها، فولى وجهه شطر غيرها من النساء، وشرعت أولمبيا

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص 415.

تثأر لنفسها منه، فأخبرت الاسكندر بسرّ أبوته الإلهية»[1]، وهذا لم يكن يعني إلا بنوّته لأحد السادة الأشراف (الأرباب) السوريين. وأخيراً حاكت أولمبيا مكيدتها للتخلص من زوجها مع اثنين من رجاله الموثوقين لديه هما السوريان أثيلوس Athillus (الأثيل بالسريانية والفصحى = المجيد) وفوصنياس (فوصنيا = المخلّص)... يقول ديورانت: «وزاد الطين بلّة أن قائداً من قواد فيليب يدعى أثيلوس طلب أن يشرب نخب ولد فيليب المرتقب من زوجة أخرى وقال إنه الوارث «الشرعي» (أي المكدوني لحماً ودماً) لعرش البلاد. فما كان من الاسكندر إلا أن ضربه بالكأس في رأسه وصاح قائلاً: «وهل أنا ابن زنى إذن؟»، واستلّ فيليب سيفه يريد أن يقتل به ولده، ولكنه كان ثملاً لا يستطيع الوقوف. فضحك منه الاسكندر وقال: «ها هو ذا رجل يستعد للانتقال من أوروبا إلى آسيا وهو لا يستطيع أن يخطو آمناً من مقعد إلى مقعد». وبعد بضعة أشهر من ذلك طلب ضابط من ضباط فيليب يدعى فوصنياس أن يأخذ له الملك بحقه من أثيللوس لتلك الإهانة التي لحقت به منه. فلما لم يجبه الملك إلى طلبه (ويبدو أنه كان قد أحس بأصابع أولمبيا في الأمر) اغتاله فوصنياس في عام 336 ق.م. وكان الاسكندر محبوباً من الجيش حباً يقرب من العبادة، وكانت أمه أولمبيا إلى جانبه، فاستولى على أزمّة الملك، وتغلب على كل ما لقيه من مقاومة»[2]، ثم سرعان ما بدأ يعدّ العدّة لتنفيذ المشروع الآخر مع السوريين المناقض لمشروع أبيه.

4 - الآن صار في الإمكان تعيين أهم الخطوط الاستراتيجية في المشروع السوري السري، والذي يرمي، باختصار شديد، إلى إعادة مجد الدولة في إعادة سيطرتها على مصادر ازدهارها الاقتصادي القديم، بما فيها خطوط التجارة الدولية البرية والبحرية، تلك السيطرة وذاك الازدهار اللذين داما زهاء ثلاثة آلاف سنة قبل الاحتلال الفارسي الذي، بتخلفه عن الحضارة البابلية والآشورية عدة آلاف من السنين، كان من شأنه أن يعيد المنطقة تلك الآلاف نفسها من السنين إلى الوراء. إن هذا هو ما لم يحاول، أو بالأحرى ما لم يرد، المؤرخون في الغرب.

(1) المرجع نفسه، ص415- 416.

(2) المرجع نفسه.

ومن أجل ذلك كان لا بد من:

- إبعاد خطر قبائل برابرة أوروبا عن منطقة الدانوب، وبالتالي عن سواحل طراقيا ومداخل البحر الأسود.
- توحيد إغريق بلاد المورة، أو على الأقل انتزاعهم من لعبة الملك الفارسي، ومعاقبة من يقاوم منهم الاتجاه الجديد.
- تأمين وسائط الاتصال السرية مع الفيالق السورية المجندة قسراً في جيش داريوس، حتى إذا ما عبر الاسكندر بقواته الصغيرة نسبياً إلى آسيا أعلنت تلك الفيالق تمردها ثم انضمامها إليه.
- تأمين تجارة بحر إيجه والبحر الأسود.
- تأديب المدن والمواقع الفينيقية المتمردة على الدور السوري المركزي والمتحالفة مع الفرس، وإخراجها من المواقع التي أخذت تستأثر بها على حساب المصالح السورية العليا.
- إعادة بابل أو أية مدينة سورية أخرى عاصمة للعهد السوري الجديد.
- دفع القوات والقبائل الفارسية إلى الشرق بعيداً عن إمكانية محاولة الانقضاض على الدولة مرة أخرى.
- دفع همج آسيا إلى جبالها ووديانها البعيدة جرياً على التقليد السوري الذي كان قد أسسه سرجون وسار عليه كل الملوك الذين خلفوه في العهود السورية الثلاثة: الأكادي والبابلي والآشوري.
- خلق مركز جديد في وسط حوض البحر الأبيض المتوسط يتصدى لأطماع الفينيقيين الانعزالية في قرطاجة والقضاء نهائياً على ذلك الدور إن تطلب الأمر.

إن مثل تلك الأهداف الاستراتيجية الكبرى لم يكن ثمة طرف آخر مؤهل للتفكير بها والعمل على تحقيقها غير السوريين الذين كان تعدادهم في سوريا وحدها يربو على ثلاثين مليون إنسان[1].

---

(1) روسي، المرجع السابق، ص193.

إن مثل هذا الواقع كان يمكن أن يغري رجلاً محارباً طموحاً مثل الاسكندر للانخراط فيه فقط، وليس من أجل و ضعه وتنفيذه. إنه فقط واحدة من الأدوات والوسائل الأخرى الكثيرة والكبيرة المستخدمة لتجسيد ذلك المشروع واقعاً معاشاً على الأرض.

إن مكدونيا البربرية «كانت محرومة من جيش متعلم حتى حسب الطرائق الفارسية أو حتى الطراقية... وكانت الطبقة التي تقود المجتمع فيها تملك زراعة يونانية ـ آرامية... لكن علماء وشعراء عرباً أو أثينيين قد أقاموا في هذا البلاط الشمالي مثل يوروبيدس والملك أرخيلاوس العالم الرياضي الذي زود وطنه منذ نهاية الحرب البيلوبونيزية بأجمل مجموعة من الطرق الستراتيجية في أوروبا الدانوبية»[1].

إن مكدونيا هذه كانت حتى ذلك الوقت تابعة أمينة لداريوس الثاني، وبمساعدته فقط تمكن فيليب من أن يفرض سيطرته لصالحه على بحر إيجه، ثم على بيزنطة، وقطع، وراقب طريق القمح. وبمساعدة الملك الكبير وتأييده الذي كان يرى في هذا وسيلة دائمة لتقوية سياسته الأوروبية، ركز فيليب سلطته لتغطية المضائق[2] تحقيقاً لحلم سيده داريوس... إن مكدونيا هذه وفي عهد الاسكندر تقلب للملك الفارسي ظهر المجن، وترفض تجديد الولاء، وإرسال «بيض الذهب» وتعلن حركة التمرد الواضحة.

ولم يتركه السوريون في مكدونيا وحيداً، بل جعلوا إلى جانبه قبضة من الاستراتيجيين الدهاة من أشراف عائلات سوريا كان من بينهم: أنتيباتر، فتولمايو (بطليموس)، سلوقس، فيتون وفايوقستا...

ولم يضيع الاسكندر وقتاً. ففي الحال انقض بقواته على قبائل الشمال الهمجية ودفعها إلى الوراء بعيداً عن خطوط تجارة الدانوب. وفي الوقت نفسه، ومنذ أن أعلن اسكندر «ذبح الدجاجة المكدونية التي تبيض ذهباً» بدأت عمليات فرز القوى تأخذ أبعادها على الأرض.

(1) المرجع نفسه، ص176 – 177.

(2) المرجع نفسه، ص177.

إن القسم الأكبر من الجيش الفارسي »والقسم الأكبر من مرزبانات سوريا ومصر، وأغلبية المسؤولين المدنيين والعسكريين في الإمبراطورية البابلية كانوا يتحركون مع تحرك الاسكندر[1] لتنفيذ المشروع الجديد، وسرعان ما شعر الحلف الفينيقي ـ الفارسي بالخطر، وكانت طيبة أول من رفع السلاح مستفيدة من غياب الاسكندر في عملية على الدانوب[2]. فما أن فرغ من مهمته هناك حتى اندفع بقواته جنوباً حتى طيبة »فانتقمت من المدينة ودكت حصونها دكاً، و بيع سكانها بالمزاد«[3]، »وأسرعت مدن اليونان فقدمت له ولاءها، وبعثت إليه أثينا معتذرةً عما بدر منها، وعرضت عليه تاجين، ومنحته ما تمنحه الآلهة من مراسم التكريم«[4]. «وانعقد مؤتمر في قورنتا من جميع مدن اليونان، وأعلنه قائداً عاماً لجميع اليونان، ووعد بأن يعينه بالمال والرجال في حروبه الأسيوية المرتقبة، ثم رجع الاسكندر إلى فيلا في مكدونيا، فنظم شؤونها، واتجه بعدئذ نحو الشمال ليتمّ تقليم أظفار القبائل المتبربرة هناك عام 335ق.م. وزحف على رأس جنوده حتى وصل إلى موضع بخارست الحالية، ورفع علمه على ضفة الدانوب الشمالية. ثم ترامى إليه أن أهل إلليريا يزحفون على مكدونيا فاجتاز مائتي ميل في قلب بلاد الصرب، وفاجأ مؤخر الغزاة، وهزمهم، وردّ فلولهم إلى جبالهم».

لكن إشاعة راجت وقتئذ في أثينا بأن الاسكندر قد قتل وهو يحارب عند نهر الدانوب. فأخذ ديموستين يدعو إلى حرب لنيل الاستقلال، ولم يرَ حرجاً في أن يقبل مبالغ طائلة من الفرس... وخرجت طيبة عن طاعة الاسكندر، وأرسلت أثينا المدد إلى طيبة، ودعت بلاد اليونان إلى التحالف مع الفرس على مكدونيا. وثارت ثائرة الاسكندر لهذا العمل الذي لم يكن الدافع إليه في نظره رغبة اليونان في الاستقلال، بل كان غدراً منها... فزحف بجنوده المتعبين نحو الجنوب وهاجم بلاد الإغريق مرة أخرى. ووصل إلى طيبة بعد ثلاثة عشر يوماً، فقررت هذه المدن أن تحرق طيبة عن آخرها وأن يباع أهلها أرقاء، وقرر الاسكندر أن يجعلها عبرة، فأمضى هذا القرار واشترط ألاّ يُمسّ بيت الشاعر بيندار بسوء، وأن يبقوا على حياة الكهنة والكاهنات وجميع الطيبين الذين يثبتون أنهم قاوموا التمرد... أما أثينا فقد عاملها معاملة ليّنة، ولم يتشدد في طلب ديموستين وغيره من الزعماء الذين قاوموا المكدونيين...

---

(1) المرجع نفسه، ص180.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

(4) ديورانت، المرجع السابق، ص523.

وقال عقب حملة مجهدة:

«أيها الأثينيون، لو تعلمون أي أخطار أعرّض نفسي لها لأكون جديراً بثنائكم»[1].

وبعد أن أعربت جميع مدن الإغريق عن ولائها باستثناء إسبارطة عاد إلى مكدونيا وأخذ يستعد للذهاب إلى آسيا.

ترك الاسكندر قسماً من قواته بقيادة أنتيباتر لحراسة مكدونيا ومراقبة تحركات الإغريق، ثم عبر بباقي جنوده الهلسبونت من لسبوس إلى أبيدوس. وأخذت المدن السورية تفتح له أبوابها دون مقاومة وتعلن العصيان على الجيش الفارسي. والتقى عند إفسوس بجيش داريوس الثالث الذي كان يعد ستمائة ألف رجل، تخلّى معظمهم عن القتال وهرب إلى صفوف الأهلين في المدن ليعضدوا العصيان. وانهزمت بقية جيش داريوس. واستقبلت بقية المدن السورية رسل الاسكندر بالترحيب والفرح ومنها دمشق وصيدا. أما فينيقيو صور وغزة فقد ظلوا على موقفهم المتعنت مع الفرس. وكان في صور أسطول فينيقي قوي استأجره الفرس لخدمتهم في القتال، فكبسها الاسكندر «ولما أن استولى عليها آخر الأمر ركب رأسه وترك رجاله يذبحون ثمانية آلاف من أهلها ويبيعون منهم ثمانين ألفاً بيع الرقيق... وحاربته غزة حتى قتل كل رجل في المدينة وسبيت كل امرأة»[2].

ولما كان الفينيقيون حاميين (أحد فروع حام بن نوح) كما أثبتنا سالفاً، وكانت مواطنهم الأصلية التي قدموا منها في جنوب شبه جزيرة العرب (في صور العمانية)، وقد «هاجروا حسب رواياتهم التي أخذها عنهم هيرودوت من البحر الأريتري (الخليج العربي) في الألف الثالث قبل الميلاد ليتجهوا نحو البحر الميت ثم نحو المتوسط، فقد كانت هذه الرواية حية إلى حدّ أن الاسكندر عند مروره لمعاقبة مدينة صور «قد فكر في إعادة الفينيقيين إلى موطنهم الأول» أي إلى جزر البحرين»[3].

---

(1) المرجع نفسه، ص524ـ525.

(2) ديورانت، المرجع السابق، ص526ـ527.

(3) روسّي، المرجع السابق، ص64.

أما على الجبهة الشمالية فقد تقدمت قوات الاسكندر مع القوات السورية المتحدة الأخرى، والتقت بجيش داريوس قرب مدينة أربيل السورية عام 331 ق.م. ففرت قوات داريوس الثالث، وعهد هو أيضاً إلى الهرب فقتله بعض قواده. ودخلت قوات الاسكندر التي صار السوريون يؤلفون معظمها هيكل عشتار أربيل، وقدّموا لها الشكر والقرابين. ثم دخل الاسكندر مدينة بابل، وأمر بتعظيم آلهتها وبإعادة ترميم أضرحتها المقدسة، ومنع جنوده من أي نهب يها. وعوّضهم عن ذلك بأن قسم كنوز دارا فيما بينهم وبين المدن السورية التي كانت حليفته، حتى أنه أرسل إلى فلاطيا في بلاد الإغريق قسماً من هذا المال لموقفها المناهض للفرس. ولم تنته سنة 331 حتى كان قد دخل مدينة السوس عاصمة بلاد عيلام «وكان أهلها ما يزالون يذكرون مجد عيلام» في ظل الدولة البابلية والأشورية، «فاستقبلوه استقبال المنقذ وحمى المدينة من النهب»[1].

«ولم يكد يستريح في السوس حتى واصل الزحف فوق الجبال في قلب الشتاء ليستولي على فرسوبوليس. وقد بلغ من سرعة زحفه أن وصل إلى قصر دارا قبل أن يستطيع الفرس إخفاء الكنوز الملكية. وهنا ركب رأسه فحرق المدينة ودكها دكاً، وانطلق جنوده ينهبون البيوت ويسبون النساء ويقتلون الرجال...»[2]. وكعادة الملوك السوريين دفع بهمج آسيا الشماليين إلى معاقلهم في الجبال الشمالية، وبلغ سمرقند. ثم رأى أن يدفع بالقبائل الفارسية إلى الشرق بعيداً عن شواطئ الخليج الشرقية حتى يبقي خطوط تجارة الخليج سالمة وآمنة في يد بابل مرة أخرى، وحتى يقطع طرق الاتصال مع صور المدينة الأم الفينيقية عند مدخله الجنوبي. وبالفعل أمر قواته بضرب مدينة صور (العمانية اليوم) وجزيرتها صور الصغرى (امصيرا الحالية)، ودفع القبائل الفارسية بعيداً عن سواحل الخليج الشرقية الذي دعاه هو باسمها (خليج فارس) آنذاك. ثم «اندفع شرقاً في المرحلة الأخيرة من حملته التي استغرقت الفترة من 327 - 325ق.م. وقد سعى فيها إلى أن يعيد فتح مناطق وادي الهندوس»[3] ليعيد حدود الدولة البابلية القديمة سياسياً واقتصادياً وإدارياً. ثم، وبعد أن كلّت قواته عاد من ضفاف وادي السند موزعاً قواته إلى قسمين: قسم عاد بحراً، والآخر، وهو فيه، عبر الصحاري خلال أقاليم بلوخستان وجنوب أفغانستان وجنوب إيران باتجاه بابل التي أعادها عاصمة للعهد الجديد.

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص528.
(2) ديورانت، المرجع السابق، ص528.
(3) مكاوي، المرجع السابق، ص227.

وما أن وصل إلى بابل واستقر فيها لفترة وجيزة حتى ظهرت عليه أعراض حمّى المستنقعات، وكان قد شرب الكثير من الخمر، ومات بسببها في 13 حزيران سنة 323ق.م.

من هذا العرض الموجز الذي نقلناه عن المؤرخين الغربيين أنفسهم لمجريات حروب الاسكندر في آسيا يتضح لكل باحث موضوعي، بل ولكل ذي عقل سليم عامل غير معطّل، أن تلك الإنجازات الباهرة في آسيا لم تكن لتتمّ على يد حفنة من الجنود المكدونيين المتخلفين حتى في عدّتهم وفي أسلوب القتال عن السوريين الذين كانوا قد توصلوا منذ الزمن الآشوري إلى استخدام الغاز المنوّم ضد الأعداء[1]، وكانت لديهم تقنية في الحرب متقدمة على كل الجيوش الأخرى ذلك الزمن، حتى «أن قوة ما على الأرض لم تكن تجرؤ على مناوأتهم»[2]، ولم تكن لتتحقق بفضل بطولة الاسكندر الفردية والمتهورة في أكثر الأحيان، ولم تكن نتيجة لبسالة الإغريق اللاجئين في بلاد المورة الذين أوكل الاسكندر مهمة تثبيتهم في مواطنهم إلى أنتيباتر السوري... إن هذا كله لم يتحقق إلا نتيجة لانخراط الاسكندر في المشروع السوري الكبير المعزز بأعمال الفيالق السورية ضمن الجيش الفارسي نفسه، وبجهود السوريين المتحدين وبفضل تمويلهم أيضاً. وإن الأسطول السوري وحده هو الذي هزم الأسطول الفينيقي، ولم يكن ثمة أسطول آخر لا عند الفرس ولا عند الأثينيين.

إلى هذه الحقيقة الساطعة تنبّه بعض المؤرخين الموضوعيين في الغرب وفي طليعتهم بيير روسّي الذي كثيراً ما لمت حسّه وعقله الطريقة التي يكتب بها التاريخ في الغرب.

يقول الباحث الفرنسي بيير روسّي:

«لقد كان المسرح ملائماً للحصول على الاسكندر الذي كان دوره، ولنفكر في ذلك جيداً، دمج الإغريق تأسيساً في العالم الآرامي... وتبقى ساذجة وغريبة صورة «الفتح» التي حدثونا عنها، وهو فتح ابن فيليب الذي يتركنا مبهوتين. فلقد قالوا لنا إن الجنرال الاسكندر »قد سحق بواسطة حفنة من الرجال (فقط 35000 رجل) حشود داريوس الثالث»، وأن «معركة أربيل قد كانت معركة أوروبا ضد آسيا»، وأن «الإمبراطورية الفارسية قد غلبت في عدة سنوات، وأزيلت، واحتلت«. لقد احتلها خمسة وثلاثون ألف رجل فقط. سذاجة؟ سوء نية؟ مجموعة أخبار ملفقة؟ كسل في مراجعة الفكرة المتلقاة؟ وكيف لا نخجل من هذه التهاويل وهذه التصريحات الخطابية المعلنة من أعالي المنابر؟

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص274.
(2) بريستد، المرجع السابق، ص166.

«إن أسطورة الاسكندر قد سحرتنا إلى حد أنها أفقدتنا عقولنا... وإن ما ندعيه حتى الآن من أن غزوة الاسكندر ضد آسيا قد كانت حرباً أوروبية ضد آسيا لم يكن إلا تمثيلية مضحكة. فلقد أخذ الاسكندر في الحقيقة جانب الحزب الشرعي البابلي... وإن انتصاره بعيداً عن فائدة ما نسميه اليونان قد أنهى الأمر فعلاً على هذه الصورة، في إعادة اليونان إلى السيطرة الآرامية. وإن هذا حقيقي إلى درجة أن الاسكندر إذا أخذ في أيامنا هذه كبطل من العالم العربي فسيعتبر مشبوهاً بالنسبة لما أسسناه ودعوناه بالتقاليد الهيلينية. ذلك أن الاسكندر لم يكن يمثل «الهيلينية» في الحرب التي قادها منتصراً ضد داريوس، وإنما الشرعية البابلية... وإذا ما استثنينا صور وغزة اللتين احتلتا بعد معارك حصار طويلة فإن الأمر لم يكن في أي مكان آخر سوى نزهات ومواكب تتلقى زهراً، واستقبالات، وفي مصر حيّا الفرح الشعبي الحاكم الجديد»...

«ولم يتأثر التنظيم القومي الإمبراطوري الموضوع منذ قرون كثيرة للأسرة الرافدية ـ النيلية بسقوط داريوس. فلم يكن الأمر بعد كل ما جرى سوى غياب رجل لا يمثل إلا نفسه. واستمرت الإمبراطورية. وعاد الكاتب إلى قلمه، والفلاح إلى معزقته، والصائغ إلى خيطه الذهبي، ولم يتغير شيء، ولم يتحرك شيء من مكانه في الإمبراطورية الواسعة. ولم يكن مرور الاسكندر، البطل الذي باركته الآلهة، إلا تجعيدة على سطح آلاف من السنين المتراكمة، محتفظة بالإيمان، وبالمعرفة، وبمذهب الشك، كما لو أن العالم العربي قد احتوى الاسكندر والمجتمع الهيليني الذي وجد فيه تكملته. ولنلاحظ جيداً أن معركة المكدوني الأسيوية لم تتطلب إلا قليلاً من التحركات الحربية، وكانت الخسائر فيها ضئيلة جداً... لقد كانت بمثابة جولة انتخابية كانت نتائجها مضمونة سلفاً. لقد كان سلوك الاسكندر في جميع تفاصيله سلوك ملك آرامي، وتابع خلفاؤه المثال نفسه... ولقد أحب أن يزور جميع مقاطعات الولايات المتحدة الآرامية، وأن يؤكد في جميع الأماكن وجود الملك الحقيقي. وكان عليه أن يعلل رحلاته التي قام بها إلى باكتريان وإلى كابول والبنجاب، وحتى الحدود الرسمية المعترف بها في البروتوكولات الهندية ـ البابلية. ولم يتجاوز في مكان ما حدود الإمبراطورية.

وإن التناقض يكمن في أن الاسكندر، على الرغم من شهرته المتملقة التي يمجدها التاريخ، لم يكن أبداً أحد الفاتحين. إن مهنته لم يجمعها شيء مشترك مع مهنة أتيلا أو نابليون. لقد اكتفى بزيارة مملكته لا اجتياز ممالك الآخرين... لقد خيل إلينا أنه اخترع الطريق الجديدة التي تربط مصب نهر الهندوس بمصب نهري دجلة والفرات... لقد لزم الشارحين المحدثين كثير من الأفكار المسبقة لكي يشرحوا حركة الاسكندر (كما أرادوها هم) سيطرة هيلينية. فقد كانت فكرتها نفسها بعيدة عن التصور. فقد بقيت الأرامية لغة الإدارة مدونة حيناً بالمسمارية مباشرةً، أو بالألفباء الفينيقية أو المصرية، وحيناً آخر بالإغريقية المنسوخة عن الأرامية»[1].

و«إن الإسلام لم يكن عليه أن يخوض صراعاً عقائدياً كبيراً ولم يكن بحاجة إلى احتلال الشرق والمتوسط عسكرياً، حيث كانوا في وطنهم منذ آماد قديمة. وهم، بالمقابل، قد غزوا ثقافياً الغرب الأوروبي مدخلين إليه دياناتهم، وفلسفاتهم، وذوقهم الجمالي. وإنها لمحاولة واسعة إرجاع الأمر إلى «الهيلينية»... فإلى «الهيلينية» كان يعزى خلال مدة طويلة من الزمان تشابه الناس الثقافي هذا دون أن تؤخذ بعين الاعتبار المعجزة التي يفترضها هذا الادعاء، ودون الانتباه إلى أن الإغريق لم يكونوا أبداً سوى شرفة، وملحق، لبناء العرب في الشرق، ذلك الأمر الذي راح اليونانيون أنفسهم يعترفون به بصورة كاملة. لكننا، وبصورة اعتباطية، قد كنا يونانيين أكثر من اليونان»[2].

لقد دأب المؤرخون في الغرب على تدبيج النصوص الاحتفالية بانتصارات الاسكندر المعجزاتية بعد أن أصرّوا على جعلها انتصارات للجنس الأوروبي على الآسيوي، وفجأة تتحول حروب الاسكندر ليس إلى سيطرة عسكرية مكدونية مرّة، ويونانية مرّة أخرى، وهيلانية مرة ثالثة فقط، وإنما قامت خلال تلك السنوات القليلة من الحرب «بتمدين» الشرق، «فهاجر اليونان بمئات الألاف إلى آسيا، ومصر، وأفيروس، ومكدونيا، وبذلك لم تزدهر إيونيا مرة أخرى وحسب، بل إن الدم الهيليني، واللغة اليونانية، والثقافة اليونانية قد شقّت طريقها إلى داخل آسيا الصغرى، وفينيقيا، وفلسطين، واخترقت سوريا، وبابل، وتخطّت نهري الفرات ودجلة، بل وصلت إلى بكتريا والهند نفسهما»[3].

(1) روسي، المرجع السابق، ص178ـ185.

(2) المرجع نفسه، ص36.

(3) ديورانت، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص7ـ8.

هل رأيتم أو سمعتم تاريخاً يصنع ويكتب بهذه الطريقة؟ قوات الاسكندر التي تعدّ ثلاثين ألفاً فقط، لم تكن مجموعة من الجنود تمشي على الأرض السورية بل الأسيوية الواسعة التي لا تكاد تلحظ فيها لاتساعها، وإنما كانت سحابة كبيرة كثيفة تغطي آسيا كلها، وتمطر الأرض تحتها لغة وثقافة وحضارة، ما أن تبلغ الأرض حتى تمحو الماضي كله وتستقر هي وحدها بحراً غامراً كل ما فيه يوناني أو هيليني أصيل، ولا شيء آخر! أية شعوذة هذه التي يسمونها في الغرب تاريخاً وعلماً، وينقلها لنا أساتذة التاريخ العرب نقل الببغاوات دونما بصر أو بصيرة! وكما دعوا عصر إقامة المهاجرين السوريين في أتيكا بـ «العصر الكلاسيكي» هروباً من حقيقته التاريخية، فقد دعوا العصر الذي عاد فيه المهاجرون إلى الوطن بـ «العصر الهيليني» أو «الهيلينستي»(!)، فقفزوا فوق كل الحقائق التاريخية التي عرضنا لها مفصلاً والتي منها:

1- إن السوريين الذين نزحوا من الوطن فراراً من عسف الجيش الفارسي لم يكونوا كلهم من عشيرة يونا بن حيلان بن يافث بن نوح. وحين لجوئهم إلى أتيكا واختلاطهم بمن سبقهم من الإغريق (أي الفارين) لم يجعلوا مجموع السكان هناك من فرع يونا هذا أي يونان. فإغريق أرقوس وموقيني كانوا من سلالة أرقو بن فالج الذي ينتهي نسبه إلى سام وليس إلى يافث بن نوح. وإغريق طيبة، أي عشيرة قدموس بن أجينور الصوري وأحفاده ينتهي بهم النسب إلى كنعان بن حام بن نوح، فهم حاميون وليسوا يافثيين أو ساميين، ولو كانوا جميعاً من السوريين أو العرب. فكيف صار الجميع أبناء فرع واحد وعشيرة واحدة هي عشيرة يونا بن حيلان بن يافث بن نوح!

2- وكنا قد رأينا أن نسب الاسكندر ينتهي إلى أرقو بن فالج، أي إنه أرقوسي، وبالتالي سامي، فكيف صار فجأة، وبقدرة قادر، يونانياً!

3- وكما تسقط تسمية اليونان تسقط تسمية الهيلينيين عن المجموع لأن يونا هو ابن حيلان (هيلان، أو هيلا، أو هيلاس).

4- يصرّح ول ديورانت في القول الذي أوردناه للتوّ أن «مئات الآلاف هاجروا من أغريقيا إلى آسيا» مع حملة الاسكندر. ومثل هذا التصريح ليس إلا مبالغة في الصورة تمهيداً للمقولة الأكبر التي هي «هَلْينة آسيا». فنحن كنا قد رأينا أن بلاد الإغريق لم تستطع أن تنجد ثورة المتّحدين في الشمال السوري بأكثر من ألفي رجل، وأن الاسكندر نفسه لم يتمكن من جمع أكثر من ثلاثين ألف رجل في حملته، فمن أين نبعت وتدفقت تلك المئات الآلاف فجأة إذن؟ ثم لماذا يهجرون وطنهم إلى آسيا إن كانت بلاد المورة فعلاً هي موطنهم الأصل وليست سوريا؟ أوليست تلك الهجرة كما أوضحنا، وبكل بساطة، هي عودة جموع النازحين إلى الوطن الأم بعد اندحار الجيش الفارسي؟ ولنفترض أن الرقم الذي يورده ديورانت صحيح، وأن أولئك المهاجرين إلى آسيا ليسوا سوريين ولا يمتّون إلى آسيا بصلة، فهل في مقدورهم أن يفرضوا لغتهم وثقافتهم وحضارتهم في بضع سنين على آسيا، بل على سوريا التي كانت تعدّ ثلاثين مليوناً من السكان المتفوقين بثقافتهم وحضارتهم على أي شعب آخر؟

وهكذا تسقط كل تلك المصطلحات المزورة الشائهة على محك كل العلوم. فليس هناك احتلال يوناني أو هيليني لسوريا، وليس هناك عصر هيليني أو هيلينستي في تاريخ سوريا. إنه عودة النازحين السوريين مع التحرير الذي قام به السوريون أنفسهم في الوطن أو المهجر.

* * *

إن من يبحث في تاريخ سوريا القديم والوسيط والحديث عليه أن يضع نصب عينيه دائماً مقولة المؤرخ هنري فرانكفورت التي وصف بها واقع الدولة القديمة منذ عهد سرجون الأكادي مؤسسها ومن خلفه من بعده من الملوك إذ يقول: «إن البلاد كانت في كل الأوقات معرضة لأخطار جسيمة. لقد كانت بلاداً متحضرة ومزدهرة، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية. لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانيات النهب الهيّن. كانت المدن تستطيع أن ترد غائلة الغزوات، أما الهجمات الكبيرة التي كانت تتكرر كل بضعة قرون فقد كانت تحتاج إلى حكومة مركزية قوية تردّها. كذلك كان تأمين سلامة الطرق التجارية أيضاً فوق إمكانية المدن المنفردة... وهكذا تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد، حتى أنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الأشوري السنوي جبال أرمينيا ثم اتجاهه نحو الغرب محاولة منظمة مركزة لصد الجبليين، لأن إخضاعهم بصورة دائمة، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة، كان مستحيلاً. ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية. لقد كان لا بد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك... لا سيما وقد كان الشعور بالانسجام القومي موجوداً»[1].

هذه الحقيقة التي اكتشفها هذا المؤرخ والتي نعتمد التذكير بها من فترة لأخرى، تلخص تاريخ سوريا في معظمه كصراع بين الداخل الحضاري والخارج الهمجي، غطى الآلاف الأربعة من السنين قبل الميلاد، والصراع مع الهمجية البيزنطية بعد الميلاد، ثم انسحب ليغطي كل العصور الوسطى في صراع المنطقة ضد همج أوروبا الذين مثلتهم حروب الفرنجة، وضد همج آسيا من تتار ومغول وأتراك، وصولاً إلى الصراع ضد همجية الصهيونية والاستعمار الأوروبي والأمريكي في العصر الحديث.

فإذا كانت الهمجية في العصور القديمة تتمظهر في جائحات من الشعوب والقبائل آكلة لحوم البشر، ما أن تمرّ على منطقة حتى تتركها من خلفها خراباً يباباً كما يمرّ الإعصار أو التنيّن، فأطلق السوريون عليهم لقب «أبناء التنين» فإن همجية العصور الحديثة امتلكت كل وسائل القوة المتمثلة في منجزات العلوم التطبيقية، لكن مضمونها بقي هو المضمون الهمجي ذاته، الذي لا يتورع عن إبادة أي شعب في سبيل نهب خيراته وسلب ثرواته والسيطرة على مقدراته إذا ما أحسّت بضعفه.

(1) هنري فرانكفورت، المرجع السابق، ص93 – 94.

فإذا كانت الهمجية في العصور القديمة تتمظهر في جائحات من الشعوب والقبائل آكلة لحوم البشر، ما أن تمرّ على منطقة حتى تتركها من خلفها خراباً يباباً كما يمرّ الإعصار أو التنيّن، فأطلق السوريون عليهم لقب «أبناء التنين» فإن همجية العصور الحديثة امتلكت كل وسائل القوة المتمثلة في منجزات العلوم التطبيقية، لكن مضمونها بقي هو المضمون الهمجي ذاته، الذي لا يتورع عن إبادة أي شعب في سبيل نهب خيراته وسلب ثرواته والسيطرة على مقدراته إذا ما أحسّت بضعفه.

ولما كانت كل الغزوات الهمجية للمنطقة قد تدفقت أساساً من الشمال بجانبيه الشرقي والغربي فقد ظلت سوريا التاريخية ساحة التصدي الدائم المدافع عن حياض الوطن العربي كله. فلن تتمكن جحافل الغزو من الوصول إلى شبه جزيرة العرب أو إلى وادي النيل إلا عبر الجسد السوري. إن هذا الواقع هو الذي خلق لدى السوريين ذلك الحس الستراتيجي المرهف، والمتمثل دائماً بتمسكهم بالدولة القومية المركزية الكبرى عبر كل العصور، وفي الوقت نفسه جعل بقية أجزاء الوطن العربي مشدودة إلى مصالحها الضيقة الخاصة على حساب المشروع المركزي الكبير الذي وعى الخصوم خطورته، فبادروا إلى ممانعته وإسقاط كل إرهاصاته عبر الأزمان الحديثة كلها.

لكن الأسباب الحقيقية التي كانت وراء إخفاقات هذا المشروع كانت دائماً، وفي كل العصور، تكمن في تخلف أطراف الداخل، وعدم قدرتها على الارتقاء فوق سقوفها الضيقة، وبالتالي عدم تمتعها بالحس الستراتيجي الشمولي، مما يجعل بعضها أو كلها منخرطاً في عملية الصراع الظاهر حيناً والمستتر أحياناً، لكن في الخندق الآخر، خندق الخصوم.

ولو عدنا إلى صورة الواقع السوري بعد الاسكندر لرأيناها بارزةً على النحو التالي:

إن سوريا المحررة من الاحتلال الفارسي محاطةً بالهمج من جوانبها الثلاثة الشمال والشمال الشرقي والشمال الغربي، وقد كنا قد نقلنا الصورة الهمجية كما رسمها هيرودوت. وتلك القوى ما تنفك متربصة، تراقب لحظة ضعف الدولة أو قيادتها المركزية لتنقضّ عليها من كل صوب.

أما مكدونيا، تلك المقاطعة الصغيرة في سقف بحر إيجه، فقد كان سكانها الأصليون جزءاً من همج أوروبا. لكن السوريين كانوا قد شكلوا فيها قوة صغيرة من المرتزقة لحماية مناجم الذهب والحجارة الكريمة في بحيرتها، ولصد قبائل الهمج بعيداً عن خط التجارة الملاحي في الدانوب الأسفل ومداخل البحر الأسود. وكان فيليب، ثم ابنه الاسكندر، مكلفاً بهذه المهمة ومعه مجموعة من القادة والنبلاء السوريين. وقد رأينا كيف أن الاسكندر خلف وراءه على عرش مكدونيا أنتيباتر السوري الذي كان ضبط أمور الإغريق في بلاد المورة جزءاً من مهمته أيضاً.

ولم يمت الاسكندر حتى كانت كل أجزاء الإمبراطورية البابلية الممتدة من وادي السند شرقاً إلى المورة غرباً، ومن شواطئ البحر الأسود شمالاً إلى الإسكندرية جنوباً قد عادت إلى سابق عهدها تنتظر قيادة مركزية قوية قادرة على ضبط الواقع الجديد.

لقد كان إلى جانب الاسكندر كوكبة لامعة من القادة السوريين الذين أمضوا وقتاً كبيراً إلى جانبه في مكدونيا وفي قورنتا يضعون الخطط ويمسكون بالخيوط السرية لحركات التمرد من قبل السوريين ضمن الجيش الفارسي، كما أنهم رافقوه في حملة التحرير الكبرى وصولاً إلى الهند، وإلى أن قرّ قرارهم جميعاً في بابل العاصمة. ونذكر منهم أولئك الذين أبرزتهم الأحداث على الساحة عقب موت الاسكندر في بابل وهم: نيكاطريون (الذي عرف فيما بعد بسلوقس)، وفتولمايس (صار يلفظ بطليموس)، وفيوكستاس، وفيتون، وأنتيجونوس، ويومانوس، ولقاما حوس، وديميتريوس...

«العصر الهيليني» أو «الهيلينستي» تسمية تزويرية لا أساسَ لها:

حتى تتضح صورة مجمل الأوضاع في آسيا الحضارية، التي هي نفسها سوريا عند هيرودوت، بعد موت الاسكندر، نجد من الضروري الإشارة إلى الحقائق المهمة التالية:

1- إن اسكندر بن فيليب لم يكن قائداً استراتيجياً، بل كان إحدى الأدوات التنفيذية لاستراتيجية وضعها خفية نخبة من القادة السوريين الذين كانوا قد سيقوا قسراً للقتال في جيش الملك الفارسي.

2- إن مكدونيا لم تكن أكثر من مستثمرة زهيدة فيما يخص المال والسكان والثقافة والرجال. فذهبها وأحجارها الكريمة كانت تذهب إلى المستثمرين السوريين، ثم إلى الملك الفارسي. أما أسرة برديكاس المنحدرة من سلالة أرقو بن فالج العربية والتي انحدر منها اسكندر بن فيليب، فلم تكن سوى أسرة توارثت حماية تلك المستثمرة لصالح الملك السوري المركزي في بابل أو آشور، مثلها مثل كل المدن الأخرى التي نشرها السوريون في تلك البقاع النائية، ولصد غارات برابرة أوروبا آنذاك بعيداً عن مواضع الثروات وخطوط التجارة.

3- لهذا فإن جميع القادة الذين أحاطوا بالاسكندر كانوا من السوريين، كما أن الذين أشرفوا على تربيته كانوا من أصل سوري أيضاً.

4- إن الاسكندر لم يكن يتزعم في مكدونيا غير فرقة صغيرة من الفرسان النبلاء من أسرة برديكاس الأرقوسية الفالجية وبعض الجند من المرتزقة. أما القوات التي دحرت جيش داريوس الثالث فهي، في معظمها، من السوريين الذين تآمروا في السر في جيش الفرس وانشقوا عنه، كما أن الأسطول السوري الذي وحد نفسه في أثينا أولاً، ثم في جزيرة ديلوس كان هو وحده الذي هزم الأسطول الفينيقي المتحالف مع داريوس.

«فمنذ أن نزل الاسكندر على شاطئ طروادة في ربيع عام „334. كان عليه أن يلقى في الحال وجهاً لوجه لا الفرق الفارسية بل الفرق الإغريقية الإيونية (السورية) التي يقودها ممنون الرودوسي، الاستراتيجي الذي لا نظير له، والذي هو قبطان وقائد في آن معاً. ولم يكن اللقاء على نهر فرناق إلا ظلّ معركة، ذلك أنهم (السوريين) نصحوا ممنون بأن يخلي الأرض أمام القوات المكدونية التي عززتها فرق فارسية (سورية في الجيش الفارسي) ثائرة... ولقد رحبت به (الاسكندر) الفرق المشكلة، والكهان، والنبلاء، والشعب، ترحيباً حاراً. وإذا ما استثنينا من ذلك صور وغزة... فلم يكن الأمر في أي مكان آخر سوى نزهات ومواكب تتلقى زهراً، واستقبالات... واستسلمت بابل وسوسا بسرعة. وأخذ الاسكندر من ثمّ مكان الملك الكبير. ولم يحتج من أجل ذلك كله إلا لسنوات ثلاث. وإنها لمعجزة في نظرنا، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة للشعوب الأرامية التي حيّت الاسكندر ملكاً له ثقافتها نفسها، وديانتها نفسها، ومن أرومتها ذاتها، وهو يعتبر، زيادة على ذلك، قائداً طبيعياً في نظر نبلائهم وكهانهم»[1].

---

(1) روسي، المرجع السابق، ص181 - 182.

5 – إن نيكاطريوس السوري، والذي يعني لقبه في السريانية المحارب الضاري (نيكا = المحارب، الضاري، طريو= الهصور، الغضوب) كان أقرب المقربين إلى الاسكندر. وكان يشغل أكبر المناصب في جيش الاسكندر لما كان يتمتع به من حس استراتيجي متفوق، وبراعة في فن إدارة المعارك، وذكاء وقاد، وشجاعة نادرة، ودهاء عززه ميراث آلاف السنين من صراع السوريين ضد جائحات الشعوب الهمجية التي كانت تحيط بسوريا. لذلك فقد كان نيكاطريو «واحداً من أخلص رفاق الاسكندر الذين اعتمد عليهم في حملته ضد الفرس، وعهد إليه بعدة مهام متنوعة كان بعضها حاسماً... وقد اعتمد عليه في فتح عدد من الأقاليم وأسند إليه قيادة فرق متعددة في بعض المعارك»[1]. «ويبدو أن ثقة الاسكندر في نيكاطريو (الذي سوف يلقب بـ «سلوقس» فيما بعد) كان يقابلها قدر كبير من محبة سلوقس ووفائه لقائده. ويروي المؤرخ أريانوس أن سلوقس قد أظهر مع عدد من القادة المقربين حزناً كبيراً عندما شارف الاسكندر على الموت. واستشاروا الإله فيما إذا كان من الأفضل إدخال الاسكندر إلى المعبد (معبد مردوك وعشتار في بابل)، فأشار عليهم ـ كما روى أريانوس ـ بأن يبقى في مكانه حتى يلفظ آخر أنفاسه. وبعد موت الاسكندر مباشرة أسندت إلى سلوقس قيادة فرقة الفرسان الرفقاء... ولا شك في أن قيادة مثل هذه الفرقة المؤلفة من نبلاء مكدونيا كانت شرفاً عظيماً، وتكسب شاغلها مكانة سامية لا تفوقها إلا مكانة القائد العام للجيش... ثم ما لبث أن تنازل عن هذا المنصب في سنة 321 لصالح كاساندروس بن أنتيباتر، ليتولى منصبه الجديد والياً على بابل»[2].

6– إن تولي نيكاطريو (سلوقس) على بابل كان يعني في حد ذاته أمرين اثنين: الأول هو إعادة الدولة السورية إلى سابق عهدها بكل امتدادها الإداري والحضاري وعاصمتها بابل، والثاني هو الاعتراف العملي بتفوق نيكاطريو على بقية رفاقه من القادة. إن من يتولّى بابل سوف يكون على كاهله الحفاظ على وحدة أراضي الإمبراطورية، والتصدي الدائم للأخطار الكبيرة المحدقة بالعاصمة من الشمال والشمال الشرقي تحديداً التي كانت تتمثل

(1) مفيد رائق العابد، سوريا في عصر السلوقيين، دار شمأل، دمشق، 1993، ص46.

(2) المرجع نفسه.

في غزوات الشعوب الهمجية المستمرة منذ زمن سرجون الأكادي. إن بابل كانت، بحكم موقعها، في مهب الأعاصير منذ أن أسسها حمورابي. وكان على من يتولاها أن يتمتع بمزايا تفوق كل ما لدى غيره من الولاة أو الملوك. وقد توفرت تلك الشروط في نيكاطريو.

7ـ ولقد توزع القادة الآخرون على حكم الولايات الأخرى على الشكل التالي بموجب ما تمخض عنه مؤتمر بابل ومؤتمر تريباراديس (أي أرض الفردوس) من قرارات: فيوكستا على ولاية فارس، وفيتون على ولاية ميديا، ويومينو على ما صار يدعى فيما بعد بـ «آسيا الصغرى»، وأنتيجونو قائداً عاماً للجيش في آسيا (سوريا) دون ولاية محدّدة، فتولمايو (بطليموس) على الإسكندرية والمرافئ التجارية جنوب غرب سوريا. ومن منصبه هذا الذي ألقى على عاتقه حماية خطوط التجارة البحرية المنطلقة من السواحل السورية غرباً إلى الجزر وجنوباً إلى السواحل الإفريقية جاء لقبه الذي صار يعرف به منذ ذلك الحين «فتولمايو» Ftolmaeos الذي يعني بالسريانية كثير المياه (فتو = كثير، غزير، لمايو = المياه)، ولما كانت الفاء تلفظ ذ فقد صار «بتولمايوس» ثم حوّر إلى بطليموس بالعربية فيما بعد. ولمّا كان نيكاطريوس قد قرر فيما بعد أن ينقل مركز عاصمته من بابل إلى سلوقيا على الدجلة بين الجبال للتصدي لغزوات الجبليين هناك وردّ غائلة غزوات برابرة آسيا فقد التصق به لقب «سلوقس» ويعني بالسريانية: الصاعد، المتسلّق، المرتقي...

أما في مكدونيا نفسها فبعد وفاة أنتيباتر الوصي عليها فقد آلت الوصاية عليها من بعده، وبعد مؤامرات كثيرة، إلى ابنه اسكندر الذي استطاع أن يتخلص من أولمبيا أم الاسكندر ومن فيليب أخي الاسكندر، ومن اسكندر الرابع وأمه الفارسية روكسانا.

8- ولما كانت كل تلك المناصب والمواقع من الثراء والأهمية بحيث أذكت في نفوس أصحابها شهوة التملك والسيطرة والنزعة إلى التوسع كل على حساب الآخر، وهذه خصلة متأصلة عند السوريين عبر التاريخ، فقد بدأت مرحلة جديدة دعيت بعصر الـ «ديادوحي» (Diadohi)[1]. والكلمة سريانية وتعني في القاموس السرياني: التدافع، إذ أن الدال أداة التعريف السريانية، و«أدوحي» من الفعل السرياني «دحا» و«أدحي» ويعني: دفع، دحا، طرد، أبعد، أقصى، أزاح...

(1) العابد، المرجع السابق، ص67.

«سورية» لا «هيلينستية»:

وكما تعمّد المؤرخون في الغرب منذ عصر النهضة إلى اليوم تغييب الهوية السورية عن النازحين السوريين إلى شبه جزيرة المورة بسبب الاحتلال الفارسي وأطلقوا على الحضارة «المعجزة» التي ظهرت فجأة هناك ودامت مائتي عام هي مدة الاحتلال الفارسي اسم «العصر الكلاسيكي»، فإنهم فعلوا الشيء نفسه وللغاية نفسها بعد عودة أولئك النازحين إلى مواطنهم الأصلية في سوريا بعد تحريرها من الاحتلال الفارسي، ودعوا تلك الفترة بـ «العصر الهيلنستي» نسبة إلى «هيلان» أو «حيلان» ابن يافث بن نوح وجد يونا (الذي يعني بالسريانية حمام) أبي اليونان بعد أن حوّلوه قسراً إلى جنس «أوروبي».

إن كتابة التاريخ على هذا المنوال تزوير فادح وفاضح. فقد اقتطعت عشيرة يونان من جسدها العربي السوري، ومزّقت هويتها الأصلية، بل أُخرجت من جلدها الجنسي والثقافي التاريخي لتغطّى بجلد «أوروبي» زائف ومخترع، علماً أنهم يقرّون بأن شعوب أوروبا كلها لم تكن قد خرجت من طور الهمجية وأكل لحوم البشر بعد باستثناء المواقع التي عمّرها واستوطنها السوريون. وإلى هذا أشار الباحث الفرنسي الشهير بيير روسيّ المتخصص بحضارة الإغريق حين كتب بمرارة: «إن يافث من أبناء نوح الثلاثة هو الذي نسل اليونانيين والأناضوليين وأقاربنا الأوروبيين، فبأية غفلة لا تغتفر تقدمت مدرستنا العلمية في ميدان ليس فيه شيء من الثبوت والصحة؟ ذلك أنه لا يكفي الإنسان أن يتكلم، بل عليه أن يتكلم ما هو صحيح. ومن فرط تعلقنا بأن نكون خالقي كلمات أصبح بعضنا خالقي كلمات. وإنه لمن المؤكد أنه ليس جميع العلماء كانوا يرددون تلك الكلمات، بل كانت هنا وهناك أصوات معارضة... وأن هناك نقاداً وقفوا ضد هذه الادعاءات الشاذة لنظريات معترف بها، ولكنه من المتعارف عليه أيضاً أن الجامعة جسم يحمي أعضاءه المؤمنين به من جهة، ويقسو على معارضيه من جهة ثانية»[1].

وحتى يبقى القارئ في صورة الواقع لشعوب أوروبا، بل لأقرب شعوب أوروبا من مواقع الحضارة السورية، ونعني هنا «الجالت»* أو «الجاليين» الذين دعيت فرنسا آنذاك باسمهم «بلاد الغال» أو «غاليا، جاليا»، وفي زمن الملك السوري سلوقس بعد موت الاسكندر، فإننا سوف نورد جزءاً مما كتبه ول ديورانت بهذا الصدد.

---

(1) المرجع نفسه.

* «الجلت» تسمية سورية سريانية تعني النّهابين. وهي في القاموس السرياني من الفعل «جلي» ويعني: أجلى، هجّر، دك، نهب، سلب... إلخ.

يقول ديورانت:

«وبعد أربع سنين من ذلك الوقت (279ق.م.) انتهزت جموع من «الجلت» أو «الغاليين» بزعامة برينّوس Brennus فرصة ما حدث من الاضطراب بسبب النزاع القائم على السلطة في شرق البحر الأبيض المتوسط، فانقضت على بلاد اليونان مخترقةً طراقيا ومكدونيا... وعبرت فلول الغاليين الذين نجوا من القتل إلى آسيا الصغرى».

ويقول فيهم يوسنياس:

«إنهم ذبحوا جميع الذكور والعجائز، كما ذبحوا الأطفال على صدور أمهاتهم، وشربوا دماءهم، وأكلوا لحوم السمّان منهم. فلما رأت ذلك النساء الشريفات والعذارى المخدّرات انتحرن فراراً من العار... وتعرّض من بقين على قيد الحياة لأصناف من الامتهان لا حصر لها... فمنهم من ألقين بأنفسهن على شفار سيوف الغاليين يطلبن لأنفسهن الموت، ومنهن من قضين نحبهن من الجوع وعدم النوم. وكان هؤلاء البرابرة الغلاظ الأكباد يغتصبونهن واحدة في إثر واحدة، ويشبعون فيهن شهواتهم سواء كنّ أحياء أم أمواتاً»[1].

ذلك هو واقع الشعوب الأوروبية زمن سلوقس بعد الاسكندر.

فالحضارة التي أصرّوا على تسميتها باليونانية ليست أوروبية، وقد نزحت مع السوريين إبان الاحتلال الفارسي، وعادت معهم إبان التحرير إلى الوطن، فأقفرت منها بلاد الإغريق (أو المورة) فجأة كما امتلأت بها فجأة. «ولم يبقَ في المدن اليونانية من المواطنين الحقيقيين إلا بقية زهيدة تولاها اليأس ووهن العزيمة. وأمست تلك الرحاب الفسيحة أمام البنايات العمومية في المدن اليونانية، بعد أن كانت تغصّ بالخلق، مسرحاً للماشية. وهكذا مرّ على اليونان الزمان دون أن يتحدوا... حتى في بلادهم الأصلية (!) لم يعرفوا للاتحاد معنى»[2].

«فكانت هذه المهاجَرة سبباً لنقصان مهم في عدد سكان بلاد اليونان وزوال التفوق التجاري منها، والزعامة، وانتقالها إلى الإسكندرية، وأنطاكية، وأفسوس، وررودس المشهورة بإقدام تجارها. ولما نضبت ينابيع الثروة من مدائن اليونان لم يعد في طوقها القيام بنفقات الأساطيل والجنود المرتزقة، ثم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم أعجز من أن يقوموا بالذود عن أنفسهم»[3].

---

(1) ديورانت، المرجع السابق، الجزء ،8 ص 10 – 11 .

(2) بريستد، المرجع السابق، ص 74 .

(3) المرجع نفسه، ص442.

«وانتقلت مراكز القوة، بما فيها قوة الإبداع الأدبية والفنية، إلى أماكنها القديمة في آسيا ومصر، وهي المراكز التي أخذت منها بلاد اليونان في تواضع وخشوع آدابها وفنونها قبل ذلك الوقت بألف عام»[1].

إن في هذا القول إقراراً مواربا بالحقيقة: فالحضارة كلها من آسيا، وآسيا ـ كما سبق أن كشفنا ـ كانت تعني «سوريا» عند هيرودوت. وبعودة النازحين السوريين عادت معهم ثقافتهم وحضارتهم إلى الوطن الأم. فالناس هم السوريون أنفسهم، وثقافتهم هي نفسها، نزحت معهم لتعيش معهم في مغتربهم قرابة قرنين هما عمر الصراع مع الاحتلال الفارسي، وعادت معهم، ولغتهم هي نفسها: العربية بلهجتها السريانية ولو أنهم طوروا كتابة أحرفها في المغترب وزادوا عليها بعض العلامات للأحرف الصوتية. لكنها ـ في الأساس ـ هي الكتابة الأبجدية المستخدمة رسمياً منذ الألف الثالث قبل الميلاد في كل رقعة الدولة السورية، تشهد على ذلك الرسائل التي بعث بها رؤساء المحطات التجارية على خط القوافل التجاري الدولي في جنوب شبه جزيرة العرب إلى ملك وادي النيل أخناتون، والتي صارت تعرف برسائل تل العمارنة. إنها مدوّنة بالحرف نفسه الذي صار يدعى فينيقياً.

أما الاسكندر نفسه فلم يكن إلا أداة في مجموعة الصراع الكبيرة، ولم يعرفه أحد بـ «اسكندر الكبير» إلا في كتب التاريخ التي دوّنت حديثاً في الغرب، واقتلعته من جذوره العربية الثابتة، وجعلت منه قائداً «أوروبياً» فذاً فتح آسيا و«هلْيَنَها» ونقل إليها كل أسباب الحضارة خلال خمس سنوات من القتال! أية شعوذة هذه التي صارت اليوم تاريخاً وعلماً لدى أساتذة الجامعات في الغرب كله! الاسكندر، وخلال خمسة أعوام من حربه ضد الفرس نقل الحضارة «الهيلينية» بما في ذلك «اللغة اليونانية» إلى الشرق كله! لنقرأ: «إن فتوحات الاسكندر جعلت زمام السلطة في آسيا ومصر بأيدي حكام مكدونيين اسماً يونانيين مدنيّةً، يتكلمون باليونانية التي كان يتكلم بها أهل أتيكا. فوجد المشارقة أن اليونانية هي اللغة التي تدار بها مصالح الحكومة، وأن أعمالهم التجارية إنما هي مع عدد كبير من التجار اليونانيين وأن بين أيدهم كثيراً من الكتب اليونانية الجذابة النفيسة، فاقتضت الحال أن تكون اللغة اليونانية التي يستعملها أهالي أتيكا في قضاء شؤونهم المختلفة

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص21.

اللسان المعوّل عليه والمطلوب من كل مهذب امتلاك ناصيته... وصارت اليونانية اللغة الشائعة في المدن وفي عالم شاسع الأطراف يمتد من صقلية وجنوب إيطاليا شرقاً على جانبي البحر المتوسط إلى الشرق. أما في القرى الصغيرة فكانوا يتكلمون بلغة يونانية مكسّرة غير اللغة الصحيحة التي كان يتكلم بها سكان المدن ولا سيما الطبقة المهذبة»[1].

هكذا يكتب التاريخ في الغرب! وأولئك هم علماء الغرب ومؤرخوه: لقد كان كافياً أن يأتي بعض «اليونانيين» ببعض «الكتب النفيسة الجذابة« إلى سوريا، التي كان تعداد سكانها ـ كما سبق أن رأينا ـ ثلاثين مليون نسمة، حتى يتحولوا عن لغتهم الأصلية ويتكلمون ـ بقدرة قادر ـ وجميعهم دون استثناء، لغة الأُسر القادمة إليها من »أوروبا« بلغة راقية! وحتى لو افترضنا أن أولئك القادمين الجدد ـ على حد زعم أولئك المؤرخين ـ دخلوا بيتاً لأسرة واحدة في قرية بكتبهم تلك، هل كان سيتحول أفراد تلك الأسرة عن لغتهم الأم لإعجابهم بتلك الكتب! ثم من أخبر ديورانت وغيره أن السوريين العائدين إلى الوطن كانوا محمّلين بالكتب الجذابة، وأن تجارة سوريا كانت في أيديهم؟! ثم ألم تكن المدن السورية وحدها بين كل مدن الأرض هي التي تُعنى بشؤون الكتب والمكتبات؟ وهل كان في كل مدن الإغريق مكتبة واحدة رغم أن السكان الحضاريين فيها كانوا من النازحين السوريين؟

إن بريستد نفسه الذي ردّد القول السابق كغيره من المؤرخين كسبيل إلى الهروب من الإقرار بحقيقة اللغة السريانية التي كان يتكلمها سكان سوريا القديمة في سوريا وفي كل مواقع انتشار السوريين من حدود الهند إلى الأطلسي، ومن شواطئ البحر الأسود إلى أفريقيا وبحر العرب،... إنه لا يلبث أن يورد قولاً آخر ينقض الأول: «ومع شدة شيوع العلوم الطبيعية وشغف الناس بها الآن فقد كان الميل إلى دراسة اللغة وآدابها القديمة عظيماً. وكانت المكتبة الأولى التي أسستها حكومة يونانية وقامت بنفقاتها هي التي أوجدتها مدينة هرقليا على ساحل البحر الأسود في زمن طفولة الاسكندر (بعيد 350ق.م)، أمّا في الشرق القديم فكان أمر المكتبات الملكية شائعاً معروفاً قبل هذا العهد بزمن مديد»[2].

(1) بريستد، المرجع السابق، ص465ـ466.
(2) المرجع نفسه، ص467.

ونحن اعتدنا على أنهم يستعملون كلمة «الشرق» بدلاً من «سوريا»، إذ لم يكن ثمة مكتبات من »زمن مديد« لا في الشرق ولا في الغرب إلا في سوريا.

أما «فتوحات الاسكندر» التي «هلْينت» الشرق، فقول لا يقل سخافة عن سابقه، وقد فنّد كثير من الباحثين الموضوعيين في الغرب، ومنهم الفرنسي بيير روسي، هذا الزعم الهراء.

يقول روسّي:

«والحق أن الإغريق لم يكتموا أبداً تحدّرهم الآسيوي... إن البانثيون عندهم عربي... وكان هيرودوت يتعجب من تمييز أوروبا عن آسيا، لأنه لم يكن يرى، ولم يكن مواطنوه يرون معه فيهما إلا الثقافة الواحدة نفسها»[1].

وإلى هذه الحقيقة الناصعة انتبه الخليفة العربي الواسع الثقافة المأمون بعد أكثر من ألف سنة، حيث أدرك أن ما دعي بـ «التراث الإغريقي» أو «الهندي» لم يكن إلا تراثاً سورياً (سريانياً)، فأمر بترجمة ذلك التراث إلى العربية الفصحى، واختار مترجمين من السريان الذين حسب أحدهم أن يعرف الكتابة «اليونانية» حتى يقرأ نصوصها بلغته نفسها «السريانية». وما أن فرغ المأمون من إنجاز مشروعه ذاك حتى هتف بعبارته الشهيرة التي استعارها من القرآن الكريم لتلك المناسبة «هذه بضاعتنا ردّت إلينا».

فما الذي بقي من الـ «هَلْينة»؟ ربما يقولون: الأعمدة القورنثية؟

كنا قد أوضحنا كيف أن قدامى السوريين حين جالوا حول شبه جزيرة المورة لم يجدوا فيها موقعاً واحداً صالحاً لإنشاء مرفأ أو مدينة إلا في الخليج الضيق الذي يخترقها من الغرب إلى الشرق حتى يكان يقطعها. فبنوا هناك مدينة «قورنتا» التي تعني الجرّة كما تعني القرنة، واشتهرت عبر تاريخها الطويل بخزفها السوري الجميل، وبأبنيتها ذات الأعمدة الكثيرة على نمط كل المدن السورية، وقد حافظ سكانها على لغتهم السريانية طيلة العصور، وحينما توجه إليهم الرسول بولس برسائله بعد ألف عام يدعوهم إلى المسيح خاطبهم بلغتهم السريانية نفسها التي هي لغة السيد المسيح. إن فن البناء في شبه جزيرة المورة هو فن سوري متخلف كثيراً عن مثيله في الوطن الأم.

(1) روسّي، المرجع السابق، ص28.

وبهذا يعترف بريستد نفسه إذ كتب يقول:

«فالشرق الذي نفح فنّ البناء اليوناني بالأروقة المعمّدة نراه الآن ينفحه بشيئين آخرين هما القنطرة والباسيليكا، إلا أن اليونان لم يستعملوا القنطرة كثيراً في مبانيهم»[1].

فالأروقة المعمّدة هي فن شرقي إذن، وكلمة «شرقي» لم يكن لها ترجمة ـ كما عوّدونا ـ إلا إلى كلمة «سوري» التي تم التواطؤ حديثاً على تغييبها من الذاكرة. وبالتالي فإن قورنتا السورية وأعمدتها «القورنتية» هي سورية بالكامل. فلماذا الإصرار على إلحاق فن العمارة في سوريا كلها، بما فيها الأعمدة، بمدينة سورية شبه منسية في الغرب وليس العكس؟

أما الاسكندر نفسه الذي تحوّل إلى «فاتح» لم ينجب التاريخ البشري مثله، ثم إلى »إله«، فلم يكن ذلك إلا إفرازاً آخر للنزعة العنصرية والتزويرية التي سادت كتابة التاريخ في الغرب منذ عصر النهضة إلى اليوم. فكيف كان الاسكندر على حقيقته؟

شخصية الاسكندر في المصادر التاريخية:

ينقل لنا ول ديورانت عن المصادر القديمة وعن معاصري الاسكندر مجموعة من الأقوال والنصوص تلقي الضوء على حقيقة شخصية الاسكندر التاريخية بعيداً عمّا حاكته حولها الروح التعصبية الغربية الحديثة من هالات تفوّق كاذبة قربته من الآلهة. وها نحن نستعرض منها ما يكفي لرسم الصورة الحقيقية التاريخية لتلك الشخصية:

1- لقد كان الاسكندر ناقص التعليم، ناقص المعرفة، غير ملمّ بعلوم عصره، حتى أنه كان ضعيفاً في شؤون السياسة والحرب.

«لقد استغرقت شؤون الحرب والإدارة كل وقته وجهده. ومن أجل هذا بقي ناقص التعليم إلى آخر أيام حياته. نعم إنه كان متحدثاً لبقاً، لكنه كان يتورط في مئات الأغلاط إذا تطرق الحديث إلى شؤون السياسة والحرب... ويلوح أنه، رغم حروبه الكثيرة، لم يعرف من الجغرافيا ما كان في مقدور ذلك العلم في أيامه أن يمدّه به»[2].

---

(1) بريستد، المرجع السابق، ص451.

(2) ديورانت، المرجع السابق، ص519.

2- كان الاسكندر ضعيف العقل، شديد التعلق بالخرافات.

«وبقي إلى آخر أيام حياته عبداً للخرافات والأوهام، شديد الثقة بالعرافين والمنجمين الذين تزدحم بهم حاشيته. ولقد قضى الليلة السابقة لواقعة أربيلا* يقوم بمراسم سحرية مع الساحر أرستندر يقرّب القربان إلى إله الخوف. وكان هذا الرجل الذي يواجه الناس والوحوش بشجاعة ونشوة «يرتاع لأقل النذر الموهومة» ارتياعاً يحمله على تغيير خططه»[1].

3- لم يكن الاسكندر استراتيجياً، ولم يكن أهلاً لفهم أبعاد الصراع الدائر، وبالتالي لم يكن يتمتع بالحزم وبالجدية في اتخاذ القرارات. فقراره هش، سريع العطب، مزاجي، انفعالي، قابل للتقلب في أية لحظة. وأمثاله يغرّهم المديح ويطغى على تفكيرهم ويفسده. والدليل: «أنه لم يكن يستطيع السيطرة على طبعه. ولم يتعلم قط الاعتراف بما يرتكب من أخطاء أو بما فيه من نقص. وكان يغترّ بالثناء اغتراراً يطعن على حكمته ويفسدها. وقد عاش طول حياته في جو من الانفعال والجد الذي يكاد يذهب بعقله. وكان يحب الحرب حباً استحوذ على عقله... وكانت أخلاقه تحوم حول أمثال هذه المتناقضات. فقد كان في قرارة نفسه عاطفياً سريع الانفعال، تستبقه عبراته... لكنه كان فيه شيء من الشراسة المولوسية... وكان إدمانه الخمر إدماناً متزايداً ليهدئ به أعصابه، مما دفعه في سنيّه الأخيرة إلى كثير من أعمال القسوة العمياء التي أخذت تزداد على مرّ الأيام. وكانت تتلوها نوبات من الندم الصامت وتوبيخ الضمير العنيف»[2].

فمن أعماله الهمجية:

«لما دخل سجديانا مرّ بقرية يسكنها أبناء البرنشيدي الذين أسلموا لخشيارشاي قرب ميليثا كنوز هيكلهم. فتملكته فكرة الانتقام للإله الذي انتهب ماله. فأمر بأن يقتل جميع سكانها بما فيهم النساء والأطفال، فاقتصّ بهذا العمل من الآباء بعقاب الجيل الخامس من الأبناء»[3].

---

* أربيلا هي مدينة أربيل العراقية حالياً. وتسميتها سورية سريانية مكونة من أرب + إيل وتعني: زد يا رب، ربّي زد. وكان فيها معبد لعشتار يدعى عشتار أربيل.

(1) المرجع نفسه، ص519ـ521.

(2) المرجع نفسه، ص522.

(3) المرجع نفسه، ص529.

«وحينما قبض رجاله قرب بخارى على بيسوس Bessus قاتل دارا أقام الاسكندر نفسه مطالباً فجأة بدم الملك. فضرب بيسّوس بالسياط حتى كاد يقضي عليه، وجدع أنفه، وصملت أذناه، ثم أرسل إلى أكبتانا حيث قتل بأن رُبط ذراعاه في إحدى الأشجار وساقاه في شجرة أخرى، وكانت الشجرتان قد ضمّتا بالحبال. فلما قطعت حبالهما مزقت الشجرتان جسمه»[1].

4- وحتى في قيادته للحروب كانت تصرفاته تنمّ عن جندي متهور لا عن قائد عاقل متبصر، فكانت رغبته الشديدة في اقتحام الأخطار تعبّر عن منشأ غرائزي حيواني أكثر مما تعبّر عن العقل. «وقد أصبحت هذه الرغبة شهوة جامحة هي الأخرى. فكان صوت الحرب ومنظرها يسكرانه، فينسى في ذلك واجبات القائد ويندفع إلى معمعان القتال، وكثيراً ما كان جنوده يلحوّن عليه أن يرتد إلى المؤخرة خوفاً على حياته. على أنه لم يكن قائداً عظيماً، بل كان جندياً باسلاً»[2].

5- ونحن لا نشك في أن شاباً كهذا كان سهلاً على السوريين الدهاة أن يغدقوا عليه من المديح فيتعاظم غروره ويفقد عقله ليسهل التخلص منه. فقد استثمروا رواية أمه السورية «أولمبيا»، وغرسوا في ذهنه الصغير أنه فعلاً ابن لإله، وسرعان ما صدّق، وألّه نفسه.

«وبعد أن ألّه نفسه أصبح سريع الغضب، متغطرساً، وإن سرعة غضبه وغطرسته تزدادان على مرّ الأيام... وصار يجلس على عرش من الذهب، وارتدى ثياباً كهنوتية، وزيّن رأسه في بعض الأحيان بقرني آمون»[3].

لكن هذا الشاب الغرير استغرب أن تسيل من جرحه دماء كالبشر بعد أن صدّق بأنه إله. فهرع إلى بعض أصدقائه يلومهم قائلا: «ها أنتم هؤلاء ترون أن هذا دم لا غذيذة كالتي تسيل من جراح الآلهة المخلدين»[4].

---

(1) المرجع نفسه.
(2) المرجع نفسه، ص522.
(3) المرجع نفسه، ص534.
(4) المرجع نفسه.

وكان قد بلغ أمه أنه سجلّ قصتها التي اخترعتها له في السجلات الرسمية، «فضحكت ساخرة وسألت قائلة: ألم يأن للاسكندر أن يمتنع عن التشنيع عليّ عند هيرا؟»[1]. وكان أكبر دليل على جهره بألوهيته «أنه بعث في عام 324 إلى جميع المدن اليونانية ما عدا مكدونيا، يبلغها أنه يرغب في أن يعترف به من ذلك الوقت ابناً لزيوس ـ أمون (أي زيوس الخالد، الدائم، بالسريانية)»[2]. «وصار يطلب من كل من يريد مقابلته أن يسجد أمامه، ويعفرّ جبينه في التراب، ويقبّل قدميه»[3].

6- فإذا كانت تلك هي حال الاسكندر (الكبير!) فمن كان إذن يدبّر أمور القيادة وإدارة معارك التحرير؟ ما من شك في أن أولئك القادة السوريين المحيطين به والمنضمين إليه بعد تمرّدهم على الملك الفارسي:

«أما قوّاده الذين كانوا من أقدر الرجال فالراجح أنهم هم الذين كانت تقع عليهم أعباء التنظيم، والتدريب، والكرّ والفرّ، والفنون الحربية»[4]. وقد صاروا لا يتورعون عن التلويح له بهذه الحقيقة وبالجهر بها، فيحدثون فيه الصدمة تلو الأخرى وردود الفعل الهسترية التي من شأنها أن تبعده عن جنوده وعن القادة المقربين إليه.

«فقد حدث في مأدبة أقيمت في سمرقند أن شرب كليتوس، الذي أنقذ حياة الاسكندر في يوم غرانيقوس، حتى فقد وعيه. فقال للاسكندر: إن ما نال من النصر يرجع الفضل فيه إلى جنوده لا إليه، وإن أعمال حتى أبيه فيليب أعظم من أعماله. وكان الاسكندر هو الآخر ثملاً، فقام إليه ليضربه، لكن فتولمايو لاجوس (بطليموس، الذي أصبح فيما بعد والياً على الإسكندرية ومصر) أخرج كليتوس من مكان المأدبة. بيد أن كليتوس كان يريد أن يقول أكثر مما قال، فعاد ليواصل تجريحه، فرماه الاسكندر بحربة أردته قتيلاً. وندم الاسكندر بعدئذ على عمله هذا ندماً حمله على أن يعتزل الناس ثلاثة أيام كاملة امتنع فيها عن الطعام، وانتابته نوبات هستيرية حاول فيها أن ينتحر»[5].

---

(1) المرجع نفسه.

(2) بريستد، المرجع السابق، ص431.

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه، ص522.

(5) المرجع نفسه، ص535ـ536.

«وكان كلستينوس هذا يرافق الحملة بوصفه مؤرخاً رسمياً لها. وكان قد أغضب الملك لأنه أبى أن يسجد له. وأخذ ينتقد سلوكه... ويتباهى بأن الأجيال القادمة لن تعرف الاسكندر إلا عن طريق كلسيتينوس المؤرخ فأمر به الاسكندر فسجن حتى مات بعد سبعة أشهر من ذلك الوقت»[1].

«وكان كلسيتينوس ابن أخت أرسطو مهذب الاسكندر، فانقلبت الصداقة بين المعلم وتلميذه الملك إلى عداوة مرّة»[2].

7- إن هذا كله أحدث فجوة لا تردم بين الاسكندر من جهة، والقادة والجند من جهة أخرى.

«وظل سخط الجيش يزداد حتى أوشك أن يكون في آخر الأمر تمرداً علنياً. ولما أعلن الملك في يوم من الأيام أنه يريد أن يعيد إلى مكدونيا أكبر الجنود سناً (ممن قدموا معه من هناك) بعد أن يمنح كلاً منهم جائزة سنيّة نظير خدمته، هاله أن يسمع الجند يتهامسون بأنهم يحبون أن يفصلهم جميعاً من سلك الجيش، لأنه، وهو إله، لا حاجة له بالناس ليحققوا أغراضه. فلم يكن منه إلا أن أمر بقتل زعماء الفتنة»[3].

«ولما عاد إلى بابل زاد انغماسه في الشراب شيئاً فشيئاً. وبينما كان يشرب مع ضباطه ذات ليلة إذ عرض عليهم أن يتباروا في شرب الخمر. فتجرع برامكس نحو ثلاثة جالونات وفاز بالجائزة وهي وزنه من الذهب، ومات بعد ثلاثة أيام. وبعد أيام قلائل أقيمت مأدبة أخرى شرب فيها الاسكندر خابية تحتوي نحو جالون ونصف من الخمر، وعاد في الليلة التالية إلى الشراب. ثم اشتد البرد فجأة فأصيب بالحمى وأوى إلى الفراش. ولم تفارقه الحمى عشرة أيام كاملة... ثم مات في اليوم الحادي عشر في السنة الثالثة والثلاثين من عمره عام 323ق.م»[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص536.

(2) المرجع نفسه.

(3) بريستد، المرجع السابق، ص431.

(4) ديورانت، المرجع السابق، ص538.

إنه ليس أسخف من هذا القول الذي يتحفنا به ول ديورانت بعد كل ما عرفناه عن الاسكندر غير القول الذي يليه مباشرةً حيث أكمل يقول: «ولقد كان ارتداؤه الملابس الشرقية، وتحوله إلى الأساليب الشرقية بداية انتقام آسيا من أوروبا»![1].

لقد تكشفت لنا شخصيّة الاسكندر (الكبير!) على حقيقتها: كان شاباً غرّاً، ساذجاً، مندفعاً إلى درجة التهور، عاطفياً، كريماً، متقلب المزاج، وضعه قدره بين مجموعة من القادة السوريين المحنكين الدهاة، فاستغلوا سذاجته ونقاط ضعفه المتمثلة في تعطشه إلى القيادة والأبهة، ورفعوه إلى حيث لا يتماسك، ثم تركوه يسقط، كل ذلك من أجل الحفاظ على ولاء الإمارة في مكدونيا، ومن ثم تأمين الاستثمارات والتجارة في سقف بحر إيجه وأسفل الدانوب. إنه شخصية تستثير فينا مشاعر العطف أكثر من الإعجاب.

وهذا تحديداً ما توصل إليه أخيراً ول ديورانت حيث كتب يقول: «إن أقل ما يمكن أن يقال فيه أنه كان شاباً كريم النفس قوي العاطفة، كما كان رجلاً قوياً باسلاً لا يكاد يُدانيه أحد في قدرته وبسالته، وأنه كان يكافح ليتخلص ممّا في دمه من تراث من الهمجية يذهب بالعقل الحصيف»[2].

ولقد جرى الخلط فيما بعد عند بعض المؤرخين العرب وفي أذهان العامة بين الاسكندر المقدوني والاسكندر ذي القرنين اليمني الذي سبقه بعدّة قرون والذي جاء على ذكره القرآن الكريم. وقد دعي هذا الأخير بذي القرنين لأنه قصد الأرض المقدسة في قلب شبه جزيرة العرب حيث جبل قرونو (الأقرن ذو القمتين) بحثاً عن أرض الخالدين كما فعل الملك جلجامش قبله بما يزيد عن ألفين وثلاثمائة عام، وجال فيها من قرن الشرق إلى قرن الغرب.

وإن كل ما يدبجه معظم المؤرخين في الغرب من خطابات إنشائية لا تمت إلى التاريخ أو البحث العلمي بأية صلة حول شخصية الاسكندر الأسطورية وأعماله الحضارية في «تمدين آسيا» وتشييد عشرات المدن التي حملت اسمه ليس لها أية قيمة في ميزان الحقائق.

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص 544.

وإن كل ما يدبجه معظم المؤرخين في الغرب من خطابات إنشائية لا تمت إلى التاريخ أو البحث العلمي بأية صلة حول شخصية الاسكندر الأسطورية وأعماله الحضارية في «تمدين آسيا» وتشييد عشرات المدن التي حملت اسمه ليس لها أية قيمة في ميزان الحقائق.

وكمثال على تلك الخطابات التي لا تليق بباحث أو مؤرخ، ولا تصلح إلا لتلقى على مجموعة من الصبية والمراهقين من أجل تحفيزهم للانخراط في جيش إحدى الدول الاستعمارية الأوروبية المتوجهة إلى الشرق إبان القرنين الماضيين، نورد «خطاب» بريستد حيث قال:

«ووصل الاسكندر إلى بابل العظيمة بعد غياب سبع سنين عنها. وقد مكث في آسيا اثنتي عشرة سنة، نقل في غضونها الحضارة اليونانية إلى قلب القارة. وكان في أثناء حملاته الحربية يؤسس في الأماكن المهمة مدناً يدعوها باسم الإسكندرية نسبة إليه. وأنشأ على تخوم الهند ممالك لتكون في المستقبل مراكز للنفوذ اليوناني. وبواسطة هذه المراكز دخلت الفنون اليونانية بلاد الهند وصارت أساساً للفنون التي لا تزال موجودة فيها حتى الآن. واتصلت ثمرات الصناعة اليونانية ـ ولا سيما قطع النقود القديمة ـ بواسطة رعايا الاسكندر في هذه الأرجاء القصية في الشرق إلى بلاد الصين، فكانت تنشيطاً للصناعة فيها وفي اليابان. ولم يحصل هذا الاختلاط بين الشرق والغرب في زمن من الأزمان كما حصل في أثناء غزوات الاسكندر المدهشة في الشرق»[1].

وقد رأينا من ذي قبل كيف أن هذا الاختلاط كانت قد أسسته ورسخته الدولة السورية في عهديها البابلي والآشوري والذي كان عمره ألفي سنة قبل ظهور الاسكندر على المسرح. وهذا ما صرّح به باحثون موضوعيون غربيون آخرون أنفوا مثل هذه الاختراعات التاريخية السمجة.

---

(1) بريستد، المرجع السابق، ص426.

يقول بيير روسي:

«إن ما ندعيه حتى الآن من أن غزوة الاسكندر ضد آسيا قد كانت حرباً أوروبية ضد آسيا لم تكن إلا تمثيلية مضحكة. فلقد أخذ الاسكندر في الحقيقة جانب الحزب الشرعي البابلي ضد الهيلينيين... وإن انتصاره كان بعيداً عن أن يعود إلى ما سنسمّيه اليونان، فقد انتهى الأمر إلى العكس من ذلك: في إعادة اليونان إلى السيطرة الآرامية. وإن هذا حقيقي إلى درجة أن الاسكندر... لم يكن يمثل في الحرب التي قادها منتصراً ضد داريوس الهيلينية، ولكن الشرعية البابلية[1]... ولم يتأثر التنظيم القوي الإمبراطوري الموضوع منذ قرون للأسرة النيلية الرافدية بسقوط داريوس... فلم يكن الأمر بعد كل ما جرى سوى غياب رجل لا يمثل إلا نفسه. واستمرت الإمبراطورية، وعاد الكاتب إلى قلمه، والفلاح إلى معزقته، والصائغ إلى خيطه الذهبي، ولم يتغير شيء، ولم يتحرك شيء من مكانه في الإمبراطورية الواسعة. ولم يكن مرور الاسكندر، البطل الذي باركته الآلهة، إلا تجعيدة على سطح آلاف من السنين المتراكمة محتفظة بالإيمان والمعرفة ومذهب الشك، كما لو أن العالم العربي قد احتوى الاسكندر والمجتمع الهيليني الذي وجد فيه تكملته»[2].

«ولقد أحب أن يزور جميع مقاطعات الولايات المتحدة الآرامية، وأن يؤكد، على مثال أسلافه الإخمينيين، على وجود الملك الحقيقي. وكان عليه أن يعلل رحلاته التي قام بها إلى بكتريان وصوقديان في سنتي 329 و328, وإلى كابول عام 328, وإلى البنجاب عام 326, وحتى الحدود الرسمية المعترف بها في البروتوكولات الهندية ـ البابلية، ولم يتجاوز في مكان ما حدود الإمبراطورية. وإن التناقض يكمن في أن الاسكندر، على الرغم من شهرته المتملقة التي كان التاريخ يمجدها، لم يكن أبداً أحد الفاتحين. إن مهنته لم تكن على صلة مشتركة تجمعها بمهنة أتيلا أو نابليون. لقد اكتفى بزيارة مملكته دون أن يتعدّاها إلى ممالك الآخرين»[3].

---

(1) روسي، المرجع السابق، ص180 - 181.

(2) المرجع نفسه، ص182.

(3) المرجع نفسه، ص184.

«إن كل ذلك روي لنا في «تاريخ أناباسوس إيرانوس» (صعود إيران) وفي تاريخ فلوطارخ. ولم يستطع صاحبا هذين المؤلفين العائدين للقرنين الثاني والأول قبل الميلاد بالطبع أن يحضرا انتصارات بطلهما، ولكنهما استندا إلى مصادر جديرة بالثقة، وإلى حوليات حرّرها فيما بعد قائد الاسكندر القديم بطليموس، الذي أصبح فيما بعد ملك مصر. نحن إذن مزودون بوثائق جيدة من جديد. ولقد لزم الشارحين المحدثين كثير من الأفكار المسبقة لكي يشرحوا لنا حركة الاسكندر باعتبارها سيطرة «هيلنستية»، فقد كانت فكرتها نفسها لا تتصور: فلقد بقيت الآرامية لغة الإدارة مدونة حيناً بالمسمارية مباشرةً، أو بالألفباء الفينيقية أو المصرية، وحيناً آخر بالكتابة الإغريقية المنسوخة عن الآرامية»[1].

وكنا قد أوضحنا كيف أن ما دعي باللغة الآرامية ليست إلا العربية بلهجتها السريانية التي كانت لغة آرام وأبيه سام وجده نوح. أما الكتابة «الإغريقية» فهي الكتابة السورية التي دعيت فينيقية، بعد أن أضاف إليها السوريون النازحون (الإغريق) في مهجرهم بعض العلامات للأحرف الصوتية. وهذا ما أكده لنا الشاعر السوري نونوس في القرن الخامس بعد الميلاد حيث كتب في مجموعته «الأدونيسيات» يقول:

«حمل قدموس إلى عموم اليونان هبات فيها الكلمة والعقل الراجح... ووحّد ما بين الأحرف الصوتية والجامدة في تسلسل منسجم منظم. فهو الذي رسم هناك إشارات الكتابة الصامتة وليس بها عيّ، ذلك أنه تلقن في موطنه أسرار العلم الإلهي وحكمة المصريين، ورضع فيه حليب الكتب المقدسة التي تعجز اللغة عن تصويره» (نونوس، الأدونيسيات، الكتاب الرابع، الأدبيات 259-267)[2].

إن البلاد الممتدة من مصب نهر الهندوس إلى شواطئ ليبيا وإيبيريا (إسبانيا) كانت منطقة انتشار ونفوذ السوريين الذي يدعوه روسّي «الآرامي»، و«إنها البلاد التي ستمثل فيما بعد الحيز العربي التاريخي لأنها كانت تمثل أيضاً في ظل الإخمينيين الحيز التاريخي الآرامي. لقد قدمنا مخطط الاسكندر الاستراتيجي فيما بين النهرين وفي جزيرة العرب

(1) المرجع نفسه، ص.185

(2) بيير شوفان، آخر الوثنيين، ترجمة سلمان حرفوش، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997, ص.223

والخليج (الفارسي) كطرفة مثيرة. لقد خيّل إلينا أنه اخترع الطريق التي تصل مصب نهر الهندوس ومصب نهري الدجلة والفرات... والحق أن «مخطط الاسكندر» الشهير قد كان منذ داريوس الكبير وقبله بكثير بالتأكيد معروفاً ومنفذاً، ولقد وصفه هيرودوت بدقة»[1].

أما نسبة إنشاء الكثير من المدن إلى الاسكندر فأمر ليس فيه شيء من الثبوت أو الصّحة. إن الأمر كله لم يكن يتعدّى خلع اسم هذا القائد أو ذاك على المدينة تعبيراً عن ترحيبها بانتصاره. وكان هذا تقليداً شائعاً مع سلوقس وأنطيوخس وغيرهما، حلّ محلّه تقليد تسليم مفاتيح المدينة للقائد فيما بعد. وأكبر دليل على ذلك ميناء اسكندرونة السوري، الذي كان مرفأً سورياً مزدهراً قبل الاسكندر بعدة قرون، وكان اسمه «ماريا أندرو» على اسم الربة السورية عشتار، ويعني سيدة النذور أو الصدقات أو العطايا. ومثله كانت الإسكندرية التي أنشأها السوريون قبل الاسكندر بعدة قرون، وكانوا وحدهم سادة التجارة في البحر الأبيض المتوسط قبل قدوم الفينيقيين إلى سواحلهم من شواطئ البحر الأرتيري (الخليج العربي)، وكانوا وحدهم أصحاب التقليد المتقدم في إنشاء المرافئ والمسارح والمكتبات والمنارات لهداية السفن، والاسكندرية منذ نشأتها اشتهرت بمنارتها العجيبة التي اعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع لقرون عديدة، فسميت باسم تلك المنارة «ميلا»، ولفظة «ميلا» سريانية تعني التفاحة كما تعني المنار أو المنارة. «وهذا البرج العجيب كان سليل برج بابل الذي كان يتصل به بلحمة النسب»[2]، وليس من فعل مهندسي «اليونان بعد الاسكندر» كما صار يزعم. وقد أقيمت على جزيرة فاروس «وكان تأثير عوامل الهندسة الشرقية ظاهراً في هندسة هذه المنارة القائمة على جزيرة فاروس»[3]، علماً أن اسم الجزيرة في الأصل السوري السرياني هو «فرعو» ويعني الثغر، المرفأ، المدخل، المخرج، وقد سقطت العين، وأضيفت السين فيما بعد اعتباطاً كالعادة. مع الأخذ بالاعتبار أن الإسكندرية أو «ميلا» لم تكن في يوم من الأيام ضمن الدولة المصرية القديمة أيام حكم الأسر، وليس في وثائق وادي النيل القديمة ذكر لها، ولا سيّما أن منطقة الدلتا كانت منطقة مستنقعية حتى الألف الأول قبل الميلاد. وكان التجمع السكني السوري في ذلك المكان الذي تألفت منه المدينة

---

(1) روسي، المرجع السابق، ص184.

(2) بريستد، المرجع السابق، ص454.

(3) المرجع نفسه، ص453.

لاحقاً يدعى «رحوقوتي» Rhokoti[1]. والكلمة سورية سريانية وتعني: المغتربين، دار الغربة، المغترب. وهي في القاموس السرياني من الفعل «رَحِقْ» rahek ويعني: ابتعد، نأى، هاجر، اغترب. أما كيف اخترع المؤرخون في الغرب بناء الإسكندرية على يد الاسكندر فقصة لا يصدقها حتى الأطفال. يقول هؤلاء إن الاسكندر، بعد أن انتصر على جيش داريوس الثالث في معركة إفسوس في الشمال السوري، لم يتابع مسيرة حربه شرقاً باتجاه العاصمة بابل، وإنما توجه جنوباً لإخضاع بقية سوريا ومصر ووادي النيل وليشيد هناك عدداً من المدن، وكأنما استأذن داريوس الثالث وقال له: عن إذنك، أريد إخضاع سوريا ومصر أولاً وتأسيس بعض المدن، فانتظرني هنا ريثما أنجز هذه المهمة وأعود إليك لنتقاتل! أية عقول سخيفة اخترعت مثل هذه القصص واعتبرته تاريخاً حقيقياً يدرّس في الجامعات لعدة قرون!

«إننا حين نتكلم عن إمبراطورية إغريقية لا يمكن أن نعني بها سوى تشويه شديد للحقيقة. فلقد استمرت الهيلنستية التي لم تكن شيئاً آخر سوى نقل مكتوب للثقافة الإيجية الآرامية في إنشاء شكل حياة إمبراطورية الشرق لا مضمونها. وعندما أعطى بطليموس الثالث في القرن الثالث قبل الميلاد للإسكندرية ذلك البريق الذي لا يضاهى، والذي نعرفه... كانت الإسكندرية آنذاك فينيقية بمبانئها وتقاليدها الدينية التي جمعتها النصوص... إن ملاحظة لاشبنغلر يجب أن تلفت الانتباه».

«إن ما نعرفه عن الرياضيات الإسكندرية يفترض حركة كبرى تحتل فيها مركز الصدارة جامعات أخرى مثل الرها (أوديسا) وطيسفون... والتي كانت ترى بعض خصوصياتها في المجال اللغوي للعهود القديمة. فزيندور الذي عالج مسألة الصور المتساوية المحيط، وسيرينوس الذي اهتم بقضية المجموعة الضوئية المتجانسة في الفراغ، وهيبسيلكيس الذي أدخل التقسيم الكلداني للدائرة، وديو فانت الرياضي الاسكندري... إنهم جميعاً آراميون رغم شكل أسمائهم الإغريقي. ولا تشكل كتاباتهم إلا جزءاً بسيطاً من تراث فكري ولغوي سوري بصورة رئيسية. ولقد وجدت هذه الرياضيات تتمتها في العلم العربي الإسلامي، الذي تبعته، بعد فترة انقطاع طويلة، الرياضيات الغربية، رياضياتنا، التي يظهرها لنا خداع بصريّ وكأنها الرياضيات إجمالاً»[2].

(1) عبد اللطيف أحمد علي، محاضرات في العصر الهيللنستي، مكتبة كربدية، بيروت، 1961، ص64.

(2) روسي، المرجع السابق، ص195.

أما الزعم الآخر بأن الاسكندر بنى الإسكندرية ومات ودفن فيها فقول لا يستند إلى أي دليل. ومن الثابت في المصادر القديمة أن الاسكندر مات في بابل. لكن الرب مردوك (الكلمة سريانية مؤلفة من مار + دوق = الرب الرئيس، الإمام، الزعيم) والربة عشتار رفضا رفضاً قاطعاً أن يدفن في الأرض السورية لادعائه الربوبية إبان حياته، وهما لا يحتملان أن يزاحمهما أحد. فقرر مجلس القادة في بابل، وجميعهم من السوريين، إرسال جثمانه في تابوت إلى مكدونيا لتتمّ مراسم الدفن هناك، خاصة وأن أفراد أسرة برديكاس من أقرباء الاسكندر كانوا قد دخلوا في تنافس مع الوصي أنتيباتر السوري على عرش مكدونيا. وخشية أن يزيد وصول جثمان الاسكندر إلى هناك من شقة النزاع، والتألب على أنتيباتر، فقد بادر فتولمايو (بطليموس) إلى إرسال عصبة من الرجال «اغتصبوا جثمان الاسكندر عندما كان في الطريق لدفنه في مكدونيا بناء على قرار مجلس القادة في بابل»[1] بحجة أنه يريد أن يقيم له مراسم دفن تليق به في الإسكندرية التي صارت تحمل اسمه منذ ذلك اليوم. لكن أحداً من المصادر لم يأتِ على ذكر أي شيء من تلك «المراسم»، ولا أية إشارة عن الموضع الذي دفن فيه الجثمان، ولا عن الطريق التي سلكها التابوت فيما بعد. وكل ما نعرفه هو أن فتولمايو (بطليموس) انضم إلى الحلف الذي تألف بزعامة أنتيباتر لمناهضة برديكاس.

(1) مفيد العابد، المرجع السابق، ص37.

الفصل الثالث

سوريا بعد التحرير
أو
عصر الـ «ديادوخي»* أو «المتدافعين».

إن الإمبراطورية السورية، أو «الأرامية» على حد تعبير بعض المؤرخين، إذ كانت، في مراحلها الأكادية والبابلية والأشورية، تخضع لملك مركزي واحد، تحت تصرفه جيش مركزي يقوم بجولات سنوية على تخوم الإمبراطورية لصد هجمات القبائل من همج آسيا وأوروبا ولتوفير الأمن لخطوط التجارة الدولية التي كانت تحت السيطرة، فإن سوريا المحررة حديثاً من الاحتلال الفارسي بكامل حدودها الإمبراطورية ألفت نفسها الآن دون قائد مركزي، يتوزع السلطة فيها كوكبة من القادة المتميزين، لكن كل على ولايته، وكل يجد في نفسه الجدارة لأن يكون هو الحاكم المركزي فوق الجميع، وهذا طبع متأصل في السوريين منذ القدم إلى اليوم. وهكذا فقد بدأت في سوريا مرحلة من التنافس، والتدافع، والتحالف مرة والخصومة مرة أخرى، دعيت في المصادر التاريخية القديمة بفترة الـ «ذْيادوحي» التي تعني بالسريانية: التدافع، المتدافعين. وقد رأينا شدة وضوح هذه الظاهرة التي انتقلت معهم إلى ديار النزوح والاغتراب في الجدل الذي دار بين وفد النازحين (الأغارقة) في أثينا واسبارطة مع جيلون ملك صيراكوزا فيما يخصّ قيادة الجيش والأسطول لمجابهة داريوس.

وليس عسيراً على من يراقب ساحة الأحداث بعد موت الاسكندر أن يلحظ تميّز ثلاثة من هؤلاء القادة يقف في الطليعة منهم سلوقس صاحب الشجاعة المقرونة بالدهاء والعقل الذي حنكته التجربة في السياسة والحروب. أما الآخران فهما أنتيجونو وفتولمايو (بطليموس).

* الكلمة في القاموس السرياني من الفعل «دحي» و«أدحي» ويعني: دحا، دفع، طرح، نبذ، أبعد، طرد، أقصى، هرّب... يترجمونها في الغرب إلى «خلفاء الاسكندر»! وهكذا ينقلها الأساتذة العرب. انظر: مفيد العابد، المرجع السابق، ص67.

مؤتمر بابل:

كان على هؤلاء القادة الثلاثة تحديداً إيجاد الحلول السريعة لعدة قضايا من شأنها أن تهدد وحدة الإمبراطورية التي أعادوها بجهودهم هم وليس بـ »عبقرية« الاسكندر.

وكانت أولى هذه القضايا الحفاظ على سلامة الأطراف ومناعتها سواء في مكدونيا وسقف بحر إيجه، أو في جزر إيجه، أو في التخوم الشرقية والشمالية الشرقية.

ففي مكدونيا كان قد تسلّم الوصاية على العرش القائد أنتيباتر السوري، وذلك بضغط من القادة السوريين الآخرين قبل موت الاسكندر، وبالتالي فإن الوضع هناك بات مرشحاً الآن لنشوب نزاع مع برديكاس والبقية من أسرة الاسكندر المالكة على مكدونيا، خاصة وأنهم هناك سوف يفهمون عملية التحرير إنجازاً خاصاً بالاسكندر الذي سيتبوأ عرش آسيا، وسيكون لهم كامل الحق في أن يشاركوه بل ويخلفوه. ومما قد يشجع على ذلك انهماك أنتيباتر بقمع الثورة التي نشبت في أغريقيا بزعامة أثينا ضد التبعية لإمارة مكدونيا بعد موت الاسكندر.

وهكذا، وعقب وفاة الاسكندر، اجتمع القادة الكبار في بابل لتقدير مصير القيادات في المواقع المفصلية قبل فوات الأوان. وتقرر أن ينصّب أرخيدايوس المعتوه ابن فيليب الثاني ملكاً على مكدونيا تحت اسم فيليب الثاني، والاعتراف بحق جنين روكسانا إذا ولد ذكراً في مشاركة فيليب الثالث الملك بوصفهما شريكين تحت الوصاية الملكية. ولا يخفى ما في هذه الخطة من خبث ينتقل من خلالها النزاع إلى داخل الأسرة الحاكمة نفسها في مكدونيا لتسهّل على أنتيباتر عملية الإشراف والسيطرة بالكامل.

وقدر المؤتمر أيضاً تعيين برديكاس قائداً للجيش هناك، وفي الوقت نفسه كلفوا كراتروس بإعادة قدامى المحاربين المكدونيين، وبالوصاية على الملك المعتوه، وكذلك على طفل روكسانا عندما يولد. وفي الطريق حينما علم كراتروس بانهماك أنتيباتر في إخضاع بلاد الإغريق هب إلى نجدته. فاغتنم برديكاس الفرصة في مكدونيا، وأعلن نفسه وصياً، ثم نصب نفسه خليفة للاسكندر على آسيا، وأخذ يبعث بالأوامر إلى القادة حكام الولايات ويطلب منهم الامتثال لها.

وهكذا بدأت مرحلة «التدافع» أو الـ «ديادوحي» deadohi. إذ أن برديكاس لم يكن أقل جهلاً وسذاجة من الاسكندر في معرفة كنه أولئك القادة الذين أعدّوا عدّة عملية التحرير، ونفذوها بعيداً عن بقعة الضوء التي وقعت على الاسكندر وحده، ثم وقفوا جميعاً كل ينظر إلى الآخر وفي أعماق نفسه يقول: أنا الملك.

فعندما طلب برديكاس إلى ليوناتوس وأنتيجونوس فتح بعض أقاليم آسيا الصغرى آثر الأول الذهاب لمساعدة أنتيباتر في حربه لإخضاع الثوار في بلاد الإغريق، في حين رفض الثاني تنفيذ الأوامر. وعندما طلب برديكاس إلى أنتيجونو تفسير مسلكه هرع هذا إلى أنيتابر وكراتروس وحثهما على تشكيل حلف للقضاء على برديكاس الذي بدأ يصدّق أنه الملك، وأن على الجميع إطاعته.

أما فتولمايو (بطليموس) الذي كان يساعده في ولايته أحد أصدقاء برديكاس فلم يتردد في إعدامه، كما أرسل عصبة لاختطاف التابوت الذي كان يحمل جثمان الاسكندر في الطريق إلى مكدونيا، ثم ضاعت آثاره إلى الأبد.

ومن أجل سحب برديكاس وقواته من معاقله بين جبال مكدونيا أوحوا إليه بأنهم سوف يكونون إلى جانبه إذا ما تحرك لتأديب بطليموس في عقر داره في الإسكندرية. وانطلت الحيلة على برديكاس، وتحرك باتجاه الإسكندرية يواكبه سلوقس قائد الفرسان، وفيتون والي ميديا، وأنتيجونو قائد فرقة أصحاب الدروع الفضية وقسم من الأسطول السوري. وعند موقع بلوزيون (الفرما)، أول المواقع الحصينة قرب الإسكندرية، اقتحم سلوقس ومجموعة من ضباطه خيمة برديكاس وأجهزوا عليه.

أما أنتيباتر فقد ترك أمر تأديب بلاد الإغريق إلى كراتروس، وقرر ملاقاة الجيوش العائدة من الإسكندرية عند ينابيع نهر العاصي في سوريا في موقع كان يسمّى «تريا فراديس» Tria Paradis ويعني بالسريانية أرض الفردوس (إذ أن «تريا» تعني: أرض، بر، يابسة، وهي الثرى بالفصحى، ومنها جاءت terra اللاتينية، و«فرديس» تعني: فردوس، جنة، بستان).

مؤتمر أرض الفردوس Triaparadis :

«اجتمع قادة الجيش جميعاً في جو مضطرب تماما، إذ أن المشاة المكدونيين كانوا متذمرين تذمراً شديداً لعدم رضاهم عن قتل برديكاس... وكذلك لعدم حصولهم بعد على المكافأة المالية التي كان قد وعدهم بها الاسكندر سابقاً»[1]. وأكثر من هذا لشعورهم بأنهم، كقوة من المرتزقة المكدونيين، جرى تهميشها تماماً ولم يعد لها أي شأن يذكر.

ولم يتردد المؤتمر في إرجاع الوصاية على عرش مكدونيا إلى أنتيباتر، وعزل أصدقاء برديكاس من كل مناصبهم في الولايات، والتأكيد على تسلّم بطليموس ولاية الإسكندرية وتتبعها مصر.

أما أهم مقررات «أرض الفردوس» فكانت تسلّم سلوقس ولاية بابل، لما في ذلك من شأن معنوي يجعله في مركز الجميع.

أما أنتيجونو فقد احتفظ بمقاطعاته في شمال سوريا (آسيا الصغرى)، بالإضافة إلى تسلّمه منصب القائد العام للجيش. وتقرر نقل كنوز سوسا التي كان قد نهبها ملوك الفرس من المدن السورية الأخرى إلى أحد المواقع الحصينة في كيليكيا السورية لتصبح تحت إشراف أنتيجونو أيضاً، ممّا وفر للجميع كل الشروط للمزاحمة و«التدافع»، لا سيما وقد صار جلياً الآن أن القوة أضحت متمركزة حول ثلاثة هم: سلوقس في بابل، ويتبع له القسم الأكبر من الإمبراطورية السورية القديمة الآسيوية، فتولمايو (بطليموس) في الإسكندرية، ويتبع له مصر الداخلية وقسم مهم من الأسطول السوري الذي يهيمن على التجارة في المتوسط ومن الإسكندرية حتى جزر إيجه، وأنتيجونوس فيما صار يدعى بآسيا الصغرى، ويتبع له القسم الآخر من الأسطول. أما الأطراف فكانت ما تزال مقلقلة بعيدة عن الاستقرار، وتتمثل في الولايات الشرقية الممتدة من جبال إيران حتى الهند، حيث كان فليتون هو الأقوى، وفي مكدونيا حيث يشرف على الأمور وعلى الأسرة المالكة أنتيباتر الذي لم يحسم أمره نهائياً بعد مع يومانوس ممثل الأسرة المالكة في منطقة المضائق، ومع القوى الأخرى المشرذمة في بلاد الإغريق والتي لا تستقر على حال.

---

(1) مفيد العابد، المرجع السابق، ص38.

كان سلوقس القائد المحنك يدرك في أعماق نفسه أن النزاعات بين أولئك القادة، ولا سيما الصغار منهم، على الأبواب، فقرر ألا يأخذ جانب أحد حتى ينجلي الغبار من حواليه، وتنجلي معه حقيقة موازين القوى. وكان ذلك هو ما حدث فعلاً:

ففي الولايات الشرقية قرر فايتون استغلال تفوقه دون انتظار لفرض إرادته على باقي ولاية المنطقة. «وعندما تأكد شعور هؤلاء بأن أوضاعهم العامة مهدّدة، اجتمعوا للتباحث فيما يجب عمله ضد المعتدي. وإزاء ما كان يتمتع به بيوكستاس من مكانة مرموقة بين بقية الولاة فقد اعتبر زعيماً لهذا الحشد من الزملاء الذين قرروا غزو »بارثيا«، وقاموا فعلاً بمحاربة فايتون وهزيمته. وفي أعقاب هذه الهزيمة فرّ فايتون إلى سلوقس والي بابل، ينشد مؤازرته ويغريه باقتسام الغنائم. ولكن سلوقس كان أفطن من أن يبادر إلى المشاركة في هذه المغامرة، وآثر انتظار نتائج سير الأحداث في الغرب»[1].

«وفي الغرب قام أنتيجونوس بشن هجوم ضد يومانوس (ممثل الأسرة المالكة) في آسيا الصغرى، ثم في فينيقيا، وأجبره على الانسحاب صوب داخل آسيا...».

«وفي تلك الأثناء توفي الوصي أنتيباتر، وآلت الوصاية بعد مؤامرات متعددة إلى كساندرو بن انتيباتر الذي عمل على التخلص من أولمبيا أم الاسكندر، ثم فيليب أخي الاسكندر وزوجته، وأخيراً من اسكندر الرابع وأمه الفارسية روكسانا...».

«وعندما وصل يومانوس إلى الشرق وطلب إلى سلوقس وفايتون مساعدته ضد أنتيجونوس رفض الاثنان بحجة أن مؤتمر «أرض الفردوس» اعتبر يومانوس خارجاً على القانون، في حين استقبل الولاة الآخرون بزعامة بيوكستاس مبعوثه بحماسة شديدة»[2]. ولما كان بيوكستاس قد حقق نصراً سابقاً على فايتون فقد كانت قوى سلوقس وفايتون يمكن أن تدخل في معركة قد تكلف سلوقس الكثير حتى لو تحقق لها النصر، مما يترك أنتيجونوس سيد الساحة دون أن يكلفه ذلك خسارة شيء من قواته. فقرر سلوقس إشراك أنتيجونوس في ذلك الصراع، والعمل تحت قيادته.

---

(1) العابد، المرجع السابق، ص48.

(2) المرجع نفسه، ص49.

«وبالفعل، في عام 317 أعد القادة الثلاثة بزعامة أنتيجونوس خطة نجحت في القضاء على يومانوس وعزل معظم أعوانه، والاستيلاء على الكنوز الملكية الفارسية في كل من مدينتي سوسا وأكبتانا»[1]. ثم إن أنتيجونوس تخلص من فايتون وعدد من أعوانه في مؤامرة دبرها قبل عودته إلى الغرب، وذلك بأن تم اغتيالهم وهم معه في جلسة ودية، وسلّم الأمور إلى بعض أتباعه هناك. وبهذا يكون أنتيجونوس قد سيطر على الشرق والغرب، وحصر سلوقس بين جناحيه الجاهزين للإطباق عليه في أية لحظة.

وبالطبع لم يكن إدراك هذا الواقع الجديد غائباً عن سلوقس، ولم يعد الأمر بحاجة إلى اختبار نوايا أنتيجونوس تجاهه، خاصة وأن فارقاً كبيراً في ميزان القوى قد ظهر جلياً على الساحة لصالح هذا الأخير. «ولم يعد أمام سلوقس إلا أن يختار بين أحد أمرين: إما البقاء في مركزه ومحاولة استرضاء أنتيجونوس بأي ثمن، وإما الفرار من وجهه مؤقتاً، وانتظار الفرصة المواتية لمناهضته»[2]. لكن سلوقس لم يكن من أولئك القادة المتعجلين باتخاذ القرارات. فقد بدأت نذر السوء تظهر قبل عودة أنتيجونوس إلى الغرب. وذلك عندما استرجع أنتيجونوس منه ولاية «سوسيانا» التي كانت قد منحت له إبان الحرب، ووضعها تحت إمرة وال من سكانها. ومع ذلك فقد تمالك سلوقس أعصابه، وأحسن وفادة أنتيجونوس في طريق عودته إلى الغرب، كما حرص على عدم القيام بأي عمل يمكن أن يستفزه ويفجر كل ما يخبئه له دفعة واحدة دون أن يتمكن من مقاومته. لكن الأمور، على ما يبدو، أخذت تجري على سنّتها بعد أن ضاقت النفوس بما فيها. فحينما أقدم سلوقس على معاقبة أحد موظفيه التابعين له، أي لسلوقس نفسه دون استئذان أنتيجونوس، اعتبر انتنجونوس ذلك تجاوزاً لصلاحياته وخروجاً على طاعته، ودعاه لمحاسبته على موارد ولايته تمهيداً، ربما، لعزله. وردّ سلوقس على أنتيجونوس بأنه لا يحق له محاسبته، لأن ولايته لم تمنح له من قبل أنتيجونوس، وإنما من قبل اجتماع كل القادة المؤتمرين في «أرض الفردوس». ولما بلغ الأمر هذا الحد، لم يعد ثمة مجال للمناورة أو للانتظار، فقرر الفرار فجأة بصحبة خمسين فارساً من أصدقائه إلى بطليموس في الإسكندرية.

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص50.

سلوقس يقود الصراع من الإسكندرية:

كان سلوقس واحداً من القادة السوريين التاريخيين المتميزين، إلى جانب مواصفاتهم الذاتية كالشجاعة والحنكة والحكمة وقوة الإرادة، بحس استراتيجي سليم ومتقدم، مثله مثل أولئك الأسلاف الخالدين أمثال سرجون وحمورابي ونارام سين وآشور بانيبال وغيرهم. فما أن وصل إلى الإسكندرية حتى بدأ العمل دون إضاعة وقت. وكان يشعر في قرارة نفسه أن بطليموس، السوري أيضاً، كان يمكن أن يقع في أية لحظة فريسة لانتهازية أنتيجونوس، لقاء أية رشوة من هذا الأخير، لأن مطامحه لم تكن أبعد من تحقيق بعض المكاسب على الصعيد الشخصي كحاكم. فأقنعه سلوقس بخطورة نوايا أنيتجونس التي يمكن أن تؤدي إلى بعثرة تحالفات القادة السوريين، وبالتالي إلى بعثرة الدولة الإمبراطورية التي أسهموا جميعاً في تحريرها.

وقد تكللت جهوده بالنجاح، وتم الاتفاق على تكوين حلف سوري يضم الأربعة: سلوقس، بطليموس، كاساندرو بن أنتيباتر في مكدونيا، ولوقي ماحوس في منطقة المضائق. وتمكن أيضاً من إقناع بطليموس في أن يعهد إليه بقيادة الجيش والأسطول في المعارك التي سوف تنشب في البر أو البحر. ثم أرسل المتحالفون سفارة مشتركة إلى أنتيجونوس يطالبونه فيها بالاعتراف لبطليموس مجدداً بأن يكون جنوب سوريا ضمن ولايته، ولسلوقس بولايته السابقة التي مركزها بابل، ولكساندرو بن أنتيباتر بامتداد ولايته إلى كبادوكيا السورية في آسيا الصغرى حتى البحر الأسود، وللوقي ماحوس بفريجيا على الدردنيل. لكن أنتيجونوس رفض المطالب، واستقبل السفارة باحتقار شديد. وما أن عاد المبعوثون حتى أخذ الجميع أهبته استعداداً لبدء الحرب.

قرر أنتيجونوس حسم الأمور في جناحه الشمالي قبل التفرغ لملاقاة سلوقس الذي يدرك أنه الخصم الأشد. وأدرك سلوقس بحسّه الاستراتيجي المتميز نوايا خصمه. فبينما كان أنتيجونوس يمهّد لمهاجمة كاساندرو بن أنتيباتر في عقر دار ولايته مكدونيا، تولى سلوقس قيادة الأسطول السوري التابع لبطليموس وتوجه به على الفور شمالاً مهدداً شواطئ إيونيا في عام 315.

وفي عام 314 استخلص جزيرة قبرص من أنصار أنتيجونوس، وجزر إيجه، وحقق الانتصارات على حامياته في مقاطعة كاريا وفي جزيرة قوس. في هذه الأثناء قرر أنتيجونوس أن يزحف بنفسه بقسم من جيشه شمالاً عبر شمال سوريا وصولاً إلى مكدونيا، وفي الوقت نفسه عقد قيادة بقية الجيش لابنه دمتريو ليزحف به جنوباً ويستأصل ما تبقى من حاميات بطليموس في جنوب سوريا، وبعدها يداهم بطليموس نفسه في عقر داره في الإسكندرية.

وبالفعل تمكن دمتريو الشاب (22 عاماً) من تحقيق النجاحات، ودانت له مدن فينيقيا على الساحل السوري وجنوب سوريا، واعتزم التقدم جنوباً إلى السواحل المصرية.

أمام هذا الواقع الجديد قرر سلوقس العودة إلى الإسكندرية لإقناع بطليموس بضرورة عدم انتظار وصول دمتريوس، بل الانطلاق بالجيش وبالأسطول معاً لملاقاته في جنوب سوريا. وهذا ما حدث. لقد توجه سلوقس، ومعه بطليموس، على رأس كل الجيش عبر سيناء ليلتقيا بجيش دمتريوس عند تخوم غزة، كانت النتجية فيها في صالح الكفاءة، وهزم دمتريوس هزيمة قاسية، وفرّ متجهاً شمالاً نحو أبيه.

«وقلبت نتائج معركة غزة موازين القوى في المنطقة، وخاصة بالنسبة لأنتيجونوس الذي فقد سوريا، كما اضطر إلى وقف عملياته تجاه مكدونيا، وتعديل كل خطط عملياته المقبلة... فلا عجب أن هذه الموقعة تعتبر، في رأي بعض المؤرخين، حداً فاصلاً لإحدى حقب التاريخ»[1].

وكعادته، لم يضع سلوقس كثيراً من الوقت. فما أن استخلص جنوب سوريا من غريمه، وثبت أركان ولاية حليفه بطليموس، حتى عاد مسرعاً بجزء من القوات عبر سوريا ليلقى الترحيب به في كل مكان، ولينضم إليه بعض الحاميات الساخطة على أنتيجونوس بزعامة بولي أرخوس.

وبهذه القوى، وبالدعم الشعبي، قام بمحاصرة بابل التي تحصن بها رجال أنتيجونوس، وتمت له السيطرة مرة أخرى على بابل، وعاد إليه عرشه في الأول من شهر تشرين الأول عام 312, وقد اعتبر سلوقس هذا اليوم بالذات يوم ميلاد إمبراطوريته، وبداية للتقويم السوري السلوقي.

(1) المرجع نفسه، ص51.

سلوقس القائد السوري التاريخي:

ذكرنا كيف أن سلوقس كان القائد الاستراتيجي الوحيد بين أقرانه من الولاة السوريين الآخرين. كان وحده يتطلع إلى إعادة وحدة الإمبراطورية السورية التي ظلت تهيمن على تجارة العالم القديم قرابة ثلاثة آلاف عام. وكانت تعترض طريقه في سبيل تحقيق ذلك صعوبات جمة في مقدمتها تهديد القبائل الهمجية المحيطة بسوريا من الشمال بطرفيه الغربي والشرقي، والقصور في النظرة، والأنانية، التي أخذت تستبد ببقية الولاة الذين لم يعودوا يرون إلا ما يمكن أن يسلبه واحدهم من الآخر، أو يحتفظ بما لديه لنفسه، ولو كلفه ذلك أن يشغل كل وقته في التآمر وعقد التحالفات وتغييرها كلما دعت مصالحه الخاصة إلى ذلك.

كان سلوقس يعرف إمكانيات بطليموس المتواضعة في القيادة وفي المطامح، وقد ركن إلى إخلاصه له بعد أن ساعده في إنقاذ ولايته من أنتيجونوس. كما أن كاساندرو بن أنيتباتر ولوقي ماحوس كان يمكن الركون إليهما إلى حين يثبت أوضاع الدولة بعيداً إلى الشرق.

كان أنتيجونوس قد عيّن واحداً من محاربيه اسمه نيكاتور والياً على ميديا والولايات الشرقية منذ أن فرّ سلوقس إلى الإسكندرية. «فما أن سمع هذا بعودة سلوقس إلى بابل حتى هبّ إلى بابل على رأس قوة مؤلفة من عشرة آلاف من المشاة وسبعة آلاف من الفرسان، على حين لم يكن بصحبة سلوقس أكثر من ثلاثة آلاف رجل وأربعمائة فارس. ورغم هذا التفوق الكبير في القوة تمكن سلوقس، بعد إعادة تشكيل قواته تشكيلاً مرناً، من عبور دجلة قبل نيكاتور، وإنزال هزيمة حاسمة في قوات خصمه، فرّ على إثرها نيكاتور مع قسم من جنده، وانضم باقي جيشه إلى سلوقس. وقد أتاح هذا النصر الباهر لسلوقس فتح ميديا وسوسيانا وفارس»[1]. سوف تكشف لنا الأحداث المتتالية أن سلوقس كان وحده، بين جميع القادة الآخرين، الذي وضع نصب عينيه إعادة مجد الدولة السورية صاحبة أول نظام عالمي إعماري وتمديني، متجاوزاً في ذلك تجيير الانتصارات لمصالحه الخاصة على حساب الآخرين:

---

(1) المرجع نفسه، ص53.

1- فهو الذي اعتبر عودة بابل كمركز لعز الدولة بداية التاريخ الجديد، دون أن يغيب عن ذاكرة السوريين الملك حمورابي الذي قدم من الغرب السوري، ولملم شعث الدولة بعد سقوطها تحت ضربات همج آسيا، ووثب بها تلك الوثبة الحضارية الكبرى التي لا تزال مثار إعجاب العالم إلى اليوم.

2- وهو الذي كان يهب إلى أطراف الدولة دونما تردد ليقلّم مخالب الشعوب والقبائل الجوارح المتربصة بها.

3- وهو الذي كان يسارع إلى نجدة الولاة الأخرين في الغرب كلما تعرضوا للمخاطر، وبدلاً من أن يبطش بهم، ويضم ولاياتهم إليه، فقد كان يعمد إلى تدعيم أوضاعهم ومراكزهم للارتفاع بهم من مستوى المصالح الأنانية الضيقة إلى مستوى الشعور بمسؤولية الحفاظ على وحدة الدولة بكل أجزائها، مع علمه الأكيد بأن دولة على مثل تلك الرقعة المترامية لن تتمكن من الحفاظ على وحدتها إلا بجهود مجموعة من القادة الأكفاء المخلصين المؤمنين بتلك الوحدة.

4- لهذا كله فسوف نرى كيف أن سلوقس لم يكن شيء ما ليقعده عن العمل الدؤوب المتواصل لتحقيق كل تلك الطموحات حتى صار جديراً بحق بأن يلقب «ملك المعارك» و«أسد سوريا»، وهما اللقبان اللذان كان قد نالهما بجدارة كل من سرجون وحمورابي.

فمنذ أن استتب له الوضع في بابل وضم إليه الولايات الشرقية في سوسيانا وميديا، تابع تحركه دون توقف لتأكيد سيطرته ومدّها نحو الشرق إلى أبواب الهند كي يتفرغ لاحقاً لتصفية الحساب مع غريمه أنتيجونوس في الغرب.

وبالفعل وصل سلوقس بقواته أبواب الهند قرابة عام 302 ق.م. وصار الصدام مؤكداً مع تشاندر جوبتا الذي كان قد جمع حوله عدداً من الولايات وملك عليها.

أما أنتيجونوس، الذي لم يكن قد عقد صلحاً إلا تحت ضغط الانكسارات، فلم تكن لتغيب عنه فرصة انهماك سلوقس في توسيع سيطرته شرقاً من أجل تصفية حساباته مع الولاة الأخرين في الغرب الذين لم يكونوا يعدلون شيئاً في نظره بغياب سلوقس.

ففي مكدونيا، وحوالي سنة 310 - 309 عندما أخذ المكدونيون يتهامسون حول بلوغ اسكندر الرابع الثالثة عشر من عمره ودنّو الوقت لتسلمه السلطة بنفسه لم يتردد الوصي عليه كاساندرو بن أنتيباتر في قطع الطريق عليه، فقتله، وقتل أمه، ثم أتبع ذلك بالزواج من أخت الاسكندر الأكبر، وأخذ لنفسه وراثة حقوق الأسرة المالكة في مكدونيا ومعها السيطرة على بلاد الإغريق.

عندها تحرك أنتيجونوس، وهاجم أثينا، وقتل وطرد الحاميات التابعة لكساندرو منها، ثم انتقل بجزء من قواته إلى بعض جزر إيجه، وبادر إلى التحرش بالحاميات في سواحل إيونيا، وفي الوقت نفسه بعث بابنه دمتريوس على رأس قوة بحرية إلى جزيرة قبرص حيث استولى عليها بعد معركة بحرية حطم بنتيجتها معظم الأسطول البطلمي سنة 306. ثم ما لبث بعد هذا أن اتخذ لنفسه لقب «الملك» وادعى وراثة أسرة الاسكندر في مكدونيا.

كان أنتيجونوس يدرك أهمية عامل الزمن في الحسم، وأنه إذا ما تريث حتى يعود سلوقس منتصراً من الشرق فستسقط كل أحلامه دفعة واحدة على أرض معركة واحدة مع سلوقس. لهذا فلا بدّ من الإسراع في السيطرة على بحر إيجه والقضاء على خصومه من أجل الخروج من مأزقه المحاصر بين فكي الكماشة من الغرب ومن الشرق، ثم التفرغ بعد ذلك لملاقاة سلوقس وحده. من أجل هذا أوفد ابنه دمتريوس إلى بلاد الإغريق، وسرعان ما قام هذا بطرد حاميات كاساندرو من بلاد البيلوبونيز كلها وبلاد اليونان الوسطى.

لكن هزيمة أسطول بطليموس في قبرص وحاميات كاساندرو في بلاد الإغريق نبهت الجميع إلى ضرورة مجابهة الخطر متحدين أو يقضي عليهم واحداً بعد آخر. وتبعاً لذلك فقد جدد الجميع تحالفهم عام 302. واتفق كاساندرو مع لوقي ماحوس على إعداد حملة ضد أنتيجونوس، وعلى طلب النجدة من بطليموس وسلوقس بأقصى سرعة. «وفي بداية عام 302 بدأ التحالف عمله. فقد تقدم لوقي ماحوس على رأس جيش تعززه قوة أرسلها حليفه كاساندرو، واكتسح الجزء الغربي من آسيا الصغرى. وعندما تحرك أنتيجونوس ضده ساعدت الأمطار لوقي ماحوس على التحصن في أحد المواقع قرب مدينة هرقليا، وأرسل يستعجل نجدة حليفيه سلوقس وبطليموس. وحين كان دمتريوس يضغط بشدة على كاساندرو في بلاد الإغريق ألزمه أبوه بالعودة إلى آسيا حيث كان الجميع يتهيأون للموقعة الكبرى مع مطلع الربيع»[1].

(1) المرجع نفسه، ص59.

في تلك الأثناء، وبينما كان سلوقس يتهيأ لبدء المعركة ضد تشاندرا جوبتا في الهند، وصله نداء الاستغاثة من حلفائه السابقين في الغرب. فلم يعد أمامه إلا أحد خيارين: إما أن يخوض بقواته الحرب في أقصى الشرق ويترك حلفاءه في الغرب لقمة لأنتيجونوس الذي لا شك سوف يهزمهم، وإما أن ينقذ الأوضاع في الغرب. لقد كان سلوقس أستاذاً في تقدير المواقف. فهو حتى إذا انتصر على تشاندرا جوبتا في الشرق وانتصر أنتيجونوس، في الغرب، سيتحول إلى ملك على مملكة شرقية معزولة عن مجالها البحري التقليدي الاستراتيجي، مجال البحر الأبيض المتوسط الذي كان بحراً سورياً على مدى ألفي عام، أضف إلى ذلك أن مثل هذه المملكة تقع في مهب عواصف الشعوب الهمجية وفي مركز الأخطار. وقبل أن يعلم أحد بما كان يجول في فكره اتخذ قراره العبقري الذي لا يقدر على مثله في مثل ذلك الظرف الحرج والدقيق إلا قلة نادرة من القادة في التاريخ، وهو أن يوحي لخصمه أن معركته لا شك خاسرة، وأن صلحاً كريماً يوفر عليه قتل الأهل وتدمير الديار أقصى ما يمكن أن يرجوه. وبالفعل فقد تم عقد الصلح بأقصى سرعة، إذ أن تشاندرا جوبتا لم يكن واثقاً من إمكانية الوقوف في وجه سلوقس، كما أنه لم يكن واثقاً أن سلوقس عبر كل هذه الأصقاع من أجل الاكتفاء بعقد مثل ذلك الصلح فقط.

وإن عبقرية سلوقس لم تكن لتغيب عنها مثل هذه الشكوك التي قد تراود تشاندرا جوبتا ورجاله، والتي قد تدفعه إلى التصلب في إملاء شروطه إلى أن تتكشف له الأسباب الحقيقية فيعمد إلى مطاردة قواته عند العودة ويتحول إلى عدو خطير آخر. ولقطع دابر هذا التوجه عمد سلوقس إلى عقد مصاهرة بين الأسرتين المالكتين كجزء من المعاهدة، وتضمن عقد المعاهدة حصول سلوقس على عدة مئات من الفيلة المدربة على خوض المعارك، وعلى اتفاقيات تجارية واقتصادية دعّمت بإنشاء سفارة دائمة لسلوقس برئاسة مجاستينوس، وتأمين الحدود الشرقية مع الهند في مقابل التنازل لتشاندرا جوبتا عن بعض المقاطعات الشرقية مثل أراخوسيا وجدروسيا وغيرها.

وهكذا فإن نجاح سلوقس في عقد مثل تلك المعاهدة في مثل ذلك الظرف لم يكن ليقلّ عن أعظم انتصار عسكري آخر يتحقق في المعارك.

وكالنمر السوري هب سلوقس بقواته من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في زمن قياسي لم يفعلها من قبل أو من بعد قائد آخر إلا خالد بن الوليد حينما ترك معركته في الشرق وهب لنصرة جيش أبي عبيدة بن الجراح أمام جحافل جيش هرقل على اليرموك بعده بتسعة قرون.

وبينما كانت قوات الطرفين تستعدان في شتاء عام 302 - 301 للمعركة الفاصلة مع بدء الربيع وصلت قوات سلوقس بعد مكابدة عظيمة إلى كبادوكيا فجأة، وكانت تقدر بعشرين ألفاً من المشاة، واثني عشر ألفاً من الفرسان، وعدد من النبالين، وحوالي خمسمائة فيل هندي مدرب للحروب، بالإضافة إلى مائة عربة حربية من الطراز السوري الأشوري المسلّحة بالمناجل الكاسحة من الجانبين. وكان يتولى قيادة الفرسان ابنه الشاب أنطيوخس الذي سيعرف فيما بعد بأنطيوخس الأول.

وفي ربيع عام 301 وصل سلوقس إلى الطريق العام الأوسط في آسيا الصغرى. وفشل أنتيجونوس في منع اتصاله بلوقي ماحوس الذي كان يعاني في معسكره من صعوبات جمة. وعند إفسوس في فريجيا كان على أنتيجونوس أن يواجه الجيشين الحليفين اللذين أفلحا في تحقيق نصر مؤزر أدى إلى مقتل أنتيجونوس وهروب ابنه دمتريوس. وهكذا طويت صفحة أخرى من أشد الصفحات خطورة في طريق وحدة الدولة السورية، لتبدأ مشكلة أخرى أقل شأناً لكنها الأكثر إيلاماً، إنها مشكلة القائد الأناني الصغير بطليموس.

وهكذا تمكن القائد سلوقس من إعادة توحيد سوريا الممتدة من أقاصي الهضبة الإيرانية شرقاً إلى كبادوكيا وفريجيا المطلتين على البحر الأسود وبحر إيجه غرباً. وصار لقبه «ملك سوريا» و«ملك آسيا».

لكن هل كان القائد الأناني الصغير بطليموس ليرتفع إلى مستوى الوضع الاستراتيجي الجديد؟ وهل كان وفياً للقائد سلوقس الذي أنقذه وثبّته في ولايته أكثر من مرة؟ أم أنه غدر به، وعقد التحالفات ضده، وطعنه في الظهر أكثر من مرة، وتسبب في انتقال العاصمة من بابل إلى سلوقية على الدجلة، إلى سلوقية عند مصب العاصي في غرب سوريا، إلى أنطاكية، كما تسبب في اندلاع خمسة حروب كانت سوريا في غنى عنها دعيت بـ «الحروب السورية»؟.

وما هو أثر ذلك كله في نمو النزعة الفينيقية الضيقة لدى حكام قرطاجة؟ وما تأثير ذلك في لجوء التجار ورجال المال والأعمال السوريين إلى خلق قوة أخرى في وسط المتوسط هي ما سوف يعرف فيما بعد بـ «الإمبراطورية الرومانية» بعد أن تملكهم اليأس من الاعتماد على وحدة الداخل والخلاص من الحروب الداخلية التنافسية التي دعيت في مرحلتها الأولى بـ «حروب المتدافعين» ثم ما لبثت أن تحوّلت في مرحلتها الثانية إلى حروب «الأعداء» Epigonai[1] (سريانية مؤلفة من أفي = وجوه، أصناف، ألوان، و«جوناي» = المتخاصمين، الأعداء)؟

أياً كانت تلك الحروب، وأياً كانت التسميات، فإن الإجابة عن هذه الأسئلة جميعها وغيرها من الأسئلة المتعلقة بنشأة روما وقيام الإمبراطورية الرومانية وسقوطها هي مهمة كتابنا الخامس.

نختتم أبحاث كتابنا هذا بالقول:

لم تعرف سوريا في تاريخها شيئاً اسمه احتلالاً يونانياً أو آثاراً يونانية، ولا شيئاً اسمه حضارة «يونانية» أو «هلنستية». إنها حضارة سورية سكاناً، ولغةً، وثقافةً، وديانةً، وحضارةً. وإن العرب السوريين هم الذين مدّنوا بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، ومنها، وعنهم، انتقلت الحضارة إلى بقية أصقاع أوروبا التي ظلت ترسف في قاع الهمجية حتى القرون الوسطى بعد المسيح.

«فليس الفكر الإغريقي شيئاً آخر سوى درس مستمد من الشرق، أو عالم صغير وصدى لآسيا، فالتجربة فيه محكومة بحقيقة أن آسيا لم تستعر شيئاً من «الهيلينية»، وإنها على العكس من ذلك قد أعطتها كل شيء...»[2].

«وإنه لمن المدهش أن كتبنا المدرسية تعاند في ذلك معتبرةً المدينة الإغريقية مخلوقة من العدم، ومنبجسة بإعجاز من «العبقرية الهيلينية» دون أن نقيم أي اعتبار لأصولها القانونية الأكيدة. وإنه لأمر أكثر إدهاشاً أن معظم مؤرخينا قد تكلموا عن سيطرة «إغريقية» على الشرق، بينما كانت قوة المدن اليونانية، لدى مقارنتها بالإمبراطورية المصرية أو السورية

(1) المرجع نفسه، ص67.
(2) روسي، المرجع السابق، ص121.

البابلية، لا تعدو كونها مشابهة لإمارة «أندورا» بالقياس للولايات المتحدة الأمريكية. إن بلاد اليونان، وكلنا يعرف ذلك، كانت تملك أرضاً فقيرة وغير قابلة لأن تطعم شعباً مضطراً، أو محكوماً عليه، أن ينتظر إرساليات القمح من الخارج لكي يأكل. وكان يعوزها الخشب لبناء سفنها، والكتان لألبستها، والبراري لخيولها أو لقطعان كبيرة... فماذا يمكن أن تزن اليونان الفقيرة أمام الاقتصاد الزراعي المصري والسوري الضخم، وأمام هذه التنظيمات الصناعية، والبحرية، والمالية الموطدة في الشرق وسط ملايين العمال، والمهندسين، والعلماء الذين تسوسهم وتديرهم دول مركزية منذ عهود قديمة... وإذا أردنا أن نقول الحقيقة، فالحقيقة تكمن في أن اليونان كانت إسكافيّ القصيدة الخرافية الذي يذهب متسولاً شحاذاً لدى صاحب المال. إن اليونان لم تعرف النقود إلا بآخرة من الوقت، وقد كانت أيضاً نقوداً شرقية، وهي النقود التي ظهرت أولاً فيما بين النهرين وفي ليديا، وكانت مصنوعة من مزيج من الفضة والذهب المسماة القترونات، ثم نقل قريسوس، من ثمَّ، قطع النقود الذهبية الأولى إلى الغرب... فلم تكن المدن الغربية مفتقرة إلى الغطاء الاقتصادي الضروري فحسب ولكنها كانت لا تملك أيضاً الاستقرار، ولا الاستمرار، ولا القوة السياسية والعسكرية الكافية للإيحاء بالثقة، بخلاف العواصم الشرقية المزودة، من جهتها، برصيد ضخم وراجح منذ فجر الإنسانية. ولنفكر في «هلياد» هذه التي لا تملك قرشاً ذا قيمة، والخالية تقريباً من الرجال، تستمر عندنا في الاعتبار بسبب وحيد هو «كياسة ديموقراطيتها المزعومة»، فجعلنا منها سيدة الحضارة والقدرة المتوسطية. إن ذلك يقودنا إلى طرح أكثر من سؤال على تفكيرنا الديكارتي، أو بالأصّح على خبل تفكيرنا...

«إنه ليمكننا القول: إن الشرق قد اشترى بلاد الإغريق التي لم تكن سوى مقاطعة مسخرة شيئاً فشيئاً للرأسمال الآسيوي الذي كان يدفع المدن الإغريقية لأن تدور في لعبة المنافسة إلى أن تبتلع. إن دور المصارف الحاسم جداً في أيامنا في الحياة الاجتماعية والسياسية للشعوب لم يكن أكثر من دور المصارف الشرقية في العصور القديمة»[1].

(1) المرجع نفسه، ص158 - 161.



المصادر والمراجع بالعربية

1- من وثائق أوغاريت. مجلة الحوليات السورية.

2- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.

3- أحمد داوود، العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود، دار المستقبل، دمشق، ،1992 الطبعة الأولى.

4- صموئيل نوح كريمر، من ألواح سومر، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة: ترجمة طه باقر.

5- سلطان محيسن، عصور ما قبل التاريخ، دار المستقبل، دمشق1986-.1987

6- يوهارد برينتس، نشوء الحضارات القديمة، ترجمة جبرائيل يوسف كباس، دار الأبجدية، دمشق، ،1989 الطبعة الأولى.

7- القاموس الكلداني للمطران يعقوب أوجين منّا.

8- المسعودي، أخبار الزمان، دار الأندلس، بيروت.

9- تاريخ الطبري المعروف بـ «تاريخ الأمم والملوك»، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت .1983

10- ناجيّة مّراني، مفاهيم صابئية مندائية، تاريخ، دين، لغة، شركة التايمز للطبع والنشر، بغداد، .1961

11- ل. ديلابورث، بلاد ما بين النهرين، الحضارتين البابلية والأشورية، ترجمة محرّم كانل، مكتبة الأداب، القاهرة.

12- جيمس بريستد، العصور القديمة، ترجمة داود قربان. مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، .1983

13- أندريه إيمار وجانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الثانية، .1968

14- هنري فرنكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل خوري منشورات دار مكتبة الحياة.

15- تاريخ هيرودوتس الشهير، ترجمة حبيب أفندي بسترس، مطبعة القديس جورجيوس، بيروت 1886 - 1887.

16- أعمال لقيان السميساطي المفكر السوري الساخر في القرن الثاني الميلادي.

17- فيليب حتي، تاريخ سوريا ومن ضمنها لبنان وفلسطين. ترجمة جورج حداد وعبدالكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1982. الجزء الأول.

18- فريدريك ديليتش، بابل والكتاب المقدس، ترجمة إيرينا داود، العربي للطباعة والنشر.

19- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر.

20- بيبيرروسي، مدينة إيزيس - التاريخ الحقيقي للعرب، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق، 1980، ترجمة فريد جحا، الطبعة الأولى.

21- أ.ر. جارني، الحثيون، ترجمة محمد عبد القادر محمد، مطبوعات البلاغ.

22- هـ.د. كيتو. الإغريق، ترجمة عبد الرزاق يسري، دار الفكر العربي، 1962.

23- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، دار الفكر، الجزء الأول.

24- علي نور، أريستوفانس.

25- جاك كوفان، ديانات العصر الحجري الحديث في سوريا، ترجمة سلطان محيسن، دار دمشق.

26- أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم 1- المركز، دار الكاتب العربي، دمشق، 1994 الطبعة الثانية.

27- النصوص الفينيقية في قره تبه، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1885.

28- يوسف الحوراني، نظرية التكوين الفينيقية وآثارها في حضارة الإغريق.

29- هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، دار الفن، 1966.

30- أدولف إيرمان، ديانة مصر القديمة، مطبعة مصطفى البابي الجلبي بمصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري.

31- معن عرب، صور حاضرة فينقيا، دار المشرق، بيروت.
32 - مسيرة الخير الشرقية، وزارة الإعلام العمانية.
33- ديودور الصقلي.
34- سترابون.
35- نونوس، الأدونيسيات.
36- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، دار الهدى الوطنية، بيروت.
37- جود فري تورتون، أميرات سوريات حكمن روما، ترجمة خالد عيسى وأحمد سبانو، منشورات دار علاء الدين، دمشق.
38- جان بابليون، إمبراطورات سوريات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطورية الرومانية، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة، دمشق.
39- ثوركيلد جاكوبسون، الديمقراطية الأولى في ما بين النهرين القديم، مجلة دراسات الشرق الأدنى، عدد 2عام 1942.
40- أوفيد «التحولات» المترجم إلى العربية تحت اسم «مسخ الكائنات».
41- فرجيل، الإنيادا.
42- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته.
43- لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان.
44- برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة 1949.
45- جاك كوفان، «الوحدة الحضارية في بلاد الشام»، ترجمة قاسم طوير، مطبعة سوريا، دمشق، 1984.
46- أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام.
47- فوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة عباس بيومي بك، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1950.
48- عبد اللطيف أحمد علي، المكتبة التاريخية،مصادر التاريخ اليوناني، بيروت، 1972.
49- ثروت عكاشة، الإغريق بين الأسطورة والإبداع.

50- الدكتورة إيفلين كلنيكل - براندت، رحلة إلى بلاد بابل، ترجمة زهدي الداوودي، دار الجليل.
51- أندريه بارو، ماري، ترجمة رباح نفاخ، دمشق، .1979
52- صموئيل كريمر، إينانا ودوموزي، طقوس الجنس المقدسة عند السومريين، ترجمة نهاد خياط.
53- الكسندر كرافتشوك، الوثنية والمسيحية، ترجمة إيرينا كبرو لحدو، دمشق، ،1996 دار الحصاد، الطبعة الأولى.
54- إميل إده، الفينيقيون واكتشاف أمريكا، دار النهار للنشر، بيروت.
55- مجلة «الشرق» سان باولو، 15 أيلول .1928
56- فرانس ألتهايم، إله الشمس الحمصي، ترجمة إيرينا داوود، دار المنارة، سوريا.
57- بيير شوفان، أواخر الوثنيين، ترجمة سلمان حرفوش، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق .1987
58- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبا، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثامنة، .1993
59- موسكاتي، تاريخ وحضارة الشعوب السامية.
60- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الجلبي وشركاه.
61- إيفانز، هيرودوت.
62- محمود السعدني،الحضارة الهيلينية، الجزء الأول، دار الثقافة، القاهرة، 1990-1991.
63- جان بيار فرنان، أصول الفكر اليوناني، ترجمة سليم حداد، بيروت، .1987
64- معجم الأساطير اليونانية - الرومانية، ترجمة وإعداد سهيل عثمان، وعبد الرزاق الأصفر.
65- يولي تسيركين، الحضارة الفينيقية في إسبانية، ترجمة يوسف أبي فاضل، الطبعة الأولى، بيروت، .1988

66- صحيفة تشرين السورية.
67- أنطون مورتغات، تموز، عقيدة الخلود والتقمص في فن الشرق القديم، ترجمة توفيق سلمان، دمشق، دار المجد، 1985.
68- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة 1983.
69- مفيد رائق العابد، سوريا في عصر السلوقيين، دار شمأل، دمشق، 1993.
70- صموئيل كريمر، أصل المجتمعات المتحضرة، ترجمة لمعي المطيعي، الدار القومية للطباعة والنشر.
71- ثوركيلد جاكوبسون، الصراع المزعوم بين السومريين والساميين في تاريخ ما بين النهرين القديم، مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية، عدد 59، عام 1939.
72- سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي. بيروت.
73- ثوركيلد جاكوبسون، الأصول البشرية، دراسة تمهيدية عامة في الأنتروبولوجيا، سلسلة القراءات المختارة رقم 2 شيكاغو 1946.



المراجع الأجنبية

(1) Cyrus H, Gordon, Ugaretic Hand Book,Rome, 1998, P.142.

(2) Clemen,die Puenikich,Religion Nacle Philouon by Blos,heipzing,1939.

(3) Greek Anthology,BK. vll.

(4) Moscati, Ancient Semetic Civilization , London, 1957.

(5) Giward, Greek Mythology.

(6) De Touron, lesPheniciens aile d haiti et Osur le continent Americain,Louvain.

(7) Cf, Leonard. Woolley, A Forgotten Kingdom, London, 1953.

(8) Andre Parrot,Mission Archeologique de Mari, II Paris, 1958.

(9) Charles Redsuan, The Rise of Civilization.

(10) J. Caurin, Religions Newlitiques.

(11) Shapiro, Hendrichs, A dictionary of Mythology.

(12) Carl. W. Bishob, The Beginning of Civilization in Eastern Asia, Journal of The American Oriental Society. 1939.

(13) Arthur E. R. Boak, A History of RomeTo 565 a.d. rev. ed (New Yourk, 1930)

(14) Gsell, Hist, Ancienne.

(15) Cf. Santo Mazzarino, Fra Orientee Occidente, Ricerche di Storia Grecia Arcaica, Firenze, 1947.

(16) Plotarch,Isis et Osiris.

(17) C.Autran, Pheniciens Paris.

(18) F- Bradel, The Mediterranians and the Mediterranian World, (Eng. Tr. from France 2 nd ed.) London.

(19) Bulletin, American Schools of Oriental Research .

(20) Couvin, Taques, Religions New Lytique,Centre de Recheaches d Ecologie et de pre histoire, Paris, 1972.

(21) Cauvin,Taques, Les Primiers Villages se Syrie - Palestine Maison de l Orient, Lyon, 1978.

(22) James Frazer, The Golden Bough, New Yourk, 1971.

(23) H.R. Hall, The Ancient History of the Near East , New Youk.

(24) S.Krawer, History Begins Sumer Double day, New York, 1959.

(25) S.N.Kramer, Sumerian Mythology Harper and Rave, New Yourk, 1961.

(26) Moor, Andrew, North Syria in Newlythic in Prehistoire de Levant , CNRS, Paris, 1981.

(27) O. Maspero, Dawn of Civilization

(28) Piere Mantet, les Reliapes de L Art Syrians dams L Egypt de Nouvel Empire, Paris, 1937.

(29) Leuis B. Patan, The Early History of Syria and Palestine , New Yourk.

(30) R.B.Smith, Carthage and the Carthaginians .

(31) Pierre Rossi, La cite d Isis, Histoire Vraie des Arabes , Nouvelles Edetion latines, Paris, 1976.

فهرس

القســـم الأول

الفصل الأول

I

سوريا والسوريون

....

II

آسيا الصغرى

III

الفصل الثاني

قانون «الجدل بين الداخل والخارج» وتجلياته

الفصل الثالث

السوريون في ضوء علوم الإنسان (الانتروبولوجيا)

القســـم الثانـــي

الفصل الأول

ظاهرة الانتشار الحضاري السوري في الغرب

أ-الانتشار الطبيعي

الفصل الثاني
ب- الانتشار الفراري أو «الإغريقي»

الفصل الثالث

انهيار الدولة السورية وظهور الفرس

القسم الثالث

الفصل الأول

«المتحدون» السوريون

والصراع ضد الاحتلال الفارسي والتحرير 585

الفصل الثاني

تحرير الوطن السوري

وحقيقة اسكندر بن فيليب 615

تصويب

1. كلمات:

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
154	12	eotrot	teotro
	18	hteoria	theoria
158	3	hipnogrit	hippogrit
169	21	شغي	taino
177	7	ر، ش، ت	ق، ر، ش، ت
390	15	هاليكونو	هاليكرنو
455	5	ذفة	pater
481	2	ذفة	pater
490	8	سمي ف كوفي	Seisa Chthaia
499	22	ذقف	hmara

2. هوامش:

الصفحة	الصحيح
423	(1) المرجع نفسه، ص 117 (2) المرجع نفسه، ص 112 .
596	(1) كيتو، المرجع السابق، ص 131 - 132 . (2) المرجع نفسه.
	(3) إيمار، المرجع السابق، ص 359 .
602	(1) تاريخ هيرودوت الشهير، الكتاب السابع ،140 ص 484 .
	(2) المصدر نفسه، الكتاب الثامن، ،305 ص 509 . (3) المصدر نفسه، ص 518 .
623	(2) المرجع نفسه.
624	(1) محمود فهمي، تاريخ اليونان، ص 236 . (2) المرجع نفسه.
651	(2) بريستد، المرجع السابق، ص 478 .

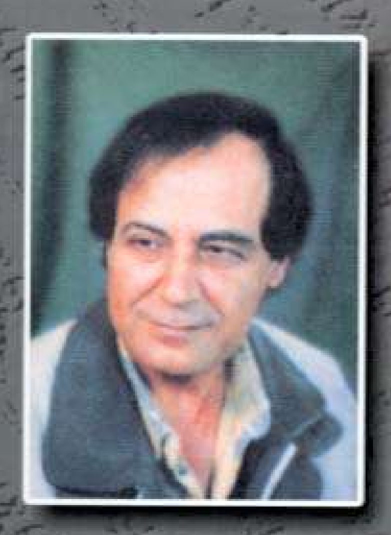
3. أسطر مكررة:

صفحة: 406 الأسطر من 1 - 7 .

صفحة 645 الأسطر من 1 - 6 .

4. في الفهرس:

الصفحة	الصحيح
693	1- أصل التسمية 53
	2- الأصل السكاني 53
694	1- شروط نشوء الحضارة 121
	2- شبه جزيرة المورة
	الجغرافيا والمناخ 121



Dr AHMAD DAOUD

The history of ancient syrian civilization - 2

A- The civilizing syrian spread in :
Aegean islands , Cyprus , Crete , Sicily ,
South of Italy , Black sea Basin ,
Al-mora .

B- The real history of greeks .



Nabil toumah